

نهى طلبة
صابرين الديب
رواية
امرأة
بدل فاقد

امرأة بدل فاقد

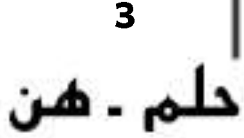
رواية



بقلم

نهى طلبة

صابرين الديب



تصميم غلاف وداخلي

صابرين الديب

تنسيق

نهى طلبة

جروب حلم-هن

ولنا مع الحرف حلم..

للانضمام للحلم

جروب حلم-هن



نظرة

نقدم لكم حكايا عادية..

بل تقليدية..

مجموعة متشابكة من علاقات وحكايات بقدر تداولها واعتياديتها الروتينية.. بقدرما نعدكم أن تُطرح بمعالجة وأسلوب متفرد..

لطالما آمنت بأن الأفكار لابد وأن تتكرر..

فلنكن واقعيين لن نخرق الأرض لتنبت أفكارًا وكذلك لن نخترق السماء..

تتدوال الأفكار حتى تكاد تصبح مكررة..

ولكن..

لنضع تحت حرف الاستدراك ذاك ألف خط..

لكن المعالجة الفريدة..

الطرح المختلف..

اقتحام الأبواب المغلقة خلف أفكار تقليدية هو ما نعدكم بتقديمه بين هذه السطور..



امرأة بدل فاقد

في دنيا الرجال

الأنثى هي كل شيء..

كل ساعة ودقيقة ولحظة..

خادمة النهارومتعة الليل!

أرض خصبة تحمل بذوره وتمتد بها جذوره

حضن وسكن.. وربما مبرر لقرارات لا تتسم بالعشوائية..

في دنيا الرجال..

المرأة وأي امرأة..

قد تكون

كل شيء

وقد تكون

بدل فاقد!!



مقدمة

قد لا تكون هي من اختار، لكن هدوءً ما يتسلل لنفسه، يخبره براحة يركن إليها، يحتاجها وربما رغم كل شيء هي الأفضل..

مد يده بتردد يحتوي كفها بين أنامله الدافئة، ارتبكت وأصابتها رعشة طفيفة، سحبتها تفركها مع الأخرى فوق ساقيها ليبتسم محاولًا خلق جوٍ مرحٍ في الغالب لا يليق به:

- أنا جوزك على فكرة!

***

راقب دخولهما المتقارب بحنق تسرب لفكره دون سبب محدد!!..

هي تضاحكه وتخصه ببسمة ناعمة ولمعة عينين لا تروق له..

الآخر مدلل لا يكترث أو يبالي به إلا لأجل ابنة أخته.. لكن ذاك؛ هي اختارت الجواد الرابح بالفعل..

استوقفهما بسخرية لا يعلم أهي جادة أم افتعلها لمداراة غضبه:

- واضح إنك عرفتِ مين الكارت الكسبان!

***

تبًا له.. لن يضغط عليها أكثر، لن يلعب على مشاعر تتمكن من دواخلها وكيانها كله..

هتفت بزعيق كأنما تلغي عن عقلها كل فكرة تروٍّ يحثها عليها:

- هو ده اللي عندي.. ولو مش عاجبك..

وارتجفت عيناها رغمًا عنها:

- اتجوز يا أخي وريحني من القرف ده.

***

اندفاع الباب العنيف نفضها من مكانها بفزعٍ، التفتت نحوه لتجده ينظر إليها باستهتار مشمئز، يجوب بعينيه فوق جسدها الرطب في غضب لا تعلم له سببًا:

- فين الغدا يا هانم؟!.. واقفة لي قدام المراية ليل نهار على إيه مش فاهم!

وتقدم خطوة وازت ازدياد انعقاد حاجبيه المنعقدين على الدوام كأنما هي خِلقته:

- أنا مش هينضحك عليا بحركات الستات دي..

وخطوة أخرى مع كلمات كالرصاص اعتادها لسانه:

- أنا مش زي أخويا.. أنتِ هنا خدامة وبس..

ورمقها بنظرة محتقرة تبعتها إشارته بإصبعه للفراش خلفها:

- وخدماتك هنا..

ومال رأسه تجاهها بقسوة ملأت مقلتيه:

- مش مطلوبة!

***

عن ماذا يخبرها!!.. بأي مبررات يشرح موقفه الذي ذبحها وهي من عشقت.. صبرت.. داوت جروحه بل وكانت إلى جواره مهما كانت العثرات..

وجعها أصبح جليًا في نبرتها وهي تناظره بضعف لم يتسلل لصوتها الذي يبحث عن بقايا قوة يتعلق بها حفظًا لكرامته:

- وأنت كده بقيت راجل!!

وكانت تسأل.. لا، بل تقرر وتثبت وتنهي:

- أنت ندل.. جبان.

وختمت بصراخ شارفت معه أنفاسها على الانحباس خارج صدرها المطعون بغدر:

- أنت حتى ما قدرتش تواجه!

***

كانت تبكي وهو يزعق.. لا تذكر عدد المرات التي سالت فيها دموعها بسببه، وهذه المرة مختلفة.. تخطت كل الحدود، تعدت كل وجع سابق، ومن يدري ما التالي!!..

نظرت إليه بلوم، عاتبته بصمتها وهو تجاهل..

نصَّب نفسه قاضيًا وحكم عليها بالألم، بنبرة باكية سألته بينما لاتزال على حالتها من عدم الفهم:

- أنا مش فاهمة أنت بتعمل كده ليه!!

وترددت كأنها تخشى الجواب:

- هو ده مش بيتي برده؟

وصرخ بغلظة دون أن يعي مدى قسوة رده:

- لأ!..



الفصل الأول

البدايات!..

كلمة ممطوطة بقدر حروف المد بها، بقدر عشوائية تخيلها وبقدر تعدد تفسيراتها..

البداية.. قد تكون صرخة وليد اقتحمت رئتيه أنفاس الميلاد.. أو خطوات مترددة لطفل ببداية تعرفه على درب الحياة.. قد يكون فرحة طالب بنتيجة تمناها وسهر ليصل إلى مكانة أرادها وخطط من أجلها.. وأخيراً قد تكون ليلة يتمناها الكثيرون ويخشاها الأكثر.. ولكن هناك القلة من تحمل مشاعر متناقضة لليلة الزفاف..

ليلة تكلل نهاية علاقة عشق أو ربما تعود.. وقد تكون فقط.. نهاية لعلاقة تقليدية هادئة..

وبتلك الليلة بالذات بأحد شوارع الحي الأشهر بالقاهرة _حي باب اللوق_ كانت تلك الليلة المنتظرة بالفعل.. لم تكن ليلة عادية أو معتادة بأي حال.. فمتى يحتفل شارع البستان بزفاف اثنين من أبنائه!.. صديقان حميمان



طالما تشاركا الكثير.. ولكن لم يدُر بخلد أيهما أن يتشاركا ليلة العمر.. بتلك الطريقة المتفردة..

مبنيان متقابلان.. يعبران بوضوح عن روعة العمارة التقليدية القديمة بالقاهرة.. الأول قد غطته المصابيح الصغيرة الملونة.. بداية من سطح البناية وحتى مدخلها.. وتكاثفت الأنوار أمام شرفة بعينها كإعلان صريح عن بيت العريس المنتظر.. حيث تراصت عشرات الفتيات يراقبن السرادق الكبير والذي تلألأت أنواره وتعالت منه أصوات الموسيقى والأغاني الشعبية المنتشرة.. وتناثر الأطفال والشباب يتسابقون بتلك الرقصات الشعبية والمسماة بالمهرجانات..

وبتلك اللحظة تعالت الزغاريد وأصوات التهنئة معلنة عقد قرآن المحاسب/ صلاح عتمان على جارته بالشقة المقابلة لشقة أمه..

الآنسة/ بسمة جمال...

تلقى العريس الجديد التهنئة ممن حوله بنظرات مرتبكة تائهة.. بينما يشد على كتفه بمؤازرة وتهنئة زوج شقيقته وابن عمه نبيل هامسًا:

- العروسة لسه ما خلصتش.. حبيبة قالت لي نص ساعة كمان..



أومأ صلاح برأسه وهو يتلقى سيلًا آخر من التهنئات.. بينما اخترق الجموع شاب يماثله بالعمر والطول وإن اختلفت ملامح صلاح الوسيمة بهدوء عن ملامح صديقه الداكنة بشراسة..

اقترب مهنئًا وهامسًا ببضعة كلمات بأذنه فحرك صلاح رأسه موافقًا بينما انسحب صديقه بسرعة...

والصديق هنا لم يكن سوى حمزة.. العريس الآخر بتلك الليلة والذي توجه للمبنى المقابل لمنزل صلاح.. وإن كان بيت الأخير قد اختفت معالمه خلف أضواء الاحتفال.. فبيت حمزة.. أو بالأصح المنزل المملوك لوالد حمزة الحاج سلامة سند_تاجر الملابس الجاهزة ذائع الصيت_ كان يرفل بصمت عقيم..

توجه حمزة من فوره إلى شقة والده ليجده جالسًا بتبرم وقد جاوره صديقه وشريكه بالتجارة الحاج إسماعيل الريس ومن الجهة الأخرى يجلس المأذون يُعِد دفتره ويدون بعض البيانات المطلوبة..

لمحه والده على الفور فهتف به:

- حمزة.. يلا يا بني عايزين نخلص..

جلس حمزة صامتًا بجوار المأذون بينما ارتفع صوت والده مرة أخرى مناديًا:

- إيهاب.. يا إيهاب...

سارع شاب يبدو ببداية عشريناته وإن منحه جسده الضخم عمرًا أكبر بتلبية نداء زوج خالته الذي أخبره بهدوء:

- إيهاب يا بني.. خد عمك إسماعيل وهاتوا الوكالة من أختك..

هز إيهاب رأسه رفضًا:

- معلش يا حاج.. أنا مش هينفع أشهد على العقد ده..

رمقه حمزة بضيق بينما بادله إيهاب بنظرة مستنكرة.. وقبل أن يعرب الحاج سلامة عن غضبه سارع صديقه بتهدئة الوضع هامسًا له:

- خلاص يا حاج.. أنا وعمرو ابني هنكون الشهود.. بلاش تكبر الموضوع.. هكلمه يطلع من الصوان تحت حالًا..

ابتلع سلامة غصته بصعوبة وهو يهز رأسه بامتنان لصديق عمره متمتمًا:

- سيب عمرو مع الشباب.. علي جوز بنتي موجود..

ورفع هاتفه ليتصل بزوج ابنته ويستدعيه على الفور....

تم العقد بوجوم.. أعقبه صمت تام لم يقطعه إلا رنين هاتف حمزة الذي أجاب بآلية على استدعاء صلاح له:

- خمس دقايق وهكون عندك..

أغلق هاتفه والتفت لوالده بملامح مكفهرة:

- تؤمر بحاجة تانية يا حاج؟

سأله والده بحزم:

- مش هتدخل تبارك لعروستك؟..

التمعت عيناه بقسوة خالصة وغضب مستعر وهو يجيبه بسهولة:

- آه طبعًا.. لازم أبارك لها.. واجب برضوه..

أنهى جملته وتحرك بسرعة محددًا هدفه بدقة؛ غرفة سمية ابنة خالته سابقًا.. زوجته حاليًا..

دلف للغرفة بقوة لتنتفض المتكومة على زاوية الفراش بفزع بدا واضحًا بعينيها اللتين رفعتهما نحوه بذعر ليقترب منها بسرعة، يجرها من مرفقها فتتمالك توازنها بالكاد وهي تسمع فحيحه الغاضب:

- مبروك يا مدام.. خلاص الكتاب اتكتب..

رمقته بذهول صامت.. هي تعلم ذلك بالفعل.. ألم توقع على الدفتر منذ دقائق!..

حاولت استخراج أي جملة.. كلمة.. حتى ولو حرفًا واحدًا ولكنها عجزت.. ظلت تحملق به بجمود.. عيناها بسواد ليل بلا نهاية تخفيان ما يجول

بعقلها وجسدها الضئيل يرتعد برجفة لم تستطع السيطرة عليها وهي تستمع لهمسه الحازم:

- ما تخرجيش بره باب الأوضة دي.. هتقعدي هنا ما تتحركيش من مكانك لحد ما أخلص فرح صلاح وأرجع عشان نطلع شقتنا.. مفهوم؟

ارتفعت نبرته مع الكلمة الأخيرة لينتفض جسدها برجفة اشتدت وتحولت لشبه قفزة متقهقرة وهو يعيد الكلمة بشبه صراخ:

- مفهووووم؟!

رمشت بجفنيها بسرعة شديدة وهي تحرك رأسها بسرعة دليل على فهمها لكلماته.. لاحظ حركتها الوجلة..

سحب قبضته ليسقط ذراعها بجوارها ورأسها مازال مطأطئًا لأسفل..

لم تحاول رفعه أو مواجهته والرد عليه.. فقط ظلت هكذا واقفة بصمت خاضع بينما نظراته كانت تشتعل بغضب عجزعن السيطرة عليه ولكن جمودها التام أوقفه عن تنفيس ذلك الغضب بوجهها...

***

حاولت حبيبة إنهاء اللمسات الأخيرة لزينة العروس.. صديقة عمرها وزوجة شقيقها المستقبلية، ولكن بسمة كانت ترتجف مع كل لمسة من حبيبة لوجهها... لتتنهدالأخيرة بحنق:

- بسمة..اثبتي شوية الله يكرمك.. مش عارفة أظبط الميك آب..

فركت بسمة كفيها بتوتر.. توتر مشروع يصاحب كل عروس بليلة زفافها.. توتريحق لها أضعافه وهي تخطو بخطوات عمياء لعلاقة زوجية تخشاها وتريدها بآنٍ واحد..

أزاحت بسمة يدا حبيبة وهي تنهض واقفة ليبدو ثوب زفافها واضحًا للعيان.. كان ثوبًا مختلفًا ككل شيء بزيجتها، فلم تختره شاهق البياض كعادة أي عروس.. بل اختارته بلون حبيبات السكر الخشن.. يتمسك قماشه من خامة الجوبير المطرز بكتفيها وملتصقًا بحنايا جسدها حتى ما بعد ركبتيها ليتسع بعدها في قصة واسعة.. حتى أسفل قدميها فيتسع أكثر وأكثرولكن ليس بصورة باذخة.. فقط ثوب هادئ رقيق يليق بملامحها الرقيقة..

عيون بلون العسل وخصلات تماثلها إن لم تكن أكثر دُكنة.. وقامة قصيرة ولكنها تظهر أنوثة بادية للعيان وخاصة بثوبها الملتصق بجذعها..



أخذت حبيبة ترمق تحركات زوجة شقيقها المستقبلية.. وهي تذرع الغرفة بتوتروقلق.. قبل أن تلتفت لها متسائلة:

- حبيبة.. أنا خايفة قوي.. خايفة ومتوترة.. وماما زي ما أنتِ عارفة ما قالتليش حاجة..

برقت عينا حبيبة بالحيرة لبضع لحظات.. ثم سرعان ما استوعبت ماهية المخاوف التي تسبب الرجفة لجسد بسمة الصغير.. صمتت للحظات حائرة بم تجبها ثم أجلت صوتها قليلًا:

- بسمة حبيبتي.. ما تخافيش.. صلاح طيب.. ما تقلقيش منه.. عمره ما هيأذيكِ..

رفعت بسمة نظراتها لحبيبة بحيرة.. تلك لم تكن الاجابة التي تنشدها.. وخجلها يمنعها من السؤال أكثر.. هي تعلم بطيبة صلاح.. وهل كانت توافق عليه لولم تدرك كنه الإنسان الذي سيكون أقرب لها من والديها!!.. لكنها..

لكنها فقط عروس.. عروس وتمتلك مخاوفها الخاصة..

أخيرًا هتفت بسمة بما يعتمل بقلبها:

- كل اللي باتمناه من ربنا أن صلاح يحبني ربع الحب اللي بيحبهولك نبيل..



ارتد جسد حبيبة للخلف ولكنها أخفت ردة فعلها بافتعال تعثر بطرف البساط وذكرياتها تندفع بقوة لتتجسد أمام عينيها..

ذكرى ليلة مماثلة.. وخوف مماثل وإن كان مليئًا بالترقب والإثارة..

ذكرى همسات عاشقة أذابت عقلها قبل قلبها ونظرات تكاد تنطق بحكايا عشق وقصائد غرام ملتهب..

ذكرى ليلة تمنتها لسنوات واحتفظت بأمنيتها ككنز خفي بين ضلوعها.. فرحة لم تستطع عيناها أن تخفياها رغم حيائها لكن سعادتها تخطت ليلتها أي خجل مفترض..

كانت حية وسعيدة.. حالمة وعاشقة.. مليئة بالحياة والإثارة..

الإثارة التي وصلت لذروتها لتخمد فجأة..

بل تمُت تمامًا.. ولا تعرف حتى الآن لمَ!..

أخرجتها صيحة بسمة القلقة من شرودها:

- حبيبة.. أنتِ روحتِ فين؟.. أنا هتجنن من القلق وأنتِ سرحانة!..

جذبتها حبيبة بلطف لتجلسها على مقعدها أمام المرآة وهي تثبتها بحزم:

- اقعدي واحنا نخلص.. وكل أسئلتك هتلاقي لها إجابة بعد كام ساعة..



ابتسمت لها بسمة بالمرآة بتشوش لتهتف حبيبة وهي تفتعل مرحًا لا تشعر بذرة منه:

- وكل اللي أنتِ مش عارفاه.. هيبقى يعرفهولك أخويا الهمام على انفراد!

أنهت جملتها بغمزة سريعة دفعت بالدماء لوجنتي بسمة التي شهقت بذعر:

- يا ربي!.. أنا مش مصدقة أني مش هبيت في بيتنا النهاردة.. إيه اللي أنا عملته في نفسي ده!..

لترفع حبيبة عينيها للأعلى هاتفة بتعجب:

- ارحمني يا رب.. دي لسه واخدة بالها دلوقتِ..

تبادلتا نظرة متفاهمة أعادتهما لعبث مراهقتهما القديم قبل أن تطلقا ضحكة مشتركة وإن كانت مليئة بالتوتر...

***

وبشرفة شقتها التي تقع أسفل شقة والدها الحاج سلامة وقفت ريم بشرود تراقب طقوس الزفاف المقام بسرادق كبير أمام منزلها.. وعيناها تبحثان بلهفة عنه..



لمحت بسمة المتوترة على الدوام وهي جالسة بمقعدها في "الكوشة" المزينة بالورود والمصابيح الصغيرة وبجوارها كان صلاح تمسك كفه بأناملها بآلية وعيناه تسبحان بشرود في عالم آخر..

لا تعلم كيف يمكنه الشرود وسط ذلك الصخب والضجيج؛ الموسيقى العالية، الشباب الراقص، عشرات المهنئين يمرون عليه فيمد يده بآلية رتيبة وتردد شفتاه بضعة كلمات يبدو أنه يكررهم بلا عقل..

قطبت حاجبيها وقلق مبهم يهاجم قلبها فيقبضه مسببًا ضيقًا لا معنى له وهي تفكر بالليلة التي تنتظر صديقتها وجارة العمر..

هي تعلم بتعلق بسمة بصلاح.. تعلق زاد بعد الخطبة وربما تطور ليصبح عشقًا.. ولكن.. هو..

هل يعشقها بدوره؟.. هل يبادلها ولو تعلقًا بسيطًا بها!..

ووسط صخب أفكارها لمحته بقامته الفارهة وعرض كتفيه الذي يميزه عن الجميع..

تابعته عيناها بوله وهي تراقب كل حركة تصدر منه لتتسع ابتسامتها بينما تراه يجذب صلاح من وسط شروده ليتشاركا معًا رقصة مجنونة ذات حركات خرقاء ولكنها دفعت بضحكة عاشقة من بين شفتيها ونظراتها تثابر لتتشابك مع نظرات عينيه ذات اللون العسلي المائل للخضرة..

وتلاقت النظرات لتتورد وجنتيها وهي ترى غمزته المتلاعبة ولون عينيه يتحول سريعًا للأخضر اللامع ملقيًا لها بنظرة عشق حارة ومنهيًا الرقصة المجنونة بسرعة أكبر ليسلم دفة العريس الشارد إلى صديقهما المشترك الذي لم يكن سوى شقيقها الأكبر حمزة..

وتبدأ وصلة من الرقص شاركتهم بها تلك المرة العروس المتوترة ومعها حبيبة شقيقة صلاح وزوجها نبيل..

أنهى عليّ رقصته الصاخبة بعد نظرة خاطفة تبادلها وزوجته لينطلق مسرعًا نحو شقتهما.. ويتسلل بخفة ليقف خلفها يراقبها..

يتأملها بعشق..

يلتهم كل تفصيلة بها بتوق عنيف بداية من قامتها الهيفاء الرشيقة ومنحنياتها الأنثوية الصارخة وهو خير من يدركها حتى خصلاتها بسواد الليل والتي يتعدى طولها نهاية خصرها..

كانت أيقونة لأنوثة قاتلة تفتك بكل ذرة برجولته وتودي بها صريعة عشق سمراء الريم.. كحيلة العينين..

خطى بصمت تام حتى أصبح خلفها تمامًا ليلفها بذراعيه ويضمها لصدره هامسًا:

- تعرفي أنك أحلى واحدة في الفرح ده!



تجمدت أوصالها بين ذراعيه تمامًا.. ولم يكن ذلك بفعل ظهوره المباغت.. فهي شعرت بوجوده منذ وطأ بقدميه أرض الشرفة.. رائحة عطره الممتزجة برائحته الخاصة نبهت حواسها على الفور واستعدت لهجومه العاطفي ولكنها بكل مرة تفشل في إخفاء تجمدها اللحظي بين ذراعيه والذي سرعان ما تحول لتخبط عاجز يائس للفرار من حصارهما حولها..

لتلتفت له بارتباك مذعور وكفيها تبعدان كتفيه وصدره هامسة:

- إحنا في البلكونة يا علي.. ابعد.. ابعد..

شعر ببرودة فعلها المألوفة وبأعماقه يدرك أن رفضها يتعدى وجودهما معًا بالشرفة المكشوفة.. ولكنه مررها لها لتنتهي تلك الليلة على خير.. وجاورها على سور الشرفة، هي تراقب المحتفلين بالزفاف وهو يراقبها.. امتدت أنامله لتتمسك بكفها برقة هامسًا:

- ما تعبتيش من الوقفة!.. تعالـ...

وقبل أن يكمل كلماته كانت تسحب يدها من بين كفيه سريعًا وهي تحاول التصرف بعفوية هاتفة:

- بص يا علي.. شوف اللي نزلت من العربية دي.. دي تقريبًا لارا بنت خالة حبيبة وصلاح.. يظهر أنها لسه واصلة حالًا.. معقولة تيجي من لبنان مخصوص عشان تحضر الفرح!..

تابع علي إشارتها ليلمح صاعقة شقراء تتهادى ببنطال جينز ضيق لم يصل طوله لكاحليها..

وقد ظهر بوضوح تمزق مهول عند ركبتيها وما تحتهما وما فوقهما أيضًا.. وتناغم مع البنطال قميص وردي ناعم ملتصق بحناياها يكاد يتمزق معلنًا بسعادة عما يخفيه خلفه.. طوحت خصلاتها الشقراء خلف ظهرها وهي ترتفع بقامتها المديدة فوق صندل وردي اللون شاهق الكعب تحاول الوصول إلى شخص تعرفه والذي تمثل بحبيبة المندفعة نحوها بصيحة سعادة غامرة..

بينما علي يتمتم بانبهار:

- أوبااا.. دي أجدع من هيفا وأفظع من دومينيك..

لكزته ريم في كتفه بقوة هاتفة بغيرة:

- على فكرة عادية جدًا..

اقترب منها بعينين عابثتين وهمس موحي:

- الجميل بيغير.. معقولة المهرة الأصيلة تغير من التقليد..

همست بغيظ:

- اضحك عليا بكلمتين ما هو أنا عبيطة أصلًا..

جذبها برفق:

- طيب بس تعالي أنا هشرحلك..

رمقته بنظرة غامضة لم يفهمها وهي تسحب يدها منه وتهتف متوجهة نحو الخارج:

- آجي فين بس يا علي.. وقتك ده.. أنا هنزل أسلم على لارا.. وبالمرة أودع بسمة شكل الزفة خلاص هتبتدي والفرح هيشطب..

رمقها بنظرة غاضبة قبل أن يختفي خلف باب غرفة نومه وهو يهتف بتحذير:

- ما تتأخريش بره...

أومأت لطَيفِهِ المختفي وهي تطلق عنان عشق نظراتها يرافقه بحزن غامض..

***

رمت لارا نفسها بين ذراعي حبيبة وهي تهتف بصوتها الرقيق المميز:

- اتأخرت موهيك!

لكزتها حبيبة في كتفها بمزح:

- لا هيك ولا بيك.. هوكام سنة قعدتيهم في لبنان هيعوجوا لسانك.. ارجعي لقواعدك يا بنت خالتي...

قهقهت لارا بمودة:

- خالتي وينـ...

قطعت كلمتها أمام سبابة حبيبة المحذرة لتمتم بنزق:

- يووه يا بيبا.. هتمسكي لي على الواحدة!.. فين خالتي؟..

لمعت عينا حبيبة بالضحك وهي تغمغم:

- كويس لسانك اتعدل اهوه.. خالتك فوق يا بنتي هي إيه اللي هيقعدها في وسط دوشة الشباب دي..

هزت لارا رأسها بيأس وهي تسألها:

- طيب ممكن أبارك لصلاح؟..

التفتت حبيبة نحو العروسين لتلمح استعدادهما للمغادرة فأسرعت بجذب لارا خلفها... بل جرتها جرًا وهي تكاد تركض لتلحق بشقيقها وعروسه هاتفة:

- صلاح.. يا صلاح..



التفت لها صلاح بعدما ساعد عروسه على التوقف والالتفات نحوها.. لتتهلل أساريره لرؤية ابنة خالته الصغيرة برفقة شقيقته.. وترتسم على وجهه ابتسامة ترحيب حارة سرعان ما محاها وهو يرمق عروسه بشك.. فربما تنتابها نوبة غيرة نسائية ولكنه للعجب وجد ملامحها تتهلل هي الأخرى وتلوح لابنة خالته بحماس مثير للعجب!

اقترب برأسه منها متسائلًا بذهول:

- أنتِ تعرفي لارا ولا إيه؟!

رفعت نظرات مترددة إليه وقد اختفى حماسها بالكامل وغرقت في موجة خجل عميقة وهي تهمس:

- أيوه طبعًا.. هي كانت بتقضي وقتها معايا أنا وحبيبة وريم قبل ما تسافر لبنان..

أومأ برأسه متفهمًا وقبل يتفوه بالمزيد وجد لارا أمامه وهي تحيط بسمة بذراعيها هاتفة:

- والله والله عروسة بتاخد العقل..

هتفت حبيبة محذرة:

- لارا!!..



لتقطب لارا حاجبيها بفتنة وتتوجه لصلاح هامسة بنزق:

- ابعد أختك من فوق راسي..

حياها صلاح بود وهي انطلقت تثرثر بتهنئة دافئة.. حينما قاطعتها حبيبة بتساؤل:

- لسه برضوه يا لارا ناوية تنفذي اللي في دماغك؟

هزت لارا رأسها بتصميم:

- طبعًا يا حبيبة ده حقي في ميراث بابا الله يرحمه.. واستحالة أتنازل عنه..

وافقها صلاح:

- عندك حق يا لارا.. أنا ما كنتش موافق أن خالتو درة تسيب لأهل والدك كل حاجة وترجع لبنان.. ده حقكوا وشرع ربنا..

ردت لارا:

- أنا هتحرك من الصبح.. معايا كل الورق ولو احتاجوا محامي هتصرف..

أخبرها صلاح بواقعية:

- لا يا لارا.. استني أسبوعين وأنا هاجي معاكِ.. و..

هزت لارا خصلاتها الشقراء بحسم:

- لا طبعًا أنت عريس.. وأنا ظبطت أموري وهكون في قطرستة إلا تلت اللي بيروح المنصورة.. قبل الضهر إن شاء الله هكون في بيت عيلة بابا.. عند ولاد أعمامي...

وبداخلها تكمل.."ومرات عمي!"

***

وقفت آية صغرى بنات الحاج سلامة سند بجوار شقيقها الأكبر حمزة وهي تودع العروسين وتساعد بسمة على الجلوس بسيارة الزفة فحبيبة وريم بدتا منهمكتين في تبادل الأخبار مع لارا ونسيتا العروس المسكينة والتي لحسن الحظ لم تكن ترتدي ثوب ذو طبقات متعددة.. بل كان راقيًا هادئًا بكلاسيكيته البسيطة مما جعل آية تهتف لبسمة بسعادة:

- مبروك يا بُسبُس.. فستانك وااااو.. سو كيوت يا بيبي...

ضحكت بسمة رغم توترها.. فآية قادرة على رسم الابتسامة بوجه حجر صوان:

- ميرسي يا يويو.. عقبالك يا قمر..

هتفت آية بشقاوة:

- منين بقى يا بُسبُس.. ما أنت لحقتِ آخر الرجال المحترمين..

ومع اتساع عيني صلاح وتورد وجه بسمة أكملت آية بعبث:

- ده مش حسد والله أبدًا أوعي تفهميني صح.. ده قر على خفيف كده..

جذبها حمزة بخفة من طرحتها الفضية الصغيرة والتي تلائم ثوبها الراقي هامسًا:

- كفاية رغي.. ارحمي لسانك وودان الناس.. واتفضلي روحي نادي على حبيبة عشان نبيل عايز يوصل العرسان..

قفزت آية وهي تهتف:

- آه صح وكمان هنادي على سمية تبارك لبسمة و..

قاطع جملتها حركة عنيفة من حمزة وهو يستوقفها آمرًا:

- بس عندك وقفي.. سمية مش رايحة في أي مكان.

سكنت آية عن الحركة تمامًا وهي تسمع تلك النبرة بصوت حمزة.. نبرة لا يستخدمها بكثرة ولكنه عندما يستخدمها تعلم أنه يجب عليها الابتعاد عن طريقه!..

هي على أية حال لم تكن تنوي معارضته فأحداث الليلة، بل أحداث الأسابيع السابقة كلها تشكل لغزًا عميقًا يعجز عقلها عن حله..

الليلة بالذات كانت محددة منذ شهور خلت لتكون ليلة يتشارك بها حمزة وصلاح أفراحهما.. فقط صلاح كان سيحتفل بزفافه وحمزة بعقد خطبته على أمنية.. ابنة خالتهم..

فما الذي قلب الحال لتتحول خطبة حمزة وأمنية إلى عقد قران صامت حد الموت بين حمزة وسمية..

شقيقة أمنية الوحيدة!..

***

انتهى حفل الزفاف ورحلت سيارة نبيل تحمل العروسين إلى شقتهما القريبة نوعًا ما.. وانفض الجمع كلٌ إلى منزله..

أنهى حمزة كافة المعاملات والترتيبات وجر قدميه جرًا ليتسلق درجات منزل والده..

لم يكن تعبه جسديًا بل كان روحيًا.. نفسيًا.. أعماقه تذبحه وجعًا.. وهو غير قادر حتى على الصراخ اعتراضًا وشكوى.. صمت حارق وقاتل تلبسه.. فلو تحرك لسانه لأحدث كارثة..

كارثة أوشكت على الوقوع وهو يصادف أمنية بمنتصف الدرج.. حيث وجدها تجلس بإحدى زواياه وتتكئ بجسدها على حافته ودموعها تتساقط بصمت.. تنتظره على ما يبدو..

رفعت عينين لائمتين نحوه هامسة:

- مبروك.. مبروك يا جوز أختي..

توقفت خطواته قبل أن يصل إليها عندما اخترقت جملتها مسامعه ليجمع كفه في قبضة غاضبة يلكم بها الجدار المجاور بغضب مشتعل وهو يبادلها همسها الحانق:

- لا يا أمنية.. لا.. ما تجيش عليا أنتِ كمان.. ما تدبحنيش..

هتفت بوجع:

- آجي عليك!.. أوجعك!!.. مين بيوجع مين يا بشمهندس؟.. مين بيوجع مين؟..

خفت صوتها وتقطعت حروفها بآخر كلماتها ودموعها تخنقها بغصة مريرة.. بينما هو يردد بخفوت وقبضته مازالت تضرب الجدار:

- سامحيني يا أمنية.. سامحيني يا حبيـ..

قطع كلمته وهو يضرب رأسه بالحائط تلك المرة.. فلم يعد من حقه منحها أي لقب تَحبُبي.. حتى تلك الجلسة المنفردة تعد بأحد الأعراف الملتوية خيانة..

خيانة للإنسانة التي دمرت حياتهم جميعًا..

تلك المرأة التي كان بإمكانها إنقاذهم من هوة يأس سحيقة واحتمالات خيانة متعددة.. فقط لو لم تكن بتلك الأنانية وانعدام الحس الذي سمح لها بسرقة خطيب شقيقتها الوحيدة ليصبح بين يوم وليلة زوجًا لها..

تلك اللعينة ابنة خالته وزوجته العتيدة..

سمية.. شقيقة حبيبته الوحيدة..

همس بخفوت:

- اطلعي الشقة يا أمنية.. قعدتك هنا ما تنفعش... اطلعي عشان خاطري اطلعي وكفاية دموع.. دموعك بتدبح يا أمنية..

مسحت دموعها وهي تحاول رفع نفسها بإجهاد لتتمكن أخيرًا من الوقوف على قدميها هامسة له قبل اختفائها:

- أمنية قلبها هو اللي اندبح يا حمزة..

اختفت من أمامه لتتركه غارقًا بموجات غضب وندم وكره عميق لتلك المدعوة سمية..

توعدها بينه وبين نفسه بحياة تضاهي سواد قلبها وثيابها..

الفصل الثاني

البدايات كلمة مصيرية!!..

قد نختار أول خطوة.. لكن الطريق التابع لها والسير فيه يصبح بعدها أمرًا قسريًا بحتًا كمن وقع في فخ لا فكاك منه حتى النهاية التي رُسمت لنا مسبقًا..

هي عروس، متوترة.. خائفة، عاشقة.. وعلى قدر من الجهل ليس بجيد أبدًا، نعم تثق به، تطمئن له.. لكنها طبيعة كل أنثى وقائمة بمشاعر ومخاوف لابد من المرور بها في ليلة كهذه..

عندما انغلق الباب خلفهما وشعرت بسكونه وتوتره حال لحظة البداية امتلأت هي الأخرى بارتباك أرسل رعشة في أوصالها، سمعت خطواته المقتربة.. لمسة كفه الكبيرة فوق ظهرها بدفعة ليست بالقوية لكنها ليست بالرقيقة كذلك وهمسته السريعة التي لم تعِ نصف أحرفها:

- مبروك يا بسمة.

واستجابت لدفعته بخشوع، تحركت معه نحو غرفة النوم المعدة لاستقبالها، تأملتها للحظات قبل أن تشعر به يقربها منه فجأة..

يتمتم ببضع كلمات بعدما خلع سترته بل وتفاجأت بأزرار قميصه المفتوحة ليظهر صدره أمام ناظريها، تعانق جفناها بخجل ولم تجد الوقت لتبرر أو تتمنع أو حتى تتدلل!!

دقائق وتعرّت من ثوب زفافها، ثوان وتعرّت روحها بين يديه، لحظات سكون استسلمت خلالها لأفكاره التي تدور حول يقين تدركه هي، دون حرف.. دون همسة سوى أنفاسه العالية.. دون حتى لقاء أعين..

ودت لو حسبت الوقت أو حتى فقدت الوعي خلال اللحظات التي مرت، لكنها بعدها كانت ممددة في الفراش.. باكية، متوجعة وبأعماق قلبها أنينًا يتعالى بتباطؤ حتى أصم أذنيها..

داخلها يهتف ولسان حالها يردد بآنٍ واحد:

" كنت عارفة إني مش هاقدر أكون مكانها.."

نعم، لقد فشلت.. أعلنتها لنفسها جلية سافرة وصريحة حد الوجع..

حتى في هذه خسرت!!..

لم تستطع أن تكون بديلًا لها ولو محض صورة في خياله، استكانت لدموعها في صمت تراقب هروبه المتعجل نحو دورة المياه، تستمع لصوت القطرات الحادة السريعة وهي تتخيله يخلص نفسه من آثارها التي علقت به ولا يعلم أو حتى يكترث أنه هو من علق بكل خلية منها..

ثم خرج..

وبلا تردد أو لحظة تفكير كان يلتقط هاتفه ويغادر الغرفة، يستلقي فوق أريكة غرفة المعيشة بتشتت، يقلب في الهاتف متطلعًا لشاشته بمشاعر متضاربة..

أوضحها الحزن وأغلبها الذنب..

ومع تتابع الصور التي يستعيد بها الذكرى كانت عيناه تنكسران، انفراجة شفتيه المشتاقة تضمحل، وجفناه يتلامسان بتتابع قاس منعًا لدمعة غادرة تصر على أن تنال منهما هزيمة رغم حربه العنيفة ضدها.. حتى تمكن منه سلطان للنوم.

***

بداية أحدهم قد نراها نهايتنا نحن..

فبينما الآخرون ينقشون سطرًا جديدًا بسعادة، نمحو نحن سعادتنا ونرسم بدلًا منها الوجع والقهر..

قهر اختلط بإحساسٍ قاسٍ بالظلم والانكسار وملكية كانت من حقنا لكن تدخل القدر وتدخل آخرون لنفقدها دون وجه حق ولمن من رؤيانا الخاصة لا يستحق!!



نعم.. هي تراها لا تستحق، لقد سرقته منها في طرفة عين، لم تأبه لها، لمشاعر وُلدت منذ زمن بينهما، لقلبين تعلقا ببعضهما حتى أصبحت الحياة دون الآخر بلا طعم أو لون..

بلا نبض..

حيرة شديدة تتمكن من نفسها، من عقلها الغافل بعد فقدان من ملأ الكيان كله بعشقه.. حيرة امتزجت بتيه مرتبك ضائع، فعندما نفقد قدرتنا على تحليل المواقف بمنطقية، تتشتت أرواحنا في متاهات لا مخرج منها ولا دليل لها..

كيف أمكنها؟!..

هي شقيقتها الكبرى، من نالت من الدنيا الكثير قبلها، من حصلت على جائزتها الأفضل ثم طمعت فيما كان بين يديها، بل من كان مالك قلبها!!..

بكت بشدة، انتحبت وسالت دموعها كنهر أرهقه سد فيضه فحطمه وانطلق جاريًا علَّه يخفف الوجع أو يروي ظمأ حاجتها للراحة ولو كانت منقوصة..

تستند لكتفه العريض بوهن، تتشبث به كأنه من بقي ولا أحد بعده.. ويدعمها والمشاعر بداخله تتعارض بشراسة.. غضب اختلط بحزن وقسوة تظهر في الأفق تجبر قلبه على الانقباض:

- خلاص بقى يا أمنية.. كفاية دموع.

ابتعدت عنه تمسح وجنتيها ولا فائدة:

- ياريت الدموع كفاية يا إيهاب.. خلاص ما بقاش ليَّ.

وتراجعت برأسها للخلف تريحها بإنهاك امتلأت به نفسها:

- ما بقاش ينفع يكون ليَّ، اتحرم عليَّ لحد الموت.

وعادت تنشج والعبرات تغرق وجهها دون توقف:

- هي ليه عملت كده؟.. ليه أخدته مني؟!.. أذيتها في إيه عشان تكسر قلبي؟

وانهارت أكثر تصيح بقهر من لا يملك لما يوجعه دواء:

- بقى جوز أختي يا إيهاب، اتحرم عليَّ.

انحنى على ركبتيه أمامها بسرعة، يجذب رأسها فوق صدره، يربت على كتفها ويضمها إليه بحنو، لا يملك فعليا ما يمكنه القيام به، يشعر بعجز وقهر؛ أن يحرر قلبها من هوى من أحبت، أو يجعله من نصيبها فترتاح وتسعد..

ضمها بقوة استسلمت لها ولسانه يهمس بنبرة مشفقة:

- خلاص يا أمنية.. ده نصيبك وقدرك، كفاية دموع يا حبيبتي.

لكن ليت أمره يجدي!!..

وليت الدموع بالتمني بل هي تسلب نفوسنا في طريقها غلابًا.. تجبر أجفاننا وأهدابنا على الخضوع لإرداتها، والاستسلام لألم سالت بسببه، مسحت وجهها في صدره بتمتمة مذبوحة:

- مش قادرة يا إيهاب، قلبي واجعني..

وتراجعت تنظر إليه بعينين محمرتين:

- لأ..

ثم جففت وجنتيها بأناملها في ضعف تهدل له كتفاه، وأشعره بالانكسار:

- روحي كلها بتوجعني.. حاسة إني اندبحت.. مش قادرة أتخيله معاها..

ودارت رأسها بتشتت مرتبك تنظر حولها بعنف كأنها على وشك الجنون:

- في حضنها.. اتجوزته هي وأنا..!

وصرخت بأنين:

- أنا يا إيهاب.

جاورها فوق الأريكة بأنفاس مختنقة، عاد يجذبها بين ذراعيه بقوة، يمسد خصلاتها الناعمة ويأمرها بحزم عاجز بائس ويائس:

- كفاية يا أمنية أبوس إيدك.. ما توجعيش قلبي عليك وتحسسيني بالعجز أكتر من كده!

وربما اكتفت بالصمت.. أذعنت لطلبه بالسكون، استسلمت لقدر لم يكن بالحسبان.. لكن دموعها استعصت فهطلت دون صوت، لم تغادر ما بين ضلوعه، واكتفى هو بتربيتات حنونة متتالية يواسيها بها..

يواسي نصفه الآخر..

شقيقته الوحيدة بعدما حدث، توأمته التي يشعر بأوجاعها كأنها بقلبه هو!..

***

وللبدايات مذاق خاص لا ينمحي من الروح حتى لو وصلنا للنهاية أو استقرت بنا الأمور في خطها المستقيم..

هو يذكر بدايتهما جيدًا، ليلة عرسه.. فرحته وبهجة قلبه باجتماعه مع منى الفؤاد وحلمه الخاص، ليلة لا يمكن نسيانها رغم كل شيء ورغم مرور عام وأكثر بعدها..

عندما عادت للمنزل بعد رحيل شقيقها وعروسه لشقتهما بالطابق العلوي، وانتهى حفل الزفاف بضوضائه وزحامه استقبلها ببسمة مشاغبة وقلبه ينتفض بحب لا يملكه بداخله سواها، غمزها بعبث:

- وصلتِ العريس بيته واطمنتِ عليه!!

تظاهرت بعدم فهم، الهروب هو مسلك دائم لا غيره أمامها والادعاءات أصبحت هي السمة الأساسية وربما الوحيدة لكل تصرفاتها:

- أنا كنت مع بسمة.

اقترب، وكلما اقترب علَت نبضاتها، الفرار أضحى رغبة تدمي جسدها وكيانها كله، والصمت والكتمان أصبحا اعتيادًا روتينيًا لا مناص عنهما:

- وأنا كنت مستنيكِ..

وخطوة أخرى:

- كويس إنك ما اتأخرتيش.

وفي التالية كان يواجهها، يمد ذراعه يحيط بخصرها، يقربها منه بحميمية وينحني نحو عنقها بشفتيه:

- وحشتيني.

دفعته برفق متعجل:

- علي.. اليوم كان طويل قوي.

استجاب لدفعتها كأنما لم تعد تثير دهشته:

- تعالي أعملك مساج.. وأفكرك بشهر العسل بتاعنا لو نسيتيه.

وغمزها بوقاحة هذه المرة ثم عاد يحتضنها ثانية لتأتيه الدفعة أقوى:

- بجد تعبانة ومحتاجة أرتاح.

وتملصت تحاول الفكاك من أسر ذراعيه، لكنه تمسك بها محاولًا التغلب على جهدها بصبر:

- ما قلت لك.. هاداويكِ من أي تعب.

لكن صبرها هي نضب، وارتباكها ازداد ووصل للحد الأقصى بخروج عنيف من دائرة ضمته، ونبرة حادة زاجرة تعمدتها أوربما لم تفعل فهي اعتادتها:

- يوووه يا علي.. باقولك تعبانة.. عندي صداع، سيبني أرتاح.

واستجاب..

تركها بالفعل عاقدًا لجبينه بحنق ساخر مرير، وتمتمة ودع بها صورتها التي غابت عن ناظريه داخل غرفة نومهما:

- أنت عندك صداع من يوم ما اتجوزنا يا ريم!!

دمدمة لم تصل لسمعها، لكن قلبها شعر به وبغضبه وحزنه وتباعده التالي..

تظاهرت بالنوم، تسمع حفيف تحركاته ومجاورته لها بالفراش، جلوسه لدقيقة أو اثنتين كما هي عادته، تأمله الصامت لها كأنها تراه بعينين

بمؤخرة رأسها.. وربما خمنت ابتسامته اليائسة قبل أن ينزلق ويجذب الغطاء فوق رأسه متأففًا بخفوت تسمعه في كل مرة كما تتجاهله تمامًا..

فما باليد حيلة!!

***

البداية كلمة مبهمة مجهولة النسب!!..

فما يمثل للبعض المحطة الأولى، قد تكون هي الأخيرة عند آخروالسبب معلوم..

ونعم هو انتهى، كل آماله، أحلامه، طموحه، قلبه وعشقه.. انتهوا، وربما إلى الأبد، أوهوعلى يقين أنه أبد..

لقد تزوج!!

فرحة كل رجل واستقراره وسكنه، واحته الخاصة وامرأة تشاركه ما لم يشاركه إياه أحد من قبل، وبداية كل أنثى: أن تكون هي الملكة المتوجة على العرش.. عرش مملكتها الفريدة.. بيت جديد وقلب عاشق..

أما عنده: فهولم يسعد، وهي ليست ملكته أومعشوقته..

هي امرأة أكل عليها الدهر وشرب ثم ألقاها في وجهه ليحمل بقاياها حتى نهاية العمر، امرأة هي الأقرب لمن يريد قلبه في هذه الدنيا.. تتملكه هي وتُحرم عليه من يهوى..

وهذه بالفعل نهاية..

نهاية لن تمر بسلام، بل ستكون الأقسى، إن كانت تظن أنها قد نالت منه؛ فهي تعيش الهلاوس وعالمًا من خيال.. هو ليس كمن رحل، هو المناقض له في كل شيء، وهو من سيجعل حياتها قطعة من الجحيم مستبدلًا به دنيا أمنياتها التي دفعتها للقبول به..

عندما دلفت خلفه لشقتها القديمة، تطلعت لأركانها بارتباك.. لم تسكنها لوقت طويل لكنها تحمل لها من الذكريات الكثير.. ذكرى تربطها بآخر، آخر هو جزء ممن يقف أمامها الآن يطالعها بصمت مخيف.. لكن الموقف والحالة والمشاعر كلها مختلفة..

جمدت ساكنة، وناقوس صمته يقرع أذنيها بدوي مؤلم، تأملت أرجاء المكان.. لا تتعدى بعينيها مسافة مترين أبعد من مكان ثباتها، لا تعلم ماذا تفعل!!..

وهو لا ينطق، فقط يتأمل بوجوم كأنه لا يصدق أنه هنا في بيت أخيه مع امرأته التي أمست زوجته هو..

والمبادرة بسؤال من نصيبه، كرجل ومغدور يبحث عن جواب:

- ليه!!

وربما ألف علامة تعجب لا تكفي، الاستفهام غادر موقعه تاركًا لاستنكاره ودهشته الموقف برمته، وهي نظرت إليه في هدوء.. لا يدري شيئًا عما يدور بداخلها، لا يبحث عن شعور محدد بل فقط ردًا واضحًا وصريحًا لما سأل عنه.. وعندما أتاه؛ أصابه الجنون:

- عندي أسبابي.

بنبرة تقارب البرود.. الجمود، واللامبالاة.. وهو لم يكن ليحتمل، تقدم خطوة بصياح غاضب:

- أسبابك؟!

ولاحقته قدماه بخطوة أخرى أوسع من سابقتها وازت لهجته الساخطة باستهزاء مؤلم وبغمرة سخطه لم يلحظ تراجعها لخطوتين متعثرتين:

- ويا ترى هي برده نفس الأسباب اللي خليتك تتجوزي أخويا؟!

وتراجع مثلهما معًا وزاد فوقهما اثنتان أخريان، يدور حول نفسه بما يشبه الخبال، يتخبط بين جنبات الحيرة والمبررات انقطع السبيل إليها:

- هي نفس الأسباب اللي حرمتِ أختك مني وحرمتيني منها عشانها؟!

وتوقف لحظة يناظرها بغضب مستعر:

- جاوبيني!!

وعاد يدنو بصراخ أشد قساوة:

- كان ممكن ترفضي، لكن إزاي!!.. وافقتِ، واتجهزتِ.. واتجوزتِ الأخين بكل برود، من غير ما تراعي مشاعر حد ولا حتى أنا عاوز إيه!

وتصلبت في مواجهته بملامح مصمتة جافة.. فقط ما لاحظه هو ابتلاعها للعابها بتوتر طفيف جعل هياجه يشتعل:

- أنت عارفة يا سمية!!

ومال نحوها بأنفاس من نار:

- لو كنتِ فاكرة إنك هتعيشي حياة سعيدة، تضحكي فيها عليَّ وتمتلكيني!!..

رعدة متوترة مرت بجسدها وبذلت قصارى جهدها كي لايلحظها فتثير المزيد من جنونه..

برقت عيناه بشكل مخيف وهو يردف وقد عميت عيناه عن خوفها المرتبك:

- تبقي عايشة الوهم..

ثم عاد يتراجع، يشد قامته بحزم صارم:

- أنت هتشوفي معايا السواد اللي عمرك ما كنتِ تتخيليه.

وأشار بسبابته للأرض تحت قدميه:

- هتكوني هنا خدامة وبس، للبيت ده وليَّ.

ورفع رأسه باعتداد:

- لحد ما تموتي يا سمية.

ودون المزيد من الحديث، ودون أن تنطق هي سوى بكلمتين غادرها بوثبات واسعة سريعة نحو غرفة مغلقة، دلف إليها وأوصد بابها خلفه بعنف رج جدران المكان، يلهث بقسوة..

يشعر باختناق..

يبحث عن أنفاس لكنها تعاسرت على صدره المطبق بهَم فوق رئتيه حتى شعر أنه على شفا الموت..

تبًا لك "سمية".. تبًا لكل امرأة تظن أن بإمكانها التلاعب بالرجال وامتلاكهم.. سرقتهم واستعباد قلوبهم.. تبًا لك وعليكِ مائة لعنة..

فالجحيم الذي هربتِ منه أيتها الشيطانة، ستعودين لويلاته معي.. تذوقينه بقهر، وأتلذذ أنا بأنّات عذابك دون أن يغيثك أحد..

***

"بدايتي عندما انتهيت إليك"

كلمات خطتها يومًا ما في أوراقها وهي تتأمل ملامحه الساكنة في مقلتيها دون أن تبرحهما ولو للحظة.. رغم غيابه عنها وانشغاله، لكنه دومًا حاضر الصورة والصوت والنظرة بذاكرتها حتى أصبح طيفه يحتل ناظريها في كل وقت..

نعم هي تعشقه، وتثق بعشقه لها..

تلك البسمة المحبة التي تعانق شفتيه كلما التقت المقل، لمعة العين الولهة واللمسة الدافئة فوق كفها لتشعرها أنها امتلكت من الدنيا ما يكفي ولم يعد بها حاجة لمزيد..

عندما انتهى حفل الزفاف لم يعودا معًا لمنزلهما، بل اصطحبها لموعد عشاء رومانسي راقي، كعادته يدللها وكعادتها تذوب فيه أكثر..

اطمأنت على شقيقها وغادرت معه، تنظر إليه بينما يقود السيارة بغرام سافر على ملامحها، وبين كل لحظة وتاليتها يحتويها بين جفنيه، يمنحها بسمته، ثم يعود بانتباهه للطريق..

عندما وصلا للمكان المنشود ترجل يفتح لها بابها، يعانق كفها بين أصابعه بحنو ويلمس ظهرها بكفه في دفعة تملكية تخبر العالم أجمع أنها له..

تناولا عشائهما بشهية، يمازحها، يداعبها.. ويبتسم، وفي بسمته تتيه وتنسى العالم بأسره إلا وجودها ساكنة في نظراته.. في نهاية الليلة طلب يدها

للرقص، وعند دقات قلبها المتواثبة واحتوائه لها بين ذراعيه كانت الأحلام تولد والأمنيات تطالب بتحقيق..

همس بها وعيناه تشعان حبًا:

- بحبك.

تأملته بنظرة مغرمة..

نبضها تعالى يهتف باسمه وهي تقترب أكثر، تلقي برأسها فوق صدره، تريح أنفاسها المتلهفة للامتزاج بأنفاسه لتنفثها عند قلبه وهي تتمتم:

- مش أكتر مني..

وعادت تبتعد، وهذه المرة تعانق عينيه بعينيها، تغرق فيه ويغرق فيها:

- بحبك يا نبيل.. قوي.. قوي.

أعادها بين ضلوعه ولحظات كانت من عالم الحلم انتهت كما تنتهي كل الأحلام..

عادا للمنزل، وفي خيالها ليلة عشق وردية يمتلكها فيها حتى الرمق الأخير..

انتقت غلالة رقيقة تشبه حلاوتها ونعومتها، ارتدتها ونظرت لنفسها في المرآة بإعجاب..

نعم تعلم أنها جميلة، وجميلة للغاية، بقامتها الممشوقة وخصلاتها البنية الطويلة.. لون القهوة الذي يشع من مقلتيها وبشرتها العاجية الناعمة التي تحسدها عليها الفتيات كلهن..

عندما دخل للغرفة ووجدها أمامه تراجع خطوة في صدمة، تأملها للحظات امتلأت فيها بالخجل وهي ترى عينيه تجوبان فوق جسدها المكشوف، وثوان هي حتى وجدته في مواجهتها تمامًا وهتافه يتصاعد بعنف:

- إيه اللي أنتِ لابساه ده يا حبيبة!!

تلجلجت وتعثرت الكلمات.. بل ماتت فوق شفتيها وهو يمسك بمرفقها، يهزها دون وعي لقوته:

- أنا كام مرة نبهت عليكِ ما تلبسيش كده؟!

وقربها إليه يقذف لهبه في وجهها:

- كام مرة قلت لك مش بحب الحاجات دي عليكِ!!

ودفعها بغلظة:

- ليه مش قادرة تفهميني؟!



والرد منها كان دمعة وحيدة سالت من فوق جفنها الأيمن لتلمع عند وجنتها المحمرة خجلًا وقهرًا.. رق قلبه فعاد يدنو، يقتحم سكونها وصمتها:

- بيبا.. حبيبتي، أنا..

وهز رأسه بارتباك:

- أنا مش بحب الحاجات دي، مش عاوزها..

وتوتر أكثر يراضيها:

- ما تزعليش مني.. بس من فضلك بلاش تلبسيها تاني.

ورفع كفها لشفتيه، يقبل ظاهرها بتبجيل.. قبل أن يهمس لها بنبرة حنون:

- تصبحي على خير يا حبيبتي.

واتجه للفراش..

وتمر ليلة.. تشبه كل ليلة منذ سنوات..

هي تجاوره وكأنها في عالم آخر، وهو معها لكنه ليس لها!!

***

أن تكون رجلًا عمليًا ذلك ليس عيبًا.. العيب الأكبر أن تجبر على ما لا تريد فقط كواجب اجتماعي أنت لا تجيده على الإطلاق..

استجاب لوالده وذهب إلى الزفاف، قابل أناسًا لا يعرفهم، حاول الاختلاط بهم، وانتهت الليلة ليعود متأففًا لبيته، يعتكف بغرفته لاعنًا المجاملات الاجتماعية التي جعلت أباه يجبره على حضور حفل مليء بالضوضاء فقط مراعاة لشريكه بالتجارة وصديق عمره الحاج "سلامة"..

تمدد فوق فراشه يداعب شاشة هاتفه حتى الاستغراق في النوم كما يفعل كل ليلة، ارتفع أزيزه الصامت بين يديه فجأة ليتطلع للرقم بتمهل لثوان، يبتسم بلا معنى ثم يفتح الخط:

- أنتِ تاني!!

وكانت نبرته خشنة، لهجته افتعل بها الغضب.. يداري موقفًا يدلِل رجولة كل ذكر..

أن يشعر بأنه محط إعجاب.. أن تخبره إحداهن: أنه مرغوب..

وفي المقابل كانت نبرتها هي ناعمة، مغناج.. مائعة تجذب بها أذنيه:

- أيوة أنا.. إيه زهقت مني؟

اعتدل بجدية، هو رُغمًا عن كل شيء ليس لاهيًا ولا يحب العبث:

- يا بنت الناس أنا مش بتاع الكلام ده، قولي أنتِ مين!.. أو ما تتصليش تاني.

ضحكت تغازل مسامعه بأنوثة:

- بجد!!

ابتلع ريقه وتحدث بلهجة متماسكة قدر جهده:

- أنا ماليش في لعب العيال ده!!

وابتسمت بانتصار كأنها تراه أمامها:

- على فكرة..

وصمتت للحظة تستدعي بها فضوله:

- أنت كنت أشيك واحد في الفرح النهاردة.

انعقد حاجباه، واستقام جالسًا بحدة:

- إيه!!.. أنتِ كنتِ هناك؟

جاوبته بغموض:

- أكيد.

وقبل أن يتساءل عن المزيد كانت تمنحه طرف خيط أكبر.. يثبته لها، يشده نحوها.. وتدخل به إلى محيط عالمه:

- أنا أعرفك من زمان.. بس يا ترى أنت تعرفني؟

وأيضًا لم تمنحه فرصة الرد وهي تستطرد بتشجيع وخطوة غواية:

- أنا هاعدي عليك بكرة في المحل يا عمرو.. وهاشوف هتعرفني ولا لأ!!

وأغلقت الخط، تركته لحيرته وتوتره.. هي تعرفه، ليس مجرد رقم عشوائي بل اختارته هو..

وانتشى وانتفش وابتسم وأغمض عينيه يحلم باللقاء..

***

البدايات ليست بالضرورة قدرية..

فقد نحيك الخطط لننالها، ونرسم بأيدينا خريطتها حتى تمام الوصول!!

تسللت من خلفه بهدوء فوق سطح المنزل، وقفت تراقب جسده الضخم وكتفيه العريضين..

كم يشعرها برقتها وأنوثتها رغم صغر سنه!..

ورُغم الفارق بينهما!..

بعدما أنهت مكالمتها مع ابن شريك عمها السيد "عمرو" الصامت الوقور وأحكمت حبالها حول فكره متجهة بحثيثية نحو قلبه؛ وجدت "إيهاب" يهاتفها ثم يأمرها بالصعود للقائه وهي استجابت ببساطة..

هذا الفتى رغم كل شيء؛ به ما يخيفها ويخضعها له..

خطت نحوه ببطء خافت، لمست كتفه برقة وهمست تناديه بنعومة:

- إيهاب!!

استدار إليها ينفث دخان التبغ من بين شفتيه، يراقبه يتلاشى ببطء، وحط بعينيه عليها..

تأمل كليتها للحظة قبل أن يلقي بلفافة تبغه أرضًا يدهسها بقدمه، يجذبها بين ذراعيه بقسوة ويتمكن من شفتيها دون أن تملك حق الاعتراض!!..

الفصل الثالث

"الحب هو أن تختار الشخص الوحيد القادر على أن يجعلك تعيسًا"

أنيس منصور

**

تعاسة ممزوجة بخيبة الأمل وإحساس مهين بالدونية.. تلك بالتأكيد ليست مشاعر عروس بصباح أول أيام زواجها.. زواج تم تفعيله ولم تدرك منه قبلة واحدة أو حتى لمسة متلهفة.. هل يمكنها وصف الليلة الماضية بـ "ليلة العمر"!..

أي عمر!..

عمرها الفتيّ وهي تراقب جارها الوسيم المرح الضاحك على الدوام.. لم تحلم يومًا بالزواج منه.. فقلبه لم يكن متاحًا.. وتلك المعلومة لم تكن مجهولة.. فاكتفت بإعجاب بسيط تكنه له في نفسها ولم يعلم به أحد أبدًا..

إعجاب نما على مر السنين ليتحول لحب.. حب هي نفسها لم تدرك قوته إلا بعدما صارحتها شقيقته حبيبة برغبته في الاقتران بها.. ووجدت نفسها تلقي بموافقة متحمسة ووجنتيها تتضرجان خجلًا وسعادة..

تبًا.. لقد أراد الاقتران بها.. اختارها هي..

مرت بفترة خطبة هادئة.. لم يكن عاشقًا شغوفًا ولكنه كان مهذبًا مراعيًا..

إذاً مَن ذلك الرجل الذي انتهك فرحتها ليلة أمس!.. لقد عاملها وكأنها مهمة عمل عليه الانتهاء منها سريعًا.. هو حتى لم يعاملها كبنات الهوى!..

يا الهي!.. ما الذي تفكر به؟!.. لقد أفسد عقلها كما أفسد ليلة زفافها..

تلفتت حولها وهي تفتح عينيها ليتأكد إحساسها الأولي.. هي وحيدة بفراش الزوجية.. في صباح أول أيامها معه..

تركها وحيدة.. واختفى...

تحركت من الفراش يثقل حركتها شعورها بإحباط ممتزج بضياع وخوف من مجهول لا تعلمه..

أنهت اغتسالها بقلب مجروح وعقل تائه لتعود للغرفة وهي تتوقع وجوده بها.. فكانت تتحرك بخطوات مترددة خجلة لتفاجأ بالغرفة خالية كما تركتها..

لم يعد للغرفة إذاً!!..

تنهدت بحزن وهي تتكوم على الأرض.. تضم ركبتيها لصدرها وتحتضنهما بذراعيها.. ترمي برأسها على إطار باب الشرفة المجاور لها.. ترمق فراشها المبعثر بعين وبالأخرى تراقب ضوء الشمس بالخارج يسطع ليوضح تفاصيل صغيرة لم تنتبه لها في عمق ليلتها الفائتة..

خجلها وتوترها وقبلهما فرحتها أعموها عن رؤية توتره هو الآخر.. صمته وسكونه.. شروده وكأنه بعالم آخر.. كلا.. بل كان يتمنى وكأنه بعالم آخر.. وها هو يضع أمنيته حيز التنفيذ.. فهو ينأى بنفسه عنها منذ... منذ...

ابتسمت بمرارة وهي تسمح أخيرًا لدمعة حزينة بالهطول... وهي تردد بداخلها..

"منذ أن جعل منها امرأة.. زوجة.. زوجته!"..

سقطت دمعة أخرى ولكن تلك المرة كانت ساخرة.. فهو أدخلها فراشه فتاة ساذجة لا تعلم إلا الفتات حول علاقة الرجل بزوجته.. وها هي خرجت من فراشه بصباح اليوم التالي.. كامرأة.. ولكنها ما زالت لا تعلم إلا الفتات.. فتات مضاف إليه شعور مؤلم بالخزي والمرارة..

دارت عيناها بغرفتها.. الغرفة الوحيدة التي اختارتها بالشقة.. الغرفة التي شهدت أسوأ لحظات عمرها بأكمله.. لتتوالى دموعها بالانهمار ولم تعد

قادرة على السيطرة عليها بعدما حطت نظراتها على الفراش المبعثر مرة أخرى وعادت مشاهد الليلة الماضية تتتابع بعقلها..

مشهدًا تلو الآخر.. فأغمضت عينيها وهي تشهق بدموعها وتقبض بكفيها على البساط المفروش أرضًا لتصطدم أناملها بثوب زفافها الملقى أمامها.. جذبته بلهفة حزينة بين ذراعيها وكأنها تحمي حلمها الوردي المتمثل به من قسوة زوج امتلك جسدها ولم يأبه لقلبها الذي منحته له بدون أن يدري... وبدون أن يطلب..

زاد تمسكها بالثوب ولم تعد تدري أتحمي حلمها البسيط المشروع؛ زوج وأسرة وعلاقة حب هادئة!.. أم أنها تنعي ذلك الحلم!..

ظلت على جلستها الحزينة لفترة لم تعلمها وهو لم يظهر بعد..

وأخيرًا سمعت جرس الباب لتنتفض من شرودها وعقلها يعود للعمل.. مع رنة الجرس الثانية فهبت واقفة تمسح دموعها وتعدل من مظهرها سريعًا وحدسها يخبرها أن والدتها هي التي تطرق الباب الآن..

تأكد حدسها مع رنة جرس الهاتف المخصصة لوالدتها فالتقطته لتسمع صوت والدتها المحرج وهي تخبرها أنها بالباب ومعها السيدة دلال والدة صلاح..



أغلقت الخط وهي تشعر بالفزع.. والدته ووالدتها بباب الشقة وهو مختفٍ..

كيف يمكنها تفسير غيابه؟..

أية حجة مقنعة يمكن أن تسوقها لتغطي على اختفاء زوجها بصباح زفافه!..

ضغطت على هاتفها بقوة حتى كادت تعتصره بين أناملها.. وحيرتها تزداد.. ماذا تفعل؟.. كيف تتصرف؟.. ألا يكفي ما تشعر به من ألم جسدي ونفسي يحطم كيانها حتى يأتي اختفاؤه فيقضي على البقية الباقية من تماسكها..

أخيرًا قررت الاتصال به.. فربما يمنحها إجابة مقنعة لغيابه.. ضغطت أرقامه سريعًا وانتظرت الإجابة.. انتظرتها طويلًا..

ارتج هاتفه المحمول الملقى على صدره وهو غائب بنوم عميق توصل له بصعوبة بعدما قضى الليلة الفائتة غارقًا بين ندمه وذكرياته..

التقط الهاتف ليفاجأ برقم عروسه.. قطب حاجبيه بحيرة.. لِمَ تهاتفه وهو معها بالشقة!.. وسرعان ما جاءته الإجابة متمثلة برنة جرس جديدة..

تحرك بسرعة لغرفة النوم في الوقت الذي قررت به بسمة التحرك ومواجهة والدتها وحماتها.. فيبدو أنه قرر الاختفاء وتجاهل مكالمتها أيضًا..

تواجها على عتبة غرفة النوم.. ليتجمد الاثنان وتتعلق بينهما النظرات.. رجل وزوجته اختبرا أقصى درجات القرب والحميمية ليزدادا تباعدًا واغترابًا..

نظرات.. حزينة لائمة وأخرى نادمة آسفة.. وبين حديث النظرات انفطر القلب وازداد عمق الجرح وتضاعف الندم والأسف..

بعينيه نظرات اعتذار صامت ممتزجة بندم شديد.. فبرغم كل شيء هو لم يرد أن يكون سببًا لحزنها.. ولكن يبدو أنه تسبب بايذائها أيضًا..

رفع كفه بتردد نحو وجنتها في بادرة تقرب واعتذار ولكنها أبعدت نظراتها الحزينة ومعها وجهها لتشيح به بعيدًا مرددة بصوت متحشرج خافت:

- ماما وطنط دلال على الباب..

قبض كفه يعيدها لجانبه مرة أخرى وهو يمنحها كل العذر في تباعدها.. هو أخطأ بحقها.. بل أجرم فيه.. وعذره الوحيد يزيد من جرمه ولا يستطيع مصارحتها به.. ولا حتى مواجهة نفسه..

كيف يخبرها أنه كان يحارب أشباحه الخاصة ولم يكن يقصد أبدًا التصرف كحيوان همجي!!..

كيف يخبرها أنه كان ينتصر بها على هواجسه الشخصية!!.. يحاول العودة للحياة عبر وصالها!..

كيف يخبرها أنه بمحاولته تلك سيطر عليه ذنب خانق!.. فتحكم بتصرفاته وأخرجها عن سيطرته!..

كيف تصرح لعروسك بأول أيام زواجكما.. أنك تشعر بالذنب لتقربك منها!..

تشعر بالذنب نحوها ونحو مشاعر راقية سكنت خافقك لسنوات وتكنها لأخرى!..

كيف تخبرها أنك تشعر بالذنب فقط لأنك.. حي.. تتنفس.. تعيش.. وتتزوج..

عاد صوت جرس الباب يصدح مرة أخرى منبهًا لوجود زوار بالخارج.. فغمغم صلاح هامسًا:

- أنا هفتح الباب وأنتِ..

صمت للحظة ثم مد أنامله ليمسح بضعة دمعات تساقطت من بين جفونها بدون أن تشعر بهن..

أسرعت بالابتعاد عن ملمس أنامله وهي تشعر بتورد وجنتيها خجلاً من تصرفه العفوي.. وبداخلها تلعن نفسها آلاف المرات لحماقتها الشديدة.. فقد خفق قلبها طربًا فقط لأنه مسح دموعها.. وتجاهل القلب الأبله أنه هو من تسبب بسقوط الدموع من البداية..

فتح الباب ليتلقى صيحات الفرح والسعادة من والدته وحماته وقد فسرتا تأخيرهما بفتح الباب تفسيرا رومانسيًا زوجيًا بحتًا.. بينما ارتسمت على وجه بسمة ابتسامة حزينة وقد وصلها تفكير السيدتين الأكبر سنًا.. فغرقت بين أحضان أمها تحاول جاهدة التحكم بدموعها والسيطرة عليها.. بينما تضم أمها بذراعيها بشدة كأنها تستمد منها شيئًا من دفء وحنان هي بأشد الحاجة لهما..

ضحكت أمها بحرج من تعلق ابنتها بها:

- ايه يا بسمة.. دول كلهم كام ساعة اللي بعدتيهم عني..

ترقرقت الدموع بعيون بسمة وهي تخفي وجهها بكتف والدتها التي زادت من احتضانها بينما لاحظت السيدة دلال حزن بسمة فرفعت عينين لائمتين لابنها الذي أخفض بصره أمامها..

اصطحبت والدة بسمة ابنتها لغرفة النوم وتركتا صلاح وحيدًا مع أمه التي جذبته من مرفقه ليجلسا معًا بالردهة هامسة له بصوت لائم:

- صلاح.. إيه اللي حصل؟.. بسمة زعلانة ليه كده؟..

ظل صلاح صامتًا.. تاركًا والدته للأفكار تتلاعب برأسها.. هي تدرك حالة ولدها النفسية.. وتعلم أنها دفعته دفعًا للزواج مستغلة محبته وطاعته

لها.. وهي أم.. أم ترغب في الاطمئنان على وحيدها مع زوجة تحبه وتكون له السكن والرحمة.. تمنحه بيتًا وأسرة وأولادًا..

حياة..

تريد لابنها حياة بعدما اعتزل العالم بما فيه لخمس سنوات أو يزيد...

وكان جُل ما تخشاه أن ينبذ زوجته أو يعجز عن التقرب منها.. ويبدو أن ظنونها بمحلها.. فالفتاة تبدو بحالة بائسة.. و..

قطع أفكارها صوت زغرودة عالية قادمة من غرفة النوم.. فحولت دلال نظرات مندهشة نحو ابنها الذي احتقن وجهه حرجًا وأطرق أرضًا بصمت.. بينما همست والدته:

- مبروك يا ابني..

أجاب بصوت مختنق:

- يبارك في عمرك يا أمي...

تنهدت والدته بحزن وهي تحاول نفي الفكرة التي تراودها حول حزن زوجة ابنها.. لتربت على ركبته بحب:

- صلاح يا بني.. بلاش تفكير في الماضي.. أنت دلوقتِ اتجوزت وبتبدأ حياة جديدة..

راقبته وهو يبتلع ريقه بشدة كأنه يحاول ابتلاع غصته... فأكملت كلماتها:

- بسمة بنت طيبة وأصلها طيب.. نعرفها من وهي بنت صغيرة.. وبتحبك ومتعلقة بيك..

أومأ بحزن.. فهو أدرك الليلة السابقة تعلق زوجته به.. فهي أسلمت له أمرها بكل ثقة.. ولكنه لم يكن على قدر ثقتها تلك.. وهذا يؤلمه بشدة... يشعر أن قلبه سينفجر من الذنب..

أنهت والدته كلماتها بنصيحة أخيرة:

- أنا مش هقولك غير كلمة واحدة وأخيرة.. عامل مراتك زي ما تحب أن نبيل يعامل أختك حبيبة...

ومع انتهاء كلماتها كانت بسمة تخرج من غرفة نومها بصحبة والدتها التي أخذت تكيل لها النصائح الأمومية المعتادة بينما بسمة تومئ برأسها وهي في حالة من الشرود ممتزجة بخوف خفي.. فوالدتها ستغادر بصحبة حماتها..

وستبقى هي وحدها معه..

وبعد خروجهما فوجئت به يقترب منها ليحيط كتفها بذراعه مما جعلها تجفل قليلًا.. فتنهد بحزن وغضبه من نفسه يزداد..

ربت على كتفها برقة:

- ايه رأيك نخرج نغير جو شوية ونتغدى بره؟..

أشارت للداخل بهمس:

- بس ماما جابت الأكل معاها..

أجابها بحنان:

- وأنا عايز أخرج معاكِ..

أومأت موافقة بصمت.. هي ترى صلاح الذي أعجبت به صبية.. وعشقته كفتاة ناضجة يظهر من جديد.. فقررت ترك نفسها لتياره.. ربما تستطيع إنقاذ حلمها البسيط...

***

وصباح آخر على زوجين آخرين.. ولم يكن حالهما أحسن حالًا بل أسوأ بمراحل..

حمزة بغرفته لم يغمض له جفن.. بل لم يعرف طعمًا لراحة.. فها هو بغرفة مغلقة بشقة تنتمي لشقيقه.. وبالغرفة المجاورة.. زوجة.. زوجته كما يفترض.. شيء آخر ينتمي لشقيقه..

يبدو أنه كتب عليه أن يعيش حياة انتمت سابقًا لشقيقه..

زفر بغيظ ونور الصباح يسبب له مزيدًا من الغضب مع إدراكه للحياة الجديدة التي أُقحم بها..

هب بعنف نافضًا الغطاء وكأنه مبطن بأشواك حادة وليس قماشًا مخمليًا ناعمًا..

خرج لردهة الشقة باحثًا عن الزوجة التي أُلصقت به فلم يجدها مما أجج من مراجل غضبه، اتجه من فوره إلى غرفتها ليقتحمها بلا استئذان..

أنهت سمية صلاتها وجلست تسبح بخشوع.. حينما فتح الباب فجأة ليقتحمه حمزة بقوة صارخًا بها:

- ناموسيتك كحلي يا مدام.. قاعدة هنا وناسية نفسك.. ما فيش بيت تشوفي أموره؟.. وراجل عايز يفطر!..

نهضت سمية بصمت ولم تخلع عنها إسدال الصلاة لتهمس بخفوت:

- حاضر.. ثواني أجهز الفطار..

تحركت بهدوء للمطبخ حينما دوى جرس الباب فتوجه حمزة ليفتح الباب ترافقها نظراته الغاضبة.. ليجد والدته تحمل بين يديها صينية اصطفت عليها عدة أطباق مغطاة..



تحركت والدته بتثاقل لتضع الصينية فوق المائدة الكبيرة بالردهة وهي تهتف وسط لهاثها العنيف:

- صباح الخيريا حمزة يا بني.. أنا طلعت لكوا الفطار.. و..

قاطعها حمزة بحزم وبصوت عالٍ:

- معلش يا أمي.. الأكل ده هينزل.. هو مش البيت ده له ست والمفروض أنها تراعي أموره ولا إيه؟!

غمغمت والدته بحرج:

- معلش يا بني النهارده بس..

قاطعها بصوت أعلى:

- بس إيه يا ماما!.. هاااه.. هي فاهمة أنها عروسة بجد ومستنية حد يخدم عليها!.. أظن الكل من الكبير للصغير فاهم كويس الجوازة دي إيه وليه!.. بلاش نضحك على بعض..

خرجت سمية من المطبخ في تلك اللحظة تحمل صينية صغيرة عليها قدحين من الشاي..

وضعتهما بصمت أمام حمزة وخالتها وسلمت عليها بنفس الصمت والهدوء الذين سيسببا له الجنون.. قبل أن تعود أدراجها للمطبخ مرة أخرى فيهب حمزة بغضب حارق وهو يضرب المائدة بقبضته صارخًا بحرقة:

- يا الله...

نهضت والدته لتربت على ذراعه بمواساة:

- هدي نفسك يا حبيبي.. الأمور ما تتاخدش كده.. اصبر يا بني وكل مشكلة ولها حل.

صرخ بها وقد فقد سيطرته:

- أهدي نفسي.. وأصبر!.. أصبر على إيه؟.. أنا جوايا نار يا أمي.. نااار..

تنهدت والدته بحزن.. تدرك أن سمية امرأة طيبة ولكنها أرملة..

غصة بحلقها.. لا تستطيع السيطرة عليها أو التحكم بها.. فحمزة هو ابنها الأكبر.. أول فرحتها.. الشاب النابه الوسيم.. المهندس الذي أكمل تعليمه بالخارج وحصل على عدة فرص للعمل.. وقضى بالفعل عدة سنوات يعمل كمهندس برمجيات بإحدى الدول الأوروبية.. ولم يعد للقاهرة إلا ليتمم زواجه بحبيبته أمنية الصغيرة.. شقيقة سمية الصغرى ولكنها تختلف فهي لم يسبق لها الزواج وأيضًا طالبة بسنتها النهائية بكلية العلاج الطبيعي..

وليست كسمية التي اكتفت بالثانوية العامة فقط ولم تدخل الجامعة قط بل تزوجت بسعد الأخ الأصغر لحمزة..

عادت تربت على ذراع ابنها وهي تهمس:

- طول بالك بس.. كام شهر كده وأنا هجوزك اللي تستاهلك واللي تليق بيك..

قاطعها بغضب وقد رفع من صوته حتى يصل لسمية بالمطبخ:

- اللي كانت تليق بيَّ واللي كنت عايزها خلاص اتحرمت عليَّ.. اتحرمت عليَّ يا أمي، فاهمة يعني إيه اتحرمت عليَّ؟.. الكلمة.. النظرة.. حتى الخيال بقى ذنب وخطيئة.. عايزاني أصبر على إيه ولا إيه!

سقطت دموع والدته بقلة حيلة وهي تغمغم بكلمات مواساة بلا معنى ثم تحمل صينية الطعام وترحل لشقتها تلعن كل ظروف الحياة التي أجبرت ابنها على حياة لا يطيقها وبداخلها سؤال قلق..

إلى متى سيحتمل؟..

وهل هناك حل للوضع الذي أُقحم به الجميع بلا مبرر مفهوم أو سبب واضح.. على الأقل من وجهة نظرها..



أما سمية فقد استمعت لكلماته اللائمة والمهينة لتغمض عينيها بوجع وتسكن بكل جسدها لثوانٍ عادت بعدها لعملها حتى انتهت من إعداد الإفطاروبدأت برص الأطباق على مائدة الطعام.. حينما لمحها حمزة فصرخ بها ومازال غضبه يتملكه:

- أنتِ لسه فاكرة ما لسه بدري.. ولا كنتِ مركزة مع كلامي أنا وأمي..

رفعت عيونها بصمت وقبل أن تهزرأسها رفضًا لكلماته أطاحت يده بالطبق في يدها صارخًا بغيظ:

- مش عايز أكل.. نفسي اتسدت..

قال كلمته وخرج تصحبه شياطينه لترمقه سمية بحزن وتنحني تجمع ما تناثرمن طعام وأطباق على الأرض ثم تجمع الأطباق التي قامت برصها من قبل وحالة من الصمت والسكون الجامد تتملك كل خلية بجسدها..

***

جلست لارا بجوار النافذة بعربة القطار المتجه إلى المنصورة.. رحلة جريئة.. ربما يمكنها إطلاق وصف مغامرة على سفرتها تلك.. فهي تركت كل شيء خلفها ببيروت ورحلت بحثًا عن حقها..

ليس حقًا ماديًا.. ولكنه حقها باسم والدها.. بحياته السابقة.. بمكان لها وسط عائلته التي هي عائلتها بالأساس..

كانت تلمح أشجار الطريق وهي تمر بسرعة خاطفة.. سرعة تماثل تلك التي تبدأ بها حياتها بين مراحل مختلفة متعددة.. تنقلات مرت بها حتى من قبل أن تتفتح عيناها للنور.. فزواج والدها كامل الغندور.. سليل عائلة الغندور المعروفة في الدلتا بأسرها وليس المنصورة فحسب، بفتاة لبنانية بسيطة لم يمر مرور الكرام في حياة عائلة والدها..

تلك الزيجة سببت شقاقًا لم يلتئم للآن بين جميع أفرادها.. خاصة وقد تخلى والدها عن خطيبته المستقبلية في سبيل الزواج من والدتها.. درة تميم.. الفاتنة اللبنانية والتي أسرت والدها بعيونها الزرقاء البريئة في إحدى زياراته للقاهرة حينما كان يزور صديقه القديم سلامة سند.. ليلمح والدتها بالصدفة وهي تزور شقيقتها "دلال" ليسقط عاشقًا لها بين ليلة وضحاها ويقرر التخلي عن خطيبته ليتزوج منها..

كان الأمر ليمر بهدوء وسلاسة.. لولا أن تلك الخطيبة كانت الأخت الصغرى لعايدة؛ زوجة الشقيق الأكبر التي أقامت الدنيا ولم تقعدها وتفننت مع شقيقتها ثريا الخطيبة المهجورة في تحويل حياة والدتها إلى جحيم.. ومع زيادة المشاكل والمكائد التي تحاك حول العاشقين قررا الرحيل للقاهرة والابتعاد عن عائلة الغندور بكل متاعبها.. ذلك القرار الذي لاقى معارضة شديدة من عمها الأكبر الذي كان يحاول جاهدًا الحفاظ على شمل العائلة وترابطها.. ولكن ضعف درة وقلة حيلتها أمام مكائد عايدة وثريا وخاصة

بعدما أعلنت عن حملها بلارا.. حتى وصلت المكائد لمحاولات حثيثة ولكن ماكرة خفية لإجهاض درة!!..

كل تلك الأسباب جعلت كامل يتخذ قرارًا لا رجعة فيه بالرحيل النهائي عن المنصورة حتى لو كلفه ذلك قطيعة دائمة بينه وبين عائلته التي خيرته بينها وبين زوجة غريبة لا تمت لهم بصلة..

وكانت الكفة الراجحة لدرة وابنتها.. فهجر كامل بلدته واستوطن القاهرة.. وقد ساعده سلامة على استئجار شقة بالمنطقة.. لتصبح درة قريبة من شقيقتها دلال فتهون عليها تعب الغربة والحمل..

استمرت الحياة هانئة لبضع سنوات.. فارق بعدها والدها الحياة تاركًا درة تصارع المعيشة وحدها فقد رفضت عائلته دعم والدتها أو حتى منحها جزءً ضئيلًا من إرثها الشرعي.. وسيطر كبرياء درة عليها فامتنعت عن مطالبتهم بأي شيء وجاهدت هي لتربي ابنتها بمفردها..

حتى بلغت لارا الثامنة عشر..

حينها بدأت والدتها تفكر جديا بعروض الزواج المقدمة لها.. أو بالأصح.. عرض خاص بالذات.. وكان من تاجر لبناني ميسور الحال اصطحب والدتها إلى بيروت وهي معها بالطبع.. لترتاح والدتها أخيرًا مع رجل قدرها كامرأة واحترمها كزوجة وعاملها هي كابنة له ولم يقصر معها بشيء.. ولكن مع

بلوغها الحادية والعشرين قررت البحث عن حقها وحق والدتها في ميراث والدها.. اعترضت والدتها بالطبع.. ولكن زوج والدتها أيد قرارها.. فميراثها هو حق شرعي لا يجوز التفريط به... وساعدها في إقناع والدتها..

وها هي تبدأ رحلة البحث عن حقها بالعودة إلى بلدتها الأم.. إلى المنصورة حيث ستواجه أبناء عمومتها.. والأهم.. عايدة زوجة عمها وشقيقتها.. خطيبة والدها المتروكة والتي علمت أنها لم تتزوج إلى الآن.

***

وفي مدينة أخرى.. بالتحديد مدينة المنصورة.. بفيلا عائلة الغندور.. جلس عماد على أريكة واسعة بحديقة الفيلا وبيده كأس عصير طازج يرتشفه بمتعة بينما جلست ابنة عمه وخطيبته هبة على المائدة الصغيرة المواجهة للأريكة وهي تسأله بلهفة:

- هااه.. عجبك العصير؟..

عاد يرتشف رشفة صغيرة وتظاهر بالتحقق من طعم العصير قبل أن يقول بعدم رضا مفتعل:

- مش بطال..

ضربته في كتفه بحنق وهي تهتف:



- عماد.. دي تالت كوباية تشربها يبقى إزاي مش بطال!

حرك حاجبه بعبث:

- برضوه مش هتيجي معايا..

تحركت لتجلس بجواره على الأريكة وتمسك بذراعه:

- عماد.. بلييز.. عايزة آجي معاك..

ضيق عينيه متسائلًا:

- ليه؟...

هتفت بطفولية:

- عايزة أشوف بنت عمنا.. لارا؟.. اسمها لارا صح؟..

أومأ موافقًا لتكمل هي بلهفة:

- مش هقدر استنى لحد ما تروح تجيبها من المحطة... بليييز يا عماد.. بليييز..

شردت نظراته بشفتيها وهي تمطهما بتلك الطريقة المغرية مرددة تلك الكلمة المستفزة

"بليييز"..

تظاهر بالاستغراق في التفكير قبل أن يشير لها لتقترب ويهمس هو بجدية:

- موافق بس بشرط..

سألت متلهفة:

- شرط إيه؟.. مش مهم.. مش مهم.. أنا موافقة..

تلاعبت عيناه بشقاوة:

- موافقة!.. متأكدة؟

قطبت حاجبيها بتوجس:

- ليه؟.. هو إيه الشرط؟..

ضغط شفته السفلى بوقاحة وهو يخبرها:

- بوسة..

توسعت عيناها بدهشة سرعان ما تحولت لخجل وهي تهمس:

- ما ينفعش.. إحنا مخطوبين مش مكتوب كتابنا..

هز رأسه أسفًا:

- خلاص.. يبقى هروح لوحدي..

هتفت بغيظ وعادت تتمسك بذراعه:

- عماد.. مودي.. بلييييز... بلييي

لتضيع باقي حروف شفتيها الممطوتين بين شفتيه بعدما باغتها باقتناص قبلة خاطفة.. ابتعدت بعدها وهي تهتف باسمه غاضبة:

- عماااد..

همس لها بوله:

- عيون عماد..

ضاع غضبها مع همسه العاشق وظنت أنها كسبت المعركة وسيصطحبها معه لاستقبال لارا ابنة عمهما بمحطة القطار.. فسألت بدلال:

- كده هتاخدني معاك صح؟..

حرك سبابته أمام عيونها برفض قاطع:

- لأ..

هبت واقفة وضربت الأرض بقدمها بغضب:

- ليه بقى!... ما أنت سرقت البوسة اللي أنت عايزها..

نهض ليهمس بأذنها بعبث:

- ما هي عشان مسروقة ما تتحسبش..

ثم قبلها بوجنتها هاتفًا بشقاوة:

- تشاو يا قمر..

وانطلق بسيارته بأقصى سرعة كما اعتاد ليذهب إلى مهمته المحددة له والمتمثلة باستقبال ابنة عمه القادمة من بيروت لاسترداد ميراثها الشرعي.. ذلك الخبر الذي جسد مفاجأة لوالدته.. وصدمة مفزعة لخالته التي أخذت تردد..

"بنت درة عايزة إيه مننا؟.. بنت درة مش هتسيبنا في حالنا!"..

موقف مسبق تم اتخاذه من الفتاة قبل أن تلمحاها بنظرة واحدة..

تلك النظرة التي منحها لها الآن وهو يلمح فاتنة شقراء تترجل من عربة القطار وتلتفت حولها بحيرة وكأنها تبحث عن شخص ما.. ليتقدم هو نحوها بثقة متسائلًا:

- آنسة لارا؟.. لارا الغندور؟..

أومأت موافقة:

- أيوه أنا.. أنت جاي علشاني..

أخذ يتأمل ملامحها بعبث.. وعيناه لا تكفان عن مغازلتها بشقاوة.. قبل أن يخبرها بمرح:

- أنا عماد.. ابقى ابن عمك.. وأنتِ بقى بنت عمي ولا بنت عم عجرم!

أطلقت يارا ضحكة مرحة أخرجت بها توتر الساعات الماضية.. فبرغم كل شيء هناك من يرحب بها بين عائلة والدها..

***

من قال يومًا أن نصف المتعة يكمن في الانتظار لهو أحمق بكل تأكيد..

فهو يكاد يحترق في انتظار ظهور فتاته الغامضة.. بعد مكالمتها ليلة أمس ووعدها له بزيارته بالمتجر وعيناه التصقتا بالباب منذ الصباح.. بدا تلهفه واضحًا مع كل فتاة تدخل للشراء حتى أن والده بدأ ينتبه لما يمر به ولده فصاح به:

- عمرو!.. في إيه يا بني؟.. عقلك فين النهارده؟.. دي تالت فاتورة تتغير بسبب غلطة منك..

ارتبك عمرو وهو يبرر لوالده:

- آسف يا حاج.. ما نمتش امبارح كويس و..

خاطبه والده لائمًا:

- وإيه يا بني؟.. شغلنا معظمه مع ستات.. وأنت فاهم رفع العين في الست مش حلو لسمعتك ولا لسمعة المحل..

عاد عمرو يكرر اعتذاره:

- سامحني يا حاج.. مش قصدي طبعًا.. أنت اكترواحد عارفني ماليش في الكلام ده..

رمقه والده بتفحص:

- ما هو عشان أنا عارف كويس مين ابني وأخلاقه إيه.. اتكلمت وقلت اللي لاحظته..

أطرق عمرو بصمت وقد انتابه غضب ممزوج بانزعاج طفيف..

فالفتاة شغلت جزءً ليس هينًا من عقله.. وتركيزه بالعمل يكاد ينعدم في انتظارظهورها وما زاد من تلهفه لها إدراكه أنها تعلم من هو بالتحديد وأنها اختارته هو بالذات لتظهر إعجابها به..

عاد يتفحص هاتفه للمرة المائة منذ الصباح ينتظر رسالة منها أو مكالمة تخبره سبب تأخرها.. أو حتى اعتذار عن الحضور.. ولكنه لم يجد شيئًا.. تنهد بضيق مدركًا أنه يغوص أكثر وأكثر ببحار هو لا خبرة له بها على الإطلاق..

***

رقدت بسمة بين ذراعي صلاح ودموعها تجري على وجنتيها بلا انقطاع..

لا تعلم حقيقةً سببًا وجيهًا لبكائها!..

فهي قضت نهارًا أكثر من رائع.. اصطحبها صلاح ليتناولا إفطارًا متأخرًا بالمقهى الذي اعتادا اللقاء به وقت خطبتهما.. كان مراعيًا بشدة.. يلبي لها كل ما تطلبه.. وكأنه يعبر عن اعتذار صامت لتصرفه الأهوج بالليلة الماضية.. ثم اصطحبها بعدها لمشاهدة أحد الأفلام الرومانسية كانت قد أخبرته عنه بوقتٍ ما..

أناملها بين كفه طوال الوقت.. يمنحها ابتسامة هادئة.. تشعرها بالأمان.. ليس الحب أو العاطفة.. لكنها لا تمانع.. عقب الليلة الماضية وإحساسها المهين بعدها.. هي بحاجة للشعور بالأمان أكثر من أي شيء.. لذا سكنت لذراعه المحيطة بكتفها معظم النهار.. تركن برأسها إلى كتفه وتستمتع بلمسة حانية من أنامله لخصلاتها الطويلة..

أنهيا يومهما بسهرة هادئة على ضفاف النيل حيث تناولا عشاءهما على أضواء الشموع.. وحاول هو الحفاظ على جو هادئ فاكتفى بالحوارات العامة مستعيداً جو الخطبة الرائق..

ولكن مع قرب انتهاء السهرة وإدراكها لعودتها معه إلى المنزل.. لمواجهة ليلة أخرى مثل ليلتها الماضية بدأ التوتر يغزو جسدها بقوة.. وخيم عليها صمت تام حتى أنها عجزت عن مبادلته حوارًا بسيطًا.. وبدأت تفرك كفها برتابة وتربت على خصلاتها في حركة متوترة..

ولاحظ هو كل ما يمر بها.. وأدرك بدقة السبب وراء شحوب وجهها والعرق البارد الذي بدأ بالتجمع على جبينها..

اقترب منها بهدوء وضمها بين ذراعيه برقة شديدة.. قبلها بشغف جليّ.. منحها لمسات رقيقة ناعمة وكأنها تحفة ثمينة من الكريستال النقي.. قضت بين ذراعيه ليلة مناقضة تمامًا لليلة زفافها.. شعرت بالفعل أنها غالية ومهمة بالنسبة له..

تعلم أنه لا يحبها.. وتعلم أيضًا أنه يكن لها مشاعر مودة واحترام... مشاعر عبر عنها بوضوح تلك المرة محاولًا محو صورته كرجل همجي حيواني الغرائز.. ابتعد عنها قليلًا ليمنحها قبلة طويلة فوق جبهتها ويزيد من ضمها بين ذراعيه ويغرق بسبات عميق تاركًا بسمة وقد غرقت وجنتيها بدموع لا تعلم لها سببًا!!..

أو ربما تعلم ولكنها ترفض الاعتراف..

فبرغم مشاعر الود التي اختبرتها معه فإنها تتوق للتعرف على مشاعر العشق الحقيقية بين ذراعيه!!



الفصل الرابع

في أوقات ما تحمل لنا الذكرى عبقًا لا يمكن نسيانه.. لحظة لن يكررها الزمان، ولن نتخطى مشاعرنا خلالها مهما فعلنا، ومهما حاولنا، لحظة كانت الأهم، وربما الأكثر توترًا وقلقًا و.. عشقًا..

هي تملك من نوعية تلك اللحظات الكثير، مرات ومرات خاضتها، ضاعت في متاهاتها، تناستها أو تشبثت بها لتستعيدها حين الشوق..

والشوق مباح قدر تحمل قلوبنا الفراق، ليس فراق أجساد.. لكن فراق نفس تاهت عنا ونجهل بعدها ما المصير!!

وفي ليلة ما.. دقيقة ما.. لحظة ما وجدتها، استعادتها، بموازاة دفء عينيه، ابتسامته متعددة المعاني لكن أوضحها العبث والمكر لقرب اللقاء..

ثوبها الأبيض الملائكي، بذلته السوداء الكلاسيكية.. موسيقى وشموع وورود ورقص وضمة وقبلة جبين وهمسة بحب ووعد.. وعد بسعادة، بأمان، بغد يجمعهما سويًا ومنزل يضمهما معًا حتى نهاية الحياة لو فرضنا أن الموت نهاية.. فلا نهاية لقلوب العاشقين.



أغمضت عينيها بتنهيدة حارة تستمد حرارتها من لهيب خافقها الخانع لعشقه دون أغلال، استندت بظهرها لمسند الأريكة العريضة تفكر به، تستعيد تلك الذكرى واللحظة واللمسة وغمضة الجفون بخجل، وعناق أهداب يخفي وراءه الكثير ويقتل في الخفاء كل الطموحات والأمنيات..

ابتسمت بشجن، تتجسد أمام ناظريها عيناه اللتان تتطلعان إليها بانبهار أسفل الدرج المزين الذي تتهادى فوقه كأميرة على وشك ارتداء تاج الملك.. متعلقة بذراع شقيقها الأكبر الفخور وتخفي نظراتها الولهة أسفل وشاح شبه شفاف يحجب وجهها عنه فلا يصله إلا نعومة تشبه غيمة بيضاء صافية..

تسلمها منه بنبضة قلب تعلنها معشوقته، رفع الوشاح ونال الجبين قبلة دافئة أرسلت بالجسد رعدة طفيفة لم يلحظها سواها.. بعدها بسمة وغمزة وهمسة غزل:

- قمر.. أنا متجوز قمر.

وابتعد وليَّة شفاهه مشاغبة، يمد ذراعه ليتشابك معه ذراعها ويتمم همسه:

- مبروك عليا يا مراتي.



أحنت عينيها بخجل، تعالت نبضاتها، وتسارع الوقت.. حفل أنيق وفندق عانق النجمات الخمس، صديقات وقريبات ورقص وغناء وربما تظاهُر باندماج لكن قلب كل أنثى في ليلة العمركما يطلقون عليها..

لا ينشغل سوى بخوف!..

مهما تظاهرت بسعادة أو ادعت التشاغل.. مهما تفننت في إظهار جمالها وابتسمت بل وضحكت بعلّو صوت، هي خائفة.. ولن تنكر!!

أن تعشق تلك سعادة، أن تصبح ملك المعشوق فتلك حياة.. لكن لحظة التملك الأولى دومًا تحمل بداخلها رهبة هي لا تتحملها أبدًا وتخشى لقائها..

تباعدت الأهداب والعقل يحمل فكرة، تطالع تلك الصورة بين يديها، بسمتها المحبة وعينيه الذائبتين في ملامحها، قربه وضمته وهمسته التي خطت تلك الابتسامة فوق شفتيها حينها:

- بحبك.

وتكرر التنهيدة بلسعة نار، الرقصة التي احتواها فيها لأول مرة بين ذراعيه، رفضها وضغط الصديقات، استجابته وانتظاره بصبر حتى وافقت بعد تردد، قربه الحميم واحتضانه الرقيق، تمتماته العاشقة ووعوده التي بنظرها لم تكن أكثر من وعيد سرت له الرجفة في جسدها كله..

رجفة شعر هو بها..

فنظر إليها بتساؤل كان جوابه واضحًا على وجهها، حظت بتأمل حنون واحتواء دافئ في مقلتيه بلونهما الفريد، وخفوت نبرته الباعثة على الاطمئنان:

- خايفة من علي ياريم؟

غرقت فيه أكثروأجبرت رأسها على هزة نافية فقبل جبينها:

- إوعي تخافي أبدًا.. حضن علي هو أمانك..

ورفع وجهها إليه ليكون الغرق لمسافة أعمق:

- أنتِ عارفة ده.. مش كده؟

ابتسمت ووافقته، وبادلها البسمة بغمزة شقية تشبهه أكثر، مر الوقت دون أن تلحظه، ربما لأنها لا تريده أن يمر..

انتهى الزفاف، حملها بين ذراعيه كحلم كل فتاة، فارس وسيم وعاشق مجنون وثوب منفوش.. رجلها هي الذي يضمها إليه كألماسة ثمينة وينظر إليها كطبق فاكهة شهي.

وتلك النظرة الأخيرة أوجلت قلبها وعلت بدقاته عنان السماء..

أنزلها أرضًا وسمعت صوت انغلاق الباب، خطواته الحثيثة خلفها، وقوفه الصامت لثوان، ذراعاه اللتان أحاطتا بخصرها تقربها منه وهمسه في أذنها حتى شعرت بحرارة أنفاسه:

- أخيرًا.

وارتعشت..

ارتعشت وابتعدت ولم تمنحه متعة لقاء الأعين، رفضت وتمنعت وتدللت.. خافت وارتجفت فاستجاب بعطف شفوق ووعدها بليلة أخوية..

وابتسمت ساخرة!!

الليلة الأخوية تبعتها ثانية وسفر فثالثة ورابعة حتى فاض الكيل فأصبح اصطناع الدلال محض عبث، والاستسلام هو الفريضة التي لا مهرب من تأديتها..

تخشبت بين ذراعيه وكان خجلًا بعينيه!..

استدعى كل طاقته للسيطرة على مشاعره فحبيبته بين يديه، ملك له.. أميرته، زوجته.. طالب قلبه بكل حنان ممكن، وأمر جوارحه برقة تستحقها هي..

ومرت الليلة بسلام...

أخرجها من أرض الذكرى صوت مفتاحه في المزلاج، نهضت بتكاسل ترف بجفنيها في تتابع سريع، تتساءل بقلبها:

- ياترى في خناقة جديدة النهاردة ولا لأ يا علي!! ..

ذهبت نحو الباب تستقبله ببسمتها المعتادة بينما يمنحها قبلة خافتة على الجبين لتجازيه بهروب مكرر هو روتين كل يوم!!

***

الهروب روتينه هو أيضًا، فراركمن يهرب من وباء..

لكنه يهرب من محيطها، مَن جمعته الأقدار بها وربما لعبة ما لا يدرك خيوطها، مَن يرفضها ويريد غيرها لكن تلك الأخرى لم تعد له..

قضى اليوم كله خارج المنزل.. يكاد لا يطيق وجوده معها خلف نفس الجدران، يشعر بها تشارف الانطباق على أنفاسه ولا حلول وسطى هنا.. فالفراق ليس جزءً من الصفقة، حتى لو تضمنت يومًا ما غيرها.. وتلك الـ "غيرها" لن تكون مَن تمنى، عشق وأراد!!

كان يصعد الدرج ببطء متثاقل على نفسه وروحه الغارقة في هَمٍ لا يليق بها؛ عندما وجدها أمامه، تطلع إليها بلهفة أخفاها جيدًا خلف جفنين شبه منغلقين، دموعها التي تذبح فؤاده، بل تسيل فوقه كحديد مصهور حارق لا شفاء لندوبه، توقف قبل أن يصل إليها، بينهما ثلاث درجات، يرفع رأسه

يطالعها بصمت، وتناظره هي بسكون.. وجدها تمد يدها إليه دون حديث، علبة مخملية أنيقة يعلم جيدًا محتواها وبنبرتها وجع طعن قلبه:

- أظن دلوقتِ مش من حقي أحتفظ بيها!

أغمض عينيه للحظات يستعيد فيها ثباته، يحلم أو يتمنى أو يرغب في غد كما ينبغي له أن يكون، تشددت قبضتاه بقوة، عاد يتأملها ويهز رأسه في نفي:

- لأ.. خليها معاكِ، يمكن ربنا يجمعنا!!

كانت ترفض حديثه أو أي تبريرات يسوقها لمستقبل هو درب من الخيال:

- ما أفتكرش..

وعاتبته بعينيها، أنبته، لامته ونال كل توبيخ ممكن من نظرتها الكسيرة:

- أنت ما حاربتش عشاننا.

كلامها حاد ينحره ببطء، لم يجد ما يقوله فنالت صمتًا كان دويه أعنف من ألف قنبلة، علا نحيبها بخفوت، اهتزكتفاها واعتصرت أهدابها تغالب عبراتها:

- للدرجة دي ما كنتش غالية عندك؟



ونجحت في انتزاع كلمة تتهلف لسماعها وهو يلتفت إليها، يحيطها بدفء نظرة ويهتف مكذبًا ما نطقت به:

-لأ يا أمنية.. ما تقوليش كده، والله بحبك، بس...

وبالطبع ابتلاع ما تبقى من كلمات هو أمر عقلاني بحت، فلن يلقي بتوعد أسود على رأس من سرقته منها أمام شقيقتها..

نعم.. توعد، فإن كانت قد حصلت على ما أرادت ومنعته ما أراد، فسيذيقها جحيمًا لم يُجل بأشد خيالاتها جموحًا!!..

صعد درجة أخرى، وبحنو أمرها:

- خليها معاكِ.. مين عارف!

تعلقت عيناها به ترغب في التصديق، الأمل يدفعها، الحلم والأمنية.. لكن الواقع يدهس كل التوقعات ويلقي بها في غياهب جُب لا قرار له..

غادرها وبداخله غليان فائر، تصاعد حد الاحتراق ولا سبيل لانطفاء جذوة غضبه إلا بعقاب، وهو لن يتوانى فيه أبدًا، فتح باب المنزل بعنف، أغلقه خلفه بعنف أكبر وصرخ بنبرة مفزعة:

- سميييييية..

***



بين الذكرى والحاضر تفاصيل.. لحظات ربما وددنا في حين ما أنها لم تحدث، لم نمر بها، لم نخطو بحماقة في دروبها!!..

بين الأمس واليوم أفكار جالت بحرب داخل الذهن الغائب فيها، حررته من قيد ما لتوقعه بأريحية في أسر قيد أشد قسوة خالف كل توقع وقتل كل خيال..

شاردة هي في لحظة البداية، شرود استدعاه وقوفها في مطبخها تصنع له مثلجات الفراولة التي يفضلها.. وبالتالي أصبحت مفضلتها أيضًا، والبداية لها دومًا نكهة خاصة لا تنمحي من العقل أبدًا، ربما لأنها تحمل في طياتها.. الشرارة الأولى.

يومها عاد به والدها، طفلًا صغيرًا واجم الملامح، دامع العينين تعيس النظرة، سلمه لوالدتها وأخبرها بعطف:

- نبيل هيعيش معانا.. الله يرحم أخويا ومراته، عامليه زي ولادنا يا دلال.

وكان ينبهها، وينبه ابنه الأكبر الذي ابتسم للصغير برفق أنشب في قلبها مخالب الغيرة، طفل جديد يقاربها عمرًا، تتلقفه أحضان أمها الحنون، وعناية أبيها بل وصداقة أخيها الوحيد!!

حينها اكتنفها الخوف، أعلنت الغضب.. والإعلان دلالته اعتزال، دموع وابتعاد عن الجميع، ورغم محاولاته الاندماج والقرب، ومحاولات أبيها

ضمه إليهم إلا أنها عاندت ورفضت وتباعدت أكثر.. حتى ذلك اليوم الذي تغيرت فيه القصة لتصبح من دنيا الأحلام..

تتهادى في سيرها عائدة من مدرستها، طفلة صغيرة وجميلة بالطبع لن تتخلص من مضايقات المشاكسين الصغار، يجذب أحدهم جديلتها، يقف آخر أمامها مشترطًا حلواها لتمر، يهتف واحد من بعيد أن يتركوها لحالها دون تدخل فعليّ..

وظهر هو بغتة..

كبطل همام، فارس مغوار واجتذب القلب قبل العين وقتما تشاجر لأجلها، يضربهم فيضربونه حتى فاز بالجميلة، مسح دموعها وطمئن نبضاتها الخائفة، سحبها ورائه ودللها بمثلجات تحمل نكهته المحببة، بعدها أصبح ملاكها الحارس.. وما هو أكثر، كان رفيقها الدائم:

- ماتخافيش.. أنا معاكِ.

وبكت كسيل، لم تتوقف دموعها رغمًا عنها، ربت على كفها وضمه بين كفيه:

- حبيبة.. كفاية دموع، ما تخافيش.

ثم ابتسم متظاهرًا بشجاعة:



- أنا طحنتهم..

ومال برأسه يقابل وجهها المطرق أرضًا:

- ضربتهم عشانك.

ورفع ذقنها لينظر إليها بدفء طفولي محبب:

- ولو حد اتعرض لك هاضربه تاني.. أنا معاكِ وهاخلي بالي منك.

بعدها عاد يبتسم يطالبها بمبادلته البسمة:

- بطلي عياط بقى.

واستجابت لأمره اللطيف، تعلقت برقته وحنوه، وتعلق القلب به..

لاحقًا أصبح هو الصديق والرفيق قبل الحبيب، يلعب معها بدُماها، يترك ألعاب الأولاد بل وصداقة الأخ الأكبر ليكون معها، وهي اعتادت ذلك الوجود، بل أدمنته، وانتهى الأمر بتقليدية في عرف مجتمعها الضيق..

"حبيبة لنبيل ونبيل لحبيبة"

صدقت، وصدق..

واكتمل الحلم داخل القلوب التي احتفظت به في صمت، حتى أنهيا دراستهما الثانوية معًا؛ فعقد الوالد قرانهما لتصبح زوجته..

ثم مات الأب واستمرت بهما الحياة، ترك كليته التي يرغبها ليصاحبها في دراستها.. تخرجا سويًا من كلية التربية، عملا معًا وانتهيا معًا.. وعادت للحاضر ترسم على شفتيها بسمة شجن..

وضعت المثلجات بالمبرد، وفكرة ما تطوف بذهنها.. فحياتها التي تعيشها مُسيَّرة، لا تختلف كثيرًا عن برودة وصقيع ما قامت بصنعه الآن.. ونعم..

كلاهما من صنع يديها، قدرها واختيارها.. ولا مفر!

***

بعضنا يتميز بالجرأة في اتخاذ القرار وتبعية تنفيذه، والجرأة جيدة على أية حال.. فقط إن كنا قدر تحمل تلك التبعية بالفعل!!..

ومن قال أنها ليست قدرها؟!..

نعم هي تثق بنفسها، بحقها، وبسبب عودتها لتناله حتى لو كان الاستقبال الذي أتحفوها به حارًا كالقطب الشمالي بالضبط..

استكانت في فراشها بثوب أبيض فضفاض عاري الكتفين، لملمت خصلاتها الذهبية فوق أحد كتفيها واستعادت ذكرى وصولها مع ابن عمها المرح الوحيد في هذه العائلة.. والوحيد الذي استقبلها بصفاء لم تجده حتى مع مخطوبته الرقيقة والباردة في ذات الوقت..

برودًا تدرك أنه لحظي مفاجئ عندما وقعت عيناها على ابنة عمها، الفتاة المتحررة القادمة من عالم لا يشبه عالمها في شيء، تضاحك خاطبها بحرية، ويشاكسها هو بمكره المعتاد..

اسقبلتها أمه بمصافحة جامدة وترحيب فاتر ولقب انعقدت له معدتها بتوجس:

- حمد الله ع السلامة يا لارا.. بنت درة لازم تبقى زي أمها.. قمر.

وكانت تلوي شفتيها بمصمصة عجوز ناقمة، تلقت الكلمة دون تعليق وتقبلت المصافحة بصمت، وشقيقتها التي لا تدري لها موقعًا من الإعراب، استقبلتها هي الأخرى بترحيب يخبرها بوضوح أنها غير مرغوب في وجودها.. هي تدرك ذلك لكن هؤلاء القوم بالفعل لا يعلمون كيف يستقبلون ضيفًا!!..

وفي الحقيقة هو ليس بضيف بل صاحب حق ومن أهل الدار..

حتى والدة "هبة" كان استقبالها جافًا متباعدًا لا تفهم دوافعه فقررت تجاهل الكل وتعاملت معهم ببساطتها وطبيعتها العفوية..

جنَّ عليها الليل.. أول ليلة وملل لا حد له في ساعات معدودة أصابها خلالها أرقٌ أيضًا، نهضت من فراشها، خرجت من غرفتها تتطلع حولها بحذر مترقب.. تبحث عن أحدهم ولم تجد فتنهدت مرتاحة، ذهبت إلى حديقة

المنزل الضخم وتجولت فيها لدقائق قبل أن تجد أرجوحة لطيفة اتجهت نحوها..

جلست فوقها وأغمضت عينيها تفكر ثانية، تحسب للغد حساباته، قد تخشاه لكن مواجهة مخاوفها هي وسيلة الدفاع الوحيدة التي تمتلكها.. بل وتفضلها..

لم تشعر بالخطوات المقتربة بهدوء شديد، لم تنتبه لوقوف صاحبها في مقابلها لدقائق لسن أقل من خمس، تأمله لها وحرير خصلاتها تداعبه نسمات الهواء فيطير بعيدًا عن وجنتيها ثم يعود ليلامسهما برقة تشبه القبلة..

ملأ عينيه حد التشبع بتفاصيلها، مرمرية كتفيها ورموشها الطويلة، جسدها العامر بأنوثة طاغية ورقتها الواضحة دون رتوش..

التوت زاوية فمه بلؤم عابث وتنحنح بخفوت تفادى فيه إفزاعها، فرَّقت جفنيها بسرعة لتواجه تلك النظرات الماكرة، التأمل الجريء حد الوقاحة، الابتسامة الخبيثة والوسامة البرية التي تجذب أي أنثى عاقلة فتخرجها عن طور تعقلها!..

قامة ممشوقة متوسطة الطول وجسد رياضي، ذقن نابتة بعشوائية مثيرة، عينين كجرة عسل خالص صاف، وشعر أسود لامع تحت ضوء

القمر يلامس بشرة لوحتها الشمس بجاذبية خطرة، منحها فرصة لاحتواء صورته بالكامل قبل أن يتحدث بخفوت ونبرته أبحة:

- سلام على جسدٍ كالخرافة

يفتحُ كالورد أجفانهُ

ويختارعَني فطور الصباح

ويسكب لي قهوتي بيديهِ

فأشعر أن السرير يسافِرُ فوقَ الغمامْ

سلام على الخصرِ يخطر بالبال مثلَ المنامْ

وضحكت.. هو يحييها بأشعار نزار بعد أن احتفظ بكل ما فيها وارتوى، ابتسمت بشقاوتها الفطرية وبادلته التحية باستكمال ما قال رغم جرأته:

- سلام على الصيفِ

حين يطيرُ.. ويحين يحطُّ الحمامْ

سلام على الماء يخرجُ لي من ثقوب الرخامْ

اتسعت بسمته فظهرت أسنانه كحبات لؤلؤ مفرطة البياض وهو ينحني نحوها بميل طفيف:

- سلام على قمرين يدوران حولي..

فهل تنقلين إلى عينيك السلامْ؟!

وعاد يتراجع منتصبًا، يغمزها بعبث.. ويهمس بحميمية:

- واضح إننا هنتفق!!

***

كان يتابع مدخل المكان بعينيه في توتر..

مقابلة أنثى لأول مرة، واحزر ماذا!!.. هي أنثى معجبة اختارته هو دون غيره، خط عرق بارد سال بجوار حاجبه الأيسر، مد يده يمسحه والترقب في نفسه على أوجه..

لقد أجبرها على مقابلته، المرة الماضية واعدته وأخلفت الموعد، يومها أنبه والده لسوء تركيزه وليلتها هاتفته باعتذار قبل أن يباغتها:

- قولي لي أنتِ مين!

صمتت وصمتها ألهب فضوله أكثر، وهي أنثى تتفنن في التخطيط لنيل قلبه، لذا الصبر حتى اكتمال النضج هو مسلك النصر الوحيد:

- طيب ليه ما جيتيش المحل زي ما وعدتيني؟

وترددت بجدية قبل أن تجيب:

- خفت باباك يعرفني.

كاد أن يجن، هتف بعصبية:

- كمان أبويا عارفك!!..

وزفر بحنق:

- بصي يا بنت الناس.. أنا راجل دوغري، لا بتاع بنات ولا ليَّ في اللف والدوران.

ثم عاد يتنهد والغيظ يملأه:

- قولي أنتِ مين أو تنسي الرقم ده وتمسحيه من عندك!

ودمدم باستطرادة غاضبة:

- حتى لو اضطريت أغيره.

حينها اقترحت مقابلة أخرى ووعد صادق هذه المرة.. شرط أن تكون بعيدًا عن محل عمله أو أي مكان يمكن أن يراها فيه أحد يعرفها.. ووافق، وها هو يجلس في أحد المطاعم بانتظارها وتساؤل يتعاظم بداخله في قلق:

"كيف سيعرفها؟!"

ويعود ليطمئن روحه بشبه ثقة:

"هي تعرفك"



فجأة وجدها تقف في مقابلته بخجل رقيق، بعيون واسعة تشبه بطلات الرسوم المتحركة.. واسعة حد الغرق بين أهدابها الطويلة من نظرة واحدة، بشرة بيضاء ناعمة ورقة من عالم الحلم.. طال تأمله لها حتى ابتعدت بعينيها دون أن يدعوها للجلوس.. تنبه لنفسه فجأة فتنحنح ونهض بترحيب خالطه اعتذار:

- آسف.. اتفضلي.

استجابت لطلبه برهافة فعاد لمجلسه متسائلًا بهمس:

- تشربي إيه؟

هزت كتفيها في خفر:

- أي حاجة!!

نادى النادل وطلب لها كوبًا من عصير الليمون وله فنجانًا من القهوة دون سكر، ظللهما الصمت بارتباك واضح منه وخجل جليّ منها..

حتى استجدى لسانه العاجز حركة طفيفة خرجت على إثرها حروفه باهتة متحشرجة:

- ممكن أعرف بقى.. أنتِ تعرفيني منين؟!

رمشت بأهدابها الطويلة فجذبت نظراته في الحال.. تمتمت بحياء:

- أكيد أنت تعرف عيلة الحاج سلامة سند.

انعقد حاجباه وانتبه عقله:

- أعرفهم بس مش معرفة شخصية.. حمزة بس.

وتذكر أن "حمزة" لديه أختان إحداهما متزوجة.. والصغرى يتذكرها طفلة بضفائر ووجه محمر على الدوام، لكنه لم يرها منذ سنوات عديدة.. هل كبرت إلى هذه الدرجة!!.. هتف باستبصار مفاجئ:

- أيوة عرفتك.. أنتِ آية؟

فتحت فمها مسارعة تنفي ما وصله، لكن نظرته الملهوفة وتعلق عيناه بها جعلها تغلق شفتيها، تصمت مفكرة..

يجب أن تتملك قلبه قبل أن تخبره بحقيقتها!!.. أنها "رانيا".. الفتاة التي لا تملك من المال ما يغريه، ابنة أخي الحاج "سلامة" التي ذكر اسم ابنته بتلقائية وتذاكي.. حينها فقط سيتمسك بها رغم كل شيء ورغم كل العراقيل، تراجعت تهرب بنظراتها ولم تجب سؤاله، بسمته الواسعة وازت انتصارًا انتشر بداخله..

خرج من المقابلة ركضًا، يقبل يد والده الذي انشغل بمسبحته قبل أن يفاجئه بطلبه الجاد دون نقاش:

- بابا.. أنا عاوز أخطب آية بنت عم سلامة شريكك.

الفصل الخامس

هل يولد الإنسان محملًا باختياراته؟.. أم فقط يندفع معتمدًا على ما يلتقطه من إشارات بطريقه

فإذا كانت اختياراته تولد معه، لمَ إذاً يتيه بأفكاره بين خيروشر!...

لمَ يحاسب على خيارولد معه بالفعل كلون عينيه أولون شعره..

ولوكان الأمرغيرذلك.. لمَ يحاسب على شيء لم يُمنح العقل السديد ليختاره!..

وهنا ليس المقصود الناحية الدينية.. وليس النقاش خاص بوجودية الإنسان...

بل المقصود الاختيارات التي يمنحها الإنسان لأخيه الإنسان.. أوربما لابنه.. أولربيبته اليتيمة...

واليتيمة المذكورة هنا.. سمية.. تلك التي اعتادت سلب خياراتها على الدوام.. فترضى بما هو متاح.. تنفذ ما تؤمربه بصمت لتقنع عقلها لاحقاً أن ذاك هو اختيارها الخاص..



حتى زواجها من حمزة.. شقيق زوجها الراحل.. والخطيب السابق لشقيقتها.. وليس خطيبًا فقط.. بل حبيبًا أيضًا.. وتدرك أنه لم ينل لقب سابق لتلك الصفة..

تلمس غضبه.. بل حقده الناري.. ولا تعلم متى يهدأ.. أو حتى الوسيلة لتهدئته..

وشقيقتها.. الوجع الأكبر.. الجرح الذي لاشفاء منه.. ترى حزنها بعينيها وفرحتها المكسورة بحبيب غاب سنوات وعاد.. ولكن لم يعد من حقها..

كيف تشرح؟.. وبم تبرر؟.. هل تخبر الجميع أنها أُجبرت؟..

ولكنها كانت مخيرة.. خُيرت بين المُر.. والعلقم.. فهل تلام لأنها اختارت المُر؟.. هل تلام لهروبها من العلقم؟..

هل تلام على اختيار دُفِعت له وهي بلا حول ولا قوة كما كانت دائماً وكما ستظل أبد الدهر...

كانت تلك الهواجس تدور بعقلها المشوش وهي تسمح للمياه الباردة بالانسياب على جسدها المرهق.. بعدما انتهت من إعداد طعامه كما طلب، بل أمرها.. وقبل ذلك أنهت أعمالها المنزلية جميعها.. واختزلت عدة دقائق تسمح فيهن لنفسها بممارسة آدميتها والتمتع بحمام دافئ.. سرعان ما

تحول لبارد لنفاذ المياه الساخنة.. ولكنها لم تمانع.. فقط بضعة دقائق تنساب بها المياه لتزيل إرهاق جسدها وربما أوجاع روحها...

أنهت حمامها بسرعة وذهبت لغرفتها لتنهي ارتداء ملابسها قبل وصوله.. فهي لا ترغب بمشاجرة جديدة لتأخرها في إعداد طعامه.. وكأن ما يحدث يطلق عليه لقب مشاجرة!..

ذلك السيل المتواصل من الإهانات ينحدر من بين شفتيه بصراخ يصم أذنيها ويعقبه بنوبة غضب لا تنتهي إلا بخروجه من المنزل.. وهي تظل في حالة صمت لا إرادي.. فهو لا يمنحها مجرد لحظة لتبرير أي خطأ يلحظه.. وبالواقع هي لا ترغب بالتبرير أو الشرح.. فما الفائدة!..

عكست مرآتها صورة لامرأة شابة بملامح مطحونة مجهدة.. مما جعلها تقف لتتساءل.. هل تعكس ملامح الوجه ما يموج بداخل الروح من ألم؟..

سمعت كثيرًا أن العينين مرآة للروح... ترى ماذا تقول مرآتها؟.. هل تخبر بهلاكها الروحي؟.. أم تشوش رؤية البعض ليروها الملاك الأسود.. هادمة السعادة ومحطمة القلوب؟..

تمسكت أناملها بمنشفتها العريضة وهي تكمل رحلة شرودها أمام المرآة.. تراقب علامات حفرها الزمن على ملامحها التي أكملت ثلاثة وعشرين عامًا بالكاد.. ولكنها تبدو وكأنها تخطت الأربعين.. بل ربما أكبر..

تحسست ملامحها بأنامل مرهقة تتبع خطوط حفرها الزمن ولا يصح تواجدها بوجهها الفتي.. لتنتفض على زعقة صارخة لم تمهلها حتى التحرك من أمام مرآتها..

"سميييييييية"..

أعقبها اقتحام عنيف لباب غرفتها لتقع عيناه عليها وهي واقفة أمام مرآتها لا يسترها إلا منشفة عريضة وأناملها تجمدت على وجهها الذي امتلأ بعينيها الداكنتين ذاتا النظرات الفزعة..

اندفاع الباب العنيف نفضها من مكانها بفزع، التفتت نحوه لتجده ينظر إليها باستهتار مشمئز، يجوب بعينيه فوق جسدها الرطب في غضب لا تعلم له سببًا:

- فين الغدا يا هانم؟!.. واقفة لي قدام المراية ليل نهار على إيه مش فاهم!

وتقدم خطوة وازت ازدياد انعقاد حاجبيه المنعقدين على الدوام كأنما هي خِلقته:

- أنا مش هينضحك عليا بحركات الستات دي..

وخطوة أخرى مع كلمات كالرصاص اعتادها لسانه:

- أنا مش زي أخويا.. أنتِ هنا خدامة وبس..

ثم رمقها بنظرة محتقرة تبعتها إشارته بإصبعه للفراش خلفها:

- وخدماتك هنا..

ومال رأسه تجاهها بقسوة ملأت مقلتيه:

- مش مطلوبة!

كانت شياطينه تتناطح أمام عينيه وغضب أسود يحثه على الفتك بها.. من خطفت حلمه وحطمت قلب حبيبته.. فقذف بكلماته المهينة وكأنها سلاحه أمام صمتها.. صمتها الذي ارتج وجعًا وألمًا وهي تتلقى الإهانة تلو الأخرى بصبر وسكون..

سكون لم تستطع الاحتفاظ به أمام إهانته الأخيرة.. فارتعد جسدها برعشة خوف وضغطت أناملها على منشفتها العريضة وكأنها تستمد منها الثبات والصمود أمام صراخه المهين.. تغمض عينيها هربًا من نظراته المشمئزة المتقززة فتشتعل مراجل غضبه ويفقد سيطرته كليًا ويجذب المنشفة من بين أناملها الضعيفة كاشفًا ستر جسدها كما انتهك روحها منذ دقائق ولم يكتفِ بل عاد يصرخ بغضب فقد سلطانه عليه:

- كفاية حركات بنات الليل والعاهرات اللي تعرفيها دي.. أنا أساسًا مش شايفك وعمري ما هشوفك ست قدامي.. أنتِ مجرد.. مجرد..

أناملها التي تحيط بشفتيها بفزع تحركت بجنون لتخفي ما كشفه من جسدها.. تحتضنه بهلع محاولة ستر نفسها والاختباء بين أحضان ذراعيها فهي لا تملك سواهما سترًا.. لسانها تجمد عاجزًا عن التفوه بحرف وهي تلمح عينيه تجول من رأسها لقدميها وتعود لترتفع لعينيها مرة أخرى وقد لمعت بهما نظرة التقزز والاشمئزاز الخاصة بها من عينيه فقط ليقذفها بالمنشفة ويصرخ مكملاً:

- خدامة.. خداااامة..

صرخ بكلمته وانطلق مبتعدًا بعد أن أغلق الباب بنفس العنف الذي اقتحمه به وتوجه لغرفته ليضرب أول جدار يقابله بقبضته وقد وصل غضبه ذروته..

غضب ممزوج بالندم وإحساس خفي بالذنب..

فهو أهانها بشدة.. جرحها بعمق.. آذاها عامدًا متعمدًا.. ولكنه مجبر.. هو لا يملك زمام غضبه ولا ناصية قلبه..

أغلق بابه بعنف يدفعه الندم أكثر من الغضب.. بينما تلك المحطمة نفسيًا وأنثويًا بغرفتها تنهار متهالكة أرضًا على ركبتيها، جسدها المخفي بين ذراعيها يختض فزعًا وقهرًا وقد تصدع جدار تحملها أخيرًا وتحطم قناعها الجامد



لتنساب بضعة دمعات متتالية تحرق عينيها وكأنها تستفزهما ليطلقا سراح سيل من الدموع قاومت طويلًا لتمنعه..

وغلبت إهانته مقاومتها.. لتعود بلا حول ولا قوة كما كانت وكما ستظل أبد الدهر..

***

ومع الحديث عن الاختيارات.. تتعدد الكلمات.. وتزداد فرص الشرح والتوضيح.. فكما أن هناك من يُدفع لخيار ما.. خيارًا يظنه الوحيد وقد سُلبت منه حرية الموافقة أو الرفض..

هناك أيضاً من دُفعت لخوض حياة تظنها حقيقية فقط لتثبت أنها طبيعية بقدر أي امرأة أخرى.. فقط لأنها أرادت حياة.. وربما أرادت هربًا...

جمعت ثيابه بين ذراعيها.. تعلق قمصانه بعناية ورقة شديدة.. تمسد ملابسه الخالية من جسده.. فهي تعلم أنها لن تجرؤ على اقتراب عفوي كهذا بوجوده.. تهيم شاردة بزوجها وحبيبها..

تظلمه..

هي تعلم ذلك يقينًا.. ولكنها عاجزة عن التقدم نحوه.. مجبرة على تحمل وضع يقتلها.. يقتلها عشقه لها.. ويقتله عشقها له.. والاثنان بطرفي معادلة لا حل لها..

شعرت بخطواته خلفها.. بل شعرت بوجوده وأنفاسه قبل أن تلفت نظرها خطواته.. اقترب ببطء ليحيط خصرها بذراعيه محتضنًا جسدها من الخلف ليستشعر تصلبها اللحظي على الفور.. ولكنها جاهدت لتخفي ردة فعلها.. فأغمضت عينيها بقوة.. وضغطت أسنانها بحزم لتغلق شفتيها تمنع خروج لفظة اعتراض من بينهما.. ليصلها همسه الساخن:

- وحشتينى...

ومع همسته خرجت أنفاسه الساخنة تجوب عنقها لتفقد كل قدرتها على التحمل وتصرخ مبتعدة عنه تتملص من بين ذراعيه بجنون وتقاطع همسته وقد أعماها إحساسها بالتقزز:

- علي.. قلت لك ميت مرة بلاش تعمل الحركة دي!.. مش بحبها..

زفر علي بحنق:

- كل حاجة.. لأ.. بلاش.. باتضايق.. مش بحب كده..

ثم ارتفع صوته بغضب:

- في إيه يا ريم هو أنا أجبرتك تتجوزيني!!

شحب وجهها وتلعثمت كلماتها بارتباك جليّ وكأنها تثبت الإتهام على نفسها.. إتهام هي بريئة منه كليًا.. فحبها له هو ما دفعها للزواج منه.. أرادت أن تهرب

به من كل شيء.. من كل هاجس.. أرادت الشفاء.. ولكنها لم تنل سوى مزيدًا من الألم.. لها.. وله..

حاولت استرضائه ببضع كلمات اعتذار لا يسمن ولا يغني من وجع:

- أنا آسفة يا حبيبي.. ما أقصدش طبعًا.. أنت بس فاجئتني و..

رمقها بنظرة تعرف معناها جيدًا..

هو غاضب..

غضب نابع من جرحها المستمر لرجولته.. من عدم قدرتها على مبادلته عشقه.. من شعور تمنحه له على الدوام.. شعور لا يمكن توصيفه سوى بأنها تشمئز من وجوده.. من اقترابه ولمساته.. حتى همساته لا تطيقها..

أنهى محاولة اعتذارها بإشارة حاسمة من يده:

- ممكن تعمليلي فنجان قهوة؟.. ورايا شوية شغل لازم اخلصهم..

تركها وحدها بالغرفة وخرج تحيطه هالة من الغضب الممتزج بالإحباط بينما هي تعض أناملها ندمًا وحيرة.. لا تريد إغضابه وتعجز عن إرضائه.. وعودة لطرفي المعادلة التي لا حل لها إلا تقديم تنازل.. ومحاولة استرضاء..

والمحاولة تتطلب ارتداء إحدى تلك الغلالات الرقيقة والقصيرة التي يعشقها علي.. والاسترضاء يلزمه اقتراب أنثوي تدركه جينات الأنثى بها

وتقيده هواجس تحيا معها على الدوام.. تغلبت على هواجسها يدفعها حبها له.. واحتياجها لوجوده بجانبها.. دفئه وحنانه اللانهائي.. حمايته التي تظللها على الدوام..

وأنهت محاولة استرضائه بابتسامة رقيقة تعلم تأثيرها على غضبه الذي انحسر ببطء وهو يلحظ حركاتها الخرقاء حوله وهي تحاول استرضائه بكيانها الأنثوي الهش الذي انتهى محمولًا بين ذراعيه وممدًا على الفراش يجاورها جسده الذي اشتعل شوقًا لها بمجرد رؤيته لبسمتها الرقيقة المعتذرة..

وكادت أن تنجح محاولة الاسترضاء.. نعم كادت.. فلهفتها للاعتذار أنستها أهم ما تحتاجه لتكمل ليلتها بين أحضانه.. فقد غفلت عما تغيب به وعيها متعمدة.. وها هي بين ذراعيه بحالة وعي كلي وكامل.. بحالة تخشب جسدي كجثة بلا روح.. فقط أنفاس لاهثة تتردد.. ليس بفعل الرغبة أو المتعة.. ولكن اشمئزازًا وهلعًا..

لاحظ علي وضعية الجثة التي اتخذها جسدها وكأنها ترفض تقربه بشكل لاإرادي.. عيناها تنغلقان بعنف مع رعشة سريعة لأهدابها التي لمعت دموعها المحبوسة خلفهما.. أظافرها تمزق الفرش كأنها تستصرخه قوة التحمل.. وشفتاها مطبقتان بزمة تحمل رفض لا يمكن إغفاله..

ابتعد عنها بسرعة.. عيناه تلمعان بغضب مجروح.. ولسانه يكويها بكلمات موجعة:

- أنتِ.. أنتِ.. للدرجة دي رافضاني؟.. أنتِ فاهمة أني حيوان ممكن أعاشر جثة؟.. أو منحرف ترضيني علاقة مع ست رافضة وجودي؟..

صمت بوجع ولكنه لم يحتمل فأكمل:

- ريم.. أنا محتاج أحس بحبيبتي.. زوج عايز زوجته.. بحب ومودة..

هز رأسه بعنف رافض:

- مش هسمح أنك تشوهي علاقتنا لأوهام في دماغك.. أوهام وجنون نفسي أعرف سببه.. مش هسمحلك يا ريم..

تركها وجمع ملابسه وغادر.. وتلك المرة غادر المنزل بأكمله.. بينما هي تكومت على فراشها تنشج ببكاء مكتوم عاجزة حتى عن احتضان نفسها ومنحها مواساة حتى لو كانت بلا معنى.. فهي تدفع زوجها للرحيل.. تجبره على اختيار البعد.. حتى لو بأعماقها تحترق لتقترب..

***



واختيار.. أو إجبار من نوع آخر.. فاعلان الانتماء ليس بخيار.. البحث الحثيث عن حق شرعي.. هو واجب لا فرار منه.. لا مجال هنا للاختيار بين استرداد الحق والتنازل عنه..

لذا فالإجبار هنا فرض عين..

ذاك الحق لا يمثل حفنة من الأموال والسندات فحسب.. كلا.. فميراث لارا الشرعي ترغبه لتعيد لوالدتها كبريائها.. لترتاح روح والدها بقبره..

هي تريد حقها بوجود عائلة.. حقها بأن تكون مقبولة ومرحب بها بين أهل والدها..

وهي ستنتزع ذلك الحق.. ستنتزعه انتزاعًا.. لو لم يكن بالمحبة والمودة فليكن بالقوة..

ستثبت للجميع أن درة أجادت تربية ابنتها.. وأن كامل اختار نعم الزوجة والأم..

تدرك أن محاولة اكتساب صداقة أو حتى ود زوجة عمها وشقيقتها محض عبث.. ولكنها لم ولن تتوقف عن محاولة كسب ود هبه ابنة عمها.. فهي تبذل أقصى جهدها لتكون صديقة لهبة.. أو حتى قريبة منها..

أما بالنسبة لعماد ابن عمها فهي تستشعر معاملته الودودة.. تدرك بالطبع محاولات مغازلاته العبثية وتحبطها على الفور بإخباره أنها تعتز بصداقته

وأخوته.. فيطلق ضحكة عالية.. ويعود لمعاملته الودودة ولكن بشكل أخوي.. مما يشجعها دائمًا على التواجد برفقته.. فهو سهل المعشر والمعاملة.. لا يحمل خبث والدته ولا مكر خالته.. وبالتأكيد لا يعاملها ببرود مفتعل كما تحاول هبة..

قاطع شرودها صوت أجش أصبحت تعلم من هو صاحبه:

- أيّتها اللّماحة، الشّفافة العادلة، الجميلة أيتها الشّهية، البهيّة الدّائمة الطّفولة..

لفت رأسها لتلمح نديم بطوله المميز ووسامته البرية ينحني ليطبع قبلة ناعمة على يدها.. لتطلق ضحكة رقيقة رائقة وهي تسأله:

- كل مرة نزارولا إيه!..

منحها ابتسامة جذابة ليخبرها وهو يتخذ مقعده بجوارها حول المائدة الدائرية بحديقة الفيلا:

- نغير؟.. المقابلة الجاية عبد العزيز جويدة..

ووضع بين يديها كتاب يضم مجموعة قصائد للشاعر المذكور مما جعلها ترفع عينين تحملان نظرات دهشة:

- معقولة!.. في رجل أعمال وقانون يهتم بالأدب والشعر كده!!

ضيق عينيه بتساؤل:

- تقصدي رجل أعمال؟.. ولا رجل بصفة عامة؟..

هزت رأسها بحيرة ليردف:

- لو كانت دهشتك أن مجال شغلي بيتعارض مع الاهتمام الثقافي.. فأحب أقولك أن دي نظرة متطرفة.. وإذا كانت الدهشة لمجرد أن راجل مهتم بالشعر فدي عنصرية..

شهقت لارا بتعجب:

- يا خبر!.. تطرف وعنصرية مرة واحدة!!.. لا طبعًا مش قصدي..

رفع حاجبًا عابثًا لتطلق هي تنهيدة غاضبة:

- مش ممكن يا نديم!!.. قلبت الترابيزة كالعادة وحطتني في موقف دفاع.. إزاي بتعمل كده!!..

قطبت حاجبيها بغضب أنثوي لذيذ.. فإذا كان الوقت برفقة عماد ابن عمها يمضي بسهولة بين غزل مصطنع وعبث برئ.. فالوقت مع نديم _وهو خال هبة ابنة عمها_.. يمضي في نقاشات ممتعة.. تبدأها هي بهجوم مستحق وينتهي بها الأمر في موقف دفاع وقد حول نديم الموقف لصالحه ببراعة تامة..

سعيدة هي بصداقة نديم..

هو رجل ذو عقلية قوية لا يستهان بها.. ووسامة داكنة برية تجذب عينيّ أي امرأة سنها بين السابعة.. حتى السبعين.. نديم هو حليف وصديق تعتز بصداقته..

وبينما كانت تتبادل الضحكات والمناقشة الذكية مع نديم اقتحم عماد الجلسة بعبثه المعتاد هاتفًا بلارا:

- لارا.. إيه رأيك نطلع المزرعة دلوقت.. أفرجك عليها.. نركب خيل.. فطير مشلتت بقى ما أقولكيش.. و..

قاطعه نديم بسخرية:

- بس هبة ما بتحبش الفطير..

رمقه عماد بغيظ:

- ومين قال أن هبة هتيجي!

رفع نديم حاجبه بتعجب مفتعل:

- غريبة!.. هتروح تفسح بنت عمك.. من غير هبة.. خطيبتك!!..

بادله عماد نظرة ماكرة قبل أن يردف:

- إذا كان كده يبقى نخطط لفسحة جماعية.. وبالمرة نعزم شهيرة.. مرات حضرتك يا أونكل!!..

قاطعت لارا مناظرتهما الكلامية وهي تنهض غاضبة:

- هيدا الحديث ما بيصح..

ثم حولت لهجتها للمصرية:

- يعني ببساطة يا عماد تقدرتقولي إن نديم متجوز.. ودي حاجة لا تضايقني ولا تخصني.. إحنا أصحاب بس..

ثم التفتت لنديم تخبره بنفس الغضب:

- أنا عارفة كويس أن عماد خاطب.. وخطيبته تبقى بنت عمي بالمناسبة.. يعني أختي تقريبًا.. زي بالظبط ما هو أخويا..

نقلت نظراتها الغاضبة بينهما قبل أن تتحرك هاتفة:

- الكلام اللي قلتوه ده مهين ومش عايزة أفهمكوا بطريقة مش كويسة.. عن إذنكوا..

ما إن خطت بضع خطوات حتى انطلق عماد بأثرها ينادي هاتفًا:

- لارا.. استني بس يا مجنونة.. استني..

لم تنتظره بل لم تلتفت نحوه، استمرت بخطواتها الغاضبة وهو استمر بمطاردة تلك الخطوات تحت نظرات نديم الغامضة..

ومن خلف إحدى النوافذ هتفت ثريا بحنق:

- شايفة اللي أنا شايفاه يا عايدة!

أومأت شقيقتها بحنق:

- اللي بيحصل ده كتير.. كتير قوي..

هزت ثريا رأسها بحقد:

- الماضي بيتكرر قدامي.. والمرة دي بنت درة هتخرب بيتين مش بيت واحد..

هتفت عايدة بغضب والخبث يتألق بنظراتها:

- مش هيحصل أبدًا.. أبدًا.. مش هسمح للماضي يتعاد من تاني... أنا عارفة إزاي أتصرف مع بنت درة..

***

ومع توالي حوارنا بشأن الاختيارات نصطدم باختيار آخر.. أو إجبار بنكهة اختيار..

فالاستمرار بالحياة دافع قوي.. ومن أجله يُدفع الإنسان لاتخاذ قراره.. بالاختيار بين خوض غمار الحياة أو الكُمون بأحد أركانها انتظارًا للنهاية..

ولما كانت الرغبة بالحياة هي فطرة البشر الطبيعية فلنعدل الجملة أولنكن أكثر دقة..

يُدفع الإنسان لاتخاذ قرارٍ باختيار وسيلته للاستمرار..

البعض يختار العمل.. الدراسة.. السفر.. والبعض أقل طموحًا.. فيميل للاستقرار.. وقد لا يكون هذا اختيارًا بقدر ما هو وسيلته للاستمرار..

انتهى صلاح وبسمة من تناول غذائهما وبدآ بجمع أطباق الطعام الفارغة.. وبين مناوشات يومية اعتاداها معًا.. هي تطرده من مطبخها بحزم.. وهو يرغب باحتساء قدح الشاي المقدس مراقبًا إياها تعمل بسرعة وكفاءة وكأنها ولدت بين قطع المطبخ المختلفة.. اتفقا أخيرًا أن يصطحب قدحه الساخن وينتظرها أمام شاشة التلفاز.. ليتابعا أحد الأفلام القديمة والتي يدمن الاثنان مشاهدتها..

حدق صلاح بشاشة التلفاز محاولًا منع نفسه من الشرود بماضٍ قريب.. بالواقع هو يشغل نفسه بمراقبة بسمة وحركاتها طوال الوقت ليمنع عقله من الشرود ببسمة أخرى.. بسمته هو..

بسمته الحقيقية..

يشغل نفسه بعمله.. ينغمس بحياته الزوجية.. يحاول جاهدًا التقرب من تلك البسمة الرقيقة التي غزت حياته حتى لا يغرق ببحور ماضٍ زينته

بسمة أخرى.. كان يحلم معها بحياة مشتركة.. حياة بنيا كل لبنة بها معًا.. حلم وردي عاشا بين جنباته لشهور، بل سنوات.. أعدا عشهما معًا.. كل قشة بتلك الشقة اختارها مع حبيبته..

كل ركن وكل لوحة.. ألوان الجدران.. قطع الأثاث.. حتى فرش السجاد والستائر.. كلها اختارها مع بسمته الحبيبة.. وجاءت بعد سنوات بسمة الزوجة لترحب بالزواج في عش بسمة الحبيبة ووافقته بعدم تغيير أي ركن بها.. ما عدا غرفة نومها التي استأذنته على استحياء أن تبدلها بأخرى أكثر عصرية كما أخبرته..

كان شاكرًا ممتنًا لتفهمها.. ومحاولتها استيعابه هو وماضيه معًا..

تملك قلبًا رحيمًا كبيرًا تلك البسمة.. ولكنها ليست هي.. ليست بسمة الماضي.. ليست الحبيبة الناعمة ذات القد المنمنم والملامح البريئة.. تلك التي كانت تطوف بين جنبات تلك الشقة كطيف ناعم برئ..

يذكر يوم أن اختارا إحدى قطع السجاد.. وأصرت أن تفرشها بنفسها لتتأكد من مناسبة حجمها ولونها.. وعندما أخبرها بمشاكسة أن اللون لا يعجبه.. فوجئ بها تخلع حذاءها وتقفز فوق نسيج البساط الناعم.. هاتفة بشقاوة..

"ناعمة قوي يا صلاح.. وعجباني.. أنا مش هرجعها"..

يومها ابتسم بعشق ووافق على البساط الذي لا يناسب ذوقه.. ولكن حبيبته تمسكت به كطفلة ترغب بدمية جديدة.. ورغبتها هي أمر عليه تنفيذه بلا جدال... فكم بسمة يملك!..

ابتسامة حزينة ارتسمت على شفتيه فهو يدرك الآن أنه امتلك بسمة أخرى.. ولم يملك يومًا بسمته..

شردت عيناه بذكراها وهي تقفز بسعادة بعدما وافق على بقاء البساط هاتفة..

"حبيبي أنت يا صلاح"..

ليردد هو جوابه المعتاد لها..

"بسمتي أنتِ يا حبيبتي"..

وبين موجات شروده يردد بتيه..

"بسمتي"..

التفتت له بسمة وهي تضع بجواره طبق الفاكهة الطازجة التي قطعتها له صغيراً كما يحب.. وسألته بخفوت:

- أيوه يا صلاح عايز حاجة؟..



رفع إليها عينين حائرتين شاردتين بطيف أخرى.. طيف تجسد أمام عينيها بتلك اللحظة.. تجسد كواقع أليم بعيني زوجها.. لتدرك أنه بشروده كان يناجي بسمة الحبيبة.. وليست الزوجة...

***

واتخاذ قرار الزواج.. يحتاج لكثير من الوقت والتفكير.. ولكن ليس بالنسبة لرجل مثل عمرو..

عمرو دائماً ما تصرف وفق قاعدة ثابتة..

"أقصر مسافة بين نقطتين هي الخط المستقيم"..

ذاك مبدأه وأسلوب تعامله مع الجميع.. ولأن تعاملاته تتمثل بالتجارة وتبادل المصالح..

فذاك المبدأ أوصله دائمًا لما يريد.. وحقق له مكاسب لا تحصى.. أولها السُمعة النقية.. والاسم ذا الوزن في عالم التجارة رغم عمره الذي لا يتجاوز التاسعة والعشرين عامًا..

ولكن بعالم المرأة.. لا تتواجد نقطتين فحسب حتى يصل بينهما بخط مستقيم.. فالنقاط عديدة ومكررة ومختلفة بنفس الوقت.. وهو وإن كان تاجرًا مخضرمًا بسوق العمل إلا أنه طالبًا مبتدئًا بعالم الأنثى..

وتلك الأنثى المسماة رانيا والمعروفة له باسم آية.. لفتت انتباهة بشدة..

هو ليس حبًا فهو لا يعرف الحب..

ربما إعجابًا بها.. أو انبهارًا بإعجابها به..

لا يعلم!.. فقط ما يعلمه أنه يشعر بميل نحوها.. ووالده على معرفة وثيقة بأهلها.. إذاً هو يثق بها.. ويعلم أنها تبادله الإعجاب..

والمحصلة.. عرض زواج تقدم به عن طريق والده..

والليلة بعد أن ارتدى أبهى ثيابه وعرض رأسه لعذاب من نوع جديد عليه يدعى "سيشوار".. وأغرق نفسه بعطره المفضل والثمين.. اصطحب والده لبيت الحاج سلامة بعدما نال الموافقة المبدئية على عرضه..

الليلة سيلتقي العروس لأول مرة _كما يظن والديهما_ وبعدها سيتمم كل الاتفاقات فهو لن يبخل عليها بشيء.. يريدها بمنزله في أسرع وقت..

جلس بجوار والده على أريكة فخمة بحجرة الاستقبال في بيت الحاج سلامة الذي داعبه قائلًا:

- إيه يا عريس.. شكلك مستعجل قوي..

غمغم بحرج:

- بس عايز أسمع من العروسة يا حاج.. وأشوف طلباتها..

ضحك سلامة:

- قول عايز تشوفها ما تتكسفش.. ده حقك..

ثم ارتفع صوته مناديًا على زوجته لترسل آية بصينية القهوة.. ليندفع عمرو بعفوية:

- خليها شربات بقى يا عمي..

ابتسم سلامة بسعادة.. فآية أصغر أولاده.. وأقربهم لنفسه.. رقيقة وهادئة بنعومة.. وعمرو رجل لا غبار عليه.. مسئول ومستقيم ويعتمد عليه..

حقًا لا يرغب بزوج أفضل منه لصغرى بناته..

دخلت آية تحمل صينية اصطفت عليها عدة أقداح من القهوة.. تتحرك بخطوات بطيئة خجلة.. عيناها تخفضهما أرضًا مما جعل توازن الصينية بين يديها معجزة لا تفسر..

رمق عمرو الفتاة الضئيلة التي تتحرك نحوه بخجل واضح وعيناه تتسعان بدهشة سرعان ما تحولت لذهول كلي.. فالفتاة التي رفعت إليه عينين بلون العسل الرائق لتخفضهما بسرعة لم تكن آية التي يعرفها.. لم تكن آية التي يرغبها..

لم تكن آية خاصته..

وقبل أن يصرح بما يدور بعقله وصلته كلمات الحاج سلامة وهو يعرف عنها:

- آية.. بنتي الصغيرة..

ومع اتساع عينيه ذهولًا تدلى فكه عجبًا ووالده يرحب بها بسعادة:

- أهلًا بست العرايس.. أهلًا بمرات ابني.. إحنا نقرا الفاتحة يا حاج سلامة..



الفصل السادس

اتخاذ القرارات ليس أبدًا بالأمر الهين، قد تكون متهورة رعناء تودي بنا إلى جحيم غير متوقع، أو متأنية بطيئة تؤخرنا عما كان ينبغي فعله منذ زمن.. وأي قرار له تبعات، نحتملها أو لا، نتقبلها أم نستنكرها!.. تبقى على عاتقنا واقعًا لا مفر منه..

وأحيانًا قراراتنا لا تتوافق مع أهواء الآخرين.. أو بنظرة واقعية في الأغلب هي تناقضها، وذلك التناقض مدعاة للغضب، الحزن، القهر.. وقد يصل الأمر للحقد القاتم!!

وهي منذ اتخذت القرار بالعودة، التمسك بحقها -حقها الذي يشمل الكثير في نفسها وإن بدا لمن حولها مجرد إرث مادي أتت لتنهبه منهم، حقها في عائلة وود أهل وصلة رحم، ومكان تستحقه- قد انتوت إثبات تلك الأحقية..

الأيام تمر ببطء مثير للملل، فقط التقلبات المشابهة للمد والجزر في هذا المنزل هي التي تحرك بعضًا من روح العناد والتحدي فيها، نية النصر بداخلها بالإضافة لحليفها المغازل العابث الودود..



بالأمس خاطبت أولاد خالتها وعلمت بخطبة "آية" الوشيكة، وما أجمل وأبسط من هذا عذرلتغادرذلك المكان بكل سواده ولو ليلة أو ليلتين تعود فيهما لدفء الصحبة والأهل بحق!

ابتسمت تهزرأسها بيأس وهي تعاند المصر أمامها بطريقة مثيرة للغيظ:

- يا عماد صدقني مالوش لزوم.. هو مشوار بالقطر مش هاتوه يعني!

تذمر بحنق:

- ما ينفعش تسافري لوحدك يا لارا.. يعني إيه قطروتتوهي!!.. أنتِ ضامنة مين يقعد جنبك أو يضايقك؟

ربتت على كفه بود:

- ما تقلقش، هاعرف أدافع عن نفسي كويس لو حد فكر!!

وضحكت بشقاوة:

- بعدين كفاية أصرخ في وسط القطروالركاب هيتكفلوا بيه.

ولم يضحك لدعابتها بل عقد حاجبيه فبدا كطفل غاضب وأصر أكثر:

- أنتِ كده بتخوفيني بزيادة.. أنا هاوصلك بالعربية أأمن وأضمن!

حينها اخترق الهتاف الساخط أذنيه والداعي غيرة متأججة:

- ما هي قالت لك مافيش داعي يا عماد..

واقتربت بخطوات واسعة:

- يعني هتغلب تنزل مصروهي جاية من لبنان لوحدها؟

ارتسمت ابتسامة باردة على شفتي "لارا" قبل أن تنهض استعدادًا للرحيل:

- زي ماخطيبتك قالت بالظبط!!.. ما تقلقش عليّ.

وردت "هبة" البسمة بأخرى أكثر برودًا وسماجة:

- أنتِ قدها يا لارا ولا إيه؟

عندها قاطع حديثهما المبطن "عماد" بتصيم مؤجج للسخط:

- لأ يا لارا.. وده آخر كلام عندي، مش هتسافري لوحدك.

وقبل أن ترد صرحت مخطوبته بغيظ:

- في إيه يا عماد مالك؟!.. من إمتى يعني كنت بتتحكم بالطريقة دي!

التفت إليها بعينين محمرتين تعلنان الغضب.. تراجعت هي خطوة تدرك وضوح ما تحويه نبرتها من توبيخ، وقبل أن تعتذر أو تبادر بهروب تدخلت "لارا" مهدئة:

- عماد مقدر بس إني غايبة عن البلد كتير ومش عارفة الطرق، معلش يا هبة هو قصده خير.

ونظرت إليه ببسمة لطيفة:

- ما تقلقش عليا بجد..

"إيه؟!.. خيرمالكم على الصبح!.. سامع صوتكم من برا"

وهتف الغاضب بداخله:

"كملت"..

ومخطوبته أعلنت حنقها بانعقاد جبين أما العنيدة فابتسمت للقاء الصديق:

- مافيش حاجة يا نديم.. ما تاخدش في بالك.

وأوضح "عماد" دون أن يعيرما قالته اهتمامًا كأنما يشهده على جرم انتوت ارتكابه:

- عاوزة تسافرلوحدها القاهرة.. يرضيك يعني وأنا موجود!!

ارتفع طرف شفتيه بعبث استطاع مداراته بسهولة:

- لا طبعا ما يرضينيش، أنا نازل القاهرة يا لارا، تعالي هاوصلك في طريقي.

وعاندت باعتراض قاطع، ترفض عرض ذاك وإصرارالآخروالغيور تشتعل أكثروأكثرقبل أن يرضخ خاطبها مكتفيًا بإيصالها حتى محطة القطار وفقط، وتدخل هي إلى والدتها باكية شاكية ساخطة.. خائفة!



***

وكما أن لكل قرار حتمية لا يمكن التخلص منها.. فهي واقعة شئنا أم أبينا.. وافقنا أو تمنعنا، فالخوف في كل الأحوال مباح، خاصة عندما تكون حياة جديدة، تدخلها لتبنيها من الصفر مع أحدهم.. وذاك الأحدهم ليس لك به سابق علاقة أو معرفة تكفيك لتخوض المسألة بثبات..

هي فقدت ثباتها، امتلأت بالتوتر والقلق وخوف ما يتربص بقلبها ليضعفها ويخبرها أنها ربما ليست قدر تحمل ذاك القرار الذي اتخذته قبل أيام بالموافقة على خطبة والزواج من رجل لم تلتقِ به سوى مرتان فقط!!..

شعرت "حبيبة" برجفتها التي انتابت فكها وهي تغمض عينيها بارتباك فربتت على وجنتها بحنو:

- اهدي يا آية.. هتبوظي شغلي.

فتحت عينيها اللامعتين، احمرت وجنتاها كما هي عادتها وتمتمت بتوتر:

- خايفة قوي يا حبيبة.. مش عارفة!

تدخلت "ريم" الجالسة على فراشها الصغير إلى جوار "بسمة".. بغرفتها التي لا تزال وردية بلون أحلام فتاة رقيقة مثلها:

- من إيه بس يا يويو يا حبيبتي؟!.. دي خطوبة، هتتعرفوا على بعض فيها براحتكم.

أبعدت أصابع "حبيبة" الماهرة عن وجهها واستدارت بجسدها كله لشقيقتها:

- مش عارفة يا ريم.. ده كتب كتاب، جواز مش مجرد خطوبة.

وشردت تكمل بلهجة حالمة:

- كان نفسي يكون بينا قصة حب كبيرة.. زي اللي باقرا عنها في الروايات..

ورمقت الفتيات حولها بتأكيد:

- زيك يا حبيبة أنتِ وريم..

وتنهدت بحرارة:

- كان نفسي بجد..

ولو علمت مردود ما قالت على أنفس الفتيات الثلاث حولها لاحتفظت به لنفسها، كل منهن شردت في حالها تسخر، تهزأ وأخرى تتألم..

"بسمة" انزوت بسكون، تتقطع أحشاؤها والهمس داخلها يتردد ليخبرها بحسم أنها أبدًا لن تحيا تلك الحكايا التي تتحدث عنها صديقتها:

"أليس حالك بأفضل من أخرى تزوجت من تحب وهو لا يشعر بها!!.. بل فقط يفكر بحبيبته التي رحلت عن عالمه، يناديها باسمها.. ويدللها فقط لأجل ذلك!!.. يحيا معها على الكفاف!!.. على ذكرى الغائبة!"

وافتعلت "حبيبة" بسمة هادئة، لا تشي بتلك الحرب الدائرة بين جوانحها أو تلك النار التي تحرقها في كل لحظة ولا يزال الألم أبديًا كأنما كتب عليها ألا ينتهي:

"أي حب يا صغيرة!!.. حب أفلاطوني يحرمك من أنوثتك وأمومتك وفطرتك كامرأة وبعد ثلاث سنوات من زواج لا طائل منه!!.. ماذا قدم لي الحب؟!"

وتحشرجت نبرة "ريم" دون حروف، اختنقت بغصة منعتها الحديث فنهضت متعللة بحجة واهية غادرت الحجرة على إثرها، توجهت نحو المطبخ وفي طريقها لعنت الحب والمحبين والقلوب التي تخضع له لتبقى ذليلة عبوديته أبد النبض..

دلفت للمكان لتجده كمنطقة عمل يمتنع فيها الاقتراب، أطباق مرصوصة وأواني وأكواب والكثير من الحلوى وعلب العصير.. خلية نحل لا تتوقف، والعاملة.. نحلة واحدة..

"سمية"

همست باسمها في حنو، فرفعت بصرها نحوها بارتباك، ابتسمت لها فبادلتها البسمة بخفوت وابتعدت بناظريها، نعم لم تستطع إطالة النظر في عيني شقيقته اللتين تشبهان عينيه كثيرًا، عينيه الممتلئتين بغضب لا



ينضب، حنق دائم وسخط حاقد يمتزج أحيانًا بكُره تتفهمه ولا حل في يدها سوى الصمت!!

الصمت وربما التباعد حد التلاشي من أمامه كلما تلاقيا، بعدما عرَّى روحها وجسدها آخر مرة بصحبة نظراته المحتقرة أصبحت تود لو تنشق الأرض وتبتلعها، لم يعد ينظر في وجهها أو عينيها.. وهي استراحت لذلك وبادلته تباعده بتباعد كان أهدأ على نفسها الجريحة المهانة..

تحضر طعامه في سكون، ملابسه، تهتم به وبمنزله كأنها فيه مجرد طيف غير محسوس، روح تجوبه بهدوء لا يمكن أن يشعر بها أحد..

"سمية أنتِ تعبتِ قوي النهاردة.. خليني أساعدك شوية!"

أخرجتها جملة "ريم" من شرودها القصير وبعدما استوعبتها تراجعت برفض قاطع:

- لأ.. مالوش لزوم أنا خلصت كل حاجة، خليكِ أنتِ مع آية، أكيد محتاجالِك.

لم تستجب لرفضها، عاندتها والتقطت إناء العصير تصبه في الأكواب بتبرير أحمق لكنها تريد الهروب وفقط:

- الأوضة زحمة قوي.. حبيبة وبسمة معاها، هاساعدك.

وليتها ما فعلت، فكأنه يتربص بها دخل هو الآخر للمكان بخطوات قوية، تأمله للحظة قبل أن يلتفت لشقيقته:

- ريم.. ماما عاوزاكِ.

نظرت إليه لثانية قبل أن تعود بعينيها للأخرى، أدارت وجهها وغادرت في صمت وبعدما تأكد من رحيلها اقترب من زوجته بانقضاضة مباغتة نفضتها، يتمسك بمرفقها بقسوة حادة ونبرته كانت زاعقة رغم خفوتها حد أذنيها فقط:

- أنا قلت لك إن شغل النهاردة كله عليكِ.. ومافيش خروج من المطبخ.

رمشت بأهدابها بتسارعٍ مرتبك، هي لم تفعل شيئًا يخالف ما أمر به، لكنه جذبها إليه أقرب يهمس أمام وجهها من خلف أسنانه المضغوطة:

- انسي إنك تعيشي في دور العروسة والهبل ده يا سمية!!

وانتزعته الشهقة من ورائه فابتعد عنها كالملسوع واستدار لتلتقي عيناه بالحبيبة المغدورة، عاتبة، لائمة.. حزينة وغيور..

وانكسرت الزوجة أمام سلطة المعشوقة على قلب زوجها، سلطة لن تصل إليها في يوم ما فأخفضت جفنيها يخفيان دموعًا توالدت دون أن تملك قدرة على ردعها وعانقت الأرض بنظرها تبغي هروبًا لا مجال له، هروبًا لم يكن قرارًا محل اختيار..

أما هو فتوتر قليلًا، نعم لا ينكر أنه ارتبك.. كم من ظنون سيئة ستملأ رأسها عما رأته!.. القرب الشديد والهمس ولقاء أعين كانت في حالة حرب، لكن للناظر من بُعد!!.. من يدري؟!..

تحرك نحوها وهي تعاتبه في صمت، وقف في مواجهتها يناشدها التفهم قبل أن يهمس بترجي صبغه بحزم آمر علَّها تستجيب:

- حصليني على الفراندا.

وخرج دون مزيد من حديث شفاه أو نظرات، رمقت هي أختها التي لم ترفع بصرها بعيدًا عن الأرض بغضب ولحقت به كما طلب منها..

وفي ذروة الأحداث ووغى الحروب الدائرة قد لا تعي لمن يراقب من بعيد، ينتبه للمعارك ويرصدها، يهتم بها ويحللها.. ثم ينتهز الفرص ليأخذ نصيبه من غنيمتها محققًا وحده النصر..

كانت هذه "رانيا" التي سمعت كل شيء، وبعدما غادر الحبيبان دخلت إلى المطبخ وبرأسها تصميم، إن لم تستطع استعادة "عمرو" فابن عمها "حمزة" صيد آخر جيد للغاية فقط عليها إلقاء الطعم المناسب لجذبه لها..

أمسكت بأحد الأكواب، تتذكر غاضبة اهتمام الكل بالعروس أو حتى بشقيقة هذه المدعية التي فقدت حبيبها زوجًا لأختها، فرحون بتلك

ومواسون للأخرى وهي.. مجرد خيال ظل نبت من ضوء قد ينطفئ في أية لحظة فتنتهي معه..

اشتعلت نفسها بحقد استجابت له بإسقاط أحد الأكواب أرضًا ليتهشم وينسكب ما فيه نتيجة ارتطامها بـ"سمية" التي تعمل في سكون واجم لا نهائي كأنما هو علامتها الفارقة.. واستغلت كل وضع ممكن لتصرخ فيها بحدة موبخة:

- إيه أنتِ عميا ما بتشوفيش!!..

***

والقرارات أحيانٌ أخرى قد نُدفع إليها دفعًا دون أن نملك من الأمر شيئًا، وعلى ذلك فتبعاتها تكون الأشد قسوة على النفس والأكثر وجعًا لقلب وروح ظنا أن من نصيبهما حق الاختيار بالفعل لكنه كان محض ترف لا تصل إليه الأيدي أو حتى الأحلام!!

ظل واقفًا أمام سور الشرفة لعشر دقائق طويلة، يضم قبضتيه بعنف حتى كادت أظافره القصيرة تنغرس في باطن كفه، يزم شفتيه ويعقد حاجبيه، يراقب ضوء القمر الشاحب الوليد من خلف سحب لا تختلف كثيرًا عن تلك السوداء التي حجبت السعادة والأمل عن حياته البائسة غير المكتملة..

وأخيرًا أتته، بخطى مرتبكة متراجعة.. واحدة للأمام وتكاد تتراجع عشرًا للخلف، ما تفعله الآن ليس من حقه أو حقها، لكنه طلب وقلبها لبَّى ولا تملك من أمره شيئًا..

"حمزة"

نادته بنبرتها الخافتة الناعمة التي تستجيب لها أذنيه كأعذب سيمفونية، استدار بلهفة واحتواها بعينيه في لحظة، تشددت قبضتاه أكثر كأنما يقاوم اقترابه ولمسها، دون مقدمات برر بصدق:

- ما تفهميش الموقف غلط.. أنا ما لمستهاش!

ودنا منها خطوة بلا شعور أو انتباه:

- هي بالنسبة لي مرات أخويا وبس يا أمنية.

وخطوة تالية وازت نظرته الدافئة:

- حرمتها على نفسي.

وعض شفتيه يكبت غضبًا كاد يتلفظ به، بعد تنهيدة ضيق طويلة انحبست قبلها أنفاسه حتى اختنق بها صدره:

- أنا بحبك أنتِ!



وصيغة حديثه كانت أشبه بتساؤل لا إقرارواقع يشعربه، كأنه يتلمس مشاعرها ويرجوها استجابة تريح قلبه، تصديقًا على ما يقول وإيمانًا به، ومبادلة له.. لكنها همست بنبرة مختنقة:

- ما بقتش تفرق يا حمزة.

ناظرها بانقباض فهزت كتفيها بتوضيح مبرر:

- أنت اتحرمت عليَّ أنا..

اهتزكيانه للحظة كأنما يدرك حقيقة يعلمها جيدًا لكنه يتغاضى عنها أو يتناساها محاولًا الاستمرار، فتح فمه ليؤنبها أو يمنحها أملًا ليس ملك يمينه لكن قاطعه الصوت الخشن والنبرة الصارمة التي امتزج بها لوم سافروغضب جليّ:

- حمزة!!

رفع عينيه لأبيه والتفتت هي بذعر، هربت بعده من المكان قبل أن يخبره:

- المأذون جه.. يلا هنكتب الكتاب.

لم ينطق بحرف بل احتفظت ملامحه بجمودها فأردف والده:

- لنا قعدة نتكلم فيها بعدين.



منحه نظرة زاجرة تخبره كم خيب ظنه كما فهم، غادر بعزم وتبعه هو بخجل اكتنفه للحظات عالمًا أنه أخطأ..

لكن الخطأ الناجم عن أحكام القلب لا فضيلة في الاعتراف به.. بل كل ألم.

***

قرارًا آخرًا لكنه لم يكن قرارًا في الواقع، بل اختيارًا مبنيًا على أساس رجل ندروجوده، رجل اعتاد الطريق المستقيم دون أن يدرك الطرق الملتوية التي تختفي خلفه وتدور حوله لتختلف معها نقطة الوصول..

الهدف تغيرفي لحظة، والنقطة التي كانت نداء أنثى اختارته هو لأنه هو تغيرت لتصبح نقطة مختلفة تربط أكثر بين أبيه وشريكه وهو من أوقع نفسه في ذلك الخيار حتى لو اختلف الهدف.

وجدها تدخل للغرفة بخجل بيِّن، عيناها لا ترتفعان في عينيه، وكفيها يتعانقان بفرك شبه عنيف، نهض بهدوء لاستقبالها، صافحها وكانت قبضته قاسية نوعًا فازدادت حمرة وجنتيها وسحبتها من بين أصابعه بسرعة، جلست على أول مقعد صادفها فعاد هو لجلسته..

اللقاء الأول المنفرد، ربما للبعض يحمل لذة لكن له أولها فهو الارتباك بعينه، التوتر والقلق والعجز عن التصرف، وعندما نال قدرًا من الشجاعة

لبدء حوار ارتفع صوت هاتفه برسالة على تطبيق "الواتس آب"، تغضن جبينه بحيرة للحظة قبل أن يلتقطه، وكانت رسالة منها!..

من كذبت عليه وخدعته، رسالة دامعة حزينة مكسورة مليئة بالقهر..

تنامت حيرته، ولم يكن أمامه من بُد.. أمسك بالهاتف ورد الرسالة بأخرى، تبعتها ثانية فثالثة ورابعة، والعروس ساكنة قبالته لا تكاد ترفع عينيها نحوه.. عينيها اللتين تلألأتا بدموع لم يلحظها إلا بعد ربع ساعة عندما انتبه أنه يجلس مع عروسه لأول مرة دون أن يكون معها حقًا..

تفلت الهاتف من بين أصابعه فلاحقه قبل أن يسقط أرضًا، ابتسم بارتباك ونبتت حبات عرق طفيفة على وجهه، أخفى هاتفه كأنما يخفي جريمته وهي بالفعل جريمة، حاول النطق بشيء فكان أول ما جال في خاطره بحماقة تشبه موقفه ككل:

- مبروك الحجاب.

نظرت إليه بشيء من دهشة قبل أن تلمع الدموع أكثر على حافتي أجفانها:

- أنا محجبة من ثانوي.

ارتفع معدل ارتباكه حتى وصل منحنىً خطرًا، هو أحمق غبي لا أكثر ولا أقل..

كيف لم ينتبه لتفاصيلها إلى هذه الدرجة؟!..

هل شغلته الأخرى فحجبتها هي عن ناظريه؟.. هي زوجته الآن وما يفعله ليس من شيمه أبدًا.. تلكأ باحثًا عن كلمات مناسبة أنقذه من طول البحث عنها والدتها وهي تطرق الباب بهتاف فرح:

- تعالوا يلا يا عرسان عشان تلبسوا الشبكة.

نهضت قبله بسرعة كأنما تبغي هروبًا فلاحقها:

- استني..

التفتت إليه بتردد، أخرج من جيبه علبة مخملية أنيقة قدمها لها محاولًا إكساب نبرته شيئًا من اللطف:

- دي هدية مني.. بس مش عارف تلبسيها دلوقتِ ولا مع الشبكة..

اكتنفها خجل شديد جعلها تتمتم بصوت غير مسموع:

- براحتك..

ابتسم وهز كتفيه فخرجت وتبعها إلى حيث المقعد العريض المخصص للعروسين.. التف الأهل حولهما وتعالت الزغاريد بفرح.. أو الأقل أغلبها، فهناك كانت عيون تراقب بغل.. وأخرى باستخفاف مستهتر..

تجمعت الفتيات سويًا وكانت معهن شقيقة عمرو "نشوى" التي تعرفت عليهن ونشأت بينها وبين "رانيا" صداقة فورية غير مسببة، وتعرف الرجال على خاطبها الطبيب "عبد الرحمن" الذي جاورهم لبعض الوقت قبل أن يستأذن مغادرًا للشرفة رغبة في تدخين لفافة تبغ..

أوشكت الليلة على الانتهاء، البعض فرحته من قلبه والبعض الآخر انكساره في قلبه كذلك.. وآخرون في أرواحهم التي اتشحت بسواد النفس وقتامة الفكر لتترك لهما تمام السيطرة على أحقادها فتتنامى معها دون سبب فعلي..

خرج "عبد الرحمن" من الشرفة عائدًا نحو جلسة الرجال، وقبل أن ينتبه اصطدم بـ"حبيبة" فانسكب العصير من الكوب في يدها على قميصه.. شهقت هي متراجعة بحدة، رفعت عينيها إليه باعتذار شديد خجول:

- يا ربي.. أنا آسفة جدًا.

ابتسم مطيبًا خاطرها:

- لا ولا يهمك.. ما حصلش حاجة.

بادرته بسرعة وإشارة نحو ممر داخلي:

- طيب معلش اتفضل معايا ننضف القميص.



حاول الاعتراض لكنها أصرت فرضخ مستسلمًا لرغبتها، تبعها للمطبخ وهناك قابل "سمية".. حياها بهدوء وبعد أن تمت المهمة عاد لتهنئة العروسين، ضم "عمرو" مربتًا على كتفه بأخوية ثم استدارلعروسه ببسمة جذابة:

- مبروك يا آنسة آية.

احمرت وجنتاها بشدة كعادتها قبل أن تخفض عينيها وتتمتم بجملة مبهمة، اتسعت ابتسامته وهو ينظر إليها بتدقيق ولتلك الحمرة التي انتشرت تملأ وجهها كله دون سبب واضح..

وانتهت الليلة أيضًا بعيون لا تدري أين تصب بمجرى نظراتها إلا من سيء لأسوأ!!..

فمن فقدت لعبتها التي لم تكد تلف يديها لتحكمها حول حبالها متملكة كانت تراقبه يضع حلقته حول إصبع غيرها.. ونظرات تشع سعادة، مليئة بالأمنيات وربما تحقيق حلم أو دعوة خفية بأن تنال هي ما لم تنله.. وضيف جديد على العائلة، مندهش لذاك الحياء المبهج للنفس فحافظ على ابتسامته التي جعلتها تهرب من عينيه في كل مرة يحدث بينهما لقاء..

وكانت شقيقة العريس خلف كل تلك النظرات.. تراقب، تمحص، تحلل.. وتحاول الفهم كما هو ديدنها على الدوام لتلم بكل الخيوط في النهاية.

***

القرارات دومًا متنوعة.. فبينما هناك واحد صغير تبعاته قصيرة الأمد، هناك آخر هام كأهمية الحياة نفسها لأن على أساسه تنبني تلك الحياة..

قرار لا يُتخذ في ثوان، بل تسبقه دراسة وافية شافية.. أو ربما، بحماقة لحظة انغماس قلب في أحلام الحب والفارس والزهرة والثوب الأبيض..

وهي اتخذت قرارها بناءً على تلك اللحظة وذاك الحمق والانغماس، لم تفكر مرتين، لم تتأنى أو تتراجع.. والنهاية أنها أصبحت زهرة ذابلة وحيدة في وعاء لا يناسب مثلها دون عناية أو اهتمام، زهرة حرمت من الكثير وستظل محرومة منه أبدًا..

مدت أناملها تبعد خصلاته الناعمة عن جبينه حين نومه، تتأمله بحب يشبه سمًا قويًا تمكن من خلاياها وما له من ترياق، ابتسامة كسيرة واهنة انفرجت بها شفتاها وعقلها يعيدها لمنطقة الضياع، العدم.. اللحظة الأولى التي تغيرت فيها كل الثوابت وانحرفت خلالها الطرق عن كل مصير طبيعي..

ليلة زفاف بين حبيبين، فرحة تملأ المقل، ودفء نظرات وضمة ورقصة هادئة وسعادة أصدقاء وأهل، ابتسامات من القلب للقلب دون حاجز، وخجل فطري يشغل بالها وعقلها بالكلية.. وعندما انتهى الحفل وتصاعد

خوفها حتى أعلى وتيرة بصحبة أنفاسها التائهة سقطت من أعالي سماء الحلم لأقصى أعماق قسوة الواقع الذي لم يجُل بأشد خيالاتها جموحًا!!

فبين حياء يشكل كل منطق، وأنوثة ستمنحها لحبيبها لأول مرة، بين قلب يهفو لقرب وروح تشع بسعادة وتردد تشكله براءة سقطت.. سقطة قوية عنيفة لم تفق من غيبوبتها بعد..

اجتمعا أخيرًا تحت سقف واحد، ترك لها الغرفة بلباقة لتغير ملابسها، توترت وامتلأت بخوف غريزي لكنها دومًا منحت نفسها الصبر والدعوى عشق يملأ كيانه وكيانها.. ارتدت غلالة نوم بيضاء تشبه نقائها، محتشمة طويلة ووضعت فوقها المئزر الخاص بها وانتظرت.. لن تناديه، هو سيعود وحده.. وليته ما عاد.

عندما انفتح باب الغرفة ودخلت صورتها الرقيقة الفاتنة حيز بصره تعرق جبينه بشدة، ارتبك وغضب غير مفهوم أو مبرر ملأ عينيه، والنتيجة هتاف حاد متسائل زاد من خجلها:

- إيه اللي أنتِ لابساه ده؟!

وقطع عليها كل جواب يمكن أن تمنحه إياه بدخول متلهف أشبه باقتحام للغرفة، توجه نحو خزانة ملابسها وفتحها يفتش فيها بعبث جنوني للحظات بعدها أخرج عباءة واسعة طويلة الأكمام، مد يده بها إليها بأمر:

- دي أحلى.. إلبسيها..

استجابت لأمره دون فهم والارتباك والحيرة يملآن نفسها المرتابة، عادت إليه بخطوات غير ثابتة خجول ليقترب منها هو بهدوء، ينظر في عينيها بحنو ويبتسم بدفء:

- الله.. كده أحلى بكتير.

ثم منح كفيها قبلة خافتة:

- زي الملاك.

وعاد يتأملها برضى:

- أنتِ ملاكي..

والتفت عائدًا نحو الخزانة، أخرجَ منها صندوقًا بحجم متوسط ملفوفًا كهدية أنيقة، قدمه إليها باهتمام يصاحبه ترجي:

- عشان خاطري.. بلاش اللبس المكشوف ده تاني.

أخفضت بصرها تعانق الأرض في خجل:

- ده عشانك أنت بس!

وحاصرها يمنعها كل اعتراض:

- وأنا مش بحب كده..



لم تجد بدًا من طاعته فهمست:

- حاضر.

اطمئن قلبه بتنهيدة ارتياح واضحة، جذبها إليه، قبل جبينها ويديها ثانية وابتسم لعينيها:

- ربنا يخليك ليا يا حبيبتي.

وتركها حيث غادر دفئه بعيدًا عنها، دخل إلى الفراش بهدوء، وتمتم:

- تصبحي على خير.

ونام..

هكذا وبكل بساطة لم تفهمها في حينها، تحركت تجاهه في خجل متوتر، جاورته ببطء تظنه يقدر خجلها في ليلة زفافهما كأي عروس!!..

ونامت هي الأخرى..

عادت للحاضر، تنظر إليه بدمعة ولدت وجرت ورائها سيلًا تباطأ فوق وجنتيها.. تعاتب نفسها التي ظنته يتفهم مخاوفها وخجلها.. لتجد أنه في النهاية ألقى بها في بئر سحيق أغرقتها فيه مخاوف أكثر لا حصر لها ولا عدد..

الفصل السابع

التضحية.. تلك الكلمة ذات المعنى العميق الآخاذ.. يلقي بها إنسان بوجه الآخر فيأسره ويقيد عنقه بقيد الامتنان والخجل..

أن تضحي يعني ببساطة أن تقدم ما يمكنك.. كله.. وأقصاه.. ولا تنتظر مقابلًا له..

أن تبذل كل ما هو عزيز.. بنفس راضية وضمير نقي الطوية..

ألا تكون تضحيتك سيفًا بتارًا تستله بوجه الجميع مذكرًا إياهم بكل ما قدمته وكم الظلم الواقع على كاهلك...

لكن.. ماذا إن كانت تلك التضحية مزعومة!.. ماذا إن كان ما قدمته من ذاتك معتقدًا أنك تبذل النفيس والغالي، يصب بالنهاية في خانة مصلحتك!..

ماذا إن كانت تضحيتك تلك تبذلها في سبيل تحسين صورتك أمام نفسك وضميرك..

هل يمكن وقتها إطلاق لفظة تضحية على ما قدمته.. حتى وإن تعذبت روحك وتوجع كيانك بتلك العملية!..

ومع تتويجه لخطبة قصيرة من آية ابنة شريك والده، بليلة هادئة لعقد قرانهما.. انتهت بقبلة باردة فوق ظهر يدها بعدما ألبسها خاتمها وشبكتها.. ومحاولته إقناع قلبه بأنه سيضحي في سبيل المحافظة على العلاقة الإنسانية بين والده ووالد وعروسه.. ولا يجب أن ينسى الشراكة التجارية بينهما.. إذاً.. سيضحي ويكمل تلك الزيجة لنهايتها..

كانت تلك أفكار عمرو وهو ممددٌ على فراشه.. عيناه مفتوحتان على اتساعهما يتأمل سقف غرفته.. بينما أفكاره تشرد لتلك الليلة التي اصطحب فيها والده معتقدًا أنه سيرتبط بمن جذبت اهتمامه وشغلت عقله ليفاجأ بصدمة لم يتوقعها!..

فمن دخلت تحمل صينية القهوة كانت تلقب باسم فتاته ولكنها ليست هي.. نظرة الصدمة التي اعتلت ملامحه لم يلحظها أحد.. ولله الحمد استطاع تدارك صدمته بصعوبة.. فموقفه لا يمكن شرحه.. هو من ألح على والده ليطلب من الحاج سلامة يد ابنته الصغيرة.. هو من أصر على أخذ موعد بأقصى سرعة.. لهفته كانت واضحة حتى أن والده بدأ يشك بوجود معرفة مسبقة بينه وبين الفتاة.. وهو ما أنكره بشدة.. حفاظاً على سمعة فتاته المزعومة..

والآن.. كيف يصرح لوالده ذلك التصريح المبهم..

"ليست تلك من أريد"..

أي سبب وأي تفسير يمكن أن يسوقه لوالده ليقنعه بعدم إتمام الزيجة!.. كيف يضع والده بموقف سخيف كهذا!.. بل كيف يضع نفسه بموضع الشاب الهوائي الذي لا يمكنه حسم أمر زواجه!!..

كلمة والده "إحنا نقرى الفاتحة".. نفضت جسده بعنف مما جعل والده يرمقه بنظرة متسائلة..

وبلمحة بسيطة لوجه ابنه فهم الحاج إسماعيل نوبة التردد التي يمر بها عمرو وإن لم يفهم لها سبباً.. وبنظرة ذات معنى وجهها لابنه.. استوعب عمرو رسالة والده على الفور..

"أنت مَن طلبت وألحيت وأصررت.. تلك رغبتك.. فأكمل ما بدأت"..

وقرر عمرو أن يجاري التيار.. فلا مبرر منطقي يمكنه ذكره ليفسخ خطبة لم تبدأ بعد..

ليعقد خطبته على الفتاة فهي تبدو هادئة.. وتصلح كزوجة طيبة كما تمنى هو يومًا.. وبكل الأحوال هو لم يسقط صريع هوى الأخرى.. من خدعته ووضعته بذلك الموقف السخيف..

فلتكن خطبة يختبر بها مشاعره و...



وقبل أن يصرح برأيه فاجأه والدها بتصريح صادم..

"أنا ما عنديش فاتحة وخطوبة وكلام من ده.. طالما مالي إيدي من الراجل اللي قدامي يبقى هنكتب على طول.. ومش هلاقي نسب أحسن من الحاج إسماعيل ولا زوج لبنتي أفضل من عمرو اللي أخلاقه بينضرب بيها المثل"..

حسناً.. كان ذلك القول الفصل.. وتم الاتفاق على عقد قرانه على فتاة لا يتذكر أنه منحها نظرة ثانية بعد نظرة الصدمة الأولى..

وليت الأمر انتهى بقراءة الفاتحة والاتفاق.. فبعد وصوله لمنزله تلك الليلة اعتذر من والده وفر إلى غرفته هرباً من أسئلة تلوح بعيني الأب ولا يملك لها إجابة..

وبغرفته فتح هاتفه والذي كان بوضع صامت ليفاجأ بعشرات الاتصالات من فتاته المدعية.. كاد أن يغلق هاتفه ثانية عندما انطلق رنينه وشاشته تضيء برقمها الذي يحفظه عن ظهر قلب..

فتح الخط وبنيته إنهاء كل شيء ليفاجئه نحيبها الموجع الذي أوجع قلبه بشدة.. ولكنه حاول التغلب على تأثره ليهمس لها بتبرير:

- أنا روحت ودخلت البيت من بابه زي أي راجل بيحترم نفسه وبيحترم البنت اللي هيتجوزها هي وأهلها.. أنتِ عارفة ايه اللي حصل!

همست بصوت باكٍ:

- أنا آسفة يا عمرو.. افهمني..

قاطعها بغضب مكبوت يخرج من عقاله:

- أفهم إيه!.. أنتِ كدبتِ عليَّ.. ليه عملتِ كده؟.. لييييه؟!!

عاد صوت نحيبها يعلو مرة أخرى مما دفعه ليهدئ من نبرته وهو يتساءل:

- عرفيني على الأقل أنتِ مين!

همست وسط شهقاتها:

- ما تظلمنيش يا عمرو..

كاد أن يحطم الهاتف ويغلق الخط.. هو لا يفهمها.. يوجه لها سؤالًا مباشرًا لتقابله بقصيدة من التوسل والبكاء.. ما الصعب في الإجابة على سؤال بسيط كـ "من أنتِ؟!"

وصلتها زفرته الساخطة فأسرعت لتهدئته وإن لم تتخلَ عن نبرتها الباكية:

- أنا من أهل بيت الحاج سلامة.. ما كدبتش عليك ولا خدعتك..

اخترقت الجملة جهازه السمعي لتصبه بحالة من القلق الممتزج بالتقزز.. ماذا تعني بأهل بيته؟!.. هل هي شقيقة خطيبته المستقبلية؟!.. كيف؟!.. أليست متزوجة؟!.. وإن كانت هي؛ كيف سيكمل تلك الزيجة وشقيقة خطيبته حاولت...

هتف بقلق:

- أهل بيته إزاي؟!

أجابت بتلعثم:

- أنا رانيا.. بنت عم آية.. صدقني ما كانش قصدي أخدعك.. أنا كنت متلخبطة ومكسوفة وأنت قلت أنتِ آية وبدأت تتصرف على الأساس ده.. أنا كنت مكسوفة ومرعوبة.. عايزة أهرب من قدامك.. عايزة أصرخ وأقولك أنا رانيا مش آية.. بس لساني اتعقد.. وما قدرتش..

زفر بضيق وهو يخبرها بوضوح:

- بصي يا بنت الناس.. دلوقتِ أنا بيني وبين عمك كلمة.. وأنا اتعودت أن كلمتي عقد وعهد.. يعني أنا تقريبًا خطيب بنت عمك وقريب هنكتب الكتاب.. وهعتبرك في حكم أختي.. وربنا يعوضك بالأحسن مني..

ألقى ما بجعبته سريعًا وهو يتمنى إغلاق تلك الصفحة.. فلم يكن بينهما سوى بدايات إعجاب لم تصل لحد تورط المشاعر وهو طالما عاصر قصص ومغامرات عاطفية لأصدقاء له.. علاقات عدة تبدأ وتنتهي برضا الطرفين.. وعند الحديث عن الزواج وتحمل مسئولية بيت وأسرة.. يكون الاختيار دائمًا للعقل.. وآية نظريًا تناسب أفكاره العقلية جدًا..

ورانيا لم تلمس قلبه لدرجة أن يسبب بعدها آلامًا لا تلتئم.. إذاً النهاية محسومة.. وليذهب كل لطريقه..

أما رانيا على الجهة الأخرى صدمت بشدة من كلماته العملية.. يبدو أنها لم تضع بحسبانها استقامته الشديدة وهي تضع خطتها للإيقاع به كزوج مناسب.. ثري.. وصاحب مركز اجتماعي مناسب.. وساذج لدرجة تمكنها من خوض مغامرتها مع إيهاب للنهاية.. فهي تعجز عن البعد عنه مهما حاولت..

حاولت استدرار عطفه ببضعة شهقات وصوت متعثر:

- أنت إزاي كده!.. معقولة تكون مش حاسس بيَّ!.. معقولة مش مقدر الوجع اللي جوايا!!

عاد يجادلها بالمنطق:

- هرجع أقولك أنتِ اللي وصلتينا للموقف ده.. لولا كدبك عليَّ.. كنت هعرف على الأقل اسم البنت اللي رايح أخطبها..

هتفت بذعر:

- أنا ما كدبتش..

أجابها بعملية:



- من أول مرة كلمتيني وخبيتِ عليَّ شخصيتك.. ده بداية كدبتك.. واللي بيبتدي غلط ما بيكملش يا بنت الناس..

هتفت بيأس:

- أنا ما كدبتش.. ما كدبتش.. كنت مكسوفة ومتلخبطة و..

قاطعها بهدوء وحسم:

- أرجع واقولك ليه ما كونتيش صريحة من أول مرة اتكلمنا؟..

كادت أن تحطم الهاتف غيظًا منه.. لم هو بهذه الاستقامة والعملية!.. كيف تفسر له أسلوبها الذي اتبعته للايقاع به؟!.. أي أحمق بلت نفسها به!!..

هتفت بغيظ:

- قول أنك قررت تشتري اللي تنفعك.. بنت شريك باباك.. وهيبقى زيتكوا في دقيقكوا و..

قاطعها بسرعة:

- الحكاية مش كده.. وما تنسيش أني أعجبت بيكِ من غير ما أعرف أنتِ مين.. حسيت أن فيكِ حاجة مختلفة...

قاطعته بهمس مغناج:

- أعجبت بيَّ بس!.. إنما أنا حبيتك من زمان.. من زمان قوي..

سبب كلماتها ارتباكه التام ليهتف بتلعثم:

- ما ينفعش الكلام ده وما يصحش.. سلام..

أغلق الخط سريعًا وكلماتها تداعب رجولته بلا رحمة.. ثم غاص بالنوم وابتسامة بلهاء ترتسم على شفتيه..

في صباح اليوم التالي حاول أن يلمح لوالده بتأجيل الزواج.. ليفاجئه والده بسيل من التقريع والتأنيب أنهاه بكلمات حاسمة..

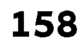
"أنت أكيد اتجننت.. عشرة السنين عايز تضيعها؟.. الحاج سلامة أخويا قبل ما يكون شريكي.. عايزني أضيع عشرته وصداقته عشان خاطر ابني بيتدلع ومش عارف هو عاوز إيه!!"

حاول مقاطعة والده ليخبره.. أن عقد القران مبالغ فيه.. وتكفي خطبة بسيطة يختبرا فيها مشاعرهما وتوافقهما..

ليصيح به والده..

"لعب عيال هو ولا بنات الناس بيعة وشروة!!.. خطوبة إيه واختبار إيه!!.. أنا قبل ما نتقدم سألتك وأكدت عليك.. قلت لي عايزها يا بابا وهي دي اللي بدور عليها"..

حاول عمرو مقاطعته..



"ما هو..."

ليهتف به والده مؤنبًا..

"قلتلك إن النسب زي اللبن أي حاجة تعكره.. وأنا اتجنبت أجوز حد من ولادي لولاد سلامة عشان أحافظ على العشرة والشراكة.. قلت بس أنا متمسك بآية.. تيجي دلوقتِ عايز تصغرني وتكسر قلب آية.. وتخسرني عشرة عمري"..

وخضع عمرو.. خضع وهو يخبر نفسه أنه يضحي للصالح العام.. حتى لا تدمر صداقة السنين.. والشراكة الهامة.. حتى لا يقلل من والده ويكسر كلمته..

ومرت الأيام ليصلا لليلة عقد القران.. الذي انتهى منذ ساعات.. لتصبح آية زوجته شرعًا.. وتوثق تضحيته رسميًا..

تردد صوت الهاتف يخرجه من ذكرياته ليلمح رقم رانيا يضئ شاشة هاتفه.. يفتح الخط وهو يستمع لتنهيداتها المتوجعة بصمت ليأتيه صوتها الباكي:

- اتجوزتها خلاص!

ظل على صمته.. فلا كلمات يمكنها تغيير الواقع..



عادت لهمسها المخنوق:

- طيب أنا.. مشاعري.. وجعي..

تنهد بقوة لتدرك هي أنها اقتربت من التأثير به فتهمس بضعف مثير:

- عمروووو..

أضعف صوتها الهامس مقاومته فأجابها بقلة حيلة:

- أنا اديت كلمة ودخلت بيوت ناس.. قوليلي أعمل إيه!!.. خلاص إحنا نصيبنا مش مع بعض.. واللي بيحصل دلوقتِ أكبر غلط.. يا ريت تنسي نمرتي وما تتصليش تاني..

أزعجتها كلماته فأجابته بغيظ:

- لو فعلًا مش عايزني أتصل تاني ولا عايز تسمع صوتي، كنت غيرت نمرتك وبدأت بداية جديدة ولا إيه!!..

أغلقت الخط بحنق لتتصل بإيهاب تتوسله اللقاء.. بينما عمرو مازال يتأمل هاتفه بحيرة.. حتى سقط نائمًا هربًا من تخبط بمشاعره لم يمر به من قبل وذنب يثقل كاهله..

فهو ليس بالرجل الذي يخون العهد..



هناك من يضحي براحة باله.. بصفاء أفكاره.. بحياة هادئة مريحة.. فقط لتحقيق هدف..

فهل تلك تضحية حقًا.. أنتِ تسعين وراء هدف.. ولتحقيقه لابد من دفع الثمن.. فكيف تكون تلك تضحية!!..

جلست لارا على المقعد المجاور لنديم بسيارته الحديثة.. وهي تشعر بانزعاج لا حد له..

بينما هو يعبث براديو السيارة حتى انبعثت أنغام مميزة لأغنية تعرفها جيدًا.. تعشقها وتدرك أنه يعلم.. فلهما ذوق متشابه بأشياء عدة..

بدأت تفرك أناملها بينما هو يدندن مع كلمات الأغنية ببال رائق تمامًا..

"ما الحل؟

الله من دلع النساء وكيدهن ومن جنونك يا حياتي

ما الحل؟

يا مشكلة يا مدللة

ما الحل؟

يا مشاغبة يا مُتعِبَة

ما الحل؟"..



لم تجد بداً من مقاطعة اندماجه بشيء من الخشونة:

- أستاذ نديم؟..

هتف باستمتاع وحاجبيه يرتفعان بتعجب:

- أستاذ!!.. ايه ده!.. هو إحنا مش أصحاب ولا إيه!!

أجابته بسرعة:

- الأصحاب ما بيكدبوش على بعض..

أجابها وهو يتصنع الحزن:

- وأنا كدبت عليكِ إمتى يا... لارا؟.. ولا تحبي نمشيها آنسة لارا؟

قطبت لارا بغضب.. لا يعجبها مراوغته ولا تلاعبه.. لم لا يتصرف بنزاهة ويجبها بصراحة كما اعتادت منه!.. لم تلك النظرات اللامعة بعينيه؟.. لم أصبحت تشعر بعدم الارتياح بصحبته؟.. ولتكن صادقة.. ليس عدم ارتياح هو التعبير الصحيح.. بل هو الذنب لو أردنا الدقة.. وذلك ما دفعها لمهاجمته بوضوح:

- حضرتك كلمتني إمبارح.. وبلغتني إن المدام هتكون معاك.. وبناء على كلامك ده وافقت أني أرجع معاكوا.. صح؟..

أومأ بالموافقة:

- حصل يا فندم..

رمقته بغيظ وهي تضغط أسنانها بعنف.. لتتجنب رميه بأي اتهام.. فأردف هو:

- شهيرة كانت هترجع معايا فعلًا.. بس صديقتها الصدوقة مدام سلافة.. قالت لها أنها معاها دعوتين لديفيليه.. مش معقول..

كان يردد جملته الأخيرة بأسلوب تهكمي بحت.. مما دفع بابتسامة لاإرادية إلى شفتيها.. بينما هو يكمل:

- عشان كده.. شهيرة قررت تستنى في مصر يومين كمان.. بس أنا كان لازم أرجع عشان شغلي..

كادت أن تعترض حينما قاطعها هو:

- ده كله عرفته بالتليفون.. وأنا بكلمها عشان تجهز للسفر.. وكنت في طريقي ليكي فعلًا..

قطبت حاجبيها بتعجب.. وهل هذا يسمى زواج!!.. زواج عبر الأثير!..

عادت كلمات الأغنية تتردد.. بينما تتورد وجنتاها بدون سبب مفهوم..

"تتسرعين فتغضبين فتندمين فتطلبين مغازلاتي

الله من دلع النساء وكيدهن ومن جنونك يا حياتي

محبوبتي محبوبتي"

ساد الصمت لعدة دقائق ليقطعه سؤال نديم:

- ما قولتيش الفرح كان حلو؟.. كنتِ متشوقة للسفر عشان تكوني مع العروسة.. اتبسطتِ؟..

مطت لارا شفتيها بغيظ:

- ما قدرتش أحضر للأسف.. ثواني باركت لآية وبس..

التفت لها متسائلًا:

- ليه كده؟.

هزت رأسها بحزن:

- خالتو دلال سكرها قل جدًا وكان لازم يكون في حد مننا معاها.. وأنا اتطوعت للمهمة دي.. بسمة وحبيبة كل واحدة كانت لازم تحضر جنب جوزها.. إنما أنا لوحدي فعادي أما أغيب عن الفرح..

أضافت جملتها الأخيرة لتوضح له اضطرارها للمكوث بجانب خالتها.. ولكنه لم يبدُ مهتمًا لتفسيرها.. بل بدا شاردًا بأفكاره بعيدًا عنها.. لذا فاجئها سؤاله:

- رجعتِ ليه يا لارا؟.

أجابت بتعجب:

- طبيعي أني أرجع.. أكيد مش هقعد في بيت خالتوو...

قاطعها بنبرة غامضة وبكلمات بطيئة:

- رجعتِ من لبنان ليه يا لارا؟..

أجابته بسرعة:

- علشان حقي.. عايزة حقي..

ابتسم بغموض وهو يخبرها:

- الحق!.. الحق معنى واسع وكلمة ممطوطة، ممكن يدخل تحتها ألف بند وبند..

عدلت جملتها لتخبره بتوتر:

- أقصد ميراثي.. جيت علشان أسترد ميراثي..

التفت لها وملامحه الجذابة تتلون بجدية شديدة:

- أنتِ قلتِ "حقي".. وسؤالي بقى.. الحق ده في مفهومك، هو ميراثك زي ما بتقولي.. ولا ميراثك وفوقه حاجات تانية؟..

هزت رأسها بغضب.. تكره المراوغة والأسلوب الملتوي ولا تعرف التعامل معهما.. لذا صاحت بغضب:

- بلاش ألغازيا نديم وخليك صريح..

أغمض عينيه لثوان قبل أن يردد ببطء وبجدية تامة:

- لارا.. إحنا أصحاب زي ما اتفقنا.. وبعتزبصداقتك جدًا.. بس هبة تبقى بنت أختي الوحيدة.. ومش هبالغ لو قلت أنها زي بنتي.. ومش هسمح لأي حد أنه يجرحها..

رمقته بنظرات عنيفة تحولت للغضب ثم الحزن وعادت تشتعل عنفًا مع توالي كلماته..

هي أيضًا تعتزبصداقته.. أو بتلك العلاقة التي لا تدري لها مسمى.. ولكن وجوده وتحالفه معها يمنحها بعض الأمان أمام تصرفات زوجة عمها وشقيقتها.. لا ترغب بفقدانه كصديق وحليف قوي.. والأهم لا ترغب أن تكون صورتها مشوهة أمامه..

ولكن قبل كل شيء..

كما لا يسمح هو بالمساس بابنة أخته، فهي لا تقبل مجرد تلميح يسيء لكرامتها..

لذا طال صمتها أمام كلماته لتدرك أنهما وصلا إلى فيلا آل "الغندور".. فترجلت سريعًا من السيارة.. لتخطو خطوتين مبتعدة.. ثم تعودهما لتخاطبه بحسم:

- أنا مش مطالبة أني أبرر نفسي لأي حد..

تصمت لحظة وتكرر:

- أي حد.. بس هقولك كلمة واحدة ياريت بعدها نقفل الموضوع.. عماد مجرد أخ بالنسبة لي.. أخ مش أكتر..

لتتركه وتبتعد بخطوات واثقة تصحبها نظراته الغامضة وهو يلمح ذلك الأخ المزعوم وهو يكاد يقفز فرحًا ويهلل بعودتها وطلتها الرائعة وكأنه وجد كنزه المفقود..

وكاظم يردد بصوته الشجي..

"الله من كرم النساء وفضلهن على افتعال المشكلات"

بينما بنافذة الفيلا تتألق عينا عايدة بنفور وقلق ولسانها يردد بغموض..

"عادل لازم يرجع"..

***

والتضحية قد يتخذها البعض بابًا للهروب من إحساس مقيت بالعجز.. وقد يحولها البعض ستاراً لقسوة غير مستساغة..

وبين عجز وقسوة يحيا حمزة مع زوجة فُرضت عليه.. أو هذا ما يدأب على إخبار نفسه به.. متناسيًا.. أنه دخل بكامل إرادته لتلك الحياة.. حتى إن

منح نفسه المواساة بوهم التضحية ليخفي إحساسه بالإجبار.. ذلك الإحساس الذي يملأه قهرًا..

ولم يكن الإجبار فقط بدافع الوفاء لكلمة أبيه وعلاقة الأبوة بينهما.. فقط يتمنى أن تكون موافقته على تلك الزيجة تحت ضغط أبيه.. لكان وجد ترياقاً لضميره المعذب وروحه المهلكة... كان وجد العذر.. واتخذ الحجة بقوة قلب وسريرة هادئة.. أنه ابن بار.. ولا يملك مخالفة أبيه..

كلا.. بل كان سيخالف والده.. سيصطحب حبيبته ويرحل تاركًا الجميع خلفه.. وسيدع للأيام مهمة لم الشمل وتهدئة النفوس.. ولكنه للأسف.. قُيد وكُتفت حريته بكلمة خرجت من بين شفتيه..

بوعد أحمق أطلقه بسذاجة خانقة..

تباً.. كم يتمنى أن تدور عقارب الزمن للوراء لكان سحب تلك الكلمة التي حرمته حبيبته وورطته بعلاقة زوجية من أعماق الجحيم.. فقط لو تعود العقارب للوراء!.. لكان اعتمد على قوة إقناعه وليس على رفض زوجة أخيه الزواج منه.. فقط لو يستطيع استرداد الكلمة..

ولكن لا أمل..

فكما تعلم بسنوات دراسته.. "لو".. حرف امتناع لامتناع.. بمعنى أنه لا يمكن تغيير ما قبل "لو".. فلا داعي للبكاء على اللبن المسكوب..

هتاف جهوري من والده نفضه من بين تشوش أفكاره:

- حمزة!!..

هب حمزة واقفًا ليقابل والده وهو يهمس:

- صباح الخيريا حاج.. أؤمر...

أجاب والده وقد أعادت نبرة حمزة هدوئه:

- الأمرلله يا بني.. أنا عايزك في نصيحة.. وتحذير..

غمغم حمزة بغضب طفيف:

- تحذير!!

أجابه والده بجدية:

- أيوه يا بني.. تحذير.. ما هو أنا مش هستنى أما المصيبة تحصل ووقتها أرجع أقول يا ريت..

واجه حمزة والده بنظرات غاضبة:

- مصيبة!

احتدت نبرة الحاج سلامة وهو يردد بحسم:

- انفرادك بأمنية.. أخت مراتك..

ضغط الحاج سلامة على كلماته الأخيرة لينفجر حمزة بغيظ:

- قصد حضرتك.. أمنية اللي كانت مفروض تبقى مراتي.. لولا ظروف مش فاهمها ومش عايز أعرفها ولا أفهمها.. لولا وعد غبي.. لولا أني ابن حضرتك ولازم أسمع وأطيع وأنفذ.. لولا..

قاطعه والده بغضب:

- كل اللي حصل بموافقتك.. ورضاك..

خبط حمزة على فخذيه بجنون وهو يردد:

- رضايا!.. رضايا!!.. حضرتك بتسمي اللي حصل ده رضا وقبول..

كرر والده بحسم:

- سمية مراتك.. وبرضاك.. أمنية أختها من محارمك.. فاهمني يا حمزة.. محارم.. اللي بتعمله ده مش تمرد على وضع أنت معتقد أنك أُجبرت عليه.. أنت بتتعدى على حدود ربنا..

صمت للحظة وعاد صوته يتردد بنبرة أعلى:

- خلي ربنا دايمًا قصادك وأنت هتقدر تبعد عن مواطن الشبهة.. وافتكر دايمًا أن الموضوع دلوقتِ ما عادش طيش شباب ولا جنون مراهقة.. دي حدود الله يا بني.. ما فيهاش آسف وما أقصدش..

اقترب من ابنه الذي تهالك جالسًا على المقعد خلفه:

- يا بني.. الحب مش كل حاجة في الحياة.. في حاجات كتير ممكن تكون أقوى وتقدر تبني عليها حياة زوجية قوية.. وسمية غلبانة وطيبة.. ودلوقتِ مالهاش غيرك.. أخوها زي ما أنت شايف أخد جنب توأمته وبقى وجع زيادة لها.. بلاش تكون أنت وزمانها عليها..

لا يعلم لم استشعر الذنب يملأ كلمات والده!..

أم هو الذنب الذي يملأ كيانه هو منذ تلك اللحظة السوداء التي فقد بها تعقله ليعري جسدها وينتهك روحها بتلك البشاعة.. ولكن عذره الوحيد والذي لا يعد عذرًا على الإطلاق هو حالة الغضب والقهر التي مر بها بعدما صادف أمنية على درج المنزل وحاولت إعادة شبكته.. بتلك اللحظة شعر أنه بدأ يفقدها بالفعل.. وأن اختياراته التي أرضى بها ضميره وعقله بدأت تلقي بعاقبتها السوداء على روحه.. ولم يكن أمامه سواها.. كالعادة لتتلقى حمم غضبه ويأسه..

هو لم يكن أبدًا قاسيًا أو عنيفًا مع أي من شقيقتيه.. يحتقر من يعنف امرأة أو يستقوى عليها.. ولكنه يعيش بحالة مستمرة من الغضب اللاهب.. ولا مخرج أمامه سوى زوجته البائسة لينفس بها عن غضبه وإلا جُن يأسًا وعجزًا.. وذنبًا..

يقسو عليها ويعنفها.. فينتابه الذنب نحوها ويشتعل غضبًا.. فيعود ويصب غضبه فوق رأسها... تلك دائرة مغلقة تحيطهما معًا ويخشى أن تخنقهما سويًا..

وإن كانت هي تتلاشى من أمامه تلك الأيام.. تطوف بالمنزل كشبح.. أو ربما طيف غير مرئي وتحرص بشدة ألا يلمح لها طرفًا..

لولا طعامه المعد والساخن دائمًا.. وملابسه النظيفة والمرتبة بعناية لظن أنه جُن أخيرًا وأنها تحولت بالفعل لشبح غير ملموس.. تلك الحالة الصامتة والباهتة التي تتبناها والتي تخرجه عن تعقله..

فبعد خطئه البائس بحقها.. فكر بمحاولة اعتذار.. لتجهض تلك المحاولة أمام صندوق سكوتها الأسود.. ووجد غضبه المعتاد يتلبسه ليأمرها بعنجهية فارغة بصباح عقد قران آية أن تلزم المطبخ ولا تخرج منه.. وتوعدها إن طلبت المساعدة من أحد.. فالجميع ملتهي بالعروس وهي عليها الخدمة.. كلمات لم يقصدها وقتها.. ولكنه خرجت من بين شفتيه وكأن مارد لعين تلبسه وأذهب عقله..

تركه والده بعدما كرر عليه النصيحة بالإحسان للزوجة المفروضة عليه.. والتحذير بالابتعاد عن الحبيبة المهجورة مع تعليق غامض من الأب لم يتوقف حمزة أمامه طويلًا..

"أمنية كمان مفروض أنها تحترم حرمة جوز أختها.. بس أنت الأكبر والأعقل.. عشان كده.. أبعد يا بني أفضل للجميع"..

رحل والده وكلماته تتردد بأذنيه.. كأنها طرقات لناقوس ينذره بأنه على شفا هوة من جحيم.. فما يمر به من مشاعر مختلطة قد تحركه نحو خطيئة لا يمكن تداركها.. غضبه وحنقه نحو زواجه لا يجب أن يتحكم به لتلك الدرجة فيعميه عن "حدود الله".. كما أخبره والده..

ربما يجب أن يتجنب تلك اللحظات المسروقة مع أمنية.. فبقدر ما تمنحه راحة وقتية مزعومة.. بقدر ما تملأ روحه بغضب أسود حارق يدفع شيطانه للتحكم بتصرفاته..

تبًا.. فبرغم كل شيء. هو يحترق غضبًا.. وذنبًا..

ألا مخرج من تلك الدائرة الجهنمية السوداء!.. ألا منفذ لضوء خافت من نور!.. فقط لو يصل لحالة من الرضا بما قُسِم له..

فقط لو تهدأ روحه!..

***

وهناك من تبذل حبها.. قلبها.. كرامتها بالحب.. تقدمهم تضحية لحبيب لاهٍ عنها.. يرى بها شبحًا أو طيفًا.. بل هي تشعر أحيانًا أنه لا يراها.. هو فقط يرغب بترديد اسمها.. اسم حبيبته السابقة.. وبأحيان أخرى تشعر بأنه لها

بكليته.. كيانه وعقله وأفكاره.. هو يحاول بشدة الخروج من دوامة عشق يائس.. وهي تبذل طاقتها لتساعده.. لتناله.. أفكاره.. عقله.. وقلبه.. وحبه.. خالصًا لها.. هي تضحي بالفعل.. ولكنها تنتظر النتيجة.. بلهفة...

وقفت تراقبه بحنان ورأسه غارق بصينية من "القرع العسلي".. ذلك النوع من الحلوى والذي علمت من حبيبة مدى عشقه له.. فأصرت أن تتعلم صنعه.. ودأبت على المحاولة حتى أتقنته تماماً..

رفع رأسه ليلمح مراقبتها له.. فارتبك قليلًا.. وليخفي ارتباكه سألها بسرعة:

- أومال حبيبة ما استنتش ليه تتغدى معانا؟.. كنت عايز أشوفها..

هزت رأسها بعجب:

- بس حبيبة ما جاتش النهاردة..

رفع حاجبيه بتساؤل:

- ماجاتش!!.. أومال مين عمل القرع العسلي؟!

أجابته بفخر وهي تشير لنفسها:

- أنا!.. عملته عشان عارفة أنك بتحبه..

همس بذهول:

- أنتِ.. بس..



قطع جملته وهو يتذكر وصف حبيبته لحلواه المفضلة..

"القرع العسلي صعب قوي.. لا يا صلاح، أنا مش هعرف أعمله.. نبقى نشتريه جاهز لو بتحبه قوي كده.. بس أنا فاشلة تماماً في المطبخ.. أنت حبيبي وهتدلعني ومش هتسيبني أدخل المطبخ.. صح"..

عاد للحاضر وهو يتأمل نظرتها المشرقة تخبو بحزن عنما أدركت شروده بالماضي.. فتحرك باتجاهها ليحيط خصرها بذراعه هامسًا:

- والغدا.. شيخ المحشي.. والكبة.. أنتِ برضوه اللي عاملاهم؟

رفعت عينيها لتمنحه نظرة عاشقة:

- أنا اتعلمت كل الأكل اللي بتحبه.. حتى الأكل الشامي.. كله.. كله حبيبة علمتني كل حاجة..

همس بتساؤل ملهوف:

- عشان خاطري؟.

أجابته بخجل:

- أيوة.. ما هو طبيعي أتعلم اللي بتحبه..

اتسعت عيناه بفضول.. يدرك مشاعر زوجته الرقيقة له.. ولكن أن تتعلم أكلات لبنانية لم تعلم عنها شيء من قبل!..

لم تعنه فكرة الطعام بقدر ما انتفخت مشاعره بحجم الاهتمام الموجه له..

أن يكون محور حياة شخص آخر.. يبذل الجهد والحب لإرضائه.. حالة افتقدها منذ سنوات.. وحتى أثناء ارتباطه السابق بحبيبته.. لم يمر بحالة كتلك.. أبدًا..

عاد يهمس بتأكيد:

- كل الأيام اللي فاتت كنتِ أنتِ اللي...

ترك جملته بلا تكملة فهزة رأسها المؤكدة كانت حاسمة.. هي تهتم لدرجة العشق.. وليس المودة الهادئة..

هي تحفظ تفاصيله.. وتفاصيل ما يحب..

وبذكر التفاصيل زاد من اقترابه ليضمها له حتى أنه رفعها قليلًا ليغوص بنظراته في ملامحها.. يراقب خجلها الرقيق.. واحمرار وجنتيها وأنفها.. محاولتها المستمرة لابتلاع ريقها رغبة منها في التحرر من خجلها.. تلك الغمازة الرقيقة والقريبة جدًا من شفتيها.. والتي تظهر بوضوح عندما تبتسم.. أو تحاول ابتلاع ريقها.. خصلاتها العسلية الناعمة والتي انسدلت على وجهها.. ليقرب وجهه منها يعبث برأسه في خصلاتها المتطايرة هامسًا برقة:

- تسلم إيديكِ.. ربنا يحفظك ليا يا أحن زوجة في الدنيا..

احتقن وجهها خجلًا وبدأت تحرك ساقيها المعلقتين بالهواء وهي تهمس:

- صلاح.. نزلني..

أنزلها برفق وكفيها تنزلقان على صدره برقة بينما يده تحيط بكفها ويضغطها برفق.. ليبعدها عن صدره قليلًا ويقلبها مقبلًا باطنها هامسًا برفق:

- البوسة جوه كف الأيد لها معاني كتير قوي.. تعرفيها!

هزت رأسها بنفي ضعيف وقد غيبتها نظرته الحنونة عن كل واقع مُرعاشته معه..

فعاد يهمس بجوار أذنها وهو يحملها لغرفتهما:

- تعالي معايا.. هشرحلك كل حاجة بالتفصيل..

غمرت وجهها بصدره تخفي سعادة تخشى عليها حتى من نفسها بينما هو مستمر بحالته المنتشية باهتمامها الخاص به:

- وبالمرة نحليّ بعد الأكل..

أبعدت وجهها عن صدره ولم تفهم كلماته فظنت أن حلواها لم تعجبه وهتفت بحزن تلبس ملامحها بسرعة اعتادتها معه:

- هي الصينية ما عجبتك...

قطع كلماتها بقبلة رقيقة هامسًا:

- أنا عايز أحلي بحاجة مخصوص.. حاجة لصلاح وبس..

عادت تخفي وجهها بصدره وكل خلية بها تصرخ..

"هي لصلاح وفقط"..

ليته يكون لها بالمثل.. فقط.. يا ليت!..

***

والتضحية قد تأخذ مظهرًا مختلف.. قد تضحي بسلامة العقل لأجل المعشوق.. حتى تبدو أمامه طبيعية.. كأي امرأة أخرى.. كي تقنع نفسها أنها كسائر النساء يحق لها العشق..

أنها زوجة.. وحبيبة وأثيرة عند زوجها..

لأجل تلك الأسباب هي تضحي.. تضحي بالكثير.. ولكن بأعماقها تدرك أن المبرر الخفي خلف تضحيتها.. هو رغبتها بالاحساس بكيانها كامرأة.. هي فقط تريد أن تشعر أنها طبيعية.. لنفسها هي قبل أي شخص آخر..

وها هي أمام المائدة الخاصة بالمكواة، تمر بها على قميص له.. مرة بعد مرة وهي بحالة شرود تام..



تشعر بانعزاله عنها.. لم يخاصمها أو يهجرها.. فعلي لا يفعل ذلك.. هو فقط يصمت وتلمع تلك النظرة الحزينة والحائرة بعينيه.. لم يطلبها لفراشه منذ تلك الليلة المشئومة والتي لم تستطع التحكم بانفعالاتها بها.. يرقد بجانبها كل ليلة بأبعد مكان بالفراش ويحرص تمامًا ألا يلمسها ولو عرضًا..

عيناه تلمعان بسؤال تقرأه بسهولة.. سؤال طالما ردده على مسامعها.. وإجابتها كانت دائمة مبهمة غامضة .. تعلق تصرفاتها على شماعة الخجل والحياء الزائد عن الحد.. وإن كان يصدقها ببداية زواجهما.. فالآن بعد مرور عام ونصف العام تقريبًا.. أصبح عدم التصديق يلوح جليًا بعينيه.. بل أصبح ينتابه الشك أن رفضها موجه له هو كشخص.. كزوج ورجل..

وهي تمنحه كل العذر بتفكيره ذاك.. وبتباعده أيضًا.. هي المُلامة.. وهو صاحب الحق..

"صاحب الحق"..

كم أوجعتها تلك الكلمة.. وبقدر الوجع بقدر السعادة.. هي ستفقد عقلها دون شك.. ذلك شيء لا جدال به..

"أنا صاحب الحق فيكِ"..

جملة همسها بأذنها بعد عقد قرانهما.. لتتورد وجنتيها.. بل تحتقنا بلون قرمزي.. فسره هو بالخجل.. بينما هي كانت تعلم أنه الألم الحزين..

قصة حبهما لا تصدق.. هي نفسها لا تصدقها.. وحتى تلك اللحظة تردد لنفسها باستمرار..

"علي بيحبك.. علي بيقدرك.. علي صاحب الحق زي ما قالك"..

علي صديق شقيقها الحميم.. وأقرب جارلهم بعد صلاح شقيق حبيبة.. وما جعل علي صديق أقرب زمالته لحمزة بكلية الهندسة ومن قبلها أيضًا سنوات التعليم المختلفة..

تتذكره عندما كان يأتي ليذاكر مع حمزة.. للأمانة هي لا تتذكر بوضوح إلا سنته الأخيرة بالكلية.. وقتها كانت هي على أعتاب دخول مراهقتها.. وبغريزتها الأنثوية الوليدة استشعرت اهتمامه بها.. نظرات خفية وإن كانت راقية.. مقدرة.. لا تنتهك.. ولا تقتحم..

فقط تخبرها بوضوح أنه عاشق مهتم.. وأنها أثيرة..

وبعدها قررت بدء حياتها الجامعية بصفحة بيضاء.. أشعرتها نظراته تلك بسعادة فائقة.. شعور رائع بأنها فتاة طبيعية تصلح للحب.. والحياة.. وفاجئها علي بطلب واثق.. بالزواج..

كان قد أنهى دراسته وتم تعيينه بالفعل بأحد المصانع الجديدة بل ونال مركزًا مرموقًا بفعل جديته واجتهاده.. وهي أنهت سنتها الثانية بكلية الآداب

- قسم علم نفس.. حين وجدته يوم إعلان نتيجتها بانتظارها.. بعد أن هنأها بالنجاح اصطحبها لإحدى المقاهي القريبة..

وافقت على مصاحبته بعد أن هاتفت شقيقها ليفاجئها بموافقته.. وبذلك المقهى القريب من كليتها اعترف لها بعشق امتد على مدى سنوات..

"ريم.. أنتِ ما تعرفيش أنا مستني اليوم ده من قد إيه!"..

رمقته بخجل وأخفضت عينيها بينما وجنتاها تتوردان واعترافاته تتوالى..

"أنا أعرفك من سنين.. إحنا تقريبًا جيران.. ده غير أن حمزة زي أخويا"..

صمت ليكمل بنبرة هامسة..

"بس أنتِ.. أنتِ حاجة تانية.. عمري ما قدرت أعتبرك أخت ليَّ.. دايمًا كنت بقول ريم مختلفة.. ريم مكانتها غير آية أو حبيبة.. هما زي أخواتي..

صمت لحظة لتمتد أنامله ويضغط على كفها بخفة..

"إنما ريم حبيبتي"

سحبت يدها بسرعة لتخفي وجنتيها اللتين اشتعلتا احمرارًا.. حاولت الهروب من أمامه.. ولكنه منعها هامسًا..

"استني بس.. رايحة فين!.. أنا لسه عندي كلام كتير.."

غمغمت بخجل..

"ما ينفعش.. ما...

عاد يتمسك بيدها..

"أنا طلبت إيدك من والدك ومن حمزة أخوكِ"..

رفعت عينيها بصدمة..

"طلبت!.. طلبت!!..

قاطعها بحسم..

"ريم.. أنا بحبك من زمان وعايز أتجوزك"

ووقتها كان الهرب من أمامه هو إجابتها الوحيدة..

ولكنه لم يسمح لها..

فبعد وصولها لمنزلها واعتزالها بغرفتها تتحسس خافقها الذي يدق بسرعة طائرة نفاثة.. وابتسامتها البلهاء ترتسم على شفتيها وشعور لا يمكنها وصفه.. يجوب بأعماقها.. دلف حمزة إليها ليجدها على تلك الهيئة الحالمة فتنطلق ضحكاته بلا توقف وهو يهتف بها..

"أنتِ مفترية!"..

انتفضت عندما سمعت كلمات أخيها الضاحكة.. واحتقنت وجنتيها المتوردتين من الأساس.. ليكمل حمزة وهو يخبط كفًا بكف..

"ضيعتِ عقل الراجل.. يا خسارتك يا علي!"

لتهمس هي بخجل مرتبك ولهفة لم تستطع إخفائها..

"ماله علي؟!"..

قطب حمزة حاجبيه..

"ماله علي!!.. قلقانة عليه؟"..

صمتت والخجل يحيط بها كهالة مرئية.. فتحرك حمزة ليجلس بجوارها.. ويجذب يدها..

"علي طلب إيدك.. وطلب أنه هو اللي يفاتحك في الموضوع.. أنا كنت موجود في الكافيه على فكرة.. وشوفتك لما هربتِ منه.. بصراحة فكرت أن ده رفض.. بس بالنظرة اللي في عيونك والابتسامة اللي على شفايفك.. هقول للحاجة أم حمزة تبل الشربات وتدي الزغروطة التمام"..

اعترضت بضعف..

"حمزة!"..

التفت اليها بتساؤل.. ثم هزرأسه بتفهم وهوينادي على علي ويخبره بأسى مفتعل...

"آسف يا علي يا خويا.. ريم مش موافقة و..

لتقاطعه صرخة ريم المذعورة..

"حمزة!!"..

فانطلقت ضحكاته وهو ينادي على والدته..

"زغروطة يا أم حمزة"..

والتفت لعلي هاتفًا بحرارة..

"مبروك يا علي.. ريم تشيلها في عينيك"..

تبادلا العناق الودود تحت أنظار ريم الخجلة.. وابتعد علي عن حمزة ليتوجه نحو ريم كالمغيب، وقبل أن يتفوه بكلمة جذبه حمزة من مؤخرة قميصه هاتفًا..

"عندك يا هندسة.. أنت عايز الحاج سلامة يوزع أعضائي رحمة ونور.. اتفضل من غير مطرود.. ومنتظرينك بالليل مع الوالدة"..

ابتعد علي وهو يمنح ريم التي تخفي وجهها خجلًا ابتسامة واسعة بينما حمزة مستمر بجره حتى اختفى من أمام ناظريها المتلهفتين..

ومرت الأحداث سريعًا، فعقد والدها قرانها على علي.. متبعًا عادته برفض فترة الخطبة.. وليلة عقد القران صارحها علي بحبه العميق.. اعترافاته فاجأتها بل سببت لها الذعر.. فهي لم تتخيل للحظة ما قاله..

"عارفة يا ريم أنا بحبك من إمتى؟.. سنين يا حبيبتي.. سنين وأنا بحلم بيكِ وبتمناكِ.. دايماً كنت بحاول أتحكم في حبي ولهفتي ليكِ.. قلت أسيبها تكبر وتاخد وقتها.. أسيبها تنضج وتفهم حجم حبي.. دايمًا كنت جنبك.. حتى لو أنتِ مش عارفة."

أمسك يدها ليسألها بود..

"تعرفي دكتورة سمر أبو العز؟"

أومأت بموافقة وهي تهمس..

"أيوه.. دي دكتورة محترمة جدًا.. كانت دايمًا بتساعدن..

قاطعت كلماتها وهي تلمح نظرة متألقة بعينيه..

"أنت تعرفها؟"..

أومأ بدوره..

"دكتورة سمر تبقى بنت عم أمي.."..

لمح عينيها ترمقه بغضب.. فأردف..

"اوعي تكوني فاهمة أنها كانت بتابعك أو بتراقبك!"..

هز رأسه نفيًا وهو يكمل..



"كل الحكاية أني عارف ريم حبيبتي.. وملاحظ قد إيه هي خجولة وهادية.. وممكن الحكاية دي تعمل مشاكل كتير لبنوتة جديدة في مكان جديد.. طلبت منها أنها تحسسك بصداقتها وأخوتها.. أنا عارف قد إيه إحساس الأمان مهم عندك"..

رمقته بعدم تصديق..

"أنت إزاي عارفني قوي كده؟"..

أجابها بثقة..

"لأنك أهم إنسانة في حياتي.. لأني حافظ تفاصيل حبيبتي.. لأني عاشق من زمان وخلاص فاض بيَّ"..

قال جملته الأخيرة وهو يقترب منها لتبتعد هي بسرعة.. فأردف بجملة هامسة..

"لأني صاحب الحق فيكِ"..

جملته تلك التي كان يرددها كلما لمس خجلها الزائد ومحاولتها المستمرة للابتعاد عنه.. بينما كان هو يحاول جاهدًا الاقتراب منها..

أن تألف عاطفته وشغفه بها..

احتمل خجلها وحيائها الزائد..

طوال فترة عقد قرانهما لم تسمح له سوى بتلامس الأنامل..

وأوضحت له بجلاء أنها تعاني من حالة شديدة من الخجل الزائد.. وطلبت منه احتمالها.. وهو احتمل.. ويحتمل.. وتعرف أنه سيحتمل المزيد في انتظار لحظة قرب حقيقي منها.. في انتظار اللحظة التي تبادرهي فيها بالاقتراب منه.. حتى لو كان اقتراب عذري أفلاطوني..

تنهدت بعمق ورفعت قميصه لتقربه لصدرها تتشممه بهوس لحظة فتحه لباب الشقة ليصدم بمظهرها الحالم وهي تحتضن قميصه وتقبله بعشق..

كاد أن يفقد عقله بسبب مشهدها ذاك.. هل تنفر منه لتعشق ثيابه!.. هل ما تمر به هو حالة من الخجل الزائد كما تستمر بإخباره؟.. هل ذلك مرض؟..

ربما يجب أن يضغط عليها لتقابل طبيب نفسي.. ذلك الموضوع الذي ترفضه بحسم وغضب يصل لدرجة خصامها له..

جذب أنظاره مشهدها وهي تمنح قميصه قبلة عميقة ورأسها مدفون بين طياته.. فلم يستطع سوى الاقتراب منها هامسًا بعشق:

- ريم..

رفعت عينيها إليه ووجنتيها تتوردان وكأنها ضبطت بالجرم المشهود.. ليشاكسها بعبث:

- لسه خدودك بتحمر!..

أخفضت نظراتها بخجل لتهمس باعتراض ضعيف:

- علي..

اقترب منها ليضمها لصدره هامسًا:

- علي مشتاق.. علي عاشق.. علي بيحبك.. ومش قادر على بعادك حتى لو من بعيد..

ابتسمت بخجل لتهمس بأذنه أن ينتظرها قليلًا..

ودلفت للحمام بعدما اختارت غلالة وردية رقيقة..

أوصدت باب الحمام من الداخل وتوجهت للخزينة الصغيرة الملحقة بالمرآة لتسحب قارورة دوائية صغيرة.. أخرجت منها قرصًا أحمر اللون.. ثم قسمته إلى أربع أجزاء.. ابتلعت أحد الأجزاء.. وبدأت بارتداء غلالتها ببطء.. منحت وجهها بعض الزينة.. ولم تنسَ رشة غنية من عطره المفضل..

انتظرت بضعة دقائق حتى شعرت بتأثير الدواء عليها.. وخرجت لتجده يتلقفها بلهفة عاشق لحبيبته الأثيرة..



بعد فترة سقطت هي بالنوم العميق لتتركه حائرًا بحالها.. فتارة تتخشب بين ذراعيه كتمثال من النحاس.. وتارة أخرى تغيب معه بعاطفة لاهبة وكأنها هائمة.. ضائعة..

أو مخدرة!!..

الفصل الثامن

الوفاء.. كلمة قليلة الأحرف عظيمة المفهوم محمودة كصفة، بل تصل لدرجة التقديس حين امتلاكها في زمن نعيب عليه ندرتها.. وكما صدق الشافعي رحمه الله:

فالعيب فينا.. وما لزماننا عيب سوانا!

كما أنها أيضًا تشمل الكثير من المعاني والاتجاهات، واسعة المجال تتفرع عنها أنواع عدة، منها الوفاء لوطن، لأهل، لحبيب، لصديق.. أو حتى لميت.

وكل منا يؤولها كيفما يشاء وكما يرضيه أن تكون، فيمطها لتواكب احتياجات نفسه، أو يدعيها ليظهر بمظهر الفارس، أو حتى يلتزم بها رغم أوجاع تثيرها بداخله لتخنقه بها.

لكن قبل أن يمتلك الآخرون ولائنا أو نمنحهم طواعية وفائنا البعض يقدم نفسه أولًا، ويرى أن ذلك أعظم درجة وربما الأنقى والأهم، وعنها فهي تقوم بذلك بالفعل..

نصبت شباكها حول الغر الساذج لكن حظها العثر وغباءه امتزجا سويًا ليفلت من بين يديها ويسقط في أحضان المحظوظة ابنة عمها، محظوظة

كأختها تمامًا التي تزوجت من المهندس الوسيم الناجح والذي يذوب في هواها، أما عنها هي وأخيها فقد تربيا على اليتم، الحاجة والعوز المغطى بعار انعقاد اللسان عن الطلب.

وقررت: الأمر لن يمر مرور الكرام، لن تتنازل عنه بتلك السهولة أو تستسلم في معركة كانت هي أول من وصل لأرضها، حدد أهدافها بل ورسم خريطة النصر، هو لها وستجد الحل عاجلًا أو آجلًا..

اتجهت نحو الهاتف الذي تعالى رنينه فاستدعاها من أفكارها الشيطانية المتتابعة لتجد شقيقته، رحبت بها وكما يقولون تآلفت الأرواح بسرعة فالطيور على أشكالها تقع، تعمدت المرح وهي تسألها:

- أكيد عاوزة آية.. ثواني هاناديهالك!

والأخرى بادرتها قبل أن تتركها:

- المفروض.. ماما مصرة إني أكلمها وأتعرف عليها بس..

وسكنت لثانية ألهبت بها فضول "رانيا" قبل أن تكمل:

- الحقيقة أنا مش قادرة أبلعها.



وانفتح الحواروامتد عن الغائبة، واحدة تدس السم بالعسل والثانية تبتلعه برغبتها الكاملة، حتى صمتت "نشوى" للحظات تحولت بعدها نبرتها للخبث:

- على فكرة يا روني.. أنا لاحظت نظراتك أنت وعمرو لبعض، هو إيه الموضوع؟

تظاهرت بارتباك، ووجدتها فرصة سانحة ستكون غبية لو لم تقتنصها فادعت الخجل:

- يا خبر!!.. إوعي يكون حد غيرك أخد باله؟

ضحكت أخته كأنما وقعت على صيد ثمين:

- لا.. اطمني.. أنا بس اللي بالقطها وهي طايرة.

وعادت لصمتها قليلًا قبل أن تدمدم بلهجة لئيمة:

- بس الحقيقة يا روني؛ أنا ارتحت لك قوي، أكترمن بنت عمك، حاساها مغرورة وشايفة نفسها بزيادة، على إيه مش فاهمة!

وفرصة جديدة تتطلب التظاهربالبراءة:

- لأ..

وافتعال تردد ملائكي لا يليق بها:

- هي بس دلوعة عمي، ماحدش في البيت يجرؤ يزعلها.

سمعت مصمصة شفاه تبعتها جملة أثلجت صدرها:

- يا عيني يا عمرو.. هتتعامل مع الدلوعة دي إزاي؟

قبل أن ترد عليها "رانيا" ظهر فتاها من بعيد بإشارة متعجلة يأمرها بأن تتبعه، أنهت المكالمة فمن هي لترفض له طلبًا حتى دون أن تتمكن منه هو الآخر!!.. وضعت وشاحها فوق رأسها وتسللت خارج المنزل دون أن يشعر بها أهله.

مرت دقائق قليلة ووصلت خلفه إلى السطح كما تعودا، وجدته مستندًا إلى السور يتأمل الشارع المضاء والحركة الدؤوبة فيه، اقتربت منه بتؤدة وابتسمت، الشاب الذي يثير بداخلها الكثير ويخضعها بإشارة دون كلام، وهي حتى لا تدري لذلك سببًا مقنعًا، وقفت خلفه تناديه بدلال:

- إيهاب!

استدار إليها وفي عينيه لمعة غاضبة أرجفتها:

- اتأخرتِ ليه؟



بعدها جرها خلفه بعيدًا عن السور نحو حجرة جانبية مغلقة قبل أن ترد أو تحاول حتى، أسند ظهرها للجدار وحبسها بينه وبين جسده الضخم ثم ضغطها إليه بنهي صارم لا تملك أمامه سوى الطاعة:

- ما تتأخريش تاني.

وقطع كل اعتراضاتها أو حتى تبريراتها بقبلة قاسية تبعتها أخرى وأخرى وهي خاضعة بين يديه، مستسلمة تمامًا لحصاره.. بل تبادله جنونه بجنون مماثل، ورغم عنف لمساته فلم ترفض أو تمانع حتى وجدت نفسها ممددة فوق الأرض وهو مستمر في غيابه بين ذراعيها حد الاكتفاء.

ابتعد عنها لاهثًا وجلس يرفع ركبتيه قرب صدره، استند إليهما بذراعيه وأنفاسه تأخذ في الهدوء تدريجيًا، نهضت هي أيضًا تنفض عن جسدها التراب وترتدي ما خلعه من ملابسها قبل أن تناوله قميصه وتساوي شعرها، بعدها وضعت وشاحها فوقه بلا ترتيب تفكر في خشونته الزائدة هذه المرة:

- مالك يا إيهاب؟.. إيه اللي مضايقك؟

رده كان فظًا جافًا مثله تمامًا:

- مالكيش فيه.



اعتمدت على ركبتيها في مواجهته، أمسكت بوجهه بين كفيها تنظر في عينيه بتمعن:

- زعلان عشان أمنية برده؟

دفعها وانتصب واقفًا، ارتدى قميصه وزرره بعنف سريع:

- ما تدخليش في اللي ما يخصكيش يا رانيا.

شعرت بالغضب فتبعته:

- ما هو أنت المفروض تعرفني مالك.

وصمتت للحظة قبل أن تردف بلهجة ذات مغزى يفهمه:

- أنت لما بتبقى متضايق بتزودها شوية.

استدار إليها بنظرة ساخطة أخافتها:

- أنا عارف أنا باعمل إيه.

ومد يده في جيبه يخرج علبة تبغه، التقط واحدة وضعها بين شفتيه وأمرها:

- انزلي بقى، عاوز أدخن.



شعرت بنار تحرقها، تتآكلها فلا تبقي ولا تذر.. لم تكرر كلمته أو تهتم أكثر، فقط قبيل رحيلها رمقته بحقد وتحركت مغادرة وهو ينفث دخان التبغ بشرود..

هبطت السلم بهدوء خشية أن يراها أحدهم، هي لن تستمر على هذه الحال، لن تظل للأبد وسيلة متعة بمدى محدد يتوقف عند عذريتها المؤجلة غير الكاملة حتى مسوغ مؤطر بشرعية وورقة رسمية، متعة لفتىً يصغرها بعامين، لطالما ظنت أنها من ستسيطر عليه فإذا بها خانعة خاضعة له بكل جوارحها، ودون مبرر يجيز له أولها ذلك..

قريبًا ستنال زوجًا يليق بأفكارها، هي وفية لنفسها، ولاؤها الأول لكيانها الخاص.. وهي ترى أنها تستحق الأفضل، لذا لابد وأن تحصل عليه.. سواء كان غِرُّها الأحمق أو حتى ابن عمها الذي يكره زوجته "حمزة".. وكلاهما كما تعلم: صيد سهل و.. ثمين للغاية.

***

البعض تتحكم بهم أخلاقهم فتصل لمرتبة توازي ضلال الطريق، لا تختلف عن أي جريمة أخرى تشبه حتى القتل، يتمسكون بحبل وفاء وربما عهد تغيرت بسببه أقدارهم وسارت باتجاه معاكس.. لكنهم في النهاية يظلون أوفياء..

ولأن لكل وفاء ثمن، فهو دفعه من مشاعر اختزنها قلبه لامرأة اختارها، من عفريت غضب يتلبسه عندما يعلم أنه فقدها للأبد، وأن الخيوط كلها لم تعد بيديه..

وضعت الطبق أمامه فأصدر صوتًا خافتًا معتادًا لكنه جذب عينيه نحوها مخرجًا إياه من تيه في ذكرى عهده الذي قطعه على نفسه وبرَّبه وفيًا رغم أنفه، نظر إلى ظهرها متابعًا خطواتها المبتعدة وهي تعود إلى المطبخ لتحضر المزيد من أطباق الطعام، تتحرك برتابة روتينية دون أن يصدر حتى عن قدميها دبيب صوت..

ضيق عينيه متذكرًا، هو بالفعل لا يمتلك ذكرى مميزة لها، دومًا ما كانت تشبه طيفًا، شبحًا يقيم معهم بالمنزل بعد رحيل أهلهم، ساكنة هادئة لا تثير الانتباه أو تجذب العين أو حتى تحاول!!

عادت من جديد ترص الغذاء، تأمل ملامحها الهادئة، أقرب للشحوب، تتجاهله كليًا ويتجاهلها في المقابل بعد ذلك اليوم الذي لا يغيب عن باله أبدًا، يوم تملك منه وحشه الغاضب فأهانها بقسوة لم يعتدها في نفسه من قبل..

وشرد ثانية ليوم امتلك فيه عنها أول ذكرى تكاد تكون مختلفة، يوم أعلن والده أن أخيه الراحل سيعقد قرانه عليها، يتذكر دهشته حينها التي

وصلت حد الاستغراب، كانت لاتزال صغيرة بالكاد أنهت دراستها الثانوية وشقيقه نفسه كذلك صغير السن، وقتها ظن أنه تعلق بها كما أحب هو شقيقتها الصغرى وتعلق قلبه بهواها لذلك عجل الأب بالزواج..

وبالطبع كانت استعدادت الزفاف الكبير على قدم وساق بما يليق بابن الحاج "سلامة سند" التاجر المعروف حسن السمعة.. ثم بعد زواجهما بفترة قصيرة قرر أخيه الانتقال لمحافظة أخرى ونقل عمله إليها، عارض في ذلك الحين لكنه رضخ في النهاية لرغبة الأخ الذي قرر أن يشق طريقه بعيدًا عن العائلة بصحبة زوجته..

وخرجت "سمية" من منزلهم، ندرت زياراتهما لبيت والديه، وفي كل مرة كان يشاهد التغيير الطفيف بوجهها ونظراتها، تغييرًا يزداد تدريجيًا حتى أصبح البؤس هو سمته الواضحة، لتنتقل من خانة طيف غير مرئي أو محسوس إلى خانة بائسة باقتدار.

كانت تضع آخر طبق والتفتت مغادرة عندما توقفت فجأة وانحبس معصمها بين أصابعه مع نبرته الآمرة:

- اقعدي كلي، كفاية كده.

تعثرت الكلمات في حلقها فازدردت لعابها دون أن تنظر إليه:

- هاكل جوا، جهزت طبقي.

لكنه لم يترك يدها، ولم يتنازل عما أمر به عاقدًا حاجبيه:

- باقولك اقعدي.

نبرته شبه الزاعقة أجفلتها فاستجابت بخنوع متردد، جاورته على مقعد مائدة الطعام غافلة عن تلك الأعين الناقمة التي تابعت نظراته إليها منذ جلس، مدت يدها في طبقها تعبث فيه دون أن تأكل فعليًا، لكنه لم ينتبه عائدًا لشروده فيها ولحياته معها..

أسئلة كثيرة تتوالد بداخله، تتعاظم وتكاد تفجر عقله دون جواب يريحه، لمَ أجبره والده على تلك الزيجة؟..

بل لمَ من البداية أجبره أخيه على منحه ذلك الوعد وفي ذلك التوقيت بالذات كأنما هي وصيته الأخيرة أو أمنية ما قبل موته!!..

انقبض قلبه وطرف بعينيه وتلك اللحظات تعود متجسدة كأنها حية في مواجهته، تتحداه الصمود أو الرفض، كثير من الخوف، رعب ينهش روحه على شقيقه الأصغر وهو يقود سيارته بجنون علَّه يصل إليه في وقت مناسب، يلحق به قبل رحيل متوقع أخبروه عنه..

عندما وصل إليه كان في حجرة العناية المركزة جسده محطم تمامًا فوق فراش المرض، مغطى بضمادات وجبائر لا تكاد تظهر منه شيئًا ومحاط بأسلاك كثيرة لا يفهم إلا أن الغرض منها الحفاظ على حياة أخيه..

واجه أبيه بخوف حائر خارج الغرفة التي كان قد سبقه إليها:

- حصل إيه يا حاج؟

أغمض الأب عينيه يكبت بهما دمعة أصرت معاندة أن تبلل وجنته:

- كان سايق بسرعة، ما لحقش يفرمل واللوري هو كمان ما لحقش، دخل تحته بنص العربية والناس خرجوه بمعجزة.

استرجع بقلب واجف:

- إنا لله وإنا إليه راجعون.

ونظر إليه من خلف الزجاج، غائب عن الوعي، ساكن كالموتى أو ربما هو على وشك الموت بالفعل!!..

وانعصر نابضه ثانية بتوجس على الصغير الذي كان ينظر إليه بأبوة رغم فارق غير كبير بينهما، أمسك والده بكفه وضغطها بألم:

- كان بيسأل عليك، ادخل له.

تطلع لأبيه بتوتر، هو يريد البقاء إلى جواره لكنها لحظات صعبة لا يملك شجاعة تحملها أو مواجهتها، أومأ مستجيبًا واتجه نحوه بخطى متمهلة، جلس إلى جانب الفراش ومد يده يلمس بها كف الأصغر المستكينة قربه بسكون:

- سعد!

بعسر تحرك جفنيه كأنما يقاتل لأجل أن يفتح عينيه، تحشرج صوته بلهفة بدت واضحة:

- حمزة!!

افتعل بسمة مختنقة تشبه نبرته:

- أيوة.. إيه يا أخي ما أنت زي الفل أهو، أمال بترعبني عليك ليه!

تحركت شفتي "سعد" محاولًا الابتسام:

- ما بتعرفش تكدب يا حمزة، طول عمرك.

لكنه أصر على كذبة في غير موقعها:

- لا أنت زي الفل، وبكرة هتقوم وتقف على رجليك زي الحصان.

انكسرت البسمة الوليدة بتعب قبل أن تتشبث أنامل "سعد" الضعيفة بيد أخيه الأكبر:

- عاوز منك طلب يا حمزة.

تأمله بعينيه لثانية قبل أن يهتف ملبيًا:

- أي حاجة يا سعد.



ارتعشت كفه فوق كف "حمزة" فربت عليها بحنو:

- إوعدني..

وقطع كلماته مما قفز بالتساؤلات فوق وجه أخيه قبل أن يردف بلهاث متقطع:

- إوعدني لما أموت تتجوز.. تتجوز سمية.. سمية يا حمزة.

تفرق جفناه بذهول داراه قدر استطاعته وبادره مستنكرًا:

- إيه اللي بتقوله ده يا سعد؟!.. سمية مراتك ومالهاش غيرك، أنت بتحبها وهتقوم وترجع لها.

ابتلع ريقه بصعوبة لكنه عاد مصممًا على ما أراد:

- إوعدني يا حمزة.

قبض "حمزة" على كف شقيقه رافضًا الاستماع لما يظنه تخاريف غيبوبة مرض:

- لأ يا سعد، سمية مش هتتجوز حد غيرك، أنت اللي المفروض تبقى معاها مش حد تاني، إوعى تسيبها، هتخف وتبقى وكويس و.. وترجع لها.

انحشرت آخر كلماته بضعف داخل حنجرته، هل يكذب على شقيقه أم يكذب على نفسه!!.. وبحق الله ما هذا الذي يقوله!!.. يتزوج زوجته بعد

رحيله؟!.. هو لا يكاد يصدق حتى عندما تعلق به "سعد" في وهن يجبره على وعد يرفضه:

- إوعدني يا حمزة، قبل ما أموت.. ما تعذبنيش.

انقبض قلبه بخوف:

- سعد ما تقولش كده!

لكنه لم يردد سوى كلمة واحدة:

- إوعدني.. إوعدني.

ارتجفت شفتاه بلعثمة، كيف يعده بذلك؟!.. وماذا عنها هي؟.. بل ماذا عن حبيبته التي ينتظر تخرجها بفارغ صبر كي يجمعهما سقف واحد وتصبح زوجته!!.. أي شيطان تلبس أخيه فأشعل هذه الهلوثات برأسه!:

- إوعدني يا حمزة.

وارتفع صوت أنفاسه فما كان منه إلا أن اقترب بهمس يحاول فقط طمأنته:

- أوعدك يا سعد.. أوعدك.

أصبح دخول الهواء لصدره أصعب وهو يؤكد عليه:

- توعدني هتتجوز سمية لما أموت!

تردد قبل أن يريحه بجواب:

- أوعدك يا سعد هاتجوز سمية.. بس أنت كمان إوعدني إنك هترجع لنا، هتقاوم وتقف على رجليك..

وارتبكت نبضاته المرتعبة على الصغير:

- هتبقى كويس يا سعد صدقني.

لكنه لم يرد، أنامل "سعد" الواهنة المتشبثة بأصابعه تراخت فجأة، لمعة العينين الباهتة انطفأت وتعالى الأزيز المتواصل للجهاز المتصل بقلبه يخبره بحتمية رحيل.. ناداه بذعر:

- سعد!!.. رد عليَّ.. سعد!!

والرد لم يأتِه أبدًا، بل تداخلت في الصورة عدة معاطف بيضاء وكل منهم يصرخ بشيء ما، يدفعه أحدهم في اتجاه خارج المكان وهو يراقب بارتباك مذعور.. حتى أعلنت ساعة الوفاة.. بعد وعد قطعه على نفسه..

وعد كان أشبه بوصية ميت لا يجوز أمامها سوى الخضوع..

ولأنه خضع ظن أنها من ستكون الطرف الرافض، وفاءً لزوجها الراحل، وتقديرًا لعلاقة بين قلب شقيقتها وقلبه تعلمها جيدًا..

لكنها وافقت، وحتى الآن يجهل السبب!



عاد للحاضر وعينيه فوقها لم تغادرها أثناء مضغه للطعام بغفلة، كانت تعبث في طبقها دون اهتمام بوضع ولو لقمة واحدة بفمها، تفاجأ بالسؤال الذي خرج من بين شفتيه:

- ما بتاكليش ليه؟

تمتمت بخفوت كعادتها:

- مش جعانة.

وقبل أن يعلق من جديد سمع صوت الشوكة التي اصطدمت بالطبق فكادت تحطمه إلى جواره، رفع عينيه نحو "أمنية" بتساؤل شارد.. وقابلته نظراتها الساخطة بشدة، استغربها أولًا ثم فهمها ثانيًا، هي تغار ولا يفهم لمَ!

وجدها تنهض وأمه تناديها:

- على فين يا أمنية؟.. اقعدي كملي أكلك.

لكنها ردت بعنف وضيق ظاهر:

- نفسي اتسدت.

تبادل مع أمه نظرة صامتة قبل أن يعود بنظراته نحو طبقه، كانت دعوة الغذاء هذه من والدته، وليته ما وافق على الحضور، تحركت "أمنية" مبتعدة وبداخلها فائر..

لقد تمكنت منه أختها اللعوب، أصبح يشرد فيها، لم يرفع عينيه بعيدًا عنها بل كان يلتهمها بنظراته وهي تجلس إلى جواره ببلادة وسكون كما هي دومًا..

كيف استطاعت؟!.. هل فقدته الآن!!

كلا.. هذا لن يحدث، أغلقت باب غرفتها خلفها واتجهت نحو خزانة ملابسها، فتحتها لتلتقط علبة شبكتها المخملية وهي تسب شقيقتها التي تمارس دور المسكينة حتى تتملكه.. لكن في أحلامها، أمسكت بحلقتها تتأملها قليلًا قبل أن تتوعدها:

- أنت فاكرة إنك هتاخديه مني يا سمية؟.. تبقي بتحلمي.. حمزة حبيبي أنا، مستحيل أسيبهولك، قريب قوي دبلتي هترجع في إيده!

وعندما تصبح عالقًا بين وفاء لعهد قطعته على نفسك لراحل قبيل لحظة من رحيله، ووفاء لقلب عشق حتى أذابه العشق.. تظل دائمًا في رحلة عذاب تجهل نهايتها كما فقدت خيوط بدايتها.

***

وللحب دومًا وفاء.. حتى لو كان قاطعًا للرقاب، أو في حالتها هي، مميت للأنثى بروحها وجسدها، قاتل لأمومة لم تولد بعد لكن غريزتها تتشبث بها بقوة.



هي من أحبت، منحت قلبها بكل ما فيه، تزوجت وصدقت العهد، وهو.. ماذا هو!!.. لا تعلم، لكن للحب ثمن، والثمن في حالتها باهظ للغاية حتى لم تعد تحتمل دفعه باستمرار ودون مسوغ يلائمه!

فتحت باب الشقة بعنف قبل أن تدخل غير مبالية به، وكان هو من خلفها، يراضيها لكنها اكتفت وطاقة احتمالها قد نضبت، ألقت بحقيبتها وفكت وشاحها، تحركت نحو غرفة النوم تفكك أزرار قميصها وتخلعه بعنف لترميه فوق الفراش بينما تزفر بسخط وهو يناديها:

- يا بيبا يا حبيبتي اعذريني.

تبعها للداخل ثم اقترب منها بتردد يمسك بيدها قرب قلبه:

- أنتِ عارفة إني باغير عليكِ.

لكنها لم تصدق أو تتراجع، بل صرخت بشبه جنون بينما تسحب كفها منه:

- غيرة ولا شك يا نبيل؟!

احمر وجهه ففضح نيته لتتقافز شياطينها:

- اهدي بس وهنتكلم.

وأردف بصدق ظاهر:

- أنا ثقتي فيكِ مالهاش حدود.

لكنها لم تستمع لكلماته وغضبها يزداد:

- وثقتك في نفسك!!.. إيه مافيش؟.. صفر!

نبرته كانت جريحة وهو يهتف باسمها:

- حبيبة!

تراجعت في لحظة، تهدل كتفاها يأسًا وحنقًا، اقتربت هي منه هذه المرة برفق، مدت يديها الناعمتين تحيط بهما وجهه بينما تغوص في أمواج عينيه الفيرزوية، تنهدت بحرارة وأصبح صوتها أكثر هدوءً ورقة:

- ما هو مش معقول اللي عملته ده يا نبيل!.. تشدني من قدام أستاذ يسري بالشكل ده!!

وهزت رأسها بعتاب:

- أنا لو طفلة مش هتتصرف معايا كده.

خصلاتها البنية الثائرة حول وجهها المحمر، وتلك القهوة الداكنة التي تلتمع داخل مقلتيها أكسبته شعورًا بجفاف الحلق، هرب مبتعدًا وبادرها مهاجمًا والإدعاء غيرة:

- يعني عاوزاني أشوف مراتي واقفة تضحك مع راجل غريب...

قاطعته وقد احتدت نبرتها من جديد لدى ابتعاده:

- غريب!!..

وتحولت هي للهجوم:

- الأستاذ يسري في معزة بابا الله يرحمه وهو مدير المدرسة اللي جاب لي الوظيفة أساسًا.. وإحنا جوا المدرسة بنتكلم في الشغل، في الشغل يا نبيل!

كررتها بتأنيب تجاهله بحمق:

- خلاص..

وتردد لحظة أكمل بعدها باندفاع:

- مالهاش داعي المدرسة، أنتِ عارفة إننا مش محتاجين شغلك وأنا وافقت بس عشان قلتِ لي بتزهقي من قعدة البيت.

جن جنونها وهي تهتف من بين أسنانها:

- يعني أنت عاوز ترجع تحبسني في البيت بين أربع حيطان تاني!!

واتسعت عيناها بغضب تشيح بيديها:

- أقعد أكلم نفسي طول النهار وأنت في شغلك مش فاضي لي!!

لكنه أصر على موقفه:

- ما أنا مش هاتحمل إنك تحكي مع ده وتضحكي مع ده، كتير عليَّ يا حبيبة، حرام عليكِ ما تعذبنيش.

رمقته بنظرة موجوعة:

- ما هو أنا لو عندي ولاد كنت هانشغل بيهم ومش هيهمني حاجة تاني.

وشردت بعينيها في حزن:

- ما كنتش هافكر في شغل، وكانوا هيبقوا هما كل حياتي.

وختمت هي بالكلمة الأخيرة ونظرة عاتبة بينما تتحرك مبتعدة تدير ظهرها إليه متناسية وجوده، لحظة أخرى ثم التفتت إليه وبحزم قررت:

- أنا مش هاسيب شغلي يا نبيل، حاول تتأقلم مع الوضع..

وتاهت في أفكارها المتصارعة:

- الولاد في المدرسة هما اللي ماليين الفراغ اللي جوايا!

أغمضت عينيها بتنهيدة في إشارة تأمره بالرحيل، كأنما تغلق طريق الوصول إلى قلبها واستغلال حبه كنقطة ضعف لطالما توقف عليها الكثير من الأمور في حياتهما سويًا.. هي لن تترك عملها لأجله..

نقطة وانتهى السطر!

اشتعل غضبه الممتزج باليأس من استجابتها خاصة مع ذكرى قربها ولمساتها وثورتها، وكما في كل مرة شعر بحرارة جسده ترتفع وتاه عقله في خيالات كانت هي مصدر متعته الوحيد بعيدًا عن لذة زوجة فعلية لا

يضعها أبدًا في هذه المرتبة، غادر الغرفة وخلع سترته، تحرك نحو الحمام الخارجي وفي أفكاره شهوة تأججت وتحتاج لانطفاء.

أقفل الباب خلفه بإحكام، تأمل وجهه في المرآة لثوان قبل أن يغلق عينيه محلقًا بذهنه نحو صورة مبهمة لأنثى كاملة يمكنها أن تشبع كيانه الجائع لمتعة ينشدها كل ذكر..

متعة محرمة عليه ولذة يستجلبها لنفسه لأن أنثاه هو بعينيه.. لا تصلح لتلقيها..

لحظات واعتصر جفنيه ونشوة ما تقترب من الوصول، يجاهد وأنفاسه تعلو بينما يحبس أنينه خلف شفتيه المضمومتين وتتحول خيالاته لجنون مع لمساته لجسده حتى لحظة النهاية، الاكتفاء والهدوء.. استرخاء صدره وبريق ما يلتمع في مقلتيه..

بريق يدل على إشباع حتى لو كان محرمًا.. يجرمه الشرع وترفضه الفطرة!

***

الوفاء للموتى كذلك يختلف من شخص لآخر، فبينما البعض يفي لوعد؛ غيرهم يفي لمعشوق رحل عن دنياه دون أن يكتفي منه، ودون وداع مناسب يحتفظ بذكراه..



وذلك الوفاء لا يؤلمه وحده، بل يتعدى حدود نفسه ويتجاوزها نحو من اختارقربه بكامل إرادته، يوجعه.. يهينه، وينفي ملكية هي في الواقع له لكنها في القلب ملك من غادرعالمه..

حتى دموعها لم تعد كافية، أنين كيانها كلها في مواجهته ليس محل اهتمام منه، بل مجرد صراخ يتردد ويتعالى وهي تعتصرعينيها تحجب عنهما صورته:

- إزاي تغيري ديكور البيت؟.. بتغيري الترتيب ليه!!.. أنا قلت لك تغيري حاجة؟

كانت تبكي وهو يزعق..

لا تذكرعدد المرات التي سالت فيها دموعها بسببه، وهذه المرة مختلفة تعدت كل الحدود، تعدت كل وجع سابق، ومن يدري ما التالي!!..

نظرت إليه بلوم، عاتبته بصمتها وهو تجاهل، نصب نفسها قاضيًا وحكم عليها بالألم، بنبرة باكية سألته بينما لاتزال على حالتها من عدم الفهم:

- أنا مش فاهمة أنت بتعمل كل ده ليه!!

وترددت كأنها تخشى الجواب:

- هو ده مش بيتي برده؟



وصرخ بغلظة دون أن يعي مدى قسوة رده الذي اخترق ليس فقط أذنها بل قلبها كسلاح ثالم ذبحها ببطء:

- لأ!..

خرجت الكلمة كطلقة رصاص أصابت الهدف وفاز القناص لكنه توقف بعدها.. توقف يتأمل عبراتها التي أصبحت كسيل، عيناها المحمرتان اللتان تنظران إليه بلوم وعتاب، نشيجها المكتوم تحاول حبسه ولا جدوى، يتسرب من بين شفتيها رغمًا عنها..

زفر بضيق ووبخ نفسه، اتجه إليها يحاول التربيت على كتفها ليراضيها لكنها رفضت قربه ومحاولته، ابتعدت عنه ونهضت تترك له المكان كله نحو غرفة النوم..

وعندما أغلقت الباب خلفها فتحت باب الذكرى في قلبه وعقله..

لقد تعجل عندما تزوجها، لم يكن في حال تسمح له باستمرار الحياة وإدخال أنثى لعالمه والحبيبة الأخرى لم تغادره بعد، وها هي النتيجة، عذابات متجددة وآلام يتسبب بها لمن لا ذنب لها!!

"استعجلت إزاي!!.. دول تلات سنين من بعد ما ماتت بوسي"

كان هذا السؤال من عقله كأنما ينبهه لأمر قد غاب عنه فرد عليه بتعب:

"أيوة.. بس ما حبيتهاش، باعذبها معايا وبس"

هاجمه العقل بحدة:

"أنت اللي مش عاوز تنسى"

والجواب بوجع:

"وإزاي أقدر أنسى!!"

وشرد في ذكراها:

"رقتها، بسمتها، عينيها.. الحب اللي كان بيننا، موتها قبل ما تبقى في بيتي، في حضني وبأيام بس!!"

وانكسرت شفتاه ببسمة باهتة:

"حب سنين ما يتنسيش في لحظة، ولا يتنسي بواحدة تانية"

ودارت عيناه في المكان من حوله:

"كل ركن في البيت ده هي اللي اختارته، حددت مكانه.. إزاي التانية تجرؤ تغير فيه؟"

والعقل بدا غاضبًا:

"أنت كده بتظلمها"



فعاجله برد حاضر:

"وباظلم نفسي معاها"

عاتبه ببقايا ضمير:

"بس هي مالهاش ذنب"

لكنه رفض الإنصات:

"هي وافقت تدخل حياتي وهي عارفة"

استمرفي توبيخه علَّه يفيق:

"دي مراتك وملكة البيت ده.. آمنتك على نفسها وروحها، وأنت مش قادر تسمح لها بمساحة تحس فيها إنها ست البيت؟"

أغمض عينيه متوجعًا ثم عاد يفتحهما، يتأمل ذلك الركن الذي غيرته زوجته وضيعت لمسة الحبيبة فيه، يستعيد ذكرى اللحظة التي رتباه فيها معًا هي برقتها وعنادها وهو بموافقته لرغباتها حتى لوكانت ضد ما يراه.. ظهرت صورتها في أفق خياله كأنما أصبحت اللحظة واقعًا، تمسك بمزهرية لتضعها فوق طاولة جانبية بمرح:

- الركنة دي هتبقى تحفة، والفازة دي هاحطها فوقها.. هنا كده.

وعاندها وقتها كعادته كلما رغب في مشاكستها:

- لأ.. أنا شايف إنها هنا أشيك.

زمت شفتيها وتذمرت برقة تثير فيه الكثير:

- وبعدين معاك.. ما تناقشنيش، أنا هنا ست البيت.

اقترب منها مبتسمًا بحب:

- أنتِ ملكة البيت.

ثم تناول منها مزهريتها وتركها جانبًا، أمسك بيديها وقربها منه هامسًا:

- أنتِ ملكة حياتي كلها.

واقترب أكثر ونفسه تراوده عن قبلة تهربت هي منها بضحكة خجول وركض نحو إحدى الغرف يلاحقها تهديده الخافت العابث:

- ماشي يا بوسي.. كلها تلات أيام بالعدد.

هزت كتفيها وفتحت الباب ودخلت، هي نفس الغرفة التي اختفت فيها زوجته قبل قليل، تأمل بابها المغلق بسكون وجفنيه يرتعشان.. لقد ماتت وتركته، ماتت بعد حرب لم تكن هينة، حرب قاتلت فيها بكل إرادة وصلابة وعزم حتى انتصرت..

لكن العدو الغادر تظاهر بالهزيمة وحينما أدارت له ظهرها طعنها ولم يتركها إلا في القبر..

المرض الخبيث كما يسمونه، يخشون نطق اسمه كأنما الاسم هو سحر أو تعويذة تستحضره بالتبعية.. حبيبته وقرة عينه أصيبت بالسرطان.. سرطان الثدي، ذلك الغول الذي ينهش فيها من الداخل ودون أن تعلم حتى تحين اللحظة المناسبة للإعلان عن وجوده بكل قسوة!!

وتلك اللحظة لم يتحملها هو، لم يستطع مجرد التفكير في خيال للغد ليست هي فيه، لكنها منحته حينها القوة.. تشبثت به وبحياتها معه وعشقها له، وكان دافعها عشقه لها.. صارعته فصرعته وانتصرت، انتصرت بعد أيام وليال مليئة بالأوجاع والمخاوف الأزلية..

فما الأكثر رعبًا من حبيب على وشك فقدان حبيبه!

لكنها تحدته، قهرته.. أعلن استسلامه بالرحيل عن جسدها وتمام الشفاء، ويعجل الحبيب بعقد القران.. وتبدأ التحضيرات بسرعة البرق ليتم الزفاف، لتصبح الحبيبة ملكه بعد طول صبر وانتظار وعناء..

والمهزوم لم يرتضِ هزيمته، رفض المفارقة الصامتة بلا غنيمة.. فكانت هي غنيمته، هاجمها بغتة على حين غفلة منها وبضراوة وشراسة لم تكن قدر مواجهتها فأضحت الهزيمة من نصيبها..



تأوه بصمت وهو يتذكر لحظاتها الأخيرة بين ذراعيه، لم تجد الفرصة لإعادة العلاج، لم تجد الفرصة حتى لتودعه الوداع الأخير الذي لا لقاء بعده.. ماتت فقط وبقي هو يتنفس، يأكل ويشرب.. والاسم "على قيد الحياة".

تنهد من أعماق قلبه الواهن، نهض مستسلمًا لعقله الذي وبخه بما يكفي وأمر نفسه بحزم:

"خلي المركب تمشي يا صلاح"

طرق باب الغرفة ففتحت له، بكامل ملابسها وحقيبة ما تحملها في يدها، منحته نظرة ذبحته وبادلها إياها بصمت كسير.. نظر لما تحمله وسألها بخوف:

- رايحة فين!!

تحركت لتتركه غارقًا في بحر وحدته بتوضيح خافت:

- رايحة بيت بابا..

وتوقفت بعدما تخطته لتكمل بتمتمة متألمة:

- على الأقل هو بيتي.



وتردد، هل يمسك بها؟.. يلاحقها ويمنعها من تركه هي الأخرى!!.. لكن قبل أن يجد ردًا لسؤاله كانت قد رحلت بالفعل، أغلقت الباب خلفها وأغلقت في وجهه باب الأمل..

فالوفاء ليس دومًا.. محل فخر، قد يكون موطن كل وجع!

***

وكما نوهنا تتعدد أوجه الوفاء، فليس بالضرورة أن يكون لشخص بالتحديد، هناك الأكبر والأهم.. العائلة!!

خاطبته والدته لتقطع رحلة عمله الطويلة تطالبه بالعودة، تخبره عن كارثة ما لن يملك زمامها سواه ولن يضع الحلول لها غيره!!.. واستجاب تاركًا كل شيء وعاد..

في وقت متأخر والكل نيام، وصل للمنزل ألقى بحقيبته في غرفته وغير ملابسه.. مط جسده قليلًا بتعب وفكر في دقائق من السباحة يريح بها عضلاته المنهكة من طول رحلة العودة..

اتجه نحو المسبح بهدوء ولم يجُل بأقصى أحلامه أن تسقط عيناه على حورية بيضاء بل ذهبية ممددة فوق الماء بيسر وانسيابية بثوب ناصع واسع يحيط بها كهالة من نور، تطفو على سطحه دون أقل سيطرة منها بل



تركتها بالكامل لذراته تحملها حيث شاءت وخصلات كسلاسل الذهب تحيط بوجه لم يلمح تفاصيله بوضوح..

أما عن ضوء القمر الفضي فلم ينقص من جمال وجلال الصورة في شيء، تأملها لدقيقتين أو أكثر دون صوت قبل أن تتحرك زاوية شفتيه ببسمة ويرحل تاركًا لها متعتها.. وخصوصيتها.

لكنها هي من تعدت على مملكة أفكاره بصحبة حديث والدته عنها وعن تلك المشكلة التي تتوقعها بسبب وجودها!!

وللصباح في هذا البيت طقوس خاصة لا تمت للبهجة بشيء، إلا عند العابث الصغير المغازل الذي بادرها بشقاوة:

- يئبرني هالقد متل غصن البان وهالعيون متل الغزلان..

ولم تقاوم ضحكة رقيقة مرحة انطلقت بنعومة من بين شفتيها ليردف هو بهتاف دون مقاومة تذكر:

- دخيل الله على هالمبسم..

وكان لابد من رد ملائم ببسمة صافية:

- وليك.. تئبر ألبي.



فيضحك هو وتغتاظ المخطوبة وتوقع أحد الأكواب على الأرض بصوت يقطع تواصل ومرح اللحظة، التفتا إليها فكادت تقتله بنظراتها لكنه اقترب منها متلاعبًا:

- إيه!!.. باصبح عليها يا هبهوب.

"يا صباااااح الفل"

صوته ونبرته العميقة المبتهجة وهو يهبط الدرج نحوهم، استدار الجميع إليه بفرحة.. عانقت الأم والخالة وانطلق الأخ نحوه بمداعباته التقليدية:

- البيج بوص.. جيت إمتى!!

اقترب منهم وهي تنظر إليه بحذر:

- وصلت إمبارح متأخر.. كنت عاوز أعملكم مفاجأة.

وابتسم وهو ينظر في عينيها:

- بس أنا اللي اتفاجئت.

ابتعدت بنظراتها وأخيه الأصغر يجذبها نحوه:

- إستنى أما أعرفك.. لارا بنت عمك.

ونظر لها مكملًا التعارف:

- عادل.. أخويا يا لارا.. البوص الكبير.

مد يده يصافحها وعندما استكانت يدها الناعمة الدافئة في قبضته دنا منها ببسمة وغمزة لم يلمحها غيرها وهمسة وصلت لأذنيها وفقط:

- اتفاجئت إن بيتنا.. سكنته الملايكة!

تطلعت إليه بحيرة وخجل للحظات قبل أن تجذب يدها منه، وتتذكر مغامرتها الليلية المعتادة في المسبح، احمرت وجنتاها بشدة وابتسمت.. فقط لتتسع بسمته في المقابل وهو يحيطها بسجن عينيه..

الفصل التاسع

شعور المفاجأة.. الاحساس بحدوث ما هو غير متوقع.. حالة تتغير من شخص لآخر.. ويختلف رد الفعل باختلاف الأشخاص.. فأحيانًا تشحذ أسلحتك لتدافع عن كيانك.. أو ربما تهاجم بحثًا عن حق ضائع.. لتفاجأ بما لم تتوقعه.. وحينها.. قد تسعدك المفاجأة.. وقد تشعل توترك...

لابد أنها كانت أطول وجبة إفطار مرت بتاريخ البشرية!

كان ذلك تفكير الجالسين على المائدة، بين شعور الغضب الممزوج بالحزن والذي أصبح السمة المميزة لهبة في الآونة الأخيرة، فخطيبها المبجل وابن عمها عماد لا يكف عن مغازلة الوافدة الجديدة.. وإن كانت مغازلاته بدأت بالنظرات.. فاليوم بدأ بالتصريح بكلمات غزلية واضحة حتى لو صبغها بلون ممازح مستفز.. هي تدرك طبيعة ابن عمها الغزلية والتي لا تترك أنثى بالجوار إلا وأسمعها من غزله العابث ذاك، ولكن مع لارا الأمر يختلف.. فالماضي القريب يظلل الجميع..

وفكرة تكراره ثانية ليست بالبعيدة!..



وبينما الحزن كان رفيق هبة كان الحقد هو المسيطر على عايدة وثريا؛ فالراحة اللحظية التي شعرتا بها لعودة الابن الأكبر وثقتهما التامة في قدرته على تولي الأمور انقلبت إلى حالة من التوتر والقلق لملاحظتهما نظراته المهتمة بالشقراء المغوية.. ولم يفتهما همسه لها منذ دقائق بما يعلمه الله..

أما عادل فكانت عيناه تراقبان الجميع بنظرة متسلية، بدءً من غضب والدته وخالته إلى الغيرة التي تنطق بها كل ملامح هبة وحالة اللامبالاة التي تبناها شقيقه تجاه الجميع ماعدا ابنة عمه الجميلة والتي لم يكف عن التهامس معها رغم محاولتها المستمرة للتباعد.. وأخيرًا حاصرها بنظراته.. هي الجميلة الملائكية..

لا يستطيع التفكير بها إلا بتلك الصورة.. ملاك أشقر ناعم يطفو على سطح المياه في حالة من الصفاء والحالمية لم يمر بها من قبل.. حتى أنه لم يحاول قطع خلوتها والتطفل عليها بل اكتفى بمراقبتها بثوبها الأبيض وقد التصق بها ببعض المناطق وافترش سطح الماء بمناطق أخرى مما منحها مظهرًا مذهلًا اشترك معه ضوء القمر بعدما انعكس على خصلاتها الشقراء المبتلة ليكونا مشهدًا استحق كل لحظة تأمل استهلكها ليلة أمس وهو يراقبها بصمت بينما جسده ينشد الراحة بعد عناء السفر لعدة ساعات..

انتهت وجبة الطعام الثقيلة على الجميع وبعدها دعا عادل لارا لغرفة مكتبه..

ترددت للحظات في تلبية الدعوة، لا تعلم ما يجعلها تخشى الانفراد به!..

ربما تلك النظرة بعينيه والتي تخبرها ببساطة أنه أمسك بها في إحدى لحظاتها الخاصة.. أو تلك الحقيقة التي اتضحت أمامها، بأنه المتصرف والمسيطر على كل أمور العائلة.. فتساؤلاتها الصامتة عن تأخر زوجة عمها بمفاتحتها بأمر الميراث بالفترة الماضية لم تجد إجابة شافية لها إلا بظهور الغائب والعائد بقوة ليهيمن على الجميع..

تغلبت على ترددها بقوة إرادة تعرف كيفية التحكم بها وسبقته نحو غرفة مكتبه.. لتقف بمنتصفها بينما هو يرتكز على مقعده خلف مكتب أبنوسي فخم..

أشار لها لتجلس مبتسمًا:

- اتفضلي يا لارا.. أكيد في مواضيع كتيرة لازم نتكلم فيها..

جلست بهدوء وهي تواجهه بجدية:

- موضوع واحد ومهم.. ميراثي من والدي..

ابتسم بمودة:

- أكيد طبعًا يا بنت عمي..



تحولت ملامحها للإحراج وهي تدرك استخدامه لصلة القرابة ليذكرها بكلماتها ورغبتها الأساسية بمد صلة ود بينها وبين عائلة والدها.. ولكنها لم تستسلم لإحراجها طويلًا، إذ سرعان ما واجهته بسؤال يكاد يقسم عقلها فضولًا..

- ممكن أفهم ليه ما حدش عرفني بوجودك؟..

رفع حاجبًا متعجبًا:

- مش فاهم!.. ازاي ما تعرفيش بوجودي!!

هتفت بعصبية:

- أقصد.. إن ماحدش اتكلم عنك.. قصدي أنا كنت فاهمة عماد هو المسئول أو نديم..

قلب شفتيه بتسلية:

- عماد أو نديم!!..

خبطت على المكتب بخفة:

- ممكن إجابة.. واضحة..

هز كتفيه:



- ممكن جدًا.. أنا مش فاهم أنتِ متعصبة ليه يا.. لارا؟.. الاجابة المنطقية اللي عندي.. إن أكيد كانوا فاهمين أنك عارفة مين ولاد عمك.. ومين المسئول في العيلة بعد موت والدي الله يرحمه.. الموضوع مش مريب زي ما أنتِ متخيلة..

جاوبته بهزة كتف مماثلة:

- إمي ما حكت لي شي عنكن..

بسط يديه أمامه:

- دي مش غلطتنا أظن.. ولا ايه!

رمقته للحظة بشك ولكنه عاجلها بسرعة:

- أيًا كان اللي حصل في الماضي.. فخلاص انتهى.. ودلوقتِ الأفضل أننا نركز على الحاضر والمستقبل..

أومأت موافقة ليفاجئها بإخراج ملف كبير.. بسطه أمامه على المكتب وبدأ بشرح كل ما يخص ممتلكات عائلة والدها بطريقة سريعة ولكن عندما وصل لنصيب والدها الشرعي من الميراث.. ثم نصيبها هي وكيف تم توزيع التركة وفقًا للشرع والقانون.. بحيث تم المحافظة على نصيبها من تركة والدها كاملًا.. وأخرج لها مستندًا قانونيًا موقعًا من والدتها بالتنازل عن حصتها بميراث والد لارا.. وهو ما كانت لارا تدركه ولكن ما أثار ذهولها..

إخراجه لملف آخر تضمن حصر شامل لكل مستحقاتها منذ وفاة والدها وحتى اللحظة الراهنة..

هزت رأسها بحيرة:

- أنا مش فاهمة حاجة..

أجابها بجدية:

- ايه اللي مش فاهماه يا بنت عمي.. ده ملف بكل مستحقاتك..

وأشار لملف آخر:

- وده ملف فيه كل حاجة عن حسابك في البنك.. الحساب اللي فتحته باسمك وبينزل فيه أرباحك السنوية..

سألته بنبرة متشككة:

- عايز تفهمني أنه..

قاطعها بحزم:

- لا أنا مش عايز أفهمك حاجة.. أنا بقولك وبمنتهى الوضوح.. حقك في ميراث والدك من يوم وفاته.. إلى الآن موجود في الملف ده وكله باسمك.. لو عايزة تتأكدي من كلامي.. ممكن نتصل بالبنك حالًا.. أنا كنت الوصي القانوني على ميراثك.. وكنت حريص إن حقك يوصلك لآخر مليم..

لم تعجبها نبرته التي أخذت بالتعالي مع نهاية كلماته فردت بسرعة:

- أعتقد أني عديت سن الرشد والوصاية انتهت..

ابتسم وقد لمس نبرة التحدي بصوتها:

- أكيد الوصاية اتشالت.. بس ده ما يمنعش أني كنت بتابع مصالحك زيك زي هبة.. ده واجبي..

نهضت وهي تكتف ذراعيها:

- ميرسي ليك كتير.. بس أنا خلاص.. كبرت وجيت عشان أراعي مصالحي بنفسي..

قطب بتساؤل:

- مش فاهم!

أجابته بثقة:

- يعني أنا درست اقتصاد وبفهم كويس جدًا في..

قاطعها بإشارة حاسمة من يده:

- هنا أنا المسئول.. وأنا اللي بتابع.. وأنا اللي براعي.. وأظن أكبر دليل على أني ما جورتش على حقك، الفلوس اللي في حسابك.. والفلوس دي تحت أمرك

اتصرفي فيها ما بدا لك.. لكن نصيبك في المصنع والأراضي والمزارع ده بقى اللي مش هسمح أبدًا أنه يخرج من تحت سيطرتي..

اتسعت عيناها ذهولًا من صراحته الفجة فهتفت به:

- وبتقولها لي كده بمنتهى الصراحة!

ارتفع حاجباه قليلًا وهو يجيب بوضوح وجدية:

- أنا صريح في كل تعاملاتي.. اتفضلي..

دفع إليها بدفتر شيكات مصرفية:

- ده دفتر شيكات باسمك.. هتلاقي فيه حسابك كامل.. مبلغ تعيشي به أميرة زمانك.. وهيزيد ما تقلقيش عمره ما هيقل.. لكن أصول التركة.. آسف.. لا.. مش هفرط فيها.. أبدًا..

صمت للحظة وهو يشير للحديقة والمسبح بالخارج:

- أنتِ هنا معانا عايشة معززة مكرمة.. كل طلباتك مجابة.. وصدقيني ما فيش أي حاجة هتنقصك..

صمتت للحظة وهي تقبض على دفتر الشيكات بأناملها لا تدري بما تجبه.. ثم أخبرته بحسم تحاول استعادة السيطرة على مجرى الحديث:

- أنا لازم استشير محامي..

هز كتفيه:

- حقك طبعًا.. بس وقتها برضوه حقي أني أعرض أشتري نصيبك.. وليَّ حق الشفعة.. أو اشتري أنتِ لو تقدري..

رمق نظرتها المصدومة لتحوله المفاجئ بتسلية.. ثم أطلق ضحكة ودودة:

- يا لارا أنتِ بنت عمي.. وعمري ما هفكر أني أزعلك ولا أظلمك.. يا ريت تفكري فينا بعيد عن أي تصورات مسبقة..

تحرك نحو الباب لترافقه مجبرة وهو يخبرها برقة:

- اديني فرصة أخلص الشغل اللي ورايا وبعدها هتفرغ آخدك في جولة في المزارع والمصنع وأنتِ بنفسك هتشوفي حجم الشغل والمسئولية.. ومتأكد وقتها أنتِ بنفسك هتطلبي مني أن كل شيء يستمر زي ما هو..

أومأت برأسها توافقه وهي تخرج من باب الغرفة بشرود.. تشعر بأنها نزلت من دولاب الأفعوانية وليس من لقاء ودي مع ابن عمها الأكبر الذي منحها شعور متناقض بالأمان والدعم.. والقلق العنيف.. ولم يكن القلق حول ميراث أو أصول تركة..

بل كان هناك شيئًا أعمق..

***



وأحيانًا نتعثر بإحدى المفاجآت السعيدة.. أو التي تبعث سعادة غير متوقعة.. فبعد ليلة عقد القران وأحداثها التي سببت أرقًا لا علاج له لصغيرة العائلة.. المدللة الرقيقة.. عانت لأيام من فكرة تهاجمها بلارحمة..

بأنها ربما أساءت القرار.. أو تسرعت في اتخاذه!!..

فخطيبها.. أو لتكن أكثر دقة.. زوجها المستقبلي لم يبدِ أي حماسة لارتباطهما الوشيك، بل بدا كمتهم متورط بجريمة لم يقترفها.. حتى لقائهما على وجبة الغذاء باليوم التالي -كما تقضي العادات- كان هادئًا باهتًا للغاية.. ولولا تواجد شقيقها وزوج شقيقتها وتبادلهما الحوار مع خطيبها العزيز ما كان فتح شفة عن أخرى..

واليوم فاجأها عمرو بدعوة خجلة على الغذاء بمنزلهم.. لا تنكر أنها فوجئت بالدعوة كما أنها فرحت بها.. فهي بالنهاية عروس.. وتريد الإحساس باهتمام شريكها بها..

ولكنها بالطبع لم تعلم أن الدعوة لم تأتِ من قِبل عمرو.. بل هي والدته التي لاحظت الجفاء بين ابنها وخطيبته.. فقررت دعوتها ومحاولة التقريب بينهما..

تحركت آية برفقة عمرو ليتجها نحو سيارته، ففتح لآية باب السيارة الأمامي وانتظر حتى ركبت ليغلق الباب ويتجه لمقعده ليحرك السيارة

متجهاً بها نحو منزله.. وبالطبع لم يدُر بباله أن جميع تحركاته تلك كانت تحت مراقبة عينين تلتمعان بحقد وكراهية لا حد لها..

تحركت رانيا من نافذة غرفتها بعدما انتهت من مراقبة عمرو وآية وقد انتابتها حالة قاسية من الغيرة والإحساس بالخسارة.. فهي بدأت تخسر عمرو بالفعل.. وخاصة مع رفضه لاستقبال مكالمتها ولولا تلك الصداقة التي نمت سريعًا بينها وبين شقيقته نشوى لما استطاعت معرفة أي شيء عنه.. كما أن محاولاتها المستمرة للفت انتباه حمزة باءت كلها بالفشل.. فهو بتلك الأيام يبدو كمن يعايش الأشباح وفقط..

هنيئًا لكِ سمية.. لقد قضيتِ على رجال العائلة جميعهم..

اتجهت لهاتفها لتتصل بنشوى.. محاولة الوصول لخطة لإفساد زيارة آية لبيت عائلة عمرو.. فرانيا استغلت طبيعة نشوى الأنانية والتي جعلتها ترفض على الفور وجود أنثى برقة آية.. قد تنازعها عرش الوجود الأنثوي بعائلة الحاج إسماعيل..

بعد تبادل التحيات السريعة بدأتا في الاعداد للخطة المناسبة.. وقد وقعتا عليها سريعًا... فالعقول الفاسدة تتضافر معًا دائمًا لتشويه الحياة الطبيعية للآخرين..



أغلقت رانيا الخط بعدما أبلغتها نشوى بوصول سيارة عمرو تحت المنزل فسارعت الأولى بإرسال رسالة نصية لعمرو.. تخبره.. بل تهدده.. بملاقاتها أمام محل والده.. وإلا...

رمق عمرو الرسالة بقلق ثم نقل نظراته لآية التي بادلته نظرة متسائلة.. فهما وصلا لمنزل عائلته بالفعل.. ولكنه ظل قابعًا بالسيارة ينظر لشاشة هاتفه بقلق.. ثم يعود ويمنحها نظرة غريبة لم تفهم إن كانت نظرة ذنب أو اعتذار..

أخيراً فتح فمه ليخبرها بتوتر:

- أنا آسف يا آية.. مشوار شغل مش هينفع أعتذر عنه.. اتفضلي اطلعي أنتِ وأنا هغيب ساعة واحدة وآجي على طول..

منحته آية بسمة مفتعلة وهي تومئ برأسها هامسة:

- حاضر..

ترجلت آية من السيارة بينما انطلق هو بها بأقصى سرعة حتى يمنع تلك المجنونة التي تهدده برسالتها النصية أن تقتحم مقر عمله مثيرة فضيحة لا تنسى..

وصل أمام المحل بالفعل ولم يجد لها أثرًا.. فاندفع داخله يبحث عنها بتوتر.. دفع والده للتعجب.. فهو يعلم بأمر دعوة آية على الغذاء..

- عمرو!.. بتعمل ايه هنا؟.. أنت مش في البيت مع آية ليه؟..

ارتبك عمرو وهو يمسح جبينه المتعرق:

- لا يا حاج.. بس جالي تليفون من مورد العبايات التركي وكنت محتاج شوية بيانات عشان أقابله وبعدها هروح البيت على طول..

ألقى لوالده بتلك الحجة الحمقاء واعتذر منه ليعود إلى سيارته مرة أخرى ويتصل برانيا هاتفًا بها بغضب:

- وبعدين في لعب العيال ده!..

أجابت بصوت أجادت تزييف بحة البكاء به:

- أنا في الكافيتريا اللي اتقابلنا فيها قبل كده ممكن تيجي.. محتاجة أشوفك..

أغلقت الخط وشفتيها تتألق ببسمة انتصار.. فتنهيدته العاجزة التي أجاب بها توسلها أعلمتها أنه التقط الطعم.. ونجحت خطتها.. فسيخلف موعده مع آية ليكون معها هي..

دقائق وكان أمامها يلهث بغضب:

- رانيا.. إحنا مش قفلنا الموضوع ده.. ليه الرسايل والاتصالات؟.. غلط كده يا بنت الناس..

رفرفت بأهدابها بحزن:

- وأعمل ايه في قلبي اللي بيتقطع كل ما بلمحك معاها..

عصرت عيونها لتذرف بضعة دمعات تسببت في وجع لقلبه لم يعتده بينما هي تكمل:

- ما تعرفش النهارده حصلي إيه أما شوفتك نازل معاها.. كنت حاسة أني بتخنق وأنا شايفاها جنبك..

قطع رنين الهاتف فقرتها التمثيلية والتي انطلت على عمرو بمنتهى السهولة ولكنه أجاب على الهاتف ليجد والدته تؤنبه على تأخره وتستعجل حضوره..

ملامح الارتباك على وجهه لفتت انتباه رانيا لكَنه أكمل المكالمة فمدت أناملها تتشبث بيده بتوسل وهي تهمس

"خليك قاعد معايا شوية"..

ليتنهد عمرو بعجز ويعتذر لوالدته بأنه تورط بموعد عمل ولم يتمكن من الاعتذار عنه..

ارتسمت ابتسامة انتصار واسعة على شفتيها وازتها ابتسامة تشفٍ على شفتي نشوى وهي تستمع لاعتذار والدتها الواهي لتأخر عمرو.. مستخدمة عذر العمل كما أخبرها.. بينما ابتسمت آية بإحراج وتلونت وجنتيها بحمرة قانية وهي تحاول استجماع صوتها لتنهض معتذرة بدورها.. ولكن والدة

عمرو أصرت بشدة على بقائها لتتناول الطعام برفقتها هي ونشوى وعبد الرحمن خطيب نشوى الذي لمس إحساس آية بالحرج فحاول إدارة الحوار بلباقة محاولًا إبعاد ذهنها عن الوضع المربك الذي حُشرت به..

انتهت وجبة الغذاء مع كل ما صاحبها من توتروإحراج.. وأصرت آية على مساعدة حماتها المستقبلية في جلي الصحون وجمع المائدة.. بينما اكتفت نشوى بالعبث في هاتفها طوال الوقت لتوصل لآية رسالة واضحة باستحالة عقد صداقة بينهما.. فاكتفت آية بمبادلة حماتها الحوار مستمعة لبضعة قصص عن عمرو وطفولته.. وكيف يتفانى في عمله وينغمس به بشدة.. لتضغط كف آية بمودة هامسة:

- الدور عليكِ بقى يا آية عشان تخليه يفكرفي نفسه وخطيبته.. وينسى الشغل اللي واخد كل وقته..

ابتسمت آية بإحراج بينما هتفت نشوى بسخرية:

- مين ده اللي هتنسيه شغله.. عمرو!.. عمرو بيتنفس شغل.. ثم أن مافيش واحدة تقدرتنسي خطيبها شغله إلا إذا كان بيعشقها.. زي عبود كده.. سايب المستشفى وشغله وجاي علشاني النهاردة..



ارتبكت ملامح آية وهي تدرك المعنى المبطن لكلمات نشوى.. وعاد وجهها يتضرج بحمرة ملفتة.. جذبت نظرات عبد الرحمن الذي حاول معالجة الموقف:

- إحنا مخطوبين من فترة يا نشوى.. وأنا اتعلمت إزاي أرتب مواعيدي.. عمرو لسه عريس جديد.. بكره يتعلم يرتب وقته..

لوت نشوى شفتيها بسخرية:

- جايز برضوه..

ليسود صمت مرتبك بين الجميع وآية تراقب عقارب الساعة لعل الوقت يمر وتنتهي من تلك الزيارة المحرجة.. أو ربما يتذكر خطيبها الغافل أنه ترك عروسه وحيدة بمنزل أهله..

دقائق أخرى مرت بصمت.. فحاولت آية مد أواصر صداقة بنشوى فسألتها بمودة:

- يا ترى حددتِ ميعاد للفرح ؟

هزت نشوى كتفيها بلامبالاة:

- إحنا مخطوبين من سنة بس.. هستعجل ليه!..

تدخل عبد الرحمن بهدوء:

- أنا كمان محتاج وقت علشان المستشفى توقف على رجليها.. وأعمل اسم وسمعة محترمة ليها..

سألته آية بخجل:

- حضرتك تخصصك ايه؟..

أجابها برقة فخجلها يجبر من أمامها على منحها تلك المعاملة الرقيقة:

- تخصصي باطنة وقلب.. بس المستشفى بتشمل كل التخصصات.. طبعًا لولا مساعدة والدي ما كنتش هقدر أمتلك المستشفى دي.. هو ساعدني في البداية وأنا بقى الدور عليَّ أني أكمل.. وأنجح كمان..

همست بخجل:

- ربنا يوفقك إن شاء الله..

شكرها بامتنان:

- متشكر جداً..

أخذت تعبث بأظافرها وعيناها تراقب الساعة بتوتر.. الوقت يمر.. وعمرو مازال غائبًا..



استشعرت حماتها حرجها فحاولت ملء الوقت بالحوار مرة أخرى.. تحدثت عن شقة عمرو التي يتم إعدادها فوق شقة العائلة.. ووعدتها بزيارة مفصلة لها.. فهي شقتها المستقبلية.. وغمزت لها..

"بس الزيارة هتكون مع عمرو"..

لتنطلق كلمات نشوى الخبيثة:

- مش أما يعرف يفضي نفسه عشان غدا يبقى يجي يفرجها على الشقة..

نهرتها والدتها بقوة.. وأدارت الحديث حول نشوى وخطبتها لطبيب ناجح كعبد الرحمن.. وكيف أن والدته والتي تمت لهم بصلة قرابة بعيدة.. لمحتها مرة بإحدى مناسبات العائلة.. لتبدي إعجابها بها كزوجة مستقبلية لابنها الطبيب الشاب الذي تخطى حاجز الثلاثين بدون أن يفكر ببيت وزوجة.. وتتقدم أسرة عبد الرحمن بعرض زواج لنشوى الذي قبلته بعد تردد طويل_لم تعلم والدة نشوى أن ذلك التردد كان مدروسًا بعناية، فنشوى أرادت منح نفسها مكانة معينة بنظر خطيبها المستقبلي_ امتد الحديث طويلًا لتنتبه آية على الوقت وتصر على الذهاب.. فلن يمكنها التأخر لوقت أطول..



منحتها والدة عمرو عناق حنون بينما تصر عليها أن تأتي لزيارتها فهي أصبحت في مكانة نشوى وعمرو.. وعدتها آية بارتباك.. وبعقلها تدور فكرة ملحة.. لقد خرجت من منزلها برفقة خطيبها.. كيف تفسر عودتها وحيدة!

وكأن والدة عمرو قرأت أفكارها.. فهتفت بإلحاح:

- مش ممكن هتنزلي تروحي لوحدك.. عبد الرحمن ونشوى يوصلوكِ..

رفضت آية بشدة وحماتها أصرت أكثر.. ولكن نشوى التي كانت تتحرق لمعرفة نتيجة خطتها مع رانيا رفضت التحرك من المنزل مخبرة والدتها باستفزاز:

- آية مش صغيرة وتقدر تروح لوحدها يا ماما..

تدخل عبد الرحمن بهدوء:

- أنا أكيد لازم أنزل.. وهوصل الآنسة آية في طريقي..

تضرجت وجنتا آية بخجل وهي ترفض عرضه ولكن حماتها عادت لتصر بقوة:

- عبد الرحمن زي حمزة أخوكِ.. هيوصلك عشان أكون مطمنة..

استسلمت آية في النهاية ورافقت عبد الرحمن لسيارته وهي تشعر بحالة من الارتباك والحرج لم تعرفها من قبل.. فالتزمت الصمت طوال الطريق

مكتفية بتلك الحمرة المخجلة التي تعتلي وجنتيها والتي تجذب نظرات مرافقها كالمغناطيس..

أدرك عبد الرحمن خجلها فحاول جاهدًا ألا يلتفت نحوها أو يبادلها الحديث.. فبأعماقه لمس رغبتها بالانعزال والصمت..

وصلا إلى منزلها وترجل هو ليفتح لها الباب وأوصلها إلى باب المنزل وهناك التقى بسمية التي كانت تفتح البوابة الثقيلة.. فتحرك ليدفع عنها البوابة مرحباً بها بمودة:

- أهلًا آنسة... سمية.. مش كده؟..

أومأت سمية بصمت وهي تلقي بتحية خافتة وترحل مسرعة للأعلى.. بينما ابتسمت آية موضحة:

- سمية تبقى بنت خالتي.. ومرات حمزة أخويا..

رفع عبد الرحمن حاجبيه متعجبًا:

- مرات حمزة!.. معقولة!!

أومأت آية بصمت.. فهمس هو بإحراج:

- طيب هستأذن أنا وياريت تبلغي سلامي للحاج سلامة ولحمزة..



حيته بهزة رأس خفيفة.. وتحركت لتصعد لشقتها.. تحاول ترتيب أفكارها بشأن ما مرت به اليوم.. وخاصة موقف عمرو.. والذي لم يكلف نفسه حتى عناء الاتصال بها والاعتذار منها..

***

ومفاجأة مزعجة كانت من نصيب عمرو الذي وصل لمنزله وبداخله شعور مزعج بالحقارة..

كان قد عاهد نفسه على الابتعاد عن رانيا وعن كل ما يمت لعلاقة لم يكتب لها أن تولد.. ولكنه عاد ليضعف أمام تهديداتها.. ودموعها.. كان يؤنب نفسه طوال طريق العودة لاستجابته لرسالتها.. وإهماله لزيارة آية لمنزل عائلته اليوم..

آية لا ذنب لها بغبائه المطلق ولا يجد لنفسه مبررًا لجرحها بتلك الطريقة.. كاد أن يضرب رأسه بجدار الشقة وهو يكرر..

"وليه ما فكرتش كده قبل ما تجرحها!.. ليه!!"..

ولم يقتصر الأمر على تأنيب الضمير فحسب.. فما إن لمحته والدته حتى أنهالت عليه بموجات هائلة من التقريع والتأنيب.. وكيف أنها لم تعرف أن تلقنه مبادئ الذوق والسلوك المراعي.. وأنه بتصرفاته تلك سيضيع جوهرة ثمينة من بين يديه..

وأخيرًا رشقته بجملة أصابت عقله بمقتل..

"بنت متربية لا بيتسمع لها صوت ولا حد لمح لها طرف.. مش زي بنات اليومين دول.. اللي تصاحب واللي تعرف ده وده.. بنت تسيبها في بيتك وأنت مرتاح.. لو راحت منك مش هتلاقي زيها"..

قالت كلمتها وذهبت لغرفتها لتصلي وترتاح من تعب اليوم الطويل تاركة المجال أمام نشوى لتلقي بسمومها في أذن عمرو:

- تصدق آية دي طلعت بنت كده..

وأشارت بإبهامها للأعلى وهي تكمل:

- لزقت للحاجة طول القاعدة.. وعنك يا "ماما".. ما يصحش يا "ماما".. أنا هغسل الأطباق يا "ماما"..

ومع كل كلمة "ماما" كانت ترقق صوتها لتجعل آية تبدو مفتعلة بسخافة في عيني عمرو..

الذي رمقها بدهشة وهي تكمل:

- ده أنا يا بني محتاجة آخد منها دروس عشان أعرف ألف الست هانم حماتي على صباعي الصغير زي ما هي أكلت بعقل ماما حلاوة..



قلب عمرو شفتيه بحركة ساخرة فهو أدرى الناس بتصرفات شقيقته بالذات نحو حماتها المستقبلية.. وغير مجرى الحوار متسائلًا:

- آية روحت ازاي؟..

اتسعت ابتسامة نشوى الماكرة:

- عبود خطيبي حبيبي.. كله ذوق وبيعرف الأصول.. الحمد لله كان هنا وصلح عملتك السودا وعرض يوصلها..

هز رأسه بإشارة بلا معنى وتركها ليدخل غرفته لترافقه كلماتها:

- اتفضل بقى اتصل وقدم الاعتذرات ومراسم الندم الفظيع بدل ما الهانم تطين عيشتك ولا وقعة سودا تشتكيك لبابا ولا عمي الحاج سلامة.

أغلق باب غرفته عليه وهو يردد لنفسه..

"كان مالك ومال وجع القلب ده يا عمرو!"..

زفر بحيرة.. وهو يتناول هاتفه ويتصل برقم آية.. متوقعًا سيل من الصراخ والهتاف الحانق من جانبها عقابًا له على فعلته.. فذلك ما تقوم به نشوى باستمرار نحو خطيبها المسكين.. ولكن كانت المفاجأة من نصيبه وهو يستمع لصوت آية الحزين والذي بدا به حشرجة بكاء وهي تسأله بقلق حقيقي:

- خلصت الشغل اللي كان وراك؟..

أجابها والذنب يلتف حول عنقه:

- آه الحمد لله..

ردت بخفوت:

- ربنا يوفقك..

تنهد بحيرة وهو يردد:

- بصي يا آية أنا آسف.. ما قصدتش أني اتأخر.. دي آخر مرة.. ياريت تسامحيني..

أجابته برقة:

- حصل خير.. مامتك فهمتني تعلقك بالشغل.. وإنك بتديه وقتك كله.. ربنا يوفقك ويديك على قد تعبك..

تمتم بحرج:

- أيوه الشغل بياخد وقت كبير.. ومافيش غيري مع بابا وعمي سلامة.

ردت بخجل:

- وده شيء يسعدني إن بابا وعمي يكون ثقتهم فيك كبيرة كده..

أخجلته كلماتها.. فهي تفخر به وبعمله وبالثقة التي ينالها من أهله وأهلها.. وهو بكل بساطة..

خائن لكل تلك المعاني..

***

وأحيانًا تصدمك الحياة بمفاجآتها كصفعة.. ليست مؤذية.. ولكنها تسبب إفاقة.. من وهم.. أو ربما ذكرى لحياة تمنيتها يومًا..

دلف حمزة لشقة والدته ليلمحها جالسة منزوية بركن بعيد بينما تدور الحوارات بين والدته وشقيقتيه وأمنية..

لم يدرِ لم مرت نظراته عليهن سريعًا لتعود وتستقر عليها..

زوجته.. أو شبحها الخفي..

وكأنما يريد التأكد من كونها على قيد الحياة.. فالجميع يتبادل الحوارات وتعلو الأصوات.. ولكنها هي.. شاردة.. غائبة في عالم لا يدري عنه شيئًا..

انتبه لصوت آية وهي تنهي حوارًا بدا أنه ممتد منذ فترة:

- بس يا ماما وعبد الرحمن وصلني.. وتخيلي.. قابلنا سمية وكان فاكراها آنسة.

ضحكت آية على جملتها وعادت تردد:

- حتى استغرب جدًا أما قلت له أنها تبقى مرات حمزة.

هتف حمزة بتعجب:

- عبد الرحمن مين؟

أجابته آية:

- دكتور عبد الرحمن.. خطيب نشوى أخت عمرو.. ما أنت قابلته وشوفته.. ده حتى باعتلك السلام..

التفت لسمية ليهتف بحنق:

- وعبد الرحمن ده يعرفك منين وإزاي!.. يوم كتب الكتاب كنتِ في المطبخ..

كانت سمية ترمقه بحيرة فهي لم تلتقط بدايات الحديث.. فعاد يهتف بصوت أعلى وقد تحول الحنق لغضب ظاهر وتحرك ليقف بمواجهة جلستها المنزوية:

- يعرفك منين عبد الرحمن ده؟

أجابت بتلعثم:

- يوم كتب الكتاب..حبيبة وقعت العصير على قميصه.. وجابته المطبخ وساعدته ينضف القميص..

عاد يسأل بنبرة متهمة:

- وده فيه إيه يخليه يظن أنك آنسة!

تدخلت ريم في الحوار برفق:

- يمكن يا حمزة عشان مش لابسة دبلة..

التفت حمزة لشقيقته بحدة وغمغم بسخرية:

- لا واضح أن الدكتور مركز قوي..

رمقته سمية بعدم فهم.. لا تدري ما وراء كلماته.. هل يرميها باتهام جديد؟!.. أم هو ببساطة يبحث عن ذريعة لينفجر بها غاضبًا!!..

بينما كانت نظرات أمنية تحترق غيظًا وغضبًا وغيرة.. تتساءل عن طريقته اللحوحة لاستجواب سمية بشأن ذلك الرجل.. هل بدأ يشعر بملكيته لشقيقتها بالفعل؟.. هل أثبت تلك الملكية أو يفكر بذلك؟.. وسؤال آخر لم تجرؤ على طرحه حتى داخل عقلها..

"هل تلك بدايات غيرة.."!

انتبهت على صوت حمزة يسأل آية بغضب:

- وأنتِ ايه اللي رجعك مع الدكتور ده؟.. فين خطيبك؟..

أجابته آية بحزن لم تستطع إخفائه:



- عمرو كان مشغول.. حتى ما حضرش الغدا معانا.. وطنط مامته أصرت إن عبد الرحمن يوصلني..

رمق الحزن الواضح بعينيّ شقيقته والتي كانت مثالًا للشقاوة والانطلاق ليصدمه واقع مزعج.. جملة لطالما سمعها من قبل بل ورددها ولكن لم يتوقع أن تصفعه بتلك القوة..

"داين تدان.."

معاملته البشعة لزوجته ترد له بشقيقته الأثيرة.. ولا يدري كيف توصل لذلك.. ولكن الصغيرة تعيسة.. هو فقط يرى شقاءها بعينيها..

التفت لزوجته الصامتة والتي ترقبه بنظرة حذرة ليجد كلمات كانت تدور بعقله تجري على لسانه بدون تحكم منه:

- اعملي حسابك بكره هننزل نشتري لك دبلة..

أومأت موافقة بحيرة بينما نظرات أمنية تشتعل.. هو بالفعل يبحث عن ملكية.. وينوي شراء صكها ليقيد به شقيقتها.. ولكن إلى أي مدى تصل ملكيته؟..

وكأنه شعر بنظرات أمنية المحترقة فعاد يزعق بسمية:

- وأنتِ إزاي تخرجي من غير إذن!.. وكنتِ فين؟..

أجابته أمه تلك المرة:

- بالراحة يا حمزة يا بني.. أنت نازل شخط ونطر من ساعة ما دخلت.. أنا بعت سمية تجيب لي أنسولين.. الإزازة خلصت وكنت محتاجة آخد الدوا..

هدأ غضبه قليلًا:

- ألف سلامة عليكِ يا أمي..

والتفت إلى سمية الجالسة بصمت ليجذبها من يدها فتنهض معه:

- يلا هنطلع بقى.. تصبحوا على خير..

تمسكت به والدته:

- اقعد شوية يا حمزة.. الحاج زمانه على وصول..

رفض برفق:

- معلش يا أمي.. تعبان وعايز أرتاح...

وجذبها خلفه ليذهبا إلى شقتهما تحت أنظار أمنية الحانقة وشيطانها يردد..

"عايز يرتاح.. راحته بقيت معاها هي خلاص.. وأمنية راحت وانتهت أيامها وانتهى حبها.."

لتلتمع عيناها بقسوة..

"أبدًا مش هيكون لغيري.. أبدًا مش هسمحلها تقرب منه.."

وبعقلها تتكون خطة ذهبية لاستعادة ما هولها من الأساس!

***

وقد تمنحك الحياة مفاجأة.. بنكهة المرار.. بهيئة الصدمة.. والصدمة ربما تكون سبب للموت.. وأحيانًا تكون الطريق للنجاة.. فماذا إن لم يكن هناك سبيلٌ للنجاة!.. وحتى الموت أصبح هدفًا.. صعب بلوغه..

وصل علي لمنزله في مساء ذلك اليوم ليكتشف خلو الشقة من زوجته، فقدر أنها بالطابق العلوي برفقة أمها وشقيقتها..

طبيعة عمله تجعله يبتعد عنها لفترات طويلة على مدار اليوم.. لذا خضع لرغبتها بالسكن في منزل والدها لتكون على مقربة من أمها.. ولكنه اشترط على والدها دفع قيمة إيجار تلك الشقة كما تقدر في تلك الأيام.. فهو يحب أن يشعر بأنه الرجل ببيته ولن يتحمل في يوم كلمة يلقيها أيًا كان أنه يعيش بشقة زوجته.. وكان له ما أراد...

عمله.. وكأن مجرد الذكرى تدفع بموجات صداع هائلة لرأسه.. لقد قضى أكثر من اثنتي عشر ساعة بنوباتجية مزعجة.. لم تخلُ من أعمال متراكمة وأصوات الماكينات طوال اليوم لم تساهم إلا بزيادة وجع رأسه..



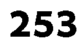
دلف للحمام لينال حمامًا دافئًا بهدوء علَّ وجع رأسه يخفت ولو قليلًا.. ولكنه لم يلمس أي تحسن يذكر.. فتوجه لخزينة الدواء الموجودة بالحمام ليبحث عن أي مسكن يخلصه من صداعه المزعج.. وبعد بحث دقيق لم يجد أي شيء ذا قيمة.. ففتح الناحية الخاصة بريم.. عله يعثر على ذلك المسكن الذي تستخدمه بأيام عادتها الشهرية..

بحث قليلاً لتصطدم يده بقارورة زجاجية صغيرة تحتوي على بضعة أقراص.. جذبت القارورة بمظهرها المبهم انتباهه.. فهي لم تكن تحتوي على ورقة لاصق تضم بيانات عن الدواء.. أو على أي إشارة لما تحويه.. فتح القارورة وسمح لعدة أقراص بالاستقرار في يده.. ليفاجأ بلونها الأحمر المميز.. وزادت مفاجأته برؤية بضعة أجزاء من تلك الأقراص..

اتسعت عيناه بعدم تصديق وهو يحاول تكذيب ما يراه وما يلمسه بيده.. تلك الأقراص، هو يعرفها جيدًا.. من غير الممكن أن تتواجد بشقته.. في حمامه الخاص.. في الخزينة التي تحتوي على أغراض زوجته الطبية.. والنسائية..

تلك الأقراص قام بضبط مثيلات لها بحوزة أحد العمال بالمصنع الذي يعمل به.. واعترف العامل أنها..

ترامادول!..



ذلك المخدر اللعين الذي يسبب تغييب الذهن والوعي.. ماذا يفعل ذلك اللعين بين أشياء زوجته!.. لمَ تحتاجه؟..

خرج كالمجنون يبحث في خزانتها عما يدعم شكه.. أو ينفيه.. فما وجده لا يحتمل إلا إجابة واحدة..

زوجته.. حبيبته.. مدمنة..

وأحوالها المتقلبة وما يصِبها من نوبات نفور أو بعد عنه هي نتيجة لحالة الإدمان التي أصابتها..

اصطدمت يده بعلبة كرتونية مستطيلة فجذبها ليخرج منها شريط يحتوي على تلك الاقراص الحمراء.. واسم العقار واضح لا يدع مجالًا للشك..

إذاً هي مدمنة.. هي بحاجة للعلاج.. بحاجة للمواجهة.. بحاجة للتفهم و..

صرختها المستنكرة قطعت شرود أفكاره:

- علي!!.. أنت بتعمل ايه؟.. إزاي تفتش في حاجتي؟.. ازاي تسمح لنفسك أنك تعمل كده؟.

كان هتافها ذاك هو كل ما استطاعت فعله عندما لمحت الأقراص بين يديه وعرفت أن سرها على وشك أن ينكشف.. فلم تجد بدًا من مهاجمته والصراخ عليه..

اقترب علي منها يحاول استدعاء كل حكمة الدنيا وهدوئها.. فهي بعينيه طفلته الحبيبة التي انتظرها لتكبروتكون له.. حبيبته الخجول الرقيقة.. التي لا تتحمل جرح إبرة كما يقولون..

ربما كان هناك خطأ ما، ربما تم خداعها والتغريربها!..

هو يعلمها حمقاء ساذجة وبالتأكيد سقطت بتلك الدوامة عن طريق الخطأ.. ولكن ذلك لا يمنع من ضرورة العلاج.. فهي تعرض حياتها.. مستقبلها، وجودها كله للخطر باستسلامها لتلك العقاقير اللعينة. بل ربما يتكون ابنهما بأحشائها في أي لحظة وتكون تلك الأشياء سببًا في أذيته.. أو أذيتهما معًا.. أو ربما تزداد معها الحالة وتنحدر نحو الأسوأ.. أو...

تدافعت الأفكار السوداء برأسه وبنهاية كل فكرة كانت تلوح حروف "ستفقدها".. "ستضيع منك".. بحروف حمراء زاهية كمثل لون تلك السموم..

لمس ذراعيها برفق:

- أنا مش بافتش ياريم.. أنا كنت بادور على حبوب صداع ولقيت ده بالصدفة.. وطبيعي لما ألاقي حاجة زي دي.. مراتي مخبياها في برطمان تمويه إني أقلق وأدور.. أنا عملت كده من قلقي عليكِ يا حبيبتي..

لم تتحمل نبرته المراعية فهتفت:

- حتى لو كان كده.. ده ما يديكش الحق إنك تفتش ورايا.. دي حاجة تخصني لوحدي..

هز القارورة بيده لتصدر صوت مزعج وهتف بها:

- ده بالذات يخصنا سوا.. أنتِ فاهمة ده إيه؟.. وجوده معناه إيه؟.. أسلوبك معايا دلوقتِ.. فاهمة أنتِ وصلتِ لفين وممكن يحصلك إيه؟

هتفت به باستنكار:

- أنت فاهم إني مدمنة!

أجاب بغضب:

- أومال ده وجوده معناه إيه؟.. بتستخدميه ليه؟.. إيه اللي بيجرى معاكِ؟.. أحوالك الغريبة.. مزاجك اللي مش عارف إمتى مبسوطة وإمتى نافرة وبعيدة!!..

صرخت بهياج:

- هو ده كل اللي بتفكر فيه؟..

نظر إليها بحيرة غير قادر على فهمها لتكمل هي بصراخ:

- طالما ده كل اللي في دماغك.. وده كل تفكيرك.. ومادام عايز تفهم قوي كده.. فأنا باخد ده عشانك.. بسببك.. عشان أقدر أسمح لك تقرب مني..

توسعت عيناه بذهول وارتد خطوة للخلف ليسمعها تكمل وتشير له:

- عشان أتحمل أنك تلمسني..

نشجت بالبكاء وهي تهز رأسها تبعد عنها ذكريات مظلمة:

- عشان ما أحسش بحاجة وأنا معاك..

تهدلت كتفاها بينما تشير له:

- عشان أقدر أكون معاك زي ما أنت عاوز.

ثم ابتلعت ريقها وهي تقذفه برصاص كلماتها:

- ده مش إدمان.. دي غيبوبة.

تجمد بمكانه بعد سيل كلماتها الجارح.. لم يعد بقادر على تحريك جسده خطوة واحدة.. بل حتى أنه فقد سيطرته على أعضائه فسقطت ذراعه بجواره هامدة تتدحرج منها قارورة الدواء ناثرة لون الأقراص الزاهي تحت قدميهما.. مما جعل نظراته تتعلق به وكأنه يسأله جوابًا لحيرته التي تفتك به..

سؤال عاجز ردده بوجع:

- للدرجة دي يا ريم!.. للدرجة دي؟



لم تجبه بل مسحت دموعها الجارية بصمت استفزه ليتحرك نحوها بغتة.. يتمسك بمرفقيها صارخًا بغضب:

- لييه!.. اتجوزتنيني لييه.. طالما مش طايقاني ولا متحملة لمسة مني، ليه اتجوزتيني؟.. عشان تجرحيني.. تهينيني وتعذبيني بيكِ!

همست بانكسار:

- اتجوزتك علشان حبيتك..

دفعها عنه وهو يهتف بسخرية:

- حبيتيني!!. هو ده مفهومك عن الحب أنك تصرخي في وشي وتقولي أنك بتخدري نفسك عشان تتحملي لمسة مني!.. هو ده الحب من وجهة نظرك!!

زعقت به بجنون:

- وهو الحب كده وبس؟.. دماغك في كده وبس عشان أحبك لازم أكون... جارية للمتعة في سريرك؟.. هو ده دليل الحب عندك!

هتف بها بذهول:

- أنتِ ليه مصرة تصوريني حيوان!

واجهته بعنف:

- وهوسك بالموضوع ده يصورك إيه!.. ملاك!

صرخ بها:

- هوس!

وعاد يردد:

- هوس!.. أنتِ بتسمحي لي أقرب منك مرة في الشهر..

وانحنى ليمسك بالقارورة الفارغة وهو يردد بأسى:

- وحتى المرة دي لازم بتخدري نفسك قبلها..

قبض كفه بقوة:

- وأنا اتحملت وما اشتكتش لأني بحبك.. بس للأسف...

لم تتحمل سماع تصريحه بكرهها كما صور عقلها لها..

تبًا له.. لن يضغط عليها أكثر، لن يلعب على مشاعر تتمكن من دواخلها وكيانها كله..

هتفت بزعيق كأنما تلغي عن عقلها كل فكرة تروٍّ يحثها عليها:

- والله هو ده اللي عندي.. ولو مش عاجبك..

وارتجفت عيناها رغمًا عنها:

- روح اتجوز..



تجمدت ملامحه بقسوة مباغتة وهو يردد كلمتها بعنف:

- أتجوز!!.. أنتِ واعية لكلامك!!

أرعبتها ملامحه ونبرة صوته وخشيت أن ينفذ كلماتها ولكنها لم تستطع إظهار خشيتها خوفًا من مطالبته بعلاقة سوية من جانبها..

ودوت كلماتها بقسوة:

- أيوه واعية.. وموافقة.. الشرع حلل لك تتجوز..

هتف بذهول موجع:

- موافقة أتجوز!..

صرخت بجنون وقد فقدت قدرتها على التحكم بكلماتها:

- أيوة.. اتجوز وريحني من قرفك ده..

جحظت عيناه بعنف وكأنها أردته قتيلًا بكلماتها.. ولمحت خيطًا رقراقًا من دموع تحارب لتنفذ علّها تريح قلبه المحطم..

وتحولت ملامحه كلها لتمثال خزفي قذف بحجر صوان فتحول لقطع متناثرة تمنعها فقط عن التناثر كرامة وكبرياء رجل أصابته حبيبته بمقتل..



الفصل العاشر

البعض تمنحهم الحياة الفرص فيجيدون استغلالها، وآخرون يخلقون تلك الفرص بأنفسهم لتخدم أهدافًا محددة وضعوها نصب أعينهم.. لا يهتمون بوسيلة، لا يكترثون لمن يدهسون في طريقهم، يبررون لحاجتهم كل متاح حتى لو لم يكن مباحًا لأجل غاية يسعون إليها دون رادع أو مبدأ..

ولأجل هدف سعت إليه منذ الكثير ولن تقبل بالتنازل عنه في القريب.. أو حتى البعيد، قررت رمي الطعم وانتظار وقوع الصيد في الشباك.. ولم يطُل انتظارها لأن زوج الخالة بعد أقل من ثلاثة أيام ناداها أمام ناظري الهدف المنشود، هدف عقد حاجبيه قلقًا لكن أبيه أمره فجأة بالذهاب لمنزله فقد تأخر الوقت وزوجته وحدها..

تبعت الرجل الكبير بسكون، هي تعلم ما ينوي محادثتها بشأنه، فالصيدلي حديث العهد بالحياة العملية والاجتماعية نضج بسرعة لم تتخيلها وعلى نار هادئة للغاية..

أشار لها الحاج "سلامة" بجدية:

- اقعدي يا أمنية.



أطاعته بهدوء خانع، فركت كفيها تدعي حيرة وتظهر ارتباكًا مفتعلًا:

- شوفي يا بنتي.. أنتِ عارفة طبعا إن كل شيء قسمة ونصيب.

ويالها من مقدمة سخيفة لا تعنيها في شيء، فقسمتها ونصيبها ستنتزعهما ولو عنوة من بين فكي الأسد كما يقولون.. هزت رأسها توافقه علّه ينتهي:

- أكيد يا عمي.

سحب الرجل دفقة من الهواء ملأ بها صدره، أكسب نبرته شيئًا من حنان وبادرها:

- أنتِ تعرفي دكتور أسامة؟.. اللي ماسك الصيدلية اللي على أول الشارع!

عقدت حاجبيها تدعي التذكر:

- يعني.. مش قوي، لما باجيب حاجة من هناك بس.

ابتسم العم بأبوة:

- طيب يا بنتي.. هو طلب إيدك مني.

ولم يكمل، انتظر ردها أو رد فعلها الذي يتوقعه على الأقل لكنها خالفته بصمت طويل.. تستعيد فيه شاردة ذكرى الأيام الماضية وخطتها التي رسمتها بدقة ونفذتها بإتقان..

كانت تعلم أن الصيدلي الشاب يهتم بها، متابعته لها بنظراته، ابتساماته البلهاء بعينيها والتي يمنحها لها بلا سبب واضح، ارتباكه في حضورها فيسقط الدواء أو النقود كأنه مراهق غِّر!!..

وبالطبع لم ينل منها سوى التجاهل، فبينها وبين آخر عهد عشق منذ وعت معنى أنوثتها وقررت أنها لن تكون سوى للمعشوق..

لكن المعشوق غدر.. باع ورحل تاركًا لها بقايا الذكرى تتوجع بها وتبكي على أطلالها، حرَّم نفسه عليها بزواجه من شقيقتها الكبرى وفي النهاية منحها كيانه وحياته.. ببدايات مشاعر، بتتبع عينين، بغيرة وليدة ولمسات تحرقها هي بجذوة من نار..

ولذا ولأن الأيام دول، يوم لك.. ويوم آخر وتاليه تنوي أن يكون لها فقد قررت أن تذيقه من مرار وألم نفس الكأس..

ابتسامة ودود، نظرة خجول، حمرة وضحكة على دعابة سمجة.. وربما رفرفة أهداب تمنح دليل الموافقة، وبالطبع سقط الفتى وركض نحو زوج الخالة يطالبه بخطبة، الخطة تسير في خطها بثبات دون أن تحيد عنه، فقط عليها أن تعطي ردًا مبدئيًا يزيد من آماله ويعلقه بها أكثر.. وبعدها يصل الخبر لمن تركها وصعد لزوجته قبل دقائق..

"ها يا أمنية!!.. ما قلتيش رأيك؟"



رفعت رأسها نحو الجالس أمامها عاقد الجبين منتظرًا، فكرت قليلًا وأظهرت ترددًا فمن بمثل موقفها لن تندفع بقبول وهي من كانت عاشقة ولاتزال!!.. حثها برفق:

- هو بيشتغل هنا من فترة يا أمنية.. عارفينه وأهله ناس طيبين، له مستقبل ودكتور ناجح، يعني يا بنتي هاطمن عليكِ معاه.

وسخرت بداخلها، أولم تكن لتطمئن عليَّ أكثر مع ابنك الذي أجبرته على زيجة لم يرِدها؟.. وممن!!.. شقيقتي أرملة أخيه!.. حياء مصطنع بدا كحل مناسب، وربما بسمة خجول وحيرة واضحة ترسم الملامح ورد مرتبك متردد:

- مش عارفة يا عمي!.. أصل..

قاطعها بحزم هذه المرة يقطع عليها أي فكرة قد تدور في ذهنها:

- أصل إيه يا أمنية؟.. الراجل كويس وشاريكِ، اقعدي معاه وشوفي، ما ترفضيش على طول كده!

ارتبكت أكثروكان في مواجهة عينيه طبيعيًا، لكنها ترسم دورها بحرفية تحسد عليها:

- اللي تشوفه يا عمي..



وبللت شفتيها بحزن:

- هاقابله.

نهض العم فنهضت تتبعه، اقترب منها وشجعها ببسمة عطوف:

- ربنا يكملك بعقلك يا بنتي.. ويعمل اللي فيه الخير.

أومأت موافقة وغادرت..

نعم، البعض يجيد خلق الفرص، استغلاها لتحقيق طموحاته، ويخطط على أساسها لينال في النهاية هدفًا.. لا يريد سواه!

***

آخرون تأتيهم الفرص على طبق من ذهب، تجذبهم نحوها.. تغريهم بها فلا يملكون سوى الانسياق خلفها لأنها توافق هوى النفس!.. أو حتى اتجاهًا هو الأضمن..

والنفس البشرية أضعف من مقاومة سحر الفارس.. أو نفس الأنثى بالتحديد، تتخيله رغم كل شيء، تتمناه.. وتبحث عنه تحت كل حجر.. وابن العم العائد تلبس ذلك الثوب باقتدار وإن كان جادًا جافًا حياديًا لدرجة أثارت في نفسها شيئًا من رهبة.



لكن تلك الرهبة لم تمنعها من قبول عرضه بعد الانتهاء من أعماله المتراكمة عقب عودته من رحلته الطويلة بنزهة حول مزارع العائلة..
اختصها بها وحدها معه..

دفء الأجواء والنسمات المعطرة بخضرة طبيعية وندى بدأ في الظهور على أوراق الورود جعلتها تستنشق بقوة.. خصلاتها الذهبية تتطاير خلفها كلوحة مجسدة للفتنة، تقف أمام أرض خضراء ممتدة على مرمي البصر، تلف جسدها بذراعيها وتتأمل جمال خلق البديع بمتعة لا تدانيها أخرى مرتبة..

وكان هو خلفها على بعد خطوتين، لا يأبه لجمال المكان من حولها، بل يحيطها بعينيه، يديم النظر لملامحها الملائكية بغموض شابه تعجب!..
طلب العودة العاجل الذي أرسلته والدته لأجل تلك الصغيرة لا يناسبها البتة..

من قد يقلق من مخلوق رقيق كهذا!!..

التفتت إليه لتجده يتأملها هي بتمعن، لم يقلقها شيء في نظراته لكنها أشعلت بها كل خجل، ابتسمت وأعادت خصلة شاردة خلف أذنها بهمس متسائل تلبسته حيرة:

- بتبص لي كده ليه!!



رسم نصف بسمة على جانب فمه ومقلتاه تلتمعان بإعجاب جليّ:

- طبيعي عيني تتعلق بأجمل حاجة في المكان.

توترت.. هو يمدح ويغازل وبصراحة، لا يداعب كأخيه الأصغر، أو يتلاعب بالكلمات كصديقها "نديم".. وهذا أشعرها بخجل أكبر وهي تهرب بعينيها:

- بتبالغ.

اقترب خطوة أخرى أجبرتها على الاستدارة إليه ثانية:

- اللي يعرفوني؛ عارفين إني مش بابالغ.. بادي كل حاجة حقها.

تطلعت إليه لحظة فابتسم، غير الموضوع فجأة مثيرًا حيرتها أكثر:

- ما قلتيش إيه رأيك في المكان!!

عادت تنظر حولها بسعادة بدت بريئة للغاية:

- يجنن بجد..

ومنحته نظرة جانبية بدا فيها شيء من امتنان:

- واضح إنك بتتعب في اهتمامك بيه كتير.

تأمل الأفق وتلبست نبرته جدية قدرتها:

- لازم أتعب.. المكان ده جزء مني، أرض.. والأرض عندنا يعني عرض.

شردت في ملامحه هي هذه المرة فالتفت إليها بصمت، تلاقت الأعين في حديث مبهم، كأنها تسأل وهو يجيب.. يهدهد.. يطمئن، ويمنح الأمان، مد يده إليها برقة:

- يلا بينا نرجع البيت.. الليل قرب.

سلمت له قيادتها ببساطتها المعهودة.. وربما لشعور بالسكينة ملأها معه بدت هادئة على غير عادتها، خلعت عنها ثوب القطة الشرسة وتبعته برضى، ولو حتى بشكل مؤقت..

وفي المنزل كان الآخر هناك!!

راقب دخولهما المتقارب بحنق تسرب لفكره دون سبب محدد، هي تضاحكه وتخصه ببسمة ناعمة ولمعة عينين لا تروق له..

الأخ الأصغر مدلل لا يكترث أو يبالي به إلا لأجل ابنة أخته.. لكن ذاك: هي اختارت الجواد الرابح بالفعل.. استوقفهما بسخرية لا يعلم أهي جادة أم افتعلها لمداراة غضبه:

- واضح إنك عرفتِ مين الكارت الكسبان!

وعادت مخالبها للظهور وهي تناظره بحنق تأجج في لحظة، تتذكر كلماته الملتوية عن "عماد" ومخطوبته، وتحذيره لها كأنها ما أتت إلى هذا المكان إلا لأجل رجاله!.. تشددت لهجتها وعلت نبرتها بحنق وجهته بالكلية إليه:

- أنا ما أسمحلكش يا نديم.

وزمت شفتيها بنظرة محذرة لنظرته المستخفة:

- يا ريت ما تتخطاش حدودك.

ثم نقلت عينيها بينهما و"عادل" يعقد حاجبيه، تركتهما بخطوات واسعة متوثبة، عقلها يصرخ فيها بخطأ لا تدري كنهه.. بينما أعصابها كالجمر المشتعل..

"ما تحاولش تقف قصادي يا نديم"

سحب عينيه بعيدًا عنها وعن رحيلها الغاضب.. يوبخ نفسه، فسخريته بدت مبتذلة ولا معنى لها سوى التشكيك فيها وهذا لا يليق، لكنه شعر بسخط لا مبرر لوجوده يملأه ولم يُجِد التعاطي معه فكان رد فعله قاسيًا خاليًا من التهذيب، والآن هذا يخبره بماذا!!..

لم يرد، نظر له وتقابلت النظرات، شك ما نبت بداخل "عادل" وهو يحاول سبر أغوار الواقف أمامه.. تساؤلات عديدة شنت هجومها على رأسه بينما يتذكر كيف تطلع إليهما حال ولوجهما للمنزل، كيف أغضبها ورمى بكلام لا يعني سوى شيئًا واحدًا!!

أنه يغار!!



ترى هل يغار عليها بالفعل؟..

زم شفتيه وانعقد حاجباه بضيق، أردف حينها ونبرته حملت مغزىً لم يفهمه "نديم":

- أنا طول عمري الكسبان.

ونقل نظراته للغاضبة الراحلة بابتسامة:

- والمرة دي.. اخترت صح!

ومن لم يتمسك بفرصة أُلقِيت له بيسر كان أحمقًا، وهو لم يوصف بالحماقة يومًا!

***

قد تُمنح الفرص واحدة تلو الأخرى وتالية فثالثة ورابعة وأبد طويل تكَوَن منها، لكن الممنوح لا يجيد استغلالها، بل حتى لا يتمسك بها.. فيضيعها متتابعات لا يعلم أنه في يوم سينضب بئر فرصه ولن يوهب غيرها وحينها سيضيع هو!

ونعم هو يدرك ذلك.. لقد نال من الفرص الكثير، ولا واحدة منها اقتنصها ليربح بل يظل يفقدها، يخسرها ودومًا البديل متوفر مادام في القلب عشق..

وهو يتمسك بذلك العشق حتى أقصاه، ربما لأنه الفرصة الوحيدة التي يجيد اقتناصها وتحريكها وفقًا لإرادته وأهوائه.. ولأنه أيضًا أغضبها آخر مرة، أو بالأحرى أحزنها فما أجمل من هدية مصالحة تُرضي بها امرأتك؟.. وككل النساء كلما غلا ثمنها كلما تقبلت اعتذارك أسرع وعفت عنك..

دخل للمنزل بهدوء يبحث عنها، ظلت تتحاشاه طيلة الأيام الماضية، وفي كل مرة حاول ترضيتها تهربت منه، غضبت وتجاهلته، لذلك فكر وقرر ونفذ اليوم ولن يتراجع حتى ينال الصفح..

بحث عنها حتى وجدها شاردة أمام التلفاز في غرفة المعيشة، عيناها تنظران إلى الفراغ وذهنها ليس حاضرًا ولا حتى أذنيها التقطتا وقع خطواته كما اعتاد، جاورها بابتسامة وربت على كفها برقة:

- حبيبة!

سحبت يدها بتلقائية وهي تلتفت إليه.. ترمقه بتلك النظرة التي لم تغادر مقلتيها مؤخرًا، نظرة عاتبة، ساكنة، حزينة وبها انكسار آلمه.. تنهد بحرارة:

- حبيبة.. حبيبتي.

لم ترد، تأملته بشجن مستسلم فعاجلها مفتعلًا مرحًا لا يليق بالموقف:

- أنا جبت لك هدية.. هتعجبك قوي.

ورفع في مواجهتها مفتاح سيارة أنيق لماركة شهيرة غالية الثمن، وهنا كأنما أيقظ أكثر شياطينها شراسة من أعماق الجحيم.. التهبت عيناها بنظرة متقدة بينما كان يضعه في قبضتها، تأملته لثوان قبل أن تقذف به أرضًا وتهب واقفة تصيح بعصبية:

- أنا مش عاوزة هدايا يا نبيل.. ومش كل مرة هتراضيني بهدية أغلى من اللي قبلها.

نهض يواجهها محاولًا تهدئة تلك الشياطين التي هي مصدر ذعره الوحيد:

- يا حبيبة أنا مش عاوزك تزعلي.. أنا باغير عليكِ.. حاولي تفهمي أنا أد إيه بحبك!.. اهدي بس.

لكنها لم تستجب، لم تفعل بل انحنت تمسك بالمفتاح، ترفعه أمام ناظريه ونبرتها فاقدة للسيطرة:

- مش هاهدى.. كفاية بقى.. لازم تفهم إن العربية أو أي هدية غالية تانية مستحيل هتكون بديل.

شعر بتوتر يغزو أحشاءه وهو يتطلع إليها، ارتبك تائهًا بترديد أحمق:

- بديل!!

عادت تحرك المفتاح في مواجهته بحدة:

- أيوة.. بديل لــ...

ولم تكمل، تحشرج صوتها وتقطعت أنفاسها، اعتلى ضيق صدرها فأطبق عليه، هي لا تريد البكاء، هي أرادت الحب والحياة في كنف الحبيب.. أرادت أسرةً وأطفالًا ومستقبلًا يمتلئ بوجودهم، وكل ما منحها إياه هو..

لا شيء!!

أدارت وجهها بعيدًا عنه والفهم يظهر على ملامحه.. عاد للغرق في بحر ارتباكه ونبتت حبات من عرق على جبينه، مسحها برعشة متمتمًا عساها تفهم:

- حبيبة اسمعيني.. أنتِ عارفة أنتِ غالية عندي أد إيه!

ومد يدًا مترددة يمسك بكفها:

- أغلى حاجة في دنيتي، أنا.. أنا...

ضغط يدها في قبضته فشعرت بما يعتمل في نفسه وهو يكمل:

- أنتِ عندي أغلى من علاقة زي دي.. مش هاقدر ألوثك بيها يا حبيبة.

شردت في كلمته التي تمر بمخيلتها في كل لحظة..

"يلوثها!"

هذه هي نقطة الخلاف!!

فما تراه حاجة لأنثى تسعى للاكتمال، يراه هو دنسًا لا يمكن أن يمسها به!!..

يحرمها ويحرم نفسه أحقية الحياة الطبيعية، يحرمها الشعور بذاتها في عيني رجلها، حبيبها.. يحرمها أمومتها فيملأ نفسها بالشوق لنطفة تملأ حشاها منه هو، يدعي أمام أهلها برغبته في تأجيل الحصول على أولاد لأنه يريد الاستمتاع بحياته معها هي زوجته أولًا؛ لكنه لا يحيا، ولا يتركها تحيا، بل يحرمها من قرة عين كل امرأة والسبب فقط رغبته هو!

وجدته يقبل يدها بطريقته المبجلة:

- افهميني يا بيبا.

لفت تواجه عينيه بضعف كان السبب في خذلانها دومًا:

- فاهماك يا نبيل.

اقترب يطبع شفتيه فوق رأسها بقبلة طويلة، يغمض عينيه ويتنهد بارتياح.. لقد فاز:

- حبيبتي.. أنتِ أغلى حاجة عندي.. أنا بحبك قوي.

وتعانق جفناها بالمقابل في خنوع بائس مهزوم وتمتمة يائسة تحشرج بها صدرها:

- وأنا كمان.

وهنا هو لم يتقن اقتناص فرصته في الحياة كما يجب.. بل لعب على وتر فرصة أبدية منحتها له بصك مختوم ومفتوح الأجل لعشق لا سبيل للخلاص منه، عشق يشبه مرضًا يسيطر على الروح حتى النهاية..

نهايتها هي!

***

ولأن بعض الفرص لا تمنح مرتين، فاقتناصها واجب لابد منه، لذلك قرر أن يتشبث بفرصته الجديدة لأنه لو أضاعها هذه المرة؛ من يدري ما التالي!!

في عرف رجل لم يلج لعالم النساء من قبل فانجذاب إحداهن يعد فوزًا كبيرًا، فماذا عن مطاردتها حد البكاء وتوسل اللقاء!!..

نعم هو استجاب بحماقة أضاعت منه فرصة سابقة مع أخرى من المفترض أنها هي أنثاه الحقيقية صاحبة الصفة الشرعية بحياته، لكنه هذه المرة قرر أن يعود للرجل الذي يعرفه بحق.. الرجل الذي لم يحِد عن خطه المستقيم يومًا ولم تنقص أخلاقه بمقدار يشعره بالدونية!

رقتها ولطفها وطريقتها البريئة في تقبل اعتذاره أحاطت قلبه ونفسه وضميره بطوق الذنب، ولأن من هم مثله يصابون باختناق فعلي نتيجة نفس لوامة لا تشفع ولا تسامح قرر التشبث بفرصته الثانية واستغلالها على الوجه الأكمل والأصح..

وأول خطوة هي التخلص من عوالقه القديمة، رقم هاتف أصبح لا يزيد عن كونه وسيلة اصطياد.. غيررقمه بل واشترى لها هي أيضًا رقمًا جديدًا مشابهًا وهاتفًا غاليَ الثمن كهدية ترضية، وطلب اللقاء وأيضًا برقتها وافقت..

تأملها شاردًا في ملامحها وحمرة وجنتيها شبه الدائمة، لم يرَمن قبل فتاة تشبهها في ذلك الحياء النادر!.. قدم لها هديته ببسمة أكسبها أكبرقدر ممكن من اللطف:

- سمعت إن المخطوبين جداد بيجيبوا أرقام شبه بعض.

وأزاح العلبة أمامها فوق الطاولة بينهما:

- ده موبايل يارب يعجبك.. ورقم جديد يشبه رقمي الجديد برده.

شعرت بالخجل وهي تتقبل هديته ببسمة، عاد عقله بلحظة ليفكرفي الأخرى.. فتاته الجريئة التي حاولت جذبه إليها بشتى الطرق حتى انجذب بالفعل ولولفترة لم تطُل.. ماذا لوكانت هي صاحبة الهدية!!.. هل قبولها لها سيكون بهذه الرقة وذاك الحياء؟..

التوى فمه بشبه بسمة، يجيب على سؤاله بنفسه وبكل صراحة..

بالطبع لا!



بلى.. "آية" هي نعم الزوجة التي تصون زوجها بحيائها وتسعده برقة أنوثتها، لكن "رانيا" أحد متع الدنيا لأي ذكر بجرأتها واندفاعها وحيويتها..

يعجبه خجل واحمرار وجنتي زوجته.. وتغازل رجولته مبادرات الثانية!!

نفض رأسه بضيق، تأملها للحظة قبل أن يقرر بل ويعِد.. ليس هو من يفكر بواحدة ويعاشر أخرى، وعدها داخله بالإخلاص، بالوفاء وبملكية تامة له..

همس لها بخجل من موقفه السابق بعدما نفض أفكاره عن عقله المتعب:

- آية.. أنا بجد آسف على يوم العزومة، غصب عني.. ضغط الشغل ما قدرتش أرجع في الوقت المناسب..

رمقته بنظرة خاطفة قبل أن تطمئنه ببراءة:

- معلش يا عمرو.. حصل خير، أنا مقدرة.. مامتك حكيت لي أد إيه بتحب شغلك وأنا فاهمة.

ابتسم بسعادة حقيقية لتفهمها:

- أوعدك مش هتتكرر.

وكان صادقًا، هي لا تستحق منه ذلك.. وهو يريد إسعادها كما تمنحه هي ذات الإحساس ببساطتها ونعومتها ولطفها، لفت نظره فجأة خصلة بلون العسل الرائق تفلتت من حجابها فوجد نفسه يعلق باندفاع:

- هو ده لون شعرك بجد!

احتقن وجهها بحمرة قاتمة حتى شعر أنه يكاد يتفجر بالدماء، هزت رأسها وابتعدت بنظراتها:

- أيوة.

وأعادت خصلتها الشاردة بارتباك أسفل وشاحها، شعر أنه أخجلها للغاية، هو لم يعتد التعامل بلين أو لطف، دومًا خشونته كانت هي الطريق الوحيد الذي يفهمه، حاول أن يغير من منهجه قليلًا:

- يعني أنتِ عسلية!!

ولم تقاوم ضحكة خافتة ناعمة هربت من بين شفتيها بجواب صامت فأردف هو بابتسامة واسعة:

- وبتحمري على طول!!

وليته ما نطقها، لأن وجهها ازدادت حمرته لدرجة أقلقته بينما تخفضه أرضًا، ابتسم ثانية.. قد لا تكون هي من اختار، لكن هدوءً ما يتسلل لنفسه، يخبره براحة يركن إليها، يحتاجها وربما رغم كل شيء هي الأفضل..

مد يده بتردد يحتوي كفها بين أنامله الدافئة، ارتبكت وأصابتها رعشة طفيفة، سحبتها تفركها مع الأخرى فوق ساقيها ليبتسم محاولًا خلق جوٍ مرحٍ في الغالب لا يشبهه في شيء:

- أنا جوزك على فكرة!

ونال هزة كتفين وابتسامة وعينين رفضتا فراق كفيها المرتبكتين فوق ساقيها..

نعم، قد تكون أخرى أوقعه قدره معها.. لكن من قال أن اختيار القدر ليس بمناسب أو صحيح!!.. أحيانًا يختار هو عنا لندرك أنه يفهمنا أكثر مما نفعل بأنفسنا، ويمنحنا الأفضل حتى لو ظننا يومًا أننا ندرك ما نريد..

هذه فرصة جديدة انتوى اغتنامها، يثق أنه سيفعل خاصة بعد انجذاب شعر به نحو الجالسة قبالته غارقة في محيط من خجل!

***

بعضٌ آخر تتجدد فرصهم لكنهم هم من يدفعونها بعيدًا.. لا يقصدون خسارة بل هو الرفض، تشبُثٌ بفرصةٍ أخرى ماضية ذهبت ولن تعود.. لكنها أحكام القلب.

وحكم قلبه أفقده زوجته، لقد وهبه قدره امرأة محبة رقيقة عطوف وهو من أبعدها، أوجعها.. تمسك بمن رحلت عن دنياه وهي احتملت حتى لحظة

الانهيار فقررت الابتعاد بنفسها عن محيطه تنقذ روحها من آلام أشبعها بها!

نهض من فراشه بروتينية، جلس على طرفه مستعيدًا محاولاته التي بذلها لأجل استعادتها.. أسبوع مضى وهي غادرت المنزل غاضبة حزينة.. لا يدري ما الذي عليه فعله أكثر!.. لقد قام بكل ما يمكن لزوج أن يفعل لزوجته كي تعود.. وهي ترفض، تعاند وتأبى حتى لقاءه أو الحديث إليه!

في الأيام الأولى لرحيلها عاند نفسه وعاندها.. ربما أخطأ لكن هي تعاقب بخطأ أكبر، لقد تركته لبيت أبيها ورغم أن أمها لا تعلم شيئًا عن تفاصيل ما حدث لأنه يحادثها كل يوم ولا تؤنبه، لكنها لاتزال هناك وهو هنا وحده..

والآن وبعد مرور سبعة أيام يشعر بغيابها فعليًا، كانت تستيقظ قبله، تعد له حمامه، تحضر له ملابسه لليوم.. تجهز إفطاره الذي يحبه..

لم يشعر بنفسه إلا وهو يفتقد صوت تحركاتها من حوله، انتقالها كفراشة ناعمة في أرجاء المنزل.. تعدل ذاك، تلمس هذا، وتنقل تلك.. تناولها الفطور معه بتلذذ وأغنية يومية تتردد خلفه من المذياع الذي وضعته بنفسها بالمطبخ:

"يا صباح الخير ياللي معانا.. ياللي معانا

الكروان غنى وصحانا.. وصحانا

والشمس أهي طالعة وضحاها

والطير أهي سارحة في سماها..

يلا معاها.. يلا معاها.. يلا معاها

يا صباح الخير اللي معانا.. يااااللي معانا"

طقوس اعتيادية ألفها فأصبح غيابها موحشًا، رائحة طعامها الشهية.. قبلتها الخجول على وجنته حين عودته من العمل ومبادرته بقبلة أكثر جرأة يمنحها لشفتيها.. لمسة أناملها فوق خصلاته عندما يتمدد واضعًا رأسه فوق ساقيها أمام التلفاز..

حتى نومها بين أحضانه ودفئها الذي رحل معها..

مرر أصابعه في شعره بغلظة بينما ينهض بضيق.. تفاصيلها التي بات يحفظها، بل باتت تحتله بالكامل وتسيطر على ذكرياته القديمة فتشوشها..

ما الذي يحدث لك "صلاح" وإلى أي منحدرٍ تسقط!!

ارتدى ملابسه وخرج دون إفطار، أغلق الباب خلفه بعنف ووقف صامتًا لثوان تائهًا مع بعض أفكاره الخائنة التي امتلكتها.. تنهد وتحرك راحلًا وبداخله عزم على استعادتها مهما كلفه الأمر..

فهذه فرصة.. عليه أن يتمسك بها من جديد، لأن المرة القادمة لن تعود!

***

بعض ممن يجيدون اقتناص الفرص بسرعة قبل اختفائها من بين أيديهم، يمتلكون غريزة الصيد!!

حتى وإن كانت بدائية غير مدربة باحترافية.. يندفعون خلف الفرصة بعفوية فطرية تحددها طبيعة وربما طباع!!

وهو رغم كل شيء يقضي معها وقتًا ممتعًا..

ضد رغبة مخطوبته، إرادة والدته ونظرات أخيه المحذرة، وتلك منحة قدرية لن تتكرر لذا فالإمساك بها فرض عين..

اصطحبها منذ الصباح الباكر معه بدعوة نزهة جديدة لم تجربها من قبل، وإلى إسطبلات الخيول..

بدت مبهورة للغاية بجمال هذه المخلوقات الرائعة ورقيها.. المكان كان مرتبًا لأنه يهتم به للغاية، متنفسه وملجأه حين الحاجة، المنطلق الذي يترك لنفسه فيه الحرية ليركض دون لجام أو زمام..

أسرج لها فرسًا عربية رشيقة بنفسه وتبعها فوق جواد قوي، تسابقا، تضاحكا.. فاز بعناد وفازت بسماحه لها..



عندما انتهى اليوم وعادا للإسطبل ترجل من فوق صهوة جواده وسلمه لأحد الفتيان بالمكان، سحب جوادها خلفه نحو مربضه وهناك ساعدها لتترجل، وبين دعابة وما يمكن أن نسميه استغلالًا للموقف ترك يدها لتتعثر فوق كومة جانبية من القش فلاحقها يمد يده ثانيةً، وسنحت الفرصة لاستغلال أكبر ليسقط بجسده فوقها ضاحكًا لكنها..

لم تضحك هذه المرة!..

غضبت ودفعته بقوة محتدة:

- إيه ده يا عماد؟.. ابعد..

اعتمد على يده مستجيبًا لدفعتها:

- معلش يا لارا، غصب عني.

نهضت تنفض القش الذي علق بثيابها متضايقة وهو يراضيها ثانية:

- خلاص بقى ما تزعليش.. قلت لك مش قصدي.

رمقته بحنق ظاهر، لا تصدقه وهو يعلم أنها لا تصدقه.. لكنه كان يمرح فحسب:

- بكفي حركات ولدنة.. فوت بينا ع البيت.

وخرجت بخطوات واسعة يتبعها مستمرًا في محاولاته:

- تئبر قلبي يا ناس.

أوقف حركتها بجسده عندما قطع طريقها متوسًلا ببراءة:

- خلاص بقى سامحيني.

نظرت إليه بضيق وتبرمت برقة لا تليق إلا بها:

- شو أنت!.. طائين فيوزاتك!.. عماد لا تعيدها.

غمزها بشقاوة وعاد للغزل:

- لازم فيوزاتي يحصلها حاجة، بس أوعدك..

ورفع كفيه أمام صدره بنصف انحناءة تبجيل:

- مش هاعيدها.

والفتى المرح يفوز بابتسامة وعودة لصداقة الجميلة.. ألم أخبركم أن البعض يتقنون اصطياد الفرص وليس فقط استقبالها!!

وفي باحة المنزل استقبلهما زوجين من الأعين، أحدهما يراقب بحزن ويلمح عود القش الملتصق بخصلات الشقراء ومثيله المتشبث بملابس خاطبها.. ولا تملك أمام ذلك سوى البكاء والركض نحو الأم لشكوى أو التعبير عن خوف لا تعلم له نهاية..



والزوج الآخر، الأخ الكبير راعي مصالح العائلة حال انشغاله.. من نافذة مكتبه، ضيق عينيه يتفحص الابتسامات المتبادلة، الضحكات والبساطة الواضحة في التعامل بينهما.. وانعقد حاجبيه بينما قلبه يعلن تمرده.. وخوفه!

***

قد تمنحنا أقدارنا فرصة طويلة المدى نتمسك بها ونهرب منها بذات الوقت.. نخاف ضياعها ورغم كل شيء نخطئ بحقها ونقدم على أفعال لن نجني من ورائها سوى خسارتها!

هي لا تكاد تصدق أنها ألقت في وجهه بتلك الكلمات الغليظة، كلما استعادت أحرفها القاتلة، نظرته المذبوحة وعينيه الجريحتين!!.. قلبه الذي تعلم أنها وطأته بكل قسوة وكرامته التي أهانتها.. بل حتى رجولته التي امتهنتها؛ تشعر بندم لا حد له.

كيف أمكنها أن تفعل!!.. كيف اعتصرت خافقه بشراسة لم تملك مثلها يومًا!!.. هي من تحبه، بل تعشقه وتذوب فيه.. كيانها كله يذوب لكلمة منه، لنظرة حنون وبسمة رقيقة ولفظة حب!!.. تبًا هي لم تقصد لكنه الخوف المزروع بداخلها، خوف أزلي لم تتخطاه ولا تعرف حتى كيف تقوم بذلك!!



ولأنها تدرك فداحة خطئها فلم تعتذر.. عن ماذا تقدم العذروهي ذبحت!!.. هل يمكن تعويض الموتى؟.. لقد قتلته.. هل تقدرعلى استعادته وإعادة الحياة لنفسه التي أوجعتها!!

وبأي حق وهي ترفضه علانية، ترفض حبه، قربه، لمسته.. جهرت بها في وجهه وصدحت بعذاباتها لكنها تلبست رداء القساوة غيرالمبررة ومنحته في النهاية الفرصة.. الفرصة لكي يجد غيرها.. يذهب لأخرى، يتملك أخرى وتتملكه أخرى.. لتموت هي!

تعانق جفناها وتنهيدة متقطعة تغادرصدرها الموجوع، لقد هربت من المنزل حتى لا تلقاه عند عودته من عمله، تنتظرحتى لحظة نومه لتذهب إليه رغم نظرات والدتها المتسائلة وشقيقتها العائدة من الخارج هائمة بملكوت آخرلا يحوي سواها.. حتى ابنة عمها الجالسة تتلاعب بهاتفها بانشغال معتاد.. ارتفع رنينه بين يديها لحظة قبل أن تقفزمن مكانها بفرح:

- ده ممدوح أخويا.. أخيرا اتصل.

وفتحت الخط بهتاف سعيد:

- حبيبي وحشتني قوي.



وتحركت راحلة من الغرفة، لم تلحظ ملامح "ريم" التي انقلبت في ثوان، غيابها الذي سحبها نحو ماضٍ أكثر دُجنة من حاضر تحياه.. ورعب لطالما سكنها دون مهرب أو مفر أو حتى إغاثة لم يمكنها يومًا المطالبة بها!

نهضت بسرعة تلملم ما تبعثر منها، همست بنبرة مختنقة لأمها:

- أنا هانزل بقى يا ماما.. تصبحي على خير.

ردت أمها تحيتها بدهشة وتأملت خطواتها المرتبكة كأنما تهرب من شيطان ظهر لها في قلب الجحيم!!..

تعثرت مرتين فوق الدرج قبل أن تصل لباب شقتها، تعرقت أناملها وهي تضع المفتاح بثقب الباب فتسقطه، وفي التالية كادت تكسره لتجده انفتح أمامها فجأة وتتلاقى الأعين..

ازدردت ريقها وتخطته دون حديث لكنه هو من بادر:

- ريم.

توقفت توليه ظهرها.. تناشده الصمت، تتوسله أن يتركها لحالها فهي الآن لا تستطيع.. اللعنة لا تستطيع حتى الالتفات إليه!.. تحرك يواجهها بحنو لم تفهمه:

- عاوز أتكلم معاكِ شوية.

ارتعشت شفتاها وبرر هو الرعشة بغضبه الذي تتوقعه، نعم هو غاضب.. بل مستعر بالغضب.. لكن غضبه الآن استتر خلف خوف يفزعه عليها.. قلق ينهش قلبه وعقله بالتساوي أن يفقدها، أن ما يحدث ليس طبيعيًا بالفعل، هناك شيء ما خاطئ وسيكتشفه مهما بذل من جهد، فرغم كل شيء لاتزال هي الحبيبة، الوحيدة التي امتلكت قلبه، رفيقة أفكاره وأميرة مشاعره..

أنفاسه بدأت تضيق بحزن ممتزج بالذعر من فكرة فقدانها، لذلك دهس كرامته ورجولته ليبادر، يعالج.. فربما تنصلح الأمور:

- أنا حجزت لك ميعاد مع دكتورة!

تقافزت الشياطين بعينيها، تراجعت خطوة شبه صارخة:

- دكتورة!!.. ليه يا علي؟

ضم قبضتيه وتجاهل نبرتها.. طالب نفسه بالصبر فهي حبيبته بعد وقبل كل شيء:

- عشان الترامادول بيسبب إدمان يا ريم.. لازم نتأكد إن...

وقاطعته.. لم تحتمل خوفه أورقته وحبه وسمو مشاعره، لقد قتلته في لحظة وفي التالية لايزال يخاف عليها، يقدم مساعدته واهتمامه وحبه وهي لن تحتمل أكثر:

- إدمان؟!..

واقتربت خطوة ساخطة:

- سبق وقلت لك عارفة باعمل إيه!

وأشاحت بذراعها تؤلمه عسى أن يخفف ذلك من ألمها وتتناسى رعبها الكامن فيها:

- أنا مش باخده إلا عشان أكون معاك.

أغمض عينيه بأنين صامت، امتزج بغضب شديد مهلك وهي تكمل دون اهتمام لملامحه المتوجعة:

- عشان ما أحسش بحاجة وتعمل اللي أنت عاوزه.

ودارت حول نفسها بشبه جنون:

- غيركده أنا كويسة قوي.. طبيعية جدًا.

نظر إليها يحبس إحساسه خلف غموض ملأ مقلتيه:

- ريم.. حاولي تفهمي..

وأوقفها يمسك بكتفيها، يواجهها بسيطرة صلبة على كل ما يعتمل بنفسه الهائجة بهذه اللحظة:

- أنتِ محتاجة علاج.. اللي بيحصل ده مش طبيعي، ماحدش بياخد

ولمَ عليها أن تمنحه الفرصة ليقتلها بحنانه؟.. لمَ هو هكذا؟.. لمَ يتفهم ويحب بل ويعشق وهي فقط تقسو وتجرح!!.. انتزعت نفسها من بين يديه بحدة صارخة:

- مين قال مش طبيعي!!.. اللي مش طبيعي يا باشمهندس إنك ما بتفكرش غير في الموضوع ده؟..

وانقلبت سحنته بجرح نافذ بدا عميقًا في نظرته وهي تطلق رصاصاتها دون رحمة:

- فعلًا بقى هوس.. ومن الواضح إن اللي محتاج علاج مش أنا.

واكتفى.. نعم لقد اكتفى، لهجته كانت محذرة زاجرة بها ألم خفي:

- رييييييم!

وانكمشت على نفسها لزعقته الأولى، زفر بحرارة وابتعد عنها يأخذ جانب الحيطة، يود لو دق عنقها في هذه اللحظة أو فتح رأسها ليعلم ما بها!!.. عاد ينظر إليها يحاول تلبس العقلانية علَّها تجدي:

- إحنا هنروح لدكتورة نفسية.

والكلمة اخترقتها كلهيب حارق!!..



ستنكشف كل الأمور، الماضي والألم والخوف و.. ماذا؟!.. لا، لن يمكنها أن تتحدث عنه، لن تستطيع انتزاعه من بين تراب نثرته فوقه محاولة التناسي لأن النسيان غيروارد، وحش الخوف انقض على روحها في لحظة ينهشها، يمزقها بمخالبه، يغرس أنيابه في قلبها وكيانها حتى أجهزعليه.. ولأن رد الفعل الأولي أمام ما نخافه هو الهروب فقد هربت والحل جدال، صراخ، عناد والمزيد من القسوة والوجع توجهه إليه:

- أنت عاوز تطلعني مجنونة!!

نظر إليها بذهول!!.. كيف تفكر؟.. ولم يجد فرصة ليوقف سيل أفكارها بل لاحقته هي:

- مرة مدمنة ومرة مجنونة!!

وحركت ذراعيها بعنف تلقيها في وجهه:

- يا سيدي لو محتاج ست اتجوز.. أنا باقولك اتجوز وبلاش تدور على مبررات مالهاش داعي.

ثم حاولت التماسك.. بل ادعته وهي تطعن قلبها قبل أن تطعنه هو برد مباشر لن يقتل سواها هذه المرة وفقط لتقطع عليه كل طريق:

- أنا فعلا دورت وجبت لك عروسة!



وها هي تنسف فرصتها الأولى..

الوحيدة، والأخيرة..

وربما تفقده إلى الأبد.



الفصل الحادي عشر

الهرب.. نحن نهرب مما نخشاه.. نهرب مما يسبب لنا القلق.. نهرب مما نعجزعن فهمه.. أو مما يبعث الرعب بقلوبنا.. ليس ذلك الرعب الخاص بالأفلام وروايات ما وراء الطبيعة.. بل ذلك الرعب من القادم.. خاصة لو كان مجهولًا..

القليل فقط يمكنهم مواجهة مخاوفهم.. والأغلبية تلجأ.. للهرب..

جالسًا وعلى ركبتيه حاسوبه المحمول.. يحاول البحث عن إجابة لما تمربه زوجته.. وكل ما يجده أسباب وتخمينات سخيفة لا يصدقها عقل.. بحث عن أكثرمن موقع لطبيب نفسي.. وترك عدة أسئلة.. وكانت الإجابة واحدة.. يحتاجون لمحادثة المريضة شخصياً.. فحالتها قد يكون لها أكثرمن سبب..

دفع بالحاسوب بغضب.. وتناول هاتفه يبحث بلهفة عن أي مكالمة أورسالة منها.. ولكنه لم يجد.. لقد ترك المنزل بعد آخرنقاش لهما.. لم يحتمل كلماتها المتهمة له.. وما آلمه بشدة.. تصريحها الهادئ، بعثورها على زوجة ثانية له.. هو حتى لم يسألها عن صحة تلك الكلمات.. فقط تركها ورحل، فلم يتمكن من استيعاب قدرتها على إدخال أخرى لحياته.. موافقتها على المشاركة به..

قاطع أفكاره جلوس والدته بجواره.. وبعد ما تأملته قليلاً:

- وبعدين يا علي!

تنهد بعجز:

- خير يا أمي!..

مطت شفتيها بحنق:

- ومنين يجي الخير وأنت قاعد جنبي بقى لك أسبوع؟.. يرضي مين ده يا ابني؟..

التفت علي لها وبعينيه تساؤل صامت.. فهتفت به:

- يعني تأخيرها في الخلفة وأنت كل مرة تسكتني.. وبتخاف على زعل الهانم.. وأنا أقول المهم أنه مرتاح.. لسه صغيرين.. لكن أهوه.. سايب بيتك بقى لك أسبوع.. أسكت ليه بقى!!

نهض من جوارها يخبرها بحسم:

- ماما.. ميت مرة أقولك الحمل ده رزق.. وكله بأمر الله.. وإحنا كويسين قوي.. ما تقلقيش نفسك..

صاحت والدته:



- ما أقلقش إزاي!.. ده أنا قلبي بيتقطع وأنا شايفاك قاعد جنبي زي الست اللي غضبانة من جوزها..

صاح بدوره:

- ماما!!

أشاحت بيدها:

- بلا ماما بلا بابا.. الحال المعووج ده ما يرضيش حد..

زفر بحنق وكلمات والدته تؤلم رجولته فعاد ليجلس بجوارها موضحاً:

- ماما.. من فضلك بلاش كلام مالوش لازمة.. مش معنى أني عايش مع مراتي في شقتها أنك تقولي الكلام.. أنتِ فاهمة كويس أني راجل في بيتي.. وعشان كده حتى لو كنا في شقة منفصلة ما كنتش هسمح بخروجها من البيت عشان خلاف بسيط..

تركت والدته كلماته كلها وتشبثت بآخر جملة:

- أهوه.. اعترفت أهوه.. أنتوا متخانقين..

ضرب كفاً بكف:

- يا أمي أنا في إيه وأنتِ في إيه!

ربتت على ركبته:

- يا حبيبي.. ما هو المشكلة الصغيرة بتكبر لأنكوا بتشغلوا نفسكوا بيها.. عارف لو في عيل صغير.. كانت مراتك شغلت وقتها به ومش هتبقى فاضية لخناق وعكننة..

ابتسم ساخرًا.. وهو يتذكر نفورها من قربه.. بينما أمه تكمل:

- روحوا اكشفوا يا حبيبي.. يمكن الدكتور يوصف منشط ولا علاج.. حاجة من اللي بنسمع عنهم..

زفر بضيق وكلمات ريم تتردد بذهنه.. هي تعتقده مهووس بالعلاقة الحميمة.. فقط لأنه عرض عليها الذهاب لطبيب نفسي.. ترى ماذا ستكون ردة فعلها لو طالبها بطفل!.. ربما تعتقد أنها وسيلة ملتوية منه ليقيم معها علاقة!..

أفاق من أفكاره السوداء على جملة والدته:

- يا ابني نفسي أفرح بولادك.. أنت مش عايز تفرح بعيل تشيله على كتفك ويشيلك في شيخوختك؟

تنهد بضيق:

- ماما..

لكنها قاطعته:



- بص يا علي.. سكوتي عن مراتك الفترة اللي فاتت لأني مش عايزة أخرب عليك.. مع أن قلبي كان بيقولي أنك مش مرتاح.. لكن دلوقتِ.. أهوه.. شايفة بعيني تعبك وحيرتك.. يبقى زي ما دخلنا بالمعروف..

هب منتفضًا:

- إيه يا أمي الكلام ده؟.. اقفلي الموضوع ده خالص..

لكنها استوقفته هاتفة:

- بلاش طلاق.. بس شوف حياتك يا ابني.. اتجوز..

رمقها بلوم قبل أن يهمس:

- عن إذنك أنا خارج..

تركها وانطلق لا يعلم أين يذهب ولمن يشكو!..

لا يمكنه الذهاب لحمزة.. وكرامته تأبى عليه الرجوع لريم.. فكلماتها موجعة وهي حتى لم تكلف نفسها اعتذارًا.. ولا يعلم علام تعتذر!..

عن إهانتها له أم عن رغبتها بتزويجه؟..

حتى والدته تحاصره بأفكاريحاول الهرب منها بأقصى جهده..

ما بال كل النساء بحياته يدفعنه لترك حبيبته!..

حتى حبيبته الحمقاء نفسها!!

***

وأحيانًا تصفعنا الحقيقة بقوة.. فلا مجال لهرب.. ولكن الاعتراف مؤلم.. فهو يزعزع الثوابت.. وتصبح الحقيقة موجعة حد نزع غلالة حريرية من بين أجمة شوكية.. فتتكسر الأشواك وتتمزق الغلالة.. ويتشوه وجه الحقيقة..

وبغرفتها كانت أمنية تحترق غيظًا.. فبرغم نجاح خطتها التي دفعت بالدكتور أسامة صاحب الصيدلية القريبة من منزلها للتقدم لخطبتها رسميًا من زوج خالتها الحاج سلامة.. إلا أن بقية الخطة لم تسِر كما خططت، بل انقلبت عكس ما تمنت تمامًا..

فاللحظة التي خططت لها.. والمشهد الذي رسمته بذهنها بدقة بالغة.. لم يتم من الأساس.. هي كانت تحلم بتلك النظرة المحترقة بعيني حمزة عندما يعرف بأمر الخاطب الجديد.. تتمنى رؤية ملامح الغيرة على وجهه وهو يلتقي به بل ويرحب بوجوده.. وأخيراً حلمت به يثور ويغضب طاردًا العريس المنتظر وملقيًا بشقيقتها ووعد أخيه بحاوية مهملات الذاكرة والضمير.. فيتخلى عن سمية ويهرع طالبًا منها مسامحته والزواج منه رغم إرادة الجميع..

ولكن أي من هذا لم يتم..

ببساطة.. لم يحضر حمزة اللقاء، بل لم يعرف بأمر الخاطب من الأساس.. وعندما سألت خالتها بطريقة حاولت جعلها عفوية..

أجابت خالتها بلهجة واضحة:

"وحمزة يحضر بأي صفة!.. راجل البيت موجود.. ربنا يبارك فيه"..

ثم حولت دفة الحوار بمهارة لتعدد مميزات أسامة كعريس مستقبلي مناسب..

انتهت خالتها من جلستها المتعمدة لإقناعها بالقبول.. أو التفكير بالعرض على الأقل..

حوار طويل لم ترسخ كلمة واحدة منه بذهن أمنية التي كانت تعد خطة بديلة.. فلن يضيع مجهودها للإيقاع بأسامة هباء..

ما إن أغلقت خالتها باب الغرفة راحلة حتى التقطت هاتفها بسرعة تضغط أرقام تحفظها عن ظهر قلب..

رن جرس الهاتف الخاص بحمزة لتتألق الشاشة باسم أمنية.. أغمض عينيه للحظات وهو يتناول الهاتف.. يضغطه بشدة بين أنامله.. يقاوم رغبته في الرد عليها وسماع صوتها..



ويصارعه إحساس مختلف بالذنب.. بل بالجرم.. فكلمات والده مازالت تؤجج جوفه نارًا..

ولأهواء النفس البشرية اليد العليا على الضمير.. مهما علا صوته.. وخاصة لو مالت تلك الأهواء مع رغبة القلب..

جاءها صوته مترددًا يحمل نبرة غريبة... أهي الذنب!.. لم تتوقف كثيرًا لتحلل صوته.. فالدور الذي أجادت تقمصه دفعها لتهتف باسمه بصوت متحشرج..

"هيجوزوني يا حمزة.. خلاص عايزين يخلصوا مني"..

وقلب العاشق يخفق منقبضًا.. وكرامة الذكر تنتفض غضبًا.. وضمير الرجل يصمت يأسًا..

أجابها بعد لحظات..

"يعني ايه؟!"..

وتقص عليه قصة عن العريس المثالي الذي دبره والده ليزيحها من حيز الأسرة تحت غطاء الاطمئنان عليها بكنف رجل جيد..

دقائق وكان حمزة يواجه والده مستفسرًا عن الزوج المرتقب للحبيبة السابقة..

ويده ترتفع بعصبية.. وسبابته تشير غضبًا..

"عريس لأمنية يا حاج!.. عريس وأنا آخر من يعلم!!"..

وتأتي كلمات أبيه صادمة..

"وبأي صفة تعرف!.. أخوها موجود.. وأنا بمقام أبوها وولي أمرها.. أنت يا دوب جوز أختها.. ومالكش رأي في أي حاجة تخصها"..

وترتعد الأنامل قهراً.. وتنقبض عجزاً... ويرحل بدون كلمة إضافية..

وبمنزله.. ترتعد الزوجة هلعًا.. هي علمت بأمر الخاطب.. أخبرتها خالتها وليست شقيقتها التي تقاطعها وتلغي وجودها منذ أعلنت موافقتها على حمزة..

انتفضت على صرخته الغاضبة..

- سمييية.. فنجان قهوة..

ذهبت لتعده بصمت.. تعلم أن الأمر لن يمر على خير.. زواج أمنية لن يمرره أو يرضى به.. وهالة الغضب التي تحيط به مخيفة.. حتى أنها تخشى فعليًا الاقتراب..



عاصرت نوبات غضبه من قبل.. صراخه وتفريغ حنقه بها.. لكن تلك المرة مختلفة.. وكأن غضبه يتجسد حوله حتى أنها يمكنها لمسه وتوقع القادم.. وكأنها تعيش إحدى لحظات المسماة بـ..

Deja vous

الفارق أنها عاشت تلك اللحظة من قبل.. بل هي لم تعِش إلاها..

وضعت أمامه قدح القهوة وهي تحاول التحكم برجفة يدها حتى لا تسكب منه قطرة فيجدها فرصة لتفجير الغضب المحيط به..

ابتعدت بسرعة لتتجنب عاصفته التي تراها قادمة لا محالة.. ولكنها لم تكن محظوظة كفاية فقبل خطوتين من باب غرفتها سمعت صوت تحطم القدح الخزفي تلاه صراخه الذي انطلق هاتفًا باسمها:

- سمييييييية..

تجمدت بوقفتها وهي تخشى الالتفات لمواجهة حمزة تتلبسه شياطينه.. بينما تحرك هو نحوها وقد عجز عن التحكم بغضبه..

الله وحده يعلم محاولته المستميتة لالتزام الصمت.. لكبت غضبه والسيطرة عليه.. ولكنه فشل.. قدرته على التظاهر بالهدوء وإدعاء اللامبالاة تحطمت أمام رعدة جسد زوجته الواضحة..

هي تعلم!..

جميعهم يعلمون.. ويخططون لفراق نهائي.. سيزوجونها.. وينتهي الأمر.. تلك الفكرة حولت أنفاسه لحمم ملتهبة تحرق صدره.. وانقلبت الرؤية إلى سواد قاتم عززه طعم القهوة المرفألقى بالقدح بلحظة جنون وتحرك نحو المرتعدة قبل أن تختفي بغرفتها..

أراد الصراخ بها أنها تعلم بأمر الزيجة المدبرة.. بل ربما شاركت بتدبيرها.. ولكنه لم يستطع.. ولم يدرِ لما!.. ألأنه يعلم يقينًا بخطأ ظنه؟.. أم لأنه عجز عن ذكر الأخرى!

خطوتان وكان يجاورها وكلماته تنطلق بلا رابط.. فهو يجاهد لمنع ما يدور برأسه.. فقيد سلطة عقله على لسانه..

- غبية.. أنتِ غبية.. حتى فنجان القهوة ما بتعرفيش تعمليه... قوليلي إيه لازمتك في البيت ده!.. فاشلة.. فاشلة في كل حاجة بتعمليها.. غبية وفاشلة وجاهلة و.. جاهلة ما بتفهمش و..

ويداه تتحركان حوله.. تشوحان بغضب.. تشيران هنا وهناك.. وعيناها تتابع حركتهما بجنون.. وكأن بؤبؤي عينيها ارتبطا بخيط غير مرئي بيديه.. وحينما ارتفعتا بحركة غاضبة يائسة كانت قدرتها على الاحتمال قد انتهت.. ورؤية القادم تبرق بناظريها كمشهد رأته، بل عاشته مرارًا..

والمثير للوجع.. بل للبكاء.. أنها تنتظره..

منذ لحظة دخوله عليها غرفتها بعد عقد قرانه عليها وهي تنتظر تلك اللحظة.. وتعرف أنها قادمة!

شقيقه.. مَن إدعى إعجابًا وحبًا لها.. لم يرحمها فكيف به هو!..

سيفعلها وستصمت كما اعتادت.. كما ماتت روحها من قبل مرة، بل مرات.. هو لا يحبها.. بل هو بالواقع يبغضها.. فكيف سيكون إيذائه!!..

تجمد جسدها بوضع دفاعي اعتادته مرارًا.. تحمي وجهها ورأسها بكفيها وتخفي رأسها بين كتفيها تنحني بجسدها كله استعدادًا لتلقي صفعاته.. أو ربما ركلات.. لا يهم.. فلتستعد.. فقط.. لتسحب روحها بداخل قوقعتها العازلة فلا تشعر بالآلام القادمة..

أما هو فكان غارقًا بظنونه وصرخاته الغاضبة ليتوقف فجأة وقد تعلق كفه بالهواء حيث كان يشير للاشيء.. وتوقفت الكلمات بحلقه وهو يستوعب مظهرها المتكوم والدفاعي.. ولم يحتج لكثير من الذكاء ليدرك أنها تظنه سيضربها!..

ذلك الظن أشعل جنونه..

ماذا تظنه حيوان ضارب للنساء!!..



هو لم يضع إصبعًا عليها بأذى منذ زواجهما-لو استثنينا موقف المنشفة- لكنه لم يضربها ولن يفعلها أبدًا..

صرخ بها بجنون لم يساعد على تهدئة مخاوفها:

- ارفعي راسك.. ارفعي راسك حالًا..

ولذهوله نفذت أمره.. رفعت رأسها وإن ظلت تحمي وجهها بكفيها.. لترمقه من خلفهما بأعين تجمد بها الدمع وهي تردد:

- أنا آسفة.. آسفة.. مش هكررها تاني.. أنا غبية.. فاشلة.. جاهلة ما بتفهمش.. غبية.. غبية..

تجمد بوقفته وهو يدرك أنها تكرر كلماته السابقة بلا توقف.. فقط يرتعد جسدها وتهز رأسها بحركة موافقة على كلماته وترددها بلا توقف

"غبية.. فاشلة وجاهلة ما بتفهمش.. غبية وجاهلة..."

لم يتحمل الاتجاه الذي سحبته له أفكاره... فما يراه أمامه لا يعني إلا شيئًا واحدًا..

هي كانت تتعرض للضرب..

وباستمرار..

كلا.. كلا.. لا يمكنه تصديق ذلك عن شقيقه الصغير.. هي فقط مجنونة..

نعم.. غرابة أطوارها لا يمكنه إنكارها منذ زواجهما.. هي فقط تدعي..

ولكن ذلك الرعب الذي يستشعره من حولها لا يمكن إدعائه..

كلا.. كلا.. لن يشك بشقيقه.. لن يفعلها بأخيه الميت والذي لا يمكنه الدفاع عن نفسه..

لم يجد أمامه حلًا سوى الهرب.. هرب من أمامها يحتمي بباب غرفته.. يختفي خلفه من تلك الأفكار التي تطارده.. تلك الحقيقة التي تصفعه بل تطعنه بقوة..

ظل يدور بالغرفة حائرًا.. هل ذلك السبب وراء طلب شقيقه على فراش الموت؟..

هل أراد تعويضها أم أراد إخفاء ما كان يفعله بها!!..

وهي.. هي.. تلك المرأة المذعورة بالخارج.. الصامتة كالشبح.. هل هي ضحية أم جانية؟..

لم يتحمل أفكاره والاختناق بداخل جدران غرفته.. فانطلق منها متجهًا لسمية التي كانت تتنفس الصعداء عاجزة عن التصديق أنها نجت.. أنه نجح للآن في كبح ضرباته التي تنتظرها منذ زواجهما.. فبالتأكيد هو لن يختلف عن شقيقه..

وقبل أن تنتظم أنفاسها المذعورة وجدته ينطلق خارجًا من غرفته فأيقنت أنه عجزعن السيطرة على طباعه.. وأخيرًا ستنال الصفعات التي حاولت جاهدة تجنبها منذ زواجهما.. عادت لوضعها الدفاعي ثانية تحمي رأسها بين كتفيها.. مما دفعه للصراخ غاضبًا:

- أنتِ فاكراني هضربك!!

لم تجب فقط التزمت الصمت.. تعرف أن صوتها سيسبب المزيد من غضبه.. كالآخر تمامًا..

ولكن حمزة لم يصمت ولم يهدأ.. ازداد غضبه بشدة.. ولكن بدأ تعقله يطفوعلى السطح للحظات.. ليدرك أن صراخه يناقض هدفه من تبييض صورته أمامها.. من بث الاطمئنان لها.. تحكم بنبرات صوته المحترقة:

- ليه؟. ليه فاهمة أني هضربك؟..

لم تجبه وإنما رفعت رأسها قليلًا تراقبه من بين أصابعها التي تحمي وجهها.. فردد بصوت مُطَمئن ومتسائل بنفس الوقت:

- أنا مامدتش إيدي عليكِ قبل كده.. ليه فاهمة أني هضربك؟..

لم تجبه بكلمة.. فقط يزداد انكماشها وإن كانت أناملها تبتعد قليلًا عن وجهها ولكن ليس بشكل كلي.. فقط ليلمح النظرة الغارقة بدموع متجمدة والمتوسلة لرحمة وعتق من تعذيب تنتظره ويظهر بوضوح بعمق عينيها..

كسا صوته بأكبر قدر من الهدوء وهو يخبرها بتأكيد:

- مش هضربك..

تمنحه نظرة غير مصدقة وهي تلمح وقفته المتحفزة.. فيرتد خطوة للخلف ويبسط كفيه بجوار رأسه ثم يثنيهما بحركة توحي بالاستسلام ويردد بصوت هادئ تلك المرة:

- مش هضربك يا سمية..

وتلك المرة تلتمع عيناها بنظرة عدم تصديق.. بل رغبة في تصديقه وتردد بصوت ملهوف تبغي وعدًا:

- بجد!..

ووسط حيرته وذهوله بتلك الطفلة المرتعبة.. طفلة لم يستطع سوى منحها وعدًا بالأمان:

- أيوه بجد..

عادت تكرر وكأنها تقنع نفسها بتصديقه:

- أبدًا.. أبدًا؟

تنهد بعجز ولا يدري لم شعر بدموع تحرقه.. فتلك الطفلة البائسة أمامه توجع قلبه بقوة:

- مش هضربك أبدًا يا سمية..

أومأت برأسها وعادت تخفضها أرضًا تحاول إقناع نفسها بصدق كلماته.. فالآخر.. منح من الوعود آلافًا.. بل زادها بكلمات اعتذاروتوسل.. ولم يصدق بوعد.. ولم يكف عن الاعتذار..

عادت تهزرأسها بطريقة توحي بشكها في وعده.. ولكنه لم يستطع سؤالها.. عجزعن التأكد وهو يخشى الرد.. لا يريد معرفة الحقيقة.. بل لا يمكنه تحملها.. فالحل هو الهرب.. الهرب منها.. من مواجهتها.. من سؤال إجابته ستقلب الأدوار.. وتسطرحقائق جديدة..

والفرارمن سؤال آخرصفعه بلحظة إغلاقه باب غرفته..

هل أنساه ما عرفه عن زوجته.. خبرخطبة.. شقيقتها؟..

***

وهناك الهرب من الواقع.. من المحيطين بنا.. من حقيقة تغزو الأرواح وتتجاهلها العقول خوفًا من استسلام يعقبه جرح..

ولارا قررت الابتعاد عن الجميع.. اقتصرت نشاطتها على حجرتها نهارًا.. وتسلل ليلي خفي للمسبح.. حيث تقضي به ساعة أو أكثر.. بعيدًا عن الجميع..

عن نديم وجنون خيالاته وكلماته التي أوجعت قلبها ولم تجد مبررًا لذلك.. من جنون ابن عمها الأصغروالذي يبدو أن عقله ينسج لعلاقة أكبرمن الأخوة والصداقة.. وبعيدًا عن هبة وغيرتها التي أصبحت تراها مستحقة.. وعن زوجة عمها وحقدها الذي ينضح بنظراتها وإن كانت تكتفي هي بالنظرات فثريا شقيقتها لا تبخل بالكلمات الموجعة.. بالنهاية قررت الاعتكاف بحجرتها ترتب أفكارها وحياتها.. وتفكر بالقادم..

هل تجاهلت ذكره؟!..

مَن سبب أرق لياليها حيرة وتفكيرًا!..

نعم بالطبع.. ستتجاهل التفكيربه نهائيًا.. فهي لطالما كانت كالمياه الرقراقة الصافية.. تظهر ملامحها ما تفكر به.. وأفكارها دائمًا واضحة مترابطة ومحددة.. إلا.. فيما يخصه.. عادل.. نظراته تجذبها كفراشة تبحث عن الموت بين أحضان اللهب.. ولكنها لا تريد الموت.. هي تبحث عن حياة.. وليس عن مغامرة وقتية.. فكان قرارها بالابتعاد..

ولكن ذاك القرارلم يصمد دقائق أمام دعوته المتحمسة لزيارة اسطبلات الخيل.. لتجبه بمحاولة أخيرة للهرب:

- أنا روحت مع عماد فعلًا..

ضحك وهو يخبرها بنبرة موحية:



- عماد كل معرفته عن الخيل إزاي يسابق الريح.. صدقيني هتتعرفي عليهم النهاردة بطريقة مختلفة..

وأضاف بنبرة سرية:

- ده غير أنه في مفاجأة مخصوص علشانك..

وانساقت وراءه تفكر بتلك الطريقة المختلفة التي ستعرف بها الخيل.. ويحرقها فضولها لمعرفة مفاجأته الخفية..

وبعد بضعة دقائق كانت تقف لارا بحالة من الذهول والانبهار أمام مهرة صغيرة شقراء.. وتمرر أناملها بين خصلاتها الكثيفة بينما المهرة تصهل بصوت خافت وكأنها ترحب بوجودها..

التفتت لارا لعادل بسعادة هاتفة:

- بتجنن.. بتجنن يا عادل..

سألها عادل:

- يعني عجبتك؟

أومأت بسعادة وهي تداعب أنف المهرة الرطب:

- إيه كتير..

تحرك ليقف بمواجهتها:

- طيب تحبي تسميها ايه؟..

أشارت لنفسها بعجب:

- أنا!!..

أومأ موافقًا ولم يقاوم ملامستها.. فمد يده يتلمس أناملها مدعيًا مداعبة غرة الهرة فسحبت أناملها بخجل وضمتها لصدرها تخفيها بكفها الأخرى.. وبأعماقها تلعن تلك الحالة التي تصيبها بوجوده..

بينما تظاهر هو بعدم ملاحظة ما حدث وهو يصدمها بقوله:

- طبيعي أنتِ تسميها.. أنتِ صاحبتها..

عادت تردد بذهول:

- أنا!!

ليشاكسها:

- أنتِ نسيتِ الكلام ولا ايه!.. مافيش رد إلا أنا.. أنا.. ولا ده تأثير..

صمت للحظة وأكمل بنبرة غامضة:

- الوقوع بالحب..

احتقن وجهها حرجًا وغضبًا وكادت أن تتركه وترحل.. بل فكرت للحظة بالرحيل التام ولكنه أكمل جملته بعد ثانية واحدة:

- حب المهرة طبعًا..

أغمضت عينيها تتغلب على ارتباكها وأغلقت شفتيها مانعة خروج أي كلمة رداً على كل كلماته الوقحة.. فهو اليوم يظهر لها وجهًا مغازلًا ولكن متلاعبًا غامضًا وليس بوضوح المرات السابقة..

استجمعت قوتها وهي تحث نفسها بقوة على استعادة لارا.. لارا التي استطاعت إيقاف نديم عند حدود الصداقة.. وسيطرت على جموح عماد لتحبسه بخانة الأخوة..

قبضت أناملها تستدعي قوتها الداخلية وصمتت للحظات طويلة.. حتى أن عادل لم يستطع كبح ابتسامة النصر الذكوري المعتاد عند مغازلة أنثى عصية والنيل من حصونها.. ولكن تجمدت ابتسامته عندما فتحت عينيها لتلتمع زرقتهما بفتنة وهي تردد:

- بيرل..

ردد الكلمة متسائلًا:

- بيرل؟!

أومأت موافقة:

- أيوه هسميها بيرل..



وصمتت للحظة قبل أن تردد بلهجة متحدية:

- بتعني لؤلؤة.. درة..

قابل تحديها بابتسامة هادئة.. وهو يتحرك ليحمل دلوًا وقطعة من الاسفنج مخبرًا إياها بشقاوة:

- أول حاجة لازم تعمليها عشان تتقربي من مهرتك..

سألته بتوجس وهي ترمق الدلو بيده:

- أيوة؟..

أجاب بضحكة لم يستطع كبحها:

- أنك تحميها..

أطلقت ضحكة مجلجلة أخرجت بها التوتر الذي أصابها منذ دقائق وهي تشعر به عاد لشخصيته المعتادة.. وشاركها ضحكها عندما توسلته بطفولية:

- علمني كيف أحممها..

سألها بفضول:

- اللهجة اللبناني مسيطرة النهاردة..

هزت كتفيها ولم تجب ولكن كررت توسلها:

- هتعلمني؟..

ابتسم لها بحنان:

- أكيد..

والدقائق التي تلت كانت بالفعل خارج الزمن.. لنقل هروب كامل من الزمان والمكان.. من الماضي والمستقبل.. كان الحاضر المتألق بذرات سعادة ربما لن تتكرر.. فالابتسامات اختفت لتتعالى ضحكات عالية.. وحالة التوتر التي تشي بوجود إعجاب واضح ومتبادل اختفت لتتحول بلحظات إلى حالة من البراءة والعفوية.. وتناثرت المياه الممتزجة بفقاعات الصابون لتضمهما فقاعة عازلة عن واقعهما.. عن أعين العمال المراقبة والتي تمنحهما نظرات دهشة واضحة جعلتها تتساءل بحرج:

- هما بيبصوا لنا ليه بالطريقة دي؟..

أجابها ببساطة وهو يكمل عمله ويدعك ظهر المهرة بحنان:

- يمكن لأنهم بيسمعوا ضحكتي لأول مرة.

اتسعت عيناها بذهول:

- عنجد!.. أول مرة!!..

غمزها بعبث:



- أول مرة أضحك من قلبي..

أشاحت بوجهها الذي تورد وعادت حالة التوتر تتلبسها من جديد.. فتظاهرت بالانهماك بتنظيف المهرة وهي تشعر بعينيه المسلطتين عليها.. هي تغرق.. ولا يعجبها إحساس الغرق..

ولكنها تنتشي بإحساس آخر يكتسحها وبقوة..

***

والهرب أحيانًا قد يكون بالغرق بين ثنايا الماضي.. فربما المستقبل يحمل لنا من الألم ما لا نحتمله.. وربما يكون ألم الماضي قد أصاب الروح بحالة تشبع فلا تحتمل المزيد.. فنتشبث بآلام ماضينا هربًا من ألم قد يصيبنا مستقبلاً.. فبأي حال.. ألم مألوف أكثر رحمة من ألم جديد قد نعجز عن التعامل معه..

دار صلاح بين أرجاء منزله.. يبحث عن طيفها بين ثناياه..كم يفتقدها.. يفتقد همسها.. ابتسامتها.. ضحكتها الرائقة.. وتلك الغمازة الخفية عند طرف شفتيها!..

هو يعشق تلك الغمازة.. يهوى تقبيلها وتلمسها.. أدمن تفاصيل زوجته بدون أن يدري.. حتى لحظات خصامها له.. خصامها ممتع ككل شيء يخصها..

مر أسبوعان على هجرها لمنزله.. وهو أوشك على الجنون.. يسعى لمصالحتها بكل ما يعرفه من سبل.. لا ينكر أنه بأول ثلاثة أيام كانت محاولات روتينية تقليدية لإعادة الزوجة الغاضبة لمنزلها وكما تقتضي العادات اتصل بها وبوالدتها وذهب للزيارة ليراضي الغاضبة..

ولم تفلح تلك المحاولات.. ولم يهتم كثيرًا.. فهو يدرك أنها ستعود مهما طال الغياب وزاد البعاد.. ولكن مر يوم وآخر.. ومشاعره تتحول.. شعور الافتقاد يزداد.. الاشتياق موجع..

القلب يخفق مناديًا ونبضاته الحقيقية تصرح بمشاعر وليدة للزوجة.. وتزيح وهم نبضات خائبة حاولت التشبث بالماضي.. هربًا أو إدعاءً لوفاء وإخلاص.. وعقله يتساءل بقوة..

أي وفاء!.. وأي إخلاص!!..

أتخلص لذكرى؟.. أتكن الوفاء لطَيْف!!

وتترك قلبًا نابضًا عاشقًا بحبك يتعذب وجعًا وقهرًا فقط لشعور خائف جبان بداخلك يحذرك من وهم افتقاد يعشش بثنايا عقلك الباطن فقط..

وقتها أعلنها لنفسه.. صارح قلبه بعشق وليد لزوجته.. وازدادت محاولاته لإرجاعها وأصبحت أكثر جدية.. تحولت لمحاولات عاشق يسعى لمراضاة معشوقته..

أرسل ورودًا.. هدايا.. رسائل عشق.. وقصائد شعرية.. ورغم هذا لم يرق قلبها.. ولم يدرِ أنها بدورها كانت تهرب.. تهرب من تصديقها لمشاعره.. تخشى ألا تكون حقيقية.. تخشى أن تتمسك بحلم السعادة ثم تنساب من بين يديها وتصطدم بواقع عشقه لطَيْف الماضي..

جلست حبيبة ترقب شرود بسمة وهي تتلمس بأناملها هدية ذهبية جديدة أرسلها صلاح مع شقيقته.. قبل أن تخبرها بحزن:

- هيضيع القرشين اللي بيحوشهم على شوية هدايا؟..

وكزتها حبيبة بكتفها:

- يعمل إيه!.. طالب رضا ست الحسن.. بس هي بتدلل..

أشاحت بسمة بوجهها بعيدًا.. هي لن تخبر حبيبة بما حدث.. لن تصرح بوجعها.. ولن تفصح عن أسرار بيتها..

ربتت حبيبة على كتفها بتقدير.. فهي علمت أن بسمة لم تفصح بكلمة حتى لوالدتها عن مشكلتها مع صلاح.. ولكن حبيبة يمكنها تخمين المشكلة بسهولة.. حزن بسمة.. وحالة صلاح التي تحولت من الجمود اللامبالي إلى حزن جلي واشتياق واضح لزوجته.. أخبرتها بوضوح بمكمن الخلاف..

واليوم جاءت لبسمة بناءً على خطة مسبقة وضعها صلاح وطلب مساعدتها لتنفيذها.. ورغم سذاجة الخطة الواضحة إلا أنها قررت

مساعدته بعدما لمست مشاعره الحقيقة لبسمة.. ويأسه التام من قبولها لمحاولات الصلح..

رفعت حبيبة حقيبتها ونهضت وهي ترمي بكلمات مدروسة:

- هقوم أنا بقى يا بسمة.. يا دوب أعدي على صلاح.. أعمله شوية شوربة ولا كوباية ليمون..

رفعت بسمة عينيها لها بتساؤل:

- ليمون!.. ليمون إيه؟.. صلاح ما بيحبش الليمون..

هزت حبيبة كتفيها وهي تخبرها:

- أيوه.. بس عشان الحرارة وال..

قطعت حبيبة كلماتها مع تشبث بسمة بمرفقها وهي تنتفض من مكانها:

- حرارة إيه!.. صلاح ماله؟..

أجابتها حبيبة وهي تخفي بسمة ماكرة.. فالعاشقة الصغيرة سقطت بفخ العشق.. وقلقها على زوجها أنساها غضبها منه.. فها هي بالفعل تبدل ملابسها وتستعد للذهاب لمنزلها حتى بدون أن تستمع لإجابة حبيبة.. بل أنهت ارتداء ملابسها بسرعة والتفتت لحبيبة تخبرها:

- أنا هروح أطمن على صلاح..

أومأت حبيبة برأسها وبسمة تختفي من أمام عينيها.. لتخبر والدتها بمرض صلاح ووجوب ذهابها للبقاء بجواره.. فاكتفت حبيبة بغمزة للأم.. أعقبتها برسالة لصلاح تخبره بأن زوجته في الطريق..

دقائق وكانت بسمة تطير لتحط على ركبتيها بجوار فراش صلاح الذي نجح في التظاهر بالمرض.. فوضع قربة ماء ساخن تحت قدميه.. فبدا تعرق جسده واضحاً.. وفوق جبهته وضع قربة أخرى بها قطع من الثلج.. وما إن شعر بأنامل بسمة تتحسس وجنتيه برقة حتى بدأ يتأوه متألمًا..

فشهقت بسمة بحزن باكٍ:

- صلاح يا حبيبي.. فيك إيه بس!..

غمغم يتظاهر بالألم:

- آه.. آه.. تعبان.. تعبان يا بسمة..

كان نطقه لاسمها يعذبها.. فهي لا تعلم أي بسمة يعني!..

ولكنها تجاوزت عن حزنها وهي تزيح قربة الثلج بعيدًا.. وتذهب لاحضار وعاء عميق ملأته بماء الصنبور وعادت تضع له الكمادات الباردة وهي تخبره بصوت باكٍ:

- بلاش تلج.. ميه من الحنفية أحسن..

تلمست وجنته بحنان وهي تعاود الهمس:

- إن شاء الله الحرارة تنزل.. أنت تعبت إمتى بس؟

فتح عينيه ليخبرها بشغف:

- من يوم ما سيبتيني..

مسحت دمعة هاربة جرت على وجنتها:

- أنا رجعت بس عشان ما يصحش أسيبك وأنت تعبان لكن..

قاطعها يضع أنامله على شفتيها:

- ما فيش لكن..

لكنها أخبرته بحزم:

- إحنا خلاص يا صلاح.. انتهينا..

لكنه التفت نحوها يخبرها بحزم مماثل:

- لا يا بسمة.. إحنا هنبتدي..

وبحركة خاطفة رفعها لتجاوره بالفراش ويحيطها هو بذراعيه بإحكام.. يخبرها بكلمات واضحة:



- بحبك يا بسمة.. يا مراتي.. فاهمة يعني إيه بحبك!.. بحب كل حاجة فيكِ.. ضحكتك.. همستك.. لمستك..

قبلها بجوار شفتيها هامسًا بشغف جلي:

- الغمازة اللي بتجنني دي..

وانخفض همسه بشدة وهو يجاور أذنها وكفه يرتاح على خافقها النابض بجنون:

- قلبك الكبير اللي بيحب صلاح وهيسامحه..

كانت دموعها تتدفق مع كل همسة منه.. مع كل تصريح بالعشق.. ترغب بتصديقه بجنون.. وتخشى أن يكون مجرد تعلق.. ولكن ضغط ذراعيه حولها وهمساته العاشقة أضاعت منها كل شك.. كل تعقل.. وآخر ما همست به:

- صلاح أنت تعبان..

وكان رده غمغمة مكتومة:

- وعلاجي وصل..

همست بدلال:

- صلاااح..



ليأتيها رده متأوهًا:

- بسبوسة..

تجمدت بين ذراعيه فجأة.. ولمعت عينيها بحزن.. فأدرك ما جال بذهنها..
فكرر كلمته:

- بسمة.. أنتِ مراتي وحبيبتي.. وبسبوستي...

وكعادته سلم قلبها راياته.. وعقلها يكافح ليقتنع بصدق همساته.. وقلبه تصرخ نبضاته بعشق أكده شعوره بها بين ذراعيه.. هي وحدها من تجعل قلبه يخفق بتلك السعادة.. ذلك الخوف من فقدانها..

عشق كان وهمًا.. فحلمًا.. فحقيقة لا يمكن الهروب منها...

***

عندما يصبح العشق وجعًا وجرحًا متبادلًا.. يلجأ العاشق للهرب.. يهرب من مشاعره.. من دقات قلب تخونه بكل لحظة تناجي المعشوق..

عندما يصبح الاقتراب من الحبيب عبئًا.. ويكون الهرب بقدروجعه بقدرما هو حل واقعي.. حل يحافظ على رقي العشق.. على نكهة الاحترام به..

فهل يلجأ العاشقان للهرب!.. أما ينتفضا ويواجها وجع الاقتراب!.. ويطببا جرح اللقاء!..

التقط علي هاتفه بلهفة وهو يلمح اسمها يضئ شاشته..

"الحبيبة"..

ذلك لقبها على هاتفه وبقلبه هي "المعشوقة".. ولكن كبرياء الرجولة يمنعه من وضع الاسم بهاتفه..

ومعشوقته قاسية.. لم يدرك مدى قسوة قلبها إلا بعد خصامهما الأخير.. تسعة أيام كاملة لم تحاول بها الاتصال.. وهو بدوره التزم الصمت.. حمزة يسأله بقلق.. وهو صامت.. جامد لا يفصح ولا يشكو.. أمه لا تكف عن بث أفكارها بعقله.. وهو يسمع بأذن.. ولا يسمح حتى بمرور كلماتها بذهنه.. فهو غائب ينشد وصال القاسية..

هو يفهم سبب صمتها.. فمواجهتهما الأخيرة كانت موجعة بشدة.. ربما هو لم يفهم السبب وراء نفورها ذاك.. ربما هو نفور من العلاقة الزوجية كما قرأ بأحد المواقع على الشبكة العنكبوتية..

نفور يرجع لجهل أو خجل.. هو يحتاج لحوار طويل معها.. ويدرك سبب تأخرها في مراضاته.. فهي ببساطة تخشى أن يتبع المصالحة إقامة علاقة.. وهي أوضحت بجلاء كرهها لذلك..

ولكن يبدو أن قلبها رق وقررت الاتصال..

فتح الخط وقبل أن يعاتبها بكلمة بادرته بكلمات سريعة:

- علي.. يا ريت تيجي على الغدا.. مستنياك ضروري..

وأغلقت الخط.. وزاد تعجبه.. هل تلك بداية لمصالحة!..

أم هي تخشى تبادل العتاب على الهاتف!!..

لم يتمالك نفسه وخياله يشطح به لمصالحة رومانسية تعدها له.. تبدأ بوجبة غذاء.. ولكنه سيمنحها كل وقتها.. لن يطالب بها قبل أن يقنعها بضرورة الذهاب لطبيبة نفسية.. أو حتى استشارية علاقات زوجية.. فقط يريدها أن ترتاح وتتفهم قدسية تلك العلاقة التي تربطهما.. والأهم من ذلك أن تقلع عن تناول تلك الأقراص اللعينة..

أنهى عمله بسرعة واعتذرعن الوقت الإضافي.. وتوجه مسرعًا لمنزله.. وبطريقه لم ينسَ شراء باقة من زهور "عصافير الجنة".. تلك مفضلة ريم.. وعلبة كاملة من الشيكولاتة المفضلة لديها..

سيعود بها للأيام الأولى للخطبة.. ربما تقتنع بصدق حبه وتنسى تلك الهلاوس بشأن تزويجه من أخرى..

فتح باب شقته ليفاجأ بريم تنهض لاستقباله بترحاب وكأنه ضيف وليس زوجها صاحب البيت.. التقطت منه باقة الزهور وعلبة الشيكولاتة بصمت.. وعندما حاول طبع قبلة خفيفة على جبهتها تملصت منه وجذبته من ذراعه هامسة بارتباك:

- عندنا ضيوف..

قطب متعجبًا:

- ضيوف!.. مين؟..

همست:

- دي عبير.. صاحبتي.. هتتغدى معانا..

قطب حاجبيه متعجباً.. هل طلبت منه القدوم ليشاركها الغذاء هي وصديقتها!.. أم أرادت رسم صورة الزوجين السعيدين أمامها..!!

تحرك معها ليرحب بالضيفة الغير متوقعة.. وجلس ليتبادلوا حوارًا هادئًا وعامًا.. ونظراته تلاحق ريم بشغف تحول لتعجب وذهول عندما انسحبت للمطبخ.. متعذرة بإعداد السلطة.. ومنعت علي من اللحاق بها..

ظل لعدة دقائق يحاور صديقة زوجته فهي بالنهاية ضيفة ولها عليهما حق الضيافة.. وما أزعجه رنين هاتفه المتواصل.. فوالدته لم تكف عن الاتصال منذ الصباح وهو أصبح يتهرب منها.. بل يهرب من عجزه عن تفسير سبب ابتعاده عن بيته..

أخيراً وصل علي لدرجة بالغة من الانزعاج.. فصديقة زوجته ليست فقط ثرثارة.. ولكنها تتفنن في الثرثرة بكل ما هو تافة وسطحي.. استأذن منها وذهب

خلف ريم إلى المطبخ فوجدها جالسة بجمود.. شاردة بعالم آخر.. وبعيونها دموع متجمدة تخلصت منها على الفور لحظة رفعت عينيها له تسأله بفضول:

- إيه رأيك؟..

قطب متسائلًا:

- رأيي في إيه؟..

أجابت ببديهية:

- في عبير طبعًا.. عجبتك؟..

هز رأسه وكأنه يرفض ما خلف كلماتها:

- عجبتني!!.. عجبتني إزاي يعني؟!

زفرت ريم بضيق:

- علي.. بلاش لف ودوران.. أنت ما بطلتش كلام معاها.. يعني أكيد عجبتك..

أشار لها بغيظ:

- أنا بجاملها عشان خاطرك.. لأنها صاحبتك..

قاطعته:

- هي مش صاحبتي للدرجة.. بس أنا شايفة أنها تصلح زوجة لك....

معالم القهر على وجهه لا يمكن وصفها..

صدق من حذر من قهر الرجال..

فعلي كان لوحة حية لرجل طعن بأغلى ما عنده.. برجل بخس حبه حقه.. ومنحه لمن لا تستحق.. فهي أحضرت عروسًا.. لوثت جنة عشقهما بامرأة أخرى تخبره أنها تراها زوجة نافعة له..!

ردد بصوت مكسور:

- زوجة!

ورفع عينيه لها ويده ترتعش بقوة:

- وقلبك قدريا ريم..!

أغمضت عينيها تخفي روحها النازفة.. لم لا يفهم!..

هي تفعل هذا من أجله.. تريد أن تمنحه الراحة.. حتى لو عبر امرأة أخرى.. غيرها.. هو يحق له حياة طبيعية.. زوجة طبيعية.. وهي راضية.. لن تمنعه.. ولن تقف بطريقه.. يكفيها حبه لها.. حب تعلم أنه لن ينضب ولن تجف منابعه..

قطع شرودها صوته وهو يجيب على مكالمة والدته بصوت ميت:

- أيوه يا أمي.. أنا هاجي أتغدى معاكِ.. آسف ما رديتش عليكِ قبل كده..

استمع للغو والدته للحظات.. بعدها بادل ريم نظرة غامضة.. نظرة قاسية.. قبل أن يردد:

- لا يا ماما.. أنا جاي.. ما تخليش طنط قسمت تنزل.. أنا بقى لي كتير ما شوفتهاش.. هي معاها رؤى؟..

وعاد يبادل ريم نظرة أخرى.. فهي تعرف رؤى.. وتعرف أن والدته كانت تفضلها كزوجة له قبل زواجه بها هي.. ورؤى هي قريبة بعيدة له.. ذات جمال مميز.. وحظ بائس..

أغلق الخط وهو يكرر على والدته:

- كويس إن رؤى موجودة.. بقى لي مدة ما شوفتهاش.. نص ساعة وأكون عندك..

وضع هاتفه بجيبه ورفع نظراته لريم التي قالت بهدوء يخفي الكثير:

- رؤى بنت حلال.. واختيار مناسب جدًا..

وهروب العاشقين هنا حقيقة لا مفر منها.. حتى لو استغلا أخرى ليداويا جرحًا لا علاج له..



الفصل الثاني عشر

المواجهات معركة حاسمة من معارك الحياة..

الكل يخوضها مرغمًا، تأخرت أو أبكرت!.. لكن من صراعها ينجو الأقوياء وحسب، أو على الأقل القادرون على التحدي والصمود.. يتشبثون بأرض صلبة، يحاربون ويسعون للنصر وربما ينالونه بالفعل..

قليلون يسعون للمواجهة، وأغلبية يهربون منها لكنها تطاردهم كالموت، سيف على أعناقهم لا مفر منه لتحديد نهاية أو مصير..

ولأن النهايات تحددها بدايات قد تكون خاطئة ففي مرحلة ما يحدث الصراع، ينشب القتال، وتتواجه الأطراف المعنية.. وحينها يوضعون أمام الخيار، إما أن تكر.. أو تفر!

وكذلك لأن الحق أحق أن يتبع فمن يولون الأدبار دومًا يخسرون، هزيمة تلو أخرى حتى تختتم الحرب فوق أنقاض نفوسهم الهشة، وغنائم انتزعت من أرواحهم الواهنة.. وربما من سوادها القاتم الذي أجبرهم على سوء اختيار الجانب الذي يركنون إليه..

جانب الشيطان!

والشيطان أشاعوا أنه تلميذ نجيب للأنثى، يدون منها ملاحظاته، يكتسب منها معلوماته ويعمم التطبيق على بني البشر، وهي أنثى تمتلئ بالأحقاد، جاورت إبليس في جحيمه، ولقنته مبادئ التفريق بين المرء وزوجه.. وانطلق كل منهما يفسد ما استطاعت يداه..

الخطوة الأولى خسرتها، والتالية.. لكن الثالثة انتوت فيها النصر، فخسارتين أكثر من الحد الكافي كي تغير الخطط.. وتنتقل بنفسها لخط النار.. جبهة المواجهة!

ماذا إن غير رقم هاتفه!!

الوصول سهل وهي لها حليف جندته بحرفية، وحصلت على رقمه الجديد من شقيقته التي تكره ابنة عمها، أو ربما تحقد عليها.. لا يهم، ما يهمها في هذه اللحظة أن تصل إليه، وتضعه أمامها في معركة لن تنهزم بها هي تلك المرة..

ارتفع رنين هاتفه برقم يعرفه جيدًا، نظر إليه بضيق وأغلق الصوت متجاهلًا تصاعد الصوت لحد مغيظ:

- مين يا عمرو؟

وتدخلت حليفتها بسؤال اصطنعت فيه عدم اهتمام وأجاب هو باقتضاب:

- مش حد مهم.

ابتسمت ساخرة والرنين يعود، مرة وثانية والمخطوبة تتظاهر بالانشغال في زهرة موضوع على الطاولة والشقيقة ترفع حاجبًا بافتعال دهشة.. أمسك بالهاتف وفي ثوان كان رقمها من ضمن القائمة السوداء.. ولتذهب إلى الجحيم..

"ما كنتش أعرف إنك بتحب الفراولة قوي كده!"

قالتها بخجل واحمرت وجنتاها كالعادة وانجذبت عيناه أيضًا كالعادة متناسيًا ما ضايقه، ابتسم برقة قدر ما أمكنه:

- بحبها جدًا.. خاصة لونها الأحمر.

وأخفضت وجهها تعض شفتيها بارتباك، تعلم ما يعينه ولم يرحمها كأنما يكتشف معها عالمًا جديدًا بالكلية، وهذا يعجبه بشدة:

- آه.. زي ما فهمتِ بالظبط.

وتحدت خجلها تحاول أن تلاحظه، تعرف عنه أكثر:

- وبتحب إيه كمان!

حافظ على البسمة والنظرة التي تسللت إليها دهشة لم تخلُ منها نبرته:

- يهمك تعرفي بحب إيه!

هزت كتفيها بعفوية:

- أكيد..

وعادت تفرك كفيها وتهرب من عينيه:

- يهمني أعرف عنك كل حاجة..

نبض قلبه فجأة.. وتخللت نفسه راحة بينما يجيبها بلهجة وشت بسعادة:

- وأنا مش هاخبي عنك أي حاجة!

لم يكن يعلم أن أخته التي تجاور خاطبها في مقابلته مع "آية" تراسل "رانيا" بلا انقطاع عبر تطبيق "واتس آب".. كأنما تجعلها على اتصال دائم بجبهة الحرب، ومع آخر رسالة نقرتها أناملها حملت لها مفاجأة صادمة رسمت على شفتيها بسمة ماكرة وهي تضع هاتفها جانبًا لتناول الطعام..

ما إن انتهوا كان "عبد الرحمن" يحاول التواصل مع شقيق مخطوبته، ويمنح الخجول بسمات متفرقة يسألها عن دراستها ويتجاذب أطراف الحديث مع الكل إلاها المتشاغلة بمحادثاتها عبر الهاتف.. ودقائق وحلت الكارثة..

"عمرو.. مش دي رانيا بنت عم آية!!"

واستدار بصدمة يطالع التي دلفت للمكان بخطوات واثقة وأخته تكمل:

- أهي يا آية.. شفتيها!!

ونهضت متعجلة تجذب يد أخيها:

- قوم تعالى نعزمها تقعد معانا.

وانعقد حاجباه يقاوم جذبة يدها بينما الصغيرة إلى جواره تنظر بدهشة لا تعلم ما الذي تفعله ابنة عمها في هذا المكان.. وحدها!:

- مش هينفع يا نشوى.. أنا معايا خطيبتي وأنتِ معاك خطيبك.

وزفر بضيق ظاهر:

- هتقعد معانا إزاي بس!

مطت شفتيها تحاول اختلاق حجة لكنه استقام يجذب يد مخطوبته:

- عمومًا إحنا كنا هنمشي، وعدت آية ندخل سينما أنا وهي..

وصافح "عبد الرحمن" بود:

- سلام بقى يا دكتور.. متشكر على العزومة.

ونهض في مقابله يمد يده:

- على إيه بس يا عمرو!

ونظر لـ "آية" بابتسامة أنيقة:

- فرصة سعيدة يا أنسة آية.

وعاد ينظر لمخطوبته:

- يلا بينا إحنا برده يا نشوى، لازم أرجع المستشفى أنا كمان!

لكن أثناء الحوار القصير والوادع الأقصر حد الهروب وصلت "رانيا" لطاولتهم تتابع مغادرة "عمرو" القابض على يد "آية" بطريقة أشعلت النار بقلبها.. ابتسمت بحرج وداخلها تتأجج ألسنة اللهب:

- هاي يا نشوى..

والأخرى لم تبالِ، لم ترد التحية.. بل تعكر مزاجها أكثر وهي تنظر لخاطبها بغضب:

- يعني إيه ترجع المستشفى!!.. أنا منبهة عليك تفضي نفسك، اليوم ده عشاني أنا وبس.

بدت صرامة على وجهه تضادت مع رفعة حاجبه الساخرة ونبرته المستهجنة:

- منبهة!!

وتنهد يردف بجدية:

- أنا كمان "متفق" معاكِ يا نشوى إن وقتي كطبيب مش ملكي.

وضغط حروف كلمة اتفاق يخبرها بوضوح أنها تخطت الحد.. وهز كتفيه:

- ده غير إدارة المستشفى.. كل ده ضغط شغل.

وتدخلت المهملة بلا حساب ودون داع:

- إيه ده!!.. هي المستشفى كلها ملكك؟

وانتبهت "نشوى" للنظرة المتلهفة والجشع الفطري الذي غلف نبرتها فاستدارت إليه تحجبها عنه قبل أن يجيب سؤالها.. تدلله برفق:

- طيب يا حبيبي.. خلاص، روح أنت شغلك.. وأنا هاقعد مع رانيا نشرب أي حاجة.

وثقبت أذنه أحرف كلمة غريبة!

حبيبي!!

تجاهلها بتنهيدة أخرى:

- متأكدة؟.. مش عاوزاني أوصلك أو محتاجة حاجة!

حافظت على ابتسامتها تجيبه بنعومة:

- لا.. ميرسي قوي، هاقعد مع رانيا شوية بعدين أروح..

وربتت على كفه المرتكن بها للطاولة برمشة أهداب تعجب لها:

- ما تقلقش عليَّ.

هز رأسه محييًا الاثنتين وغادر بعجالة، وقبل أن تلتفت لها عقبت "رانيا" بانفعال علا له صوتها قليلًا:

- عاجبك عمايل أخوكِ دي؟

استدارت ترمقها بنظرة مبهمة ردت بعدها ببرود:

- معلش يا بيبي.. الرجالة بيتخنقوا لما يلاقوا الست..

وصمتت لحظة تعض شفتها السفلى وتهز كتفيها بينما عينا الواقفة بمواجهتها تضيقان بانتظار:

- لما يلاقوها بتجري وراهم.

وفهمت الحية تلميحها!!

فحليف الشيطان لن يكون أقل منه إدراكًا واستيعابًا لشرور النفوس، لأنه حينها فقط: يجيد استغلالها على الوجه الأمثل..

***

"ممكن أقعد؟"

وتلك مواجهة إجبارية تبعًا لخطأ لا يعلم سببه للآن!



أحيانًا يسكننا عفريت غضب غير مبرر، يدفعنا لارتكاب الأخطاء، ولأننا لا نفهم حينها ما قمنا به أو نستنبط حتى دوافعنا نشعر بحيرة قد يطول وقتها فنفقد خيوط الاعتذار..

لكن الشجاعة هنا هي في مواجهة ذلك الخطأ، الاعتراف به.. وتحمل تبعاته، وهو يتسم بها حد الكمال، لم يهرب يومًا من معركة، بل كل معاركه خاضها بشرف وصلابة وانتصر.. في معظمها على الأقل!

لفت وجهها دون رد فابتسم بتفهم وجذب مقعدًا جاورها به، وحملت نسمات الهواء إليها همساته الدافئة بنبرة عميقة:

- هي الأنثى تباريحٌ من الوجدِ

لهُ الأوجاعُ قد صلَّتْ

لهُ أرواحُنا صامتْ

هي الأنثى شموخٌ ما لهُ حدٌّ

فمَنْ سيلومُ نَرجسَةً

إذا غضِبَتْ

ومَن سيلومُ لؤلؤةً

إذا يومًا على أوضاعِها ثارَتْ؟

قاومت ابتسامة تقاتل للظهور فوق ثغرها ولمح مقاومتها فعاد يميل ليواجه عينيها الهاربتين منه:

- آسف.

والصمت هو جوابه من جديد، ناداها بخفوت:

- لارا.

منحته نظرة جانبية واستسلمت لانفراج شفتيها ببسمة ناعمة تعاتبه دون وضوح:

- عبد العزيز جويدة برده!

رفع حاجبًا وهز كتفيه كأنما هذا هو ما يملكه:

- بيعبر عن قصدي أحسن مني.

تنهدت وسكنت قليلًا قبل أن تعود إليه بناظريها والجدية تعلو ملامحها:

- نديم.. دي تاني مرة تتكلم معايا بالطريقة دي، بتحسسني كأني...

ولم تكمل، فهم مقصدها فشعر بغضب من نفسه، لا يدري ما حدث له وقتها!.. يخاف أن يضع ما شعر به في موضعه الذي يخمن صحته فتنقلب الأمور وتخرج عن سيطرته، بينما هو في غنىً عن ذلك.. الآن أو حتى مستقبلًا:

- لارا.. أنا عارف إني قلت كلام مش تمام، التعبير خانني، بس..

وبمَ يبرر إن كان لا يجد لنفسه مسوغ انفجار الغضب ذاك!:

- سامحيني.. بجد آسف!

ويلاحق ردها بالمنع رنين هاتفه برقم زوجته، رمقه بدهشة وأجاب ليجدها تخبره برحلة مع الصديقات إلى الغردقة، والآن.. ومع رده ووداع معدود الأحرف ارتفع حاجبا "لارا" دهشة قاربت الذهول، عاد ينظر إليها ليجد وجهها المستغرب فابتسم بأريحية:

- إيه!.. مستغربة ليه كده؟

أشارت للهاتف بحرج:

- يعني.. أصل.. هو كل أموركم بتقضوها بالتليفون!

ثم تراجعت بوجنتين محمرتين:

- آسفة إني باتدخل.

وعاجلها برقة:

- لا خالص.. عندك استعداد تسمعي حدوتة!

برقت عيناها بشغف فابتسم وانطلق يخبرها عن "نديم" الشاب الإقليمي المتحفظ الذي نزح للقاهرة لاستكمال تعليمه العالي، وهناك قابل الفتاة

المتحررة الفاتنة التي سلبت لبه وذاك لها حق، مشاعر بينهما ولدت.. نمت.. ثبتت جذورها بقلبه الخصب الذي تمناها، وهي بالمثل..

كان يعلم أن أهله لن يتقبلوها، وربما أهلها كذلك.. فاختار البعد!

لكن أمام سلطان الغرام لا نملك سوى الخضوع، خضعا وسلما للحب، حاربا أهليهما لتكتمل قصتهما بزواج كان هو الهدف والمقصد..

تذوقا السعادة وعاشا في تبات ونبات أشبه بحكايا الأطفال، لكن منذ متى عمر الهناء يطول؟.. خاصة مع اختلافات لم تلحظها العين أو تنتبه لها الأنفس إلا بعد القرب!!

هو متحفظ لا يقبل بتحررها، وهي منطلقة تجد جموده طوق خانق يقيد عنقها..

وبدأت الخلافات تطفو إلى السطح، تدرجت حتى اشتد أوجها.. لا ينكر محاولاتهما معًا تخطيها، تجاوزها والتغاضي عنها بل والتغلب عليها.. لكن وإن اندفنت فهي تبقى أسفل قشرة واهية ووهمية لا ينقصها سوى محفز لتنفجر بوجه قصة ظناها الحلم.

وحانت لحظة المصارحة!



هذه الفوارق بينهما لن يسهل التعامي عنها، بل لن يجوز.. ستظل تظهر بوضوح أمام أعينهما حتى يسلما بوجودها وحينها ستأتي النهاية.. ولأن كل منهما يرفض خاتمة كتلك ظهر اتفاق يلائمهما بالأفق..

الحب لم يتغلب على الفروق، ليسا مستعدين للاعتراف بالفشل بعد حرب ضروس خاضها كل منهما ليكونا معًا.. لذلك فتلك البوتقة التي يعيشان سويًا بداخلها ترضيهما لحد كبير.. سمِه شبه زواج، حصانة أو علاقة تمنح كل منهما شيء ما يسعى إليه..

وبما أنها ترفض لفظ "مطلقة".. ومعه ستعيش بحرية أكبر؛ فبداخله اعترف أنه يدين لها بذلك..

لقد تركت عائلتها بالقاهرة لتنتقل إلى محافظته بعد الزواج، وسبب آخر أغمض عينيه عنه يحتفظ به لنفسه دون بوح وإن تغضنت ملامحه بألم طفيف حرص ألا تراه..

وختم حديثه بابتسامة عذبة بسيطة:

- بس.. دي كل الحكاية، ومن وقتها وإحنا مكملين.

عجزت عن رد مناسب.. هذه ليست حياة طبيعية، وهذا ليس زواجًا، لكن من هي لتتدخل!..



همست له بكلمات أشبه بمواساة دون تعليق حقيقي، ثم نهضت تغادره لا تلحظ متابعته لها بعينين تحملان أمنية.. لكن يخرسهما الواقع على قسوة صخوره بذكرى.. ذكرى لا علاج لها!

***

أحيانًا تكون المواجهة رفاهية بعيدة المنال، لا تطالها الأيدي، ولا حتى تتجرأ على المرور بدروبها الأحلام.. تبقى حبيسة أمنية غير منطوقة، وماضٍ لا نملك معه إلا الهروب بذُل..

وحتى ذلك الهروب لحقت بنا أذياله بعده، فلا هو أصبح مجرد ذكرى، ولا استمرينا بالعيش فيه، ولذلك فشجاعة التحدي والصمود فوق طاقة الاحتمال وخلف حجب ظلمة الخيال..

وهي رغم كل شيء، رغم طاقة صبر لم تنضب بعد.. وربما أبدًا لن تفعل، رغم رد فعل دفاعي تلقائي بالصمت والخنوع حتى لو نالها الأذى، ورغم أمل فقدته لأجل من تحب.. رغم ذاك كله لا تمتلك قدرة على الوقوف، الاقتراب من خط النار، إظهار الماضي المختفي بخلفية صورة توحي كذبًا بما لم يكن!



ما بها إن رفضت، وما عليها إن وافقت!.. في جميع الأحوال هي خاسرة، وحيدة دون سند، خاضعة لسلطان حياة تقنع نفسها أنها قدر لا مفر من الخوض في لُجته حتى لو كانت نهايتها الغرق!

أغمضت عينيها بتنهيدة بطيئة، كذلك رفاهية الأفكار باتت ممنوعة والصمت هو الحق الوحيد المشروع في ظل زوج يرفضها بل يكرهها، وأخوين فقدتهما وإن كان لأجلهما..

استدارت تضع آخر طبق بيدها على طاولة جانبية لتصطدم بالعائدة من الخارج تتقافز شياطينها على وجهها دون لجام، تبحث عن كوب ماء بارد تخمد به الحريق في صدرها.. وسقط الطبق ودويّ حطامه أفزعها فانتفضت لتصرخ الأخرى بهجوم:

- أنتِ إيه؟.. عميا!.. كل شوية تكسري حاجة!

واندهشت "سمية" وعلا ملامحها وجوم غير مفسر.. لم تمتلك ردًا مقابل تلك الحرب التي أعلنتها "رانيا" بلا مبرر ولم تمنحها هي الفرصة بل أردفت باحتقار:

- غبية وهتفضلي طول عمرك غبية مهما اتجوزتِ ده ولا ده.. إوعي تفتكري إنك هتبقي حاجة في البيت ده.

"رانيااااا!!"

وزعقته شلَّت جسدها، لا بل جسد زوجته أيضًا التي قفزت من مكانها وهو يقترب، عيناه تبثان النار، أنفاسه عالية لاهبة وبدا وكأنه على وشك أن يقبض على عنقها حتى تفارق الحياة:

- أنتِ اتجننتِ؟..

واجهها بقسوة بينما يجذب المتجمدة في ذهول خلف جسده بحماية:

- إزاي تكلميها بالطريقة دي؟.. إزاي تزعقي لها أصلًا؟

وضم يده كأنما سيلكمها لكنه تماسك بصلابة، زفر بحنق واستدار للمختبئة يمسك بكفها ويسحبها ورائه خارجًا من المكان والحقود استعادت رباطة جأشها لتلاحقه ساخرة:

- من إمتى الحنية دي؟.. صحيح رجالة مالهاش أمان.

وتوقف للحظة، يفهم مغزى حديثها المسمم، لكن عقله نحَّى الأمر برمته جانبًا وتشبث بغيرها..

وحدها من تمتلك بحياته الصفة الشرعية التي تمنحها الحق فيه دون سواها، التفت يرمقها بسهم نظرة مميتة قبل أن يحادث زوجته:

- ما تنزليش بيت العيلة تاني إلا وأنا معاكِ.

وعاد يلقي نحو "رانيا" نظرة مستخفة:

- البيت كله بنات يقدروا يقوموا بشغله.

وتحولت النظرة لمحتقرة شملتها من رأسها حتى أخمص قدميها بملابس دلت على عودتها للتومن الخارج:

- بدل اللفلفة في الشوارع طول النهار.

وكادت تزمجر بغيظ ترد عليه كما ينبغي لكنه غادر بسرعة متمسكًا بيد "سمية" التي لا تقترب كلمة انشداه من وصف حالها، وبمنزلهما أوقفها يكرر بحزم آمر:

- زي ما قلت لك يا سمية.. ما تنزليش تحت.

وزفر بسخط يستعيد الكلمات المهينة التي ألقتها ابنة عمه على مسامع زوجته دون حق:

- تقعدي في شقتك.. مش هتخدمي حد، فاهماني؟!

ونظرتها إليه أخرسته، كانت غير مصدقة، ممتزجة بخوف طفيف واضح لعينيه وشرود أخبره أنها ربما تفكر في شيء آخر يجهله، وكم كان على حق!

نعم هي تتذكر زوجها، أخيه الراحل الذي طالما أهانها، سبها، ضربها ثم يعود إليها محملًا باعتذاراته، تقديم فروض الحب والأسف.. تنخدع



وتصمت وتمرر الأمور وتعاد الكرة مرة تلو أخرى دون توقف ودون قدرة على ردعه..

أتراه مثله!!

سؤال أغمضت عينيها تهرب من جوابه الذي تجهله وهو فاجأها بسؤاله الخاص، بحيرة امتلأت بها نبرته، وقلق أن يكون على صواب بالفعل.. فتتشوه صورة من رحل بلا فرصة دفاع عن نفسه:

- أنتِ ليه كنتِ فاهمة إني هاضربك يا سمية؟

وتجمدت حقيقةً لا مجازًا، أي سؤال ذاك وهي لم تعتد سوى جوابه!!

لم تنتبه لصيغته قدر كلمة "ضرب" التي اخترقت عقلها وقلبها معًا كرصاصة طائشة انتقت الهدف الصحيح وياله من تناقض!.. كلمة ارتبطت معها بزوج ظننت فيه الخير لتنقلب حياتها معه لجحيم أبدي لم ينتهِ إلا بموته لتنتقل بعده لجحيم آخر.. وليت لديها الخيار..

رنين الذكرى علا بأذنيها رغم قتامتها، غابت عنه وتأملها هو صامتًا كأنما يترك لها حرية اجترار ما مضى، مواجهة ربما.. أو حتى ردًا على سؤال يرتعب من مجرد التفكير في جواب يسمعه عنه!

"أنا هاطلب الطلاق!"



"ما بقيتش قادرة أتحمل"

"سعد عنيف.. كل مشكلة عنده حلها الضرب"

كانت هذه كلماتها التي ألقتها على مسامع شقيقيها حين فاض بها الكيل حد أنها خافت على حياتها معه، ظنت أنهما السند.. هما من سيؤازرانها، يدعمانها.. رجلها الصغير وتوأمته التي دفعت من أحلامها الكثير لأجلهما.. لكن رد الشقيقة أتى مخيبًا للآمال:

- تطلقي يا سمية!!..

قالتها بدهشة مستنكرة تمازج بها غضب لا معنى له:

- أنتِ بجد أنانية ومش بتفكري إلا في نفسك.

وألصقت بها تهمة حب الذات وتوأمها يتمم حديثها بنبرة جافة خشنة:

- هنعيش منين يا سمية!!.. أنتِ ناسية إننا عايشين في بيت جوز خالتك؟

ودافعت عن حقها في الحياة باستماتة، تتشبث ببريق أمل قبل أن تخبو شرارته الأخيرة:

- أنا هاشتغل وأصرف عليكم.

وعاجلها مرة أخرى يثبط من عزيمتها:

- وتعليمنا؟.. ولا عشان أنتِ ما كملتيش تعليمك عاوزانا نبقى زيك!

وتعود توأمته لتمسك بآخر خيط من حديثه:

- أنا مش فاهمة أنتِ بتفكري إزاي؟.. هتشتغلي بإيه أصلًا يا أم ثانوية عامة؟

وطعنتها الكلمة لكنها لم تكن آخر طعنة، لأن "أمنية" نهضت تقترب منها.. تنظر إليها باستهجان كأنها فقدت كل حق بالحياة وأصبح هذا هو أقصى أمانيها:

- احمدي ربنا إن سعد راضي بيكِ، إيه يعني قلم ولا خبطتين؟.. ما هو معيشك في نعيم ما تحلميش بيه!

ودارت حول نفسها وأخيها يرمق الصامتة بسخط:

- بعدين فهميني كده.. تقدري تقوليلي لو اطلقتِ من سعد؛ إزاي أنا هاقدر أتجوز حمزة!!

وتصنعت ودًا لا يليق بنبرتها الباردة:

- ارضي بنصيبك يا سمية.. سعد راجل طيب.

وأفاقت من ذكراها على تكرار سؤاله وإن اختلطت به دهشة هذه المرة، وكررت هي الأخرى ما علق بعقلها من بقايا ذكرى أبدًا لا تمحى:

- سعد راجل طيب.

وتحركت مغادرة نحو غرفتها، وانعقد حاجباه!!

هو لم يذكر أخيه فما الذي تردد على لسانها قبل قليل!!.. لا، هو لا يصدق، لا يمكن أن يصدق!!

"سعد" شقيقه الصغير، مدلل العائلة، المرح دومًا والمقبل على الحياة.. لا يمكن أن يؤذي زوجته حد ضربها، حتى لو وقفت أمامه ترتجف خشية قبضته الطائشة، حتى لو دمعت عيناها واختبأت برأسها بين كتفيها كطفلة مرتعبة، حتى لو انكمشت على نفسها ورسم ملامحها الذعر والهلع..

لا.. هو لا يمكن أن يصدق!

واستعاد تتابع مشاعرها على وجهها قبل قليل، شرود.. تيه.. ألم.. خنوع بائس مهزوم قبل أن تخبره عن طيبة زوجها الراحل..

الآن بالدليل..

هل يصدق!

***

البعض يرون أن الهروب رغم سهولته أحيانًا بل وكونه الحل الأمثل حين العجز؛ ليس هو ما يريدونه، أو ربما جربوا مذاقه لكنه كان علقمًا زاد من ضيق أنفسهم ومرار أفكارهم وحزن قلوبهم..

لذا فالخيار الأصح هو مواجهة؛ يعلمون بنهاية الأمر، طال الزمان أو قصر أنها محسومة، ستحدث برغبتهم أو دونها.. لذلك يسهلون على عقلهم اتخاذ القرار ويوفرون الوقت والمط فيه، فيقومون بها كخطوة واسعة ووحيدة..

ومسعاهم قد ينجح!

تحدث المواجهة على أرض صلبة، كل طرف يلقي بما في جعبته، ينتهي الأمر لصالح أي منهما وتحل المشكلات وتعود الحياة لروتينها الثابت.. لكن ماذا لو فشل!!

بل ماذا لو خطا نحو الجبهة، وقف صامتًا أمام عينيها، واستكانت هي لنظرته المعاتبة، وتعثرت الأحرف في هوة اليأس!.. فلا هي نطقت لتحرقه من جديد، ولا هو عبر عما يخافه!!

لم يدُرك كل هذا بخلده وهو يتخذ قرار العودة إلى منزله، كل ما فكر فيه أنه لن يتركها.. البعد بينهما موجع ويصنع حاجزًا لن يصبح من السهل تخطيه لو سمح له بالتواجد مفرقًا كلاهما، لذا عاد.. وبعدما عاد اكتشف أن السهولة التي تصور الأمور ستسير بها هي عبث..

فقط عبث!!

فها هو يقف قبالتها، لا ينطق ولا هي تنطق، وبعد لحظات تهربت بعينيها ليعقد حاجبيه ويتخطاها نحو غرفة جانبية تمنى يومًا أن يسكنها أطفاله.

أغلق الباب من خلفه وفكك أزرار قميصه شاعرًا باختناق يجثم على أنفاسه.. رمى بجسده فوق الفراش وزفر بحرارة يبحث عن النوم..

وكانت هي تبحث مثله، ويجافيها، يعاندها كما تتصارع معها أفكارها ومشاعرها الحائرة.. والخائفة للغاية!.. تبًا لها كيف تفكر؟

عضت شفتيها بقهر وهي تضم جسدها في وضع جنين فوق موضعه من فراشهما المشترك، تتشمم بقايا عبيره الذي لم يرحل بعد، تستكين لدفئه الذي سكنه يومًا، وتهمس لوسادته بحلم تتحرر فيه من مخاوف ماضيها التي تخنقها حد الشلل التام.

وتعود لتدور في دوامة العقل والمنطق و.. سعادته!

هي نصف امرأة.. بل هي أبدًا لا ترقى لذلك الوصف، وهو رجل يستحق الأفضل، يستحق السعادة والراحة.. وإن كان تحقيق ما يستحقه على حساب قلبها، روحها وكيانها المعذب بأرض غرامه فلن تستكثرهم جميعًا عليه، ستمنحهم طواعية حتى لو احتفظت لنفسها أو تكرم هو عليها بركن صغير مختبيء بحياته..

فقط لا يطردها منها!!

بل حتى لو أوجعته؛ فأحيانًا نحتاج لبعض الألم كي نفيق من حلم ظنناه ملكًا لنا، نحتاج لوخزة شوكة توقظنا من غيبوبة لن نخرج منها إلا بخسارة،

نعوز عصرة قلب ظن أن الحب هو ملاذه وموطنه.. لكنه صحا على واقع كونه.. أبدًا لا يكفي!

هي توجعه.. لتسعده، ويالها من مفارقة متناقضة خارج حدود المعقول!

تقلبت بفراشها تسعى بحثيثية بحثًا عن نعاس رفض زيارتها، تنهدت وتعلقت عيناها بالسقف تفكر فيه، يفصل بينهما جدار.. وبين قلبيهما ألم، وبين روحيهما حاجز اصطنعته هي.. أما بين عقليهما فربما كانت الشفافية أكبر..

لقد كان يفكر بها، كما تفكر فيه!

وبينما كانت هي تبحث عن وسيلة لسعادته ولو الثمن قلبها وقلبه؛ ظل هو يتدبر طريقه لاستعادتها.. هي من يريدها، من يعشقها ويرغب أن ينتهي معها رغم غلظة وعنف ما فعلته به!

يفكر بأيام مضت، يوم استجاب لدعوة ظنها مصالحة ليجدها لسعة جديدة من نيران قسوتها التي لا يفهمها للآن..

لقد أحضرت له امرأة أخرى بمنزلهما معًا تشير بها عليه كزوجة.. تشاركها فيه!!



كيف استطاعت أن تفكر بغيرها معه!.. يمنحها منه ما منحها إياه سابقًا!.. يتملكها وتمتلكه!.. وهي تراقب في السر بقلب كسير.. هذا لو انكسر حينها حقًا!!..

لذوعة وحدة كلماتها تجبره على التصديق أنها لم تحبه يومًا، أن العشق الذي تغنى به وصدح به خافقه كان من جانبه هو فقط، كان محض مزحة، وهمًا.. خيالًا لا يجوز للواقع أن يلامسه!

وحين غادرها عائدًا بجنون الغضب لمنزل أمه لم يعِ حقًا ما كان يفعله، لكن الأم كانت تخطط، والقريبة وابنتها الجميلة كانتا بانتظاره..

تذكر "رؤى"!!..

بعسل عينيها اللامح بشجن يعلم سببه، خجلها الذي اعتاده في حضوره.. فقد كانت نصيبه المختار من قِبَل والدته ذات مرة.. وحظها العاثر الذي أبعد عنها الخاطبين..

الشابة التي عقد قرانها على رجل من أصل طيب وبعدها بأيام توفاه الله لتلصق بها تهمة "النحس".. أرملة صغيرة لم يمسها رجل، وأمه تراها في الخانة المناسبة له.. "زوجة ثانية"..

وأيضًا للمفارقة المثيرة للسخرية.. زوجته تراها بنفس الخانة، وتحثه على الاقتران بها!

نهض من الفراش محمومًا يود لو لكم الجدار ليفرغ فيه غضبه، خلع قميصه وفتح النافذة، واجه الهواء بصدره العاري علَّ برودته تطفيء شيئًا من لهيبه أو تخمد بعضًا من تلك الجذوة التي تحرقه ببطء.. رفع عينيه إلى السماء يتأمل ظلمتها الكئيبة.. فلا نجوم ولا قمر، تنهد بحزن:

- يارب.

تمتم بها بنفس ضاقت عليها الأرض بما رحبت، لقد استنفذ كل الطرق التي يمكن أن يسير بها مقتربًا، ولايزال يحاول.. ولاتزال ترفض وبعنف!

عاد للداخل بفكرة جديدة تولد، الاستسلام لم يكن يومًا من شيمه، قوته نابعة من إصراره على الفوز.. ولعبة الحب هي مجرد لعبة أخرى، فقط عليه أن يختار الوتر الصحيح ليعزف عليه وحينها ستعود إليه..

ومن خلف ركام أفكاره المتضاربة عنفته رجولته، زأر في وجهه عقله وزعقت به كرامته:

"تريد عودتها!!.. وكيف ستلمسها أو حتى تقترب منها بعد قسوة كلماتها التي وجهتها لصدرك بعمد!"

وصرخ هو فيهم جميعًا.. لكل مقام مقال!.. تعود إليه أولًا وحينها سيرى!..



وبين حيرة امتزجت بروحه.. وكيان عاشق لا مفر من عشق أشبه بشبح يطارده؛ لم يجد وسيلة سوى الخضوع له، والقرار اتخذه قبل أن يعاود اقتناص النوم مجددًا:

"سيحدد لها موعدًا مع طبيبة نفسية.. وليكن ما يكون!"

في الصباح تقابلا.. الهالات السوداء تطوق أعين كلاهما، تدلل بوضوح على أرق نال منهما معًا، وفي داخل المقل المتلاقية قسرًا بات هناك انكسار.. عتاب، وشيء من ألم ربما أبدًا لن يبرأ!

***

والمواجهات قد تكون مثل أرجوحة.. تصعد بك لأعلى ثم تنخفض بسرعة، لعبة ممتعة يتلاعب طرفاها بمهارة، أو على الأقل أحدهما يعلم أنه يمسك بكل الخيوط..

وكل مواجهة كذلك لها فتيل، وإشعاله ليس بالمهمة الصعبة إن علمت السبب من البداية، وفتيل مواجهة بين شقيقين كان شقراء فاتنة بلسان عذب الحديث تتغير لهجته تبعًا لحالتها المزاجية..

شقراء كلاهما يتقرب منها بطريقته، وواحد منهما يرى الآخر تهديدًا ربما!!



لذا اختار الطريق الأقصر، أو ما ظنه الأسهل.. وقف أمامه بمكتبه، بعد انتهاء موضوع ممل عن العمل ومصالح العائلة وانتقل إلى موضوع أكثر إثارة حتى لو لم يكن من شأنه:

- أنا ملاحظ اهتمامك الزايد ببنت عمنا يا بوص!!

ومال مشيرًا بغمزة يتظاهر بها بالمرح:

- مرة فسحة في مزارع العيلة، ومرة الاسطبلات..

وضحك بسماجة:

- لا وكمان فرسة مخصوص عشانها!

والتوت شفتاه ببسمة خبيثة:

- هو إيه النظام!!

وأخيه الأكبر نظر إليه بغموض، بادله البسمة وأجاب باقتضاب:

- نظام إيه يا عماد!.. بنت عمنا زي ما قلت، باعرفها على ناسها وأرضها.

ولم يصدق بالطبع!..

نهض ينظر خارج الجدار الزجاجي الذي يحتل جانب غرفة المكتب المطلة على حديقة المنزل:

- بجد!!.. يعني كل الحكاية إنها من العيلة؟

وتبعه.. وقف يجاوره واضعًا يديه بجيوب بنطاله، لم ينظر إليه بل اكتفى بجملة قصيرة والنبرة جدية:

- ما تشغلش بالك بيَّ.

ثم رمقه بنظرة جانبية لائمة:

- انشغل أحسن بخطيبتك اللي أنت أهملتها من يوم لارا ما رجعت.

وانعقد حاجباه غضبًا ظهر بلهجته الحادة:

- هي اشتكت لك ولا إيه؟

استدار يواجهه بحسم:

- مش محتاجة تشتكي يا عماد، أنا ليَّ عيون شايف بيهم أنت بتعمل إيه!

وزم "عماد" شفتيه بضيق ظاهر، هز رأسه دون أن يعقب وخرج من المكان باندفاع نحو باب البيت الخارجي، أوقفه صوتها الناعم باسمه، استدار إليها ونظرته جمدتها قبل هتافه المتأفف:

- نعم يا هبة!!.. عاوزة إيه من زفت؟

دمعة ترقرقت بعينيها لا تفهم لمَ يخاطبها هكذا بلا سبب!.. بل لمَ تغيرت معاملته؟.. واكتنف قلبها خوف والدوافع عدة:

- في إيه يا عماد؟.. أنا ناديت عليك بس!

زفر بضيق أوجعها:

- أنتِ رايحة تشتكي مني لعادل يا هبة!

تراجعت بقلق:

- لا طبعا.. أشتكي له ليه!

ومنحته نظرة لائمة بها عتاب جريح:

- هو أنت كنت زعلتني في حاجة؟

وأخرجت شياطينه بحديثها كأنما تثبت على نفسها الاتهام:

- يعني اشتكيتِ له فعلا!.. ماشي يا هبة، ابقي خليه ينفعك.

وفتح الباب، خرج منه وأغلقه خلفه بعنف ليطلق بسخطه غير المسبب دموعها، ويحرر قلق أمه وأمها من عقال سيطرة وخداع نفس.. أن الأمور ستكون بخير..

ولم يلحظ الجمع عيني "عادل" المراقبتين، انعقاد حاجبيه شبه الغاضب، أو نظرته الغامضة التي تشي بكل شيء.. أو لا شيء!

***

وعند البعض.. الهروب فعليًا فرض عين!



لا مواجهات جائزة، ولا مجابهة متاحة.. ولا قدرة عليها.. بل الفرار هو الحل الأنسب وربما الأسهل، لأن الصدام بعده وضع قد لا يستطيعه الشخص أو يقبله حتى لو كان في صالحه..

ومهما حاولت هي المواجهة، كان هو أستاذًا في التهرب منها، الالتفاف حولها، والعودة لنقطة الصفر دون مراعاة لها أو ما تعانيه!

ونقطة الصفر دومًا تحمل لها الأوجاع، تسامح، تغفر.. تمرر المشكلات.. لا عتاب أو إصرار، حتى يأتي محفز جديد فتعود للمحاولة ويثبطها هو كما في كل مرة..

واليوم هي وزوجها وأخيها بصحبة زوجته بمنزل أمها على دعوة للغذاء.. دعوة تمنت بعد وصولها لو تهربت منها حتى لا تواجه ما تراه بعينيها الآن حد الغبطة.. حد القهر.. حد الاشتياق!

شقيقها الذي لا يكاد يرفع يديه عن زوجته، بطريقة لطيفة لكنها تؤلمها هي بينما ترى زوجها يتشاغل بأي شيء وكل شيء عداها.. حتى وإن شعرت بالسعادة لأجل "بسمة" و"صلاح" الذي من الواضح أنه تخطى حواجز الماضي سعيًا نحو حياة أكثر أملًا!

"بسمة معلش كوباية عصير من إيديك بقى على ما الغدا يخلص"



كان ذلك صوت أخيها بابتسامة محبة استجابت لها بترحاب، نهضت نحو المطبخ لتكتشف "حبيبة" أنها مجرد حيلة لينفرد بها حينما تبعها مشيرًا بمرح:

- هاقولها تزود سكر.

وتبعها.. وابتسمت بانكسار وسعادة أمها واضحة على ملامحها.. ألقت بنظرة للمتظاهر بانشغال وأغمضت عينيها، سمعت ضحكة مكتومة قبل أن تظهر "بسمة" شبه راكضة وخلفها "صلاح" يحمل كوبه وعلى وجهه بهجة أثلجت صدرها فرحة بعودة أخيها للحياة..

وعلى مائدة الطعام لم يخلو الأمر من مزاح، ولمسات كانت تعلم عن يقين أنه يداعب بها زوجته بعيدًا عن الأعين مستغلًا الطاولة.. وجهها المحمر الذي يكاد يتفجر بالدماء، تحشرُج صوتها وحتى اللقيمات التي غصت بها ليبتسم هو ويلاحقها بكوب ماء..

وهي جامدة!

جامدة في كل معالم جسدها وروحها كمثل الجامد إلى جانبها، حديثه معها سطحي، لا يمنحها نظرة شغف تشبه ما تراه قبالة عينيها، لا يبتسم إلا بحدود، ولا تتغير حتى نبرته بما يناسب الموقف.. هو فقط مجرد لوح من الثلج..

اشتعلت نفسها فأنهت طعامها دون أن تبتلع منه الكثير، ونهضت باعتذار سريع:

- هادخل أرتاح شوية يا ماما..

وعادت لغرفتها القديمة دون أن ينال منها ولو نظرة.. بل أدارت ظهرها وغادرت تعتصر جفنيها تمنع دمعة تعلقت بأطراف أهدابها تتحداها الصمود في مواجهتها..

دخلتها تتأملها بحنين.. بذكرى تقتحم عقلها عن طفلة.. فتاة.. شابة، كانت أحلامها وردية.. لها فارس كما لكل من تشبهها، لها أمنية.. ولها مستقبل خططت له مع من حلمت به!!

وعند أول لقاء مع الواقع، انشرخت الصورة، وفي كل يوم تزداد الشروخ حتى ضاعت منها ملامح رسمتها بإتقان ثم انمحت بحياة حقيقية كانت هي قدرها..

والآن.. لم يعد من السهل ترميمها، فكل شرخ جديد يوسع من هوة الآلام التي تدور حولها في طريق ضيق، تنتظر فقط لحظة السقوط وعندها لن تقوم لها قائمة!

جلست فوق فراشها الصغير تتحسسه ببطء.. شعرت بأنفاسها تضيق ووحدة تثقل روحها فأغمضت عينيها لتطلق العنان لبعض عبرات تريح قلبها المهموم..

وفي الخارج كان "صلاح" منشغل بحديث لا يستمع لمعظمه مع زوج أخته ونظراته منصبة على زوجته التي بدت جذابة بحمرة وجنتيها وهي تهرب من تأمله لها..

فجأة وجه لها حديثًا دون إنذار مسبق:

- باقولك يا بسمة.. كان في ألبوم صور بتاعي في الجامعة، هتلاقيه في أوضتي في درج المكتب.. هاتيه أنتِ ما شفتيهوش قبل كده.

نظرت إليه بدهشة.. قبل أن تبتسم وتهز كتفيها باهتمام:

- أوك يا صلاح.

وبعدها بدقيقة وجدته خلفها، يلتصق بها، يحيط خصرها بكفيه وينحنى إلى عنقها بتوق:

- أنتِ صدقتِ!.. دي مجرد حجة.

استدارت في طوق يديه تراقب الباب الذي تركه مواربًا من خلفه، تدفعه برفق خجول:

- صلاح ما ينفعش كده.. إحنا عند مامتك وأختك وجوزها في البيت.

لكنه قاطعها بقبلة مشتاقة:

- وحشتيني يا بسبوسة.. تصبيرة بس.

وقبل أن ترفض أو تتمنع كان يدفعها نحو الجدار، يسند ظهرها إليه بلطف شغوف ويحبس كل اعتراضاتها بشفتيه، دفعة واهنة وثانية تلاها استسلام ويداها تستريحان فوق صدره، وخرجت من صدرها آهة خافتة بينما تمنح نفسها حق الدلال بين ذراعيه..

وحين الغياب في دنيا العشق.. لا تنتبه لمن حولك، كذلك هما لم ينتبها لتلك الأعين المراقبة من خلف باب شبه مغلق، مراقبة بتمعن.. بحسرة.. بافتقاد!

ووعت لنفسها قبل أن تبتعد، تغلق عينيها.. وتكتم شهقة بكفها فوق شفتيها..

"هل انحدر بكِ الأمر حبيبة لمراقبة لحظة خاصة بين أخيك وزوجته!"

رباه!!.. لقد وصلت إلى الدرك الأسفل من إهانة روحها وقلبها وأنوثتها بالفعل، وأنَّى لها من عودة بعد ارتطامها المدوي بالقاع!



واتخذت القرار.. هذه ليست حياة تتمناها أي أنثى، بل هو موت تئن بآلامه وسبيل الخلاص واحد ومعروف، عادت لمنزلها معه.. دقائق غابتها في غرفة نومهما قبل أن يتبعها ليجد المفاجأة:

- إيه اللي أنتِ لابساه ده يا حبيبة!

ونهضت من مقعدها أمام طاولة الزينة:

- أنت شايف إيه؟

ابتلع لعابه ببداية غضب، تحرك نحو خزانة الملابس وفتحها يقلب فيها بتوتر:

- مش اتفقنا ما تلبسيش الحاجات دي!!.. يلا غيريه.

وهو يبعد عينيه عن جسدها المكشوف بإغواء في مواجهته من خلف غلالة رقيقة لا تكاد تستر الكثير.. وكانت مواجهة أخرى يفر منها كفراره من الموت، لكنها هي من عاندت.. وانتهى الأمر بحدة نبرتها:

- مش هاغيره يا نبيل.

وعلا صوتها أكثر حد زعقة:

- أنت اللي محتاج تتغير.

وتماسكت تدعي صلابة بينما هي على وشك الانهيار:

- لازم نتكلم في اللي بنهرب منه.

وتعرق جبينه وازداد ارتباكه وزاغت نظراته:

- مين.. مين بيهرب يا حبيبة!

واجهته وقبلها واجهت نفسها معه:

- أنت.. أنت بتهرب مني، من إنك تكون قريب مني.. وأنا باهرب من مواجهتك، من إني أطالب بحقي.

رجفة سرت في جسده ولمحتها، لكنها اكتفت والصبر قد بلغ مداه وهو لايزال يبرر ولا يملك غير سخافة المبررات:

- أنا قريب منك يا حبيبة.. القرب مش معناه اللي أنتِ بتطلبيه ده بس.

وردت بنبرة محبوس بها الدموع:

- والقرب برده مش عربية وهدايا غالية وأنت حارمني من أبسط حقوقي كزوجة.. من أبسط حق لأنثى؛ إنها تكون أم.

واقترب خطوة لم يزد عنها.. يتوسلها التفهم ويستجديها العودة لشرنقة يأبى الخروج منها:

- أنا ابنك يا حبيبة، أنتِ قلتِ لي كده، ولا نسيتِ!



وانسابت دمعاتها قهرًا وقلبها يردد بين ضلوعها "لا فائدة".. وروحها تهتز بوهن:

- لا يا نبيل.. أنت جوزي.

ورفعت إليه عينيها بعجز:

- عارف يعني إيه جوزي؟

ولم يحتمل.. كلا لم يفعل، وكأن من حقها تأنيبه وتوبيخه وهو مجبر على الصمت.. كلا، هي لا تدرك حجم الألم أو حتى ما يمر به، ولفقدان سيطرته خرج صوته عاليًا محتقرًا:

- في إيه يا حبيبة!.. من إمتى بنات الناس المتربية بتفكر كده؟

ودار حول نفسه بعصبية:

- أنا اللي أعرفه إن الرجالة هي اللي بتفكر في الغريزة.. إنما...

وقاطعته بصراخ متوجع مقهور:

- غريزة!!

وصمتت تبحث عن شيء تقوله، ما يحدث غير مقبول، كلا.. هي فقدت كل قدرة على الاحتمال والصبر لديها، وهو يعاند كأنه على صواب، رفعت عينيها إليه، تمسح وجنتيها المبتلتين بجفاء:

- والأمومة كمان غريزة يا نبيل، وأنت حرمتني منها، من أمومتي.. أهم حاجة في حياة أي ست.

وأدارت له ظهرها تفر، تحلل، تبحث عن نتيجة أورد فعل، ثم تتخذ القرار، التفتت تواجهه من جديد والحزم ملأ نبرتها المجروحة:

- نبيل.. أنا عاوزة أكون أم.

وعاد لتعرقه وارتباكه كطفل مذنب.. هل تفكر بتركه؟.. هل ستطلب الطلاق منه!:

- يعني إيه؟

خرج سؤاله بتلعثم.. وردها أتاه حاسمًا:

- يعني تتعالج.

وزفرة راحة كادت تغادر صدره بينما تكمل هي:

- أنا مراتك يا نبيل.

وضغطت أحرف صفتها بحياته قبل أن تسكن للحظة أردفت بعدها:

- وزي ما كنت معاك طول السنين اللي فاتت؛ هافضل برده جنبك.

ودنت منه ترجوه الاستجابة:

- لحد ما نكون أسرتنا سوا.. مع بعض.

وكانت حالمة كعادتها عندما ظنت أنها يمكن أن تخترق سد قلبه المنيع أو تحصل منه على ما تريد، لأنه بعدها اقترب آخر خطوة، احتوي كفها بين يديه وخرجت لهجته تستعطفها:

- حبيبة أنا مش عاوز غيرك.. أنتِ وبس.. أنا سعيد ومكتفي بيكِ.

وفقدت لجامها الذي أحكمته على نفسها، فقدت آخر ذرة سيطرة، بل فقدت حتى تعقلها وصرخت:

- بس ده مش طبيعي، ده ضد الفطرة.

وهزت رأسها برفض، تكاد تشعر بنهاية نبضات قلبها المتعب، تحاول العودة لهدوئها علَّها تنجح:

- بجد يا نبيل.. عشان خاطري، لازم تعالج المشكلة اللي عندك.

وابتعد يزجرها بعينيه كأنما تخطت حدودها:

- أنا ماعنديش مشكلة.

- أمال اللي أنت فيه ده إيه؟

- أنا بحبك يا حبيبة.

- وأنا عاوزة أكون أم.

- أنتِ من إمتى بتفكري زي الحيوانات كده!

وبعد حرب كلامية سريعة أخرسها بقسوة، رفعت عينيها إليه باستنكار، لا تكاد تصدق ما ثقب به أذنيها:

- حيوانات!!.. ده اللي وصلت له؟.. لا معلش.. أنت بس اللي شايف كده عشان...

وتعثرت الكلمة، بل حبستها هي ترفض جرحه.. وكان هو من أطلق لها الزناد بقسوة نبرته:

- عشان إيه يا حبيبة؟

وترددت، ينقسم قلبها بوجع، وتتعالى بين جنبيها قبضات الألم، وأمام ناظريها تتجسد ذكرى ساعات مضت وأخيها يدلل امرأته، وانفجر السد بزعيق قاتل أجهز عليه:

- عشان مش راجل.. أنت مش راجل يا نبيل.

واتسعت عيناها وكفها ترتفع لتقطع الطريق على شفتيها، لكن بعد فوات الأوان، فقد ضاع منها كل تحكم على عقال أفكارها فجسَّدها لسانها حادة لاذعة.. مميتة!

بعدها فقدت كل طاقتها، وقفت تلهث بعنف، أنفاسها ثقيلة متعبة، وروحها تعاني النزع الأخير.. بينما ملامحه تحاكي لوحة مرعبة لذهول امتزج بغضب هائل، وقبضته المضمومة توشك على الارتفاع يود تحطيم أي

شيء، وجابهت عيناه بتحدٍ بعد كل شيء، عض يده كأنما يمنع نفسه عن تفجير بركان غضبه بوجهها..

أدار وجهه بعيدًا فأعادته إليها تصر على الحرب لكن من قال أن الكل قَدْر المواجهة!!

انتزع نفسه من بين يديها وتحرك نحو باب البيت، مد يده يفتحه بموازاة صراخها المقهور:

- خليك راجل وواجهني مرة في حياتك.

وتشنجت أصابعه فوق المقبض للحظة، بعدها جذبه وخرج يغلقه من ورائه بعنف كاد يخلعه من مكانه..

وانهارت هي بأنين وسيل من دموع عاندتها طويلًا.. لكن لم يعد هناك جدوى من العناد..

فالمواجهة هذه المرة أيضًا مضافة لسجل الفشل، وهي خاسرة.. وبجدارة!



الفصل الثالث عشر

هل يوجد بالحياة الخير المطلق أو الشر المطلق؟.. اللونين أبيض أو أسود؟.. وباقي الألوان هي مجرد ظلال لهذين اللونين!..

الخداع.. كلمة تحوي بحروفها معاني الشر.. الخيانة والحقد.. فهل تلك الكلمة إسقاط للون الأسود فقط.. هل هي معنى مطلق للشر!..

ماذا إن كان الخداع خداع النفس من أجل البقاء والاستمرار.. مجرد وسيلة لضمان المثابرة والجهاد في الحياة!..

وماذا لو كان خداعًا لآخر.. لتضمن له السعادة حتى لو كان الثمن.. روحك.. وقلبك.. بل وعقلك أيضًا..

وماذا لو كان خداع للقلب ليتحمل قسوة الحياة وبالأحرى ليتمكن من القسوة على النفس فيسامح المعشوق وتستمر الحياة..

تلك أنواع ماكرة من الخداع.. ترتدي السواد.. ربما يراها البعض بهالة الشر المطلق والأذى للآخر ولكن بقلبها يكمن الصفاء والبراءة..



ولكن الخداع لم يكتسب الاسم والصفة من الفراغ.. فكما نسبغ النقاء على الكلمة فناموس الكون يجبرنا على إعادتها لأصلها.. لمعاني الحقد.. والغل.. والكراهية..

ومع تأجج نفس رانيا بكل معاني الغل والحقد.. تسارعت دقات قلبها غضبًا واتقدت عيناها غيظًا وهي تلمح سمية تخطو بتعثر خلف حمزة الذي قبض على كفها بقوة وكأنه يخشى إفلاتها فتقع بين مخالب الساحرة الشريرة.. ألا وهي.. رانيا نفسها..

دلفت لغرفتها والمرارة تخنق روحها.. فالأحمق يتفلت من بين أصابعها والآخر وضعها بخانة العداوة..

ظلت تجوب غرفتها وهي تقبض بكف على الأخرى تفكر كيف تهدئ من غضبها حتى تعدل من خططها لاسترداد عمرو!.. وأخيراً تصاعد هاتف شيطاني بأعماقها لتتوجه من فورها لغرفة أمنية التي كانت ممددة على فراشها تعبث بهاتفها وأفكارها شاردة بأمر خاطبها المتلهف ومعشوقها المتباعد..

رمقتها رانيا لثوانٍ والكره يقفز من بين نظراتها، فهي مَن فضلها حمزة عليها.. ووافقه والده.. حتى جاءت سمية واكتسحتهما معًا..

هتفت رانيا بغيظ:

- أمنية.. أنتِ قاعدة تلعبي بموبايلك!.. قومي معايا ورانا شغل في المطبخ..

أجابتها أمنية بدون أن ترفع عينيها عن هاتفها:

- سمية عندك.. هي اللي بتساعد خالتو.. أنا ماليش في الحاجات دي..

تخصرت رانيا وهي ترمقها بكراهية:

- لا خلاص.. سمية بح.. فينيتو..

رفعت أمنية نظراتها لرانيا بتساؤل لتخبرها الأخيرة بتشفٍ:

- لسه حمزة واخدها وطالع على شقتهم.. بعد ما أصدر أوامر عُليا أنها ما تحطش إيدها في أي حاجة هنا..

غمغمت أمنية بوجوم:

- حمزة قال كده؟

أكملت رانيا بث سمومها والتنفيس عن حقدها:

- أيوه.. قال بيت العيلة كله بنات مسئولة عنه.. و..

صمتت لتترك أمنية تستعر غيرة وحقداً وتصرخ بها:

- وإيه كمان يا رانيا؟.. قولي كل اللي عندك..

هزت رانيا كتفيها باستهتار وهي تلقي بقنبلتها:

- تقريبًا كده سمية حامل.. أصل حمزة كان خايف عليها قوي.. حتى قالها ما تنزليش من شقتنا إلا وإحنا سوا.. وأخدها في حضنه وطلعوا على طول..

شحب وجه أمنية وهي تتلقى الخبر تلو الآخر..

"حامل!"

"أخدها في حضنه!!"..

هزت رأسها بعنف ترفض استيعاب تلك المعلومات وهي تردد..

- مش ممكن.. مش ممكن..

تركتها رانيا غارقة ببؤسها ورحلت منتشية بنصر صغير يريح قلبها الغارق بسواده، ولم تهنأ بفرحتها السوداء كثيراً فقبل دخولها لغرفتها لمحت إيهاب يرمقها بغضب ويبدو أنه استمع لكل كلمة تبادلتها مع توأمته.. اشتعلت عيناه بتهديد غاضب دفع برجفة باردة لجسدها وتجمدت خطواتها بينما هو يسرع لشقيقته تاركًا إياها خلفه..

انقبضت قبضتاها بقوة.. فحتى عشيقها الصغير ينبذها مفضلًا عليها أخرى ولو كانت شقيقته..

أكتب عليها البقاء بالمركز الثاني على الدوام!..

هل خلقت لتصبح ظلًا لكل امرأة بذلك المنزل!!..

كلا.. لن ترضى بمصيرها المُذل هذا..

ستحارب.. لتحصل على ما خططت له من البداية.. الأحمق.. زوج ابنة عمها.. وطريدتها الأولى.. عمرو.. يجب عليها فقط أن تصلح موقفها مع نشوى.. فبالنهاية مصلحتهما تكمن معاً ..

أما إيهاب فبعدما وصله صوت رانيا وهي تتشفى بتوأمته بصوت حقود ميزه على الفور.. انتفض ليتوجه لغرفة أمنية ولكنه لم ينسَ أن يمنح رانيا نظرة تفهمها جيدًا أنه لن يمرر ما حدث..

دلف لغرفة أمنية التي كانت غارقة في غضبها.. ملامحها منقبضة غمًا وشفتاها مزمومتان بشدة.. وبدا بنظراتها تصميم قاهر دفع إيهاب للنطق سريعاً وقد استوعب ما تفكر به توأمته:

- بلاش يا أمنية.

رفعت نظرات غاضبة نحوه:

- سمعت كلام الحية بتاعتك؟..

مرر إيهاب معرفتها بعلاقته برانيا.. وقد أدرك أن علاقة كتلك لن تفوت أمنية أبدًا.. وأجابها:

- لو وافقتِ على أسامة يبقى بتضيعي حمزة من إيدك..

غمغمت بمرارة:

- أضيعه!.. أنت ما سمعتش كلام رانيا!!.. خلاص أختك عرفت تلفه حوالين صباعها الصغير.. ده بقى يحكم على رانيا تخدم في البيت عشان يريح الهانم..

أجابها إيهاب بتردد:

- ممكن تكون رانيا فهمت غلط.. جايز يكونوا كلمتين..

قاطعته أمنية بغيظ:

- جايز.. وجايز يكون حقيقي.. وساعتها سمية هتقلبه على الكل.. وأنا وأنت أول ناس.. ما تنساش أنانيتنا معاها قبل كده.. أنا مش متخيلة هي ممكن تعمل إيه!

رمقها لثوان.. يفكر بكلماتها.. شيء ما بأعماقه يؤكد له أن سمية لا تقوم بأفعال قاسية كما تخمن الغاضبة أمامه، ولكن كالعادة.. ولائه لتوأمته وفقط..

عاد يتساءل:

- وموافقتك على أسامة هي الحل؟..

زفرت أمنية بغيظ:

- مؤقتًا.. مؤقتًا يا إيهاب.. أهو خالتو تهدى من ناحيتي شوية.. أنا حاسة أنها بتحرسني كل ما حمزة بيجي.. وكمان حمزة أما يشوفني مع واحد غيره هيتحرك.. ودي تبقى فرصتي أني أرجعه..

عاد إيهاب يسألها بتوتر:

- طيب لو سمية حامل فعلًا؟..

صرخت باستنكار وهي تشير بيدها برفض كامل:

- لا مش ممكن.. مش ممكن ده يحصل..

تنهد إيهاب وهو يقلب الأمر برأسه.. يرغب بوضع جميع الحقائق أمام أمنية:

- ما فيش حاجة اسمها مش ممكن.. راجل زي حمزة معاه ست وحلاله وبيتقفل عليهم باب لوحدهم.. تفتكري هيقاوم لإمتى؟..

برقت عينا أمنية بذعر:

- لا.. لا.. ما تقولش كده.. معنى كلامك ده أن حمزة بقى بتاعها.. أنا كنت فاهمة أنه هيطلقها بس بعد ما عمي يهدى شوية.. ويبقى نفذ الوعد اللي خنقني بيه.. لكن لو حامل!..

قاطعها إيهاب بتقرير:

- لو حامل يبقى تنسي حمزة يا أمنية..

قاطعته بسرعة:

- لا.. مش ممكن.. مش هنسى حلمي في حمزة.. ما أقدرش..

زفر إيهاب:

- أسامة مركزه معقول وحالته المادية كويسة.. خدي الموضوع جد..

رمقته باستنكار:

- وأسيب لها حمزة؟..

ليجيها بوضوح:

- حمزة هو اللي سابك..

انتفضت لتمنعه من إكمال كلماته وهي تضع أناملها على شفتيه:

- لا.. لا يا إيهاب.. ما تقولهاش..

والتفتت تهتف بغيظ:

- هي اللي خطفته.. وهي اللي لازم تسيبه.. لو مش بمزاجها يبقى غصب عنها..

تنهد بحنق:

- مش سهل يا أمنية خصوصا لو كلام رانيا صح..

صرخت بعنف:

- يووه.. ما تفكرنيش.. الله يلعنك يا سمية.. الله ياخدك يا شيخة.. أنا عارفة ليه سعد اللي يموت وهي لا!.. ياريتها كانت هي اللي ماتت..

ردد إيهاب برهبة:

- تموت!

رعدة سرت بجسده رغماً عنه، وفكرة الموت تهاجمه كشبح مخيف ولكنه منطقي..

منطقي للغاية..

وأمنية تكمل بحقد غاضب:

- أيوه لو كانت هي اللي ماتت كان هيبقى ما فيش أي مشكلة..

عاد إيهاب يردد بشرود:

- تموت!!

لتوكزه أمنية في كتفه حانقة:

- أنت علقت ولا إيه!!

ويقاطعهما هتاف الخالة تطالب أمنية بالمجئ ومساعدتها.. فتزداد تقطيبة الغضب على وجهها.. وقد أدركت صدق كلمات رانيا بينما الآخر تتردد أحرفها بأعماقه هامسة مزعجة..

"ياريتها كانت هي اللي ماتت"..

***

ومع اتفاقنا الكلي بأن للخداع عاقبة وخيمة.. حتى لوكان خداعًا للذات.. حتى لوكان ذريعة للاستمرار..

فالسقوط بالهاوية أحيانًا ما يكون نهاية الطريق..

أخذت حبيبة تملس خصلات الصغيرة بحنان.. تتلمس ملامحها البريئة.. عيونها المغمضة بسلام وآثاربكاء حديث شقت الوجنتين الناعمتين.. فمدت حبيبة كفها برقة تمسحها وتداعب نعومة ورق الورد بوجنتي الصغيرة سما..

دائمًا ما ظنت أن الأطفال ما هم إلا زهرات ناعمة بريئة.. فبشرتهم تضاهي رقة ونعومة أوراق الورد... وعيونهم تلمع بفرحة تماثل تأمل باقة لامعة من زهور يانعة.. ضحكاتهم العفوية ما هي إلا همسات خافتة تطلقها فراشات ناعمة تداعب براءة نفوسهم فتنطلق منهم هالات السعادة.. يصدرونها ويمنحونها للجميع..

قاطع شرودها اقتحام ملهوف وصيحة هلعة:

- سما... سما حصلها ايه؟..



تحركت حبيبة بخفة لتترك مكانها للوافد الملهوف.. من الواضح أنه والد سما.. التي فتحت عيونها بتلك اللحظة وهي تغمغم بخفوت:

- بابا..

ركع حسام بجوار ابنته التي عادت لإغماض عينيها وهمس بقلق:

- سما حبيبتي.. أنتِ كويسة؟..

أجلت حبيبة صوتها وهي تخبره بهدوء:

- سما كويسة جدًا.. ما تقلقش عليها..

رفع حسام نظراته لتقابله نظرات حبيبة الهادئة والمطمئنة.. ولكنه كان بحالة من الهلع لم يستطع السيطرة عليها..

تلك المكالمة الهاتفية التي أخبرته بوجود ابنته بالمشفى أعادت له ذكريات مريرة.. ففقده لزوجته ووالدة سما بأحد المشافي نتيجة خطأ طبي وبعد جراحة عادية وبسيطة مازال حيًا بذاكرته..

هلعه رفع من منسوب غضبه فصاح بحبيبة غاضبًا:

- اللي حصل ده إهمال.. أنا مش هسكت والمدرسة لازم...

قاطعته حبيبة بإشارة بسيطة من يدها وتوجهت نحوه تناوله قدحًا من الماء البارد:

- دكتور حسام.. ممكن حضرتك تسمعني.. المدرسة وتصرف المشرفات السريع أنقذ حياة سما.. غيبوبة السكر اللي حصلت لها مش غلطتنا في المدرسة.. أعتقد التقصير كان من حضرتك لأنك تجاهلت إنك تبلغنا أن سما مريضة سكر..

أخفض حسام نظراته بغضب متألم وهو يغمغم بخفوت:

- كان قصدي أنها تتعامل كطفلة عادية..

قاطعته حبيبة بسرعة:

- سما مش عادية أبدًا.. سما طفلة مميزة.. هي تلميذتي وأنا عارفاها كويس.. بنت ممتازة ومميزة..

تنهد حسام:

- حضرتك فاهمة قصدي.

أومأت حبيبة موافقة ولكنها أخبرته بحزم:

- ياريت لو في أي معلومات تانية نعرفها.. ده كله لمصلحة البنت.. وخوفًا على حياتها..

هز حسام رأسه نفيًا:



- لا ما تقلقيش ما فيش أي حاجة... هو السكر بس.. ورثته عن مامتها الله يرحمها..

غمغمت حبيبة بحزن وقد شعرت بالتعاطف مع الصغيرة:

- الله يرحمها.

عادت سما تفتح عينيها البريئتين لتسقط نظراتها على حبيبة فترتسم على شفتيها ابتسامة مجهدة وهي تهمس:

- ميس حبيبة..

اقتربت منها حبيبة وهي تطبع قبلة ناعمة على جبينها وتخبرها بدعابة:

- كده سيبتِ ركب ميس حبيبة!.. ألف حمد لله على سلامتك يا حلوة..

غمغمت سما بخفوت:

- أنا سما..

ملست حبيبة خصلاتها برفق وهي تداعب وجنتها بحنان:

- عارفة يا حبيبتي.. بس برضوه أنتِ حلوة.. من هنا وجاي هناديلك "حلوة"..

ابتسمت سما بسعادة والتفتت لتقابل نظراتها عيني والدها الهلعة فمدت يدها تربت على وجنته باطمئنان:

- ما تخافش يا بابا.. أنا كويسة.. وحلوة..

انطلقت منه ضحكة متوترة وهو يستمع لصوت ابنته المطمئن.. وضمها بين ذراعيه بلهفة حانية يهمس لها بكلمات عديدة لم تسمع منها حبيبة شيئاً ولكنها آثرت الانسحاب لتترك الأب مع ابنته يمنح كلا منهما الطمأنينة للآخر..

توجهت للباب لتبتعد وقبل إغلاق الباب توقفت للحظة تتأمل المشهد.. حنان.. احتواء.. أمان.. طمأنينة.. مشاعر عدة عصفت بها وهي ترمق سما مع أبيها وبداخلها تنتفض روح خاملة..

هاجس استيقظ بقوة ينادي برغبة في فطرة الأنثى..

بأمومة ادعتها لتلاميذها ولكنها الآن تكتشف مدى خوائها.. نداء غامض لزوج متخاذل.. يتخذ من الكرامة والغضب ساترًا ليتهرب من واقع حياتهما.. من عجزه عن منحها ما تريد حقاً..

هي تريد طفلًا.. بل تريد أن تصبح أماً.. فطرة الكون.. بل طبيعة الحياة وغريزة الأنثى التي لا يمكن إخمادها بألاف من الهدايا والتعويضات..

أغلقت الباب ببطء ليظل المشهد يداعب خيالها لأيام وخاصة بعد تغيب سما عن الحضور للمدرسة في الفترة التالية.. ومع عودة الصغيرة لمقاعد

الدراسة تسلمت حبيبة باقة كبيرة من الزهور المختلفة الألوان والأنواع.. ومعها بطاقة شكر أنيقة.. تحمل توقيع "د.حسام الصيرفي"

ومعها رقم هاتفه الخاص وطلب آخر بمنحه هاتفها هي الأخرى.. فهو يستأمنها على طفلته ويحتاج الاطمئنان عليها باستمرار.. وبدون تفكير سجلت حبيبة رقمه..

بل وبحركة سريعة أرسلت رقمها الخاص.. كأنها تتمرد على حياتها بأكملها..

تتمرد على تجاهل نبيل لطلبها.. تتمرد على غضبه الغير مبرر بل وخصامه المزعج.. تلك الحالة المتفردة من التمرد التي دفعتها للتخلص من جميع هداياه.. حتى خاتم زواجها خلعته ووضعته مع باقي مصاغها بعلبة مصوغات كبيرة وضعتها بعنف أمام نبيل بالصباح التالي لمشاجرتهما وأخبرته بوضوح أنها لا تحتاج لأي من تلك الماديات العقيمة..

هي فقط تريد طفله..

وعليه أن يتفهم احتياجها كأنثى لأن تصبح أمًا.. وقتها رمقها بصمت ورفع العلبة ليضعها بخزانته بصمت.. رامقًا إصبعها الخالي من خاتمه بألم صامت.. ثم رحل بهدوء..

أفاقت حبيبة من شرودها على رسالة من تطبيق "الواتس اب".. وكلمات بسيطة..

"ألف شكر على ثقتك الغالية يا "آنسة حبيبة"..

والمرسل بالطبع "حسام الصيرفي"..

هزت حبيبة كتفيها بحيرة.. هل ترد له رسالته أم تلتزم الصمت!.. وبعد تفكير أرسلت رمز تعبيري بلا معنى.. وجمعت أشيائها لترحل لمنزلها.. فزوجها على وصول..

أما نبيل فلم يرغب بالذهاب لمنزله على الفور.. الأيام السابقة الماضية كانت تمر بروتينية قاتلة.. حبيبة تلتزم صمت قاتل.. وكأنها تنتظر منه خطوة اعتذار.. وتلك الخطوة أوضحتها بجلاء عندما جمعت هداياه بصندوق مقفل وأخبرته أنها تريد طفله..

لا يعلم كيف يرضيها أو كيف يجعلها تدرك منزلتها بحياته!..

كيف يجعلها تفهم أنه لن يفعل بها ذلك أبدًا حتى لو خاصمته لشهور وليس لأيام!..

سيعرف كيف يراضيها بدون أن ينزل من مكانتها أو يهينها..

ذهب لمكتب المحاسب الخاص به والذي يدير له أملاكه وما ورثه عن والديه.. في محاولة عقيمة لإضاعة الوقت.. وهناك جلس يراجع حساباته.. ما له وما عليه.. ضرائبه وموارد دخله..



- على فكرة يا نبيل.. الأعمال الخيرية بتقلل من قيمة الضرايب.. ما تشوفلك جمعية ولا مركز تتبرع له بدل التقديرات الجزافية دي بتاعة الضرايب..

برقت عينا نبيل وهو يستمع لكلمات محاسبه الخاص.. الذي هتف وهو يدعك صدغه بإرهاق:

- صفية.. اعملي لنا اتنين قهوة وبعدين امشي..

لحظات ودخلت صفية.. وهي عاملة النظافة بمكتب المحاسب.. تحمل صينية عليها قدحين من القهوة وضعتها برفق أمام نبيل والتفتت للآخر متسائلة:

- خدمة تانية يا سمير بيه؟

هز سمير رأسه نفيًا:

- لا يا صفية تقدري تروحي..

رحلت صفية من أمامهما ليهتف سمير مشيرًا لظلها:

- زي ما بقولك في جمعيات بتهتم بناس زي صفية دي.. بيشغلوهم وأحيانا بيعملوا لهم مرتبات.. والتبرع للجمعيات دي بيقلل الضرايب كتير..

راقبت نظرات نبيل ظل صفية المختفي بتفكير والتفت لسمير:

- تعرف عنها حاجة؟..

هز سمير كتفيه:

- واحدة أمينة وبتنضف كويس وقهوتها ممتازة.. إنما بتسأل ليه؟..

أجابه نبيل بغموض:

- لا أبداً.. حبيبة تعبانة من شغل البيت.. بفكر آخدها تساعدها.. يا ريت تجيب لي كل المعلومات عنها..

أجابه سمير بموافقة سريعة وعاد ينكب على أوراقه وهو يشير لنبيل ويشرح له ما تعنيه الرموز والأرقام..

بينما شرد نبيل بعيدًا وبعقله تكونت فكرة غامضة قد تحقق له السلام مع حبيبة!..

***

وكما قلنا.. خداع النفس يُسمح به للاستمرار.. للنجاة والإنقاذ من غياهب المجهول.. وكذلك قد يسمح بخداع الآخر.. والغاية أيضًا إنقاذ.. ولأن الغاية تبرر الوسيلة.. في عرف البعض.. فكل الوسائل يسمح بها.. والغاية... نجاة..



غارقًا بين أطنان العمل.. هاربًا من ذكرى ابتسامة مشعة وخصلات ذهبية تتراقص وضحكة بريئة تدغدغ الرجولة.. أوقات عفوية بنكهة شقاوة الطفولة قضاها برفقة ابنة عمه المشرقة..

أوقات أصبح يشتاق لها برغم كل الحرص والحذر.. برغم نظرة والدته المنقبضة وتلميحات شقيقه الحانقة.. لتقاطعه صرخة غاضبة أعقبها اقتحام لغرفة مكتبه.. والوديعة دائمًا هبة تهتف بشراسة غريبة عليها وإن كانت دموعها تغرق وجهها وأنفاسها تتهدج حزنًا:

- اتفضل يا أبيه..

رمق الحلقة الذهبية الصغيرة -والتي خلعتها هبة من إصبعها ووضعتها بعنف أمامه- بشيء من التوجس:

- إيه ده يا هبة؟..

هتفت من وسط دموعها:

- دبلة عماد... أنا خلاص.. مش..

وتهدج صوتها فلم تستطع إكمال جملتها لتنهار باكية أمام أنظار عادل المذهولة والمنزعجة.. بينما دلفت والدتها الغرفة بهدوء متوتر وأغلقت الباب خلفها ببطء تحاول التحكم بغضبها وهي تلتفت لابن شقيق زوجها.. ورجل العائلة الأول تهمس باسمه بتعثر:

- عادل..

حرك عادل نظراته لوالدة هبة.. تلك المرأة الهادئة والقوية.. يحمل لها احترامًا خاصًا.. فهي لم تنجر يومًا لترهات الصراع بين نساء المنزل.. فقط صبت اهتمامها على رعاية ابنتها والاهتمام بها.. لذا كان عادل حريصًا في اختيار هبة كزوجة لشقيقه الأصغر والأرعن عماد.. فهي من ستحتمل جنونه وجموحه..

ولكن الآن ترمقه تلك السيدة التي يكن لها كل الاحترام بنظرات لوم وعتاب شديدة وهي تدفع بهاتف هبة بين أنامله هامسة:

- يرضيك يا عادل تصرفات أخوك!.. شايف صوره.. يرضي مين تبقى سيرة بنتي على لسان اللي يسوى واللي ما يسواش!

رفع عادل الهاتف أمام ناظريه ليتأمل شاشته ونظراته تمر على عدة لقطات مصورة لعماد مع..

لارا!..

لقطات تظهر انسجامًا واضحًا بينهما.. سعادة تقفز من عيني لارا وهي تقفز بفرحة وقد تمسكت بكفي عماد.. ولقطة أخرى وهو يعلق قلادة ما بعنقها ونظرات كلًا منهما تتألق جذلاً.. وأخرى وهو يلبسها خاتم ما.. وأخيرة وهو يقبل أناملها ونظرة امتلاك واضحة تقفز من عينيه..

تمالك عادل غضبه الذي تصاعد مع مرور اللقطات أمام عينيه.. والتفت لهبة الباكية بنشيج خافت رفع من مستوى غضبه درجات.. فهبة الصغيرة لم تكن بمثابة أخت صغرى، بل هي كابنة له.. وكما اختارها لعماد كزوجة مناسبة فقد اختاره لها لعلمه بعشقها له.. ولأنه أدرى بشقيقه.. فالأبله يحبها ولكنه فقط يكابر..

- هبة.. الصور دي جبتيها منين؟..

شهقت هبة تحاول استرجاع صوتها الضائع بين بكائها:

- نادين صاحبتي شافتهم عند الجواهرجي اللي بنتعامل معاه.. صورتهم وبعتت لي الصور.. كانت فاهمة أنه..

شهقت بعنف وقد فاجئتها نوبة بكاء جديدة.. فضمتها والدتها لصدرها وهي تخبر عادل بوجوم:

- صاحبتها فهمت أن عماد فسخ مع هبة وبعتت الصور عشان تفرجها على اللي خطفته منها..

صمتت للحظة ثم أكملت:

- شوف يا عادل.. أنا بعدت نفسي عن كل صراع في البيت ده.. حتى أما جت بنت عمك؛ لا أخدت صفها ولا صف عايدة وثريا.. بس يظهر أنهم كانوا على

حق.. وبنت درة هتكرر الماضي.. وأخوك شكله مش ممانع، لا ده مبسوط كمان.. وتصرفاته هتشمت العدو والحبيب في بنتي..

تنهدت بحزن:

- هبة يا عادل.. أمانة عمك في رقبتي ومش هسمح..

قاطعها عادل بسرعة:

- هبة أختي الصغيرة.. وكرامتها قبل كرامتي.. ولو عماد زعلها أنا كفيل بيه.. بس الموضوع فيه لبس يا مرات عمي.. صدقيني.. الحكاية كلها سوء تفاهم.. ياريت كنتوا سألتوني قبل ما هبة تنهاركده..

ورفع هبة من مقعدها بجذبة يد خفيفة:

- عماد راح فعلًا مع لارا للجواهرجي.. أنا عارف وأنا اللي بعته معاها.. كانت عايزة تشتري هدية لواحدة قريبتها.. وطبعًا ما ينفعش نسيبها تروح لوحدها.. أنا زي ما أنتوا شايفين.. مشغول ومش فاضي للمشاوير دي..

مسحت هبة دموعها بحركة طفولية وهي تسأله بأمل:

- بس الصور..

قاطعها بابتسامة مطمئنة وهو يتمنى أن تنطلي كذبته عليها:



- صور إيه بس!.. أنتِ عارفة خطيبك غاوي هزاروضحك.. وصاحبتك دي مش كويسة.. هتلاقيها اختارت كام لقطة عشان تضايقك بس..

والتفت لزوجة عمه:

- ما تقلقيش على هبة.. مش هسمح لحد أبدًا أنه يظلمها.. بس كمان بلاش حضرتك تسمحي لكلام سخيف أنه يقلب كيانها وكيان البيت كده.. وإن كان على عماد أنا ليَّ معاه كلام تاني..

خرجت هبة برفقة والدتها بعدما أسهب عادل في كلمات الشرح والتوضيح.. وزاد من وعوده بمراعاة مصالح هبة.. والتفاهم مع عماد بشأن سلوكه الأحمق..

بينما عادل وقف بنافذة مكتبه المفتوحة يفكر بشقيقه المتهور وسلوكه الغامض الذي بدأ يتخذ منحنى خطراً على الجميع..

تلك اللقطات برفقة لارا تعني كارثة قادمة بالطريق..

ولا يدري إن كانت كذبته بشأن معرفته بمرافقة عماد للارا وموافقته على ذهابهما للصائغ قد انطلت على سلوى زوجة عمه أم لا!.. فنظراتها كانت تحمل له نظرة اتهام واضحة..



هاتف شقيقه وطلب منه موافاته على وجه السرعة.. وبعد دقائق دلف عماد لغرفة المكتب تعتلي وجهه ملامح متحفزة ظهرت بنبرة صوته المدافعة بهجوم وكأنه علم ما يدور بخلد شقيقه:

- أيوه خرجت مع لارا.. إيه يعني!!.. ما أنت على طول بتخرج معاها..

وبرغم الغضب المشتعل بنفس عادل إلا أنه أخبرعماد بهدوء:

- وهبة يا عماد؟..

هتف عماد باستفزاز:

- مالها!

أجابه عادل برنة بدا فيها الغضب:

- خطيبتك.. وبنت عمك..

أشاح عماد بوجهه بعيداً وهويقول بتوجس:

- مش لوحدها!

قطب عادل بقسوة:

- يعني ايه؟

لمح عماد أمارات التوحش على وجه شقيقه فلجأ لأسلوبه الممازح يقيس رد الفعل على كلماته:

- ايه يا عم بالراحة.. أنا بقول طالما أنت مضرب على الجواز.. فأنا أولى ببنات عمنا بدل ما يروحوا للأغراب!

رمقه عادل بنظرة غامضة:

- هتفضل كده طول عمرك يا عماد.. تقول كلام وما يهمكش بتضايق مين ولا بتوجع مين.. إكبر بقى أنت مش صغير..

أشار عماد بيده:

- في ايه!.. هي قلبت معاك دراما ليه كده!!.. لو قصدك على هبة..

قاطعه عادل بصوت مشحون:

- مش هبة بس يا عماد.. مش هبة بس..

اتسعت عينا عماد بذهول وهو يهز رأسه رافضًا لما يحاول شقيقه قوله:

- لا.. لا.. لا لا لا.. أنت.. عادل. أنت ولارا.. لا..

زفر عادل بحزن وهو يوليه ظهره ويتكئ بكفيه على مكتبه يستند إليه:

- من فضلك يا عماد.. نقفل الموضوع ده نهائي.. خلاص ما ينفعش أصلًا أي حد فينا يفكر فيها.. إحنا أخوات وهي بنت عمنا..

ارتبك عماد وهو يسأله:

- أنت بتفكر فيها بجد يا عادل؟..

التفتت عادل له وعلى وجهه معالم حزن وإن حاول التحكم به:

- قلت نقفل الموضوع يا عماد.. هتفرق معاك في إيه؟.. سواء فكرت فيها ولا حتى حبيتها!.. خلاص موضوع وراح لحاله..

وأخفض بصره وهو يغمغم بخفوت:

- كالعادة..

وصلت غمغمته الخافتة لعماد الذي فوجئ باهتمام عادل الحقيقي بلارا..

لقد ظن أنه يهتم بصفته مسئولًا عن أملاك العائلة، فكان يحجم من طموح الشقراء حول ميراثها وأملاكها.. ولكن من الواضح أن براءة لارا وعفويتها اخترقت أبواب قلبه المغلقة منذ سنوات..

هل هو من الأنانية ليحرم شقيقه الأكبر والذي أفنى عمره يهتم بكل فرد بالعائلة ويراعي مصالحها؛ من حب لمس قلبه وأيقظ روحه الهامدة منذ سنوات!!..

هو لم يحب لارا.. لم تمس قلبه ولا حتى روحه..

هي فقط كانت محاولة للتمرد.. لإثبات الذات والابتعاد عن دور الرجل الثاني بالعائلة.. أراد التحرر من قيد المفروض والواجب.. قيد لم يزعجه يومًا ولكنها النفس التي لا ترضى بحالها أبدًا..

حتى ارتباطه بهبة، فرغم أنه تقليدي نوعًا إلا أنه يحب ابنة عمه الصغيرة.. يبادلها مشاعرها البريئة حتى لو لم يظهر هذا.. حتى لو أخفاه حتى عن نفسه وما محاولته للاقتراب من لارا.. أو حتى تفكيره الصبياني بالارتباط بها إلا مغامرة مجنونة وإن كان يدرك تمامًا أنه لن يتخلى عن هبة أبدًا.. هي قدره وهو قدرها.. ولن يتركها لآخر.. فقط ظن أنه يمكنه امتلاك لارا معها..

أعاد سؤاله وتلك المرة بصيغة أخرى:

- قصدك تقول أنك حبيتها يا عادل؟.. حبيت لارا؟!

لف عادل وجهه للناحية الأخرى ولكن عماد تمكن من لمح نظرة كسيرة لم يلمحها بنظرات شقيقه منذ سنوات.. منذ..

لم يتحمل أن يكون سببًا في إضافة أوجاع لقلب شقيقه فهتف مستنكرًا:

- يعني حبيتها فعلًا.. طيب و..

قاطعه عادل بصوت خافت وإن لم يخلُ من صرامة:

- عماد.. قلت الموضوع اتقفل.. بعد ما حسيت باهتمامك بلارا بقيت خلاص ماضي بالنسبة لي.. زيها زي..

وقطع كلمته متنهدًا:

- كله ماضي.. ماعادتش تفرق..

ليصرخ عماد محاولًا إنقاذ أخيه من السقوط بهوة ماضيه الحزين:

- بس أنا ما حبيتهاش يا عادل.. صدقني ما فيش بيني وبينها أي مشاعر حب..

رمقه عادل بصمت متجنبًا أي ذكر عن اللقطات بمتجر الصائغ.. فهو لا يريد أن يزيد الهوة بين هبة وعماد.. بينما صرخ الأخير بإنهاك:

- يا عادل صدقني.. أنت أكتر واحد عارفني وفاهم أني فعلًا بحب هبة.. يمكن حاولت أتمرد شوية بعلاقة مع لارا.. حبيت أخرج من دور "عبد المأمور".. ادخل يا عماد زراعة.. حاضر.. سيب التعيين في الكلية.. الأرض محتاجة وجودك ومش كل حاجة على أخوك.. حاضر.. اتجوز هبة.. حاضر..

قاطعه عادل:

- أنا ما فرضتش عليك حاجة..

أومأ عماد موافقًا:

- أيوه.. بس برضوه أنا ما اخترتش حاجة..

غمغم عادل بارتباك:

- يعني لارا كانت هتبقى اختيارك؟..

صاح عماد بحنق:

- كل اللي بقوله ده ما سمعتوش.. لارا كانت محاولة تمرد غبية.. دلوقتِ بفكر ألاقيها محاولة ما تساويش أني أأذي قلب طيب زي هبة..

صمت للحظة وأردف:

- أنا بحب هبة.. وهتجوزها.. ولو عايزني أروح دلوقت أخطبلك لارا.. ما عنديش مانع..

نهره عادل:

- أنت بتقول إيه!.. شكلك اتجننت!

غمزه عماد:

- عايز تطلبها ورومانسية وحركات..

ابتسم عادل:

- يا بني ما فيش الكلام ده.. قلت لك هقفل الموضوع..

هتف عماد:

- يعني أحلف لك أنها بالنسبة لي مجرد بنت حلوة لفتت نظري و..

زجره عادل بحدة:

- عماد... اخرس..

ارتفعت قهقهات عماد:

- بالراحة يا بوص.. أنا بوضحلك بس.. صحيح هي هتبقى في مقام أختي.. بس ده ما يمنعش..

قاطعه عادل وقد أدرك وجوب وضع حد لتلك الترهات:

- لا يمنع.. لأنها هتكون مرات أخوك..

ربت عماد على كتفه:

- نروح نتقدم يا بني!

دفعه عادل بعنف لم يدرك له سببًا:

- كفاية هزاريا عماد.. لسه لازم أقنع عايدة هانم.. وده مش سهل أبدًا.. يمكن ده اللي كان مقيدني من البداية وبيخليني أستبعد الموضوع..

غمزه عماد:

- يا بوص ماما ما هتصدق أصلًا.. دي بتحلم باليوم اللي تجوزك فيه..

شرد عادل بعيدًا وهو يغمغم:

- بيتهيألك.. ماما عندها أقضيها عازب لآخريوم في عمري ولا أتجوز بنت درة أبدًا..

هز عماد كتفيه بحيرة وهو يربت على العلبة المخملية بجيب سترته.. ذلك الخاتم الذي كان ينوي تقديمه للارا ضاربًا بمشاعر الجميع عرض الحائط.. ولكن هل كان ليتحمل المعركة الضارية التي ستقيمها أمه وخالته.. بل هبة وأمها فوق رأسه!..

جاءته الاجابة سريعة وهو يلمح معالم التصميم على وجه عادل الذي شرد بمعركته القادمة مع والدته.

ليهمس عماد بتأكيد..

"عادل هو اللي يقدر ينتصر في معركة زي دي.. على الأقل واضح إنه بيحب لارا"..

فهو يدرك مهما حمل مشاعر لابنة عمه الشقراء الحسناء فلم تتعدى إعجابًا سطحيًا بملامحها الفاتنة.. إعجابًا لا يستحق أبدًا إشعال حرائق لا يمكنه إخمادها..

***

والخداع قد يكون أحيانًا هروبًا من حقيقة مؤلمة.. حقيقة كشفها قد يدمر صورة غالٍ راحل.. وأحياناً قد تكون حقيقة ترفع ظلمًا وقع بالعمد.. أو ربما بخطأ غير مقصود على روح منهكة حد الاستسلام لظالميها..

دفع حمزة باب شقته بتعجب.. فالباب شبه مغلق.. وهو أكد عليها بالأيام السابقة ألا تترك الشقة إلا برفقته.. فبرغم كل غضبه من ارتباطه بها إلا أن مشهد رانيا ابنة عمه وهي تكيل لها الإهانات يغضبه بشدة..

بالنهاية هي زوجته واحترامها امتداد لاحترامه وكرامته هو..

أكمل دفع الباب بخفة وتلفت باحثًا عنها بالشقة التي تغرق بالصمت التام.. إلا من صوت همهمة خفيفية يصدر من غرفتها..

اتجه للغرفة بخطوات صامتة ليلمحها رابضة أمام فراشها ترتكز على ركبتيها وقد غرقت ملامحها بوجوم طفيف.. عيناها شاخصة للفراش ونظراتها منصبة عليه باهتمام.. وأناملها تتحرك بخفة ومهارة تثبت أشياء دقيقة تلتقطها من عدة أواني صغيرة انتشرت أمامها وتقبض بشفتيها على قلم ملون.. ويبدو أنها تردد شيء ما فصوت الهمهمة المكتوم مازال يصل لأذنيه بوضوح..

ظل يراقب معالم التركيز والاهتمام على ملامحها للحظات شرد بها مع حركة أناملها بخفة مصاحبة لهمهمتها الرتيبة.. وكأنها تقوم بترديد متوالية عددية أو ما شابه..

مرت دقائق لم يحسب عددها، هو يتأمل زوجته التي لا يعرف عنها أبسط الأشياء وهي غارقة بممارسة هواية تعشقها.. هواية كانت تجد بها مهرباً من

آلام نفسها وأحيانًا جسدها.. هوايتها التي حرمت منها بقسوة.. وعادت الآن تغرق بتفاصيلها حتى أنها لم تشعر بالواقف بالباب يراقب انفعالاتها بذهول وخاصة حين أنهت عملها ورفعت قطعة القماش المكتملة تتأملها بنظرة فخورة وابتسامة واسعة ترتسم على شفتيها..

تحرك ليقترب منها متأملاً بدوره تلك القطعة الفنية التي أنهتها لتوها ومع اقترابه ومفاجأتها بوجوده أمامها تلاشت ابتسامتها وهي تخفض نظراتها أرضًا وتضع ما بيدها على الفراش بجوار باقي أشيائها وتغمغم بخفوت وارتباك:

- آسفة.. ما أخدتش بالي من الوقت..

وتحركت بارتباك مردفة:

- الغدا جاهز.. دقايق وهيكون على السفرة..

لم يتحرك من وقفته أمامها وهي بدورها خشيت المرور بجوراه فاكتفت بالوقوف بمكانها تحاول التحكم بحركاتها المرتبكة وعيناها تراقب نظراته التي تتأمل قطعة القماش التي أنهت تطعيمها ببضع خرزات ملونة وقطع معدنية دقيقة لتكون الشكل النهائي الذي برز أمام عينيه ويتأمله بإعجاب واضح..

إعجاب لم تفهمه هي بل ظنت أنه سيلومها كالعادة لتأخرها بإعداد طعامه.. فحاولت إخفاء عملها بشتى الطرق ولكنه أزاحها برفق وتقدم ليتناول قطعة القماش ويتأملها بعين معجبة ويلتفت لها متسائلًا:

- إيه ده!..

ازداد ارتباكها.. وتصاعد ليتحول لنوبة هلع مألوفة.. فمسحت كفيها المتعرقتين بعباءتها الواسعة وهي تحاول التحكم بانفعالاتها وتكتم كلماتها المتوسلة..

هي تخشى إخباره بهوايتها فيحرمها منها ويمزق عملها كما فعل شقيقه مرارًا.. وبنفس الوقت تخشى أن يكون صمتها سببًا لإحدى نوبات غضبه..

كرر سؤاله بندائه المتسائل لاسمها:

- سمية!!..

ورفع قطعة القماش يفردها عن آخرها فبدت روعة وكمال ما قامت به من عمل يدوي دقيق.. دفع بمزيد من نظرات الإعجاب تحول سريعًا لذهول غاضب وهو يسمعها تهمس بتوسل:

- ما تقطعهاش.. أرجوك ما تقطعهاش..

حرك نظراته الغاضبة نحوها لتسرع هي بالقول:

- دي أنا عاملاها لآية.. لآية والله مش ليَّ..

انقبضت أنامله على القماش بحنق.. ومع حركته سقط قلب سمية بقدميها خوفًا على عملها وعلى قماش آية الثمين وكادت أن تعيد توسلها له ثانية عندما سأل بعنف مكبوت:

- ولو كانت ليكِ هيحصل إيه!

رمقته بتساؤل خائف.. لا تعلم هل يمنحها موافقته للقيام بما ترغب أو ينصب لها فخًا جديدًا ليجد مبررًا لنوبة غضب جديدة!..

ومع نظراته الغاضبة ونظراتها المتوجسة دلفت آية للغرفة تحمل مجموعة من الأوشحة وتهتف بسمية:

- دول الطُرح يا سمية.. و..

صمتت وقد شعرت بالجو المتوتر بين شقيقها وزوجته.. فحمزة يمسك قطعة من قماش عباءة الصباحية الخاصة بها والتي تعدها سمية من أجلها بعد أن رأتها بإحدى المجلات فسلبت لبها وذهبت من فورها لسمية لتعد لها واحدة شبيهة..

فابنة الخالة تمتلك تلك المهارات اليدوية بنظم الأحجار وقطع الزينة.. بالإضافة لعدة مواهب أخرى بالحياكة وشغل الإبرة بمجالاته المختلفة..

وبالفعل نجحت سمية بتكوين القطع الأساسية من العباءة وبقي فقط الحياكة.. ولكن نظرات حمزة الغاضبة للقطعة بيده ولسمية أيضاً.. أكدت لآية خوف سمية المبهم من معرفة حمزة بالأمر.. وتأكيدها على آية أكثر من مرة أن تجعل ما تعده لها من أثواب وأوشحة سرًا بينهما حتى لا تثير حفيظة حمزة بلا داع.

ابتلعت آية لعابها بتوتر واندفعت تقص على حمزة موهبة سمية الخفية وتحكي له عن مساعدتها لها في تجهيز أثوابها التي تعدها خصيصاً لزواجها.. كانت تحكي بتفصيل وإسهاب رغبة منها في الدفاع عن سمية الخائفة والمنكمشة إلى جوارها.. وأخيراً أنهت كلماتها المدافعة ووقفت بصمت تنتظر رد حمزة الذي تكلم بغضب يحاول التحكم به.. فحتى شقيقته الصغيرة لمست رعب زوجته منه:

- بس الموضوع ده شكله مجهد وبياخد وقت كبير..

هتفت سمية بدفاع:

- أنا مش هقصر في أي حاجة تخص البيت.. الشغل ده هعمله في الوقت الفاضي بس..

ليجيبها حمزة وقد بلغ به حنقه لبداية الغضب:



- أنا ما قولتش كده.. ركزي في كلامي كويس.. ولا أقولك.. ركزي أصلاً مين بيكلمك!..

بهتت سمية من كلماته المباشرة وشحبت ملامحها على الفور وهي تحاول البحث عن كلمات تهدئ من غضبه.. فهي تخشى أن يهينها أمام شقيقته الصغرى..

واستشعرت آية التوتر المتزايد فهتفت بمرح تحاول تصفية الأجواء:

- إيه يا سومة..هو الغدا اللي قلتِ لي عليه إشاعة ولا إيه!

لتلتفت سمية لها بشرود.. وكلمات حمزة تدوي بعقلها.. تذكرها بانتهاء مرحلة سعد بكل قسوتها وجروحها.. وبداية حياة أخرى مجهولة برعب تتلمسه بحركاتها الخرقاء وهي تجمع أشيائها المتناثرة على الفراش وترتب قطع القماش الخاصة بآية بهدوء متوتر..

وترحل للمطبخ تردد بخفوت:

- دقايق هيكون الغدا على السفرة..

وتذهب خلفها آية بخطوات مسرعة هاتفة:

- استني.. هاجي أساعدك..



ثم يعود صوتها يتردد بانبهاروهي تمسك بجديلة سمية الطويلة والتي تخطت أسفل ظهرها.. تتلمس طولها.. كلمات مذهولة وصلت لحمزة المتجه بدوره لغرفته فجمدته بمكانه للحظات وكلمات شقيقته تصله بوضوح:

- ما شاء الله يا سمية.. شعرك وصل للطول ده ازاي!.. ده لو الضفيرة اتفردت هيوصل لقرب ركبتك..

هز حمزة رأسه وكأنه يمنع كلمات آية من التحول لصورة مرت أمام عينيه منذ دقائق ولكنها لم تلفته أو تستوقف نظراته.. لجديلة بنية طويلة تتأرجح خلف ظهر زوجته بخفة..

صورة دُفِع الآن ليتخيلها بفعل كلمات طائشة من شقيقته الصغرى.. وبرغم محاولته لتجاهلها إلا أنه انتظر ظهور زوجته ثانية ليتحقق من صدق خيالاته، ولكنها ظهرت بعد دقائق تحمل أطباق الطعام وتلف نفسها بإسدال الصلاة كما اعتادت منذ زواجهما.. وكأنها تمنع نفسها قبل أن تمنعه من الانزلاق بخداع قد يزينه العقل ولكن تمنعه هواجس الماضي.

***

لم تعرف حبيبة لمَ بدأت تعد مثلجات الفراولة!..



أكثر ما يعشقه نبيل.. ربما ترغب بمصالحته.. أو ربما لوم النفس.. وربما هي فقط تعشقها بدورها!..

لا يهم.. فهي بدأت بإعدادها واستمرت ليتحول طبق المثلجات البسيط لكعكة عامرة بجميع أنواع المثلجات..

لا تدري إن كانت ترغب بمصالحة نبيل أم هي محاولة هرب!..

هي تهرب منه.. من إحساسها بخذلانه لها.. من تجاهله حتى لرغبتها بمناقشته..

من رفضه لاستعدادها التام للوقوف بجواره ومساندته.. والأهم من ذلك كله..

هي تهرب من سيل الرسائل المتوالية والتي لم تنقطع منذ أيام.. منذ منحته رقمها بلحظة تمرد.. منذ ردت على رسالته بلحظة تغافل متعمدة..

منذ أعادت الرد على رسالة أخرى بسيطة.. كـ "صباح الخير".. وقتها لم تجد ضررًا في رد التحية..

لتفاجئها رسالة أخرى بنهاية اليوم الدراسي يخبرها ألا تدع سما تركب الحافلة الخاصة بالمدرسة.. فهو آتٍ لاصطحابها.. وردت بالموافقة..

لتصلها بعدها رسالة أخرى يتوسلها البقاء برفقة سما قليلاً فقد أعاقه العمل عن الوصول بالموعد..

ورسالة ثالثة.. ورابعة.. وعاشرة.. وبكل مرة تجد سببًا مقنعًا للرد.. وهو يجد سببًا آخر لإرسال رسالة جديدة..

فقط ما يعذبها تلك الكلمة التي تصاحب جميع رسائله

"آنسة حبيبة"..

خطأ غير مقصود منه ولم تهتم بتصحيحه.. فهي مازالت تعاند نبيل وترفض ارتداء أي من مقتنياته النفيسة التي يحاول تسكين أوجاع أمومتها بها.. ومن ضمن مقتنياته حلقتها الماسية والتي تمنحها أمام الجميع لقب زوجة.. وخلو إصبعها الواضح من تلك الحلقة جعل حسام يظنها وببساطة آنسة..

تنهدت بحزن وصوت رسالة أخرى تخرجها من شرودها.. حاولت تجاهلها ولكن أصابعها عاندت إرادتها لتجد رسالة من حسام يسألها بتوسل..

"سما عايزة ضفيرة.. أعملها إزاي دي!"..

ورافق رسالته عدة وجوه باكية صغيرة..



دفعت بابتسامة لشفتيها وبدأت أناملها بالرد السريع عليه تخبره بالضبط كيف يجدل ضفيرة لصغيرته..

أنهت رسالتها مع وصول نبيل الذي لمح مثلجاته المفضلة على المائدة وحبيبة منهمكة في إنهاء الكعكة فتقدم منها ببطء ليركع على ركبة واحدة.. يقبل كفها برقة.. ويهمس بندم:

- مش هتسامحيني يا حبيبة..

راقبت حبيبة رأسه المنحني أمامها بحزن وهي تقاوم روحها المتمردة الجديدة بالصراخ بوجهه ومطالبته بما هو حق لها.. ليرفع نبيل رأسه ويقابل نظراتها الدامعة بنظراته المتوسلة ويخبرها بوعد مبهم:

- أرجوكِ يا حبيبة سامحني.. وأوعدك هحققلك رغبتك قريب.. قريب قوي.. بس سامحيني..

وكعادة قلبها الضعيف أمام توسلاته.. رق ولانت دقاته لنبرته المتوسلة وامتدت أناملها تربت على خصلاته برتابة.. وهي تومئ برأسها تمنحه السماح..

لا تعلم هل تسامحه بفعل حبها له.. أم هرباً من ذنب ترفض الاعتراف به!..



وكما قيل كل شيء مباح في الحب والحرب.. فالخداع هو خطوة أساسية بل تكاد تكون ضرورة.. حتى لو كانت الوسيلة غبية كتدمير الحبيب.. للوصول لغاية قد تكون أكثر غباءً كإنقاذ فكرة الحب.

وريم خضعت لطلب علي بالذهاب للطبيبة النفسية.. جلستين بالأسبوع تذهب في ميعادها لا تؤخر ثانية.. وتدلف لحجرة الطبية.. تجلس أمامها كتمثال صامت لا تتفوه بكلمة.. ولو تمكنت من حبس الأنفاس لفعلتها..

والطبيبة تراقبها بصمت.. وأحياناً تحاول مبادلتها الحديث.. وريم صامتة ببسالة وكأنها بحرب لإثبات قدرتها على الصمود.. والسكوت.. وعلي يحايلها.. يتوسلها التفاهم.. وردها الوحيد..

"أصريت على الدكتورة.. وروحت.. مش هقدم أكتر من كده"..

وهل قدمتِ الأقل حتى تمنعين الأكثر!..

كان هذا لسان حال علي وهو يحث نفسه على الاستجابة لطلب الطبيبة.. والعودة للنوم بغرفته الزوجية.. فكان رأي الطبية واضحاً..

"بعدك عن أوضة نومكوا هيرسخ الأفكار اللي بتدور في عقل مدام ريم.. وأن أساس ارتباطكوا هو العلاقة الزوجية الحميمة.. لازم توضح لها بالتصرف العملي أنك عايز تكون جنبها.. بدون التطرق لحكاية العلاقة دي.. وده مش هيحصل إلا برجوعك لأوضة نومكوا"..

وها هو علي يخضع لرأي الطبيبة ويحمل حاله على النوم بفراشها بعدما أقسم على عدم العودة إلا حين تطالبه هي بذلك..

دلف للفراش وسحب الغطاء بهدوء محاولاً تجنب نظراتها التي تتابعه منذ دخوله للغرفة ملقياً التحية بخفوت.. تحية لم تردها.. فقط اتسعت عيناها بذهول وهي ترمقه يتحرك في الغرفة بهدوء وكأن كل مشاجراتهما السابقة لم تكن!..

وكأن كل كلماتها وأفعالها لإقناعه باتخاذ حياة جديدة.. لإفهامه أن عليه الابتعاد ليحافظا على حبٍ أرادت يوماً أن تحوله لعشق خالص، ولكن حبال ذكرياتها كانت أقوى من أحلامها.. فقيدت حلمها بمهده، بل وأجبرتها على قتله.. وهي الآن تحاول بكل ما تملك أن تحافظ على بقايا هذا الحلم.. حتى لو بخيال أو طيف من حبيبها..

أغمضت عينيها للحظات وتحركت للحمام قبل أن تغيب للحظات.. استجمعت بهن قوتها.. ورسمت الوجه اللامبالي.. قبل أن تسحب قرص المخدروتقبض عليه بأناملها وتعود لعلي الذي كان يراقب خطواتها الغاضبة بقلق..

كتفت ذراعيها وهي تسأله بلامبالاة:



- أنت بتعمل إيه هنا!.. فاهم علشان وافقت أروح للدكتورة يبقى خلاص.. هاتقبل رغباتك عادي كده!..

اتسعت عيناه غضباً وهو يكتم رداً حاداً كاد أن يتفلت من بين شفتيه.. وذلك بناء على نصيحة الطبيبة.. والتي على ما يبدو لم تفهم للآن عمق مشكلة ريم التي هتفت باستفزاز:

- على فكرة ما فيش حاجة اتغيرت فيَّ ولا في حاجة هتتغير.. اللي اتغير هو أنت.. دلوقتِ بقيت عارف أنا بعمل إيه عشان أكون معاك..

وبلحظة رمت المخدربين شفتيها وابتلعته أمام ناظري علي الذي دفع الغطاء بعنف وقد فقد سيطرته على غضبه:

- ومين قالك أني عايز أكون معاكِ!

ارتجف جفناها للحظة وقد صدمها رده العنيف ولكنها أدركت أن علي الصبور.. علي العاشق المتفاني بدأ يتصدع.. كرامته وكبريائه الرجولي بدآ يئنان بشدة.. ونسيت أن مشاعر علي الإنسان طُحنت بفعل قسوة تصرفاتها.. ولكنها لم تأبه.. بل أكملت:

- أومال رجعت الأوضة ليه!..

لم يجبها علي وأشاح بوجهه بعيداً يستدعي سيطرة بدأت تفلت من عقالها.. فهزت ريم كتفيها بلامبالاة:

- مافيش رد صح!.. طيب.. عامة دقايق.. ومفعول القرص يبتدي وأكون تحت أمرك..

لم يتحمل علي سماع كلماتها المهينة.. رجولته.. كيانه.. إنسانيته.. كلها جرحت ومزقت وشوهت بكلماتها.. بتصرفاتها.. والغاية حب!..

وهل يستحق الحب مهما كان صادقاً بذل النفس لتلك الدرجة!!..

لقد بدأ يشعر بنفسه كفتاة يائسة تتدله بحب رجل ليس لها..

هب من فراشه يواجهها ساخطًا:

- عاوزة إيه يا ريم؟..

أجابته بسرعة:

- أنت اللي عاوز يا علي.. ورجعت عشان تاخد اللي عاوزه..

جز علي أسنانه بقوة وهو يكتف ذراعيه بدوره ويخبرها بغضب:

- بقى لك فترة بتحاولي تقنعي نفسك وتقنعيني بفكرة هوسي بالعلاقة الزوجية.. بس أنا شايف العكس..

ارتدت ريم خطوة للخلف وكأنها تبعد نفسها وذكرياتها عن مجال تفكيره وهتفت بتوتر:

- قصدك ايه؟..

هتف وقد نسى تحكمه بأعصابه:

- قصدي الهوس عندك أنتِ، عندك هوس غريب بذكر الموضوع ده بسبب ومن غير سبب..

تمسكت أناملها بجانبي منامتها بعنف وأغمضت عينيها للحظة وقد عادت عقدتها تتحكم بها.. ارتفعت وتيرة تنفسها لثوان ومشاهد عديدة تمر بذهنها.. وأخيراً فتحت عينيها على اتساعهما وهي تخبره بقسوة:

- والمهووسة دي بتضطر تخدر نفسها وتدخل في غيبوبة عشان تتحمل لمستك..

لمحت وجهه وقد ارتسمت عليه ملامح غريبة عليها..

هل هو الكره!.. لا.. لا يمكن..

ولكنها كانت محقة.. فعلي بالفعل كان يشعر بكره عميق لنفسه.. لمشاعره نحوها التي سمحت لها بإهدار كرامته مرة تلو الأخرى.. يكره حبه لها الذي جعله يقف أمامها ليستمع لتلك الكلمات البغيضة تخرج من بين شفتيها.. وياليتها اكتفت بل عاودت هتافها وهي تتمدد بالفراش وتفرد ذراعيها على وسعهما.. تغمض عينيها وتأخذ وضع استسلام مخزي:

- القرص اشتغل.. والغيبوبة اللي بتعجبك هتبتدي..

رمقها علي بغضب.. كاد أن يجذبها من خصلاتها.. يصرخ بها.. يوقظها من غيها.. ولكنه وجدها تتخذ وضعًا أكثر استسلاماً وخضوعاً لما تظنه يريده.. فلم يجد بداً من الابتعاد بحنق.. بحزن وخيبة أمل بدت بكلماته التالية:

- استمتعي بغيبوبتك لوحدك.. أنتِ عارفة أني مش هعاشرجثة..

ولكنها لم تكتفِ.. بل التفتت له بعنف:

- اتجوز يا علي.. ارضي نفسك مع واحدة تلبي رغباتك زي ما أنت عايز..

عاد من على باب الغرفة لينحني نحوها هاتفاً بحدة:

- ورغباتك أنتِ يا ريم.. مين هيرضيها؟..

برقت عيناها بفزع وهي ترى غضب وكراهية وخيبة أمل تنطق بها نظراته وتلعثمت بكلماتها وهي تسئ معنى كلماته:

- أنا!.. أنا!!.. أنت بتقول إيه.. أنا..

قاطعها بسرعة.. بمحاولة أخيرة:

- رغبتك أنك تكوني أم... مش بتتمني أولاد يا ريم.. أولادنا..

عادت لها صلابتها وقد استوعبت مقصده ورددت بقسوة:

- بس أنا مش عايزة ولادك يا علي.. خلف ولادك من واحدة غيري..

ارتد عنها مجفلًا وقد صدمته كلماتها بينما أغمضت عينيها للحظة ثم فتحتها تنظر إليه ببرود عائدة لوضع الاستسلام الأول ورددت باستفزاز:

- أنا مستعدة..

هز علي رأسه رفضاً:

- بس أنا مش مستعد نستمر بالطريقة المخزية دي..

التفت ريم على جانبها توليه ظهرها:

- يبقى أنت قررت يا علي.

فتح خزانته ليتناول عدة قطع من ملابسه بسرعة وتوجه لباب الغرفة وهو يخبرها بخيبة أمل:

- لا.. أنتِ اللي قررتِ يا ريم.

أغمضت عينيها بمرارة وأجابته بصلابة لم تتخيلها بنفسها:

- مبروك مقدماً..

لم يجبها.. فلم يجد ردًا مناسبًا يجيب به زوجته التي للتو منحته مباركتها وتهنئتها على قراره الغير منطوق..

بمنحها لقب زوجة أولى..



هو بالفعل يحتاج لأخرى.. وإن لم يكن جسديًا فبالتأكيد روحيًا ونفسيًا.. حبيبته شوهت به كل ما ظنه يميزه بنظرها يومًا.. ورغم اعتقاده بوجود خطب ما بها، إلا أنه أصبح بحاجة ماسة لمن يرمم كيانه، إنسانيته.. فربما وقتها يمكنه مساعدتها..

الفصل الرابع عشر

العقاب هو أقوى وسيلة ردع.. والخوف منه هو الدافع الأقوى لنتوقف قبل الذنب أو السقوط في هوة رغبات النفس أو حتى احتياجها..

العقاب قد يكون من آخرين تخطينا معهم الحدود، آلمناهم.. وربما آلمنا أرواحنا معهم في منتصف الطريق بلا انتباه..

العقاب قد يكون من الخالق سبحانه، يبغي به ردنا إليه بعد أن شردنا في متاهات الدنيا..

وأيضًا قد يكون رسالة تطالب بالعودة، أو طريقة لإبعاد مَن نرفض..

العقاب شُرع في الأساس لتعزير النفوس الطائشة والسيطرة على أهوائها فلا تندفع خلفها بلهاث راغب وتقع في براثن الخطأ، ولا تترك لها الحبل على الغارب فنفقد هوياتنا معها..

وعلى قدر الإثم نعاقب، وأحيانًا من جنس العمل.. وعلى قدر الخوف نعود، ونرتدع..

قد يكون البعض لا يستحقون عقابًا لكن آخرين بالتأكيد جنوه بأيديهم على ذواتهم، وبقدر قسوته سيفكرون مائة مرة قبل أي خطوة تالية!..



وهذا ما كان يفكر به "إيهاب" وهو يتوجه بهدوء في ظلمة المكان إلى غرفتها.. عقابًا زاجرًا حادًا ونهائيًا يمنعها عن تكرار فعلتها!

عبث ببابها لثوان قبل أن يدخل دون صوت، يحكم إغلاقه خلفه بمفتاحه ويناظرها بأعين مستعرة بنظرات وحشية وهي نائمة في فراشها..

على ضوء هاتفه الخافت تأمل جسدها الفاتن، شعرها الطويل مبعثر بعشوائية حسية وشفتيها منفرجتين قليلًا تبحثان عن الهواء، عقد حاجبيه وتشدد فمه بقسوة، وخطوتين وكان يطل فوقها، يوكزها بيده بخشونة وهمس أجش:

- رانيا.. إصحي.. رانيا!

تململت بنعومة أنثوية يراها للمرة الأولى، لم يكترث كثيرًا قبل أن يقبض على ذراعها بغلظة وحركها لتجلس وهي تشهق بذعر:

- إيهاب!.. أنت بتعمل إيه هنا؟.. هتودينا في داهية لو حد شافك!

ولم يبالِ أيضًا، هو أتى لغرض واحد ولن يتركها قبل تنفيذه..

العقاب!



جذبة حادة أوقفتها على ساقيها، ودفعة أبعدتها عنه بينما مد يده ليضيء مصباحًا جانبيًا خافتًا بجوار فراشها، يتأملها بوقاحة خالصة، وهي ترتعش بتوتر خائف:

- اقلعي.

- إيه!!

هتفتها مشدوهة باتساع عينين، ألقى هاتفه فوق طاولة خلفها وعاد يأمرها بصرامة أكبر:

- بأقولك اقلعي.. كل حاجة..

ارتبكت، أتراه غاضب!!

تعلم أنه سمع حديثها مع توأمته، حديث نتج عنه موافقتها المبدئية على الخاطب المتقدم لعمها، ولا تدري حتى الآن هل تلك الموافقة نهائية أم أنها مجرد مناورة مدروسة تحاول بها استرجاع "حمزة"!!

تنهدت حائرة وتقدمت نحوه خطوة:

- إيهاب حبيبي.. اعقل إحنا في أوضتي، لو عمي أو أي حد صحي هتبقى كارثة..

وكلمة "حبيبي" خرجت منها باهتة واستقبلها هو بأذن صماء مستخفة..

تمتمت بها خافتة للغاية وعيناها تجوبان الغرفة وتتركزان في النهاية نحو بابها المغلق بقلق، وبجموده الذي لم يخرج منه منذ فتحت عينيها لتقابل قسوة عينيه:

- اقلعي!

بتكرار أشد شراسة، وعندها لم تجد بدًا من التنفيذ.. تعلم أنه سيعاقبها لكنها الآن باتت: خائفة!

بأصابع متوترة مرتبكة خلعت سترة منامتها تبعتها بسروالها ثم ملابسها الداخلية، وقفت أمامه عارية وهو يتأملها بتعبير مبهم!..

لفت ذراعيها حول جسدها تحاول مداراته بتوتر لم يغادرها بعد..

وخطا نحوها فأغمضت عينيها تنتظر قبلاته العنيفة وما يليها من عقاب..

الاختلاف فقط أن أتاها ما لم تتوقعه وهو..

صفعة!!

ارتدت خطوة للوراء وجفنيها ينعصران فوق عينيها بألم، وشهقة خافتة حبستها بين شفتيها خشية أن تنفلت فتصل لأذني أحدهم..

عادت تنظر إليه ويدها تمتد لوجنتها بدهشة:

- إيهاب!!



وفتاها كان خارج حدود الوعي، فكأنما الصفعة أشعلت ما تبقى من زمام غضبه فأحرقته وتركته رمادًا مبعثرًا.. انقض عليها بصفعة أخرى، لكمة في كتفها.. أخرى في صدرها ثم دفعة قوية أسقطتها أرضًا بتأوه خرج رغمًا عن إرادتها عاليًا بموازاة دموعها ونظراتها المحملة بهلع مذعور لا حد له..

أوجعها ظهرها وكتفها الذي شعرت به انخلع من مكانه، لكن انقضاضة أخرى منه أخرست كل أفكارها وجمدت ملامحها على لوحة رعب مرسومة باحتراف..

ركع على ركبة واحدة جوارها واعتصر عنقها بين أصابعه، مال نحو أذنها وسمعت فحيحه الشرس المختل بينما تجاهد لالتقاط بضع أنفاس:

- ابعدي سِمك عن أمنية يا رانيا وإلا وديني وما أعبد ما هارحمك..

واشتدت قبضته أكثر فتحشرج صوتها، مدت أناملها تجذب يده التي تمنع عنها الهواء ولا فائدة، بدا في عالم مغاير ونظراته تتحول لعنف خالص ووحشية أيقنت منها أن هذه آخر أنفاسها بالفعل..

فجأة مع تأوهها الذي انخفض تدريجيًا ثاب لرشده فتأمل قبضته بتيه للحظة دون شعور ثم دفع رأسها بعدها بغلظة لتصطدم بالأرض، زاغ بصرها وهي تراه ينهض واقفًا قبالتها، يفكك أزرار قميصه ببطء قاتل،

يخلعه أمام ناظريها وعيناه لا تأسران سوى عينيها.. يخبرها عن عقوبة أشد..

وعن عجز مقهور لا تملك إلاه في مواجهته!

ارتعش جفناها وأفكارها صرخت بعقلها.. هذه هي النهاية، سينهي ما بدأه هذه المرة.. سينهشها رغمًا عنها وينتزع منها عنوة آخر ما تبقى لها..

ظل عذرية حافظت عليها لتفقدها فقط تحت غطاء شرعي حتى وإن فقدت براءة جسدها بأكمله قبلها مرارًا..

تراجعت للخلف زحفًا وأشارت نحوه وهو يكمل خلع ملابسه دون كلمة:

- والله لو عملتها يا إيهاب لأقول لعمي.

وابتسم ساخرًا، يوقف تراجعها الزاحف يأسًا بجذبة عنيفة من قدميها إليه، يتملك منها، يميل فوقها ومازال الغضب يسيطر عليه، يدفع رأسها بعنف أكبر والارتطام بالأرض لمرة ثانية أصابها بدوار شديد، حاولت الحفاظ على وعيها وهي تسمعه يستهجن هازئًا بتهديدها الأجوف:

- ابقي وريني شطارتك واثبتي.. مين هيصدق!!

وجذب خصلاتها بين أصابعه بخشونة كادت تقتلعها من منابتها:

- أنتِ واحدة أكبر مني.. أد أختي الكبيرة.

واقترب من وجهها بأنفاس حارة محملة برائحة تبغ غير بريء يطحن أسنانه وغضب بري يتلبسه ويغيب عقله:

- ولا ناسية إنك أنتِ اللي غويتيني من الأول؟!

وشرد لثوان لهثت خلالها في ذكرى.. ذكرى فتى يافع طموح في السنة الأخيرة من دراسته الثانوية، فتى بذل الجهد واجتهد حتى أقصى قدرته ليحقق حلمًا ظنه طوق النجاة الذي سينتشله من حياة فرضت عليه، لتأتي هي بأنوثتها المغوية، بسحر فتاة تعلم أنها جميلة وتستغل ذلك فتسقطه معها في مستنقع الخطيئة الضحل ويفقد آخر حبال الحلم..

قبض على شفتيها بقسوة حتى تذوق طعم الدماء الصدئ:

- ناسية إن حلمي ضاع بسببك!

وصدم رأسها بالأرض مجددًا:

- بامد إيدي لجوز خالتي عشان يمن عليَّ بمصاريف جامعة خاصة!!

وازدرد لعابه بجنون وزاغت عيناه:

- بسببك هافضل مديون لحد إمتى مش عارف!

وعاد لِما أتى لأجله.. عانت لوقت غير محسوب بين غياب وشيك عن وعي تحاول التعلق به، وضراوة تقاتل بها لتفتح عينيها.. وهو يهينها أكثر ويتمكن

من جسدها بالكلية دون قدرة على ردعه.. دون حتى صرخة تستنجد بها أو دفعة تبعده عنها..

لكنه خالف ظنونها وأجهض مخاوفها عندما توقف عند حده المعتاد بينما هي تحت رحمته بلا حول أو قوة..

بعدما انتهى منها، نهض يلملم ثيابه المبعثرة، ينظر إليها من علو باحتقار.. يراقب تعبيرها الواهن وجسدها الذي نثر آثاره فوقه بمجون كما أراد ليذكرها بعقوبة العبث معه أو مع من يهمه أمرهم..

ارتدى بنطاله وأكمل بقميصه، مال نحوها وهي تستدعي أقصى طاقة تبقت في جسدها لتستند إلى الفراش وتجذب شرشفًا تستر بها عريها:

- المرة الجاية يا رانيا.. مش هاخلي في نفسي حاجة.. ومش هسيب حاجة للأهبل اللي هيشيل شيلتك..

وقبض على ذقنها يجبرها على مواجهة نظرة شيطانية مرعبة تمكنت من عسل عينيه فحولته للهب متأجج مخيف:

- ابعدي عن أمنية.. ده تحذير أول وأخير.

ونفضها كخرقة بالية، تحرك يغادر الغرفة بهدوء كما دخلها وانهارت هي بالبكاء بعدها..



ترى هل العقوبة على قدر إثمها!!

أم أنها تعاقب على ما تجهله!!

وزاد عزمها للحصول على رجل ينقذها من جحيم هذا المنزل بكل من فيه، حتى ذاك الذي يخضعها لسيطرته في كل لقاء.. دون إرادة!

***

أحيانًا يندمج عقاب الآخرين بعقاب من نوع خاص لأنفسنا.. يتكالب الألم على أرواحنا فنفقد وضوح الرؤية، نندفع بغضب لنداوي جرحنا.. نعاقب من جَرح..

وننسى أننا نتوجع معه، له، نشاركه بنصف أنات عذابه، مهما بلغت قسوته هو!

وهو فعلها بدافع مبرر من كرامة جريحة، كرامة أُمتِهنت مرات ومرات بلا مسوغ ظاهر، فعلها والموجب رجولة مخدوشة لأجل حبيبة لا تأبه كثيرًا لما تبعثره بداخله من أحزان وهموم حتى شتت روحه بالكلية!

فعلها يعاقب بمشاركة أخرى لها فيه، ومعها يعاقب نفسه بأن يكون لغير من عشقها القلب!

لكن.. أهو عقاب بالفعل، أم استحقاق!!

هل يؤذيها بحاجة هي فقط جبران لروحه الهشة التي حطمتها، لقلبه الكسير الذي دهسته رغم عشقه لها وغرامها الذي يتمكن منه!

لا.. هل هو عقاب أم احتياج!!..

لنفس ترمم ما تبقى منه!..

لود ورحمة ومحبة هم أساس أي علاقة ناجحة.. بل ميلاد وبناء وختام سنة الكون.. فطرة فطر الله الناس عليها ليعمروا الأرض.. ليسكن كل زوج لزوجه فيجد فيه الأمان والراحة والاطمئنان ويكمل به افتقار كيانه للاكتمال!

زفر بضيق وأقر رغمًا عنه ورغمًا عن ظرف غمس نفسه في أعماقه ولم يجد بعدها المفر..

هي اكتماله نعم.. لكنها فقط تسعي بجنون بحثًا عن أوجه النقص فيه..

اعترف أنه أقدم على خطوة غير مدروسة بذريعة عاطفية وكرامة رجولية أدت في النهاية لأن يحيط إصبع أخرى بحلقته، ووعد بزواج قريب لا مفر منه الآن!

فتح عينيه يتأمل يده اليسرى بشجن، مد سبابته وإبهامه يحيط حلقتها هي حول بنصره، يديرها بشرود.. خلعها لثوان وتأمل اسمها المنقوش داخلها بدقة كما هو بقلبه تمامًا..

"ريم"

وتأوه بوجع!

أعادها لإصبعه متذكرًا الأيام الماضية، يوم تركها بعدما قضت برعونة على آخر خيط تماسك لديه، يوم ذهب لأمه ملقيًا في وجهها بقرار حاسم..

سيتزوج رؤى!

وفهم فرحة أمه، تعجلها لإتمام الأمر.. ولم يمر يومان إلا وكان يلبسها حلقته معتذرًا قبلها عن عدم خلع حلقة حبيبته.. والرقيقة تفهمت رغم ضيق اعتلى وجهها للحظات..

بعدها.. راحت السكرة وجاءت الفكرة..

سكرة ألم وامتهان واتهامات جزافية لا حصر لها من زوجته.. وفكرة أنه بالفعل ربط نفسه بأخرى لا ذنب اقترفته سوى أنها وقعت في طريقه لحظة ضعف، لحظة احتياج.. لحظة طالبت فيها كرامته بالثأر!

تنهد بحرارة قلب يتلظى فوق نيران اليأس.. فبعدما جاءت الفكرة ونهره قلبه، لامه وعاتبه أنه ترك ذاته لغير محبوبته، منحها حق المشاركة، وهبها نفسه تدخل عقله ليساوم بواقع عذب لياليه..

وأصابته حيرة في مقتل!



هل أخطأ بقلة صبر؟.. هل تجاوز بربط امرأة به وهو لا يملك منحها من روحه شيئًا، من فؤاده النابض بهوى غيرها.. من عقله الذي ملأته ذكرياتها، بل ذكرياتهما معًا منذ اللحظة الأولى التي وقعت عيناه عليها فيها!

وعاد يطلق زفرة متأججة بضيق غاضب، يوم فكر في التراجع خوفًا من ظلم يوقعه عليها بلا وعي، قلقًا من وجع خافقه الذي لا يسكن إلى لزوجته مهما طعنته.. وذهولًا من حياة حشر نفسه داخلها ولا يعرف هل ستناسبه أم لا!.. يومها تدخلت أمه بحسم تلغي كل قرار قد يتخذه برعونة:

- هو لعب عيال يا علي؟

وجلست تواجهه بتأنيب:

- إمبارح ماما اخطبي لي رؤى.. والنهاردة ماما مش عارف هينفع أتجوزها فعلا ولا لأ!

واسترخت في مقعدها تزم شفتيها بصرامة، تعقد ذراعيها وتواجهه بقلب أم ونبرة حزم:

- أنت خطبت البنت.. وده حقك، وحقي أنا كمان فيك أشوف أحفادي قبل ما ربنا يسترد أمانته..

ولاحقها مرتبكًا وقلبه تنهشه كل عذابات الدنيا:

- بعد الشريا أمي.. ما تقوليش كده، ربنا يطول في عمرك لحد ما تفرحي بيهم كمان.. بس..

ولعبت على وترحبه لها، واشتياقه هو الآخر لطفل من صلبه وهي تعلم رغم تمسكه بحبيبة يظنها هي الحياة ولا يرى غيرها:

- ما بسش يا علي.. إحنا خلاص اتفقنا مع الناس ولبستها دبلتك وحددنا ميعاد كتب الكتاب كمان، والبنت طيبة وبنت أصول لا طلبت فرح ولا تقلت عليك، يبقى تقدرها وتكمل معاها بما يرضي الله..

لكن رغمًا عن رجل عاش الحب وذاق منه سعادته ووصبه وانكوى بناره لم يستطع، بدا له اختياره سهلًا، بعيدًا عن حرب كان قد قررها لأجل من يحب..

فتح فمه يعارض من جديد وقاطعه رنين هاتفه باسم مخطوبته:

- أيوة يا رؤى..

أتته نبرتها الباكية حتى كاد يلامس دموعها عبر رقة صوتها وهي تتمتم بخوف:

- ماما يا علي.. تعبانة قوي ومش عارفة أتصرف.

قفز من مكانه برد قصير:

- ثواني وأكون عندك..

وانتهت الثوان والدقائق والساعات ويومين.. رحلت الأم بعد وصية قصيرة، أوربما لم تكن وصية قدرما هي راحة شملت ملامحها وشكلت لهجتها وهي تناظره بود ومحبة، تتمسك بكفه وتوصيه بابنتها.. تبتسم براحة وآخرما تهمس به:

- أنا مش خايفة يا ابني.. الموت علينا حق، المهم إني اطمنت على رؤى.. خلي بالك منها، مالهاش غيرك من بعدي.

وأطلق تنهيدة أخرى وتالية وعاشرة.. أنفاسه محبوسة داخل صدره المتعب، عقله تتنازعه صراعات لا نهائية.. وحيرة تتملكه.. فهي الآن لم تعد مجرد حاجة لنفسه، لم تعد عقابًا، بل صارت أمانة معلقة برقبته..

والنتيجة لم ينجح أحد..

فلا هو انتصر لكرامته بصدق، ولا قلبه سامحه، ولا هي ستحظي برجل كامل تستحقه!

***

العقاب في الغالب يأتي دون توقع..



ربما دون أن تدرك حتى أنك أخطأت وهناك جزاء في الطريق تستحقه وستناله!

تنسى، تتجاهل، تستمر.. لكن يبقى الاستحقاق واقعًا لن تهرب منه، وحقيقة ستحدث شئت أم أبيت، ألمًا مجبر أنت على خوض دربه غير الممهد، وخوفًا سيلقى في وجهك بأسوأ طريقة..

ولأنه لا يدرك أن هناك خطأ ما قد حدث بالفعل.. مهما حاول علاجه ستبقى ندوبه ظاهرة للعيان؛ فقد استمر في طريقه باحثًا عن حياة مكتملة مع من اختارها له القدر..

ومن اختارها كانت تقف أمامه، توليه ظهرها بحياء وتتشاغل بعينيها عنه ناظرة لكل شيء عاداه، وهو يتأملها ببسمة هادئة قبل أن يقتحم خلوة أفكارها:

- ها.. إيه رأيك؟

وكانت مجبرة على التفاتة، تخفض رأسها أرضًا بهزة موافقة:

- حلوة قوي..

اقترب خطوة وحرك ذراعيه مشيرا للمكان من حوله:

- تقدري تغيري فيها زي ما تحبي.

وعاد يبتسم، ورفعت وجهها تتطلع إليه ببسمتها الرقيقة، ووجنتيها كما العادة محمرتين:

- حاجات بسيطة بس.

قلب كفيه بإشارة واضحة لتنفيذ رغباتها:

- كل اللي أنتِ عاوزاه.. ده هيبقى بيتك.

ابتلعت ريقها وأدارت وجهها بحجة تفحص منزلهما المستقبلي معًا، واستكمل هو نظراته المتمعنة والتي سقطت في تلك اللحظة على خصلة بلون العسل تحت ضوء شمس منتصف النهار، لامعة ناعمة لم يقاوم بعدها رؤية المزيد.. وانتبهت هي، مدت يدها بارتباك تعيدها أسفل وشاحها فاقترب خطوة متعجلة:

- لا.. استني.

نظرت إليه حائرة، ومن عينيه أصابها خجل.. ومن نبرته الملهوفة شعرت بتوتر:

- عاوز أشوفه.

تراجعت خطوة هي كل ما تملك، ورفضت برقة خجول:

- لا يا عمرو مش هينفع.. أنا..

قاطعها بتوق:

- أنتِ مراتي.. يعني ينفع طبعًا.

هزت رأسها معاندة فهمس باسمها بينما يقترب تلك الخطوة التي تباعدتها:

- آية!!

وكاد وجهها يتفجر بالحمرة القانية، حمرة فتنته في لحظة وتنهد وهو يتوسلها بهمس آخر:

- آية.. عاوز أشوفه!

وحاول افتعال مرح يقلل به من خجلها:

- حقي على فكرة..

تأوهت داخلها وهي تكاد تهرب من مواجهته، وبلحظة حاسمة مدت أناملًا مرتجفة تفك وشاحها، تزيل رباط شعرها وتتركه لينساب بنعومته فوق كتفيها..

واتسعت عيناه انبهارًا وبقلبه يتمتم:

"ما شاء الله"

بدت كقمر وردي يعانق شمسًا غاربة.. فلا استقر في ليله، ولا أدفأ نهاره..

ودون إرادة مد يده نحوه، وتجمدت هي، تخلله بأصابعه مستمتعًا قبل أن ينتبه فيبتعد بصعوبة، يزفر نفسًا حارًا ويخبرها بجدية:

- ما تلبسيش حجاب حرير تاني.. طبيعي حرير مع حرير شعرك يخرج من تحته.

وابتسمت بخفر.. هل يغازلها؟!.. هذه أول مرة، لكنه نظر لابتسامتها واعتقد بفهم خاطئ:

- أنا باتكلم جد يا آية.. ده مش غزل.

رمقته بنظرة سريعة متضايقة وزمت شفتيها بتكشيرة بدت لذيذة فابتسم هو، ومد يده ثانية نحوها يداعبها معتذرًا:

- ما هو حرير يا آية.. ينفع كده يعني!

ولامس وجنتها بتردد:

- ما تزعليش..

رعشتها أسفل كفه أثارت في نفسه نشوة دفعته لاقتراب أكبر، تردد وانحناءة تبعتها لمسة دافئة من شفتيه لوجنتها.. قبل أن يبتعد محاولًا التماسك، هو أراد أكثر.. وهذه خطوة أولى لا ينبغي أن يزيد عنها:

- يلا البسي عشان ننزل..

وبدا وكأنه يهرب من اختلائه بها، هبطا لمنزل أمه سويًا وأمام الباب قابلا "عبد الرحمن" القادم في زيارة لمخطوبته.. تبادلا التحية ورحبت "نشوى" بخاطبها قبل أن يلاحظ "عمرو" نظراته المنصبة على زوجته هو..

نظرات شبه منبهرة، بها لمحة إعجاب وهي وجهها محمر بشدة..

لا ينكر، هي متعة جاذبة للنظر برقتها وحيائها..

وانتابته غيرة دفعته ليجذبها نحوه بتملك ظاهر كأنما يخبره بصمت أن يحتفظ بعينيه لنفسه، ولاحظت شقيقته فعلته فابتسمت ساخرة:

- إيه مش كفاية؟.. كل ده فوق مع بعض وما شبعتش!

وازداد خجل فتاته لدرجة مثيرة للجنون، وخاطبها مرت مسحة من ضيق فوق ملامحه لمحها هو فشدد من ضغط يده فوق كفها بينما يسحبها نحوه أكثر فأكثر مغتاظًا من تركيز "عبد الرحمن" معها لدرجة أصابته بالحنق..

رد معاندًا بواقع بات يشعر به:

- هي فعلا آية ما يتشبعش منها.

ثم التفت يواجهها هي ببسمة ملتوية:

- ما تيجي أفرجك على أوضتي.. ما شفتيهاش.. عشان تعملي حسابي وأنتِ بتظبطي الديكور في بيتنا..

ونال فتنة حمرة أصبحت رونقًا يجذبه، اعتذرت بارتباك لطيف بات إدمانه الخاص:

- معلش يا عمرو.. مش هينفع، اتأخرت قوي ولازم أروح..

مط شفتيه متضايقًا وهي تكمل:

- هاسلم على ماما عشان ما اتأخرش أكتر من كده..

تبعها وهي تتوجه إلى المطبخ حيث والدته:

- خلاص ماشي.. هاوصلك.

وربما في لحظة ما يشعر أن ما يمتلكه كان له عن طريق خطأ..

خطأ لم ينل عليه عقابًا للآن، ومن يدري من أين ستأتي الضربة!

***

هل يمكن أن نعاقب لأننا قررنا أن نحيا!!

هل الخوف في حياة البعض فعليًا فرض عين لا مناص عنه!!

هل توقع علينا أقصى العقوبات لأن القلب عاد ينبض، لأن النسيان نعمة استعملناها ومررنا أوجاعنا من ثقب إبرة الماضي لخانة الذكرى!!

هل عقابنا من الممكن أن يتجسد بخوف أكبر مما أرعبنا سابقًا، فيتحتم على قلوبنا العيش في مملكة الرهبة والذعر دون أمل!!

هو لا يملك الجواب على أي من هذه الأسئلة، ولا حتى قلبه الذي لم تهدأ نبضاته بين ضلوعه للآن وهو يراقب ملامحها الناعمة وجفنيها المتعانقين بسلام كأنما تحلق فوق غيوم حلم رقيق..

لا يدري أهناك عقاب ما يلوح بأفق حياة ابتدأها للتو!.. أم أنه فقط واهم، يوسوس له شيطانه بما يفوق قدرته على التحمل لينغص عليه سعادة لمسها منذ وقت ليس بطويل!

مد أصابعه يغوص بها في خصلاتها شاردًا فيما حدث ذلك الصباح، حين تركته يوم إجازته لتقوم ببعض مهامها اليومية بالمطبخ وانشغل هو بمشاهدة فيلم رعب..

دقائق ووصله صوت ارتطام وسقوط وصرختها المتوجعة..

لم يشعر بنفسه إلا وهو معها.. يناظرها بهلع ارتسم على خلجاته بل انحفر فيها..

يرفع جسدها من فوق الأرض وهي تتأوه بضعف، بينما عيناه تقعان على السلم المنزلي الذي أفلتت قدمها من فوقه فسقطت أرضًا وللتو اكتشف جرح جبينها والدماء التي سالت ببطء خارجه:

- بسمة.. أنتِ كويسة، ردي عليَّ!

اعتمدت عليه بوهن وهي تشعر بدوار طفيف:



- كويسة يا صلاح ما تقلقش.. رجلي فلتت بس.

أجلسها فوق الأريكة التي كان يحتلها قبل قليل، وثوان وعاد إليها بمطهر وقطن ليهتم بجرح جبهتها، عالجه برقة وقلبه ينتفض مذعورًا، بل مرتعبًا خائفًا متوجسًا وقد تمكنت منه كل مخاوفه واجتمعت عليه تعتصره بلا هوادة..

- حاسة بإيه!

- كويسة يا حبيبي والله..

أنبها بضيق ملأ نبرته:

- يعني اللي أنت عاوزاه ومش عارفة توصلي له ناديني أجيبهولك.. ينفع كده تقعي وتتعوري!!

ربتت على كفه برقة واقتربت تطبع قبلة ناعمة فوق فكه المتشنج:

- معلش.. ما حصلش حاجة، صدقني أنا كويسة.

لم يصدق، بل احتد صوته بغضب وليد:

- هو إيه اللي ما حصلش؟.. الدم ده كله وما حصلش!.. والوقعة!.. ما تعمليش كده تاني..

رأت غضبه غير مبرر، بل ضايقها بدلًا من اهتمام كان أفضل لو أظهره، لفت وجهها واختلج جسدها ببوادر بكاء..

لاحظ ما حدث فضم قبضتيه يكبت ثورته، جزعه، سخطه الذي انتشر داخله.. وفزع من صورتها التي تتكرر بلا توقف برأسه حينما وجدها قبل قليل..

مد يده يعيد عينيها لتغوصا بعينيه:

- ما تزعليش مني.. أنا خايف عليكِ.

سالت دمعاتها بصمت فارتجف فؤاده، ضمها إليه ومال يمسح عبراتها بشفتيه:

- خفت عليكِ يا بسبوسة.

دفنت جسدها وتكومت فوق صدره تستشعر أمانه، لا تدري ما الذي حدث له ليصاب بكل ذاك الهلع!.. لكنها سعيدة باهتمامه وإن كان زائدًا عن الحد..

- تعالي نعمل آشعة.. نطمن.

تفرق جفناها ذهولًا وابتعدت تتطلع إليه:

- آشعة!!.. يا حبيبي باقولك أنا كويسة، أنت بتقول إيه بس!

- طيب مش مصدعة ولا دايخة!!

ابتسمت بحنان وربتت على ذراعه الذي يحيط بها باحتواء دافئ:

- لأ..

- عينيكِ مزغللة!!

توسعت البسمة بحب:

- برده لأ..

ومطت شفتيها بدلال فطري:

- طول ما أنا في حضنك أنا كويسة.

بادلها الابتسام بارتباك.. جذبها ليعيدها بين أحضانه، وقلبه لا يتوقف عن الهدير بقسوة آلمته فعليًا..

شعر بهدوء أنفاسها فرفع وجهها إليه عنوة:

- ما تناميش!..

كان النوم يداعب أجفانها نوعًا ما فتراخت مستسلمة لكنه عاد يهزها:

- بسمة صحصحي.. ممكن يغمى عليكِ وأنتِ نايمة، هاعرف إزاي!

عادت تبتسم وتربت على قلبه، تطمئنه بنبرتها الهادئة.. وتتحدث معه حتى راحت رغمًا عنها في النوم.. تأملها بقلق ثم نهض يحملها بين ذراعيه إلى غرفتهما.. أنزلها فوق الفراش وجاورها، يرنو إليها، يدقق في تفاصيل وجهها.. يتابع أنفاسها..

خرج من شروده على تأوه خافت غادر شفتيها وهي تتقلب لتندس بنعومة قرب جسده كقطيطة أليفة تتمسح بصاحبها فابتسم بحنان.. ضمها إليه وسعى جاهدًا يأمر عقله رافضًا النعاس..

بل رافضًا كل ما يثير بنفسه التوجس من غد يخشى فيه عقابًا أسوأ من ماضيه..

عقابًا على حياة خطا إليها، وتناسى ما سبقها وكأن ليس من حقه أن يحيا بعد من رحل!!

***

"قبلت زواج موكلتك"

ووضع توقيعه بجوار توقيعها.. وانتهت الليلة بها زوجة لغيره وإن كان عقدًا حبره على ورق وحسب للآن..

هل أحيانًا نعاقب أنفسنا في ظل عقابنا لآخر تركنا بمنتصف الطريق وقت الحاجة إليه!

هل العقاب يكون قاسيًا حد أننا نتيه ولا نعي أننا بالفعل نخطئ ولن نشعر بالخطأ إلا عندما نغوص في وحله حد الغرق!

ربما لا.. وغالبًا نعم، لكنها اتخذت القرار، وفي خضم ضياعها ضاعت أكثر.. هي وافقت على خطبة مبدئية تدرس بها الصيدلي الشاب، وذاك السبب المعلن، أما الحقيقي فكان إثارة غيرة من تريده حقًا.. "حمزة" الحبيب والمستقبل والحلم الذي أرادته ثم تسرب من بين أناملها على حين غرة!

والخطبة تحولت لعقد قران بناءً على فرمان رسمي صدر من الحاج "سلامة" والحجة حاضرة وواضحة وواحدة في جميع الأحوال.. هو لا يعترف بما يسمى خطبة، وهذا ما كرره في جميع زواجات أبنائه للآن..

ورفضت دون أحقية كاملة بالرفض، ثم رضخت.. فهي من اختارت منذ البدء..

وبعقد شرعي أصبحت زوجته.. والشاهد الأول على الزواج..

حبيب سابق!

لا تدري للآن كيف طاوعه قلبه على وضع توقيعه فوق وثيقة تربطها بآخر!!..

ودت لو لمحته، رأت عينيه، ملامحه.. ربما غضب ما، أو حتى إجبار من والده..

أي شيء، عناد.. رفض، لكنه فعلها.. سلمها بنفسه وانتهى الأمر..

حتى أخيها ونظراته المستفزة، كأنما يخبرها بوضوح:

"قلت لك بلاش.. أديكِ اتدبستِ في جوازة!"

ونعم.. ها هي الآن عالقة بين سندان محاولة استرداد فاشلة، ومطرقة واقع لا مفر منه!

تورطت بما لم يكن بالحسبان، والهروب أصبح محض خيال.. انتبهت على لمسة من يده، نظرت إليه بشرود فابتسم بمكر.. وانجذبت عيناها لبسمته.. هل هي ماكرة لعوب بالفعل!!

" مش معايا خالص يا موني"

تحشرجت نبرتها بدهشة:

- موني!!

انتقل من مقعده يجاورها فوق الأريكة العريضة حيث جلسا وحدهما بعد انتهاء حفل عقد القران، أخرج من جيب سترته علبة مخملية أنيقة قدمها لها:

- أيوة موني.. حبيبتي وبأدلعها، مبروك عليَّ..



تناولتها منه وخجل ما يطفو للسطح، يتسلل بحمرة وردية لوجنتيها وهي تبتعد بنظراتها، لكنه بجرأة مد أنامله يدير وجهها إليه ممسكًا بذقنها الناعمة:

- ما تبعديش عيونك الحلوة دي عني..

وغاص فيهما بنظرة:

- أنا باتوه فيهم.

- أسامة.. أنا..

- أنتِ أحلى من القمر.. وأنا محظوظ قوي..

يا إلهي.. هو يغازلها بمبادرة غير متوقعة من شخصه المرتبك السابق، كان يسقط الدواء وهو يناوله لها، المال يتناوله منها ويتوتر ويتعرق.. هل هذا هو نفسه!!

- موني..

وانتزعها من شرودها، واقترب برأسه وشفتاه تبحثان عن شفتيها:

- أنا أسعد راجل في الدنيا النهاردة..

وأمسك بهما في قبلة رقيقة شغوف.. ناعمة لكن متطلبة، وتجمدت هي باتساع جفنين ونظرات مذهولة، ثوان لم تفكر فيما يحدث، هل عليها

الابتعاد!!.. هل هو ذات الشخص الذي أوقعته ببضع نظرات وبسمات لتثير به غيرة آخر!!

هو الآن يلاحقها بكلام غزلي يدغدغ أنوثتها، يلامس شفتيها بتقدير كأنما هي جوهرة ثمينة، يداعب امرأة كانت بداخلها حتى لحظات مضت.. بقايا حطام..

وابتعدت أخيرًا بدفعة ضعيفة، تداري وجهها بخجل، وتتعثر الكلمات على شفتيها.. راقب هو تورد وجنتيها بإعجاب ماكر، وعاد لغزله غير البريء لكنه يصلها وبوضوح ولحد مسكر..

وانتهى اليوم، وعادت لغرفتها ببسمة حالمة، فتحت العلبة المخملية لتجد سوارًا ماسيًا رقيقًا مطعمًا بحبات رقيقة موزعة بنظام من اللؤلؤ..

نظرت إليه بانبهار وهي تحاول تقدير ثمنه الذي يفوق خيالها بالكثير، بل يفوق ثمن شبكتها من "حمزة" بالكامل!

وضعته حول معصمها وتأملته بإعجاب.. أمام مرآتها تطلعت لملامحها، وجهها المتورد، لامست شفتيها بذكرى واستعادت اللحظة..

أول قبلة لم تكن من الرجل الذي أحبت!

لكن هل أحبها هو؟.. أم استسلم مع أول رياح تعرضت لها مركبهما فعصفت بها وغادرها كفأر تاركًا إياها تغرق وحدها!!

تنهدت وناداها القلب متوجعًا:

"طب وحمزة!"

وتدخل العقل يذبحه بجملة واحدة باترة:

"حمزة شهد على عقد جوازك من راجل تاني غيره"

ونقطة وانتهى السطر وانتهت معه أحلامها بالفعل..

قبل أن تتيه في خيالاتها أكثر ارتفع رنين هاتفها يسحبها منها.. باسمه هو، خاطبها، زوجها والمسمى أصبح لا يشكل فارقًا!

- وحشتيني..

وأول كلمة بهمس دافئ، أو ربما حار تغازل مسامعها، وتحمر لها وجنتاها، وقبل رد منها يتمتم هو بنبرة أجشة أبحة بمشاعر لا تدركها:

- بجد الدقايق دي عذاب..

وتنهد فلم تجد ردًا بينما يكمل بحميمية جريئة:

- مش عارف هاقدر أستنى كل الوقت ده إزاي لحد ما تخلصي السنة دي ونبقى مع بعض!

هنا دهشتها كانت وصلت للذروة..

هي لا تعرفه!.. لا تعرفه على الإطلاق، وذاك عبرت عنه بحيرة ضائعة:

- أسامة!

وبادر برد سريع شغوف:

- قلب أسامة..

ارتبكت أكثر لكنها ألقت بدهشتها في وجهه فربما تفهم:

- ما كنتش متخيلاك كده.. يعني أنت كنت...

وصمتت، هل ستخبره أنها كانت تراه خجولًا حد البلاهة؟!.. بالطبع لا.. لكنه جاوبها بأريحية:

- أنتِ مراتي يا موني.. مش هاكون كده غير معاكِ أنتِ وبس!

وبدا لها تفسيرًا معقولًا..

وتناست عقابًا انتوته، وظنت أن ألمها يمكن تناسيه على نفس الدرب!

***

ومن بين كل الأفكار تظل فكرة التضحية هي الأقوى..

هل يمكن أن يتجسد عقاب النفس بتضحية!!.. لأجلها، لأجل سعادتها.. ولأجل أخرى أكثر احتياجًا منها لوجوده.. عاقب نفسه بأن يظل مع من كان يرفضها، وسلم بيده مالكة القلب لرجل غيره!..

غيره وباقي التفاصيل لا تهم، فهي لم تعد له، ولم يعد من حقه أن تمر بباله!

"سمية محتاجة لوجودك جنبها يا حمزة"

"ممكن تتعرض لأذى بخضوعها واستسلامها الغريب ده"

"سمية مراتك.. وطول ما هي على ذمتك مش من حقك تفكر في أمنية"

"الوضع منتهي.. خلاص سيبها تعيش"

"حتى لو مش هتقدر تنساها بسهولة"

"على الأقل يبقى حد فيكم عاش السعادة اللي يستحقها.. عاش حياته"

ومن وراء صراع تأزم به عقله وتناحرت داخله أفكاره لحد سبب له ألمًا في الرأس؛ مرر أصابعه بعنف بين خصلات شعره وزفر بهَمٍ يطبق على صدره، كان يصعد الدرج خلف زوجته وعقله يبرر ويدافع ويبحث عن أسباب لينهي حالة حرب سقط وسط وغاها رغمًا عنه..

ما الذي امتلكه بيده ليفعله ولم يفعل!!

في الحقيقة، الجواب لا شيء.. صفر لا معنى له أو قيمة، ومن بين كل الأسئلة برز السؤال الأهم:

"هل يود الاحتفاظ بها وحيدة في انتظار لا نهاية له، لحلم لن يتحقق، وأمل بعيد المنال حد المحال!"



ولأن الجواب كان الضمير يهتف به "لا".. والقلب يصرخ في مواجهته بـ"نعم".. تدخل العقل وحسم النزاع لصالحها هي..

"طالما هي وافقت تبقى راضية يا حمزة"

وكانت هذه هي القشة الأخيرة..

ولأجل اطمئنان يبحث عنه وفي الخفاء كان الدافع سببًا للرفض: ذهب بنفسه يسأل عن العريس المفترض، ولم يجد العقبة المطلوبة ليعود محملًا بحسن السير والسمعة والسلوك..

فتح باب منزله مزيحًا كل أفكاره جانبًا واستعاد ما حدث قبل قليل، قبل أن تهرب "سمية" لمنزلهما بعدما منعها أخيها الأصغر من الدخول لغرفة توأمته.. شقيقتها ليلة عقد قرانها..

منعها بنظرات أقلقته، وحركات فمه المتشددة والموحية بكلمات تحمل من الأذى الكثير، انكسارها الواضح، انخفاض رأسها وهروبها من المشهد برمته!

لحظتها توجه نحو "إيهاب".. واجهه بحزم صارم:

-دي طريقة تعامل بيها أختك الكبيرة قدام الناس؟

رمقه بنظرة مستخفة فأردف متضايقًا:

- منعتها ليه تدخل تبارك لأمنية؟

وتحولت النظرة لبسمة ساخرة سافرة باردة:

- دلوقتِ بتدافع عنها؟.. وسلمت أمنية لواحد تاني بإيدك!

- حقها عليَّ إني أحميها..

والتفت نحو باب المنزل الذي غادرته شبه باكية:

- هي دلوقتِ مراتي اللي ليها الحق فيَّ.

تتبع مصدر صوت بكائها الذي أصبح مألوفًا، هي بغرفتها تبكي بحزن واضح وبوجع وصله جليًا، دخل للغرفة وانتبهت لوجوده!

ظلل الرعب ملامحها، هو بالتأكيد غاضب.. بل مهتاج، حبيبته تزوجها غيره ولسخرية القدر سلمها له بنفسه، وهي كانت العائق الوحيد بينهما، هي متنفس آلامه، هي مصب غضبه، هي الضعيفة التي لا تملك من أمرها شيئًا.

وانسابت دموعها أكثر، تحبس نحيبها خلف شفتيها بكفها وتنظر إليه بهلع ظاهر، ترفع يدًا تداري بها وجهها تتوقع معها الأسوأ!!

وحينما لمح وضعها الدفاعي التلقائي شعر بالغضب فعليًا، غضب ممتزج بضيق وسخط، ربما ليس عليها.. لكن على من أفقدها ثقتها بمن هم مثله:

- نزلي إيدك يا سمية.. مش هاضربك، قلت ميت مرة مش هاضربك.

نبرته الساخطة أقلقتها، خافت الرفض فتنال منه عقابًا أكبر، وتهاب الإذعان فيفاجئها بصفعة على حين غرة.. والقلب يشجه ألمه لنصفين والحيرة تتملك منها فلا تدري ما تفعل!

في النهاية وبعد لحظات لم تطُل خشية أن تثير المزيد من حنقه أبعدت يدها عن وجهها، وجلس هو في مقابلها، سمع همستها التي تبحث بها عن أمان أخير:

- أنت غضبان!

ضم قبضتيه وابتعد عن موضوع لا يريد الحديث فيه:

- سعد كان بيضربك!!

لم يعد هناك بدًا من المواجهة، دفن الرأس بالرمال أضحى عبثًا، والرمال ذاتها متحركة يغوص في أعماقها ليجدها أشد ظلمة:

- الله يرحمه.

تمتمة خافتة عقد لها جبينه:

- ضربك كام مرة يا سمية؟

والهمس بالنفس بأنين:

"معاه نسيت العدد والحساب"

وعبر اللسان بشرود باحثًا عن مبرر:

- غصب عنه.. كان بيبقى غصب عنه.

هز رأسه بحيرة.. لم يعد يفهمها، بالأحرى أخيه الراحل هو من لم يفهمه حينها:

- ليه كنتِ بتسمحي له؟

حقا!!..

سخرية بمرارة العلقم عبرت حلقها، وجاوبت بهدوء كأنما هو حوار لا يمت لها بصلة:

- ما كنتش أقدر أمنعه.

- إزاي!!

وبدت في نبرته دهشة، ولأول مرة تواجه عينيه بعينين كسيرتين:

- هو أنت لو ضربتني دلوقتِ؛ إيه اللي يمنعك!

الرد بسيط للغاية، بسيط حد خنوعها الذي أصبح نقطة ضعفه، ونقطة خوفه..

أخيه المدلل كان يضرب زوجته، هي ترفض التصريح لكن الجواب ظاهر من عنوانه!.. كانت تحت رحمته لسنوات لم يدرِعنها أحد، لم تشتكِ في مرة، ولم تدافع عن نفسها..

ورغم واقع وحقيقة قابلة للمس، لم يستطع التصديق، بل رفضه..

نفض كل الأفكارعن عقله ونهض يجذب يدها:

- قومي.. تعالي..

- على فين

- هنخرج..

وجرها خلفه عدة خطوات استداربعدها نحوها:

- تحبي تروحي فين!

واجتمع في نظراتها تشتت مشاعر، دهشة.. استغراب، أمل وليد تخشى أن تتمسك به لتصحوعليه سرابًا ألفته حد الوجع:

- مش عارفة.

همست بها حائرة فزم شفتيه:

- طيب تعالي.. نخرج نغيرجووخلاص..



ولأنه لم يجد هدفًا فقد ظل يدور بالسيارة في دوائر مفرغة لا نهائية دون مستقر..

***

أحيانًا يملك واقعنا القدرة على عقابنا..

ربما بتجسيد ماضٍ سعينا للهرب منه ورفضنا الخضوع لما يمثله لنا، وربما لأننا أضعنا شيئًا ولم نكترث لذاك الضياع فوجب علينا جزاءً ما يعيدنا للشعور بما فقدنا..

هذا ما لم يطُف ببال "نبيل" وهو يتوجه نحو مكتب محاسبه الخاص باحثًا عن خيط ما يكمل به خطته التي رسمها لأجل إسعاد حبيبته..

قد تكون خطة ملتوية مزعزعة الأركان لكنه لا يملك سواها حتى يحتفظ بها في حياته..

دلف للمكان بهدوئه المعتاد ولم يجد المساعد الشخصي لـ"سمير" في استقباله!..

تحرك نحو الباب المقفل وطرقه بخفوت لكن دون استجابة!!

بدا المكتب خاليًا بطريقة غريبة رغم بابه الخارجي المفتوح على مصراعيه!

أتاه صوت مكتوم من المطبخ أثار دهشته وإن امتزج بها فضول!.. فهناك من أتى لأجلها، خطته الصغيرة التي يسعى لتنفيذها بأقرب وقت..

اتجه إليه بتردد، وقف أمامه لثوان يستمع للهمهمات الخافتة التي تصله، ميز بعضًا منها وانعقد حاجباه، أدرك الأصوات كذلك وثار شيء من غضبه!

ترى هل ما يظنه صحيح؟!

مد يده وفتحه ببطء وصدقت الرؤيا.. نعم، هي نصف عارية بين أحضان محاسبه تتمنع وتتدلل وتدلله كذلك وهو يحاصرها بأحد الأركان..

سمع شهقتها المتفاجئة عندما وقعت عيناها عليه فالآخر كان يولي الباب ظهره..

تعلقت نظراتها بعينيه الجامدتين.. وابتعاد الآخر عنها:

- نبيل!!

وابتعد كالملسوع يزرر قميصه، يقترب بمحاولة تبرير واهية، لكن "نبيل" لم تفارق عيناه الفتاة التي انطوت على نفسها بهلع، وصدرها العامر المكشوف أمامه يعلو ويهبط بتسارع حاد مذعور، انحنت تلتقط قميصها من فوق الأرض، ارتدته بعجالة ملهوفة وهي تدير ظهرها إليه بينما "سمير" لم يتوقف عن رصّ دوافع سخيفة لصديقه..

ولم يكن منصتًا، بل لم يكن هناك من الأساس.. بعدما شملها بنظرة أخيرة تراجع مغادرًا المكان وماضيه يلسعه بسياط الذكرى.. يحييها أمامه ويكرر الصور.. يعيد ترتيبها على حساب آلام اعتاد كتمانها، مداراتها خلف جدار هش من التناسي وأسفل قشرة مزعزعة من تجاهل!

جلس في سيارته دون أن يحركها، يجتر مرارة الأمس حد دمعة باهتة ترقرقت بمقلتيه..

أمه.. أبيه.. وزوجة أبيه الأولى!

انقبضت أصابعه حول المقود بعنف موجع لكنه لم يشعر به.. يتذكر أمه الحقيقية وإن لم تحمله بأحشائها أو تنجبه.. "روضة".. وهي بالفعل كانت جنته التي لا يهنأ إلا معها..

تاه في بارحة ضمت من الألم مقدارًا فاق حدود الاحتمال، وتلاشت فيها السعادة حتى تعسرت معها الرؤية..

تنهد والهواء أحرق رئتيه كأنه حمم مستعرة تنساب فوق صدره، زوجة أبيه الأولى التي حُرمت نعمة الإنجاب فتزوج الأب من غيرها والدافع مشروع، والمبررات بالمئات..



تزوج من والدته هو.. الفاتنة زرقاء العينين التي أنسته عالمه بأكمله حتى حصلا عليه، ولم يحصل هو عليهما، بل على أم كان احتياجها إليه يوازي احتياجه لها..

منحته من أمومتها المختزنة بداخلها ما يكفي ويفيض، وبالمقابل وضعها في المكانة التي تستحقها.. والدته الروحية!

المرأة الراقية الحنون العطوف.. المرأة التي كان يرى معاملة أبيه لها مثالًا خاصًا للغاية للاحترام والتقدير حد التبجيل؛ عكس والدته السيدة "مايسة" بالكلية..

"مايسة" الجميلة التي سحرت الأب فأصبح يتحول معها لمراهق أرعن طائش لا يتورعان معًا عن ممارسة حياتهما أمام عينيه دون خشية أو حياء..

الحسناء التي تظهر من جسدها أكثر مما تستر، التي يتبعها والده كجرو أبله في كل مكان بالمنزل، ويمارس معها علاقتهما الزوجية بأقذر الطرق.. دون أن يأبها لباب مقفل يحجبهما عن عين طفل لا يدرك من الدنيا شيئًا..

الأب الذي عامل إحدى امرأتيه كملكة متوجة، والثانية كغانية لا يرى منها سوى مفاتنها العارية!

وهو أراد أن تكون أمه ملكة كما روضته، لكن كيف ذاك وهي لا تريد!..

نعم.. هي من كانت تجبر والده على الخروج معها عن طوره المألوف، عن وقاره المفترض، عن حدود رسمها الحياء الذي لم تملكه..

حتى أتت الضربة القاصمة، حينما أجبرت أمه أبيه على تطليق "روضة" ليصبح لها وحدها، وفقد الطفل الصغير آخر مثال للنقاء والاحترام بحياته..

بعدها أتاه الخبر، لقد ماتت متحسرة على رجل لا يستحقها.. وفقدها للأبد..

وهنا تحولت البغضاء بقلبه نحو السبب..

أمه!

عاد لواقعه، بل لعقاب واقعه مستعيدًا الصورة التي رآها بالأعلى، مكررة، مستنسخة من ماضٍ اعتادت رؤياه عينا طفل صغير لم يتجاوز السادسة..

تجسيد حي لإثم أمسه الذي هرب منه، وحينها اتخذ القرار..

خطته التي رسمها منذ البداية هي الأصح، وهذه الفتاة هي الأنسب.. لذا فالمتبقي على التنفيذ، خطوة واحدة فقط!

الفصل الخامس عشر

الحيرة.. شعور بلا تفسير.. هل هو التيه؟.. الضياع!.. ارتباك واضطراب ينتاب العقل فتتيه الأفكار.. بين الحق والأحق!.. بين السيء والأسوأ.. بين ما يريده الإنسان وما يحتاجه..!

وما أراده علي كان حياة هادئة برفقة زوجة ومعشوقة.. لتصفعه الأيام أن ما يحتاجه بالفعل هو وجود امرأة أخرى بحياته.. قد لا تكون حبيبة أو معشوقة.. ولكنه احتياجًا لم يعد بوسعه إنكاره..

احتياجه لرؤى كان متبادلًا، فهي تحتاجه كسند وحماية بوجه الحياة وهو يحتاجها كامرأة ولو حتى بدا احتياجه معنوياً، فهو لن يستطع إغفاله أكثر..

استقر بسيارته يتأمل شرفة شقته هو وريم.. يتصورها بخياله واقفة تتطاول بجسدها.. تمطه وتستند بكفيها على سور الشرفة تتنظر عودته كما عودته بأيام زواجهما الأولى: أيام السعادة حتى ولو كانت منقوصة..

أما الآن هو جالس بسيارته لوقت تعدى الساعة والنصف.. يحاول دفع نفسه لمغادرة السيارة والتحرك لمواجهة آن أوانها..



تحرك بتثاقل يتخيل العديد من الحوارات التي يمكنه بدءها.. ليخبرها بواقع أصبح عليهما مواجهته..

لقد أصبح زوجًا لاثنتين..

فبعد وفاة والدة رؤى وانهيار الأخيرة لعدة أيام.. وعدم قدرته على مراعاة أمورها أو زيارتها كخطيب مستقبلي إلا برفقة والدته.. ولم يكن ذلك متاحًا طوال الوقت لكبر سنها.. فكان اقتراح والدته بالتعجيل بعقد القران.. وانتقال رؤى للإقامة معها.. ليصبح وجود علي بحياتها مقبولًا.. قانونًا وشرعًا..

وها هو الآن بطريقه ليصارح ريم.. بالحقيقة..

لقد عقد قرانه على رؤى منذ ساعات معدودة..

وياله من خبر يزفه زوج عاشق لزوجته والتي تدعي بدورها عشقها له..

فتح باب شقته ليصطدم بعينيها تتابع خطواته بلهفة واضحة.. لهفة استنكرها عقله وخفق لها قلبه بنبضة خارجة عن إرادته..

امتد بينهما الصمت.. العيون تتبادل لغة خاصة بها والشفاه مطبقة تخشى البوح..



عيناها متلهفة مشتاقة وخائفة.. تلك المرة أطال الغياب.. وغيابه لا يعني سوى شيئًا واحدًا.. فكرة تجول بعقلها.. ينفيها قلبها وتؤكدها عيناه.. وانقباضة قلبها بشيء من الإنكاروالهروب من مواجهة الحقيقة..

هل نفذ طلبها؟.. هل سمح لأخرى أن تشاركها فيه..!

استجدته عيناها الإنكار.. ووشت نظراتها باشتياق واضح.. لتقابلها نظراته مستنكرة ساخرة..

وهل تمحي لمعة الاشتياق بعينيها عذابات سياط كلماتها!..

وهل تنهي لهفة نظراتها ذبحها لرجولته!..

إهانتها لإنسانيته!..

كيف يصدق تلك النظرات وهي حتى لم تحاول السؤال عنه!.. الاتصال به.. الاطمئنان أن كلماتها الحادة كسيف بتارلم تسبب له الوفاة قهراً..!!

كلا حبيبتي.. انتهى عصرالنظرات بيننا.. انمحت موجات الشوق تنقلها الأنفاس.. لن أصدق لهفة اشتياق بنظرة يعقبها تمزق للقلب والكبرياء..

أدركت عيناها رفضه الساخرلنظراتها المتلهفة.. فاهتز جفناها للحظة.. لحظة تبدل الشوق بعينيها إلى جمود راكد، دفع بطيف ابتسامة ساخرة



على شفتيه وهو يلحظ عودة قناع الصلابة لوجهها.. تيبُس جسدها بوضع متحفز.. وانقباض كفيها بقوة وكأنها تستدعي تماسكها المعتاد..

ها قد عادت ريم لواجهتها التي ألفها بالشهور الماضية.. واجهة صلبة صلدة لا تحمل انفعالًا ولا مشاعرَ سوى الرفض..

تصلبت ملامحه بمواجهتها وهو يسألها بنبرة باهتة:

- مش هتباركي لي!

لمحة صدمة سريعة عبرت مقلتيها قبل أن تمحُها سريعًا وكأنها ترفض معنى كلماته المبطنة، لتجبه بثبات:

- مبروك.. بس على إيه؟

تظاهر بتماسك مشابه وهو يخبرها بهدوء:

- كتب كتابي كان إمبارح..

تجمدت ريم كليًة.. جسدها، ملامحها، أنفاسها ثقلت بوجع وقلبها يصرخ ممزقًا..

"قطعتِ آخر خيط.. نفذتِ اللي في دماغك.. والوجع بقى نصيبي.."

ويتدخل العقل زاجرًا بقوة..

"ده لمصلحته.. علشان خاطره.."

وينتحب القلب صارخًا..

"وأنا!.. أنا فين من حسابات الوجع.."

ويواسي العقل بهدوء..

"هتعيش.."

وتساؤل مشروع من النابض باسمه..

"بس بعيد عنه.."

ويعاود العقل التدخل مقنعًا..

"لا.. هتعيش معاه.. جنبه.."

ويبكي القلب.. وبكاء القلوب صامت ولكنه نازف ولا سبيل للمداواة..

"مع جزء منه.. ما بقاش ليَّ كله.. ما بقاش حقي.."

ويخرسه العقل بقوة..

"المهم أنك أنت حقه.. وحقه يعيش.. علي حقه يعيش.."

ومع تردد حروف كلمات العقل الأخيرة كانت ريم تستعيد صلابتها..

فهي خططت لدفعه لزواج قد ينقذ ما تبقى من حياتهما معًا.. قد يحيي رجولته وكبرياءه.. ينقذه من تيه حياة تجمعه بها.. بكلماتها وأفعالها سابقًا

أنهت حيرة كان يعيش بها بين محاولته لمتابعة الحياة معها وبين الانتصار لإنسانيته وكرامته التي دهستها بقسوة، رغبة منها في منحه صك راحة الضمير..

تساءلت بصوت حاولت منحه الثبات ولكنها فشلت في إخفاء الوجع منه:

- رؤى؟!

أشاح بوجهه بعيدًا وكأنه يتفادى الوجع بصوتها.. أوربما يرفض التصديق.. وجاءت إجابته هامسة:

- أيوة..

وأعادت التهنئة بصوت بدأ يستعيد ثباته من جديد:

- مبروك.. ربنا يسعدك..

والتفت بعنف يواجه كلماتها الهادئة وكل خلجة به تصرخ..

"سعادة!.. سعادتي كانت معاكِ.. كنت راضي ببقايا حياة.. بس حتى البقايا استكترتيها عليَّ.."!

وترجمت نظراته آهات قلبه المتصدع.. وسؤال يلح بلا إجابة..

"ليه!.. ليه عملتِ فينا كده!.. ليه؟"



ولأنه يعلم أن السؤال بلا إجابة لم يسأله ولأنها تدرك أن الإجابة ستبعده أكثر، صمتت بل وارتدت مشيحة بوجهها تسأل بتقرير:

- تحب أتصل أبارك لها؟..

وانفلتت سيطرة حاول فرضها على مشاعره ليجيب بسرعة وصوت مهزوم:

- لا.. اتصلي عزيها.. والدتها اتوفت..

وكأنها ربطت عدة حقائق ببعضها وتوصلت لسبب حضوره لبيتهما بعد عقد قرانه، فسألته بشبه اتهام:

- عشان كده سيبتها وهي عروسة وجيت هنا؟..

وكاد يهتف بجنون..

"جيت علشان وحشتيني.. عشان عايز أشوفك.."

ولكن لسانه ردد بعنف لم يستطع إحكام سيطرته عليه:

- لا.. جيت عشان أبلغك أني اتجوزت..

والكلمة جارحة في مرتها الاولى.. وقاتلة بالثانية.. والانفعال لم يعد بإمكانها كبته:

- وقلت لك مبروك..

والتهنئة للمرة الثالثة كانت فوق الاحتمال..

قبض كفيه بقوة.. وكتم أنفاسه للحظات ثم أطلقها ببطء يتحكم جاهدًا بغضب يخرج عن عقاله ويخشى عاقبته.. ولا مفر من تغيير دفة الحديث.. ولا مهرب من مواجهة حتمية..

طال الصمت لثوانٍ لم يحسبها.. وأخيراً سألها باستفهام:

- بالنسبة لوالدك ووالدتك..

قاطعته بقوة وصلابة:

- ما تزعجش نفسك بالحكاية دي.. أنا هتصرف بطريقة ما تقللش منك في نظرهم..

وكانت كلماتها فوق احتمال سيطرته فأطلق قبضته بالحائط يلكمه بقسوة.. والتفت يبادلها نظرات خيبة أمله قبل أن يتحرك منهيًا المواجهة:

- طيب.. عن إذنك.. هدخل أنام.. تصبحي على خير..

وجاءه سؤالها المندهش:

- أنت هتنام هنا الليلة؟..

ولم يتحمل الصمت فتوقف بطريقه نحو غرفته المنفردة ليجبها بمرارة:

- آه.. هنام هنا ولوحدي.. زي كل الليالي اللي كنت فيها لوحدي من أول جوازنا.

وأغلق بابه دونها وكأنه يسطر بداية لحياته الجديدة.. وهي خارجها..

تهالكت أمام باب غرفته وقد تلبستها حالة من الوجوم.. لا تصدق أنه استجاب لرغبتها وتزوج.. بتلك البساطة!..

أصبحت هناك مَن تشاركها زوجها..

من تشاركها جميع حقوقها به.. والأدهى أنه قام بذلك مع مباركتها الكاملة..

ظلت تتأمل بابه المغلق.. تنصت لتحركاته الهادئة داخل الغرفة.. الآن يخلع ثيابه، يتحرك للفراش.. هل سيخلد للنوم بتلك البساطة!.. وكأنه لم يزعزع عالمها بكلمته.. وكأنه لم يصدع أمانها المتمثل بوجوده!..

شردت بحركته المستمرة وقد أدركت أنه يجد صعوبة بالنوم.. لعل ضميره يؤرقه.. أو قلبه.. كما يقتلها وجع قلبها تماماً..

غفت ريم أمام بابه ولم تستفق إلا بالصباح وقد شعرت بعودة حركته الدؤوب فعلمت أنه على وشك الخروج.. تحركت مسرعة لتختفي خلف باب غرفتها بينما هو انطلق لمواجهة لا يعرف كيف يخوضها..!

فحبيبة العمر قد تكلفه صديق العمر..

وإن كان التبرير لها سهلًا مباحًا..

فلحمزة سيكون مستحيلًا!..

***

والحيرة هنا مختلفة.. بين صراحة قد تفقدك حبيبة ومعها ماء الوجه وبين صمت قد يكلفك صداقة بنيت على مدارسنوات..

ولمن خبرالحياة جيدًا يدرك أن خسارة صديق هي أشد وطأة من خسارة حبيب.. ولكن كالعادة القلب يتدخل.. وتميل النفس مع هواه.. ويرضخ العقل مجبرًا ويصمت الضميريائسًا..

وعلى إحدى الموائد بمقهى راقٍ جلس الصديقان يتبادلان الهمهمات والأخبار.. كل منهما بداخله بركان يتصاعد تدريجيًا والخوف كل الخوف من لحظة الفوران..

علي يتهرب كل لحظة من مواجهة عيني صديقه، وحمزة تائه بحالة من الضياع يهرب بدوره من حقيقة تصدمه بكل خطوة..

وأخيراً التقط علي طرف خيط.. فالتفت لصديقه متسائلاً بفضول:

- إزاي قدرت تشهد على جوازها؟

تبادل حمزة معه النظرات للحظة قبل أن يشيح بوجهه مجيباً بحسم:

- زي ما هي قدرت توافق!

ويفاجئه علي بسؤال محتد:

- يعني إيه!!.. ما يمكن وافقت عشان كرامتها؟.. كبريائها؟

كان علي يتحدث بحدة.. ولم يدرك أنه لم يقصد أمنية على الإطلاق.. بل كان يدافع عن تصرفه.. ولو بطريق غير مباشر..

انقبضت أنامل حمزة على قدح الشاي الساخن أمامه بعنف وهو يردد:

- هي وافقت بإرادتها.. دخلت شخص تالت بينا برغبتها.

وقطب علي بمرارة ساخرة:

- تالت!.. قصدك رابع.. أنت ناسي سمية!

وارتد حمزة بعنف وهو يهتف بحزم:

- سمية وضع تاني!

لاحظ علي انفعال صديقه ونبرته الدفاعية.. فسأله بنبرة غريبة لم يفطن إليها حمزة:

- أفهم من كده إن رفضك لوجود سمية في حياتك قل؟

رمقه حمزة بصمت وتنهد بقوة رافضًا منحه إجابة قاطعة ولكن علي لم يكتفِ.. فعاود سؤاله:

- مشاعرك اتحركت ناحيتها؟



أغمض حمزة عينيه يخفيهما عن صديقه.. خوفًا من أن يتوصل لإجابة تخالف الواقع..

مشاعره تحركت نحوها؟!..

صحيح..

نمت لها مشاعر بداخله، ولكنها مزيج مرير من الذنب والقلق وشعور حتمي بوجوب حمايتها ومنحها أمانًا افتقدته لسنوات ولا يدري كيف يعيده إليها ثانيةً!..

بعد صمت امتد بينهما أجاب حمزة أخيرًا:

- مش زي ما أنت فاهم!

قطب علي متشككًا فأكمل حمزة:

- هي مسئوليتي.. أمانة في رقبتي..

والدور لعلي ليرتد بقوة وقد صدمته جملة صديقه..

"هي أمانة.."

وبئس من يخون الأمانة..



وأمام صمت علي بدأ حمزة يخرج ما بصدره من هواجس ومخاوف.. ترددت كلماته بصوت عال.. ولم تكن موجهة لعلي.. بقدرما كان بحاجة لإخراجها من صدره:

- من بعد رجوعي من السفروأنا حاسس إني لسه بتعرف على ناس المفروض أنهم أهلي ودمي، كل يوم مفاجأة، كل يوم تغييرجديد.. بيتهيألي إني بعدت عن ناس ورجعت لقيت ناس تانية.. مختلفة!

والمرارة التي كانت تقطرمن كلماته دعت علي للسؤال بقلق:

- والكلام ده ينطبق على أمنية برضو!

التفت حمزة له بانتباه وصورة أمنية الصبية الحلوة الرقيقة تملأ خياله.. فتاة بعمرالزهور تركها وهي تزداد تعلقاً به وبحبه.. صورة حافظ عليها سنوات وعاد ليجدها كما هي..

ربما ازدادت جمالاً.. ربما نالها من التغييركما الجميع.. ولكنها كانت وقتها ما تزال متعلقة به.. كانت ملامحها قريبة لصورتها المحفوظة بخياله.. ولكن...

توقفت أفكاره عند تلك النقطة رافضاً الخوض بتفاصيل أكثر.. وأدار دفة الحديث لجهة أخرى متسائلاً:

- علي.. كنت تعرف إيه عن سعد وحياته وأنا بعيد؟..

هز علي كتفيه وهو يخبره:

- ما فيش حاجة محددة.. زي ما أنت عارف نقل حياته وشغله كله إسكندرية بعد سفرك.. ويا دوب كان بيجي في زيارات على أوقات بعيدة.. بس اللي أعرفه أن الحاج كان دايمًا بيسافر له يزوره...

غرق حمزة بكلمات علي يحاول استنتاج أي حقيقة منها، لعله يجد بداية خيط ليحل لغز سمية وخوفها الدائم وصمتها القاتل.. بينما أخذ علي يتأمله محاولًا دفع نفسه لمصارحته وإنهاء الأمر..

وأخيرًا ترددت كلمات علي بارتباك:

- حمزة.. كنت عايزك في موضوع مهم..

ليقاطعه حمزة:

- استنى أنت.. أنا اللي عايزك.. موضوع إيه وبتاع إيه!.. أنت فاهم إني مش واخد بالي إنك سايب شقتك بقى لك أكتر من ٢٠ يوم؟.. بس أنا ما حبيتش أتدخل وأكيد ريم لو...

ويقاطع علي كلماته بسرعة وكأنه يلقي بحمل ثقيل عن كتفيه:

- أنا اتجوزت يا حمزة..

منحه حمزة نظرة مستخفة:

- هزارك بايخ على فكرة...

ويرتفع صوت علي وكأنه يدافع عن قراره:

- ما بهزرش.. أنا كتبت كتابي من يومين.

ويهب حمزة من جلسته بعنف.. عيناه تتسعان بذهول!.. يترقب ملامح الذنب ممزوجة بارتياح غريب على وجه صديقه.. ولسانه يردد بانشداه:

- جد!.. أنت بتتكلم جد!!

أخفض على نظراته هامسًا:

- أيوة...

وقبل أن يكمل جملته كانت قبضة حمزة تقتحم وجهه مرة بعد مرة بعد مرة وهو يهتف بغضب حارق:

- أيوة!.. وبتقولها في وشي!.. أنا سلمتك أختي.. عشان تعمل فيها كده!.. عشان تعاملها بالحقارة دي..!!

وتعود قبضته لتغوص بمعدة علي.. وبين ضلوعه.. وعلي مستسلمًا للكماته رافضًا أن يبادله إياها حتى سقط أرضًا وتدخل أخيرًا رواد المقهي يفصلون بينهما..

وصيحة علي تتردد:

- أنا مش حقيرولا خاين يا حمزة..

وصمت لحظة يستدعي أنفاسه وهتف:

- ريم عارفة.. ريم عارفة كل حاجة.. روح اسألها..

تخلص علي ممن يمسكون به وكرر هتافه:

- أنا مش خاين حمزة.. مش خاين..

قال كلمته وترك حمزة الغاضب خلفه.. يصارع جمع من البشر يمنعونه عن الذهاب وراء علي والانهيال ضربًا عليه حتى يخفي ملامحه الوسيمة...

رحل علي لطريقه واتجه حمزة تدفعه شياطين غضبه نحو شقة شقيقته... يرغب أن يسمع منها.. أن يفهم.. لمَ وافقت على مهزلة كتلك!.. كيف تبخر حب علي لها الذي نما وترعرع تحت عينيه!..

طرق بابها كثيراً ولم تفتح.. فلم يجد بداً من التوجه لشقته.. يعلم أن هيئته غاضبة مرعبة وستتسبب بمزيد من الهلع لزوجته الخائفة على الدوام.. ولكن لا حيلة له.. هو يتجنب شقة والديه منذ اصطدامه الأخير بإيهاب.. لا يريد مزيداً من الاشتباك خاصة وهو بحالته المتفجرة..

دلف لشقته ليصطدم بعيني شقيقته الذاهلتين وهي تناظر الفضاء.. تسكن بهدوء مرتعش ينتابه تردد بين ذراعي سمية التي تهدهدها كما تطمئن

الأم صغيرها.. تبتعد لحظة فتجذبها لتعيدها لدفء أحضانها، تنكمش على نفسها وترتجف وتحتار فتتباعد من جديد بنظرات تائهة وجلة..

وكلمات ريم تتردد بجمود..

"علي اتجوز"!

وجاءت الشهقة المندهشة من سمية وهي تهتف متسائلة..

- إيه!.. اتجوز!!.. ليه..!

وتجبها ريم بصوت موجوع ونبرة تهذي بلا معنى بعد دفعة واهنة تراجعت بها عن الضمة الحانية..

"سمع كلامي واتجوز.."

وتزداد عينا سمية اتساعاً وهي تستوعب ما تخبرها به ريم التي تساقطت دموعها بلا وعي ولا إرادة..

"كان لازم أعمل كده.."

وتبتعد أكثر وأكثر عن ذراعي سمية ترفض القرب واللمسة والضمة ولو بغرض احتواء بعد تجدد رجفة جسدها.. تمسح دموعها بعنف..

"كان لازم يتجوز يا سمية.. كان لازم يعيش.."

وقبل أن تجبها سمية.. صرخ حمزة بعنف:

- لازم!.. إيه هو اللي لازم!!.. ليه؟.. ليه لازم!

انتفضت ريم بقوة تحت عنف نبرة حمزة.. وأجابت بتلعثم:

- لازم.. عشان.. هو.. عشان أنا..

ويصرخ حمزة يريد أن يفهم:

- عشان إيه!!

وتتردد ريم وترتعد؛ فتجذبها سمية بعد معاندة بين ذراعيها وهي تتجنب النظر لزوجها.. هي تخشاه بتلك الحالة الغاضبة.. وتعود ريم للبكاء:

- عشان أنا ما أنفعش.. ما أنفعش..

وأخذت تردد الجملة مرارًا وتكرارًا حتى كاد حمزة أن يقتلع منابت شعره.. هو يريد أن يفهم.. أن يستوعب ما يحدث حوله.. يريد ما يعيد للكون اتزانه فيرجع علي بخانة الصديق المخلص وريم الزوجة الهانئة.. وسمية.. سمية.. لا يعلم لها مكانة الآن.. ولكنه قد يعلم عندما يفهم..

صرخ بثورة:

- ما أنفعش!.. هو إيه اللي ما أنفعش؟!

وتهب ريم صارخة بثورة مماثلة:

- ما أنفعش أكون أم... ما أنفعش أكون أم لولاده يا حمزة.. ما أنفعش..

وتهالكت منهارة مرتجفة لتحتويها ذراعا سمية التي ترتجف بدورها من ذلك العنف اللفظي والصراخ المتبادل.. ولكنها تدرك احتياج ريم لأمان تمنحه لها ويالسخرية..

ذراعي سمية..

بينما تجمد حمزة بمكانه وقد هاله الألم العميق بقلب شقيقته.. وفظاعة الخبر الذي أخبرته به.. وثقله على نفس أي امرأة تحلم بكلمة أم..

رمقها عاجزًا عن تهدئة أوجاعها أو حتى منحها وعدًا بمحاولة إصلاح الأمر.. فالأمر منتهي.. علي وتزوج.. وشقيقته لن تنجب.. إذًا النهاية محسومة.. على الأقل أمام ناظريه!

ردد بحزم:

- طالما اتجوز وشاف حياته؛ خلاص.. يبقى نخرج بالمعروف ويطلق..

وتصرخ ريم مبتعدة عن ضمة سمية:

- لا يا حمزة.. لا.. مش هيطلقني.. علي مش هيطلقني..

ويسيء حمزة فهم كلماتها.. يظن مخطئًا أن علي يتعسف بحقوقه فيعاوده غضبه:

- مش بمزاجه.. هيطلق أو يتخلع..

وريم تصرخ كأنها تدافع عن كيانها:

- لا يا حمزة مش هيطلقني.. أنا مش عايزة أتطلق.. أنا هفضل مرات علي لحد ما أموت!

وتعود لرعشتها وتلوذ بأحضان سمية بنفسها تلك المرة كأنما هذيانها أفقدها شعورها بالرفض، كأنها تستمد منها قوة خفية وتردد بوجع:

- أنا دبحت نفسي بنفسي عشان ما أخسروش.. عشان ما يكرهنيش.. بعدته عشان أحافظ عليه.

وتنخرط بنوبة بكاء جديدة يتخللها كلمات مبهمة تدل على تمسكها بزوجها ورفضها الابتعاد عنه..

وترمقها سمية بتعجب.. لمَ تتمسك برجل يؤذيها لتلك الدرجة!..

لم ترفض سند ودعم يقدمه لها شقيقها!..

كيف ترفض وجود من ينقذها من ذلك العذاب!!.. ولمَ لم تجد هي ذلك الدعم وقتما احتاجته!..

وحمزة يرمق شقيقته وزوجته؛ امرأتان معلقتان برقبته.. وكلا منهما ذبحت في أنوثتها بطريقة مختلفة.. وهو عاجز.. عاجز عن تقديم أبسط الحلول لهما..

أزاح مائدة صغيرة أمامه فأسقط ما عليها من قطع خزفية صغيرة وصرخته تدوي بقوة..

"يا رب.."

وما أصعب عجز الرجال.. قهر الرجال..

***

وهناك حيرة بين رغبة توافق هوى نفس شغوفة وبين انصياع لقرار عاقل بالابتعاد لمسافة آمنة..

ودائمًا ما تغلب الشغف على الأمان..

وبتلك الليلة قررت لارا التمتع بنزهتها الليلية بالكامل.. فتمردت على ثوبها الأبيض الناعم الذي تستخدمه في سباحتها الليلية.. وسحبت ثوب سباحة وردي اللون من قطعة واحدة.. ارتدته بسرعة وهي تعد نفسها بسباحة مميزة تلك الليلة.. فالمنزل خالٍ من رجاله؛ عادل سافر بالصباح الباكر للقاهرة ولن يعود قبل يومين.. وعماد قرر فجأة اصطحاب هبة ووالدتها وسافروا لقضاء الليلة بالأسكندرية بعدما أبدت هبة رغبتها بأكل السمك..

يبدو أن عماد قرر التوقف عن مطاردته المزعجة لها وبدأ يولي خطيبته بعض اهتمامه..

ارتدت ثوبها الأبيض الواسع فوق ثوب سباحتها وانطلقت بخطوات مستمتعة نحو حوض السباحة وهي تدندن بكلمات أغنية تداعب عقلها منذ مدة...

عالضيعة يما عالضيعة وديني وبلا هالبيعة

جينا نبيع كبوش التوت ضيعنا القلب ببيروت

يا شماتة شباب الضيعة

عالضيعة يما عالضيعة يما

استمرت بترديد الأغنية وهي تداعب المياه.. وتغوص برأسها للأسفل ثم تعود وترتفع مرة أخرى.. لم تقم بسباحتها العادية ككل ليلة.. فلم تقطع عدة أشواط كما اعتادت.. بل حتى لم تترك جسدها ليطفو فوق المياه، لكنها كانت تلعب بالمياه كطفلة شقية..

تعبث بأناملها في عمق الحوض وتعود لتنفخ القطرات اللامعة المتعلقة بأناملها بشقاوة أنثوية محببة ومع كل مرة كانت تطلق ضحكة عفوية بريئة جذبت انتباه ذاك الذي ارتكن بجسده على عمود مخفي بقاعة السباحة وأخذ يتأمل شقاوتها ولعبها بالماء بابتسامة شغوفة..

تلك العادة التي صاحبته منذ أول ليلة رآها بها طافية كملاك رقيق وسط غيمة من مياه هادئة..

قطب حاجبيه بغضب بعدما لاحظ أنها لا ترتدي ثوبها المعتاد، بل ثوب سباحة مكشوف.. لم يتمالك نفسه وهو يسرع بخطواته إليها ليقف على حافة الحوض وهو يمد يده بمئزر طويل هاتفًا:

- لارا.. اخرجي حالًا والبسي الروب ده!

التفتت لارا بعنف بعدما وصلها صوته الصارخ لتهتف بذعر:

- عادل!!.. أنت وصلت إمتى؟..

تجاهل سؤالها وكرر أمره:

- اخرجي من البيسين والبسي الروب ده حالًا..

سبحت لارا ببطء تحت نظراته الثاقبة.. لا تعلم لمَ شعرت فجأة أنها نسيت السباحة وقواعدها!..

وأخيرًا وصلت للحافة وصعدت الدرجات الزلقة ببطء لتجده واقفًا بمواجهتها يفرد المئزر ويخبرها بلهجته الآمرة الغريبة على مسامعها:

- البسي..

رمقته برهبة وهي توليه ظهرها تسمح له بمساعدتها على ارتداء المئزر..

تشعر بتجمد تام بأطرافها فلم تستطع حتى عقد عقدة الزنار الخاص به.. وسمحت له بالقيام بالمهمة..

تتطرف بانفعالاتها أمامه.. تتبدل معه عصبيتها لغضب.. والحنق لثورة.. وأحيانًا تتبدل انفعالاتها.. ترتبك فتتجمد.. ترغب بالهتاف فتصرخ أو تصمت كما يحدث معها الآن!

تعلم أنها يجب أن تمنعه عن ذلك القرب الذي يتخطى كل حدودها.. ولكن لسانها معقود وجسدها مستسلم وكأنه يسيطر على حواسها بتعويذة سحرية..

طلسم ما يتملك به مشاعرها وانفعالاتها.. فتخضع وتستسلم لمشيئته بلا حول ولا قوة..

هل آن الأوان لتعترف لنفسها على الأقل أن لارا صاحبة الشخصية القوية والقرارات الأقوى قد سقطت بالحب وبقوة أيضًا!..

ربما اعترافها ذاك يقلل من قوة تأثيره المغناطيسية على إرادتها الحرة..

انتهى من عقد الزنار فالتفتت له بنظرات مشتعلة وكأن فكرة سقوطها بحبه سببت انتعاشها بدلًا من هلعها.. نظراتها صدمته قليلًا لتظهر لمحة بسيطة من ضيق محاها على الفور وهو يسحبها من يدها ويجلسها على مقعد أمامه محتفظًا بكفها بين يديه وأنامله تداعبه ببطء دفع بالاحمرار لوجهها مع محاولة ضعيفة لسحب كفها قابلها بجذب خفيف منه ليتمكن من كفها أكثر وهمسه يصلها بوضوح:

- تعرفي أني اتعودت أراقبك كل ليلة وأنتِ في البيسين!

ويزداد توردها مع اتساع عينيها المذهول لكلماته وتعاود محاولتها لسحب كفها فما كان منه إلا رفعه لشفتيه ليمنحه قبلة خفيفة أكمل بعدها كلماته:

- أنا بعتذر طبعًا لو كنت اتعديت على خصوصيتك.. بس..

صمت للحظة غرق فيها بعينيها ليكمل بعدها:

- بس مش عارف ليه أنا حاسس أنك تخصيني.. أنتِ بكل حاجة فيكِ.. رقتك.. جمالك.. شخصيتك..

أخفضت نظراتها بخجل..

خجل هو وحده من امتلك حق الحصول عليه..

كما نجح سابقًا بالحصول على كل خلجة بها وهي تهمس بضعف صاحبه محاولة واهية لاستعادة كفها أحبطها على الفور بتشبيك أنامله بكفها:

- عادل..

اقترن توردها بابتسامة خجولة زينت ثغرها ونظراتها المرتبكة بين هروب منه وعودة للغرق بعينيه وكلماته تنساب برقة:



- أنتِ جميلة جدًا يا لارا.. جمالك ماحدش يختلف عليه.. بس أنا اللي جذبني لكِ هالة الصفاء اللي حواليكِ.. الملاك اللي خطفت نظراتي أول مرة.. وبعدها..

صمت للحظة استحثته هي بعينيها لتتردد كلماته بشغف:

- بعدها خطفتني كلي..

رفعت إليه عينين مسحورتين بكلماته الشغوفة وصوته يصلها همسًا:

- لقيت نفسي بكون عادل تاني وأنا معاكِ.. عادل المنطلق اللي مش حامل هم بكرة.. عادل الشاب الصغير اللي عايز يحب..

صمت ليكمل بصوت رخيم:

- ويتحب..

رأته بنظرات زائغة يقترب بوجهه منها مع آخر كلمة تخرج من شفتيه حتى لم يعد يفصل بين وجهيهما سوى أنفاسهما.. وجهه يميل نحوها مع كلمته الأخيرة وشفتاه تكاد تلامس شفتيها.. وقبل التلامس الأخير انتفضت بقوة لتبتعد عنه جاذبة كفها بعنف وجسدها يرتعد اضطرابًا وتتسارع أنفاسها بترقب وخشية.. نظراتها مرتبكة تدور بالمكان كله بلا رؤية حقيقية فلم يعد شيء حقيقي سواه.. وسوى سؤال نطقه بصيغة تقرير:

- هتتجوزيني..

لحظتها فقط امتلكت إرادتها لتنطلق هاربة من أمام نظراته الرجولية التي تمعنت بها بأحقية استحقها لنفسه فقط ولكنه استوقفها بآخر لحظة وكفه يتمسك بمعصمها يجذبها نحوه بقوة طفيفة وهمساته تنطلق دافئة بإغواء:

- مستني رد يا لارا..

هزت رأسها بسرعة وحاولت التحرك ليزيد من اقترابه وشفتاه تكاد تلامس طرف أذنها:

- بالموافقة..

حركت نحوه نظرات ذاهلة لتحترق وسط لهيب اندلع بنظراته يخبرها بوضوح أنه..

سيمتلك بالفعل كل خلجة ولمحة منها..

***

وحيرة أب بين الاقتصاص لكرامة ابنته وبين إرضاء رغبتها.. بين الانتصار لكرامته الشخصية والانصياع لعادات وتقاليد مجتمع كان هو أول من تمسك بها طالما لا تطال ابنته..

ضرب سلامة بكفه المائدة الصغيرة أمامه فاهتز قدح الشاي وتناثرت قطراته الساخنة على كفه ولكنه لم يهتم.. فنار الغضب بداخله كانت أقوى وأشد تأججاً:

- يعني إيه الكلام اللي بتقوليه ده يا أم حمزة!

ربتت زوجته على كتفه برفق:

- طول بالك يا حاج.. زي ما بقولك كده.. ريم موافقة على جوازة علي.. ومش عايزة تتطلق..

هتف بها:

- تبقى اتجننت.. بنتك اتجننت..

هزت رأسها بأسى:

- اسمعني يا حاج.. علي ده طلع ابن أصول..

قاطعها صارخًا:

- ابن أصول!!.. ده ابن..

أغلقت فمه بكفها بسرعة وهي تقاطع كلماته بصوت مكسور:

- الراجل عداه العيب يا حاج.. اللي أنت ما تعرفوش ولا حد كان يعرفه أبدًا..

صمتت لحظة لتبتلع شهقة بكاء فاجئتها بعدما ظنت أنها أنهت كل دموعها وهي تستمع لكلمات ريم المتكسرة.. تخبرها عن زواج علي.. وعن موافقتها على إكمال حياتها معه تشاركها أخرى بزوجها..

سأل سلامة بخوف:

- إيه ده اللي ما نعرفوش؟..

لتشيح زوجته بوجهها بعيدًا تمسح دموعها وتهمس:

- ريم مش بتخلف يا حاج.. وداخوا على الدكاترة طول السنة اللي فاتت وبرضوه مافيش فايدة.. والراجل كان ساكت وصابر.. بس أمه عايزة تشوف عوضه.. حقها وحقه يا حاج..

أحنى سلامة رأسه باستسلام مرددًا:

- أيوة حقه..

أكملت زوجته بمنطق سيدة مصرية أصيلة:

- الراجل شاري بنتنا.. ومش عايز يطلقها.. نقوم إحنا اللي نخرب عليها؟..

رفع سلامة عينين مهزومتين وكلمات زوجته تتواصل:

- هتبقى متطلقة.. وكمان مالهاش في الخلفة.. يبقى هنميل بختها يا حاج.. هتقعد من غير جواز زي البيت الوقف ولا تجوز واحد أرمل ولا مطلق تربي

له عياله؟.. ولا حد يطمع فيها ياخدها على مراته.. وتبقى زوجة تانية.. ميلة بخت بميلة بخت.. تبقى تكمل مع اللي شاريها ورايدها..

ردد سلامة بمرارة:

- شاريها ورايدها.. وبيتجوز عليها!!

أجابته زوجته بتقرير:

- حقه يا حاج..

أومأ موافقًا يخفض نظراته أرضًا وكأنه يخفي دمعة أبوة..

قهرت عنفوان رجولة..

***

هل هناك حيرة أكثر من التمزق بين محاولة كسب رضا أم وبين إرضاء القلب..!

بين ولاء لامرأة أضاعت أكثر من نصف عمرها لتهب لها واقعًا وحياةً وحاضرًا وبين رجل يمنحها مستقبله كله بين يديها..!

على الأرجوحة المفضلة لها بالحديقة تمددت لارا وهي تغلق عينيها تحبس خلفهما دموعًا تحرق جفنيها كما أحرقت كلمات والدتها قلبها وحطمت أملًا رقيقًا نما بين جنبات قلبها..

فبعدما همس لها عادل بعرض الزواج بتلك الليلة انطلقت لتهاتف والدتها..

تخبرها بسعادة أنها سقطت بالحب..

وبالسعادة حبيبها يبادلها مشاعرها، بل ويطلبها للزواج..

وقتها صمتت أمها طويلاً قبل أن تسألها بلهجة متوترة..

"مين بيكون هالزلمي؟"

لتجيبها لارا بتوتر انتقل إليها على الفور..

"عادل ابن عمـ"..

لتقاطعها درة على الفور..

"لا.. الطلب مرفوض.."

وتتوسل لارا بصوت بدأ يكتسب رنة حنق..

"إمي.. دخيلك"..

ولم تتركها درة لتكمل كلماتها بل صاحت بغضب..

"بتحبي ابن المرة ياللي كانت سبب في بعدك عن عييلتك؟.. ياللي حاولت تموتك ببطني؟.."

وتهدج صوتها بضعف..

"ياللي عملت من سمعتي علكة بلسان خلق الله؟"

ضغطت لارا شفتيها بقوة.. أمها تذكرها بالماضي..

تعلم أن والديها لاقيا عذابات واضطهاد من عائلة والدها وبالذات من والدة عادل ووقف والده بموقف المتفرج ولكن عادل مختلف.. هو فقط من يمنحها إحساس الأمان بذلك المنزل..

ألم يحافظ على إرثها كاملًا!...

بل زاد عليه أضعافًا...

ألم يخبرها بهمس أنه يريدها مهما وقفت العقبات بوجهه وأنه سيواجه رفض أمه وغضبها وسيعرف كيف يقنعها بزواجهما..!

ألا تستحثها عيناه بكل مرة تلتقي نظراتهما لتخبره بموافقتها..!

موافقة رفضت والدتها بشدة منحها إياها برغم كل تلك الكلمات التي حكتها عن عادل.. برغم حبها الذي وشى به صوتها بكل مرة تهمس باسمه وهي تحكي لأمها شيئًا عنه..

ولكن درة كانت عنيدة برفضها.. قاسية بكلماتها وهي تخبرها بوضوح..

"إمك بكفة وها الزلمي بكفة.."

ولأول مرة تذرف لارا دموعها وهي تتوسل أمها التفهم..

"ماماا"

وجاءها الرفض حاسمًا..

"ردي نهائي يا لارا.."

وهمست لارا بضعف وجع قلب أمها على الجانب الآخر من الهاتف..

"منشان الله.. بحبه.. والله بحبه ماماا"

صمتت أمها للحظة استجمعت بها حزمها من جديد..

"صدقيني بنتي.. رفضي هاد منشانك أنتِ.. أنا ما بيهمني هالمرة ولا ولدها.. ما بهمني غيرك لارا.."

ومحاولة أخيرة من لارا..

"نعقد خطوبة ونجرب ماماا؟"

ليرتفع صوت أمها بقوة..

"حاجي حكي بلا معنى.. قلت لا" ..

وأغلقت الهاتف بوجه لارا رافضة مزيدًا من النقاش، بل ورفضت الرد على أي من مكالمات لارا المتتالية..

عادت لارا من ذكريات الأيام الماضية وهي تمسح دمعة خائنة تجري على وجنتها.. اعتدلت في جلستها بعنف وهي تلعن ذلك الضعف الذي تملك منها..

منذ متى تستكين هي بتلك الطريقة المهينة..!

لارا من أتت من بيروت وحدها باحثة عن حق ظن الجميع بأنه ضائع.. لتسترده بصلابة وعِزة، تخضع لماضٍ يسحبها للوراء.. لظروف تحرمها سعادتها وحبيبها..!

كلا.. لن تهدأ.. ولن تستسلم..

وبعزيمة قوية ضغطت أزرارهاتفها.. لتتصل بـ"وديع حايك".. زوج والدتها وصاحب التأثيرالأقوى عليها.. وسندها هي الأعظم..

أجاب وديع على الفور ليستقبلها بترحيب واضح:

- يا ألف أهلا وسهلا ببنتي الحِلوِى...

ردت بابتسامة حنين:

- اشتئتلك عمو..

أجابها وديع ضاحكاً:

- وعمو اشتئلك من هون لحدا عندكن بالمنصورة..

همست لارا بصوت متوسل:

- عمووو..

فهم وديع طلبها وأخبرها بلطف:

- درة معصبة كتير، لارا.. تروكيها تتهدى بعدين ياللي يريده الله بيكون..

تنهدت لارا بضعف:

- والله شرشحتني إمبارحة.. ما قدرت أفتح تمي..

سألها وديع برفق:

- بتحبيه هالزلمي؟..

أجابت برقة:

- إيه.. كتير عمو..

أجابها بتنهيدة:

- والله!.. ما بتستحي يا بنت!!

ضحكت لارا:

- ممكن أتكلم معاها يا عمو؟..

غير وديع الموضوع باللباقة:

- وبعد بتحكي متل المصاروة!.. والله وضاعت تربياتك يا وديع!

سألت لارا بوجوم:

- رافضة تحكي معي.. مو هيك؟..

ومن بعيد أتاها صوت والدتها حزين مكسور:

- خبرها تصطفل.. بنت كامل مالها حكي معي.. تروكها ترمي بروحها لعايدة وولدها..

هتفت لارا:

- إمي.. إمي.. منشان الله..

أخبرها وديع بحزم:

- خبرتك إنو هي معصبة.. هلأ بسكر وبشوفها..

صرخت لارا بسرعة:

- عمو.. ساعدني..

تنهد وديع بانزعاج:

- الحكايي معئدة لارا.. شو فيه هالزلمي..

همست لارا:

- حكيتلك.. بحبه..

رق صوت وديع وهو يهمس لها:

- وهو؟..

أجابت لارا بخجل:

- إيه.. متلي وأكتر..

وفجأة جاءها صوت أمها واضحًا فأدركت أنها سحبت الهاتف من وديع.. وبكلمات قاسية.. وبلهجة لبنانية اختلطت بها المصرية لتذكرها بوالدها.. وموته.. وضياعهما من بعده:

- بيحبك يا لارا؟.. خلص.. اتجوزيه.. وانسي إنو عندك إم.. درة قتلوها من سنين.. وأنتِ هلأ دفنتيها..

وأغلقت الهاتف بوجهها ثانية..

لتنخرط لارا في نوبة مزعجة من النشيج حاولت السيطرة عليها حتى لا تكشف رفض أمها لزواجها..

لا يمكنها مصارحة عادل بهذا الرفض.. ولا يمكنها إغضاب أمها..!



نهضت بغتة في محاولة للهرب إلى غرفتها حتى لا يشهد لحظة ضعفها أي من سكان الفيلا ولكنها اصطدمت بصدر نديم الذي مد يديه يحيط بخصرها حتى تستعيد توازنها..

اعتدلت بصمت وشكرته بصوت خافت.. أثار تعجبه.. فرفع ذقنها يسألها بلهفة:

- لارا!.. أنتِ بتبكي؟.. خير!.. مالك؟

هزت رأسها بحزن:

- ما فيش حاجة يا نديم.. من فضلك سيبني.. عايزة أروح أوضتي..

أجابها بحزم:

- أسيبك إزاي؟.. فهميني في إيه؟.. حد زعلك؟.. حد أهانك؟..

هزت رأسها نافية وهي تردد:

- عادل..

هتف نديم بذهول:

- عادل زعلك؟.. مش ممكن!

تساقطت دموعها وهي تخبره:

- عادل طلب إيدي..

طعنة وجع ضربت خافقه، حتى كادت أن تحبس أنفاسه.. مما جعله يستنكر ذلك الشعور المقلق بالغضب.. والغيرة.. وهو يسألها:

- عادل طلب إيدك!.. وده اللي زعلك؟

هزت رأسها نفيًا بقوة وهي تخبره:

- ماما مانها راضية عنو.. إمي حكيتلي أنو دفنتها.. إمي..

قطعت كلماتها وهي تشهق بعنف:

- أنا.. أنا..

قاطعها نديم بتقرير:

- بتحبي عادل..

أومأت موافقة وهي تنفجر بنوبة بكاء فاجأت نديم بقوة.. وجعلته يدرك بلحظة.. ماهية مشاعره المتقلبة والمتناقضة نحو الشقراء الجميلة..

هو عاشق لها..

وهي عاشقه عادل..

والواقع يرفض ارتباطها به.. أو بعادل..



ولكن ليكن منصفًا.. فرصتها مع عادل أفضل.. فمع عادل ستحظى بحياة أسرية عادية.. ستكون أمًا.. وتلك هدية لن يمكنه أبدًا منحها لها.. غاب وسط أمواج عاطفته التي اكتشفها للتو..

لم يشعر بوضعهما الغريب وهي تبكي بين ذراعيه غير مدركة ربما لاحتضانه المواسي وهمسه بكلمات مواسية لها..

ولم ينتبه أي منهما لتلكما العينان اللتان تتقدان بخضرة ملتهبة، تتأملان مشهدهما الذي بدا لذلك المراقب مشهدًا عاطفيًا ناعمًا..

قبض بشدة على ستائر نافذته وهو يتذكر اقترابه العاطفي منها منذ عدة أيام.. وعرض زواج ألقاه بين يديها.. متغاضياً عن كونها..

ابنة درة..

***

وحيرة قلب اختار أن يمحي حلمه القديم ويسعى نحو حلم جديد.. برغم غرابة الحلم الجديد.. وحيرة التساؤلات التي يثيرها بالنفس..

تغاضت أمنية عن تلك الهواجس التي تطرق عقلها بمطارق مقلقة.. وقررت المضي قدمًا بحياتها.. فكثيرًا ما سمعت المثل المعروف..

"خدي اللي يحبك ولا تخديش اللي بتحبيه.."

وماذا أفادها من أحبته إلا جراحًا!.. ومزيدًا من الجراح!..

فلتبني حياة مع مَن أحبها وسعى خلفها بقوة لترضى وتوافق.. حتى لو كان يربكها ويزرع الحيرة بنفسها.. هي فقط تحتاج للاعتياد عليه وعلى تصرفاته.. فهو يعد غريبًا عليها..

غريب نال منها قبلة.. بل أكثر من واحدة!.. غريب يحيطها باهتمام ومراعاة بكل لحظة باليوم..

غريب لمحته الآن داخل سيارته الحديثة وقد صفها أمام كليتها وارتكز عليها بثقة.. وعيناه التي اختفت خلف نظارة شمسية أنيقة تبحث عنها بلا هوادة.. هي لم ترَعينيه بالطبع.. ولكنها فقط تعرف..

وقفت تراقبه عن بعد.. رجل وسيم بحق.. أشبه بنجوم السينما.. بل وأكثر أناقة.. أفكارها ترجمتها صديقتها الواقفة بجوارها وهي تشهق بحسد واضح:

- هو ده دكتور أسامة!.. يخربيت جماله.. وقاعدة تعيطي على حمزة.. ده أنتِ عبيطة بجد!.. يا بنتي حمزة جنبه ضلفة دولاب بني..

منحتها أمنية نظرة زاجرة واتجهت بثقة نحو أسامة الذي بدأ يتململ في وقفته وقد بدأت بعض الفتيات بمغازلته بطريقة واضحة ووقحة والبعض الآخر تقدم لتحيته بميوعة لزجة وهن يقدمن أنفسهن كصديقات لأمنية..

راقبته أمنية وهو يبادلهن التحية بارتباك ذكرها بطريقته الخجولة معها في البداية قبل عقد قرانهما.. وعادت جملته تتردد بذهنها..

"أنا كده مع مراتي بس.."

هزت كتفيها بلامبالاة.. ربما هو خجول بالطبيعة وهي وحدها من تكسر حاجز الخجل لديه..

وصلت أمامه لتبدو الفرحة والارتياح على وجهه وهو يقترب منها ويتمسك بكفها بقوة.. ويهمس:

- أخذت إذن الحاج وهنتغدى النهارده سوا.. ايه رأيك في المفاجأة دي؟..

ابتسمت له تبدي سعادتها.. هو يحاول إسعادها بكل قوته.. لم لا تحاول منحه بعض مشاعرها.. ومبادلته بعض مشاعره!!..

بسيارته تمسك بكفها ولم يتركه لحظة.. نظراته تحيطها بفقاعة وردية من مشاعر حالمة طالما حلمت بها.. ربما ليس معه.. ولكنه يمنح بقوة.. وعليها مبادلته عطاءه.. أو حتى التظاهر.. هذا أقل ما يمكنها عمله..

قبلة دافئة فوق كفها أذابت إحدى دقات قلبها عن حق.. فقد بدت دافئة ومراعية.. ومحبة للغاية.. وبإشارة مرور نالت القبلة الثانية وتلك المرة بباطن الكف وكانت أكثر دفئًا.. وأكثر حسية.. كانت مثيرة مدغدغة لمشاعرها حتى أن ارتجافتها كانت عفوية جدًا وغير مفتعلة نهائيًا..

اصطحبها لمطعم هادئ.. من الواضح أنه كان ملتقى عشاق.. فموائده مشكلة من أرائك منخفضة ووثيرة للغاية.. أمامها منضدة صغيرة استقرت عليها شمعة ذات عطر حسي يثير الحواس عندما يمتزج مع الاضاءة الخافتة والمُعدة خصيصًا لتوفير خصوصية عاطفية لرواد المكان..

أجلسها على واحدة من تلك الأرائك وجاورها ملصقًا نفسه بكل خلية بها.. ذراعه تحيط بخصرها ورأسه يكاد يستلقي على كتفها.. وهمساته لم تتوقف طيلة الجلسة..

تارة يتغزل بعيونها.. وأخرى يتشمم خصلاتها.. وثالثة يداعب وجنتها بطرف شفاهه..

كان يضعها بغيمة شديدة الوردية.. بل فاقعة الوردية تكاد تصل للأحمر القرمزي وهو يطعمها كل لقمة بيده، ولم يكتفِ بذلك بل كان يقتسمها معها ويحرص أن يتلمس بشفتيه موضع شفتيها..

خلاصة الأمر كانت أمنية محاطة بحالة غير اعتيادية من الاهتمام!..

وبرغم أنها على الدوام كانت نجمة منزل الحاج سلامة باعتبارها الزوجة المستقبلية للابن الأكبر.. كما أنها استطاعت نيل لقب طبيبة.. حتى ولو كانت مازالت بمقاعد الدراسة.. وحتى لو كانت طبيبة علاج طبيعي.. ولكنها دومًا كانت مميزة.. ورغم كل ذلك؛ كان اهتمام أسامة بها ذا مذاق مختلف..

كانت تشعر أنها أنثى.. أنثى تجذب عيني رجل وحواسه حتى أنه -رغم خجله الجلي مع الجميع- لا يمكنه رفع يديه عنها..

وبالسيارة أعاد التمسك بكفها حتى وصلا أمام منزلها.. وهناك فتح تابلوه السيارة وأخرج لفة هدية مبهرة.. منحها اياها بلهفة وهو يخبرها:

- يا رب تعجبك..

شهقت أمنية بسعادة:

- تاني يا أسامة!.. ده كتير قوي..

داعب شفتيها بأنامله وهو يخبرها:

- ما فيش حاجة كتير عليكِ..

همست بخجل:

- أسامة!!

هتف بلهفة:

- افتحيها.. افتحيها دلوقتِ..

أطاعته بصمت وفتحت اللفة الفخمة لتطالعها زجاجة عطر ثمينة جعلتها تشهق بذهول:

Gucci!!-

ابتسم أسامة بسعادة:

- عجبتك..

هتفت بسعادة وهي تمنع نفسها عن التعلق بعنقه:

- دي.. فظيعة.. وغالية .. غالية جدًا..

وضع أنامله على شفتيها وهو يخبرها:

- قلت إيه أنا!!.. ما فيش حاجة تغلى على مراتي حبيبتي..

ومد يده يمسك بالقارورة وينثر من عطرها على أمنية التي هتفت مستنكرة:

- هتخلصها.. وبعدين إيه لزومه دلوقتِ!.. أنا هروح..

همس بخبث:

- هقولك إيه لزومه حالًا..

وهبط من سيارته يصطحبها لمدخل المنزل وتأكد من إحكام غلق البوابة وقبل أن تسأله بتعجب عما يريده وجدت نفسها تغرق بين ذراعيه وهو يهمس بأذنها بتثاقل:

- لزومه بقى.. ده!

والتقط شفتيها في قبلة طالت.. وأعقبتها أخرى وأخرى.. وهو يمرغ وجهه بخصلاتها وعنقها.. يتشمم هديته فوق بشرتها الناعمة.. وهي غرقت معه

بعاطفة جامحة لم تستفق منها إلا عندما شعرت بشفتيه تحلان زر قميصها الأول وأنفاسه تحرق صدرها وعنقها..

لحظتها دفعته بضعف وهي تهمس بمقاومة واهية:

- أسامة.. كفاية.. مش كده..

ويعاود جذبها لصدره هامسًا:

- أنتِ مراتي يا موني..

هتفت بضعف تحاول إبعاد وجهها عن شفتيه:

- مكتوب كتابنا.. مكتوب كتابنا بس..

رفع رأسه يتأمل وجهها المحتقن وشعرها المشعث.. لتتحرك أنامله على وجهها يرسم ملامحها بنعومة ويضغط على شفتيها برقة:

- برضوه مراتي..

بدأت تتجمع بعينيها دموع رقيقة وهي تهمس بضعف غير قادرة على إزاحته.. وغير راغبة بمنعه:

- عشان خاطري يا أسامة.. أما نبقى في بيتنا..



تأمل ملامحها الجميلة للحظات وعاد يحتضنها بقوة وأنفاسه اللاهثة تتباطأ بالقرب من عنقها.. ثم ابتعد قليلًا مختطفًا قبلة من شفتيها ومحاولًا السيطرة على هياجه العاطفي عن طريق المزاح:

- وماالله.. تنزل المرة دي عشان خاطرك..

ابتسمت بضعف وهي تودعه وتنطلق هاربة من أمامه وهو يتابع خطواتها بنظراته ورائحة عطرها مازال تتخلل أنفاسه مسببًا له حالة من الترقب والإثارة القوية.. فتحرك نحو سيارته وهو يعد نفسه بمكالمة هاتفية طويلة معها تلك الليلة..

***

وهناك حيرة بين نداء القلب ورجاحة العقل..

فالقلب يميل لبراءة طفلة.. يحن للإحساس بأمومة يسلبها منها زوج باسم عشق أبدي.. والعقل يقف كجدار منيع.. يوقظ صوت الضمير الذي استماله القلب سابقًا.. فينتفض الضمير رافضًا الاستمرار بخداع النفس.. بخداع آخر لا ذنب له سوى جبنها وتخاذلها عن مصارحته بحقيقة واقعها..

هي زوجة..

وزوجة محبة لزوجها برغم أخطائه بحقها.. وبضمير زوجة مخلصة قررت تجاهل رسالة حسام الأخيرة.. حتى وقلبها يتآكله القلق على صحة الصغيرة

التي تغيبت اليوم عن المدرسة.. ستضع حاجزًا ونهاية حاسمة لتلك الرسائل المتبادلة..

فذلك درب لا يليق بها..

وستجد وسيلة أخرى للاطمئنان على سما ومتابعتها ورعايتها حتى لو اقتضى الأمر.. ولكن بعيدًا عن أي اتصال بوالدها..

أرادت إغلاق الهاتف بصورة نهائية.. ولكن تأخر نبيل بعمله منعها عن ذلك..

تحاول جاهدة الاتصال به ولكن تتردد الرسالة الآلية السخيفة بكل مرة.. تخبرها بكون الهاتف غير متاح..!

لمَ هاتفه غير متاح!!..

سؤال تردده عليه كل ليلة ويجبها ببساطة بازدياد أعماله تلك الفترة..

إجابة غير محددة.. تكاد تدفعها للجنون.. ولكن إرهاقه الواضح بتلك الأيام يدفعها للصمت.. تدعي تصديقه وتتمنى لو كان بدأ علاجه كما وعدها ويخشى إخبارها حتى لا ترتفع بها الأماني والأحلام..

وأخيرًا سمعت صوت مفتاحه يدور بالقفل فركضت لاستقباله وهي تهتف بلهفة:

- نبيل.. قلقتني عليك.. مش كفاية سهر كل ليلة بقى!

وتقابلها ابتسامته المعتذرة وهو يربت على كتفها بحنان:

- قلت لك شغل يا حبيبة.. أنا بعمل كل ده عشان خاطرك..

وتنتعش أمانيها بكلماته تلك وتتسارع دقات قلبها لهفة وحب وتحن روحها عطفًا وشفقة عليه..

تهمس له برقة:

- حبيبي.. بالراحة على نفسك.. أنت مجهد قوي.. هحضرلك الأكل... أكيد ما كلتش..

وقبل أن تخطو خطوة واحدة يستوقفها صوته:

- لا أكلت..

تتساءل بضيق:

- برضوه ساندويتشات جاهزة؟..

فيومئ نبيل موافقًا ويهمس بإجهاد:

- أنا عايز أنام.. هدخل آخد شاور وأنام على طول..

وربتة خفيفة على رأسها تصاحبها غمغمة..

"تصبحي على خير.."

ويتحرك متثاقلاً لغرفته تتابعه نظراتها الملهوفة والقلقة.. وسؤال يتردد بذهنها..

"هل علاج حالته قاسٍ لتلك الدرجة؟.."

وسؤال أهم..

"هل سينجح العلاج ليستطيعا إكمال حياتهما كزوجين طبيعيين وينشآن أسرة صغيرة كما تمنت دومًا؟"

وسؤال يؤرقها وتهرب من محاولة التفكير به..

"وماذا لو لم ينجح العلاج؟.."!



الفصل السادس عشر

التناقض سمة رئيسية من سمات الحياة..

تتناقض المشاعر، التصرفات، بل وحتى الأقدار.. فبينما يرزح البعض أسفل ثقل الأوجاع، نجد آخرين يخطون نحو سعادة نالوها عن استحقاق، أو ترقبًا لأمل جديد قد يحمل بين طياته الخير!

تتناقض حتى ردود أفعالنا، تارة نحب.. تارة نسامح.. وحين الغضب نفقد السيطرة!.. تارة نسلم لاختيار مصيري أوقعتنا ظروفنا في دوامته، وأخرى نعاند.. نرفض، أو نتحايل لنصل لما نريد..

في النهاية، هناك أقصى يمين وأقصى يسار.. وبكلتا الحالتين هو ذات الشخص الذي تتنازعه التناقضات فيميل لأحدها في مرة، ولغيرها بأخرى..

وهو لا يصارع بقوة.. بل لا يحاربه القدر بعدل!..

فبينما قرر قلبه التمرد على كل خطوة سار فيها ولم يعد لها من رجوع؛ قنع عقله بخاتمة لم يرسمها وحده، هو حتى لم يخترها.. بل دُفع إليها دفعًا.. والتتمة خضوع..



وهو كذلك لا يعلم هل فقد صديقه للأبد!.. أم أنها فورة غضب ستنتهي حالما تتضح له الأمور!

زفر بضيق وحسرة.. كل جوارحه تؤنبها هي، تصب بلعناتها على رأسها، وفؤاده يشكيها لقلبها.. حشرتهما معًا في ركن ضيق، والمخرج بضيق ثقب إبرة لن يعبراه إلا بعد اختناق..

وقف بتردد أمام باب منزل والدته، عروسه بالداخل!

وابتسم ساخرًا.. عروس!..

الآن هناك امرأة ثانية لها الحق فيه، تشارك الحبيبة روحه وجسده ومسئوليته.. لكنها لم تقترب من القلب بعد، ومن يدري!!.. ربما لن تفعل أبدًا، ألم يُمَّلِكه للأولى؟..

كيف سيسترد ما لم يعد يخصه!..

ونقطة وانتهى السطر..

إن كان القدر قد اختار عنه، فمن هو ليخالف مشيئته التي يسطرها فوق رقاب العباد؟..

رن جرس الباب منبهًا لحضوره ثم فتحه ودلف للبيت.. لم يتوقع أن يراها في مواجهته، بملابسها السوداء المحتشمة حدادًا على والدتها، وملامحها

الهادئة دومًا الحزينة بضعف يوخز احتوائه، نظرت لوجهه بذعر اختبأ خلفه الشجن فرفع يديه مهدئًا قبل أن تقلق والدته التي بحث عنها بعينيه:

- أنا كويس..

ناظرته بقلق وهي تساوي حجابها خجلًا فأردف بتساؤل:

- ماما فين!

أشارت خلفها بإشارة مبهمة:

- بتريح شوية بعد الغدا.. أنت!..

واحتارت في أحرف تصيغ بها سؤالها.. عن شفتيه المكدومتين، قطرات الدماء الجافة جوارهما، وجنته المحمرة دليل لكمة ربما، وانحنائته الطفيفة التي تشي بوجع في ضلوعه وانقبض قلبها ألمًا لألمه:

- أنا كويس يا رؤى.. ما تقلقيش.

وتحرك نحو غرفته وتركها خلفه حائرة خجلى!.. هل تتبعه، تداوي جروحه!.. أم تبقى مكانها؟..

في النهاية تغلبت على حيائها، لقد بدا الألم على وجهه بوضوح والقلق بدأ ينهش قلبها بالفعل.. أحضرت مطهرًا وبعض القطن وذهبت ورائه.. وجدته واقفًا يحاول فك أزرار قميصه فهمست:

- ممكن تقعد أطهرلك جرح وشك!

التفت إليها بدهشة، دهشته جلبت حمرة قانية لوجنتيها فجذبت عينيه لذلك التناقض الفاتن بين عاجية بشرتها ولون الخجل الجذاب، هزرأسه يخرجها من أفكاره واستجاب..

جلس فوق الفراش وسلم لها أمره، وقفت مقابله تعتني به برقة لا يكاد يشعرمعها بلمستها، كانت تعالج الجرح، تصمت وتسكن للحظة.. تتوترثم تعود لما تفعله مما دفعه لابتسامة خافتة مطمئنة وذاك كله ومقلتاها حائرتان تدوران بعيدًا عن مواجهة نظراته التي يلقيها إليها بين حين وآخر:

- عاوزة تقولي حاجة!

نظرت لعينيه بارتباك قبل أن تهرب منهما مجددًا:

- قلقانة عليك بس.. إيه اللي عمل فيك كده؟

عانق جفنيه وتنهد بزفرة حارة بدت كأنها تحمل معها من صدره هموم الدنيا:

- أصل.. أنا تقريبًا خسرت صديق عمري.

تجمدت لثوانٍ، تكاد تفهم ما يعنيه.. بالتأكيد هويتحدث عن شقيق زوجته.. ومرارة ما ملأت حلقها ونبضة متوجعة أنَّ لها قلبها، زوجته الأولى..

أو للدقة، حبيبته!

ارتعشت شفتاها وهي تنظر إليه باعتذار ظاهر:

- أنا آسفة إذا كنت اتسببت لك في مشاكل!

"مشاكل إيه يا رؤى يا حبيبتي.. أنتِ مراته"

رفعت وجهها لوالدته التي توقفت عن التظاهر بالقيلولة في غرفتها بعدما علمت بوجوده، وأتت لتصوب الأمور وتضعها في نصابها الصحيح فهي ترى ابنها على وشك إفسادها.. دخلت بهدوء تتأمله ووجهه المزرق:

- مين اللي عمل فيك كده يا علي؟

هرب من تفحص نظراتها بجمود:

- خناقة أنا وواحد صاحبي يا ماما.. ما تقلقيش نفسك.

كانت تعلم أن ابنها لن يفصح عن المزيد، وأيضًا يقينها وعقلها يخبرانها أن ذلك الصديق الذي يتحدث عنه هو "حمزة" أخو "ريم" زوجته.. تجاهلت الأمر بل ولوت عنق الموقف برمته لتخرجه من شروده بكلماتها الموجهة لعروسه:

- إيه يا رؤى!.. فكي طرحتك يا حبيبتي.. أنت مع جوزك مش حد غريب.



وعادت تلك الحمرة تغزو وجنتيها وانعقد جبينه، ومع ترددها مدت أمه يدها تربت على كتفها بتشجيع:

- ما تنكسفيش من علي يا بنتي.. في واحدة تنكسف من جوزها برده!

وهو لم يعُد كم مرة ذكرت والدته أنه "زوجها" منذ ظهرت ببابه، خمس.. عشر!.. كأنها تذكره بها قبل أن تذكر زوجته الخجول..

راقب بصمت أصابعها المترددة التي توجهت نحو عقدة وشاحها لتفكه ببطء، وجهها يتأمل أرضية الغرفة، وعيناها تدوران حول كل مهرب متاح، ومع خصلاتها الكثيفة نبيذية اللون التي انسدلت حول وجهها وتمازجت بسحر مع بشرتها القشدية تلاحقت أنفاسه للحظة..

هي فاتنة بحق!

ناعمة كطفلة صغيرة، مغوية كأنثى ناضجة، ومميزة كشمس غاربة تعانق بشفقها آخر أضواء النهار..

غض بصره بضيق، ما شعر به لا يعجبه!!.. نعم هي زوجته، حلاله بكل شرع وقانون وصفة، لكن القلب هو من حرَّمها عليه.. والقلب سلطانه لا غالب له مهما تظاهرنا بالقوة أو إدعينا العناد وتمسكنا بخيوط الكبرياء..

"أنا اتفقت على عفش جديد لأوضة نومك يا علي.. هييجي النهاردة بالليل"

كان هذا صوت أمه يعيده لأرض الواقع الذي يفتأ يهرب منه ولا جدوى، ومع نهاية أحرفها هربت زوجته بحجة واهية وحياء كاد يبتسم له.. وتلك الـ"كاد" تمزق أحشائه..

فهو رغمًا عنه، أصبح لها كما أصبحت ملكه، والبقية لا تعني سوى المزيد من القرب!

جاورته والدته فوق الفراش، تربت على ركبته باهتمام:

- أنا هاسيب البيت كام يوم..

- كام يوم ليه!!

والدهشة المرتابة اعتلت ملامحه، نظرت له ببسمة موحية رغم إدعاء كلماتها الظاهر:

- خالتك تعبانة.. هاسافر لها أطمن عليها وأقعد معاها كام يوم كده آخد بالي منها.

ونظرت في عينيه بجدية ضاغطة على كل حرف تنطق به:

- افرح بمراتك يا علي وفرحها بيك وانسى اللي فات..

ثم شدت على يده بتأكيد واقعي لا مناص عنه:



- اللي عملته ده من حقك، لا أنت أول راجل يتجوز مرة تانية ولا هتكون الأخير.

ونهضت تقبل رأسه بحنان أمومي:

- عاوزة أفرح بأحفادي وأشوفهم حواليَّ قبل ما ربنا يسترد أمانته.

ونهض يقبل رأسها هو هذه المرة:

- تاني يا أمي!.. بعد الشر عنك.. ربنا يحفظك لينا.

ابتسمت له بدفء وهي تعلم أنها وصلت لهدفها:

- ربنا يسعدك أنت يا علي.. أنت تستاهل كل خير يا ابني.

وهمست في أذنه بتوصية أخيرة قبل أن تغادره:

- البنت مالهاش غيرك دلوقتِ يا علي، أنت جوزها وكل أهلها.. حافظ على الأمانة اللي أمها سابتها في رقبتك.

زم شفتيه، بدت كلماتها التي تحاول بها تطييب خاطره كخناجر مسمومة تزيد من وجع جروح خافقه المكلوم في عشق من لا يبادله عشقه.. وجعًا لا يقاربه سوى الاحتراق بشرارات من سعير فقد السيطرة عليه.. فأشعل ذاته حد الرماد!

رمى بجسده فوق الفراش عقب رحيل والدته، عقله يخبره عن حتمية استمرار فالحياة لن تتوقف رثاءً لقلب خانه الحب كمئات بل آلاف من قبله، والرجولة الذبيحة تناشده انتقامًا.. والكبرياء المخدوش ينزوي في ركن يلعن العشق والعشاق.. وتيه دروبهم التي لا عودة منها!

***

عندما تناقض الظروف التوقعات نسقط في دوامة الخيبة.. تتحطم الآمال على صخور واقع لم نره قادمًا، ولم نظن أنه هو.. النصيب!

قد نستسلم بخنوع، أو نتحدى لنعود لطريق اخترناه بملء إرادتنا، لكن عندما تصبح العودة مستحيلة ونفقد حينها معالمه الواضحة، نضيع فيما خضنا بمتاهاته بالفعل؛ تمسي فكرة العودة محض عبث لا طائل منه!

وهي امرأة عانت الكثير من الخيبات، وخنعت لكل ظرف ممكن انغمست فيه دون إرادة، المبرر تضحية.. ضعف، تسديد دين.. لكن أيًا كان، فرد الفعل الوحيد والمتاح؛ كان الإذعان لما اختير لها وقرره عنها قدرٌ لا قبل لها بمواجهته..

بعدها امتلأت نفسها بالمتناقضات كذلك، بل امتلكت بها كل حق.. فهي مرت بالكثير من مغبات الزمن، ولها الحق الآن أن تقف من سقطتها عندما

تشعر بيد عون تمتد إليها.. حتى لو كان صاحب تلك اليد يشعر وحسب بالمسئولية وجازف بالدخول لدروبها لأنها فقط فُرِضت عليه!

تجاهلت كل أفكارها التي تتناوبها رغمًا عنها هذه الأيام بينما تتحرك بهدوء في غرفتها، تفتح بعض الأدراج، تلتقط منها عدة أشياء، ثم تمر بجوار خزانة الملابس لتجذب حقيبة بلاستيكية.. تعاين ما جمعته بين يديها تلقي بعدها بنظرة أخيرة تطمئن بها على تلك الخاملة في فراشها رافضة العودة لمنزلها بعد زواج من أحبت!.. غادرت الغرفة دون صوت تحبس تنهيدة شجن لكن صراخ عقلها كاد يصم أذنيها..

حتى الحب لم يعد كافيًا لتستقيم حياة من يمتلكونه!

وضعت ما بيديها على طاولة غرفة المعيشة العريضة، وجلست لتعمل على تزيين أوشحة "آية" وعباءة زواجها التي أوشكت على الانتهاء منها.. رغم شرودها الذي يلازمها تقريبًا بشكل دائم كانت يداها تتقنان ما تقومان به بسلاسة..

وصل لمسامعها صوت بابه يفتح، عندما رفعت عينيها وجدته يخرج من غرفته وبيده الحاسوب المحمول خاصته ارتبكت ونهضت تجمع عملها لتفسح له مكانًا باعتذار خافت لم تكمله عندما قاطعها:

- لا خليكي.. أنا هاقعد هنا.

وأشار لأريكة واسعة في مواجهتها، تحرك دون مزيد من الحديث، جلس فوقها ووضع حاسوبه على قدميه وانشغل به.. ظلت تراقبه بين حين وآخر بتوترها المعتاد، وعندما لاحظت انغماسه الكلي فيما يقوم به ركزت فيما تعمل.. ليتبادلا الأدوار..

ويأخذ هو وضع المراقب..

تأمل مهارة أصابعها وسرعتها في العمل، الدقة التي تميزها ما بيدها حتى بدا كتحفة فنية.. أنيقة راقية وبسيطة بذات الوقت، ثوان أخرى ووجد نفسه يتمتم بخفوت لسوء حظه وصل لأذنيها:

- شغل هايل فعلًا.

وتلاقت الأعين، لم تصدق أنه أثنى على عمل يديها، وهو واجه الأمر بابتسامة وتجاهُل ومزيد:

- من إمتى عندك الهواية دي يا سمية؟!

ابتعدت بناظريها ثانية:

- من سنين.

بنبرتها الهادئة، الخافتة دومًا لحد لا يكاد يسمع، واستمر هو بفضول وليد تحركه أفكاره التي تمحورت حول علاقتها بشقيقه:

- ليه ما درستيهاش؟

لاحظ شرودها اللحظي فانعقد حاجباه، حتى لهجتها بدت مستكينة مستسلمة:

- ظروف.

وتحول الشرود لحزن غمر عينيها، وخوف ما كأنما هو من سمات ملامحها:

- سعد رفض؟

- الظروف كلها ما كانتش تسمح.

- إزاي!!

لاحقها بالسؤال دون أن يمنحها الفرصة لتفكر أو تتهرب منه كعادتها، نظرت إليه لا تفهم ما يفعله!.. وهزت كتفيها مذعنة تمنحه الجواب:

- سعد ما كانش بيسيبني أخرج إلا معاه.

طفت دهشة مستغربة على وجهه وهو يسأل مستنكرًا:

- إلا معاه!!

وترك حاسوبه على الأريكة جواره ليستند بمرفقيه فوق ركبتيه ويميل للأمام قليلًا:

- يعني عشتِ في إسكندرية أربع سنين وما كنتيش بتخرجي؟

والنفس أعلنتها صارخة بوجع:

"كنت باخرج للمستشفى بس.. كتير قوي"

لكن الفكروالمنطق عارضا بخضوع تلقائي اعتادته:

- ما بحبش الخروج.

بموازاة هزة رأس لا معنى لها، وطرق الحديد بينما هو ساخن.. غضب ما تسلل إليه ولا يدري له سببًا، فبدا كأنما ينبش له عن مسوغ، ماضٍ، أوحتى هدف:

- يعني مش عاوزة تكملي دراستك؟!

ارتفعت عيناها الهاربتان إليه بتوق، بأمل ملهوف لمحه بوضوح.. وعاد الانكساربعد ثوان يغلف النظرة والاستكانة للظروف تكلل الموقف:

- لا.. عمي كترخيره قوي كده.

وأخفضت وجهها وخفتت النبرة أكثر:

- كفاية إنه متكفل بمصاريف إخواتي.. أنا خلاص.

نطقتها كأنها تعني بها نهايتها بالفعل، ووجد سبب الغضب وفجره بحنق زاعق اللهجة:

- وبابا إيه دخله في الموضوع؟.. لوعاوزة تكملي دي مسئوليتي أنا!

ارتجفت كعادتها كلما علا صوته، بعدها ادعت التماسك هروبًا وعادت تهز كتفيها بسكونها الذي أصبح جزءً لا يتجزأ من شخصيتها كأنها تتجنب فقط كل ما يمكن أن يثير سخطه:

- مسئوليتك جايز.. بس أنت ما لكش ذنب تتحمل أكتر.

- مين قال إن مسئوليتك ذنب؟!.. أنتِ مراتي.

نطقها ببساطة ثم ارتد للخلف بحدة.. وانعقد حاجباها وعيناها تدوران في محجريهما دون أن تجرؤ على رفعهما إليه!

لقد نطقها بتلقائية، بعفوية بدت طبيعية.. بثقة أقر بعدها.. أن هذا هو الواقع حتى لو رفض بدايته، فالطريق مرسوم وهو سار فيه وانتهى!

وغير الموضوع بأكمله يفر من أفكاره:

- إيه رأيك ننقل شقتي؟

هذه المرة أجبرها على النظر إليه، بداخله كان يفكر أن هذا المكان، مسكنها مع أخيه بالتأكيد يحمل لها بعض الذكريات التي تكرهها، وقت ألمها، وِحدَتها، وقتما ضربها أو أهانها ودهس كرامتها.. دهشتها لم تطُل، فعادت تخبر الظروف بثبات أنها قدْر التحمل:

- لا مالوش لزوم.

وصمت أمام رفضها فهو حاول أن يخفف عنها وطأة الذكريات.. لكنها أبت، وبداخلها كان القرار بأحقية لا ترى نفسها تمتلكها..

فشقته التي يتحدث عنها من حق زوجة حقيقية يستحقها رجل مثله..

ليست هي، مجرد ذنب.. أو حتى مسئولية!

***

أحيانًا تناقض أقدارنا رغباتنا وأهواء نفوسنا..

فيتحرك القلب باتجاه يخالف اختيار المصير، لا تدري هل هو يدرك الأفضل لنا أكثر منا أم أنه يختبر صبرنا وقوتنا ومدى تشبثنا بما نريد!.. بما نختار!.. وبما لا يسعنا إلا الركض خلفه فهو مفتاح سعادة كياننا بأكمله!..

نعم هي اختارت.. أو بالأحرى النابض بين جنبيها هو من اتخذ عنها القرار.. لكن القرار لم يوافق مشيئة الأم، بل وافق كل مخاوف ماضيها وذعرها من عائلة أحبت أحد أفرادها فنالها من وراء ذلك الحب كل خوف وألم.. انتهى بفراق..

ولأننا دومًا في مواجهة ما يثير الفرَقَ بقلوبنا نجبُن، نتراجع.. نفكر ألف بل مائة ألف مرة؛ فإننا نعاند، نأبى وبعنف.. نرفض بقوة حد الأذى ونتشبث بالجانب الآمن حتى لو كان ثمنه فقدان من نحب..

فوجع حاضر سريع، أكثر رحمة من انتظار طويل الأمد والقيد بسلاسل من رعب نفقد أمامها كل شجاعتنا..

والدتها عارضت الزيجة، وهي اعترفت بحب ابن العم، تعلم أنه سيواجه معارضة شبيهة وربما أكثر حدة وقسوة لكنه اختارها وتحدى باختياره كل العقبات، وهي الضعيفة التي لا تملك إلا البكاء على الحليب المسكوب والصمت في ترقب.. زوج والدتها يحاول إقناعها، وهي تتهرب من الحبيب حتى تأتي الموافقة.. هذا إن أتت من الأساس!

وجدت في مكالمة سائس الاسطبلات تشتيتًا مناسبًا يبعد أفكارها عن دوامة الضياع تلك، ولأنها تتباعد عنه عمدًا فقد التجأت لأخيه الأصغر "عماد" ليوصلها للمزرعة لتلقي نظرة على "بيرل".. الفرس الذهبية التي وهبها لها "عادل" ملكًا لها.

لقد أخبرها السائس أنها متوعكة بعض الشيء، طمأنها أن الأمور على ما يرام لكنها اقتنصت الفرصة لتغادر المكان.. واستجاب "عماد" بأريحية اعتيادية..

في الطريق لاحظ هدوءها، شرودها.. والغيمة الشجية التي تظلل بريق عينيها فأضفت عليها حزنًا واضحًا جعله يسألها دون مواربة:

- مالك يا لارا؟.. بقى لك كم يوم مش في حالتك العادية؟

رفعت ناظريها إليه، وذلك الانكسار بمقلتيها أقلقه فكرر سؤاله بعينيه، كانت تحتاج لإخراج مكنون صدرها لأحدهم.. تشعر به يكاد ينطبق على ما فيه، يخنق قلبها ويحطم ضلوعها وأضحى الألم غير محتمل.. اعتدلت بمقعدها تتأمل السماء الصافية عبر زجاج السيارة لثوان.. وأخبرته.

- طيب أنا عندي اقتراح ممكن نضغط بيه على مامتك..

فاجأها برده فنظرت إليه بأمل رسم بسمة ودود على شفتيه:

- إيه رأيك تسافري لخالتك؟.. أكيد هتقدر تكلمها وتحاول تقنعها!

انتفضت بمكانها لحظة قبل أن تستعيد عيناها بريقهما هاتفة ببهجة وليدة:

- أنا إزاي غاب عن بالي خالتو دلال!!

واحتارت قليلًا تتلفت حولها بتساؤل:

- بس هاروح لها إمتى؟

داعبها بعبث ماكر:

- واضح إنك مستعجلة قوي.

أخفضت وجهها بخجل دون أن تؤنبه بحدة كما ظن مما دفعه ليعرض بسخاء يحمل مودة:

- إيه رأيك.. هاطلع بيك على القاهرة حالًا!

وتشبثت بكفه فوق المقود دون وعي:

- بجد يا عماد!!

هز رأسه وانطلق ينفذ خطته بلا تأخير.. وصلا لمنزل خالتها بعد منتصف النهار بقليل، قصت عليها كل شيء وساندها ابنا الخالة "حبيبة" و"صلاح" بود فطري قبل أن تقرر دعمها بالفعل وبكل ما أوتيت من قوة.. نابذة الماضي خلف ظهورهم فالمستقبل في هذه اللحظة هو ما يستحق الفرصة..

وقتما عادت كان وجهها ينطق بسعادة حقيقة، أمل ما ينبض داخل نفسها المهزوزة الوجلة، وتوقع بخير تتمناه وتناشده الحدوث..

عندما دخلا إلى المنزل كانت غافلة عن العينين المراقبتين بغضب مستعر، لم تشعر بحرارته إلا عندما وقف يواجهها ونظراته تشي باتهام صريح لا تفهمه!.. من بين أسنانه خاطب أخيه دون أن يبعد عينيه عنها:

- ممكن أفهم كنتوا فين لحد دلوقت!.. إحنا داخلين على نص الليل.

اتخذ "عماد" جانب المرح محاولًا التخفيف من حدة الموقف:

- الصبح طلعنا على الاسطبلات..

- عارف.. وبعدين!



مقاطعة فظة تجاهلها الشقيق الأصغر بذكاء:

- وبعدين يا سيدي الآنسة لارا المبجلة كان شكلها مش في المود.. خدتها وقضينا اليوم برا، اتغدينا ودخلنا سينما وجينا..

رمقه بنظرة ساخطة رفع لها حاجبًا وتوسله بعينيه ألا ينهي اليوم بمأساة، جذب "عادل" مرفقها وجرها خلفه دون تعقيب، دخل إلى مكتبه وهناك واجهها بنبرة شبه زاعقة:

- لارا.. أنا عرضت عليكِ عرض!.. ممكن أعرف ردك؟

توترت، تعرق كفاها وارتبكت هاربة بنظراتها.. هي لا تملك ردًا بالفعل، فخالتها لم تبُت في الأمر بعد.. تلعثمت وتشتت حروفها:

- عادل.. ممكن بس تديني فرصة...

- عشان إيه فرصة!

وقاطعها هي هذه المرة، ولم ينتبه لغلظة وقسوة نبرته، قبضته التي عادت تتحكم بذراعها تضغطه بقوة آلمتها:

- فرصة ليه يا لارا!.. ما شبعتيش لف ودوران!!

تفرق جفناها عن نظرة مستنكرة حانقة:

- يعني إيه؟.. تقصد إيه يا عادل؟

حاول التماسك.. ترك يدها والتفت يدور حول نفسه بزفرات حارة متراجعًا بنبرة أكثر هدوءً:

- لارا.. أنا عاوز رد صريح!

واقترب ومال وغشت النبرة عاطفة وترتها بشدة:

- هتتجوزيني!

تاهت بعينيه، تاهت لوقت لم تحسبه وشرد هو بصمته.. بعد قليل حاولت استعادة توازن نفسها، لا تريد إغضابه لكنها بذات الوقت تشعر بعجز يقهرها ولا تملك أمامه من سبيل.. كلماته التي قالها انمحت بلحظة عندما عاد ذلك المهتم بشعور تخوض لُجته لأول مرة:

- ماما..

اعتلى وجهه تساؤل صامت عبر عنه بضيق:

- أنا هاتجوزك أنتِ مش هاتجوز ماما!

وارتبكت أكثر تدور بعينيها في كل مكان عدا لقاء نظراته:

- ماما مش موافقة..

ثم استنجدت به بنظرة متوسلة:

- ماما لازم توافق يا عادل.. لازم.

- أنا هاسافرلها.

تفرقت شفتاها دهشة، ألهذه الدرجة يحبها!.. سيواجه أمها بنفسه؟.. يحاول إقناعها والفوز برضاها.. ولأجلها هي!

تعلقت مقلتاها بمداره كفارس يحارب لأجل من يحب، شردت فوق غيمة وردية وتأملته بنظرة عاشقة رسمت بسمة على شفتيه، بسمة ذكريدرك ما تشعربه أنثاه في هاته اللحظة..

- المهم أنتِ موافقة!

أخفضت وجهها خجلًا، وهزت رأسها.. تكاد تهرب لكن جسده يسد أمامها كل منفذ، ابتسم وأعاد خصلة نافرة من شعرها خلف أذنها، تأملها برقة وهمس حانيًا:

- طيب اطلعي أنتِ نامي دلوقتِ.. أنا هاتصرف.

استجابت لأمره بامتثال هادئ لم تعتده سوى معه، لكن في الصباح التالي أتتها المفاجأة التي رفعت روحها لتحلق نحو عنان السماء..

هاتفتها خالتها لتخبرها بموافقة أمها المبدئية وشرطها الوحيد..

أن يكون "صلاح" هو وكيلها في عقد القران، قفزت من فراشها كطفلة حصلت على أكثر ما تتمناه بهذا العالم، بدلت ملابسها بسرعة وذهبت إليه تزف الخبر..

وقبالة سعادتها تملكته هو الآخر سعادة وليدة رغم حيرة وأفكار ملأت نفسه، فكيف رفضت الأم بالأمس وحاز على الرضى في الصباح!..

لكنه اعتبرها بشرى من قدره تناقض توقعاته، فكما وافقت أمها؛ ستوافق أمه.. وفي غضون وقت قصير.. ستصبح ابنة العم "لارا".. زوجته رسميًا.

***

النفوس أيضًا تمتلئ بالتناقضات، فبينما يقفز القلب فرحًا بسعادة وشيكة، يدنس العقل بهجته بمخاوف لا مصدر لها سوى توقعات خفية اعتادتها الروح حد الألفة!

توقعات أن الفرح لا يدوم، أوهام ارتبطت بخرافة شعبية قديمة تجعلنا نتبع كل ضحكة بجملة مأثورة..

"اللهم اجعله خيرًا"

وكأن السعادة لا تعني شيئًا إلا أن مصيبة أو كارثة على وشك الحدوث!..



والانتظار ذاته مع تخمين الأسوأ أشد ألمًا على النفس من حدوث ما نخشاه بالفعل.. خاصة عندما يطول، ونغرق نحن في سعادتنا تلك وتحتفظ قلوبنا بخشيتها دون منفذ هروب.

وقفت قبالة مرآتها تتأمل جسدها فوق سطحها اللامع، تبتسم بحالمية وتفكر شاردة..

هل حقًا نالت ما تتمنى؟.. امتلكت الحلم بين أناملها؟.. ابتسمت لها الدنيا وحان وقت راحة النفس التي ظلت قيد الانتظار طويلًا!

أسئلة لا محل لها من الإعراب سوى ذلك التوجس الذي يصاحب قلبها حين تخطو قدُمًا في علاقتها بزوجها عقب اعترافه بحبها.. لا، بل عقب إغراقه لها في بحرٍ موجاتِه عاتية من المشاعر التي لم تلامسها أحلامها يومًا!..

توجسًا مرتابًا خائفًا يعكر صفو ونقاء ما تشعر به!

تأملت انعكاسها لمرة أخيرة، ثوبها الفيروزي عاري الكتفين، المناقض بحلاوة لجمال بشرتها ويتألق مع خصلاتها العسلية بتناغم مثير.. حافظت على بسمة عاشقة فوق شفتيها الورديتين وتحركت تستقبله بعدما هاتفته تطالبه بالعودة مبكرًا من عمله اليوم..

تفعلها لأول مرة.. لكن المناسبة خاصة جدًا، وتستحق!

خرجت من الغرفة تتطلع للمائدة المعدة بعين ناقدة، ترتبها قليلًا وتجذب من فوقها علبة هدايا صغيرة مغلفة بأناقة.. تتلمسها بأنامل حانية حالمة وتبتسم بعذوبة، سمعت صوت خطواته من خلفها فاندهشت أنها لم تنتبه لباب المنزل عندما عاد.. استدارت إليه بلهفة..

وفي اللحظة التالية أصابها دوار.. وسقطت!

وازى شحوبها وبرودة جسدها شحوبه في المقابل عندما دلف للمكان بابتسامة تزين وجهه وأفكارًا خبيثة تدور بعقله عن ليلة عشق مميزة كما عودته حبيبته.. فهي ما إن تناهى لمسامعها صوته والتفتت تنظر إليه حتى سقطت مغشيًا عليها فوثب يتلقاها فوق صدره هاتفًا باسمها في جزع..

نبضات قلبه تسارعت لحد بات مزعجًا بين ضلوعه وهو يحملها لغرفتهما، لم ترَ عيناه غيرها، ولم ينتبه لسواها والرعب تمكن من ملامحه باقتدار.. ظل يناديها بذعر، يربت على وجنتها.. يقرب زجاجة عطره من أنفها حتى استفاقت:

- مالك يا بسمة؟.. إيه اللي حصل!

ومسد جبينها برقة والهلع يقفز من مقلتيه:

- أنتِ كويسة؟.. حصل إيه!



وضعت سبابتها فوق شفتيه توقفه، وكفها أعلى قلبه الهادر بخفقات مرتعبة:

- ششششش.. أنا كويسة، دوخة بسيطة.

- بسيطة إزاي؟.. أنتِ إيدك زي التلج!

ونهض من وضع ركوعه جوار الفراش الذي رقدت فوقه، أعانها على النهوض:

- تعالي.. هنروح لدكتور نطمن.

استجابت له بهدوء ثم استندت إليه بجسدها، لمعة عينها أخبرته كم تعشقه!.. تهواه.. وتشعر بجنونه بذات اللحظة، تمخض ثغرها عن بسمة شقية لم يفهم مغزاها:

- دكتور إيه بس!.. أنا كويسة بأقولك، عارفة مالي وعارفة إني زي البمب.

- بس...

- ششششش..

وبشفتيها أخرسته هذه المرة، بقبلة خافتة ناعمة سريعة خجول، ثم تحركت تجذب يده وتتوجه نحو غرفة الطعام المعدة..

لتخبره عن مفاجأتها!

هناك وقفت تداري الطاولة بجسدها، تناوله العلبة الصغيرة المغلفة وتهمس:

- افتحها.

توتُر جسده لم يخفت، بل عيناه كانتا تدوران في محرابها دون توقف يبحث عن مصدر ما للقلق:

- إيه ده يا بسمة!!.. ده مش وقته، ارتاحي عاوز أطمن عليك.

حركت يده تدفعه لفتح العلبة محافظة على ابتسامتها المحبة:

- أنا كويسة يا حبيبي.. افتحها بس..

ومطت شفتيها بدلال:

- عشان خاطري.

عقد حاجبيه بلا فهم، لكنه في نهاية الأمر استجاب.. فكك الورق الفضي بحرص، فتحها وأخرج منها قطعة بلاستيكية تأملها لثوان قبل أن يرفع عينيه إليها:

- إيه ده!

تعلقت عيناها بنظراته المندهشة.. تكاد تدمع سعادة بينما تمسك بيده لتستقربها بحضن كفها فوق بطنها بخجل:

- ده ابننا.

وانكمشت فوق صدره وهو على ذهوله:

- هتبقى بابا يا صلاح.

وعندما تحركت مقتربة وقع ناظريه على الكعكة المستقرة بوسط المائدة، تحمل رسم طفل ملائكي ضئيل الحجم منتفخ الوجنتين.. وإلى جواره تلك الهمسة الخافتة التي نطقتها قبل ثوان:

"هتبقى بابا"

وخفقاته المتسارعة أضحت أسرع.. بل وصلت حد الجنون، حد التقافز بين ضلوعه في غير استقرار أو تتابع مفهوم.. وكفها استشعرتها فامتلأ قلبها بهجة وهو يتمتم فوق رأسها بسؤال غبي:

- حامل!

وهزت كتفيها وعضت شفتيها وازداد خجلها:

- أها.

تراجع قليلًا يتأمل وجهها، وتشابكت أهدابها قبالة عمق نظراته لتشعر بشفتيه فوق جفونها المتعانقة، بعدها تنقلتا بدفء لوجنتيها، جبهتها، أنفها.. واستقرتا بقبلة طويلة لثغرها الوردي:

- مبروك يا بسبوستي.

ونبرته لا تزال حائرة غير مصدقة حد البلاهة، فتحت عينيها أخيرًا بحياء:

- مبروك علينا.

شعرت بهدير أنفاسه المتلاحقة وعجزه المؤقت عن الحديث قبل أن يعيدها فوق صدره بضمة قوية أسعدتها.. ضمة أخبرتها أن هذا هو مكانها ومستقرها بهذا العالم مهما حدث، ضمة بعثت في نفسها الخوف المعتاد..

أن السعادة لا تدوم، وأن الحزن هو الأدوم..

انتزعها من أفكارها الباهتة عندما تملك من ذقنها بأصابعه، تجاهل ما أعدته من طعام، ألقى بالهدية التي احتوت اختبار الحمل الذي أكد وجود طفله بأحشائها فوق الطاولة خلفها ونهل من شهد شفتيها باشتياق جاورته همهمة:

- طيب تعالي بقى.. عاوز أقول للبيبي سر خطير.

وابتسمت بخفوت تحاول الهروب من سيطرة شفتيه:

- أسرار من أولها!

انحنى يحملها فجأة فضحكت وهو يوضح بغمزة عابثة وقحة:

- أمال.. وأسرار حربية كمان.

واستسلمت..

بئسًا لتلك التناقضات التي تحرم الروح الوجلة سعادتها، وتهدد أمانها بغدر قدرما تخشاه؛ قدرما تتمنى أن يكون فقط.. مخاوفًا لا أصل لها ولا تفاصيل!

***

هل هناك كائن ما يمتلىء بالمتناقضات أكثر من الأنثى!!

أنثى وقعت في خضم صراع بين اختيار موجع ورغبة قلب.. وحين الجد انحازت للخيار الذي يسعد من تحب أكثر، حتى لو ذبحها ذاك وأهال على روحها التراب!

وما بعد الجد سوى جد!..

فها هي ترفض العودة لمنزل جمعهما سويًا، تكره الخواء الذي بات يسكنه، بل يعشش بكيانها هي الأخرى، تبغض وحدتها فيه وعبق أنفاسه، بقايا عطره، وأثر دفئه فوق وسادته..

كلها تسقط متتابعات في خانة الذكرى، فهي أصبحت كل ما تملكه منه بعدما أبعدته بمحض اختيارها، بقرارها الصارم.. وبأوجاع تعمدتها لقلبه وكرامته.. ورجولته.

لكن هل ذاك يخمد صوت الضمير، يخرس القلب.. يحجم أنين الروح!

أم يشعل فتيلًا ظل مخفيًا خلف واجهة صلبة لسنوات طوال ويفجر معه كل ألم!

ربما يفعل!.. بل هو حقًا يفعل.. فهي تصارع في الفراش كأنما تقاوم من يكبلها، تنقبض يداها فوق الغطاء.. وظلام يحيط بها، يثير الرعب بنفسها..

سلاح سكين يبرز من اللامكان، يتوجه لطرف ثوبها والغرض تعرية جسد.. يد مجهولة تخترق حُجُب العتمة لتتمكن من إحدى جدائلها.. تثبت رأسها ولهاث حار مقزز يخترق أذنها، يحرق عنقها بموازاة همس أجش بـ...

وصراخ!

انتفضت من رقادها متعرقة، ثائرة.. تحارب بيديها في الهواء، تطوحهما دون هدف.. وتصرخ بألم، بخوف.. بذعر كاد يوقف قلبها..

والراقدة إلى جوارها انتفضت من نومها بدورها بفزع.. تتأملها وتحاول تسكين جسدها الواجف برجفة عنيفة، تتمسك بذراعيها لا تفقه شيئًا وفؤادها ينقبض بصدرها بتوجس..

ودفعتها "ريم" بنفس الصراخ والأنين، ولاتزال تهدئها.. ترغب في إيقاظها لكنها طوحت يدها مجددًا فخدشت عنقها بجرح طويل لم تشعر به بينما تحجمها أكثر..

لم تجد بدًا من إضاءة أنوار الغرفة، فتحت بابها بسرعة بنية إحضار كوب ماء واصطدمت بصدره حتى كادت تسقط.. تماسكت وهو يلقي بعينيه للداخل بتوتر ملهوف:

- في إيه؟.. مالها ريم!

- مش عارفة.. كابوس، بتحلم ومش راضية تفوق.

دلف للغرفة ليجد شقيقته تتلوى بعنف، تدفع أحدهم بعيدًا عنها وهو لا يفهم، اقترب يطوقها بقوة يبغي السيطرة على حركاتها الحادة خشية أن تؤذي نفسها، يناديها برفق حنون ويمسد ظهرها بشيء من خشونة..

عادت زوجته بالماء، وضعته على الطاولة المجاورة للفراش وتمسكت بها ثانية من بين يديه، تنشد إفاقتها.. دقيقة أو أكثر وبدأت تفيق بالفعل، تنظر حولها برعب واضح.. وعيناها تذرفان الدموع كنهر منبعه بين جفنيها ومصبه قلبها المقهور..

ضمتها "سمية" لصدرها بحنو فشعرت بتشنجها الحاد ورفضها.. احتوتها بقوة ترفض تمنُعها وظلت تربت على شعرها وتهمس في أذنها بما خمن أنه ذكر ما أو ربما آيات قرآنية تطمئنها بها.. احتارت مقلتاه بين شقيقته المرتجفة وبين زوجته التي تحنو عليها كأمها.. تحتضنها لصدرها وتستمر بتمتماتها الخافتة دون توقف..

هدأ أنين "ريم" بعض الشيء، فتنهد بارتياح.. تنبه فجأة لجرح ممتد فوق عنقها فأشار إليه بتساؤل:

- إيه ده يا سمية؟

- إيه!

ونظرت إليه فوضح بعينيه معيدًا إشارته نحو الجرح:

- جرح.. في رقبتك!

- مش عارفة!

وكأن الخوف ألجم كل شعور آخر حتى ألم الجسد!

شعرت بجسد "ريم" يهتز بين ذراعيها ثانية، تنهنه.. تنتحب بوجع، وتهذي بكلمات غير مفهومة.. وجدته ينتزعها من أحضانها برفق ويضمها لأحضانه هو:

- ششششش. ما تخافيش، أنا هنا معاكِ.

ومع تغير الضمة وقوتها تباعدت بعنف، وهو اعتصرها فوق صدره يتخلل بأنامله خصلاتها:

- أنا حمزة يا ريم.. ما تخافيش.



سكنت بعض الشيء مستسلمة لذراعيه، وتاهت عينا "سمية" شرودًا في حنوه هو.. احتوائه لأخته حال خوفها.. نعم هو مختلف بالفعل، هو لا يشبه شقيقه في شيء.. أي شيء!

"سمية.. روحي طهري جرح رقبتك"

بنبرة آمرة انتزعها من غيابها، من مقارنة لا تحق لها حتى وإن كانت تبعث في نفسها أمانًا ما تحتاجه بشدة.. أومأت برأسها وذهبت..

وعاد هو يهدهد شقيقته، ويفكر..

يا ترى ألهذا الكابوس علاقة بزواج صديقه!!

لكن ألم تكن هي التي دفعته لأخرى؟.. ألم تخبره أن ذاك حقه!

ألم تعاند وتصر على البقاء معه.. الاستمرار كزوجة له!

زفر بضيق وشعور بالعجز يغمره، ضمها أكثر.. وعاد يهمس في أذنها محاولًا طمأنتها، فهو هنا.. معها، سيحميها مهما كان ذلك التناقض في موقفها يسبب سخطه، بل ويفجر غضبه لأقصى حد!

***

هل يمكن أن يبلغ التناقض حدود اللامعقول!!



إن كانت الإجابة بنعم: فسيظل الأمر طبيعة بشرية، حيث أن الكيل بمكيالين هو فطرة البعض، وإن كان الرد بلا: فسيبقى التناقض أسير الواقع، وما يتعداه هو محض خيال!

حيرة كبيرة تكتنف كل أنثى تقع بين براثن رجل، بدايته غضة بتول، وخط سيره يتجاوز الظنون المرسومة مسبقًا، حتى وإن كان تجاوزًا طفيفًا ومحتملًا بل ومناسبًا للغاية..

وهو في اللقاءات الأولى ظل جافًا خشنًا لم تظنه قد ينطق غزلًا في يوم ما، ثم حدث التضارب بين الأمس واليوم حين تغيرت معاملته، بدءً باعتذار عن غياب.. تلاه قربًا انتزع من مشاعرها العذرية.. الكثير.

بلى.. تقر لنفسها أنها أصبحت تحبه.. بكل خشونته، جموده الذي ينقلب لمغازلة أحيانًا، بكل ما يمتلئ به من تناقضات اختارت أهونها وتجاهلت الباقي.. فهي في هذه اللحظة تحب!

وهو الآن عندما يتجرأ معها في حديثه على الهاتف لا يسعها سوى التفكير في ذلك التعارض، باتت تظنه تعلق بها كما تعلقت هي به.. لم يعد الأمر مجرد خطبة أو زواجًا عائليًا يقرب أكثر بين الأسرتين.. ابتسمت بخجل وتكاثفت الحمرة بوجهها كعادتها وهو يهمس باشتياق واضح:

- وحشتيني.

وصمتت.. فتحول لمشاغب لا تعرفه حق المعرفة:

- مش هتيجي تشوفي أوضتي برده؟.. عشان تعرفي ذوقي وتعملي حسابي في الديكورات..

وسكن لحظة جاور بعدها النبرة عبث:

- ديكورات أوضة نومنا.

- لأ برده.

يعلم أن وجنتيها الآن منفجرتان بالدماء، وود لو كانت أمامه ليتمتع بتلك الفتنة التي تخصه وحده، وتدرك أنه يتلذذ بتلك الخطوات الوليدة التي يخطوانها معًا كما لو كان طفلًا تعلم السير للتو..

- وحشني شعرك.

بتنهيدة وذكرى نعومته ولمعته تتجسد قبالة عينيه، ومع صمتها جهر بأفكاره مستمتعًا:

- خدودك احمرت دلوقتِ!.. أنا لسه فاكرهم من آخر مرة.

وتذكرت هي تلك المرة الأخيرة التي نبش ذكراها، القبلة الخافتة عندما طالت وجنتها.. وبداية لمسة حميمية تنالها من زوجها، وشعرت بسخونة تغزو وجهها بالكامل فنهرته:

- بس بقى يا عمرو.

ضحك بمرح، هي فهمت مقصده ويالها من متعة:

- يا بنتي.. قلت لك حقي.

- يا سلام!!

ويكاد يقسم أنها تمط شفتيها بتذمر لطيف جعل نبرته تخفُت أكثر.. تكتسب بحة تفيض بأحاسيس يجربها للوهلة الأولى:

- أيوة.. وحقي أكتر من كده كمان.

كان صوته أجشًا خافتًا أثار بجسدها رجفة غير معلومة السبب.. لذلك وجدت أن الحل الأمثل هو الهرب:

- طيب.. سلام بقى.

وشيعتها ضحكته ثانية عندما أغلقت الخط.. ضمت الهاتف بين كفيها فوق صدرها وغرقت في أحلامها الوردية.. تحلق مع فارسها الذي تجسدت صورته الآن بصورة خاطبها، وتطفو فوق غيمات قطنية بريئة كبراءة أفكارها..



غيمات انتوت شيطانة أن تسقطها من فوقها لأعماق جحيمها الخاص عندما خططت ونفذت بمساعدة أخرى لتهدم الصورة وتحطم الحلم الوردي..

تقتص ممن تكره وتقتنص من تريد..

الطرقات على بابها أخرجتها من تلك الحدوتة الناعمة التي غاصت بين تفاصيلها فسمحت بالدخول، لتظهر على عتبتها ابنة عمها بملامح مرتبكة.. حذرة، متوجسة بعثت القلق في نفسها على الفور:

- مالك يا رانيا؟.. تعالي!

دخلت بتردد جليّ، تقدم خطوة وتعود فتؤخرها، وقفت أمامها بصمت للحظات قبل أن تندفع:

- آية بصي.. أنتِ بنت عمي وقبل أي حاجة يهمني سعادتك ومستقبلك وإنك تختاري صح!

انعقد حاجبا "آية" بدهشة.. لا تفهم ما تعنيه "رانيا" بل تخشى حتى مجرد التفسير والثانية تردف بافتعال اهتمام:

- أنا مش قادرة أسكت أكتر من كده..

- تسكتي عن إيه يا رانيا؟.. ما تقلقنيش، اتكلمي.

وانقبض قلبها رغمًا عنها وأذناها ترهفان السمع:

- عمرو خطيبك.. مش قادرة.. مش قادرة..

تلجلجت وتصنعت الارتباك، وعادت تمثل الاندفاع كأنما تبغي التخلص من ثقل يضنيها:

- مش قادرة أسيبك تكملي مع واحد ما عندوش أخلاق بالشكل ده.

- إيه!!

ونهضت "آية" ترتعش فعليًا وترتجف الشفاه بحروف مبعثرة غير واضحة المضمون:

- قصدك.. قصدك إيه يا رانيا؟

جذبتها من يدها تعيدها لتجلس فوق الفراش، جاورتها وعبثت في هاتفها قليلًا ثم ناولتها إياه وتركتها تجتر مرارة الصدمة وحدها.. وتستعيد خطة حَبَكتْها مع شقيقته.. البداية فكرة والتتمة كلمات خطتها أنامل كل منهما في حوار مفتعل بين هاتفها وهاتف الأخ الغافل بتاريخ سابق، بحقد لا داعي له أو سببًا ظاهرًا يحركه!

والآن أمام عيني الوردية مراسلات بينهما، من رقمه القديم الذي تعرفه.. قبل يوم عقد قرانهما، يشاغلها، يغازلها.. يدعي إعجابه بها ورغبته في

التعرف عليها أكثر.. ومنها أسئلة مستغربة، طلب إيضاح وسؤال عمن هو حقيقة!..

تهرُب منه يتبعه مطاردة ورفض منها..

"أنا ما كنتش أعرف هو مين!.. في البداية رفضت طبعًا أرد عليه، ولما حاولت أعرف هو مين قال لي بعد ما هددته إني هاقول لعمي، سألته جاب رقمي إزاي ما وضحش.. الكلام ده من أيام فرح بسمة"

وتناولت الهاتف من يدها، تحرك الرسائل للحظات و"آية" تهز رأسها في رفض، لا تكاد تصدق، بل تأبى أن تصدق!:

- دي رسايل جديدة.. بعد كتب كتابكم، مش عارفة أوصفلك حسيت بإيه وهو بيبعت لي كلام حقير زي ده!

والكلام بالفعل حقير، بذيء.. خدش حياءها، وتهشم له قلبها الذي اعترف بحبه للتورغمًا عنها، ومن رقمه الجديد الذي يشبه رقمها كثيرًا عندما أهداها إياه..

انهارت يدها بجوارها فوق الفراش، سالت دموعها صامتة وهي تزدرد لعابها بصعوبة، والأفعى تكمل بخ سمومها:

- آية حبيبتي أنا مش قاصدة أزعلك.. بس أنا بحبك وخايفة عليك من واحد زي ده.

وجذبت كفها تحيطها بين يديها بشبه توسل:

- أنا ما عرفتش هو مين إلا بعد كتب الكتاب.. أنا آسفة بجد.

وشددت على يدها أكثر تدعي التعاطف:

- لو كنت أعرف من قبل كده كنت نبهتك.. قبل الفاس ما تقع في الراس.

عن أي فأس ورأس تتحدث!!

فالفأس شطر قلبها لنصفين وانتهى الأمر.. ورأسها تدور وتدور حد فقدان الوعي!

"أيوة.. وحقي كمان أكتر من كده"

"وحشني شعرك"

قبلة دافئة على الوجنة!

هل حقًا كان يخدعها ويتظاهر بأخلاق لا يمتلك منها ذرة!!.. هل هي بلهاء غبية لتلك الدرجة لتسقط في فخه، تنحدر معه في هاوية مشاعر ليست قدر امتلاكها أو السقوط فيها!

هل التناقض السافر مثل ذاك.. لا تلمحه العين بوضوح، حد اعتقادنا أنه يتخطى بالفعل حدود الخيال!

والعقرب السام لدغ، أنهى مهمته وغادر.. وهي بكت في صمت طويل، ثم انتحبت ونشجت وأوجعها حلقها بينما تحاول ببرائتها كتمان دموعها..

في النهاية لم يتحمل السد أكثر فانهار وعادت تهاتفه، تصرخ في وجهه بكل ما علمته، تسبه.. ترفضه، توصمه بالغش والخيانة والخداع والحقارة..

وتختم الحديث ببتر لكل شيء:

"طلقني يا عمرو!"



الفصل السابع عشر

الشك.. شعور بشري خالص.. شعور بشري خانق.. مؤلم.. ذلك التأرجح المهلك بين التصديق والنكران.. الهاجس المقلق لراحة القلب وهدوء النفس..

الشك هو بداية النهاية.. نهاية علاقة.. نهاية نجاح.. وقد تكون نهاية كذبة..

فالشك بالحبيب قاتل للحب، والشك بالذات مدمر للنفس.. والشك بالحقيقة قد يدفع للجنون..

والشك بالماضي قد يقضي على الحاضر.. ويدمر المستقبل..

بعدما أنهت الأفعى بث سمومها بأذني آية، ونسجت قصة كاذبة تدمر بها زواج البريئة وتنتقم ممن صدها مرة بعد الأخرى مفضلاً البراءة والنعومة الحقيقية وليست المزيفة..

خرجت رانيا تتباهى بانتصارها الحقير تاركة آية تصرخ بعمرو عبر الهاتف..

"طلقني يا عمرو"..

صراخ هيستيري.. وبكاء حزين أوجع قلب عمرو بل أسقطه في قدميه وهو يسمع الهتاف يتكرر ومعه اتهام صريح

"خاين.. خاين.. حرام عليك يا عمرو"

ويليه إغلاق للخط وللهاتف أيضاً..

لم يعرف عمرو ماذا يفعل!.. يريد أن يذهب إليها.. يشرح لها.. ولكن يشرح ماذا!!.. هو لا يعلم ما بها.. لقد أغلق الخط معها قبل دقائق وكانت تتدلل وتخجل بكلماتها كالعادة.. ثم..

أغمض عينيه للحظات واتهامها له بالخيانة يرسم الحقيقة واضحة أمام عينيه..

رانيا..

لقد أخبرت آية بكل شيء.. هذا هو التفسير الوحيد..

لا يصدق!!.. لقد تجنب ذكر الحقيقة حتى لوالده ليحافظ على سمعة الفتاة، فتأتي هي لتدمر كل شيء.. أي تفكير أحمق يدفعها لهذا!.. هل تتخيل أنها ستتقرب منه بفعلتها تلك!!..

تناول مفاتيح سيارته لا يعلم خطوته القادمة ولكن كل ما يدركه أنه لن يفرط بآية.. لقد أيقن الأصلي من المزيف.. ربما ضللته غشاوة سابقة ولكنه الآن موقن بأنه لن يتنازل عن زوجته الخجول مهما بكت وصرخت هي مطالبة بفراق..

بينما آية بغرفتها منخرطة ببكاء عنيف.. ولسانها يردد بلا توقف..

"خاين"..

لا تصدق أن عمرو زوجها من منحته حق القلب والعشق كان ببساطة يتلاعب بها هي وابنة عمها.. لا تصدق أنه ذلك الشاب اللاهي العابث الذي يستحل بيت من استأمنه على أهله وعرضه..

اندفعت بكل خيبة أملها.. بكل براءتها وعفويتها ترمي بهمومها بين يدي والدها والذي تثق بحكمه على الأمور.. وتوقن برجاحة عقله..

رمت نفسها بين ذراعي والدها تردد طلبها الوحيد..

"مش عايزاه يا بابا.. عمرو لازم يطلقني"..

كلماتها المبعثرة وبكائها الذي أفزع والدها ومزق قلب والدتها كانا المسيطرين على أفكار الجميع..

فالصغيرة البريئة تبكي وجعًا وتهتف طالبة بخلاص من زوجها الذي لم يعرفا ما قام به ليصل بها لتلك الحالة..

في البداية ظن والدها أنها تشاجرت مع عمرو كسائر الأزواج.. وعزم على نهرها حتى تتوقف عن بكائها وتشرح السبب وراء طلبها الانفصال وهي لم تتزوج بعد.. ولكن تطور البكاء لنشيج مؤلم وشهقات متتالية تقطعها كلمة

"خاين"..

وجملة

"كان بيتسلى"..

دفنت نفسها بأحضان أمها وقد اكتفت من الكلمات وتفرغت للبكاء فقط..

تأملها الحاج سلامة قليلًا وهي تنتفض بشهقات بكائها بين ذراعي أمها محى كل كلماته الغاضبة والمؤنبة.. فهو طالما كان ضعيفًا أمام تلك الصغيرة..

- يا بنتي فهميني وكفاية دموع..

وتتقطع كلماتها:

- مش عايزاه.. الخاين.. الخاين..

يتنهد سلامة بيأس:

- خانك مع مين؟.. عمل إيه؟..

وتهتف وسط دموعها:

- طلقني منه يا بابا..

يضرب سلامة كفاً بكف.. فمن جهة صغيرته منهارة تماماً وهو لا يفهم شيئاً.. ومن جهة أخرى هو يثق بالفتى وحسن خلقه..

لم يجد مفرًا من الاتصال بعمرو والاستفهام منه عما حدث.. فهو عاجز عن استخراج كلمة إضافية من آية التي تجيب عن كل سؤال بكلمة "خاين".. وهو لا ولن يصدق أن عمرو يعرف للخيانة طريقًا.. الفتى خجول هادئ.. وعلى مر سنوات عملهما معًا لم يرفع عينيه بنظرة مريبة لأي فتاة أو امرأة تعامل معها.. وما أكثرهن.. وما أكثر الفرص التي أتيحت له ليعبث هنا وهناك.. ولكن الفتى تمسك بطريق الحق والفضيلة..

فكيف تنعته صغيرته بالخائن!!..

تلقى عمرو اتصال حميه وكان وصل أسفل منزله، رمق شاشة الهاتف بتوتر وقلق.. هل فضحته رانيا أمام الجميع، أم آية هي من قصدت والدها طالبة الفراق؟..

ظل يرمق الشاشة للحظات.. مترددًا بالإجابة.. هو يرابض أسفل المنزل منذ فترة يرغب بمحادثة آية.. ولكن هاتفها مازال مغلقًا.. والآن يتلقى ذلك الاتصال من والدها!.. فلا مفر من الإجابة..

ومع فتحه للخط وقبل أن يلقي السلام جاءه صوت الحاج سلامة حازمًا:

- بكره الصبح تكون عندي يا عمرو.. في البيت مش المحل..

ليعاجله عمرو بهتاف سريع:

- أنا تحت البيت يا عمي الحاج.. تسمح لي أطلع؟..

ومع دهشة سلامة إلا أنه يتأكد أن الأمر بالفعل جلل.. فالفتى وصل تحت المنزل بالفعل.. إذاً فلابد أن الموضوع أكبر من مشاجرة سخيفة بين حديثي الخطبة..

تنهد سلامة باستسلام:

- اتفضل اطلع يا عمرو.. في انتظارك.

وصلت الكلمات لآية فصرخت بقوة:

- لا.. لا.. مش عايزة أشوفه ولا أسمعه..

وانتفضت من بين ذراعي والدتها بعنف:

- أنا عايزة أتلطلق..

قالت كلماتها الانفعالية واندفعت تبكي نحو غرفتها.. بينما غرقت والدتها بصمت حزين وعيناها تترقرق بهما الدموع:

- إيه اللي جرى للبنات يا حاج؟..

هز الرجل رأسه بحيرة وضميره يصرخ به بوضوح..

أن "داين تدان"..

ولكنه أخبر زوجته بخفوت عندما وصل لأذنيه صوت جرس الباب..

- عمرو وصل.. الله المستعان..

دلف عمرو برفقة حميه إلى غرفة الاستقبال بالمنزل وبدا غاية في الانفعال والارتباك.. فخرجت كلماته غير مترابطة وبلا معنى واضح غير تمسكه الغير مشروط بآية.. واستعداده لمراضاتها بكافة السبل فقط لترضى عنه..

تنهد سلامة بعجز:

- يا ابني أنا مش فاهم منك ولا منها حاجة.. أنت متمسك ببنتي... كويس جدًا.. بس هي مش عايزاك.. وأنا محتاج أفهم عشان آلاقي حل..

لم يستوعب عمرو كلمة بعد ما سمع بأذنيه أن آية ترفضه.. وترفض وجوده.. فصاح بحزن غاضب:

- ما هي لازم تسمعني الأول قبل ما تحكم.. ازاي تسمع لها هي وأنا لا!!.. هتفهم الحكاية صح إزاي!.. صح هي بنت عمها ودمها.. بس رانيا مش زي ما هي متصورة..

توسعت عينا سلامة عندما سمع اسم ابنة أخيه وهتف بسخط:

- رانيا!!.. إيه دخل رانيا بجوازك من آية؟..

لم يبدُ على عمرو أنه استوعب سؤال سلامة فقد كان في حالة انفعال قوية.. وهو يتصور تصديق آية لكلمات رانيا على الفور.. هي حتى لم تواجهه، تحاكمه، بل وجهت الاتهام وأصدرت الحكم بدون سماع دفاعه!..

دفاعه الذي أخذ يهذي به بانفعال وغضب وهو يحكي بكلمات غير مترابطة عن قصته مع رانيا..

كان يهتف غاضبًا في حين ويصرخ حانقًا حيناً آخر.. يخرج هاتفه القديم يظهر به دليل براءته.. ورسائل رانيا تصطف أمام عيني عمها الذي كاد أن ينفجر غضبًا أو ينكسر قهرًا..

وكلمات عمرو تتردد بلا توقف..

"أنا مش عايز أأذيها.. بس هي ليه تعمل كده!.. ليه؟"

وبين خزي سلامة من فعلة ابنة شقيقه.. وراحته لتأكده من براءة ساحة زوج ابنته عم صمت حرج.. فعمرو بدا أنه أفاق من انفعاله ليتبين أنه أحدث ضررًا بليغًا لم يكن يتمناه يومًا.. وسلامة يفكر بحل لورطة وضعتهم بها رانيا باندفاع وحماقة..

الفتاة خطر.. ستؤذي نفسها لو استمرت بذلك الطريق، وإن جاءت فعلتها تلك المرة نحو رجل مهذب كعمرو، لم يتمادَ ولم يستغلها لأغراض قذرة؛ فمن يدري بأيد مَن ستقع بالمرة المقبلة!..

لم يجد أمامه حلًا إلا مراضاة عمرو ومنحه وعدًا أكيدًا ببقائه خطيبًا وزوجًا لابنته الصغيرة.. وحينها طلب عمرو بلهفة مقابلة آية..

- أرجوك يا عمي.. خمس دقايق بس أشرح لها..

ورفض سلامة بلطف وحزم:

- آسف يا عمرو.. الوقت اتأخر.. وأنا محتاج أتكلم شوية مع آية.. وأوعدك الأمور هتبقى تمام..

رحل عمرو متسلحًا بكلمات سلامة ووعده.. بينما توجه سلامة نحو غرفة ابنته التي كانت مازالت تبكي بين أحضان أمها..

أجلى سلامة صوته وتوجه لزوجته بالحديث:

- بعد إذنك يا أم حمزة.. ممكن تعملي لآية كوباية ليمون؟..

أومأت السيدة وهي تخرج من الغرفة مدركة أن زوجها يريد ابنتهما بمفردها.. وإن كانت نظرات سلامة أوحت لها بالطمأنينة فهرعت لتعد الليمون.. بينما التفت سلامة لابنته يناديها بحزم:

- آية..

التفتت له ودموعها تجري بلا توقف ولسانها يسأل بخوف:

- خلاص.. هيطلقني؟..

هز سلامة رأسه بحنق للحظات ثم ردد بحزم:

- "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ"

مسحت آية دموعها ولكنها لم تستطع السيطرة على شهقاتها فهمست من بينها:

- صدق الله العظيم..

ثم سحبت نفسًا طويلًا وهتفت بوالدها:

- بس أنا اتأكدت يا بابا.. اتأكدت من خيانته ..

قاطعها والدها بحزم:

- وأنا اتأكدت من براءته..

هتفت آية بلوم:

- صدقته بسرعة يا بابا!

اقترب أبوها منها ليجلس بجوارها:

- تفتكري يا آية أنا ممكن أظلمك أو أنصف حد عليكِ؟..

هزت آية رأسها بنفي ولكن لسانها ردد بعجز:

- بس هو خاين..

هتف والدها بتأكيد:

- قلنا مظلوم..

وقبل أن تتفوه بكلمة عاجلها والدها:

- ومش عايز أسمع كلمة طلاق.. الولد شاريكِ وعايزك..

غمغمت آية بغضب:

- وكرامتي؟..

أجابها والدها بحسم:

- كرامتك أنك تتمسكي بجوزك مش تتنازلي عنه عشان كلام فارغ ووشاية باطلة..

ضربت بيدها الفراش بضعف:

- بس يا بابا..

نهض والدها وهو يشير بسبابته بحزم:

- ما فيش بس.. أنا أدرى بمصلحتك.. ريحي أعصابك يومين.. بعدها تتصلي بجوزك وتأكدي عليه أنه هيسافر معانا المنصورة عشان فرح لارا بنت الحاج كامل الله يرحمه..

وأكمل بهمس..

"والهانم التانية لها عندي حساب تاني"..



ترك ابنته وخرج ليتناول هاتفه.. يتصل بابن شقيقه.. ورغم تأخر الوقت إلا أن التصرف يجب أن يكون سريعًا وحاسمًا.. فشقيقته بطريقها لتدمير نفسها.. وقد يكون عرضه والذي سبق ورفضه سلامة به خلاص الفتاة وحمايتها..

أجاب ممدوح بعد فترة:

- مساء الخيريا عمي.. خير؟.. رانيا كويسة؟..

أجابه سلامة بحسم:

- كويسة.. كلمني تاني على العريس اللي من طرفك ده..

تنهد ممدوح بسأم:

- يا عمي هو ده أي عريس!.. ده صاحب الشركة اللي بشتغل فيها.. راجل عنده فلوس لو وقف فوقها هيشوف الهيمالايا..

هتف به عمه بعنف:

- أنا بقولك عنده فلوس إيه!.. أنا بسأل على أخلاقه، سلوكياته..

هتف ممدوح بسرعة:

- والله أبو بندر ما في منه..

تمتم سلامة بيقين:

- متجوز؟..

وأجاب ممدوح مدافعًا:

- مش عيب ولا حرام يا عمي.. المهم أنه شاري..

تنهد العم بحنق.. فشقيق الفتاة يلح عليه منذ أكثر من شهر لإتمام تلك الزيجة.. لابد أنه رجل محترم كما ذكر ممدوح.. وحتى إن كان سبق له الزواج.. فلا يعتقد أن رانيا ستمانع.. فالكلمات القليلة التي التقطها من رسائلها لعمرو تبين منها رغبة الفتاة الحارقة في الزواج فحسب.. وبأي حال يبدو هذا الزوج مصيرًا أفضل بكثير من دمار الفتاة لنفسها وتذللها لكل من هب ودب تعرض نفسها بلا حياء ولا خجل..

تنهد سلامة مبديًا موافقته:

- قوله يبدأ في الاجراءات.. مبروك..

أغلق الهاتف وتوجه بخطوات بطيئة لغرفة رانيا والتي كانت تراسل نشوى لتعرف منها آخر الأخبار.. فسحب منها الهاتف بعنف وألقاه أرضًا.. ثم جذب رانيا من شعرها.. لتنال صفعة كادت أن تسبب فقدانها للسمع.. وأعقب الصفعة الأولى بأخرى ألقت بها أرضًا..

بعدها عاد يجذبها من شعرها:



- دي آخرة تربيتنا فيكِ؟.. دايرة تعرضي نفسك على الرجالة تطلبي منهم الجواز؟..

سقطت دموعها وهي ترى بوضوح أن مكيدتها ردت بنحرها.. وأصبعها يشير بالنفي لما لا تفهمه.. ولكن سلامة صدمها بكلماته:

- قدامك شهر تجهزي نفسك فيه.. أخوكِ جايب لك عريس.. صاحب الشركة اللي بيشتغل فيها.. مبروك..

تركها لتتهالك أرضًا وهي ترى بوضوح نهاية مخططاتها وحيلها.. فهي ستصبح زوجة لأحد الأثرياء مثلما رغبت طوال عمرها.. الفارق أن ذلك الثري بدولة أخرى.. ويمتلك زوجة أولى.. وعدة عشرات من السنين فوق عمرها..

***

عندما يصيبنا الشك بصحة أحد القرارات المصيرية.. ففطرة الطبيعة تقتضي منا السعي لإثبات صحة قرارنا.. وهذا ما قام به علي.. فبعد السفرة المفاجئة لوالدته.. واصطدامه بواقع أنه سينفرد بعروسه الجديدة لعدة أيام متتالية.. وحدهما.. قرر دعوة رؤى للخروج وقضاء يومٍ خارج المنزل..

هو لم يكن ينوي تفعيل زواجه بها بتلك السرعة.. ليتعارفا أولًا ويحاولا التقارب.. بعدها لكل حادث حديث..

قضيا اليوم بالتجول بين واجهات المحلات في أحد المولات الشهيرة.. كفها راقد بهدوء خامل بين أنامله وكأنه غفل عنه.. يتحرك بها من محل لآخر بآلية من اعتاد ذلك.. بعدها تناولا الغذاء بأحد المطاعم بالمول.. كان يتناول طعامه بشرود عندما لاحظ عزوفها عن الأكل.. فسألها باهتمام:

- خير.. مش عاجبك الأكل؟..

غمغمت بارتباك:

- حلو قوي.. بس أنا ماليش تقل على السي فوود..

رفع عينيه يتأملها لبرهة.. حينها أدرك أنه برمج يومهما على ما كانت تفضله ريم مفترضًا أن ذلك ما ستفضله رؤى أيضًا..

شعور بالذنب مختلطٍ بالغضب انتابه.. فهو بدأ بجرحها حتى عندما أراد ترضيتها..

سؤاله لم يكن بحاجة لإجابة وهو يسألها:

- أنتِ ما بتحبيش الشوبينج ولا اللف في المحلات؟

هزت رأسها نافية فهتف بحنق:

- وليه ساكتة ما قولتيش؟

ردت بضعف:

- أنا ماكنتش مضايقة.. كفاية أننا بنعمل حاجة سوا..

مد كفه ليربت على أناملها بلطف:

- طيب ممكن أسأل تحبي نعمل إيه بعد كده؟..

سألته بأمل:

- ممكن ندخل سينما؟..

ابتسم وهو يسأل بتقرير:

- فيلم رومانسي طبعًا.

هزت رأسها موافقة ووجنتيها تتوردان بخجل لذيذ دفع بابتسامة على شفتيه.. وقرر قضاء باقي اليوم تبع لرغبتها هي وفقط..

فبعد انتهاء الفيلم الرومانسي الذي لم ينتبه لربع أحداثه ولكنها كانت غارقة بخجلها وسعادتها لاهتمامه بتحقيق رغبتها.. فكانت ترمقه كل فترة بنظرة مترقبة مغلفة بشغف خجول.. ولحسن حظها، بل حظه هو.. كان ينتبه لنظراتها تلك فيمنحها ابتسامة هادئة مطمئنة..

سألها وهما يغادران المول:

- أنا اخترت الغدا.. العشا عليكِ.. تحبي نروح فين؟..

أشارت لمطعم صغير بالزواية وهي تهتف بلهفة.. فهي كانت بغاية الجوع.. فلم تتناول شيئًا من طعام الغذاء:

- إيه رأيك ناخد سندوتشات شاورما ونتمشى شوية؟..

ضحك بتعجب:

- شاورما!!.. وماله..

بعد دقائق كانت تلتهم شطيرتها بتلذذ.. وهو يراقبها بدهشة.. هي خجولة نعم.. ولكنها تملك هالة من الطاقة.. أوربما الراحة النفسية تبثها لمن حولها..

سألها بلطف وهو يدرك أن معلوماته عنها هي أقل من القليل:

- أنا عرفت أنك بتشتغلي في دارنشر.. بس مش متأكد صح ولا غلط؟

ابتلعت قطعة كبيرة من شطيرتها وهي توافقه:

- فعلًا.. بشتغل مدققة لغوية في دارنشر صغيرة..

سألها باستفهام:

- يعني إيه؟.. بتكتبي؟..

هزت رأسها نفيًا:

- لا.. براجع النص الأدبي.. ولو في غلطات لغوية بصححها وأنقح الأسلوب وكده..

قطب حاجبيه بتساؤل.. فأكملت:

- يعني.. أنا العضوة المجهولة ورا إخراج العمل الأدبي.. بحب الكتابة والأدب بس ما أملكش الموهبة.. فبشتغل مدققة.. تقدر تقول تاني أفضل شيء..

تقطعت كلماتها في آخر الجملة وكأنها أدركت أن ذلك أصبح مصيرها الأبدي سواء بالعمل أو الحياة..

هي دائما ما تحل بالمرتبة الثانية..

لمح حاجز خفيف من دموعها فأدرك بسهولة اتجاه أفكارها وغير الموضوع بسرعة هاتفًا بتلذذ مفتعل:

- الشاورما حلوة فعلًا.. بعد كده هاخد بنصيحتك من غير نقاش..

منحته ابتسامة امتنان وعاودت الثرثرة حول عملها.. ووجهت له بضعة أسئلة عن عمله فأجابها باستفاضة وهو يشرح تخصصه بمصنع السيارات الذي يعمل به..



وأخيرًا انتهى اليوم بهما أمام شقة والدته.. وسؤال لا إجابة له يتردد بذهنه.. هل يتخذ خطوته نحوها؟.. هل يمكنه استبدال ريم بتلك الرقيقة الخجول؟..

لم يسعفه عقله.. ولا جسده بإجابة سريعة.. فاتخذت رؤى القرار عنه وهي تفارقه لغرفة والدته وتهمس بخفوت:

- تصبح على خير..

بادلها تحيتها بإيماءة صامتة.. فالشك مازال يقتله حيرة.. هو اتخذ القرار الصحيح.. ذلك بديهي وخاصة بعدما حاور الحمراء الخجول وتعرف إليها أكثر.. ولكن بقى الشك بقدرته على الاستمرار يمزق ضلوعه..

هل يمكنه؟

***

وكما الشك بصحة قرار قد يمزق الأفكار ويضيع الفرص.. فالشك بالحبيب.. قد يميت القلب وينهي العلاقة.. والشك بمستقبل قرار اتخذ بالفعل.. قد يسبب التقهقر خطوات للماضي.. ولكن ماذا إن كان الماضي هو من يتحكم بذلك القرار!..

ماذا إن كان الماضي هو الدافع للتعجل باتخاذ قرار بدون دراسة كافية لعواقب ذلك القرار على الجميع!..

حدد عادل موعد الزفاف بسرعة.. تغلب على غضب والدته وخالته.. دفع بالحجج والبراهين والمبررات.. وحينما وجد أن إقناعهما عسير.. ألقى بورقته الرابحة.. هو سيتزوجها حفاظًا على أملاك الأسرة من التشتت.. كذبة بيضاء.. ولكنها أسكتتهما.. فهو يعلم مقدار خوفهما على تلك الأملاك..

تغلب على العقبة الأولى.. وبقيت العقبة الأكبر.. والدتها التي جاءت لحضور الزفاف.. ورغم ذلك لم تكف عن محاولاتها الحثيثة لإقناع لارا بالرجوع عن الموافقة والرحيل معها إلى لبنان.. وكان إقناع درة من أصعب المفاوضات التي مر بها..

نعم.. اعتبر جلسته المغلقة معها.. والبعيد عن أعين لارا جلسة مفاوضات حاسمة.. ولم ينهها إلا بعدما نال ثقة درة بأنه سيكون الدرع الواقي واليد الحنونة لابنتها..

لم ينسَ جملتها الأخيرة له.. وتعجب من قدرتها على قراءته بتلك الصورة..

"أنا عارفة أنك لسه ما حبيتش بنتي.. بس هتحبها.. ماحدش بيعرف لارا إلا وبيحبها.. بس بعد ما اتكلمت معاك.. بقى عندي أمل قوي أنك هتقدرها وتكرمها.. وده عندي مهم جدًا"...

كتم اندهاشه من ذكائها.. ومن قدرتها على الوصول لأعماقه وقراءتها.. فهو معجب بابنتها كثيرًا.. شغوف بها للحقيقة.. ولكن الحب.. تلك مشاعر

تخطاها للأبد.. ولولا عودة الماضي لحياته الآن.. عودة قد تزعزع استقرارًا ألفه واعتاد عليه ما خاض تجربة الزواج..

ولكنه فقط لن يسمح لماضيه بالعودة.. والظن أنه مازال راهبًا متنسكًا بذكرى حب انهار مع أول حواجز القدر!!..

لا يهم من هجر ومن باع.. من تخلى ومن ابتعد.. تلك تفاصيل لم تعد تهم..

ما يهم حقًا أن تعود "مروة إدريس" من سفرتها الطويلة برفقة مَن اقترنت به.. رغم عمره الذي يماثل عمرها مرتين ونصف.. وتجده مضى بحياته.. تجده وقع بالحب وتزوج.. وتذوق السعادة برفقة أخرى..

غيرها!..

وها هو يحيط خصر زوجته المتألقة بثوب زفاف مبهر.. صدره زين بوردات من الجبير الأبيض المطرز بوحدات من اللؤلؤ والخرزات اللامعة.. وغطى الكتفين والذراعين طبقة شفافة من التول.. نفس الطبقة التي غطت الظهر العاري مع مجموعة من الأزرار الصغيرة والتي يعلم أنها ستسبب له العذاب بآخر الليل.. والتنورة كانت عدة طبقات لانهائية من التول والشيفون.. مما منحها مظهر السيندريلا بأبهى صورها..

خصلاتها الشقراء الذهبية تركت حرة وقد جعدتها قليلًا ووزعت بها وردات صغيرة من الفل الأبيض..

كانت لارا ساحرة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.. وقد استحقت كل نظرات الغيرة التي انطلقت من عينيّ مروة وهي تتقدم بتردد وتلقي بتحية عابرة على عروسه الفاتنة.. ثم تلتفت له بعينين تتألقان بمشاعر حنين واضحة..

لا ينكر تأثره اللحظي بنظراتها ولكنه تماسك بسرعة وهو يمنحها تحية باردة ويعرفها على لارا التي رمقته بنظرات متسائلة:

-مدام مروة إدريس.. صديقة للعيلة من زمان.. كانت مسافرة ولسه راجعة..

وضم لارا بجانبه وهو يمنحها نظرة شغوفة دفعت بالدماء لوجنتيها:

- لارا.. بنت عمي.. ومراتي..

أعادت مروة تحيتها الباردة للارا ثم ابتعدت بسرعة تنزوي بأحد أركان القاعة.. تراقب فرحة عادل الواضحة بعروسه الفاتنة... وعشق الشقراء الذي يتقافز مع كل نظرة من نظراتها التي تحيطه بها في كل وقت..

وعلى مائدة قريبة من العروسين جلس نديم برفقة شهيرة وشقيقها عبد الرحمن ونشوى خطيبته.. ونديم يحاول جاهدًا التحكم بنظرات الوجع بعينيه.. لا يصدق أنه شهد بنفسه على عقد زواجها بعادل.. بالبداية لم يستطع التملص عندما طلبت منه بنفسها أن يكون شاهدها.. كانت فرحتها لا تصدق وهي تزف إليه خبر موافقة والدتها، بل ومجيئها خصيصًا لحضور الزفاف.. لم يملك شيئًا أمام فرحتها..

هو رغم حبه لها.. ذلك الحب الذي تيقن من صدقه وقوته إلا أنه لن يتمكن من منحها أسرة وأولاد.. فليرضى بزواجه المعلق من شهيرة، بالنهاية هي من رضت به رغم عيبه.. ويكتفي بدوره كشاهد على عقد زواجها..

وعندما ظهر الحاج سلامة؛ صديق والدها الراحل.. واستأذن والدتها أن يكون هو وكيلها عوضًا عن صلاح.. رحبت السيدة بقوة وامتنان.. فلم تصدق أن يعرض الرجل القيام بذلك الدور.. ولكنها الشهامة والأصالة المصرية القديمة التي دفعت بسلامة للسفر بكامل أسرته ليكون بجوار تلك اليتيمة ابنة صديقه الراحل.. ليعلم زوجها وعائلته أن الفتاة لها أهل وسند.. وليست مقطوعة الأفرع بلا جذور كنبات صحراوي هائم...

وقتها تنفس نديم الصعداء فهو سيرحم من عذاب تسليمها لغيره.. وصلاح سيحل محله كشاهدها.. ولكن عادل بفراسته وقسوة أفكاره أصر عليه ليكون شاهده هو.. يعلم دائمًا بصلابة عادل في عالم الأعمال.. ولكنه لأول مرة يتلمس قسوته على نطاق شخصي..

وسط غرقه بأفكاره لم ينتبه لابتعاد شهيرة برفقة نشوى، ولكنه أفاق على وكزة من عبد الرحمن وهو يخبره:

- نظراتك هتفضحك يا نديم!

التفت له نديم بعنف.. ليبسط عبد الرحمن كفيه بحركة تهدئة:

- اهدى بس.. أنا مش هتدخل بينك وبين أختي.. طالما هي ما اشتكتش، أنا مش هتدخل..

أجابه نديم بخفوت:

- شهيرة مكانتها كبيرة قوي عندي.. استحالة أأذيها أو أجرح مشاعرها..

رمقه عبد الرحمن للحظات:

-بس أنت حبيت غيرها؟

هز نديم رأسه بيأس:

- حب محكوم عليه يندفن قبل ما أعترف بيه حتى لنفسي.. وعامة ما ينفعش نتكلم عنه دلوقتِ.

تناول عبد الرحمن كوب العصير من أمامه:

- عارف يا نديم.. السبب الوحيد اللي خلاني أوافق ماما واتقدم لعروسة صالونات من اختيارها.. هو قصتك مع شهيرة.. أنا شوفت جنون حبكوا وصلكوا لإيه.. وقلت استحالة أرضى بحياة زي دي..

ابتسم نديم بمرارة.. فأكمل عبد الرحمن باعتذار:

- أنا آسف.. ما قصدتش أجرحك..

ربت نديم على كتفه بمودة:

- ولا يهمك يا دكتور.. أنت عارف أنت صاحبي مش نسيبي بس..

امتد الحوار بينهما لفترة حتى شعر نديم بغياب ذهن عبد الرحمن عن الحوار الدائر.. فتابع اتجاه نظراته حتى وجدها تصب باهتمام فوق فتاة تمثل أيقونة للرقة.. بحجاب ذهبي أنيق ناسب ثوبها الموشى بنفس الخطوط الذهبية بالحجاب.. كانت ملامحها ناعمة للغاية تناقض جمال نشوى الغجري.. ولكن تلك الفتاة بهالة النعومة والبراءة حولها كانت مختلفة.. اختلاف استشعره نديم وهو يمنح عبد الرحمن وكزة إفاقة:

- يظهر النظرات مش هتكشفني لوحدي..

هز عبد الرحمن رأسه وكأنه يمنح نفسه دفعة إفاقة إجبارية:

- مش زي ما أنت فاهم يا نديم.. هي بس فيها حاجة غريبة بتجذب نظري.. لكن قلبي سليم.. بختم ربه..

تأملها نديم للحظات قبل أن يغمغم:

- هي فعلًا تجذب العين.. ملامحها..

أكمل له عبد الرحمن:

- ملائكية..



رمقه نديم للحظات تبادلا بها النظرات قبل أن ينفجرا معًا بضحكات مندهشة.. فذلك حوار لا يجوز أن يدور بين أخ.. وزوج أخته.. ولكن نديم وزواجه.. لا يخضعان لأي منطق..

تابعت نظرات عبد الرحمن تحركات آية ومحاولات عمرو المستمرة للاقتراب منها ومحاولة جرها للحديث.. من موقعه أدرك بوجود خلاف بين الزوجين.. وثار فضول لا يدري له مبرر ليعرف السبب..

وبينما كان عمرو يجاهد لمراضاة آية التي تمنحه وجهًا غاضبًا رافضًا لكل محاولات الصلح.. لمح نظرات عبد الرحمن المهتمة.. وعاد له نفس الضيق القديم.. لا يعلم لمَ!..

ولكنه فقط يشعر بنار تندلع بجوفه عندما يلمح نظرات عبد الرحمن المهتمة بزوجته الصغيرة والرقيقة..

استأذن والدها ليصحبها لمقهى الفندق حتى يستطيعا التفاهم بهدوء.. فرفضت هي بالبداية ولكن سرعان ما خضعت بعدما منحها والدها نظرة زاجرة..

تمسك عمرو بكفها بعد عدة محاولات وممانعة منها وسحبها حتى وصلا لأحد الاركان الهادئة بحديقة الفندق..



كان يحاول مراضاتها بكل ما يعرف من سبل.. والتي لم تكن عديدة.. وما قيده عن المصارحة هو تحذيروالدها من إدخال رانيا بالشرح أو ذكرها بأي طريقة..

أما آية فكانت محملة هي الأخرى بتحذيرات من والدها.. ونصائح من والدتها.. هذا بخلاف تفكيرها هي الخاص..

فبعدما هدأت ثورة غضبها.. وامتثلت لكلمات والدها ألا تترك آذانها لكل من هب ودب يعيث فسادًا بحياتها سواءً الآن قبل الزواج أو بعده.. أدركت ببساطة أن زوجها لم يكن ذلك الذئب الذي صورته لها رانيا.. وما أكد اعتقادها زلة لسان سقطت بها رانيا.. عندما أخبرتها أن عمرو بدل رقم هاتفه فقط حتى يبتعد عنها.. لحظتها لم تناقشها آية بتلك الزلة، بل ابتعدت وقد ترسخ بداخلها كلمات والدها.. ألا تتنازل عن زوجها لمجرد سماعها كلمات مغرضة..

اقترب عمرو منها يتمسك بكفها بقوة حتى كاد أن يؤلمها:

- آية.. لسه مصرة تقاطعيني؟.. اسمعيني بس..

همست بتوجع:

- إيدي يا عمرو..



فك حصار أنامله بسرعة.. ثم عاد يلتقط كفها.. يتأمل علامات أصابعه على كفها الرقيق، ليسب نفسه بعنف ويبدأ سلسلة اعتذرات أخرى، فهو لم يقصد أن يتصرف بعنف معها.. هو فقط أرادها أن تسمعه..

- افهميني يا آية.. ما فيش بنت غيرك لمست قلبي بجد.. من غير حتى ما أعرف إزاي لقيتك بقيتِ حبيبتي..

لم تتمالك نفسها فأطلقت ضحكة خافتة.. فهي ورغم انعدام خبرتها إلا أن طريقته بالاعتراف بحبها لا توحي مطلقًا بذلك الذئب الذي صورته لها رانيا.. بل هو ساذج أحمق.. ولكنه ساذجها وأحمقها هي..

عاد يهمس بغيظ بعدما سكتت ولم تجبه سوى بضحكة خافتة:

- بقولك حبيبتي.. بحبك.. تقومي تضحكي وتتنحي!!

هتفت بتعجب:

- أتنح!.. ده كلام يا عمرو!!

اقترب منها وهو يتمسك بوجنتيها هامسًا بتوسل:

- آسف.. آسف.. أنتِ عارفة أني ما أقصدش.. أنا بس عايز أقولك.. بحبك..

أغمضت عينيها للحظة وهي تهمس:

- عارفة.. وأنا كمان..

التمعت عينا عمرو بفرحة جارفة ولم يتمالك نفسه فاقترب يمنح شفتيها قبلة خفيفة لم تتجاوز تلامس خفيف بين شفاههما.. وابتعد للحظة راقب بها تورد وجهها اللذيذ ونظراتها الخجلى التي هربت بها من نظراته الملهوفة.. لترتسم على شفتيه ابتسامة سعادة وفخر رجولي خالص بفتاته الناعمة التي تمنحه وحده حق الحصرية بها..

وقبل أن يعاود زيارة شفتيها بقبلة أخرى ناعمة.. لمح من بعيد عبد الرحمن المرتكز بجسده على عامود بعيد خلف الواجهة الزجاجية للحديقة..

لم يعرف لم أثارت وقفة عبد الرحمن غضبه!..

ولم يعرف وقتها أن الرجل كان واقفًا بانتظار نشوى حتى يقوم بإيصالها مع والديها لسيارتهم بقرب منزل نديم والذي سيقضي به عبد الرحمن ليلته.. لم يعرف تلك المعلومات ولم يهتم بها.. فقط..

وجد نفسه يستولي على شفاه آية بطريقة مختلفة تلك المرة وكأنه يثبت أحقية وملكية له وحسب.. كانت قبلة قوية.. ولكن جهولة.. لم تكن ذات قوة غاشمة، بل غشيمة.. كانت قبلة مبتدئ.. تتلقاها جاهلة بفنون الغرام.. ولكنها تيقنت من شيء واحد أن ذاك الأحمق الغر.. لم يكن لأخرى قبلها.. كما لم تكن هي لغيره..

هو غرها الساذج وهي سعيدة به..

وبينما كانت آية تتلقى قبلتها الساذجة الأولى كانت أمنية تستلقي باستسلام بين ذراعي أسامة في مقعد سيارته الخلفي، فبعدما طلب من الحاج سلامة أن يصطحبها بجولة في البلدة على أن يعيدها باكرًا.. فوجئت به يدفعها لمقعد سيارته الخلفي ويضمها بقوة هامسًا بأشواق لا تنتهي.. واشتياق جارف:

- يومين مش عارف أشوفك يا موني.. وحشتيني.. وحشتيني قوي..

وتدفعه عنها بضعف وهي تنادي اسمه بدلال:

-أسامة!

وأنامله تعيث بخصلاتها فساداً.. وتزيح السترة القصيرة من فوق كتفيها لتظهر بشرتها الناعمة والتي فقد أمامها كل تماسك فغرق بين طيات شعرها.. وشفتاه تتنقل على بشرتها تقبل كل ما تطاله بنهم.. وتتجرأ يداه مرة بعد أخرى.. وهي تحاول منعه.. ولكنها تضعف بالنهاية تحت همساته بتأثيرها المهلك على تماسكها.. وعجزه عن مقاومة فتنتها.. وحبها الذي أسره ليصبح أسيرًا وعبدًا بمملكة هواها..

كل همسة منه كانت تضعف مقاومتها فتستسلم لما تليها من لمسة.. وكل لمسة كانت تدفعه ليتجرأ أكثر.. وأكثر.. وهي تسقط معه بهوة أعمق وأعمق..

لم ينقذها من السقوط النهائي إلا خبط عنيف على زجاج السيارة لتلمح أحد حراسي الأمن بمرآب الفندق وهو يشير لأسامة بالابتعاد عنها.. ويخرج أسامة مسرعًا يعدل من هندامه ويتبادل حوارًا قصيرًا مع حارس الأمن ..

وقبل أن ينهي حواره كانت هي ترتدي سترتها وتعيد ضبط ملابسها بسرعة ثم تنسل هاربة إلى غرفتها التي تشارك بها رانيا والتي كانت متمددة بفراشها تحاول تأمل آخر رسالة من زوجها المستقبلي وهي تمثل صورة له وسط حديقة ما يفترض بأنه مسكنها المفترض..

كانت تعيد نظراتها للصورة محاولة منع نفسها من التقيؤ وهي تتأمل ما تبقى من الشعيرات برأس زوجها المترهل الجسد والملامح.. تلك الشعيرات التي بدا واضحًا أنه صبغها خصيصًا ليرسل لها تلك الصورة..

تنهدت بعجز وهي تتخيل مصيرها بين ذراعي عجوز مثل أبو بندر.. ولكن لا حيلة لها.. بعد خطتها الفاشلة الأخيرة كشفت نفسها أمام عمها والذي أصابه الهلع أن تفرط بنفسها وهي تحت رعايته.. فقرر تسليمها لأول خاطب طرق باب شقيقها..

تابعت عيناها دخول أمنية للغرفة وقد بدا من تورم شفتيها وملابسها المشعثة أنها كانت تقضي وقتًا ممتعًا بين ذراعي ذاك الصيدلي المدله بحبها.. ولم تستطع منع لسانها وهي تقذفها بكلمات لاذعة:

- لو ادتيه اللي نفسه فيه.. هيرميكِ بطول دراعه..

التفتت لها أمنية لتخرج لها لسانها بغيظ:

- خليك في حالك.. يا حرم أبو بندر..

وأطلقت ضحكة ساخرة دلفت بعدها لحمام الغرفة.. وأغلقت الباب خلفها لتتأمل نفسها قليلًا بالمرآة.. مظهرها يشرح بحروف واضحة أنها كانت بين ذراعي رجل.. حركت خصلاتها الشعثاء لتبتسم بوقاحة.. بل كانت تمتع نفسها بين ذراعي رجل..

أطلقت ضحكة صاخبة صاحبت رنة أسامة المميزة على الهاتف فالتقطته بسرعة لتغيب معه بمكالمة هاتفية طويلة يبثها فيها حبه وأشواقه.. بينما خارج الغرفة.. كانت رانيا تقضم أظافرها بعنف وغيظ.. وهي تعيد تفكير مرة بعد أخرى.. وأخيرًا التقطت الهاتف لتتصل بإيهاب وتبلغه أن ينتظرها فهي ستأتي لغرفته بعد دقائق.. ليحتفلا بزواجها المرتقب..!

وبينما كان يغيب البعض بغابة من التلوث تثير الشك بكل ما هو طاهر وبرئ.. كانت بسمة تضم زوجها بحنان وهو يضمها بدوره ومعها ترقد كفه الكبيرة على بطنها يداعب طفله القادم بعبث كلماته ويقص عليه حكايات لا تعد ولا تحصى من طفولته المشردة، حكايات تبعث الضحكة لشفتي بسمة وتنهاه عن المزيد:

- كفاية يا صلاح.. حرام عليك.. هموت من الضحك..

وتبتلع شفتاه حروفها وهو ينهاها بخوف:

- بلاش سيرة الموت يا بسمة.. كام مرة أقولك!..

فتداعب خصلاته بحب هامسة:

- ربنا ما يحرمني منك.. يا نور عين بسمة..

ويغرق صلاح ببحر عاطفته لزوجته.. يدفن خوفًا عميقًا يتربص به بالظلال وكأنه يتحداه بعنف أن يزيحه من الوجود.. ولكنه يغلف نفسه بدرع من الفرح عله يقضي على هاجسه..

والفرح كان من نصيب الجميع.. ومن ضمنهم حبيبة التي أصرت على محاولة التقرب من زوجها تلك الليلة.. فقد مر ما يقرب على الشهرين منذ وعدها بمحاولة لإرضائها ومنحها ما تريد وهو ما فسرته بمحاولة للعلاج..

لذا فقد أعدت نفسها تلك الليلة لاختبار تقدمه بذلك العلاج.. لم ترتدي له غلالة كاشفة.. فقد تيقنت من بغضه لتلك الأنواع، بل ارتدت واحد من تلك الأثواب التي تلتصق بالجسد تمامًا، تبرز حنايا أنوثتها العطشة.. وتلتمع بإثارة تحت الاضواء الخافتة بالغرفة.. كان الثوب يمتلك شقين جانبيين على طولي ساقيها فيظهر بوضوح بشرة ساقها اللامعة بإغراء طبيعي..

أدرات موسيقى هاتفها على موسيقى راقصة لاحدى الأغنيات الشعبية الجديدة وبدأت تحرك جسدها بحركات راقصة تتجه نحو نبيل الذي خرج لتوه من الحمام ليفاجئ بمظهرزوجته الجديد عليه وهي تقترب منه.. تزيل وشاح ذو حلقات معدنية من فوق رأسها لتلف به خصرها، يكاد جسدها أن يلمس جسده..

هي تتمايل راقصة وهو يتصبب عرقًا من كل خلية بجسده، وأنفاسه تتسارع بعنف حتى كاد أن يختنق إثارة.. وقبل أن يفقد سيطرته وهو يراها تلتصق به وتريح كفيها على صدره، وجد ذراعيه تدفعانها بقوة حتى أنها سقطت أرضًا وهو يهتف بجنون:

- إيه اللي بتعمليه ده!!.. إيه القرف ده.. إيه القرف ده!..

واختفى بسرعة البرق من أمام عينيها المذهولتين ليحبس نفسه بحمام الغرفة حتى صباح اليوم التالي...

ولم يكن نبيل وحده من ينتظر بزوغ الشمس.. فعلي الذي جاء للزفاف برفقة ريم.. كواجب زوجي رآه بالبداية ثقيلًا ولكن لم يلبث قلبه أن قفز فرحًا عندما علم أنهما سيقضيان الليلة بنفس الفندق الذي أقيم به الزفاف.. لقد اشتاق لوجودها حوله وحسب.. لم يبتعد عنها إلا أيامًا معدودة.. ولكن قلبه الأحمق يفتقدها بغباء لا يعرفه إلا قلب عاشق..

سمح لها أن تبدل ملابسها أولًا بحمام الغرفة.. حتى يتمكن من الاتصال برؤى التي ستبيت ليلتها وحيدة تمامًا بشقة والدته..

أنهى اتصاله بالزوجة المتروكة وحيدة.. ثم أغلق الهاتف ليفاجأ بنظرة ريم المعاتبة.. فغمغم بتفسير:

-ماما أصلها مسافرة ورؤى لوحدها..

قاطعته ببرود تحاول أن تخفي الغصة التي تمزق قلبها بعدما وجدته يهمس بصوت خافت وهو يحادث رؤى:

- أنا ما سألتش.. وطبيعي تكلمها مش محتاج مبرر ولا سبب..

تنهد بغيظ وهتف بها يحاول إنهاء مشاجرة لم يرغب بها:

- نامي يا ريم.. تصبحي على خير...

ورمت ريم برأسها على الوسادة بصمت.. تحاول استدعاء نوم تعلم أنه لن يأتي بسهولة.. وعندما أتى.. أتى يحمل كوابيسه التي بدأت تزورها من جديد بعد زواج علي..

وتلك المرة لم يحتج منتهكها.. استخدام نصل سكين.. فكانت نظرة عينيه المهددة بقذارة تكفي.. لمساته المسروقة تخبرها بحتمية اقتراب قذر.. واستسلام مهين..

وصرخة عالية تدوي بالغرفة.. صرخة فزع تصاحبها تحركات عشوائية لذراعيها.. دفعت علي للقفز من فراشه ليهبط بجوار فراشها.. يوقظها بقلق وخوف:

- ريم.. فوقي يا ريم.. ده كابوس...

وهي تهتف بعنف:

- ابعد عني.. ابعد ما تقربش..

علي يناظرها بذهول.. ماذا فعل لتدفعه عنها بذلك العنف؟!..

وهي لم تكن بكامل يقظتها ولكن عنفها وقوتها بدفعه بعيدًا لم يساعداه على التمييز بين يقظة فعلية.. وتخبط بين غيابات كابوس تعيشه بكل لحظة...

وعاد صوتها يعلو:

- ابعد بقولك.. ارحمني حرام عليك..

وابتعد علي مذهولًا مجروحًا.. يتأمل قرب بزوغ النهار وهو يردد بدفاع:

- أنا بعيد أهوه.. هابعد أكتر من كده إيه..!

وترمقه ريم وعيناها مضللة بهلاوس قديمة فتبدو بنظراتها ملامح الرعب والهلع فيصرخ علي بها:

- إيه يا ريم.. هو أنا عمري غصبتك ولا عاملتك بعنف.. ما تخافيش.. ما تخافيش..

أخذت تبادله نظرات خاوية لم يعرف ما خلفها من أفكار.. ثم التفتت عنه بقوة لتسقط رأسها على الوسادة وتغيب بنوم عميق.. وكأنها استنفذت طاقتها بمواجهة خيالية مع أشباحها هي فقط...

ولم تكن ريم الوحيدة التي تحارب أشباحها تلك الليلة.. فسمية التي علمت أنها ستشارك زوجها غرفة واحدة تلك الليلة كانت كل خلية بها تضج بحالة من القلق الممزوج بتوتر لا معنى له..

وماذا إن شاركها غرفتها!..

لتتصوره ريم التي شاركتها غرفتها بالليالي الماضية.. فهو لا يراها من الأساس ولا يشعر بوجودها من حوله.. كانت تلك الافكار تطمئن بها نفسها وهي تجلس بمواجهة مرآة الزينة تمشط شعرها ربما للمرة العاشرة وكل تركيزها بذلك المدعو زوجها والذي اختفى بالشرفة منذ أكثر من نصف ساعة بعدما خرج من الحمام الملحق بالغرفة ليفاجأ بنظرتها المرتعبة المصحوبة بشهقة دهشة عالية وهي تخفي وجهها وتشيح به بعيدًا فقط لأنه كان عاري الجذع..!



تورد وجهها بخجل واضح مع ارتباكها أمامه جعله يتفوه بأغبى جملة قد يخبرها زوج لزوجته:

-آسف.. أنا كنت مفكر أني هنام مع علي وريم هتبات معاكِ!

رمقته بنظرة ذاهلة وهي تكاد لا تستوعب معنى كلماته أو مغزى اعتذاره، وظل هو متجمدًا أمامها لدقيقة.. ثم توجه للشرفة واختفى خلفها..

وهي الآن لا تعلم.. هل سيعود لينام بالغرفة.. أم ستأتي ريم.. أم ماذا!!

استغرقت بشرودها وهي تمشط خصلاتها الطويلة والتي كادت أن تلامس الأرض.. وسمية جالسة على مقعد الزينة ساهية عن ذاك الذي دلف أخيرًا للغرفة بعدما قرر أنه منحها وقتًا مناسبًا لتغوص بالنوم ليفاجأ بشلال من خيوط بلون حبوب البن الخام.. وقد انتشر على ظهر وكتف زوجته.. وهي تمرر بها المشط بشرود تام..

لم يدرِ بنفسه إلا وقد تحرك خطوتين نحوها وأنامله تتحرك بالهواء برد فعل غريزي رغبة منها بالمرور بين الطيات المتعددة والمنتشرة أمام عينيه بفتنة لا يمكنه إنكارها..

لحظات وكان قد عاد لإدراكه.. فقبض كفه بالهواء وأوقف قدميه عن التقدم سنتيمترًا زائد..



وأجلى صوته بقوة حتى ينبهها لوجوده.. فقفزت بعنف من فوق مقعدها تكاد تطلق صرخة ملتاعة وهي تراه أمامها ثانية لا يسترجسده إلا بنطال منامته..

ظلا يتبادلان النظرات لثوانٍ.. تحركت هي بعدها لتندس بفراشها هامسة بتوتر:

-تصبح على خير.. ريم مش هتيجي، صح؟..

لم يستوعب كلمة واحدة وعيناه تراقبان رغمًا عنه شلالها الطويل يختفي خلف الأغطية..

وأخيرًا تحرك هو الآخر وبأعماقه يسب نفسه بأقذر الألفاظ لتلك المشاعر اللحظية التي انتفضت بداخله..

هي أمانة بعنقه..

عليه أن يتذكر ذلك بدلًا من أن يعيش بأحلام يقظة عن خصلات بنية هاربة تتسلل من بين أنامله.. لتغرق وجهه.. وتغطي صدره..

"كفى"

همسها لنفسه بعنف قبل أن يخبرها ببرود حاول التظاهر به:

-مين قال ريم هتيجي!.. نامي..

أومأت بصمت وقد عادت لعينيها تلك النظرة المذعورة.. وأحاطت وجهها بكفيها بدون وعي.. مما دفعه ليخبرها بخفوت هادئ:

-نامي يا سمية.. تصبحي على خير..

أجابته بهزة خفيفة من رأسها وأغمضت عينيها على الفور.. وتركته هو فريسة لأحلامه وجنية صغيرة غارقة بين خصلات القهوة المنكهة تتقافز من حلم لآخر حتى كاد أن يجن.. وهو يحاول الاستيقاظ من أحلامه..

أم ربما أحلام يقظته!

***

والشك هو بداية النهاية لأي علاقة.. حب كانت أم صداقة.. مودة ورحمة أو مشاعر عنيفة منفلتة..

لا يهم المسمى..

يكفي وجود رابط يجمع اثنين وميثاق غليظ يحمي علاقتهما.. يحميها من هفوات أخطائهما.. من تربص من حولهما بهما.. ولكن لا يحميها من شك ولد بالأعماق منذ البداية ولم يطفئ لهيب جذوته قرب..

بل العكس ما حدث!..



فالقرب ألقى بقطرات من الوقود على بذرة الشك النامية.. وتحولت القطرات لسيول حارقة تحرق الأخضرواليابس عندما افتقد العريس الجديد لبضعة قطرات دامية تثبت طهارة زوجته..

الزوجين الجديدين بدآ ليلتهما بفيض هائل من السعادة.. غرقا بأحضان العشق.. لارا كامرأة دافئة ناعمة.. لا تعرف كيف تبخل على حبيبها بعشقها.. تمنحه بلا سؤال.. تنتظرعطاءه بلهفة عاشقة مشتاقة.. تتلقى قبلاته لتعيدها له معطرة بدفئها وحنانها.. تتقبل شغفه بها وترده إليه عشقًا خالصًا..

غابت مع زوجها لسحب السعادة الوردية.. حتى أنها لم تنتبه لابتعاده الجاف عنها.. لم تلحظ.. -وقد أنهكها عشقه لها- أنه لم يجاورها بفراشهما الزوجي بجناح العرائس بالفندق.. سقطت بلجة عميقة من النعاس لم تستيقظ منها إلا على هتافه الغليظ مناديًا باسمها..

وظهرتعجبها بنظرات متسائلة عن حبيبها الشغوف الذي اختفى ليحل محله نسخة عابسة ومنعقدة الجبين.. فأجابها عادل باقتضاب:

-والدتك بره.. مصرة تسافروما ترجعش معانا الفيلا..



وقفزت لارا بسرعة تلف جسدها بمئزر حريري ناعم.. وتلقي بنفسها بين ذراعي والدتها التي أخبرتها ثانية بنيتها للعودة لبلادها.. فهي أنهت مهمتها.. واطمئنت على زواجها.. وهدأ قلبها برؤيتها لمعاملة عادل الراقية للارا..

وكان عادل وقتها يستدعي أقصى طاقات هدوئه.. فلو انفعل الآن لاصطحبتها والدتها معها.. وحينها سيفقد كل فرصة لمعرفة من سبقه إليها..

ساعات مرت.. سافرت بها درة لبيروت.. وسافر الحاج سلامة وأسرته بعدما أصر عادل على دعوتهم جميعًا لتناول الغذاء بالفيلا.. وأخيرًا استقرت لارا بجناحها الخاص الذي أعده عادل خصيصًا لهما..

اختفت بالحمام قليلًا.. لتخرج لزوجها وقد ارتدت غلالة سوداء قصيرة أبرزت عاجية بشرتها الناعمة مقارنة بلون الغلالة.. وأضافت رشة من عطرها المفضل.. وبقدميها وضعت حذاء عالي الكعبين تعوض به فارق الطول مع حبيبها.. الذي كان بانتظارها موليها ظهره ومرتكزًا على حافة النافذة.. فقررت التسلل ومفاجأته..

وتحركت نحوه بخطوات متمايلة وزينت شفتيها بابتسامتها العاشقة عوضًا عن أي طلاء شفاه.. وقبل أن تصل بخطوتين التفت فجأة لتقابلها نظراته المستعرة غضبًا..

هزت رأسها تعتذر بدلال:



-آسفة اتأخرت عليك..

ولم تكمل جملتها لنهايتها فصفعته الهادرة كانت تقابل وجنتها بعنف وهو يصيح بجنون أفلت عقاله:

-مين هو؟

لمست وجنتها بعدم تصديق وقد تناثرت دموعها من بين جفنيها بدون أن تبكي حقًا والصفعة الثانية تزلزل ثباتها وهو يهتف باحتقار:

-واحد بس ولا أكتر من واحد؟..

تراجعت خطوتين للوراء وهي تخفي وجنتيها بكفيها فتعثرت بطرف البساط لتسقط أرضًا وترمقه بنظرات مستنكرة رافضة وجاهلة بمعنى كلماته الغريب وهو يمد كفه ليقبض على خصلاتها بقسوة يجرها بعنف نحوه وهو يهتف:

-انطقي يا فاجرة يا سافلة.. كانوا هنا ولا في بيروت..

وهي عقد لسانها لا تدري بماذا يتهمها بالضبط ولمَ وهو مستمر ولا شيء يوقفه:

-نديم واحد منهم صح؟.. ولا هو الوحيد؟.. انطقي.. ردي عليَّ!



ويدفعها بعيدًا عنه وكأنه لا يتحمل قذارتها فتسقط رأسها أرضًا ترتطم بظهر مقعد الزينة.. فتساعدها للهرب من عنفه بالسقوط بهوة الغياب عن الوعي.. وبأعماقها تتساءل بغير فهم!..

"هل كانت الليلة السابقة أهم ليلة بحياتها بالفعل!.. أم هي بداية لهوة مجهولة أسقطت نفسها بها.. وبكل سذاجة وتعمد.. وحب"

الفصل الثامن عشر

الثقة هي المفتاح الأول لكل معاملة.. الثقة سلعة باهظة الثمن..

لا تُمنح دونه ولا تكتسب به بخسًا..

الثقة هي أساس تقام فوقه كل العلاقات، سواء علاقة المرء بذاته أو بالآخرين من حوله، أقارب أو أصدقاء أو حتى أزواج..

الثقة كلمة قليلة الأحرف، واسعة المضمون وبعيدة المدى عندما نهبها.. لا نتوقع إلا أن من نالها منا يستحقها، وعند فقدان تلك المكانة؛ يحدث السقوط..

البعض يمنحون ثقتهم كاملة دون تشوهات، يجبرون الآخرين على احترامها وتوقيرها والتصرف حيالها بمبادئ وأخلاق كما ينبغي..

والبعض الآخر تكون ثقتهم مهزوزة.. مشوشة، مغبرة.. ومع أول نقرة فوق زجاجها الهش تتحطم لفتات ونفقد السيطرة..

وهو من هؤلاء..

لم يكن يثق بها، الجميلة بل الفاتنة، التي تتباسط مع هذا وتمرح مع ذاك، ليأتي في النهاية ويصطدم هو بواقع كونه يلملم بقايا ما تناثر من غيره

ليصبح بعدها مجبرًا على التعامل مع شيء لا يناسب كبرياءه أو كرامته أو عنجهية ذاته ورجولته وهي تستحق.

هل ما يشعر به ندمًا!

لا هو غضب.. غضب تمازج به ضيق من عقله الذي خانه هذه المرة، هو تسرع وانتهى الأمر..

لمجرد عودة ماضٍ يخشاه ويخشى مظهر المنتظر الضعيف في مواجهته، حشر نفسه بواقع حاضر رخيص لا يستأهل مثله.

زفر ببطء يستجمع جُل أفكاره، ألقى نظرة باردة نحو تلك الملقاة جوار طاولة الزينة كما هي منذ ساعات عقب فقدانها لوعيها، لم يكلف نفسه عناء حملها للفراش، أو حتى ستر جسدها المغطى فقط بغلالة ظنت أنها ستغويه بها فيتجاهل فضيحتها ويرضى بما تخلف عن غيره.

حسنًا.. هو الآن عليه مواجهة الأمر.. لم يعد هناك من مجال للتراجع، عليه الاستفادة من الوضع الحالي ولأقصى درجة ممكنة..

هي تصلح كواجهة اجتماعية مناسبة لرجل أعمال قوي مثله.. هي أيضًا وسيلة جيدة للتحكم بأملاك العائلة كاملة دون بعثرة أو تشتت، وفي ذات الوقت يحمي أخيه الغِر من السقوط في براثن امرأة مثلها..

التوى فمه بحنق وهو ينهي أفكاره، يقرر ويطوع الموقف لصالحه وفي باله تنفيذًا لا مهرب لها من الإذعان له وإلا فالويل سيكون أقل ما تواجهه معه!

سمع تأوهًا خافتًا يصدر منها فجمدت ملامحه وهو يترقب استيقاظها ببرود، أداروجهه ينظر إليها بينما تنهض جالسة تتحسس رأسها بألم..

تلتقي الأعين بعدها في صمت طال كثيرًا حتى ظن أنها لن تنطق أبدًا.. حيرة مبهمة نبتت على وجهها وهي تطالعه، في النهاية استقامت واقفة، ارتدت مئزرًا حريريًا وجلست تواجهه فوق الفراش..

عيناها تعاتبانه دون فهم كامل لحيثيات الموقف أوردة فعله الغريبة التي لا تدرك أبعادها، غضبها هي الأخرى يتعاظم بداخلها.. ضربها، أهانها.. اتهمها بما تجهل.. وتتمة أمره تركها فاقدة الوعي فوق الأرض وكأنها...

هي فقط لا تعلم!:

- عادل!

زوى ما بين حاجبيه ورده كان نظرة لا تشي بانفعال معين يمكنها التنبوء من خلاله بما يدور في خلده:

- عادل فهمني.. إيه جرى لك؟

ومع تحول النظرة لساخرة بشرٍ.. عادت تهمس بوجل:

- أنت مين!

السخرية تمكنت من عينيه وليَّة شفاهه وهو يطالعها بتكبر:

- يااااه.. هما كتير قوي كده لدرجة إنك نسيتِ جوزك!

والموقف لم يعد يتحمل الصبر، الاتهامات التي يصبها فوق رأسها بلا إمهال أو حتى تفكير مسبق مغزاها أوضح ما يكون..

اضطرمت نيرانها فاشتعل صوتها بصراخ:

- مين هما دول؟.. أنت بتخرف تقول إيه؟!

وكأنها لا تعني شيئًا!!.. وكأن جهلها بما يقوله لا يهمه..

فقط أمسك بوجهها بقبضة قاسية:

- وطي صوتك وأنتِ بتتكلمي معايا.. وراعي كل كلمة بتنطقيها.

ودنا بوجهه يكمل أمام وجهها:

- فكري فيها مليون مرة.

انتزعت نفسها منه بألم جليّ وتركها ببساطة كأنما ألقى أوامره وهو يدرك خضوعها دون تردد أو نقاش..

تأملته بحزن ذاهل:

- هو ده الأمان اللي وعدتني بيه!

وتكلم بعملية كأنما يبرم صفقة ما.. صفقة رابحة على ما يبدو:

- الأمان أخدتيه خلاص..

وتتمة الجملة نظرة محتقرة:

- كفاية إني سترت عارك.

"عارها!"

رنين الكلمة ووقعها على أذنيها كأنما ألقى بقنبلة فوق رأسها لتتضح الصورة بكل قسوة ممكنة، انزاحت غشاوة الحب وغيمته الناعمة، وتدخل الواقع ليملأ أركان اللقطة ويزيد من دقتها..

اللعنة عليه وعلى الأحمق بين جنبيها الذي ظنه الحبيب!

- والحب!

نطقها قلبها قبل لسانها عنوة.. وتمازج بنبرتها ألم وتيه، زاد منهما بقساوته:

- الحب ده وهم أنتِ خلقتيه وصدقتيه.

وانحنى يقترب.. يذبح بدم بارد ولا يأبه لنزف قلبها الذي امتلكه:

- أنا عمري ما حبيتك.. ولا صرحت لك بكلمة "حب".

- وأنا إيه يجبرني على حياة زي دي؟!

الكرامة تزأر، الروح تصرخ.. والقلب يتوارى في صمت:

- مش مجبرة خالص.

وظلل لهجته لامبالاة:

- بس افتكري يعني إيه واحدة تطلق تاني يوم جوازها!

أصابها ذهول.. وكأنه لم يكفِ فاستمر في منحها المزيد منه:

- كفاية تفهمي إن عارك بقى في إيدي.. أفضحك أو أسترك: دي حاجة برغبتي.

هي لا تصدق، ما ينطق به!.. بدا لها رجلًا آخرًا غير ذاك الذي سقطت في حبه..

والتعبير "سقطت" ملائم وحرفي للغاية.. لأنه عقب سقوطها.. انكسرت!

- أنا ما يهمنيش الخزعبلات دي.

تلبست النبرة دموع لم تعلن عنها المقل، قاومت وبقوة.. احتمت بجدار صلابتها الذي يظهر حين الحاجة.. لكن فقط قسوة الموقف، الواقع.. ألم السقوط: فوق الاحتمال:

- وأمك.. أهلك.. عيلتك.. أكيد يهمك ما تمرغيش اسم أبوكِ في الوحل.

وتوحشت نظرته جوار برود ملامحه واستخفاف صوته:

- في الآخر هيتقال بنت كامل الغندور مجرد عاهـ...

ونال منها ما يستحق في هاته اللحظة، صفعة أودعتها غضبها، قهرها.. انكسار نفسها وروحها.. وبادلها إياها في المقابل بعنف زائد ألقى بها فوق الفراش بموازاة صرخة ألم.. صرخة لم تميز أهي لوجع كيانها المشروخ أم لأنين جسد يهان بوحشية لأول مرة!

نهضت تبعد خصلاتها عن وجهها.. تنظر إليه باحتقار وعلامات أصابعه تشوه عاجية وجنتها، رفعت يدها تكررها.. بل ودت حتى لو أطبقت بكفيها على عنقه فتنهي أنفاسه وتريحه من سواد قلبه لكنه لم يمهلها، تلقف كفها بأصابع خشنة ولوى ذراعها بغلظة قبل أن يدمدم في أذنها من بين أسنانه:

- لمصلحتك ما تكرريهاش!

ولم تكررها، ولن تفعل.. هي فقط ستسقطه من حساباتها، لا تدري أي لعبة يلعبها لكنها قدر المواجهة وباستطاعتها التحمل!..

لن تبرر، لن تبحث أو تهتم.. لن تثبت أمامه عفتها وهو عهر عقله بيّن، وحقد قلبه أوضح.. طهرها لا تبرهن عليه قطرات دماء وبرائتها لا يستحقها ذاك.. الرجل!

نهضت ترتدي قناع البرود بالمقابل، تتحدث وترسي معه قواعد اللعبة وخطة الحياة التي يجبرها عليها:

- أوك يا عادل.. هاحافظ زي ما بتقول على اسم والدي..

واستدارت ترمقه بكبرياء أصيل:

- هالعب معاك لعبتك.

وانعقد حاجباه كأنما لا يعجبه أن تفهم ما يدور في عقله:

- بس بشرط.. انسى إنك هتقرب مني تاني أو تطول مني...

- مش بمزاجك.. دي حاجة ترجع لي.

مقاطعة تشبه جمود قلبه، لكنه واهم لو ظنها ستخضع له!..

أما هو فحدجها بصمت عقب كلماته لثوان طالت، تلاقت فيها الأعين بعناد وصلابة متبادلة انقلبت منه بعدها لاستهجان متعمد بإهانة:

- بس عمومًا.. أنا ما بابصش لبواقي غيري أو...

قاطعته بإشارة ونظرة حازمة:

- من غير إهانات.. كده نبقى متفقين.

نهض يواجهها بتجبر.. بلهاء هي لا تعلم مع من تتعامل:

- متفقين!!.. لا يا لارا، لسه قوانيني اللي لازم تعرفيها عشان تمشي عليها مظبوط.

لم تظهر ارتباكًا أو حتى تلمح بعينيها عن تساؤل، هو نال منها اهتمامًا بما يكفي، والآن وقت وضعه في مرتبة صحيحة:

- ما فيش موبايل، أي مكالمة هتبقى قدامي، ما فيش خروج من البيت.. إلا معايا.

وفكر لحظة زائدة ابتسم بعدها:

- في الحقيقة.. مافيش خروج من الجناح هنا.

أعلنت داخلها أن كل ما قاله لن يؤثر.. لن تبدي ضعفًا، لن تذرف دمعة، ولن تتراجع أمام تكبره فكبرياؤها أهم!

- خلاص!.. خلصت كل قراراتك؟.. اتفضل اطلع برا بقى لأني محتاجة أرتاح.

وكأنها تلقيها بوجهه.. أن وجوده لا يريحها، وفي الواقع هو لا يأبه، بل ويزيد في ذلها وقهرها:

- لا.. أنتِ اللي هتطلعي برا يا لارا.. دي أوضة نومي.. عندك برا كنبة الليفينج..

وأحنى رأسه بتحقير:

- مقامك.

ضمت قبضتيها كأنما تمنع نفسها عن لكمه وبكل ما تملك من قوة وعنف..

التفتت تغادره بشموخ لا تملك سواه في هذه اللحظة.. لأن كل ما بداخلها كان ينهاروببطء شديد حد فقدان الوعي.. حد صراخ حبسته ببأس، حد مرارة هزيمة تملأ حلقها وقلبها وعقلها ووهم عاشته، بل حلم.. لكنه لم يكن أكثرمن محض سراب!

البعض تمنحهم كيانك.. فؤادك، حبك والأكثرأهمية.. ثقتك، ليردونها في وجهك خسة وحقارة ودناءة.. وعلقمًا مرًا لن ينمحي مذاقه من روحك أبدًا.

***

ما معنى الثقة بين زوجين!!

هي تمنح، هو يتقبل وبتفضل يليق بمكانته كذكر.. هي تغمي عينيها ولا ترى النواقص وإن رأتها لا تذكرها وإن ذكرتها فبالتورية وبكل هدوء متاح، لو تقبلها فهو الحاتمي الكريم.. وإن رفضها فكفي يا امرأة ألا ترين أنكِ تجاوزتِ الحد!!

الثقة من امرأة هي مفتاحها بشمول كلها.. والمفتاح في يد رجلها بمطلق حرية، يستخدمه بمراعاة، أويضيعه وهنا صانع المفاتيح لن يجد له البديل..

الثقة من أنثى هي البداية.. ولامبالاة الذكر بها.. تكتب قصة النهاية!

والحبيبة المغلوبة على أمر قلبها بموجب عشق يتمكن منه.. منحت، وهبت، أعطت.. أفرغت ذاتها من كل ما تملك، وهو لا يرد العطاء إلا بأخذ ومزيد منه، يسحب من الرصيد حتى أوشكت هي على النفاذ.. فطاقتها لا تستحدث من العدم ومن السهل أن تفنى لو أهملت حسن استخدامها.

تلك الليلة قبل أيام في زفاف ابنة خالتها لا تنمحي من خيالها، تتذكر عودتهما هي في عالمها، غارقة في لجة من أفكار حائرة شبه سوداء تضفي قتامتها على واقعها الحالك فتزيد من دجنته، تتذكر من موقعها فوق الأرض بعد دفعته الجافة هروبه، اختبائه، الباب المغلق في وجهها حتى الصباح والكلمات المعدودة التي وجهها إليها في طريق العودة بصحبة أخيها وزوجته..

والأدهى والأمر فراره عقب وصولهما للمنزل والحجة عمل تلاه تأخير وهكذا في كل يوم..

يتهرب من اللقاء لكنها قررت خلق مواجهة، مواجهة ستكون الأخيرة وبعدها لا تعلم ما المصير!

كانت تنتظره، القرار بداخلها متخذ والخيارات المتاحة لا تخرج عن اثنين، لكنه باغتها بعودة مبكرة، فرحة غامضة لا تعرف سرها ترسم ملامحه وابتسامته الواسعة بل وحتى نبرته وهو يلقي عليها تحية المساء..

لم تترك لنفسها عنان الغياب فيه مجددًا بل بادرته والعاقبة عندها في قوة تدعيها وتتمنى امتلاكها:

- نبيل.. أنا حجزت عند دكتور وميعادنا بعد ساعتين.. هنروح سوا المرة دي ومش هتتهرب مني تاني.

بدا كأنه لم يستمع لحرف مما نطقت به، البهجة التي تملأ نفسه أعمته عن نظرتها وحدة صوتها بل حتى غضبها الظاهر على وجهها بوضوح وهو يجذب كفها بين يديه، يدور بها بعشوائية في المكان ونبرته توحي بانشراح مقبض لقلبها:

- دكتور إيه بس وحجز إيه يا حبيبتي!

وتوقف ينظر في عينيها بسعادة:

- أنا عندي ليكِ مفاجأة هتنسيكِ كل حاجة..

وتحركت يداه لتتملك من مرفقيها:

- أنا حجزت لنا مطعم.... مخصوص، عشاننا إحنا بس، هنحتفل مع بعض بأجمل مناسبة.

- في إيه يا نبيل؟.. فهمني!

قاطعت حالميته الغريبة بسؤال جاد أجابه برقة:

- غمضي عينيكِ.

رفضت الانصياع بنظرة متسائلة صلبة وشك ما يملأها وهو لايزال يصر:

- غمضي بس.. صدقيني مفاجأة هتسعدك.

تنهدت بعد لحظة صمت، أي سعادة تلك التي يتحدث عنها وكل ما يهمها هو يرفض تحقيقه لها!

- فتحي بقى.

وسمعت صوت ورقة تُفَض أمام ناظريها، لم تدرك مغزى محتواها فعقدت حاجبيها:

- إيه ده!!

- هتبقي ماما يا بيبا.

- ماما؟!

والاستنكار أو الدهشة الممزوجة بذهول ليسوا بكفاية أبدًا، لأنه في اللحظة التالية أكد بيقين وهو يجذبها لتجلس فوق أريكة عريضة، يركع على ركبتيه في مواجهتها:

- ده نتيجة اختبار حمل صفية.. ده ابني.

وقبل كفها وعينيه تلمعان:

- هتبقي ماما.

وكأنها مكافأة نالتها عن جهل!

- صفية مين!

سؤال تائه داربخلدها المغيب.. والرد لم يفِ بالغرض:

- مش مهم مين صفية.. دي مجرد وعاء حمل.

وتحكم الغباء من عقلها أكثرواستمرت ببلاهة تردد من خلفه دون تمييز:

- حمل من مين!

- إيه يا بيبا!!.. ركزي، باقولك ابني.

وقبل يديها مجددًا:

- ابننا

- ابننا!!

مد أنامله يلامس وجنتها بنعومة:

- أيوة.

- ابننا إزاي؟



وتلعثم!.. هو ابنه.. وكذلك من منظوره هو ابنها، ومن خضم حيرته نبت الجواب ببادرة هجوم:

- يعني إيه إزاي؟.. زي كل الناس يا حبيبة.

ونهضت تدور حول نفسها بجنون.. هو يهذي وهي تهذي من ورائه والحرب بداخلها تأججت ولن يطفئها شيء..

ما يحدث عبث اختلط بلوثة ما أصابت عقله وستصيبها بالتبعية، حاولت ذر بعض المنطق على الموقف ففندت الفكرة:

- قصدك هنتبنى طفل؟!

وقبع هو بمكانه دون حراك يتابع حيرتها:

- لا يا بيبا.. أنا أبوه، ده ابني وهيبقى ابننا.

- ابنك إزاي يا نبيل وابننا منين!

ولابد من صراخ تخرج به مكنون صدرها وإلا ستفقد رشدها كما حدث له هو، لذلك تمسكت بقاعدة العقل الوحيدة التي تعرفها وأردفت بأمر لا تقبل النقاش فيه:

- نبيل.. أنت لازم تروح لدكتور.



فمن أمامها وصل مبلغ هلوساته الحد الأقصى ولابد من علاج، ستجد له طبيبًا نفسيًا جيدًا وبعدها تدور حائرة بالحبيب بين الأطباء!

ومع ما صرحت به انتقل الغضب إليه، نهض يواجهها بعصبية:

- دكتور ليه يا حبيبة!!.. ما أنا كويس أهو وطبيعي وآدي الدليل.. عاوزة إيه تاني؟

- دليل!

بفم مفغور بانشداه وعلامة تعجب لا معنى لها أو موقعًا يناسبها وسط كل ما يدور الآن، رمى الورقة بطول ذراعه وكأنه يوبخها على عدم انتباهها:

- أيوة دليل.. ابني.

وأشار للورقة والهواء يحملها نحو الأرض ببطء:

- ابني من صفية.

- صفية مييييين؟!

صراخ.. كل ما تملكه هو الصراخ، فمنذ دلف للمكان وهو بالفعل يفقدها تعقلها واتزانها..

وبادلها إياه بحدة ساخطة:

- ويهمك في إيه صفية مين؟!

لكن الإصرار بعينيها كان الرد الأمثل ليخضع بعده بصراحة قاتلة:

- صفية مراتي يا حبيبة.. وده ابني.. صفية حامل.

- مراتك!!

وفي موقف كهذا لا تملك سوى.. الضحك!

تحولت لمخبولة تمامًا وهي تناظره بدهشة وصوتها يعلو بقهقهات متتابعة فقدت السيطرة عليها حتى نهرها بغضب:

- في إيه يا حبيبة؟.. إيه بيضحك في اللي قلته؟

وتقسم أنها حاولت التماسك، انحنت تمسك ببطنها لحظة قبل أن تستند لركبتيها وتلهث..

تفكر وتعود لتستقيم، ترمقه بسكون ونبرتها لا تدل على شيء:

- طيب استنى بس أجمع الكلام على بعضه.

وتراجعت خطوة تحت نظراته التي تراقبها بتوجس:

- يعني أنت يا نبيل!

وأشارت إليه وهي ترسم حوله مستطيلًا وهميًا بسبابتها:

- جوزي!

وجمعت يديها كأنها مصافحة تتبع عقدًا لم تعلم به:

- اتجوزت صفية!

ورسمت نصف دائرة فوق بطنها توحي بحمل:

- وصفية حامل!

ولفت دورة كاملة حول نفسها بتيه:

- يعني.. يعني هيكون عندك ابن وهتبقى أب!!

- ابننا يا حبيبة.

عاجلها يحشرها عنوة داخل صورة لم يضمها إطارها منذ البداية، لكنها ضحكت مجددًا:

- ابننا!!

وتصدعت القشرة ببطء يقتل، يذبح، يخنق.. يميت بتمهل ينشر الوجع في أركان كيانها الواهن.. تسلل للنبرة دمع احتبس خلف الجفون:

- وأنا!!.. أنا اتحملت أكتر من تلات سنين عشان أنت تكون أب!

وتاهت أكثر بينما هو يقترب بمحاولة تجويد صورة مخدوشة المعنى والمضمون.. والهتاف حد الوجع:

- أب لطفل.. من واحدة غيري؟

وتعالت الصرخة تصم أذنيه وقلبه وروحه لو كان يملك واحدة:

- وأنااااا؟!

تجمد لثانية عاد يدنو بعدها، يواجهها ويمسك بوجنتيها لتقابل عينيه:

- أنتِ هتبقي أمه يا حبيبة.. قلت لك دي مجرد وعاء.

وهز رأسه يبرر ويشرح ويبحث عن دوافع لا تعنيها في شيء:

- رحم عشان يشيل الطفل بس.

- وأنا!.. أنا ما أكونش الوعاء ده ليه!

وانتبهت لما تفوهت به، فعادت تدور في المكان بجنون لحظي وحركاتها تنتابها عصبية أفلت منها لجام السيطرة:

- إيه اللي أنا باقوله ده؟

وتوقفت تمسد جانبي وجهها، تغلق عينيها وتعيد فتحهما علَّه حلم.. بل كابوس وستليه إفاقة:

- إيه الجنون اللي أنا عايشاه ده!

- الجنون ده أنتِ السبب فيه.

بتركل صراع أفكارها وحرب مشاعرها بجملته، وبدا وكأنه سيقلب الأدوار وهو يقترب خطوة حادة:

- أنا كنت مكتفي بيكِ ومش عاوز غيرك.

وقبض على يدها لدرجة آلمتها دون أن تشعر أو تتوجع.. فألم الخافق طغى على ألم الجوارح:

- وبعدين ليه بتسميه جنون!

ويعود ليبرر ويفند ويبحث ويعلن الغضب ويعلو بالصوت ليلجم صوتها هي:

- جنون إني أحقق لك حلمك؟.. هتكوني أم زي ما أنتِ عاوزة.

وتركها بغتة ليبتعد ويأخذ دوره ليتيه في المكان بضياع:

- جنون إني أثبت لك رجولتي اللي اتهمتيني فيها؟!

وتوقف يلتفت إليها وبعينيه ما لم تصدقه..

بعينيه عتاب!

- مطلوب مني إيه تاني يا حبيبة؟.. فهميني!

ومع آخر كلمة تحولت نبرته لصارخة حادة حائرة متعبة، وهي أصابها خبال حقيقي وعليه وحده مجابهة العواقب:

- أنت سامع أنت بتقول إيه!.. الكلام اللي بتقوله ده بجد؟

- أيوة بجد يا حبيبة.. بجد.

وأشاح بذراعيه حتى تراجعت خطوة في صدمة:

- حققت لك أملك وأثبت لك إن جوزك راجل.. جوزك وحبيبك راجل ويقدر يخلف كمان.

وإلى هنا كان المنتهى.. الحد الفاصل والنهائي والأخير والحتمي بصرخة دامية ينزف لها القلب:

- يخلف من مييين؟!

- من أي واحدة غيرك.. المهم مش أنتِ.. أنتِ مش زيهم.

يجيبها بيأس فتراجعت بذهول فاقدة القدرة على النطق، وعاد هو يدنو ويمسك بيديها:

- حبيبة افهميني.. أنا بحبك، ما أقدرش أستغنى عنك..

وهز رأسه بحيرة:

- مش ذنبي إني بحبك للدرجة دي.. حاولي تفهميني.

وزفر بحرارة ضاق بها صدره:

- مش معقول هو ده أساس حياتنا.. في الأهم.

- أهم من إني أكون أم!



وتاهت في البعيد تنعي ما ضاع من عمرها.. من فؤادها.. من ذاتها وكيانها الذي تشبع بحب أجهضه هو في لحظة:

- حرمتني من أمومتي عشان أنت تعيش حياتك وتكون أب!

- أنتِ اللي أجبرتيني.. أنا بحبك.. كنت مكتفي بوجودي معاكِ.

- كمان هتحملني الذنب!

- أنتِ اتهمتيني في رجولتي.

وبدا بنبرته عجز!!

عن ماذا يخبرها!!.. بأي مبررات يشرح موقفه الذي ذبحها وهي من عشقت.. صبرت.. داوت جروحه بل وكانت إلى جواره مهما كانت العثرات..

وجعها أصبح جليًا في نبرتها وهي تناظره بضعف لم يتسلل لصوتها الذي يبحث عن بقايا قوة يتعلق بها حفظًا لكرامتها:

- وأنت كده بقيت راجل!!

وكانت تسأل.. لا، بل تقرر وتثبت وتنهي:

- أنت ندل.. جبان.

وختمت بصراخ شارفت معه أنفاسها على الانحباس خارج صدرها المطعون بغدر:

- أنت حتى ماقدرتش تواجه!

وابتعدت تشعر ببرد ينخر في جسدها وروحها على السواء، تقرر وتنهي وتسحب عقد الثقة المبرم:

"طلقني"

***

بينما البعض يفقدون الثقة الممنوحة لهم؛ آخرون يسعون بجهد لاكتسابها..

هي تستحق منه ذلك، أن يبذل ما في استطاعته لينال ثقتها، وإن وهبتها هي طواعية منذ وافقت على توقيع الميثاق بينهما..

بعد زعزعة ثقته بذاته وبقلبه الذي يحكم في أمور الهوى باندفاع يناسب عاشق؛ كان عليه لململة ما تبقى ويبنيه من جديد علَّه يصل به لمكان ما يبدأ منه ثانية..

تأملها تحوم من حوله بخفة.. تضع الطعام بأناقة بسيطة فوق المائدة، تفرك يدها.. تسكن للحظة، تعود وتأتي بأطباق، تنسى الملاعق.. ترتبك وتنظر إليه ثم تهرب بعينيها..

ابتسم مع جلوسها بتوتر إلى جواره وقرر أن يبادرهو مادام خجلها يمنعها:

- عاوزة تقولي على حاجة؟!

- ها!

توسعت البسمة ولمعت العين بنظرة شقية:

- باقولك عاوزة تقولي على حاجة!!

أمسكت بطرف مفرش الطاولة تلفه بين أصابعها وتلويه حتى كادت تمزقه، هي مترددة.. هل تسأله أم لا!.. باندفاع قررت أن تنتهي حيرتها:

- في حفل توقيع الرواية الجديدة للعراب بكرة..

وبترت كلماتها فجأة كأنما الطلب يحجمه لسانها، هو فهم وببساطة تساءل:

- عاوزة تروحي؟

رفعت رأسها وبمقلتيها لهفة.. بهجة وأمل:

- لو ممكن!

- ممكن.

ومال فوق المائدة محافظًا على البسمة الحانية:

- بس بشرط..

- موافقة.



وضحك وتعلقت عيناها بضحكته ورفرف لها قلبها بين جنبيها:

- اعرفيه الأول.. يمكن ما يعجبكيش!

ومن نظرتها المستفهمة والمنتظرة أردف:

- مش هتروحي لوحدك.. هآجي معاكِ.

- بجد!

وتضاعفت اللهفة بنبرتها فجأة.. واحمرت الوجنتان عندما أدركت أنها تجاوزت حد الكتمان لتكشف عن مكنون نفسها ولو.. لمحة!

تراجعت.. تهدئ انفعالها، تنتقي كلماتها:

- أكيد دي حاجة تسعدني.

والصوت أصبح أكثر تماسكًا لكن النفس كانت ممتنة والعين متشبثة بملامحه المنفرجة بأريحية ربما تراها معه للمرة الأولى..

- أنت غاوي قراية؟

- لأ.

المقل تسأل والمواجهة لها لا تجيب.. فقط تقرر وهي تذعن وبسعادة حلق لها الخافق الصغير بين الغيمات..



وعلى عكس ما توقع كان يومًا لطيفًا، تعرف بكاتب له وزنه وقلمه المميز الهادف كما يقولون.. والأهم من ذاك كله الفرحة المرسومة على ملامحها وهي تصافحه، يبتسم لها بأبوة ويمنحها توقيعه الخاص على نسختها من روايته..

انتهى الحفل فخرجا يسيران جنبًا إلى جنب.. يتجاذبان أطراف الحديث، يمزح معها وتتقبل وتشاكس حينًا وفي الأغلب تخجل وتدير وجهها:

- إحنا عندنا أكياس سودا في البيت!

التفتت إليه والخطة نجحت مع دهشة نظراتها:

- أيوة.. ليه!

مال بهمس مشاكس:

- وسواطير أو سكاكين كبيرة!

ومع نظرة الشك التي رمقته بها لم يقاوم ضحكة مردودها فوق شفتيها كان بسمة ناعمة رقيقة تشبهها..

مد كفه بعفوية يمسك بيدها وهما يعبران الطريق:

- أنا باتأكد بس.. لأني كده هاخاف على نفسي.

بدت حائرة والمزحة لم تصلها بوضوح فاستطرد:

- يعني روايات رعب.. أكياس وسكاكين!..

وهز كتفيه وأدار وجهه يتأملها:

- الواحد لازم يخاف منك بعد كده.

أخفضت عينيها هربًا من تفحصه الذي لم تعتده، نبرتها كانت دفاعية بينما تجيبه بخجلها المعتاد:

- العراب مش رعب بس.. ومش أي رعب كمان.

- بس ما يبانش عليكِ.

حررت يدها من قبضته بعناد لذيذ:

- ليه هو اللي بيقروا رعب بيبقى شكلهم إزاي!

وكاد لسانه يتفلت بغزل حجمه في آخر لحظة، تمعن في حمرتها الساحرة قليلًا قبل أن يعاود الإمساك بكفها بين أصابعه، يسير ويغير الموضوع ويشرد في محاولة تعويض..

القرار لم يكن اختيارها وحدها، بل اختياره هو من قبلها، لذلك حياته بصحبتها تستحق فرصة كما يجب، يكفي أنها لم تفرح كعروس في محلها!

وصلا للبيت فأصر على تحضير العشاء معها، وبين صدمات غير معدودة، لمسات الأنامل عند ذات الأشياء.. النظرات الخجول والمتفحصة.. بين ما

تسقطه يداها توترًا وارتباكًا ويتلقفه هو بسرعة استجابة.. بين قلقها وحيائها واهتمامه زفرت في النهاية:

- لا بجد.. كده مش هينفع.

نظر إليها من فوق كتفه متظاهرًا بعدم الفهم:

- هو إيه ده!

حركت كفيها بموازاة وجهها بتسليم:

- علي روح اقعد وأنا هاخلص العشا.

عقد حاجبيه ورفض، أصرت وأصر.. عاندت وعاند، والتتمة صمتت واستجابت، وقبل أن تكمل ما كانت تقوم به وصلها تأوهه العالي فجأة فالتفتت بذعر:

- خير.. حصل ايه؟

واتجهت إليه بقلق متلهف، كان يمسك بيده التي لسعتها القدر الحارة وتلك الحمرة اللاهبة تنتشر فيها بسرعة.. نظرت بألم وهي تجذب مرفقه:

- تعالى اقعد.. هاشوف مرهم للحروق.

وأجلسته عنوة على مقعد يجاور طاولة بيضاء دائرية تراص عليها ما حضراه من أطباق سويًا، غابت دقيقة وعادت تجلس على إحدى ركبتيها في

مواجهته، تمسك بكفه المحترق، تدهنه برفق لم يشعر معه بألم كما تصور!

نبهه عقله لزاوية نظر أخرى..

فربما هو افتقد الشعور بما يوجعه لأنه غائب في تفاصيل النبيذية.. خصلاتها التي تحررت تقهر ربطتها بعشوائية فاتنة، مداعبتها لجبينها ووجنتها اليمنى وإزاحتها لها كل لحظة وأخرى، أناملها التي تلامس كفه في دوائر وعينيها اللتان ترتفعان إليه بعد كل لمسة كأنما تتأكد من أنه لا يتوجع!

انتهت وعندما حاولت النهوض وجد نفسه يمسك بها.. وارتفعت بنظراتها تقابل نظراته، غاص في عينيها بشرود ملأ نفسها خجلًا وهي ترى منه نظرة لم ترها من قبل..

ميل رأس.. اقتراب لحد لفحها دفء أنفاسه.. وتراجُع منها!

ارتباك، رعشة.. ورغبة في الفرار كما تفر من وحشٍ ضارٍ..

أعادت الخصلة المتمردة خلف أذنها واستقامت، لم يفلتها.. نهض معها يمسك بمرفقها..

ناداها وامتنعت عن الرد أو النظر، غازلت جانب شفتيه بسمة خافتة وهو يكرر النداء وتعيد هي الهروب..

والختام لم يعد يحتمل صبرًا!

مد يده يرفع ذقنها إليه واحتارت أين تستقر بمقلتيها بعيدًا عن عينيه!..

مال بوجهه، تلاحمت الأنفاس وعناق الجفون بات فعليًا فرض عين..

- رؤى!

بهمسه أجبرها على نظرة أخيرة كأنما يطلب إذنًا، وبرمشة لم تدرك حتى أنها فعلتها كانت تمنحه ما يريد..

ويميل أكثر ليمنحها قبلتها الأولى.. يمتلك عذرية شفتيها كما امتلك براءة قلبها..

يحيطها بطوق ذراعيه ويطفئ الموقد، يرفعها بين يديه قرب صدره، وتتنهد هي بخفوت ناعم، تسلم له مقاليد أمرها.. ويتسلمها هو برحابة صدر.. وفي نفسه فكرة مبهمة بحياة على وشك البدء!

حياة هو يستحقها وعن جدارة، ولندع الأفكار جانبًا حين الغرق..

***

أحيانًا نفقد الثقة في اختياراتنا الماضية..

هل كنا على صواب أم أننا قدمنا جُل ما نملك لأجل أحدهم، ليحوله بعدها ذاك الأحدهم لهباء منثور لا ثمن له!

بعدها تضيع الثقة فيه، في استحقاقه لما ضحينا به ومنحناه له.. وبين فقدان ثقة في صحة قراروضياعها فيمن كان القرارلخاطره.. لا نملك إلا الخوف والرعب.. ومحاولة رأب صدع شَرَخَ أعمدة ما بنيناه طويلًا دون علمنا ليسقطه على رؤوسنا..

وفي هذه اللحظة بالذات لم تصب نفسها بشروخ.. لم تتصدع، هي فقط تهدمت بالكامل كبناء أصابه وابلٌ فجعله ترابًا ودون أن يشعربه أحد..

تهدمت وهي تقف فوق رأس أخيها وابنة أخ زوج الخالة الأكبرمنه سنًا.. تناظرعُريًا، شهوة، غياب، خطيئة!..

تتجمد أمام جريمة حيكت بحرفية حد الاكتمال.. تتصلب ويضرب قلبها إعصارفيه نار.. فاحترق!

دعوة بسيطة لوضع أشد بساطة، سجادة منزلها المغسولة، وصعود للسطح.. أصوات مكتومة لكن واضحة من الغرفة المفترض بها مغلقة ولا يعلم أحد أين مفاتيحها!..

القدمان تسيران بحذردون تراجع، العقل يتوجس.. الروح تخشى مما قد تراه، لكن الموقف لا يبحث عن صمت، وها هي المذنبة الأولى "رانيا" تتنبه لوجودها فتدفع شقيق المراقبة الأصغر"إيهاب" بعيدًا عنها، تلملم ثيابها

المبعثرة بعشوائية بعثت في نفسها تقززًا وفي بدنها رجفة.. تتوسلها بالأعين ويتبجح هو بنظراته بينما لا يكلف نفسه عناء الستر كأنما يخبرها..

"أعلم أنكِ أجبن من نقل الخبر":

- سمية.. أرجوكِ استري عليَّ..

كانت هذه "رانيا".. خطت نحوها تداري عن عينيها ما ظهر من جسدها وما بطن من سريرتها التي افتضحت دون سابق إنذار:

"أنا خلاص هاتجوز"..

"غلطة ومش هاكررها"..

"خلاص.. هابعد خالص"

وتتوالى الدفاعات والقاضي لا يملك حتى حق السماع فالقضية أصابته بالشلل.. تفككت في النهاية عقدة ساقيها فاطلقتهما للريح وهي تهرب.. تبكي.. تئن.. تخاف والفؤاد يصرخ حزنًا وغضبًا ويأسًا و.. حسرةً.

أهذه هي نهاية تضحيتها؟!

ثقة القرار دُمرت في لحظة وهي تسمع صوت الفاسقة من خلفها:

- الحقها يا إيهاب.. هنروح في داهية لو قالت لعمي!

وهو كان يجمع ملابسه ويرتديها بعجالة بالفعل.. فالغاوية لا تصلح أن تكون زوجته، لن يضيع نفسه أكثر ليسقط بين يدي تلك التي امتهن جسدها وألفه حد الاعتياد ودون شرع يظلل ما بينهما!

ويختم الموقف بعقاب زوج الخالة عندما يقطع عنه مصروفاته الدراسية لخطأ لم يكن إلا تمضية وقت ممتع حين نداء الرغبة وينتهي بعدها مستقبله حقيقة لا مجازًا..

هبط يلاحقها وكانت هي في شقتها، تقف ليس ببعيد عن بابها المفتوح في حالة ذهول صرف.. تهز رأسها كأنما تطرد منه اسوداد الصورة، ترفض أن تقنع عقلها بتصديق ما رأت العين.. والواقع يصدمها ويجبرها على النظر والإيمان.. دلف للداخل وأغلق الباب من ورائه، واجهها بصلف.. بتبجح.. بعناد.. باستخفاف ولامبالاة وصرخت بوجع:

"ناقصك إيه؟.. قولي ناقصك إيه؟!"

"كل اللي عملته راح هدر!"

"حياتي ضاعت هدر!"

كانت تهذي بلا ترابط وعيناها زائغتان تبحثان عن أمان، عن راحة.. عن بقايا ثقة في اختيار، وهو حطم كامل ما حاولت جمعه بكلمة باردة جوفاء متحدية:

- مزاجي.

- مزاجك!

ويتعالى صوتها بيأس عاجز ويكمل هو عملية الذبح المتقنة:

- أنتِ مش خطفتِ خطيب أختك عشان دخل مزاجك؟!

وتعاظم ذهولها وهي تنظر إليه من خلف غشاوة دمع تحارب لقهر جفنيها كما قهرت قلبها:

- هي دي نظرتك ليَّ؟

وتحشرجت النبرة وتعثرت الأحرف بتبرير لا يمتلك هو الحق فيه:

- أنا ما خطفتوش.

ثم تجاهلت ما كادت تقوله بهزة رأس وهي تعود إليه بناظريها:

- أنت بتضيع مستقبلك عشان مزاجك!

صيحة من عمق القلب المتوجع.. قابلها البرود:

- وأضيعه ليه!!.. كلية محترمة ودخلت.. نجاح وبانجح!

- دخلتها بفلوس جوز خالتك.

- دين وهارده على داير مليم لما أتخرج وأشتغل.

- ترده!!

والمرارة أنها حتى لا تستطيع السخرية من قصور نظره:

- لا وأنت الصادق.. أنا اللي بأرده.

وضربت صدرها بقبضتها المضمومة بقسوة كأنما تطالب قلبها بالتوقف فالوجع لم يعد محتملًا:

- مرة من عمري ومرة من نفسي.. يعني بدل المرة اتنين.

- ما تعيشيش دور الضحية.. مش لايق عليكِ.

وأحنى رأسه يكمل أمام وجهها بتجبر:

- أنتِ كنتِ عايشة في نعمة.. وآدي المرة التانية كمان.. ماحدش ضربك على إيدك.

واكتفت منه بصراخ هدم أركان ذاتها المنكسرة:

- مستقبلك أنت وأمنية كان لاوي دراعي.. خوفي عليكم كان بيضرب في قلبي مش إيدي..

وأشاحت بذراعيها تصف مهزلة مرت بها ودون فائدة:

- كنت عاوزاكم تكونوا أحسن مني.

- إحنا فعلًا أحسن منك.

ورمقها بازدراء:

- والفضل مش ليكِ.

- لأ ليَّ..

صرخت، وأعادت الكرة واعتلى النبرة ألمًا جليًا لم يلمحه حتى:

- لأ.. ليَّ.

تكررها بتأكيد ويعاند بعنجهية.. وخفت الصوت بتيه:

- أنا سجنت نفسي مرتين.. وباختياري.. لأن الخيار كان بين سجني وسجنك أنت.

ورفعت عينيها الدامعتين إليه بضعف:

- اخترتك أنت.. اخترت إنك تكون حر.. تدخل الكلية اللي أنت عايزها وتعيش مستقبلك.

وتلبستها حيرة وبدت تائهة تبحث عن مخرج.. مأمن.. ملجأ أو ملاذ حماية من طعنة لايزال الفؤاد ينزف إثرها:

- مضيت على إيصالات من غير ما تعرف إيه العواقب!.. إيه التمن!

وحدجته بنظرة جريحة واهنة:

- التمن.. أنا دفعته.

وعادت تضرب صدرها بخنوع تلك المرة:

- جوازي من سعد كان تمن عيشتكوا برفاهية في بيت خالتكم.

وشردت تسرد مرارة ماضٍ لم يعلم عنه أحد ومن علم لم يقدم أو يؤخر شيئًا.. تصف، تعدد، تنبش وتهوي من علٍّ ورحلة السقوط طويلة والثمن بخس!

"التمن دفعته من دمي اللي كان بيغرق إيدين سعد في كل مرة يضربني فيها!"

"من وجعي وعضمي اللي كسره ميت مرة"

"من كل ليلة كنت بابات فيها في المستشفى لوحدي لأن ماحدش لازم يعرف"

"من كتماني لآلامي عشان أنتوا تعيشوا وتحققوا أحلامكم"

"وعمي سلامة ييجي يراضيني بكلمتين ويفكرني بجميله عليَّ وعلى أخواتي"

"فاقفل بقي وأخرس عشانكم"

أنهت قصة وجعها بشجن.. ورفعت إليه عينين ضعيفتين تطالبان به هو.. تحاول إعادته لطريقه القويم ولو كشفت كل أوراق الذل والقهر والانكسار:

- وفي الآخر بتقولي أنك أحسن مني!!

واللعنة عليه لو صدق أفعى مثلها.. تتلون مع كلٍ بما يناسبه.. والموقف الآن يتطلب تمثيلية حبكتها واهية لا يشتري منها حرفًا:

- أنتِ كدابة.. اشمعنى اتجوزتِ حمزة!.. كلامك مش مقنع.

وازدادت عصبيته بحركة ذراعه العنيفة الغاضبة:

- يفرق إيه جوازك من حمزة عن جواز أمنية مادام التمن هو جوازة والسلام مقابل فلوس تعليمي!!

- يفرق كتيييير.. أنت مش عارف حاجة!

صراخها عاد يتردد.. وألف تعجب وتعجب لم يكونوا بكافيين:

- أنت لا عارف ولا فاهم.

وهذيانها يتكرر لذاتها المتلبسة بالحيرة والضياع:

- أنا بعت نفسي عشانك على الفاضي.

وربما وقت القرار الحقيقي قد حان.. القرار الصحيح ولو اتخذت دربًا لم تخُضه من قبل.. أكسبت نبرتها حزمًا مصدره قلبها الخائف على الأخ الأصغر.. مصدره عقلها الذي منحته الدنيا عصارة خبراتها في كئوس الذل والوجع:



- ابعد عنها يا إيهاب وإلا هاقول لعمي سلامة.. وأنت عارف هو ممكن يعمل إيه لو عرف!

- أنتِ بتهدديني يا سمية؟!

ببريق عينين مسعورتين ولهجة جافة خشنة فظة نبعت من غلظة قلب:

- أنا عاوزة مصلحتك.

تناجي بها رحمًا ربط بين حملهما:

- أنا أدرى بمصلحتي.

بزعقة كادت ترج أرجاء المكان.. وزعيقها كان قهرًا:

- لو كنت عارفها بجد؛ كنت ركزت في مستقبلك بدل القرف اللي شفته.

وشدت قامتها القصيرة تنهي الحديث المبتذل ضائع المعنى والهدف:

- آخر كلام يا أخويا..

رفعت رأسها بحسم قاطع تخيره:

- يا تبعد عنها.. يا منك لعمي سلامة!

- مش هتقدري يا سمية.. أنا عارف وأنتِ عارفة إنك مش هتقدري.

ويتبجح وتضعف وتصرخ بهوان وقلة حيلة:

- هاقول لحمزة.

ويسخر هازئًا بدناءة:

- طبعا.. ما هو بقى خاتم في صباعك.. هتقولي له إزاي وإمتى!.. بعد ما ينام معاكِ!

وأشعل فتيل جنونها الذي لم تقربه نار من قبل، ارتفعت كفها الصغيرة بلطمة لوجنته وأمرها الموجوع تخطى حدود الصراخ لمنطقة مجهولة لم تمر بها مسبقًا:

- اخرررس.

- بتضربيني يا سمية!

وجن جنون شياطينه الخاصة واشتعلت عيناه بسعير لن يحرق سواها.. جذبها من رأسها يخلع عنها وشاحها، يتمكن من خصلاتها ويشدها بعنف قاسٍ.. ودون وعي رفعت يديها تحمي وجهها.. تيبست بالكلية ونظراتها مدعية القوة تحولت لذعر وتجسدت صورة الأمس أمام عينيها:

- إيهاب.. عشان خاطري سيبني.. ما تأذينيش.

وكان هذيانًا فعليًا لم ينتبه له أو يبالي به..



بل ضعف نبرتها زاد من نشوته وهو يرمقها بغل حقود ويطل عليها بقامته الضخمة.. تتنقل أنامله من شعرها لعنقها، يضغطها ببطء حتى نال التحكم الكامل بأنفاسها وهسيسه أرعبها واقعًا وخيالًا:

- اترجيني كمان.

وخشعت وخنعت وتوسلت كما اعتادت.. ومع توسلاتها كانت يده تشتد.. قبضته تتصلب.. تتحكم.. توقف الهواء وتحبسه خارج صدرها.. وهي تتهاوى..

يتراخى جسدها ويتركها في النهاية لتسقط مزرقة الشفاه شاحبة البشرة مرتعبة الملامح..

وانتقل الذعر إليه..

لقد قتل أخته!

قتلها!

وتردد صدى الكلمة حتى ظن أن الجدران تراقب وتشهد وهذه هي نهايته.. تأملها هنيهة برعب غيرواعٍ لما فعل قبل أن يركض، يغلق الباب خلفه بعنف دون انتباه أنه لم ينغلق بالفعل.. يهرب.. يفر.. يولي الدبر حين زحف جيوش الخوف على كيانه كله.

ويعود الزوج في موعده.. يقف قبالة الباب الموارب يناظره بتوجس!

يدفعه ببطء ويدخل بخطوات متمهلة وقسوة الصورة كانت في انتظاره..

المشهد..

زوجته ملقاة بوضع جثة.. لا أنفاس.. لا انفعالات.. وملامح الحياة مطموسة من جسدها بالكلية.. ركض نحوها يصرخ باسمها..

- سمييييييييية!!

وشتان بين صرخة وصرخة.. واحدة حملت هياج غضب والثانية دبَّت بها اختلاجات هلعٍ وفزعٍ!

الفصل التاسع عشر

الضعف الإنساني؛ حقيقة لابد من من الاعتراف بها ومواجهتها.. فالإنسان مهما بلغت قوته، علمه، ثقافته، مكانته الإجتماعية هو عُرضة للخضوع للحظة ضعف مُزجت ببنائه النفسي..

وضعف النفس بمواجهة رغباتها أو مخاوفها يشبه زلزال.. زلزالًا يقلب الدواخل رأساً على عقب.. فبقدر تدمير قوة الزلزال، إلا أنه أحياناً قد يكشف عن جمالٍ ما.. عن كنز خفي مدفون بالأعماق.. كذلك الضعف.. فقد يُخضع الإنسان مرة، فيدفعه للزلل.. وبأحيان أخرى يكون السبب في الوصول لبقعة من الجمال الصرف..

في النهاية الضعف قد ينبع من داخلك.. فتطحن إرادتك تحت ضغط الأهواء.. وهنا السقوط.. وبنفس الوقت قد يمنحك ضعفك هشاشة محببة.. شرط أن تمتزج بقوة عزيمة..

وقد تواجه ضعف من نوع آخر.. عندما تتكالب ضدك المصائب.. أو يتنمر عليك خصمك.. عندما تشعر بقوتك الخارجية تهاوى بمواجهة الغدر والقهر..



علي بوقفته الساهمة أمام النافذة النصف مشرعة.. يحاسب ذاته بل ويجلدها.. أفكاره تتأرجح بين ذنب يحرق قلبه.. وشعور خفي برضى وسكينة يطفو على السطح باستحياء فيؤجج مشاعر الذنب بقوة.. دائرة مغلقة من مشاعر متناقضة تكاد تذهب بعقله..

التفاتة بسيطة ولمحة خاطفة منحها لرؤى النائمة بسكون، ملامحها الهادئة تلونت بشيء من السعادة.. ولكنها منقوصة..

هو يراها منقوصة!.. يشعر بها مبتورة!..

فرغم سكون ملامحها إلا أنها مقروءة وبوضوح.. تنهد بعجز وهو يتذكر اعترافها الليلة الماضية.. فقد أتم هو زواجهما واقعياً وكللته هي باعتراف بعشقه مشاعرياً.. منحته نفسها بعقد زواج رسمي.. وأهدته قلبها بعهد هوى حالم.. ولكنه للأسف.. هوى أحادي.. هواها هي.. أما هو.. فلا يملك إلا حسن العشرة والمعاملة الطيبة..

القلب مسلوب تائه يتلوى بين كفي الحبيبة القاسية..

تنهد بحيرة وأفكاره تداهمه بلا رحمة ودقات قلبه تتسارع..

وكأنه واقف بين يدي ريم تعاتب وتلوم.. فلا يدري إن كانت عيناها أم دقات قلبه!



هل تسرع؟.. هل دفعته كرامة جريحة ورجولة مهجورة للتخلي عن حبيبته الوحيدة؟..

وتعاجله أفكاره.. وهواجس عقله.. أنه تحمل ما يكفي ويزيد.. وتصرخ به رجولته متسائلة إن كان باستطاعته مواجهتها ثانية؟.. تحمل إهانة تلو الأخرى؟.. الحياة معها وتحمل نظرات اتهام لا يفهمها.. ولا يغفرها؟..

هز رأسه بعجز يضربها بحافة النافذة يتأمل الفجر الوليد، ويعترف بوجع.. هو لم يكن ليستطع إقامة حوار بسيط معها كأي زوجين.. هي قطعت روابط المحبة وهدمت جسور الاحترام..

ويده تضرب موضع الخافق بقوة.. فهو حليفها الأوحد.. والأقوى..

شعر بلمسة خفيفة على كتفه، فالتفت ليواجه رؤى.. ذنبه الآخر.. وعذاب ضميره الأول..

هي منحت نفسها وقلبها وروحها لآخر قطرة.. وهو شاركها ببقايا نفسه، ووجع قلبه الآن ليس بيده، تفكيره الهائم نحو مالكة القلب خارج عن إرادته..

فرض سيطرة فولاذية على جموح أهوائه، فإن ملكت ريم القلب فليمنح رؤى حق امتلاك الحكمة.. والحكمة تخبره أن فتاته الرقيقة الواقفة

ترمقه بنظرات متلهفة وكأنها تنتظر مبادرته أو حتى مشاركته.. تستحق منه المحاولة..

أغمض عينيه يخفي انفعالاته وأفكاره عنها.. ثوانٍ فقط وفتحها ليشعر بربتة كفها الناعم على وجنته وهي تهمس بخفوت حزين وكأنها تهبه العذر وتمنح لنفسها الحق:

- القلب بينبض بأمر العقل.. لكن بيدق بأمر الهوى..

احتواها بين ذراعيه.. فالعقل يأمر بمنحها ما يتحكم به.. حياة.. نبضات.. فالدقات ملكِ لأخرى..

أخرى لم يستطع التحكم بشوقه إليها.. فالرغبة برؤيتها فوق قدرة سيطرته..

وأسدل الليل ظلامه ومعه تحطمت مقاومته.. ليجد نفسه أمام باب شقتهما.. ورأسه تتكئ بحيرة عليه.. يمنح نفسه القوة للدخول.. هل يمكنه مواجهتها؟.. هل سيتحملان عبء الأفكار وعبث الخيالات!!..

ولعذابه وجد معذبته نائمة.. بغرفته المنفردة.. وترتدي منامته..

هل لوجع القلب من نهاية!.. والنفوس المعذبة، ألا تجد مرسى أمان ترمي به آلامها وتعرف قليلاً من السعادة!..

جاورها صامتاً.. يتأمل وجهها الفاتن.. فاتنة هي معذبته حتى بشعرها الأشعث ومنامته القديمة ووجهها الحزين الذي يحمل أثرواضح لدموعها..

وبدون وعي تحركت أنامله تمحي آثار الدموع وأفكاره تكاد تمزق عقله..

هي تبكي!!.. تتجاهل حبه، تدهس كرامته وتلقي به بكل ما أوتيت من جنون لأخرى.. أخرى تلملم شتات ما دمرته هي.. ثم تبكي!!..

فتحت عينيها لتجد أنامله تجوب ملامحها بلهفة.. والتقت النظرات للحظة أبعد فيها يده عن وجهها وسألها بعنف:

- عملتِ فينا كده ليه؟..

ولم تكن بحاجة لسؤاله لتفهم.. لم تكن بحاجة لملامحه المذنبة وعينيه الغاضبتين..

فهي أدركت.. فهمت.. وشعرت.. لقد تزوج بكل ما تحويه الكلمة من معنى.. لم تفكر بأخرى تملكت جسد زوجها ومنحته جسدها بالمقابل..

كلا.. لم يزعجها ذاك الخاطر..

قد يظنها البعض خيالية.. فاقدة لعقلها.. ولكنها ليست كذلك.. هي بالفعل لم يؤلمها خيالات زوجها مع أخرى.. ولكن ما يوجعها، بل يذبح روحها



إحساسها بتسرب دفئه، حنانه.. حتى أنفاسه تشعرها امتزجت بأنفاس الأخرى..

أغمضت عينيها وهي تدرك تمام الإدراك.. أنها أصبحت شريكة به بعدما كانت تملكه كلياً..

وسؤاله يتكرر ثانية وقد اختفى العنف ليبقى اللوم:

- عملتِ فينا كده ليه؟..

وعيناها تهربان.. لن تبكي.. لن يرى دموعها..

لن تحمله مزيدًا من العبء..

مزيدًا من الذنب..

تعلم أنها من هدمت أول لبنة بأسس حبهما.. ولم تتوقف.. زادت وتطرفت حتى زلزلت الأساس.. وكاد البناء أن ينهار.. بل هي ظنته تهدم بالفعل.. ولكن رؤيته الآن برغم وجعها.. برغم إحساسها برؤى بينهما.. إلا أن عودته تمنحها إحساساً لا تعرف له وصفًا..

هل هي راحة!.. أم ألم؟..

ألم تجلى بصوته واضحاً وهو يكرر:

- عملتِ فينا كده ليه؟..

ولم تمتلك إجابة.. فقط نظرات.. دموع محبوسة تشرح عنها.. ولكن شرحها لم يكن واضحاً له.. لم يكن مفهوماً.. لا يستوعب ما يراه من اشتياق ووجع وألم ولوم بنظراتها..

لوم نظراتها كاد أن يقضي عليه.. أتلومه!.. تتوجع!.. تشتاق!.. تتألم لبعده.. وهي من كانت لا تطيق أنفاسه!..

وبالفعل جاءت إجابتها عكس كل ما تموج به نفسها من شوق وحب.. لتلوم وتتهم:

- أنت جاي تقولي كده بعد ما دخلت واحدة تانية بينا!

لم يجبها.. وكأنه توقع لوم كلماتها.. عتاب نظراتها.. ربما يستحقهما.. ربما تملك حق جرحه.. لا يعلم.. ولا يريد أن يفكر.. فقط تأملها باشتياق ودون وعي ترجم مكنون قلبه:

- ريم.. ممكن آخدك في حضني.. هحضنك بس.

فاجأها فتجمدت.. ترمقه بنظرات مبهمة.. هل يريد احتضانها.. وفقط؟.. كيف؟.. ولم؟.. والأهم.. هل ستتحمل؟..

لم ينتظر خطوتها والتي يعلم أنها لن تكون البادئة بها أبداً.. أسكنها أحضانه يحيطها بذراعيه ورأسه يرتاح بين خصلاتها متجاهلًا تصلبها المعتاد، رعشتها ورجفة جسدها.. هامسًا:

- هحضنك بس.. ما تخافيش..

لم يعلم لمَ طمأنها بتلك الكلمات وكأنه ينفي عن نفسه تهمة الرغبة بها!.. وكأن قلبه اهتدى أخيرًا كيف يهدئ مخاوفها!..

لم تستطع الاسترخاء وهي تشعر بدقات قلبه تدوي بصدره وكأنها باتت تعلم أن صدره لم يعد ملجأها وحدها، فهو ضم أخرى قبلها.. وسيضمها بعدها..

وجاءت همسته الأخيرة:

- محتاجك في حضني ولو لثواني يا ريم..

أغمضت عينيها تستسلم للواقع تستكين بشيء من تردد.. هو لم يعد ملكها فقط.. لم تعد تمتلك حقًا حصريًا بأمانه وحمايته.. فتنهدت من أعماقها تنعي ملكية فرطت بها بكامل إرادتها وبغياب كلي لقواها العاطفية..

شعر بوجعها كاملًا حتى وإن لم تصرح بكلمة.. ولكن كما يقال.. سبق السيف العذل.. وفي حالتهما.. هزمت نبضات القلب دقاته..

وتجمعت بروحه غصة مريرة تكونت كدمعة قاسية بقلبه لتذرفها عيناها على صدره..

***



الهشاشة إحدى مرادفات الضعف.. وإن كان الضعف يدفع للزلل.. للقهر.. لتنمر الأقوى.. فالهشاشة تجتذب الحماية.. تناشد الأمان.. تتوسل طمأنينة..

وهي هشة.. بكل ملامحها ودواخلها.. هشاشتها التي اجتذبت قوته الحمائية يراها واضحة بوجهها الشاحب وغيابها عن الوعي لساعات..

ورغم طمأنة عبد الرحمن له بأن غيبوبتها طبيعية ومتوقعة، إلا أنه لم يستطع منع انقباضة قوية بقلبه وإحساس مبرر بالذنب يملأه..

لقد خذلها.. لم يستطع حمايتها ودفع أذى مجهول تعرضت له.. تساوى مع كل مَن حولها.. من تنافسوا في جرحها وإيلامها مرة تلو الأخرى.. وهو شاركهم، بل زاد عليهم باتهامات وإدعاءات مؤلمة..

اقترب ببطء.. بتردد.. يتأمل شحوبها.. عينيها المسبلتين.. يتمنى أن تعود لهما الحياة ويخشى نظرة اللوم والوجع بهما..

أنامله ربتت على خصلاتها بحنان.. وذاكرته تعود بقسوة للحظة رؤيته لتلك الخصلات تفترش الأرض وشحوب وجهها بينهم يشي بفقدان حياة..

جنونه وهو يحاول إفاقتها بلا جدوى.. صرخاته القوية والتي لم يدرك عنفها إلا وشقيقته الصغرى ترتمي بجواره أرضًا تتساءل بخوف عما يحدث..
لتطلق صرخة مرتعبة باسم سمية دفعت خطيبها لاقتحام الشقة بدوره..

ليرى جسد سمية مسجى أرضًا وحمزة يحاول بكل الطرق إفاقتها وآية تبكي بذعر.. تركض لجلب زجاجة عطر.. وشحوب وجه سمية وزرقة شفتيها لم يمنحاه وقت..

فمن الواضح أن الحياة تُسلب منها..

اتصل بصهره على الفور.. ودقائق كانت بعدها سمية تتلقى عناية طبية فائقة..

ويتلقى حمزة كلمات عبد الرحمن بصدمة..

"محاولة خنق"..

هل وصلت الكلمات صحيحة لأذنيه!!.. مَن تلك التي تم خنقها!!.. ولماذا!!..

مَن قد يرغب بإيذائها!!.. تلك التي تحيا على الهامش.. بل أحيانًا يفكر أنها لا تحيا من الأساس.. هي تتنفس.. تتحرك.. ولكن بلا حياة..

كيف يستطع أحدهم إيذائها!.. خنقها!!.. يا إلهي!!.. أي قسوة تلك!!..

ولم تكن محاولة الخنق هي الصدمة الوحيدة.. بل ربما هي أخف الصدمات.. فكلمات عبد الرحمن التالية كانت تحمل اتهامًا واضحًا..

"أنا مضطر أبلغ البوليس.. ده شروع في قتل.. وكمان همنع دخول أي حد عليها"

وهنا كانت صرخة حمزة العنيفة تتوازى مع جذبة عنيفة لمعطف عبد الرحمن..

"أنت اتجننت!!.. بتتهمني بإيه؟"

والنظرة المزدرية في عيني الطبيب الذي لم يستطع منع لسانه من تقريع ذلك الوحش أمامه..

"أنت متأكد أنك عايزوصف صريح!.. لأن كلمة مجرم مش كفاية!".

وتوسعت عينا حمزة بغضب يقابل ازدراء نظرات عبد الرحمن الذي أكمل بعنف..

"بخلاف محاولة الخنق، مدام سمية أما فقدت الوعي وقعت على دراعها.. والأشعة وضحت وجود كسر بسيط في مفصل الإيد.. بس كمان وضحت وجود آثار لكسور سابقة!"

صمت لحظة ابتلع بها ريقه وهو يحاول تمالك أعصابه ليكمل..

"دكتورة الآشعة.. شكت في الموضوع.. فأخدت أكترمن فيلم.. والأشعات وضحت تعرض مدام سمية.. مراتك..

قال كلمته الأخيرة بزعقة غاضبة.. وإشارة اتهام واضح..



"الأشعات أثبتت إن المدام بتتعرض لضرب مبرح.. في آثارلعشرات الكسور الملتئمة.. في كل جزء من جسمها..

قاطعه حمزة وقد شحبت ملامحه تمامًا لما يسمعه..

"لا.. لا.. إحنا متجوزين من كام شهر.. أنا..

لم يعرف بم يكمل جملته.. هل ينفي عن نفسه التهمة أمام عبد الرحمن فتثبت التهمة بما لايدع مجالًا للشك على أخيه المتوفي!..

يا إلهي!.. هل امتلك سعد تلك الوحشية بالفعل!!.. تكسيرعظام!!.. عشرات المرات!!..

كيف لم يعلم أحد!.. لمَ لم تتكلم؟.. لمَ لم تفضحه وتطلب المساعدة!!..

وبلا إرادة منه اتجهت نظراته لوالده الجالس على بعد منه.. يخفي وجهه بين كفيه بضعف.. فيرفع والده وجهه بتلك اللحظة وتلتقي النظرات.. لثوان أو أقل.. ولكنها كانت كافية ليدرك حمزة..

أن والده يعلم!..

يعلم بمعاناتها ولم يحرك إصبعًا لمساعدتها!..

دوامة هائلة تبتلعه.. وأفكاره تتخبط ومُثلُه تتأرجح بل تتدمر أمامه.. فيعود ليردد كلمات بلا معنى..

"أنا ما ضربتهاش.. ما لمستهاش... ممكن تسأل عمرو.. "

ردد عبد الرحمن بدهشة..

"عمرو!"..

مرر حمزة أنامله في شعره وهو يهذي..

"أيوه.. عمرو.. إحنا كنا مع بعض.. أقصد كنت واقف معاه قبل ما أطلع وألاقيها و.. اسأله من فضلك.. أنا عايز أكون جنبها.."

وكلمات بسيطة من عمرو أيدت موقف حمزة الذي وقف حائرًا.. وبداخله برز سؤال مزعج.. هل كان يمكنه منع تعرضها للأذى لو صعد مباشرة لمنزله!.. هل بضع كلمات بسيطة مع صهره كلفت زوجته حياتها!!..

ويجاوره علي الذي لمح غضبه ثم أعقبه حيرته وتخبطه.. يعرف صديقه ويدرك أنه بأحيان كثيرة لا يتحكم بغضبه.. غضبه الذي كان موجهًا بتلك اللحظة نحو والده..

ويصطحبه علي بعيدًا عن مكان والده فنظرات حمزة بتلك اللحظة كانت تشي بفقدان سيطرة..

بعد كلمات عمرو التي برأت حمزة بعيني الطبيب إلا أنه رفض منحه الإذن بمرافقة زوجته.. وطلب منه الانتظار لساعات أخرى.. وهو لا يمكنه لوم الرجل.. فبرائته هو تعني اتهام الجميع.. وأولهم والده..

همس علي له بتحذير..

"حمزة... مراتك محتاجاك مركز"..

بادله حمزة نظرة طويلة.. لم يجبه.. ولم يُعِد علي كلماته.. تلك هي الصداقة الحقة.. تكفي بها النظرة للوصول لعمق الألم...

أومأ حمزة بصمت ليتجه علي نحو زوجته المنهارة والتي تحاول جاهدة السيطرة على دموعها ترمق شقيقتها بعجز.. فآية غارقة بنوبة بكاء موجع وهي.. هي تعجز حتى عن منحها ربتة راحة..

فآية مَن تلقت الصدمة كاملة مع حمزة وهما يحاولان إنعاش سمية بلا جدوى.. وقتها سيطرت آية على انفعالتها بقوة لم تعرف من أين لها بها!.. وظلت على وضعها الصامت حتى طمأن عبد الرحمن الجميع.. حينها انفجرت آية بنوبة بكاء موجعة.. ولم تستطع السيطرة عليها رغم محاولات الجميع إسكاتها..

وعلى النقيض من حالة آية وريم المنهارة كانت رانيا تتأمل الوضع بتفكير.. تقدر المشكلة وعواقبها.. فهي الوحيدة التي تعلم الحقيقة التي يصارع الجميع للوصول إليها، وإيهاب اختفى..

المجنون المنفلت ارتكب جريمته وهرب.. وهروبه سيلقي عليه بظلال اتهام.. واتهامه قد يكشف ما بينهما..

ومنحها شيطانها الحل.. كلمات تضلل بها الجميع وترمي بكرة الفساد بشرف سمية..

"غريبة قوي حكاية محاولة القتل دي!"..

وانصبت عليها النظرات المستفهمة لتكمل وهي ترفع كتفيها ببراءة..

"مين يعني هيبقى عايز يأذي سمية!.. إلا إذا...

وصمتت متظاهرة بمحاولة قطع الكلمات.. لتستحثها أمنية بتساؤل غاضب..

"إلا إذا إيه؟"

هزت رانيا رأسها وهي تمط شفتيها بأسى..

"يمكن سمية تعرف حد كده ولا كده.. ولا يكون لها علاقات..



ولم تكمل جملتها.. فقبضة حمزة الغاضبة قبضت على فكها لتجعلها تبتلع كلماتها وهو يهمس بفحيح مجنون غاضب..

"اخرسي.. حافظي على عمرك.. واخرسي"..

وانتفضت رانيا مبتعدة بسرعة.. فرغبة القتل كانت تلوح بعيني حمزة بوضوح.. وهي نفذت ما أرادته وسربت الشكوك بنفوس الجميع..

ساعات مرت.. قبل أن يعلن عبد الرحمن زوال الخطر عن سمية.. وسماحه لزوجها.. فقط بمرافقتها..

وها هو حمزة يتأملها لساعات أخرى ينتظر لحظة إفاقتها.. لحظة مواجهة الحقيقة بعينيها..

ربما يحتاج لسماع الكلمات بصوتها حتى يضعها بحيز الواقع.. واقع حقارة شقيقه وحيوانيته.. بل إن الحيوانات تكاد تصل لمرتبة أرفع منه.. فتقارير الآشعات التي سمح له عبد الرحمن بالاطلاع عليها.. مفزعة.. وأوراق فحصها العضوية مرعبة.. أثار الضرب التي وصفتها التقارير تكفي لرمي جثمان أخيه المتعفن بأعماق الجحيم..

حركة خافتة منها لفتت انتباهه لينتفض بسرعة يتحرك نحوها فيصطدم بنظرات عينيها المرتعبة.. وهي تتنقل بضياع وحيرة بينه وبين هواء الغرفة..

فزع تلبس ملامحها وهي تتحرك بعشوائية وكأنها تواجه الموت مرة أخرى.. حركات ذراعها السليمة وهي تحاول بوهن درء خطر مجهول..

أخيراً استقرت نظراتها على وجهه لتلمح بدورها قلقه وخوفه عليها.. لتلمس أمان وحماية تبثهما نظراته.. حنان يكاد يكون ملموسًا بهمسه القلق:

- حمد لله على سلامتك يا سمية.. قلقتيني عليكِ..

وتعود نظراتها تتساءل.. هل حقًا شعر بالقلق عليها هي!.. هل يطلب لها السلامة بالفعل!..

وأنهت ذراعاه اللتان التفتا حولها بقوة يضمها ويمنحها أمانًا تتوسله ملامحها.. يرفعها من رقدتها ويسكنها حماية صدره وكأنه يخبرها بلا كلمات أنها حصلت على دعمه، حمايته..

أن قوته وغضبه وعنفوانه كلهم أصبحوا لها لا عليها..

همسه النادم تكرر باعتذار لا تعلم له سببًا ولكنه يدرك أنه يدين لها بآلاف الاعتذرات.:

- آسف يا سمية.. حقك عليَّ.. حقك عندي..

لم تفهم كلماته.. أي حق!!.. ولمَ يعتذر!!.. ولم تستطع السؤال.. فآلام حنجرتها منعتها من لفظ كلمة.. وأبعدت نفسها عنه برهبة ونظراتها تعاود التساؤل بحيرة وهلع..

ويعاود همسه المطمئن وهو يربت على كفها برفق:

- ما تخافيش.. صوتك ما فيهوش حاجة.. الدكتور طمني.. بس الحنجرة اتأثرت شوية من..

وقطع كلماته وسؤال لابد منه يتردد على لسانه:

- إيه اللي حصل يا سمية؟.. مين اللي حاول يأذيكِ؟..

وعيناها تهربان من سؤاله.. ورغم رعبها لغياب صوتها إلا أنها تحمد ربها لذلك.. فهي لا تملك إجابة..

لا يمكنها إخباره الحقيقة!..

فهي لم تحمِ شقيقها من السجن بسبب تلك الإيصالات التي وقع عليها بغباء.. لتعود وتلف حول عنقه تهمة قتلها!..

ربما هي غبية.. وربما هو لا يستحق.. ولكنها لن تفعلها.. أبدًا..

أشارت بكفها لحمزة بغموض لم يفهمه.. وعادت تستلقي بفراشها تخفي نفسها عن نظراته الحائرة.. تغمض عينيها تدفن بها حقيقة لن تبوح بها..

واقع أن أنفاسها كادت تُزهق بين يدي شقيقها بعدما قُتِلت روحها بين يدي شقيقه..

***

ضعف القلب.. لا يعني بالضرور مرض عضوي.. فضعف القلب بمواجهة الحبيب قد يكون أشد وجعًا.. وأكثر إيلامًا.. بل أنه قد يسرع بالقضاء على الذات أكثر من المرض الفعلي..

وحبيبة طالما كانت ضعيفة القلب بمواجهة حبها لنبيل.. حب العمر.. طفولتها تلونت بوجوده.. وشبابها امتزج به.. تقبلت حياتها الشاذة معه.. واستسلمت لضعفه.. ارتضت بقدرها.. بحرمانها من أنوثة.. من مشاعر.. من أمومة.. تحملت وتحملت.. وكانت مكافأتها.. طعنة غدر مريرة..

تكومت بجانب فراشها ودموعها مجمدة.. هي لم تذرف دمعة منذ ألقى نبيل في وجهها بمفاجأته المدوية.. حاولت استدعاء دموعها ولكنها تأبى منحها الراحة.. تتذكر بغموض مهاتفتها لشقيقها.. وحضوره السريع.. لا تذكر ما أخبرته به.. ما يلمع بذهنها بوضوح لكماته الغاضبة في وجه نبيل الذي تلقاها باستسلام..

تتذكر هذيانها بين ذراعي شقيقها.. بزواج نبيل ولا تعي إن كانت صرحت بحقيقة حياتها معه كاملة أو لا.. فقط تغمض عينيها تسترجع لحظات راحة

خاطفة بين ذراعي شقيقها وهو يخبرها بوعد قاطع أنها ستنال ما تريد..
فقط لتعود لرشدها وتقص عليه ما حدث..

أي رشد.. وأي قصص يرغب الشقيق!..

أي كلمات تحكي مأساة حبها.. تضحيتها التي دهسها المعشوق جرح "ابني".. بطعنة.. "زوجتي".. أي حكايا قد تبرر له.. وأي عذر يبيح لها الصمت!..

بئس لحب يسلب المرء عقله..

تبًا لمعشوق نال وتحكم وسيطر فأهان وجرح وسلب..

منحته عذرًا تلو الآخر.. أباحت له الاستهانة بأنوثتها وكان رده.. سلبها أمومتها.. حرمها من طفله ومنحه لأخرى بمنتهى الكرم.. والمبرر..

"أنها مختلفة"..

شعرت برطوبة على وجنتيها.. فامتدت أناملها لتقابل دموع سقطت بلا وعي..

أتبكيه الآن!..

تمنحه دموعها فوق كل ما ناله منها!..

تهبه حق حزنها وحداد أنوثتها وصور تلك المجهولة التي نالت طفلًا هو لها بالأصل تهاجمها بلا رحمة..

مسحت وجهها بعنف وقفزت من فراشها لتتأمل انعكاسها بمرآة حجرتها القديمة بمنزل أمها.

لتصطدم عيناها بامرأة منتهية.. أنثى كسيرة.. مقهورة القلب ومسلوبة الحق..

كلا.. ليست تلك هي.. تلك صورة مشوهة.. مسخ خلقه نبيل بخيالاته وعجزه.. وعند كلمة عجز.. توقفت.. تجمدت.. فهو أثبت أنه بقادر.. قادر على الجرح حد سلب الأنفاس..

قادرعلى الغدرحد ضمها وهو يمنح نفسه لغيرها.. حد الخيانة التي لوث بها جسده وروحها..

ازدادت دموعها وانتفض داخلها رفضًا لتلك الدموع فتصارعت أعماقها بتيه.. بحيرة وضياع غاضب.. غضب دفعها لتحطم تلك الصورة المنعكسة أمامها بالمرآة.. تحطم.. كل انعكاس لها.. يدها أطاحت بكل ما طالته ودموعها تزداد وتعجزعن منعها فيتأجج غضبها ومعه تدمركل ما تقع يدها عليه بغرفتها.. وتتعالى صرخاتها.. رافضة.. عاجزة.. مقهورة.. مطعونة.. فهو سلبها كل شيء.. القلب والروح.. الأنوثة والكرامة.. حتى الأمومة منحها لأخرى.. وهي..

هي لا شيء..

لا شيء..

صرخاتها جلبت أمها بذعر لغرفتها لتفاجأ بحجم الدمار بالغرفة.. وحبيبة غائبة بمزيد من التحطيم.. مزيد من الصراخ.. والكثير من الدموع وهي تصرخ أنها لا شيء..

أحاطتها ذراعي أمها تمنعها عن إيذاء نفسها ولكن فات الأوان.. فقد أوذيت بالفعل.. أذىً لا دواء له.. جرحًا لا براء منه.. طعنةً لا تندمل.. وكان الغياب عن الوعي رحمة بها..

والنهاية.. حالة شديدة من الانهيار العصبي.. والمستقر.. إحدى المصحات لعلاج نفس كسيرة..

والمذنب.. هو ضعف قلب رق لعشق ظنت يومًا أنه استثنائي!

***

عندما يجتاح الضعف قوة رجل جُبِل على الكرامة.. على العنفوان والكبرياء؛ تتخبط قرارته وتتسارع خطواته باتجاه خاطئ..

يعاند.. يكابر.. ولكن ضعفه تجاه ماضٍ مر وانقضى دفعه ليتصرف بغباء.. بتسرع بدون أن يزن تصرفاته بميزان الحكمة وحسن التقدير..

مضجعًا بمقعده خلف فخامة مكتبه.. يحاول الهرب من أحداث أيامه السابقة.. من خديعة وفخ سقط به ببلاهة وهو يعتقد أنه صاحب الخطة ومُحرِك الأحداث..

لقد ظن أنه استوعب درسه جيدًا.. تعلم كيف يفرز الأصلي من المزيف.. ولكنها جاءت بابتسامتها البريئة وملامحها الفاتنة وجسدها المغوي لتثبت له أنه غِر أحمق.. لا يتعلم من أخطائه مهما بلغ من عمر ونضوج..

هل مالت رغبته للارا لأنها تشبهها؟!..

ربما.. هي لا تماثلها بالملامح قدر تشابه روحي بينهما.. الفارق أن سيرين كانت أكثر وضوحًا ونزاهة من زوجته المصون.. وابنة العم الغالية..

ارتسمت على شفتيه ابتسامة مريرة.. وخياله يرسم له ملامح سيرين الفاتنة.. فاتنة بخصلات ذهبية تشبه تلك الخاصة بلارا، ولكنها امتلكت عينين بسواد الليل.. وكان تناقض لون عينيها مع شقارها الواضح هو ما جذب عينيه الشابتين أول مرة.. وبعدها فُتِن بشخصيتها.. جموحها.. أنوثتها.. دلالها وانبهارها الواضح به..

لا يعلم إن كان سقط بحبها.. أم أسقط نفسه متعمدًا بعالمها، فوقتها كان بالكاد يلملم أشلاء قلبه.. بعد قصة مؤلمة.. وصاخبة.. وتلك المرة كانت بطلتها هي مروة..

"مروة إدريس".. رفيقة صباه.. زميلته بالدراسة.. وحبيبة العمر.. كان يلازمها بكل خطوة.. بكل نفس.. لم يكن مجرد اعتياد أو عشق روتيني.. فهو ناقش نفسه مرات عدة.. حتى وصل ليقين بحبه لها لذا ارتباطهما كان أمرًا مفروغًا منه..

أنهى دراسته واستعد ليتخذ خطوته الجدية نحوها.. لتفاجئه برغبتها الأكيدة بتأجيل الأمر حتى تنهي بعثة دراسية بالخارج..

جادلها كثيراً.. ومنحها موافقته اللامشروطة للدراسة.. ولكن داخل مصر.. وبعد مجادلات ومحاولات.. انتهى بأن وضعها بخيار..

إما هو.. أو دراستها..

واختارت مروة دراستها ورحلت لألمانيا ترضي طموحها العلمي وتركته ينعي حبًا ظنه أقوى من الطموح ليفاجأ به ينهار بأول اختبار..

مرت سنة وأخرى وهو غارق بأعمال العائلة.. نسى أمور القلب.. وتجاهل ندائه.. ظن أنه مات وتحجر.. ليكتشف فقط أنه كان بغفوة مؤقتة.. غفوة أيقظته منها سيرين.. الأنثى كما ينبغي أن تكون.. أنثى رآها وقتها كاملة.. تستحق دقاته التي تسارعت لأجلها.. وأنفاسه التي لهثت بإثرها..

موظفة مبتدئة بشركة العائلة.. بدت بسيطة.. بريئة رغم فتنتها... غافلة عن أثرها بنفوس الرجال.. شحذت شهامته لحمايتها وسلبت عواطفه بأنوثتها.. فسقط كالأبله..

عشق.. ومنح.. وأهدى.. وأخيراً عرض الزواج.. ليُصدم.. بقنبلة صراحتها.. هي ظننت لفترة أنها تهواه.. ولكنها اكتشفت عشقها لغيره.. اعتذرت بتلاعب عن عرض الزواج وطلبت استمرار الصداقة... وبكبرياء جريحة وافق.. فلن يمنحها الظن بأنه قُهِر في عشقه لها.. لن يجعلها تظن أنه الأضعف..

وتصدمه الحقيقة أخيراً.. حقيقة مريرة.. مشوهة كإدعائها بحبه سابقًا وصداقته تاليًا.. فاللعوب كانت تستخدمه لتثير غيرة معشوقها.. لتصل لحبيبها عن طريقه.. فقد كان مجرد معبراً وسيم الملامح.. لآخر..

هو نديم..

الغريم الدائم.. والمعشوق المجهول..

وعندما أدرك الحقيقة.. ثار.. غضب.. ثورة كبرياء.. وجرح كرامة..

وقبل أن يفتك بنديم.. فوجئ بالفاتنة ترحل باكية.. تختفي وقد فشلت في نيل حبيبها.. خذلها المعشوق رافضًا عشقًا ملوثًا بالخيانة.. وفضل زوجته.. وآثار لحب غارب..



واكتسب نديم نقطة ضده بحرب خيالية.. فالرجل أثبت إخلاصه لزوجته حتى لو كان زواجًا هشَ الأسس.. إلا أنه رفض إهانة المرأة التي منحها اسمه.. ومن قبلها قلبه..

وصمت عادل.. ابتلع الغصة بغضب لم يستطع التنفيس عنه.. أقفل جرحه.. ولم يبحث عن ترياق.. فقط.. عاد لسيرته الأولى.. العمل وفقط.. والمزيد من العمل..

ولم يكن القدر رحيمًا به.. وكأن الهوى يتفنن بمنحه المزيد من الوجع.. وخيبة أمل جديدة.. بدأت بعودة غير متوقعة للحب الأول.. وغرام الصبا..

عادت مروة أكثر قوة.. وأروع جمالًا.. عادت بعواطف لاهبة.. تعتذر عن بُعد غير مقصود.. وتفتح الطريق لإعادة جسور العشق..

وخطبة سريعة بحفل بسيط.. أعقبها لقاءات متعددة.. وعودة العاشقين لسابق عهد الهوى.. وتأكد عادل أن سيرين كانت مجرد نزوة رجل بامرأة فاتنة.. فمالكة القلب استردته بأيام بسيطة وكأنه لم يفارق جوانحها يومًا..

حددا موعد الزفاف.. وتعجله هو أكثر وأكثر.. ليفاجأ بها تؤكد على وعده القديم.. سماحه لها باستكمال دراساتها العليا.. بل صدمته بكلماتها أنها ستتنازل وترضخ له وتكمل دراسة داخل مصر.. ستقبل الوظيفة التي



عُرِضت عليها قبل الزفاف بأيام بإحدى الجامعات الخاصة.. ولم تكن تلك الجامعة بالمنصورة، بل القاهرة..

فوجئ.. بل صدم.. لقد ظن أنها اكتفت.. أشبعت نهمها الأحمق نحو إثبات الذات وعادت لتنال العشق.. ولكنها فاجأته بإعادة فعلته القديمة.. فكما خيرها يومًا بينه وبين دراستها..

ألقت بوجهه بخيار مخزٍ.. إما هي أو حياته المحدودة بمدينته وأعمال عائلته.. فالفرصة متاحة له ليرافقها للعاصمة ويوسع من أعماله..

ولم تنتظر خياره.. لم تمنحه حتى رفاهية التفكير.. قبلت الوظيفة وأنهت الخطبة..

وسافرت لعملها.. وتركته..

تركته ينعي سذاجته وغبائه.. تركته يظن أنه خذلها بتفضيل عائلته عليها.. عاش بندمه لشهر كامل..

شهر واحد مر على انفصالهما ليصدمه خبر زواجها بأحد أساتذتها والذي يملك من العمر أكثر من ضعفي عمرها..

لحظتها قرر إسقاط الحب وتعقيداته من كل حياته.. وانصب تفكيره على عمله.. توسع به.. طوره.. وصل باسمه كرجل أعمال ناجح خارج حدود

محافظته.. وصل للعاصمة.. وتعداها لخارج القطر.. أثبت نجاحه.. وحصد ثمار عرقه..

وعندما ظن أنه حصين.. أنه بارع مراوغ.. أسقط فاتنته الجديدة بحبائل عشقه.. سيطر على قلبها.. وإرثها.. منع إغوائها من الوصول لشقيقه.. ونجحت خطة العشق المرسومة بدقة..

اقترن بالفاتنة التي تزلزل رجولته.. تثير رغبته بها بكل لحظة ولمحة منها.. فوجئ بأن الأحمق مازال يعيث حمقًا.. ومن ظنها هوت بفخه كانت بالحقيقة تنسج حوله خيوط فتنتها ليمنحها الاسم.. الستر.. وورقة زواج تخفي بها عهرها..

هاجس ضعيف بداخله ينادي ببرائتها.. هاجس أخرسه على الفور.. فلو كانت بريئة لمَ صمتت؟.. لمَ قبلت؟.. لمَ خضعت؟..

عاد الهاجس يخاطبه بلطف.. يطالبه بيقين.. بإثبات حقيقي.. فيصرخ شيطان كبريائه..

هو لن يخاطر باسمه وسمعته أمام طبيب يسأله بخزى إذا كانت امرأته.. فاضلة أم عاهرة!..

صمتها دليل.. خضوعها إثبات.. قبولها لكلماته ختم بحبر لا يمحى على فسقها وعهرها..

فقط لو يعلم شريكها!.. من سبقه إليها!..

يعلم كذب اتهامه لنديم.. فالرجل عاشق لها.. هو يدرك تلك الحقيقة.. ولكنه وللعجب يثق به.. بنزاهته وشرفه.. ويعلم أنه لن يفعلها..

لو أراد نديم نيلها لتقدم مطالبًا بها بنزاهة وفي وضح النهار..

ابتسم بمرارة خاسر..

فبالنهاية...

هو يثق بغريمه أكثر مما يثق بزوجته.. ويالها من معادلة لا حل لها..

***

هل يكون ضعف الجسد مصاحباً لضعف الروح!..

وهل الضعف البشري جسديًا كان أو روحيًا مبرر لضعف الإيمان!!..

كلا.. كلا وألف كلا.. كان هذا لسان حال سمية وهي تصارع كابوسًا ظنت أنها تخلصت منه.. أو على الأقل نجت بنفسها.. حتى لو كانت محطمة كسيرة.. مسلوبة الإرادة.. لكنها أبدًا لم ولن تخضع لشيطان زوجها أو هاجسه المخزي..



ترى نفسها بثوب نوم مغري.. أحضره لها سعد عصر ذلك اليوم بعد انتقالهما للأسكندرية بعدة أسابيع.. وارتدته خجلة من مظهرها الغريب.. تباطئت في الخروج من غرفتها لا تدري ماذا يدور بعقله من جنون!..

فهما منذ وصولهما للأسكندرية وهو لم يمرر يومًا بدون احتساء الخمر.. رغم صراخها وغضبها عليه.. رغم تحذيرها وتهديدها له بإخباروالده إلا أنه لم يرتدع.. ولكن اليوم بخلاف سائر الأيام.. كان يقظًا.. لم يقرب زجاجته الأثيرة.. ولم يغب وعيه وعقله بأوهام الشراب..

صوته المُلح دفعها للخروج من حماية غرفتها، نظراتها للأسفل وذراعيها تلتف حول جسدها تخفي عُريها عن نظراته المشتعلة والتي تنقلت على جسدها وأنوثتها بنهم..

اقترب منها يحتضنها بعنف كعادته.. وهي لم تمنعه، فهي زوجته بالنهاية.. استسلمت لمعاملته الخشنة بصمت.. تنتظر النهاية المنتظرة والمتوقعة من كل محاولة فاشلة منه لإثبات رجولته..

محاولة تنتهي عادة بإخفاق ذكورته وتأجج غضبه.. وجنونه.. وخيالاته المريضة بأنها زوجة غبية فاشلة لا تعلم كيف تثير شهوة زوجها..

انتظرت إهاناته المتتالية.. والتي يعقبها عدة صفعات وركلات مجنونة تنتهي بها طريحة فراشها تتنازع آلامها عوضًا عن متعتها.. ولكن تلك المرة

كان مختلفًا.. لم يسب.. لم يصرخ.. لم يهنها بكلماته المبتذلة فقط وصلتها كلماته الهامسة..

حل قميء ومقزز توصل له عقله الملتوي لينهي حاجز عذريتها فتصبح امرأة بفعلة حقيرة لا يرضى عنها شرع ولا دين..

كلماته صدمتها.. وانتفض جسدها رافضًا.. دفعته بعنف رافض.. وهمست بكلمة واحدة..

"لا"..

قوة رفضها أشعلت مراجل غضبه.. فتحولت الرغبة بنظراته المشتعلة لغضب طالها جموحه كالعادة وهو يهوي على وجهها بصفعة ألقتها أرضًا ويصرخ بأحقية لا يملكها سواه..

فهو الزوج..

ولكنها تعاود رفضها.. هي لن تسلم نفسها بتلك الطريقة البدائية.. لن تخضع له ولهمجيته وقلة ثقته بنفسه..

تكرار رفضها أفقده سيطرته.. فانهالت الصفعات والركلات بلا حساب.. بلا وعي.. ومحاولة همجية لإخضاعها بالقوة.. أفلتت منها بمعجزة.. لتندفع هاربة من بين يديه لا ترى لها مخرجًا.. ولا سبيلاً للفرار من جنونه.. وحقارته.. فلم تدرِ بنفسها إلا وهي خارج شقتهما وعيناه تلاحقها بجنون..

فخروجها بتلك الهيئة المشعثة الجريحة والمكدومة والشبه عارية تعني فضيحة!!..

كارثة شلت تفكيره فلم يدرِ بنفسه إلا وهو يصفعها مرة أخرى وأخرى.. وثالثة وهي تتراجع مرتعبة من نظرته التي اشتعلت بتوحش قبل أن يرفعها فجأة ويلقي بها على درجات السلم..

همسة متوجعة منها أيقظت حمزة من غفوة خفيفة سمح لنفسه بها.. فهو يرافقها منذ ليلتين.. ينتظر تمام شفائها حتى يطمئن.. حتى يصل للحقيقة.. لم يصدق همسها المبحوح لضابط الشرطة حول لص ملثم هاجمها بغتة بعدما تركت باب شقتها مفتوحًا لتصعد أعلى المنزل حاملة سجادتها المغسولة.. ولم يقتنع بروايتها أنها لا تتذكر تفاصيل واضحة لما حدث..

حتى كلمات عبد الرحمن التي أيدت واقع غياب تلك التفاصيل تأثراً بنقص الأكسجين ورهبة الصدمة..

هو فقط لم يصدق..

حتى إجابتها على سؤال لم يستطع كبحه.. عن تفاصيل أرادها عن ضرب سعد لها وعنفه معها.. كانت إجابة مبهمة.. كلمات بسيطة بصوتها الهامس المجروح..

"اللي حصل ده قبل ما تتجوزني.. وانتهى"

كلماتها أصابته بجنون.. هي تخبره بما يعرفه بالفعل.. يعلم أنها كانت زوجة لشقيقه.. وتأكد أنها كانت تتعرض لضرب مبرح.. وبالتأكيد ذلك انتهى.. فسعد مات.. مات وتركها معلقة بعنقه.. ليسترد حقها..

ممن!!..

لا يعلم.. ولكنه يدرك جيداً.. أنها صاحبة حق..

غضبه لحظتها كاد أن يسبب رعبها ثانية فالتزم الصمت.. تنازل بصفة مؤقتة عن معرفة الحقيقة.. فقط حتى تستعيد عافيتها..

عادت همستها تتردد ثانية.. وتلك المرة كات واضحة.. كانت تهمس باسم شقيقه.. والهمسة أصابته بغيظ لم يبحث عن سببه!.. بل تحرك ليقترب منها.. فتعاود الهمس.. كلا.. ليس همسًا، بل توسلًا مذعوراً.. تناشده الرحمة.. تطلب المساعدة والإنقاذ..

التصق بفراشها يحاول إيقاظها من ذلك الكابوس.. ولكنها كانت غارقة بتفاصيله.. عيناها المغلقتان تتحركان بجنون.. وهو عاجز عن إخراجها من تفاصيل مميتة تراها تتكرر بكابوسها..

فسعد يلقي بجسدها الضعيف على درجات السلم.. وهي تشعر بجسدها يتدحرج مرة تلو الأخرى وعظامها تهشم بفعل ارتطامها بالدرجات الحجرية.. نظراتها المتوسلة تلتقي بجنون نظراته وهو يتأمل سقوطها

المتدرج بنشوى.. نشوى نظراته تمثلت لها بنظرات شقيقها وهو يسلبها أنفاسها..

نفس الجنون.. ونفس المتعة المنحرفة قرأتها بعيني شقيقها وهو يتعمد الضغط على عنقها بعنف وهوس..

همستها التي تحولت لصرخة مشروخة..

"إيهاب.. لا.. ما تأذينيش.. لا"..

واصطدمت نظرتها المرتعبة.. بنظرة حمزة المصدومة..

وصرختها تفضح ما كانت تخفيه عنه وعن الجميع!!..

***

الضعف ينبع من أعماق النفس.. فيلتف حولها ويتحكم بها.. يخضعها للرغبات والأهواء.. يجرها نحو إرضاء شهوة أو قضاء غريزة تحت غطاء مشاعر كاذبة، مبهمة ومتناقضة.

حينها.. تنسب كل خطيئة لضعف بشري آثم..

ألقت أمنية برأسها على وسادتها.. تحتضن هاتفها بعدما أنهت مكالمتها اليومية.. مع خاطبها.. أو بمعنى أوضح زوجها.. يبثها غرامه كالمعتاد.. يمنحها

راحة ومواساة هي بأشد الحاجة لهما.. يطمئنها أن شقيقتها ستنجو.. وأن الأمور بخير..

كل الأمور بخير..

وهي لا تعلم كيف أصبحت الأمور بخير.. فشقيقتها مازالت بالمشفى.. وتحريات الشرطة لم تصل لجانٍ محدد.. والأدهى أن إيهاب مختفٍ!..

لم تستطع الوصول إليه وإخباره بما حدث.. هي تحتاجه بشدة.. تحتاج نصفها الآخر.. ستطمئن أن الأمور بخير فقط عندما يخبرها هو بذلك.. فحيرتها وضياعها يمزقانها.. وإحساس بالذنب لم تعرفه من قبل يوقظها من غفلتها بقوة.. غفلة عن رابطة إخوة تجاهلتها لسنوات..

أغمضت عينيها تحاول النوم لتعاودها أحداث اليومين السابقين.. لحظة مواجهتها موت شقيقتها.. لحظة شعورها بوحدة رهيبة..

إحساس اليتم يعاودها ثانية وكأنها عادت طفلة صغيرة فقدت أهلها..

تنقلت نظراتها تتأمل الجميع؛ خالتها تدعو وتبتهل وزوجها الحاج سلامة يواسيها بهمس، ريم التي تنتفض بهلع بين ذراعي زوجها، وآية تبكي بأعماقها وعمرو يركع أمامها يحاول احتواء آلامها.. وهي وحيدة.. تماماً.. عاجزة عن الوصول لتوأمها.. وتحترق لسماع صوت سمية.. فحتى وإن كانت تجافيها



وتناصبها العداء.. إلا أن صوتها فقط كان كفيل بمنحها الاطمئنان وإن لم تعترف أو حتى تفكر في بداهة شعورها نحو شقيقتها الكبرى..

وأخيراً لمحت أسامة بطرف الرواق فتحركت ببطء تقابل خطواته الراكضة بعد أن هاتفته وهي تخبره بضياع أن شقيقتها تواجه الموت..

التقت نظراتها بأسامة الذي تلقف كفيها الحائرتين.. يضغطهما بمؤازرة واضحة.. ويحاول بث الطمأنينة بنظراتها الضائعة.. وعينيها اللتين تحبسان دمعات هي لا تفهم سببها..

بل هي لا تفهم نفسها.. أليس ذلك الرجل الملهوف والموجوع على حياة شقيقتها هو من بنت حوله آمالها، بل أوهامها!..

أليس هو من ظنت أن عشقه ملك الفؤاد وختم عليه بالأبدية!..

فأين وجع القلب الأول؟.. أين صدمتها لتحول اهتمامه؟.. لمَ تبحث عن المواساة بين أحضان غيره!..

ويا ليتها مواساة لجرحها منه، بل هي تحتاج من يواسيها ويطمئنها على شقيقتها!..

هي لم ترد موتها..



حتى وإن تلفظت بتلك الكلمات بلحظة حقد أسود إلا أنها لم تظن لحظة أنها قد تتحقق..

هي ليست مثالية ولن تدعي حبًا جارفًا لشقيقتها.. ولكنها شقيقتها.. سندها التي ارتكزت على وجودها كل حياتها فتحولت لإحدى المسلمات اللامرئية.. قد تغضب منها، بل تمنت اختفائها لا تنكر.. ولكن لتختفِ وهي على قيد الحياة.. لمست قوة رابطة أخوية بينهما طالما تجاهلتها!..

هل اكتشفت فجأة أهمية سمية بحياتها بلحظة مواجهتها احتمالية فقدانها!..

ارتعدت كفاها بين يدي أسامة وذكرى رؤية سمية، بل جسد سمية الفاقد لمعالم الحياة تصدمها بقوة وجعتها.. لحظتها لم تتخيل فكرة أن شقيقتها قد تذهب للأبد.. تختفي ولا تعود مرة أخرى..

هي لم تسامحها بعد على ارتباطها بحمزة.. ولن تسامحها بيوم..

ولكنها لا ترغب بموتها.. تلك الأمنية البعيدة التي أطلقتها مرة.. لم تكن تعنيها.. يا الله هي بالقطع لم تعنِها..

ربما أرادت إيلام سمية.. أذيتها..



ولكن ليس موتها.. هي لن تموت.. سمية قوية.. لطالما كانت قوية برغم ضعفها الخارجي.. إلا أنها قوية.. لقد تحملت سعد وعاشت بكنفه.. تحملت قسوتها وجحود ايهاب..

يا إلهي.. هل مواجهة موت عزيز تجلي البصيرة لتلك الدرجة!.. لحظة الفقدان الأولى تكون صادمة بقوة زلزال بعشر درجات على مقياس ريختر..

جاورت أسامة بصمت واستسلام وهي تائهة بمتاهة جلد الذات.. واكتشاف وهم الحب الأول.. إدراك أن حياتها السابقة كانت مجرد حلقات متداخلة شكلت متاهة غامضة.. وهي عاجزة عن فك شفراتها..

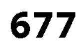
مرت ساعات.. اطمئنت بعدها على حياة شقيقتها.. لتنتابها نوبة بكاء غير مفهومة.. فاصطحبها أسامة خارج المشفى وهو يطمئنها..

"هنشرب ليمون أو أي حاجة تهدي أعصابك وهرجعك تاني"..

لم تجبه وهي غارقة بحيرتها تركن برأسها على نافذة السيارة التي لم تشعر بتوقفها حتى أنها لم تدرِ بنفسها وهي تسير بصحبة أسامة.. تجاوره بمصعد لإحدى البنايات الفاخرة..

لم تفق لنفسها إلا وهو يغلق باب شقة عقب دخولهما.. فانتفضت بقوة وكأنها خرجت للتو من حلم غامض...

"إحنا فين؟"



جذب يدها بخفة يحثها على السير بجواره.. وهو يخبرها ببساطة..

"شقتنا يا حبيبتي.. يمكن أما تشوفي بيتك نفسيتك تتحسن"..

هزت رأسها برفض.. فاقترب بصمت يمنحها قبلة مطمئنة على جبهتها.. وهو يخبرها بحنان..

"ما حبيتش حد يشوف دموعك.. ما تخافيش كده.. أنتِ حبيبتي يا موني.. احكي لي في إيه؟.. الدكتور طمنا على سمية.. ليه الدموع والانهيار ده!"..

ارتجف جسدها بشهقات بكاء مكتومة وهي عاجزة عن إخباره بشيء.. عن التصريح بسبب بكائها.. عن الذنب الذي ينهشها بأنياب مسعورة.. ضميرها الذي يخبرها بقوة أن تتوقف عن خداع ذاتها فهي من تمنت مرة موت شقيقتها.. وإن كان هناك جانيًا فعليًا انطبقت أنامله على عنق شقيقتها.. فهي الجانية الحقيقية بتمنيها موتها.. حتى لو كانت لحظة حقد أسود..

كان بقلبها ما يبرر لها وقتها.. كيف تخبره أنها تمنت موت شقيقتها لتنال زوجها على طبق من فضة!.. كيف تخبر زوجها الحالي برغبتها السابقة بزوج شقيقتها... حتى لو كان حبيبها وقتها!!

ازداد بكاؤها.. وهي تلتزم الصمت.. وتتهالك بجسد مرهق جوار أحد الأركان تخفي وجهها عنه كأنها تخفي جريمتها بحق شقيقتها، بل بحق انسانيتها..

ضمها أسامة برفق يربت على ظهرها مهدئاً.. وعقله يخيل له أنها تنهار خوفاً على حياة شقيقتها.. فهمس لها يطمئنها.. يحاول استجماع معلوماته الطبية ليمنحها راحة أدرك أنها تحتاجها..

وهي تستمع له.. وتبكي.. ويعاود الهمس..

"كفاية عياط"..

وكأنه يخبرها أن تكثف من البكاء فتزداد الدموع.. ويكرر التوسل..

"دموعك غالية يا أمنية"..

فتفقد قدرتها على التحكم بدموعها أكثر..

يقربها.. يمسح دموعها بشفتيه.. يخبرها بحنان أنه موجود.. يطمئنها.. يواسيها.. يقبلها.. عيناها.. وجنتاها.. شفتاها.. يغيب معها وتضيع به.. يزداد اقتراباً.. وتقل السيطرة..

فتتجرأ يداه..

والجرأة تؤجج رغبة لم يحسب حسابها..

وهي بالأصل مستسلمة عاجزة عن المقاومة.. وهو فقد السيطرة..

وصدقت كلماته..



دموعها غالية.. ولكنها ليست أغلى من شرف استباحه برعونة تحت ظل كلمة كان يرددها بكل خطوة نحو السقوط..

"مراتي"..

وسقطت بهوة الرغبة في لحظة ضعف.. وأصبحت بالفعل..

امرأته السرية.. قبل أن تصبح زوجته العلنية..

الفصل العشرون

اختلاق المبررات صفة بشرية خالصة.. صفة لا يمتلكها سواهم حينما يقررون، يختارون، يستمرون أو حتى يمررون الأخطاء، عقولهم تبلورها لتلائم الموقف وقت الحاجة، فيعبرون من ثقب إبرة، ويقفزون فوق حواجز.. "خانة اليك".

صفة يجيدها البعض بشكل منمق أنيق، حد الإقناع وربما حد الإحساس بالذنب.. نبرر لنريح ضمائرنا، وإن لم تسترح نسوغ لنخرسها ونمضي.. نبرر لشياطين النفوس ونتغاضى عن إثم شراكة في جُرم.. نبرر للألم وكأننا نبحث عما يوجعنا.. نبرر ونكون على حق أو مخطئين، في الختام.. نحن نجيد اللعبة، أو بعضنا على الأقل؛ إجادة تامة..

وهي إن بررت له امتناعها عن الحصول على حقها فهو سيبرر لها ولضميره ورجولته ونخوته بأن الوصول للحق قد يحدث من طرق عدة.. سيسلك هو أحدها وبكل قسوة ممكنة!

بهدوئها وبساطتها تثير فيه الكثير.. وبعنادها وحبها لمن حولها حد جلد الذات والتغاضي عن الألم تثير ما هو أكثر.. لا، بل تثير الجنون!..

ضغط دواسة الوقود وعيناه تدوران فيما حوله بتدقيق بحثًا عن عنوان ما حصل عليه بشق نفس، يتذكر إفاقتها، صرختها، رعبها والذعر الذي رسم خطوطه بسفور فوق ملامحها.. ونطقتها بهلع قدرما صدمه وألجم لسانه، قدرما رفض تصديقه فهو تخطى حدود ما يمكن أن يتقبله:

"إيهاب.. لا.. ما تأذينيش.. لا"

وعندما تلاقت عيناها بنظراته التي تحولت في لحظة للغضب تراجعت بذعر أكبر، وهاجم هو.. يبحث، يسأل وتمانع وتأبى وتعاند:

"إيهاب اللي عمل فيكِ كده؟!"

وهزت رأسها بنفي.. وحركت مقلتيها برفض، ورفعت يديها في وضع حماية.. لكنه عاد يهاجم، ويأخذ دور المحقق الذي لا يهتم سوى للحقيقة، كرر السؤال، أعاده وزاد فيه.. وظلت هي على ثبات أقوالها فيما نُسِب إلى أخيها..

تقاوم هجومه في حرب شنَّها ليعرف ما خفي عليه، وتأخذ من الدفاع مسلكًا لا تجيد سواه، وفي النهاية أثاركل الخوف الكامن في نفسها بقرار:

"هابلغ عنه.. وأسيب التحقيق ياخد مجراه يا سمية"



وهنا انتفضت المحاربة، انتفضت بانكسار، بهوان، بقلق.. وشيء من قوة دافعها حب لمن لا يستحق وحماية لمن من المفترض أن يكون هو الحامي والمدافع:

"لا يا حمزة.. أنا ما بلغتش عن سعد رغم كل اللي عمله"

ونال من عينيها نظرة متهمة لائمة أضعفته:

"ما بلغتش عن أخوك؛ تفتكر هابلغ عن أخويا؟!"

وأقفل المحضر والفاعل سيظل مجهولًا، والحكم قضاه هو في جلسة لم يحضرها المتهم وتولى المجني عليه مهمة محامي الدفاع!.. حُكمًا انتوى تنفيذه كجلاد، ودون الرجوع إليها..

وصل للعنوان المنشود، ترجل من السيارة يتطلع للمبنى الأنيق، رمق ورقة في يده تحمل رقم إحدى شققه وتوجه إليه بخطى ثابتة..

في طابقه السابع، وأمام الباب الذي يحمل الرقم المطلوب توقف.. ملأ صدره بالهواء، فكر لثوان، وقرر.. عقد العزم، فإن كانت هي تنازلت عن حقها كما هي عادتها، فهو لن يتنازل.. ولأجلها..

قالها مسبقًا:

"حقك عندي"



وعندما انتوى أن يكون هو أداة تنفيذ عدالتها الخاصة، لم يفكر أن يرجع إليها في قراراته التي ستوهنها بطيبة قلب وتضحية لم تمر عليه من قبل!

طرق الباب بقوة، عندما انفتح قابلته عينان قلقتان لفتى يماثل عمر شقيقها تقريبًا، ضعيف البنية بخصلات سوداء مجعدة ونظرات متوترة.. إذًا هو في المكان الصحيح!.. هذا الشاب يخفي شيئًا..

دون تردد أزاحه من طريقه بفظاظة ودلف للمكان وقبل أن يسأل وجد الآخر مسترخيًا في جلسته على أريكة مقابلة ينفث تبغه بشراهة..

الآخر الذي أجفل في موضعه عندما وقعت عيناه عليه فاستقام منتفضًا من مكانه قبل أن يلتفت "حمزة" للفتى خلفه، يدفعه بغلظة خارج الشقة مبررًا بحدة:

- معلش.. عاوز ابن خالتي في كلمتين.

وأغلق الباب من ورائه بإحكام، والمرتعد بتوجس يناظره ويقيس قوته كأنما أدرك بحدسه أن معركة ما على وشك البدء.. ودون مقدمات انقض "حمزة" عليه..

توالت اللكمات، والأنين، والضربات الموجعة.. الركلات والسقطات حد تحطم المكان، وبين كل لكمة وأخرى كان يصرخ به:

"أختك يا حقير!"



"أنا مش مصدق"

"أنت اللي اتربيت معايا وكنت أخويا الصغير؟!"

"قسمًا بالله لأربيك من تاني وجديد يا ابن خالتي"

والمتبجح لا يصمت، المتبجح أيضًا له نصيب من قوة ومرونة جسدية لا يستهان بها.. فهو رياضي وبطل في جامعته.. يصد اللكمة ويردها بأخرى أكثر عنفًا، ويصيب الزوج ولا يهتم لقدر الدماء أو الألم.. بل يعاند ويسخر ويستهجن ويثير المزيد من غضبه بحدة لسانه:

"لحقت تقولك!"

"خلاص ما أنتوا بقيتوا سمن على عسل"

"أنا متربي.. ومالكش حكم عليَّ"

"أمنية ربنا رحمها من واحد زيك.. الحريم بتمشيه بكلمة"

وبعدها حصل على ما يستحق، لكمة قوية أصابت فكه من قبضة "حمزة" الساخطة.. لكمة أسقطته أرضًا وصدمت رأسه بطاولة جانبية فأدخلته في حالة بين الوعي واللاوعي..



اعتدل "حمزة" في وقفته، يئن من ضربة أصابت صدره، ويزيل الدماء عن وجهه، يلهث بعنف ورئتيه توجعانه، رمقه بشموخ، وألقى إليه بالقرار والملقى أسفل قدميه يناظره بضعف مشتت:

- أي حد يتعرض لسمية بعد كده يا ابن خالتي؛ أنا اللي هاقف له.. فاهم!

ومال بجسده رغم الأنين، يتملك من ياقته ويناظرعينيه ببأس:

- أي حد!

ألقى بالكلمة دون توضيح، هو يعمم والرسالة وصلت.. نفضه من يده وجذب محرمة ورقية من علبة وجدها على الأرض بعد المعركة الطاحنة، مسح وجهه وغادر..

نعم.. إن كانت هي تبرر الصفح، فهو لديه كل مبرر للعقاب!

***

أحيانًا نبرر لنخرس الضمير.. وإن كانت المبررات واهية لا توازي الثمن المدفوع فيها، نبرر لنرتاح ونتناسى مَن أذقناه مرارالألم فقط لنهيل على ضمائرنا تراب الصمت والخضوع ونلبس مبرراتنا ثوب المسئولية وحق اتخاذ القرارلأجل من نحب دون اعتبارأو مبالاة بمن اندهس أسفل خطوات اختيارنا..

وكم من مرات أسكت ضميره معنفًا.. مترجيًا، وأخرى متجاهلًا!

كم من مرة أمره بالإذعان لقراره لأنه يدرك ما هو الأصح لولده الأصغر، وربما لفتاة.. كانت معشوقته، وكل حياته!

كم من مرة استغل ضعفها، يتمها، وحدتها في دنيا هو سندها فيها، ليجبرها على الاستمرار مع زوجٍ قاسٍ عنيف.. وقسوته وعنفه هما الوجه المقابل لعجزه!

حرمها حقها في الحياة.. والمبرر عشق!

حرمها حرية الاختيار.. والمبرر قلب ابن!

حرمها الثأر لكرامتها ولو بفراق.. والمبرر ابنة أصول وزوج نادم!

حرمها سعادتها.. والمبرر سعادة ولده!

كانت هي الضحية والثمن البخس، وكان هو الغاية التي تهون لأجلها كل الوسائل حتى لو كانت فتاة أجبرها يتمها وضعفها على الاستكانة في كنفه!

حرمها الكثير، والمقابل لا شيء.. وإن كان التعويض بابن آخر مبررًا جديدًا يكمم به ضميره؛ فهو أيضًا وسيلة ستر على عجز الأول، ستر على جرائمه، ستر على قسوته وخباله وجوره على حقها.



ويعود لنفسه التي تشجب ما حدث ويحدث.. أنت ظلمتها، بتحد وقوة وقسوة في مواجهته، ويدافع بوهن لا يملك غيره..

كان يعشقها..

كانت هي مصدر سعادته..

ويعود الضمير يظهر من غيبوبة مؤقتة.. وأنت اشتريت سعادته ودهستها هي، دهست كرامتها، أنوثتها، إنسانيتها، وحتى جسدها لم يسلم من مطحنة مبررها الوحيد..

"سعادة سعد العاجز"!

"سعد" الذي لا يستحق قسوة بعد عجزه!..

"سعد" الذي قد يموت دونها!..

"سعد" الذي يقسو ويعتذر ويراضي، ويقسو ويقتل ويذبح ويعود فيعتذر، ثم يهين ويؤذي ويداوي!

دوامة من ألم، ألقيتها بيدك في مركزها، وتركت سطوة دوائرها تضيعها دون دليل.

زفر وقلبه يوجعه.. يتذكر أنه حاول في مرة اتخاذ القرار الصائب.. بعد ذلك اليوم الذي أسقطها فيه من فوق الدرج.. بل حملها وألقاها كدمية رخيصة

منتهية الصلاحية ليحطم عظامها ومعها روحها.. هدده أنه سيحرمه منها، والابن بكى وترجى وناشد واستجدى.. وعاد الأب يصمت ويحنو ويرمي بحل.. علاج!

وكطوق نجاة مهلهل لا فائدة منه تمسك به الزوج الضائع بعدما رفضه مرارًا من قبل، لكنه تركه بعد حين وهو يعود لضياعه وسط خمره وفشله.. علاجًا لم يأتِ بنتيجة، فهو لم يلتزم، والنهاية عجز دائم.. كانت هي ضحيته كما في كل مرة، حتى رحمها الله منه؛ بموته!

"بتكلمني عن حدود ربنا وكنت سايب ابنك يكسر عضمها؟!"

كانت الجملة تقتحم مسامعه قبل حتى أن يكتمل انفتاح الباب العنيف، جملة ثائرة يسيل منها الغضب بل يفيض حد إغراق الأرض ومن عليها، سؤال موجوع لا مبرر له هذه المرة مهما حدث ومهما ادعى.. فالأوراق كلها انكشفت وباتت ظاهرة على طاولة بينه وبين ابنه الذي يعلمه عن يقين:

- جوزتها لي عشان أداري عليه!

وكان يزأر كنمر جريح، وجهه ملطخ ببقع دماء جافة وقميصه ممزق، بينما قبضته مضمومة تلكم الهواء بعجز:

- أجيب لها حقها منه إزاي؟!



جنون.. ما يشعر به ويملأ كيانه جنون!.. غضب جامح غير مروض أو قابل للترويض.. وللأسف فالبرية لا تسعه لأن الهدف غادر دنياه لجحيم الآخرة مخلدًا فيه:

- أرد لها كل لحظة قضيتها في خوف ورعب منه إزاي؟!

ويدور حول نفسه بفقدان سيطرة، تبًا له.. تبًا للجميع!

عاجز هو، فالموت انتزع منه واجبه تجاهها، بل تبًا لمن رحل وتركه هو يلملم بقهر وهوان أذيال جريمته، يلملمها وللأسف فالجرح عميق، والنفس مهزوزة والروح محطمة كسيرة وانتهى!

"إيه اللي عمل فيك كده!"

والأب يتجاهل كل شيء ويروعه مشهد ابنه ووجهه المدمم المكدوم!

نظر إليه بعينين ثائرتين كأنما أصابته لوثة.. هز رأسه لا يجد جوابًا!.. هل هذا هو الرد المنتظر!

"اللي عمل فيَّ كده.. ظلمك يا حاج"

نطقها بكل قسوة تملكها نبرته، بغلظة اعتلت صوته فالحقيقة لا ينبغي تزيينها، والواقع لن تجمله كلمات.. ومن نظرة أبيه المنكسرة وانحناءة رأسه



بعض الشيء علم أنه أصاب الهدف، وأتاه الجواب الضعيف بتردد وبتبرير تجاوز حدود المنطق:

- كان بيعشقها.

توسعت عيناه في مواجهة عيني أبيه اللتين ارتفعتا إليها بنظرة متخاذلة ويداه المستسلمتين بدافع جديد:

- متعلق بيها.

انعقد حاجبي الزوج الهائج بجنونه الخاص والأب يكمل:

- بيقول لي: أموت من غيرها!

وامتلأت النظرة بخجل جوار ضعف وهو يكرر ويعيد كأنما يقنع نفسه وضميره الذي يأبى الصمت في ذلك الوقت:

- كان بيعشقها.

لم يدرِ ما كان ذاك الشعور الحاد الذي مر عبر صدره!..

هو فقط يريد قتل أحدهم في هاته اللحظة، والمواجه له هو أبيه.. ود لو حطم الجدران، أحرق المكان.. هدمه على رأسه ورأس ساكنيه، تحرك بعنف يقلب طاولة تتوسط الغرفة بما عليها، يرمي بمزهرية ضخمة نحو الجدار فتتناثر لأشلاء، وليت وجعه يتناثر ويتبعثر مثلها فينمحي..

وقف يلهث ووالده ينظر إليه بذهول!

أخيرًا التفت إليه باتهام شرس:

- يموت من غيرها!.. عشان كده قررت إن هي اللي تموت معاه!

وكرر دورانه في المكان بلا هدف وعقله لا يجد مستقرًا:

- بيعشقها!..

وأشاح بذراعيه شاعرًا بالغباء!

عن أي عشق يتحدث وهو رأى ما رأى وسمع ما سمع!

- التكسير عشق!.. آثار الضرب حب!.. الإهانة تعلق؟!

والأب انتبه فسأل بمداراة كأنما هناك حقيقة خفية يريد الوصول إليها:

- أنت شفت الآثار دي؟

نظر إليه وعيناه تصرخان، هو يهرب ولا مفر من هرب.. فالانتقام غير متاح، والحق ضاع بموت المُقتَص منه.. والرد أتى غافلًا ساخرًا:

- أنت ما شوفتش تقارير المستشفى؟.. ابنك لو كان عايش كان هيترمي في السجن.

قالها بتأكيد قاسٍ، وفكر لحظة قبل أن يناظر أباه:

- هي.. هي إزاي كانت ساكتة على ده كله؟

- سمية بنت أصول.. ما رضيتش تبهدل جوزها.

- ما تقولش جوزها!

والأب يبرر.. والابن يزعق، وعنوان الصورة قد يكون غضب سابق، محمل بشبه غيرة حالية!

تفحصه والده، حاول سبر أغواره، نظراته، نبرته، اندفاعه.. وحتى وجهه المصاب، وعاد لنقطة البداية بقلق:

- حمزة.. إيه اللي حصل لوشك؟

وزفر يستجمع أنفاسه المشتتة الحائرة.. وأخيرًا يجيب السؤال علَّ الوالد يفهم الحال التي وصلوا إليها:

- كنت بأدب اللي عمل فيها كده.

تفرق جفنا الأب بانشداه حانق:

- هي تعرف اللي اتعدى عليها؟!

- اتعدى؟!.. اسمها حاول يقتلها يا حاج.. حاول يقتلها.

ويسخر ويندد ويضغط أحرف كلماته المكررة، ثم يكمل بقبضة مضمومة تشي بعجز آخر:

- كان يستحق القتل.. كل حاجة كانت بتقولي أقتله.

وتاهت عيناه دون دليل:

- اللي منعني كلمتها ليَّ: كسرتني..

وتألمت نبرته وإن ارتدت ستر الصلابة بقوة:

- وزي ما هي كانت بتسكت على جرايم أخويا: أنا مجبر أسكت عن جريمة أخوها.

- أخوها!!

صعقة مباغتة ضربت عقل الأب.. صعقة ملأت صوته بالغضب، وبإحساس الذنب!

- أيوة.. إيهاب الكلب.

بوجه يعانق الأرض خجلًا، قهرًا.. ونفس تزاحمت فيها مشاعر الثورة دون منفذ!

"هارميه في السجن"

وقرار عنتري آخر من الأب الذي لا ينظر لتبعات ما يقرره، من يخطو فوقه، من يؤلم أو يؤذي!.. نظر إليه بضعف شابهُ استهجان:

- ياريت.. بس يا ترى هتقدر تواجهها يا والدي؟!

وانتقلت النظرة العاجزة لعيني الأب، ونفسه وضميره يتواجهان ضده وضد مبررات عقيمة هي وحدها من دفعت ثمنها وربما ستظل تدفعه إلى الأبد.. خاصة بعدما عرفه ليلة أمس، ولأن الهروب مسبقًا لم ينتج عنه سوى الخسارة فقد قرر أن يداهم ابنه الآخر بما يخشاه ويفكر فيه:

- حمزة.

رفع رأسه إليه بملامح جامدة ونظرة فارغة.. كأنما استنفذ كامل طاقته بعد كل ما مر به:

- إخواتك وهما بينقلوا هدومكم لشقتك؛ لاحظوا إن كل واحد هدومه كانت في أوضة!

واقترب يربت على كتفه برفق، لا يدري هل يمتلك حق النصح، أم أنه أفقده لنفسه عقب كل شيء!:

- إذا أخوك جه عليها وظلمها؛ فأنت حارمها من حقوقها!

وكاد يقهقه ساخرًا، لايزال الحاج يبحث وراء الإرشاد وهو أضاع طريقه منذ البداية!.. أزاح يد والده بهدوء، زم شفتيه وفكر لثوان، وأتى الجواب من بين أسنانه التي تحبس صراخ غضب:

- لو على الحقوق يا حاج؛ فهي لها حقوق كتير.

وتوجه نحو باب الغرفة راحلًا محملًا بهَمْ لم يكن في الحسبان:

- ودي حاجة بيني وبينها هي وبس.

ونقطة فاصلة بتر بعدها كل حديث، وترك الوالد من ورائه: الذنب يتآكله، النفس تسلخه وتجلده بآثامه، والضمير يشعل فيه نيران عِظم الجُرم..

والمبرر.. لايزال حبًا!

هو أحب ولده، ولده أحبها.. فبصك حب غير موقع منها، كانت له حتى الموت!

وجوار تبريرات لا تسمن ولا تغني من جوع؛ وُلد قلق.. وُلد خوف، أيكون ابنه الأكبر مريضًا، عاجزًا.. مثل أخيه!

***

الجهل في الغالب نعمة.. كما أنه يصلح مبررًا لو دمجناه مع عشق معلوم!

هي كانت تجهل عنفه وقسوته، كل ما جال بخاطرها صفعة، دفعة، زعقة.. مشكلة يومية تمر بالكثيرين وتنتهي ربما بمصالحة أو هدية، أو حتى اعتذار.. وأمام جهلها كان حبه الواضح، معاملته المبجلة لشقيقتها، رقته معها في حضور الجميع.. والأمر تجاوز الرقة لعشق سافر يتقافز من عينيه..

وعندما جهرت المقهورة بعذابها، لعنتها مع توأمها وصبت فوق رأسها اتهامات الأنانية وإيثار الذات دونهما.. عندما صدحت العاجزة بضعفها وذلها، كذبتها وطالبتها بتضحية لم تكن هي لتقدم مثلها!

تنهدت بحيرة.. وخجل!

هل حقًا تلك المقولة التي طالما سمعتها وقرأتها حقيقية!

نحن لا ندرك قيمة ما نمتلك إلا عند فقدانه!

هي أوشكت على فقدان شقيقتها، تلك الشقيقة التي تخلت عنها وعن قربها واكتفت بأخيها ومنحتها هي الجفاء وقساوة القلب، شقيقة نعم تزوجت من كان يومًا حبيبًا لها، لكن هل حياتها تساوي فراقًا تمنته في لحظة، وعندما كاد يتحقق: امتلأت نفسها بالفزع وذنب الخطيئة و.. الخوف!

ببساطة أو ربما بمنطقية وعودة لفطرة الأخوة ورباط الدم هي لا تريد خسارة أختها، بل ترعبها الفكرة ومجرد مرورها ببالها يؤرقها ويشعرها ولو في ركن خفي من عقلها.. أنها السبب!

أبعدت رأسها عن الجدار المستندة إليه تطالع باب غرفتها المغلق بالمشفى، هو هناك.. يهتم بها، يراعيها، يدعمها ويساندها في وقت لم تملك سواه، لأنها وتوأمها تخليا عنها!



كانت تنتظر خروجه لتدخل إليها، تواجهها وبها تتناسى مشكلتها الخاصة، تتناسى الأيام الماضية التي هربت فيها من لقائه بعدما حدث بينهما.. تفر من خوفها، من ضعفها.. ومن غربة نفسها عندما سلمت بضعف ما لا تملك من الأساس، وهو إن كان مراعيًا مهتمًا؛ لايزال الهلع يسكنها، وشعور بإثم ما ارتكبته يثقل روحها!

انفتح الباب لينتزعها من أفكارها، وتلاقت الأعين.. رمقها بجمود شارد وفي نظرته سؤال مبهم متهم غير منطوق، وتلمست هي الأمل في صورة الراقدة على فراشها من خلفه.. تحرك بجملة وحيدة:

- ساعديها تجهز.. هنروح.

بخطوات بطيئة على استحياء تحركت نحوها، عندما نظرت إليها تردد اللسان وغرق في خجله، لكنها دفعته مع بسمة حانية ليبتهل في محراب عودتها:

- حمد الله على سلامتك.

ورغم دهشة طالت قلبها لكن سعادة بالقرب ناوشته.. تدرك هي غضب شقيقتها الصغرى السابق!.. تعلم عن وجعها عندما فقدت من تحب.. تتفهم ألمها عندما اقترنت بآخر كان مناسبًا وحسب، تقبلت العقاب وهي

ترى نفسها المذنبة الآثمة.. مررت القسوة والجفاء، ودعت لها بالراحة التي لم تنلها هي في يوم والآن أتتها بوجه حانٍ يخفي نظرة خجل!

- الله يسلمك يا أمنية.

اقتربت منها حتى جاورتها فوق الفراش، التمعت عيناها باهتمام وازى السؤال:

- عاملة إيه دلوقتِ؟

- الحمد لله.. أحسن.

ترددًا ما كسا ملامحها جعل عيني "سمية" تضيقان في ترقب، مدت "أمنية" يدها لتربت على كف أختها الساكنة فوق ساقها:

- أنا شفت تقارير الأشعات بتاعتك.

ولم تفهم "سمية" القصد!.. فأردفت هي بتوضيح شبه مذهول:

- أنا مش مصدقة اللي شفته!

وواجهتها بهزة رأس تائهة:

- إزاي!



ابتلعت "سمية" ريقها.. لقد بدأت تفهم، وتأبى الحديث فيما لا تطيق نفسها الخوض فيه مجددًا.. لكن المتوترة أكملت بلا وعي لرد فعل شقيقتها المنقبض بألم:

- ما كنتش فاكراه عنيف كده!.. كان بيعشقك.

نطقتها بتقرير رسم بسمة ساخرة بمذاق العلقم فوق شفتي "سمية".. والأخرى لم تتوقف بعد:

- كان بيعاملك قدامنا زي الملكة.

واكتفت من الذكرى رغم قِصَروقت التذكيربها، لكنها هي لم تنسها ولو للحظة، لم تنسَ جموده وعنفه وقساوته.. أدارت وجهها تمحوها من عقلها بعدما عادت تتجسد أمام ناظريها وتعاد.. تعاد حتى أنَّت روحها واهتزكيانها كله برفض..

تعاد بخمر تفقده عقله واتزانه..

تعاد باشتهاء رجل لا يكتمل بعد عجز..

تعاد بسباب وكبت منفذه الوحيد هي.. ألمها، قهرها، ضعفها في مواجهته، وانعدام سبيل الخلاص!

تعاد بشراسة كانت تتمكن منه وهو يفتك بها فاقدًا للوعي والرشد!

تعاد بصفعات، لكمات، ركلات.. وجسدٍ دامٍ محطم أهينت أنوثته لأن من امتلكه فشل في إشباع جموح رغباته به..

تعاد بإهانات متكررة لم تنتهِ إلا بموته؛ لأنها وقتما تحدت ورفضت وتقززت من مغالاة مطالبه، نال منها ما نال.. وحطم منها ما حطم.. وهي لتلك الإهانات خضعت واستكانت واستسلمت بقهر حتى لو تحولت لمحض حطام!

امتثلت وامتهنت نفسها وامتهنها آخرون.. وفي البداية والنهاية.. المبرر حب!

حبه لها، وحبها وخوفها على أخويها.. وما دام المبرر غالٍ، فأمامه ترخص الأشياء؛ حتى هي.

***

هل يكون الإيثار مبررًا لتحطيم الذات!.. الغوص بها في مستنقع الألم، في أوحال القهر، إخضاعها للضياع في متاهات الذل والخسة والضيم!.. رميها في جحيم مستعر استضعفها به وحش بدرجة عاشق!

نعم.. الجواب الوحيد الذي تملكه هو.. نعم!

ولو عاد بها الزمن لكررت فعلتها، لقدمت نفسها على طبق من ذهب، مقابل سعادة ومستقبل شقيقيها، لو تدخل الأمس من جديد لوهبت روحها للشيطان، لذات الشيطان الذي أجهز على ما ظل فيها حياة.

هي ليست ملاكًا اختفى جناحاه تبعًا لمتطلبات العصر، هي فقط إنسان.. فطرته لم تلوثها أوجاع، أو يدنسها تمرد على اختيارات القدر.. فطرته نقية رغم ما مر بها من أوساخ غسلتها بالغفران..

وهو لا يفهم!

زوجها لا يفهم، يغضب، يُجن، يثور ويعنف ويوبخ ويرفض.. لكنها تدرك ما تفعله، تفهم ما تسير نحوه، ولا داعي لكثير من الكلام..

عندما أتاها قبل ساعات مكدوم الوجه، شفته مجروحة وحول عينه زرقة مخيفة أصابها الهلع، سألته ولم يرد.. نهشها القلق، والتزم هو الصمت خلف نظرة امتلأت بالحزم والجمود، استسلمت كما هي عادتها، فلن تتمرد معه هو بالذات..

الحاني بعد قسوة..

الداعم بعد سقوط..

السند بعد تيه!

رمقته بنظرة لم يرَها وهو يؤازر جسدها الضعيف بذراعه حول خصرها، يضمها برفق لم تعتده من قبل، وبيده الأخرى يمسك بمرفقها ليعاونها على صعود الدرج..

في الأسفل اقترحت "آية" أن يحملها وكاد يفعل، لكنها امتنعت، تباعدت وأبت.. ربما المانع خجل!..

أو رغبة منها ألا يحمل ما ليس حِمله بالفعل!

أمام بابها توقفت، ارتجف جسدها وجحظت عيناها وهي تتأمله مغلقًا كأنما يقطن خلفه وحشًا سيفتك بما تبقى منها.. الرعشة امتدت بطول جسدها والبرودة اكتنفت روحها، وتيبست قدماها فلم تستطع الحراك خطوة زائدة..

مع جمودها أخفض رأسه يتأملها بتساؤل كان جوابه أوضح ما يكون على ملامحها، شعرت بذراعه يقربها منه أكثر لتسكن حمى جسده بلا وعي منها سوى به، وهمسته المطمئنة الدافئة في أذنها نفضت قلبها:

- لسه هنكمل.

والكلمة لمست بداخلها وترًا قطعه التعب.. وترًا نغماته شاذة مرهقة غير تامة!

تعلقت عيناها به وهو يبتسم بحنو، يدفعها لتتحرك نحو الدرج مجددًا صعودًا للطابق التالي، سايرته حتى توقف قبالة باب شقته الخاصة التي خُصصت من قبل لزواجه..



وعاد القلب ينتفض بخوف، لكنه خوف محتمل بينما يفتح الباب ويسحبها للداخل، صاحبتها شقيقته لغرفة النوم، ساعدتها على تبديل ملابسها وأراحتها بالفراش ثم تحججت بحجة واهية لتتركهما.. عندما تلفتت حولها علمت أنها بالغرفة الرئيسية.. انتابتها دهشة جوار تساؤل لم تفصح عنه وهي تراه يدلف للمكان عقب خروج "آية"..

جلس على طرف الفراش يرمقها بصمت.. بل يتمعن في تلك الكدمات التي تحيط بعنقها كأثر تركته أصابع الجاني وصولًا لما قبل الموت ببضعة أنفاس!.. يناظرها بضيق مكتوم ويشعر بنفسه مكبلًا عن خطوة صحيحة تراجع فيها لخاطرها..

ودت لو علمت ما يجول في رأسه، لكنها لم تسأل.. بل سألت عما يقلقها منذ رأته:

- مش هتقولي إيه اللي عمل في وشك كده؟

استمر على صمته وتأمله لثوان ثم أراحها بجواب فاتر:

- أدبته.

- إيهاب؟!



وكانت عيناها مذعورتان، نبرتها ملهوفة.. ولغة جسدها مرتعبة وهي تمد يدها السليمة تتشبث بكفه على أمل النفي.. لكنه لم ينفِ، بل هز كتفيه واستمر جامدًا دون تعبير يسكن به مخاوفها..

وهي لم تستطع القبول بذاك كرد، فعادت تسأل والنبرة مرتعشة:

- عملت فيه إيه؟

انعقد حاجباه وكاد يصرخ في وجهها.. تسأله عما فعل به؟.. ألا ترى وجهه؟!..

- هو كويس.. قرصت ودنه بس.

نطقها ببرود، ونار لهفتها أبدلته لغيظ واضح:

- طمني عليه.

وضوحه سطا على لهجته وحدة صوته:

- قلت لك كويس.. هاعمل فيه إيه يعني؟!

بزعيق أجفلها، نفضها فابتعدت تنكمش على نفسها ولعن هو نفسه..

زفر بحرارة، لا يعلم ما به!..



لمَ هو غاضب لأنها لم تهتم بما فعله به شقيقها!.. لمَ هو حانق لأنها تجاهلت ألمه مقابل خوفها على أخيها!.. بل وذاك السخط الذي يملأه يتضاعف كلما تاه منه السبب!

نهض بهدوء وانحنى بعد تردد قصير يقبل رأسها، عادت عيناها تتعلقان بعينيه وهو يهمس:

- حمدالله على سلامتك.. هاسيبك ترتاحي.

ثم غادرها ونظراتها تتابعه، خرج يجلس على أقرب مقعد قابله، الحيرة تفترسه من الداخل، تنهش عقله دون رحمة أو شفقة، أسئلة كثيرة لا محل لها تنوء بها أفكاره.. وطامته الكبرى: أن الجواب صفر!

لم تجبه عن كل ما أراد معرفته، تهرب دومًا من تفاصيل يدرك أنها مؤلمة لكنه يحتاج أن يُلم بها، ترفض الخوض فيما مضى، وماضيها كله معبق برائحة خانقة باتت تخنقه هو!

وفكرة أخيرة دحرت باقي الأفكار لتستقر على قمة صراع مشاعره ودواخل روحه..

أبوه أخبره عن عشق أخيه لها؛ فهل سكتت هي الأخرى عن أذاه.. عشقًا!.. هل كانت تحبه؟.. هل تحملها لكل ما أذنبه في حقها.. هوىً سكن قلبها نحوه؟!

نبض الحل برأسه فجأة فاعتدل في جلسته يعقد حاجبيه.. إن كانت هي تحرمه جوابًا يريحه فسيبحث عنه بنفسه.. والمبرر والهدف نبيل!

برقت عيناه وهو يقرر السفر لمكان إقامتها مع شقيقه من قبل، بعد أن تسترد عافيتها، السفر ربما لتغير هي محيطها المليء بسواد الذكرى.. ويحصل هو على ما يتمم أحجيتها التي أسقطه قدره عنوة داخل لغزها المعقد.

***

المبررات أحيانًا تكتسب صفة شرعية تبيح لصاحبها امتلاكًا تامًا في ظل عقد ممهور بتوقيع حبره لم يجف بعد.. امتلاكًا في غير وقته أو موضعه، امتلاكًا لا ثمن له، ولا ما بعده مأمون!

وهو برر ودافع وأتى بالأسباب.. وبالأحرى: هو سبب وحيد، وأكثر من كاف..

"أنتِ مراتي"

ظل يهمس به حد تخدير عقلها، حد تسكين حواسها، بل حد غياب كيانها فيه، يعيدها ويكررها حتى صدقتها، أصبحت امرأته والمسمى المعلن زوجة، والشرعية تظلل ما تخافه ويهونه هو بين يديها..

خرجت من الجامعة بصحبة صديقاتها لتجده في انتظارها، كانت خائفة، لكنه في كل لحظة، ومع كل مكالمة يبثها طمأنينته، أنه رجلها وهي أنثاه.. حبيبته وزوجته، وها هو الآن يلتقيها ليهدهد قلبها المرتجف أكثر..

اتجهت إليه بخطى حائرة، تلقفها برقة واحتضن يدها بين يديه، همس لها ببضع كلمات حانية ملهوفة وصعدت معه إلى سيارته، شردت وعندما أفاقت من شرودها وجدت نفسها بصحبته أسفل البناية التي تحوي منزل الزوجية المستقبلي.. الشقة التي اصطحبها إليها من قبل، وتملكها فيها حتى آخر ذرة.. تطلعت إلى المدخل بصمت قبل أن تدير رأسها نحوه بتوجس:

- أنت جبتنا هنا ليه؟

مد كفه يربت على يديها المضمومة خلف رعشة:

- محتاجين نتكلم براحتنا.

والرعشة انتقلت لشفتيها وخفتت لمعة عينيها وهي تناظره بقلق بادله بحنو متفهم.. وعاندت:

- لا يا أسامة.. مش هينفع.

عقد حاجبيه وارتدى ثوب المطعون في قلبه:

- مش هينفع!!.. ليه يا أمنية؟.. أنتِ مراتي..

- أيوة بس..

- ما بسش.

وزفر بضيق ظاهر:

- أنتِ مراتي وحبيبتي.. ماحدش هيخاف عليكِ قدي!

نال التردد من ملامحها، المبرر غير كاف وهي تخاف.. بالفعل تخاف!

- أنتِ مش واثقة فيَّ؟!

وقطع آخر شعرة كانت تتمسك بها ممانعة، خضعت وتعلقت بكفه وهي تجاوره في المصعد حتى وصلا لباب الشقة.. عندما دلفا إليها لم يطُل الحديث كثيرًا.. بين أسبابه ودوافعه واعتذاراته ولمساته.. ودفاعها ووهنها.. واستسلامها لأحضانه من جديد..

عندما انتهى جلست ترتجف، تناظره بخجل وتدير وجهها فيعيده إليه ويمنحها قبلات الغفران من ذنب لا يملك هو حق الصفح عنه، أبعدته عنها وهمست بحياء تطلب منه مغادرة الغرفة لترتدي ثيابها، وتأملها بلؤم سافر ورفعة حاجب، وهزة رأس رافضة..

رمقته بدهشة وهي تتذكر المرة السابقة، اختلاف رده وقربه واحتوائه، يومها بكت وسبَّت وخافت واحتارت وكان يضمها، يطمئنها، يهدهدها،

ويخبرها عن كونه زوجها ولا حرج فيما حدث، ليس حرامًا.. أو خطأً، ولا حق لأحد عندهما..

أنه سندها، رجلها.. دومًا في ظهرها.. وعندما طلبت منه بخجل ترك الغرفة حتى تسترعريها ربت عليها بحنان رفيق واستجاب!

تأملت وجهه الماكر وابتسامته اللعوب باستغراب، أتبعها بغمزة وقحة احمرت لها وجنتاها وهو يحول الرفض لصوت مسموع:

- تؤ تؤ.. هتلبسي قدامي.

- أسامة!

ونهرته وهي تكاد تذوب بالفعل، فعاد هو يتملك منها ويرسي قواعده لما هو آت:

- أنتِ مراتي يا موني.. خلاص ما بقاش في بيننا كسوف.

- أسامة!

وهذه المرة كانت نبرتها ناعمة، بتمنع واهن أزاله بعناده.. وأذعنت بخطوات مرتبكة، تداري ما أمكنها من جسدها وبالمقابل نهض هو يرتدي سرواله، يرتكن للجدار بجذع عارٍ، يشعل تبغًا نفث دخانه وهو يلتهمها بعينيه.. تطلعت إليه بدهشة:

- أنت بتدخن!!

لوى شفتيه بعبث وتفحصها لحد تسارعت معه خفقات نابضها:

- يعني.. مش كتير.

واستمتع بإغلاق سحاب ثوبها وهو يتمم همسه بأذنها:

- بس المزاج دلوقتِ، طالب سيجارة.

التفت إليه مستغربة لهجته وحديثه:

- أسامة.. إيه الطريقة دي؟!

ألقى باللفافة أرضًا واقترب يحتويها بين ذراعيه بتملك:

- حبيبتي.. قلت لك قبل كده..

ومال يمنح شفتيها حرية امتلاك بقايا أحرفه:

- أنا معاكِ غير كل الناس..

ثم ابتعد يستعيد أنفاسه ويمنحها الفرصة لتستجمع شتات نفسها:

- باكون على طبيعتي وبس.

داعبت خصلاته بدلال وهي تفكر فيما ينبغي أن يحدث.. في الخوف الذي يتمكن منها رغم كل شيء، في قلب فقد بوصلته واحتار في اتجاه الصواب!

- طالما كده يا حبيبي؛ يبقى نقدم ميعاد جوازنا..

ورمت برأسها فوق صدره تستمع لنبضاته:

- مش لازم نستنى سنة!

ارتفع جانب فمه ببسمة ماكرة، حرك وجهها ليواجهه وظهرت بعينيه نظرة حارة شغوف شعرت بها غامضة:

- أنا عاوز أكون معاكِ النهاردة قبل بكرة.

واقترب ليكمل همسه المغوي قبالة ثغرها:

- بحبك.

وتاهت في خضم مشاعر تلامسها للمرة الأولى، تاهت ونسيت وضاعت..

الفائز هو..

والمبرر.. مباح، بصفة أقنعها بشرعيتها ولا عزاء للضمير!

***

عندما نستكثر السعادة على أنفسنا؛ نبرر للألم اقتحام عالمنا وتدميره، نبرر بذنب لا وجود له، اختلقته عقولنا فوق أساس من مخاوفنا غير المفهومة، مخاوف لها أصول، لكنها غير حقيقية.. فقط نتوهم أنها كذلك..

كان يبتسم بصدر منشرح، خفقات فؤاده حلقت مع السحب، وعيناه تلمعان بدمع خفي وهو يحتضن كفها ونظراته منصبة على شاشة "السونار" الصغيرة يتابع حركة طفله ببطن أمه، والطبيب يشرح ببساطة.. هذا قلبه النابض، تلكما يدها.. وهاتان القدمان.. ضئيل هو للغاية وقطعة منه.

قطعة منه تسكن أحشائها، قطعة منه.. ومنها..

تقابلت أعينهما فارتسم بين جفنيها حنو يبادل فرحته، قطع طبيبها تواصل اللحظة باهتمام عملي:

- البيبي كويس الحمد لله.. في بس حاجة لاحظتها ومش عاوزكم تقلقوا منها.

وكأن الكلمة ضغطت بداخله زناد القلق، تنفيه فتؤكده، ترفضه فيتشبث به، رفع وجهه بتوجس نحو الرجل وهو يستطرد:

- في ورم ليفي صغير في جدار الرحم.

هل يمكن أن يتوقف الكون من حولك ولو للحظة!

تتجمد المعالم، تتوقف عقارب الساعات، وتتجمد الثوان!

هل يمكن أن تشعر بكل وجع يتحمله جسدك وتتلقاه روحك، وتظل على قيد الحياة بفؤاد خاشع وأعين خاضعة وأذن قيد انتظار قرار إعدام!

- الورم ما فيش منه خوف.. هنراقب حجمه بس في الوقت الحالي.

ومع رجفة أصابت كفه الممسكة بيدها، وشحوب وجهه وملامحها التي سكنت باهتة أكمل الطبيب بعمليته الجافة:

- أنا مش متوقع إن حجمه يزيد أو يعمل مشاكل.. غالبا هنستأصله مع الولادة إن شاء الله.

- في خطر عليها يا دكتور؟!

انطلق السؤال من بين شفتيه كطلقة رصاص لا هدف لها وقبل أن يحصل على جواب ألقى بقنبلة جديدة:

- لو في خطر ممكن نستغنى عن الحمل!

وقبضت يده على أصابعها حد الألم وهي تناظره بذهول.. وعيناه تدوران بزيغ:

- أهم حاجة هي.

أتاه الجواب العلمي بسيطًا حازمًا مباشرًا.. وغير مقنع لباله المتعب وقلبه الواجف الواجم:

- ما فيش خطر ولا حاجة.. إحنا كمان هنراقب الوضع.



انتهى وقت كشف متابعتها الدورية، غادرت بصحبته، وصلا للمنزل وصعدا الدرج بصمت.. عاد بصمت.. فتح الباب بصمت.. وعقله توقف عن العمل تمامًا وكلمة واحدة يتردد صداها داخل جمجمته حتى أوشكت أن تحولها لفتات:

"ورم"

والصدى يعلو.. يعاد.. يتكرر.. يؤلم.. يخيف.. يفزع.. والهلع تشربته خلاياه كدواء مر!.. لا بل كسم لا ترياق منه..

وقف يتأملها بغياب جعلها تقترب منه، تضمه إليها وتحيط رأسه بذراعيها، خائفة هي.. خائفة وقلبها منقبض ومجبرة على طمأنته ولا تملك من الأمر شيئًا، همست في أذنه وهي تحتويه برفق:

- حبيبي اطمن.. الدكتور طمنا.. إن شاء الله خير.

لكن نبرتها كانت مرتجفة، وما وصله هو تلك الرجفة وحسب، ابتعد عنها وقرر بحسم:

- الجنين ده لازم ينزل.

شهقت وتراجعت تخرجه من دفء أحضانها، ترمقه باستنكار لم تخلُ منه لهجتها المعنفة:

- إيه اللي بتقوله ده يا صلاح!

- باقول الصح.. أنا مش مستعد تضيعي مني.

قالها وهو يقطع المسافة التي تباعدتها في خطوتين واسعتين، يتملك من مرفقيها ويهزها بألم ظاهر، وثوان واعتصرها بين ذراعيه حد الأنين، يد تحكمت بخصرها والأخرى أمسكت بعنقها تضمها فوق صدره، لامست شفتاه خصلاتها الثائرة ودمعة جرحت جفنيه.. وكيانه كله يفترسه، ينتهكه، يدميه ويذبحه الخوف..

آهة وجع نطقها قلبه واحتبست خلف شفتيه، آهة نزفتها روحه دون صوته.. آهة حملت هموم نفسه التي يسعى الشقاء خلفها دون هوادة..

الماضي يتكرر..

الماضي يعود وبصورة أشد إيلامًا وأقل احتمالًا..

نعم، الوجع هذه المرة مضاعف، فوق طاقة استيعابه أو تحمله، بعدما أصحبت له ومنحها كله!.. بعدما راقب تفاصيلها وحفظها، بعدما باتت هي فوضاه وجنون دقاته التي لا تحمل سوى اسمها.. بعدما اعتاد دفئها حد التيه والجنون..

بعدما أضحت هي.. هو، روحه، جزء منه.. وهو جزء منها..

بعدما تملكت ذلك المختبئ ذعرًا بين ضلوعه وفتحت أمامه نافذة على السعادة، استكثرها عليه القدر فلاحقها بتكرار العذاب.. نعم، ببساطة قدره يعاقبه على الخروج من شرنقة الأمس، بخنق اليوم وتعتيم الغد!..

قدره يعاقبه أنه استمر.. أنه عاش!

آهة أخرى تغلغلت في خلاياه فشدد من ذراعيه حولها وهي تدرك ما يمر به، بادلته احتضانه بقوة قدر ما أمكنها، وهبته طمأنينة صامتة بوجودها بين يديه، وبإعلان تمسكها به كما يتمسك هو بها بل وأكثر..

"البيبي هينزل"

اخترق بها مسامعها بصرامة لا تحتمل النقاش، وأبعدها يغوص في عينيها المذهولتين:

- ولو في ضرورة.. هنشيل الرحم.

والذهول جاوره استنكار مستهجن قبل أن يعيدها فوق صدره والضمة باتت قاسية:

- مش هادي فرصة للمرض إنه ياخدك مني.

وينهي مبررًا الألم، مبررًا الخوف.. ورافضًا الرجوع لنقطة سبق ومر بها، نقطة.. العودة إليها مستحيلة!

الفصل الحادي والعشرون

الخضوع.. سلوك إنساني بغيض.. وغالبًا ما يلي مرحلة الضعف البشري.. فعندما يسقط الإنسان أسيرًا للحظات ضعفه.. المتوقع أن يمر بتلك المرحلة..

الخضوع..

الاستسلام..

الخنوع لأمر واقع فرضته الظروف حوله.. أو حاصره ليحشره بأضيق زاوية.. فحتى التنفس وقتها يكون بحساب..

وهذا ما مرت به لارا بفترة زواجها الأولى.. لأيام اعتكفت بجناحها.. هو لم يوصد الباب.. ليس بقفل واقعي، ولكن كانت كلماته وهجومه أكبر من أي حاجز تمت كهربته بكهرباء عالية التردد..

واعتكافها لم يكن خضوعًا.. كلا ليست لارا الغندور.. "بنت درة".. من تسلم لذاك الديكتاتور الهمجي.. فقط أرادت دراسة الوضع حولها.. والتحقق عن من يعرف بسر زواجها الميمون.. والأهم.. أن تنتظر لتختفي آثار صفعاته الهمجية على وجنتيها..

وعندما تيقنت بعدم معرفة أحد بوضع زواجهما الشائك، إلا بضعة تعليقات من والدته فقط بغرض تنغيص سعادة مفترضة.. قررت البدء بحركة تمردها.. فارتدت ثوبًا أبيض اللون واسعًا.. يلف الجزء العلوي من جسدها باحتشام مغري.. بينما يتطاير قماش التنورة ويلتف حول ساقيها بنعومة..

اتخذت مجلسها بالحديقة وأمامها قدح من الشاي وبين يديها واحد من الكتب العديدة المصفوفة بمكتبته الأثيرة بغرفة مكتبه..

كان يراقبها بغيظ.. فهي كسرت كلمته ليس مرة واحدة ولكن اثنتين!.. فقد تجولت بمنزله دون إذن منه وتسللت لمكتبه أيضًا تسلبه أحد كتبه وأخيرًا استقرت بالحديقة تتناول إفطارًا متأخرًا!..

لحظات وكان أمامها يتطاير الشرر من عينيه:

- أنا قلت ما فيش خروج بره الجناح.

رفعت عينيها له للحظات بعدها ارتشفت عدة رشفات من قدحها الساخن قبل أن تجبه ببرود:

- أنا فاهمة أني مجبرة أكمل مسرحية جوازنا.. لكن خوفك من..

وهتف بها وهو يجلس بمواجهتها مقاطعًا كلماتها:

- خوف!!.. أنتِ فاهمة أني خايف منك؟

هزت كتفيها بلا اهتمام:

-أومال إيه تفسير أنك عايز تحبسني في الجناح!!

عاد للخلف ليضجع في مقعده وهو يرمقها بنظرة مستهينة:

- لأني مش واثق فيكِ.

تلاعبت بسمة ساخرة على شفتيها:

- تحب ألبس لك حزام العفة!

اشتعل جنونه وهو يقبض كفه يضربه بمسند مقعده وهو يهتف بها:

-لارا.. ما تستفزينيش..

أخفضت لارا أهدابها لثوانٍ فهي لا ترغب بإثارة حفيظته بتلك اللحظة.. ثم سألته برقة:

-عايزة أكلم ماما..

رمقها بلحظة وقد تبين رقة نبرتها.. ولكنه لم يستجب لها:

-لا.. ما فيش تليفونات.



صمتت للحظات.. وهي تمسك بقطعة من الخبز المحمص وتدهنها ببطء بالعسل.. ثم تتناول قضمة صغيرة وتأخذ وقتها كله قبل أن ترمي بجملتها المستفزة:

-عادل.. أنا فعلًا بدأت أشك في ذكائك.

ستقتله ببرودها وترفُعها حتى عن مناقشته.. وما يثير جنونه تلك العبارات المستفزة التي تلقيها بوجهه:

- لارا.. أنتِ مش فاهمة موقفك.. تحبي أفهمك؟

وكانت إجابتها سريعة وبديهية:

- أنا عايزة أكلم ماما، لو ما اتصلتش بها زي ما هي متعودة هتقلق.. ولو قلقت..

قاطعها وهو يتبنى موقفها البارد:

- وماله لو سألت عليكِ هبقى أشرح لها ظروف بنتها المحترمة.

صمتت للحظة وهي تشير بأناملها كأنها تجمع كلماتها:

- هتقولها أنا حابس بنتك ومانعها تكلمك أو تتصل بحد؟.. هتقولها أنا محافظ على الأمانة اللي أمنتيني عليها؟.. هتقولها..

عاد غضبه يشتعل وهو يواجه الصورة التي ترسمها له فهتف بغيظ:

- خلاص خلاص.. مش عايز صداع.. بكره تكلميها..

وقبل أن تعاود مناقشته لمحت أمه تتحرك نحوهما فالتزمت الصمت ورسمت على وجهها قناع العروس الخجول السعيدة.. ولكن قناعها ذاك لم يخدع عايدة.. فهي ترى ملامح الغضب والخيبة على وجه عادل بصفة دائمة.. فرمقت لارا بشماتة وهي تسأل:

- إيه يا عرسان!.. هو العسل خلص ولا إيه!!.. ولا العسل اللبناني طلع... مغشوش!!

قالت كلمتها الأخيرة وهي تضحك بتشفِ مما دفع بدماء الغضب لرأس لارا.. فقد ظنت أن عادل قص على والدته حقيقة الوضع بينهما.. إلا أنه منحها إشارة خفية لتصمت.. بينما التفتت والدته له كليًا وهي تزيد من نبرتها الشامتة:

-عادل.. عرفت آخر الأخبار؟..

لم يبدِ عادل اهتمامًا بكلمات والدته فعادت تكرر بنبرة من تحمل خبرًا عظيمًا:

-اسمع كلامي.. خبر يهمك..

تنهد بعجز:



-خيريا أمي؟..

أجابت بسرعة:

- مروة خطيبتك.. يوووه.. أقصد اللي كانت خطيبتك.. رجعت المنصورة.

أجابها عادل من بين أسنانه وهو يرقب وجه لارا الذي احتفظ بملامح جامدة:

-عارف يا ماما.. وحتى حضرت الفرح.

استوعبت لارا المعلومات التي تلقى أمامها بكرم.. إذاً تلك المرأة بحفل الزفاف كانت خطيبته السابقة.. حسنًا.. تمهلي يا لارا.. لتعرفي المزيد قبل أن تشعلي النار به وبوالدته العزيزة..

بينما اقتربت عايدة من عادل وهي تمنحه جميع ما تعرفه:

- أيوه يا حبيبي.. عارفة أنها جت الفرح.. بس اللي ما تعرفوش أنه جوزها مات.. مات من سنتين.. وهي سابت شغلها في الجامعة وفتحت مكتب استشارات هندسية صغير هنا في المنصورة.

لم تخفَ نبرته المتلهفة عن لارا وهو يهتف:

-مات!.. مروة إدريس أرملة دلوقت!



لم تتحمل أعصاب لارا المزيد.. فاستأذنت لتذهب لغرفتها.. وعيناه تتابعها بخبث..

أغلقت لارا باب الجناح خلفها بعنف.. وحاولت السيطرة على غيرة تعصف بداخلها.. فظلت تردد باستمرار..

"هو ما يستحقش.. هو ما يستحقش.. اثبتي يا لارا.. اثبتي"..

انتظمت أنفاسها وهدأ غضبها قليلًا قبل أن تسمع إغلاق باب الجناح فأدركت أنه لحق بها..

جلست على الأريكة العريضة تقلب بصفحات إحدى المجلات.. لتفاجأ به يجاورها وذراعه تمتد خلف كتفيها وهو يردد بلهجة مختلفة:

-مشيتِ قبل ما نكمل كلامنا..

قطبت حاجبيها باستفسار:

-كلام إيه!!.. قلت لي هكلم ماما بكره.. خلص الكلام.

كان ينتظر أن تسأله عن مروة.. أن تغضب.. تثور.. تغار.. ولكنها ظلت على صمتها المستفز، فاقترب يعبث بخصلاتها الشقراء:

-آه صح نسيت..



مع اقترابه منها.. لاحظ احتقان الغضب المكتوم بوجهها.. فانتشى بذلك.. وخاصة مع حركة ساقها المتوترة.. فعلم أنها تكبت غيرتها وتساؤلاتها حول مروة..

فتنتها الغاضبة تلك أثارته بقوة.. فاقترب أكثر وهو يحرك ذراعه خلف ظهرها وهمس:

-ممكن نقول كلام تاني!

شعرت بتحرك ذراعه خلف ظهرها والتفتت نحوه لتخبره أن يبتعد لتفاجئها نظراته الغائمة برغبة واضحة بها.. فانتفضت لتدفعه بعيدًا عنها.. وهي تنهض بعنف هاتفة من بين أسنانها:

-ما فيش بينا كلام.. ما تنساش اتفاقنا..

وتحركت باتجاه غرفة النوم:

- جوازنا مجرد مسرحية.. يا ابن عمي..

وأمسكت بالباب وقبل أن تغلقه أخبرته بتشفٍ:

-أعتقد أني هستخدم أوضة النوم.. الباب فيه مفتاح..

وغمزت بمكر ترد له جملته منذ قليل:

-وأنا مش واثقة فيك!



وأغلقت الباب بهدوء ثم أدارت المفتاح مرة وأخرى.. فقط للتأكيد.

***

وبأي علاقة هناك طرفان.. ولنجاح تلك العلاقة فهي تحتاج لمزيج من الخضوع والسيطرة من كلا الطرفين.. على ألا يكون هناك تنازلات أساسية.. فقط مزيج من السيطرة والخضوع والتفاهم.. كل بمقداره المناسب.. وتلك قد تكون خلطة سحرية..

وآية كانت تتبع غريزتها الأنثوية وهي تخوض بعلاقتها مع عمرو.. فبعد هزة الثقة السابقة.. يحاول الاثنان معالجة كافة الشروخ حتى وإن كانت غير مرئية..

وعمرو انتقل من مرحلة التناسب للإعجاب وهو الآن بحالة حب..

حب برئ.. راقي.. ومشروع مع زوجته المستقبلية.. وقيل أن الغيرة هي ملح الحب.. وأحيانًا قد تكون حرقته اللاذعة.. فعمرو يختزن بعقله على الدوام.. نظرات الإعجاب التي كانت تلتمع بعيني عبد الرحمن كلما رمق آية..

وبالتأكيد لم يساعد بتهدئة تلك الغيرة، الخبر الذي زفته إليه نشوى شقيقته.. بفسخ خطبتها من عبد الرحمن.. متعللة بأنه ممل.. وهي سئمت

منه.. بينما علم عمرو عن يقين أن عبد الرحمن هو من أنهى العلاقة.. فغرور نشوى وصلفها وصل لمرحلة التخمة حتى كاد أن يختنق منها.

وعندما أبلغ آية الخبر بطريقة عرضية وهو يهاتفها مثل كل ليلة.. كانت إجابتها التي استفزت غيرته..

- معقولة!.. ليه كده؟.. ده عبد الرحمن إنسان كويس جدًا.

فأجابها بغيظ واضح:

- وأنتِ تعرفيه منين عشان تقولي عليه كويس!

استنكرت كلماته:

-إزاي يا عمرو!.. ده وقف معانا جامد في موضوع سمية.

وعادت الغيرة تتحدث بعنف:

-جامد إزاي مش فاهم!.. دكتور وأدى واجبه.. ده العادي.

تعجبت آية من أسلوبه الغاضب.. لذا سارعت بسؤاله:

-مالك يا عمرو؟.. هو عبد الرحمن عمل مشكلة لنشوى ولا حاجة؟

وهو قرر أن ينهي وجود عبد الرحمن من الحوار:

-آية!.. إحنا هنقضي المكالمة كلام على عبد الرحمن!

وابتسمت بمكر أنثوي أدرك غيرة الحبيب:

-أنت اللي فتحت الكلام على فكرة.

والرد جاء حادًا:

-خبروبلغك به.. خلصنا خلاص.

والرقيقة جرحت مشاعرها فقطبت وقررت القطيعة:

-طيب مع السلامة.

والعاشق الجديد لم يكتفِ ويعلم أنه لن يفعل أبدًا:

-مع السلامة إيه!.. هو إحنا لسه اتكلمنا!!

أتاه صوتها حزينًا بل يختنق ببداية بكاء:

-أنت بتتخانق يا عمرو.. مش بتتكلم.

صمت قليلًا.. ولانت نبرته ليخبرها بنبرة مشاكسة:

-أول خناقة لنا.. إيه رأيك!

منحته ضحكة دلال تفتت إرادته وهي تنهره ببراءة:

- أنت بايخ والله.

وهومازال متأثرًا بدلالها فيزيد من جرعة المشاكسة:

-بايخ!.. إيه الكلمة دي!

والحبيبة تغضب.. تتدلل.. تمنحه زفرة غيظ صامتة.. وهو يراضي ويصالح بسعادة:

-وحشتيني.

ورغم ابتسامتها الفرحة إلا أنها تعاند:

-يا سلام!!

وكعادته.. مباشر ذو طريق مستقيم:

-عايز أحدد مع عمي ميعاد الفرح.

ووجنتاها تتوردان كعادتها:

-وأنا مالي!

فيخبرها بغزل ظاهره برئ وبباطنه وقاحة:

-أنتِ الكل في الكل يا ست البنات.

وتتورد لتتحول لثمرة طماطم ناضجة وهي تهمس:

- أنت حر مع بابا.

والسؤال ملهوف:

-يناسبك آخر الشهر؟

وتنتفض ذعرًا وخجلًا:

-إيه!.. لا طبعًا.. آخر الشهر ده بعد أسبوعين.

ويحسم الجدل قبل أن يبدأ:

-آخر الشهر الجاي.. آخر كلام.

والموافقة خجول:

-كلم بابا.

***

والخضوع للماضي قد يدمر الحاضر ويقتل المستقبل.. ويقضي على كل براعم الأمل.. يطعن براءة الحب بمقتل.. ويدفن أي احترام ورحمة.. وأما المودة.. فقل عليها السلام..

فأي مودة تطلبها من زوجة.. يخبرها زوجها بتهليل أنه سينجب من أخرى طفلها هي!..

سيمنحه لها هدية وكأنه قطعة مجوهرات ثمينة.. دفع ثمنها وجلبها لمتعتها، فقط هو لا يعلم أن الثمن حصله منها بدفع فوري وسند غير قابل

للتأجيل.. وإن كانت حصته من الدفع مادية فهي دفعت من كرامتها وأنوثتها ومشاعرها المطعونة بما لا ينفع معه التعويض أو الترضية..

حبيبة تمر بفترة نقاهة بمنزل والدتها بعد أن قضت أسبوعًا بالمصحة تحت الرعاية الطبية.. وأخرجها شقيقها على مسئوليته الخاصة.. فلن تتحسن أبدًا وهي حبيسة أربعة جدران ونافذة مؤطرة بقضبان حديدية وكأنها مذنبة وليست ضحية أنانية زوجها..

زوجها الذي كاد أن يجثو على ركبتيه ويتوسل رؤيتها.. مرة تلو الأخرى وصلاح يرفض طلبه بصلابة.. هو الآن لا يهمه سوى شقيقته والتي كانت بدأت تستعيد القليل من عافيتها.. ورغم هذا تعجز حتى الآن عن البوح بكنه المشكلة بينها وبين زوجها.. ولا يعلم صلاح سوى أن نبيل تزوج بأخرى.. ومع غرابة المعلومة والتي بالفعل تكاد تصل لثامن عجيبة من عجائب الدنيا، فعشق نبيل لحبيبة أسطورة يتحاكى بها أبناء حيهم والأحياء المجاورة.. إلا أن حالة حبيبة المنهارة تؤكد صحة المعلومة..

والآن نبيل يواجهه حانقًا ومطالبًا برؤية زوجته.. فهو يحق له الاطمئنان عليها كما يزعم..

- هشوفها يا صلاح ومش هتقدر تمنعني أكتر من كده.. دي مراتي.. مرااااتي..

واجهه صلاح بصلابة:

- نبيل.. أنت عارف كويس طلب حبيبة.. هي مصرة على الطلاق....

غير نبيل لهجته وهو يعود للتوسل:

- يا صلاح.. إديني فرصة.. فرصة واحدة أشوفها.. وأطمن عليها..

ضرب صلاح كفيه ببعضهما بتعجب:

-أنت مصدق نفسك!.. تطمن عليها!!.. أنت دمرتها.. دمرتها تمامًا..

قاطعه نبيل بتلهف:

-لا.. لا يا صلاح أنا كنت بحافظ عليها..

هتف صلاح بتعجب:

-بتحافظ عليها!!.. تحافظ عليها من إيه!!..

"عايز إيه يا نبيل؟.. جاي ليه؟.."

التفت نبيل بكليته يقابل حبيبة التي خرجت من غرفتها للتو.. لتواجه نبيل بوجه صلب.. قُد من صخر الغدر.. وملامح شكلت بطعم الخيانة..

ولم ينتبه نبيل لجمودها.. فقد غطت لهفته إليها على كل شعور آخر وتعالى هتافه المشتاق:

-حبيبة.. حبيبتي.. عاملة ايه؟..

سبقته نظراته الملهوفة إليها.. تحوم حولها وتطمئن عليها باشتياق.. عيناه تجريان على ملامحها لينهل منها.. يروي ظمأ أيامه السابقة بدونها.. وتحركت قدماه تدفعه للحركة، للركض مقتربًا منها ويحاوطها بذراعيه.. ولكنها رفعت يدها بوجهه توقف تقدمه نحوها..

فتوقف بغتة وكأنه لا يجرؤ على إيذائها ولو حتى باقتراب هي ترفضه..

تواجها عن بعد.. عيناه تناشدها التفهم.. وعيناها تنعي كل لحظة حب وصبر بذلتها عليه..

نظراته مليئة بعشق جلي ونظراتها تصرخ بوجع الخيانة وجرح الأنوثة..

ولما كان وجعها أكبر من تحمله فقد أخفض عينيه أولًا وهو يسألها بقلق لم يحاول إخفائه:

- عايز أطمن عليكِ يا حبيبة.. طمنيني أرجوكِ..

أغمضت عينيها للحظات وهي تبتلع غصة مرارة كادت تتسبب في اختناقها.. فهو يقف أمامها بكل جرأة يسأل عن أحوالها وكأنه لم يمنحها طعنة سامة مزقت ستر علاقتهما الهشة، وليته اكتفى بالطعن فحسب، بل كان هو الطاعن والسلاح والأسوأ تلك النظرة بعينيه التي تدعي الألم والجرح.. وكأنه لم يكتفِ بكونه القاتل وأداة الجريمة فطمع أيضًا بدور الضحية!

عاد صوته يتردد وكأنه يذكرها بجريمته:

- أنتِ كويسة يا حبيبة؟..

لتستمر بإغماض عينيها وهي تبتسم بمرارة:

- كويسة!.. آه كويسة.. كويسة جدًا.. كويسة زي ما كنت إمبارح وزي ما كنت أول إمبارح.. وزي السنة اللي فاتت واللي قبلها..

وفتحت عينيها بغتة وهي تواجهه بقسوة:

-زي قبل ما أتجوزك من تلات سنين.. قبل زي بعد..

هتف بقلق:

-حبيبة!

سخرت بعنف:

-إيه!.. مش قلت عايز تطمن..

اقترب خطوة هاتفًا:

-اسمعيني يا حبيبتي..

لتتراجع هي خطوتين هاتفة باستنكار:

-حبيبتك!!

بسط يديه أمامه ببداهة:

-حبيبتي ومراتي.

فرفعت سبابتها بوجهه تسأله:

-وأم ابنك؟.. مين أم ابنك؟

حرك نبيل كفيه متوسلًا:

-أرجوكِ سيبيني.. أفهمك..

تأملته حبيبة للحظة قبل أن ترفع ذقنها بشموخ:

-طلقني..

ارتجف نبيل لمجرد سماعه الكلمة وحول نظراته لصلاح وكأنه يطالبه العون، بينما صلاح كان يجاهد للتحكم بغضبه.. فانهيار حبيبة بتلك الطريقة هو حدث مسبوق..

ربما بداخله، بأعمق أعماقه.. شيء ما يتعاطف مع نبيل، فهو بكل الأحوال رجل ويحق له إنجاب وريثه.. وإن كان العيب بحبيبة.. فسينتظر قليلًا حتى تهدأ ثم يحادثها.. ربما يخبرها عن ريم صديقتها وقرارها العاقل بالبقاء على بيتها والسماح لعلي بالزواج والحصول على طفل يكون له سندًا ودعمًا..

لكن موقف حبيبة المتصلب وانهيارها لا يساعدا إطلاقًا ليدير الدفة لتلك الناحية.. ويبدو أن زوجة نبيل الثانية تحمل طفله بالفعل.. لذا المسألة

منتهية.. وسيحقق لشقيقته ما تريده بأي طريقة.. فإذا كان نبيل له مطلق الحرية بزوجة ثانية، فحبيبة بالمثل يحق لها الحصول على حريتها وتركه ليهنأ بزواجه وطفله.. بعيدًا عنها..

اعترضه صلاح قبل أن يصل بخطواته لحبيبة وهو يضع يده على كتفه وكأنه يمنعه من الاقتراب منها مخبرًا إياه بحزم:

- يعني اتجوزت ومراتك حامل!.. ربنا يكرمك يا نبيل بس بعيد عن أختي.. هتطلقها بهدوء.. وما تنساش أنها أولًا وأخيرًا بنت عمك.. فزي ما كان الارتباط بالرضا والمعروف، نفارق بالمعروف.. وربنا يهديك لمراتك وابنك..

وتفقد حبيبة كل ذرة تعقل وهي تسمع صلاح يجمعه بزوجة وابن ليس لها فتصرخ بجنون وهي تحيط رأسها بكفيها وتحركها يمنة ويسرة بسرعة:

-أيوه ابنه.. ابنه اللي حرمني منه سنين.. طلقني يا نبيل.. بس الأول.. عايزة أعرف مين اللي استحقت تديها ابنك؟ مين يا نبيل؟..

وانحنت بجذعها وهي تطلق صرخة شقت قلب شقيقها وهو يراها بتلك الحالة فالتفت لها يحيطها بذراعيه وهي تكرر:

-ميين.. ميين..

ونبيل يكاد يتحطم أمام انهيارها.. لا يريد أن يدفعها لانهيار عصبي آخر.. ولا يتحمل رؤيتها محطمة هكذا.. ويسارع يطمئنها:

- حبيبة.. اسمعيني.. صفية دي ولا حاجة.. ولا تعني لي أي شيء.. الولد هيكون ابنك أنتِ..

تضرب رأسها بصدر أخيها بيأس وتصرخ:

- هنرجع تاني لكلام المجانين..

ويصدم صلاح بالكلمة، بل لا يفهمها من الأساس.. كيف سيمنح طفل الأخرى لشقيقته.. بأي منطق وأي فطرة!..

وجد لسانه ينهر نبيل بعنف:

-إيه معنى الكلام ده يا نبيل؟!

وتتمسك حبيبة بقميص شقيقها بجنون.. تهزه بقوة كأنها تستدعي قوته، غضبته، حمايته وحمائيته.. ودموعها التي تغرق وجهها كانت كفيلة بإشعال نيران أخيها وهي مستمرة في حركتها اليائسة وكلماتها الأكثر يأسًا:

- أيوة يا صلاح.. اسأله.. اسأله يعني إيه؟.. يعني إيه يحرم علي لمسة واحدة طول جوازنا ويروح يدي ابنه لـ.. لـوعاء!!

وتضرب بقبضتيها صدر شقيقها بوهن وهي تصرخ وقد شرخ صوتها وجعًا:

- وعاااء.. وبعدين جاي يقولي ابننا.. لا مش ابننا.. مش ابننا يا نبيل.. مش ابني..

وترفع عينيها لشقيقها وهي تهز رأسها نفيًا:

-مش ابني يا صلاح.. مش ابني..

وما يسمعه صلاح يكاد أن يفقده عقله.. ما معنى أنه حرم عليها لمسة!.. وما قصة الوعاء؟.. أي جنون كانت تحيا به شقيقته!!

التفت لنبيل وهو يزيد من ضم شقيقته ليخبره بحزم:

-روح يا نبيل دلوقتِ..

وتؤمن حبيبة على كلمات شقيقها:

-أيوه امشي يا نبيل.. امشي من هنا.. بس الأول تطلقني.. سامعني..

ويعلو صوتها بهياج:

-طلقني..

رفع نبيل يده نحوها ثم قبضها بعنف وهو يخبرها بهدوء:

-أنا هسيبك ترتاحي دلوقتِ.. ولينا كلام بعدين.. بس لازم تفهمي أني عمري ما هتخلى عنك ولا هطلقك أبدًا..

وهدوؤه يصيبها بالجنون.. النار بجوفها تحرقها وتخيله يذهب لينعم بطفله مع الوعاء خاصته يشعل أعصابها فتصرخ بجنون وهي تجذب خصلاتها تكاد تقتلعها:

- يبقى هخلعك يا نبيل.. هخلعك ومش هفضل ساعة واحدة على ذمتك.. هاخلعك وأنت عارف إن قضيتك خسرانة.. ومن أول جلسة.

راقب نبيل ذلك البريق الوحشي بعينيها ليدرك أنه يواجه حبيبة التي لم يعرفها من قبل.. وقسوة الانفعال تخبره بشيء واحد..

أنها تعني كل كلمة صرخت بها..

هي ستخلعه بالفعل.. وبجوارها شقيقها سيؤيدها بكل خطوة..

***

وما مربه صلاح بذلك اليوم كان أكبرمن أن يستسلم.. أعظم من خضوع لرغبة فطرية ليصبح أبًا.. يرى نسله وذريته تمتد أمامه.. لقد خضع نبيل لتلك الرغبة فكلفته حبيبة..

وحبيبة وكلماتها العجيبة!!..

لقد أراد الاستفسارمنها عن صحة ما فهمه من تلك الكلمات وخاصة أن والدته كانت وقتها خارج المنزل.. إلا أنها عاودت الانهيارثانية بعد خروج نبيل.. فلم يكن أمامه سوى إعطائها قرصًا مهدئًا ومجاورتها حتى هدأت ونامت.. وبعدها وصلت والدته فتركها برعايتها وعاد لمنزله..

عاد ليجد بسمة تقابله بابتسامتها الحانية وقد أعدت له وجبة غذاء من أصنافه اللبنانية الأثيرة، ولكنه ترك كل هذا واختفى بمكتبه حيث تقوقع واعتكف بالأيام الأخيرة.. يفكر بكل ما مضى..

معاناته المريرة مع بسمته الأولى.. التنقل بين الأطباء.. التأرجح بين الأمل واليأس.. رؤيتها تتعذب وهي تجاهد آلامها بأيامها الأخيرة.. ولرحمة القدر بها وبه لم تطل تلك الأيام.. ليواجه نفسه بشجاعة..

هو غير قادر على مواجهة فقد جديد.. لن يواري جثة معشوقته التراب.. وبسمة هي المعشوقة والزوجة والصديقة وتوأم الروح.. لن يضيع حبه ثانية حتى لو رغب أن تكون هي أم الأبناء، فليستغنِ عن هؤلاء الأبناء وتبقَ هي تدفئ برودة حياته التي لن يتحملها بعدما أذابت شمسها جليد غرفات قلبه..

طرقاتها الرقيقة على الباب بعدها دلفت بهدوء وهي تحمل صينية رصت فوقها عدة أطباق..

وضعتها أمامه وهي ترمقه بنظرة متوسلة.. وبدأت بتقطيع طعامه، بل وإطعامه برقة وحنان..

مسدت وجنته وهي تسأله بلهفة:

-أخبار حبيبة إيه؟



سمح لها بوضع قطعة طعام بفمه قبل أن يخبرها بحيادية:

-طالبة الخلع.

شهقت بسمة بقلق وهي تستوعب الكلمة وسرعان ما قص عليها صلاح ما حدث بين حبيبة ونبيل.. فهو يحتاج ليخرج جزءً مما يدور بعقله ويطبق على أنفاسه وإلا جُن، ومع كل كلمة كانت عينا بسمة تتسعان بذهول..

ويتفقا معًا ألا يخبرا والدته حاليًا على الأقل.. وينتظرا قليلًا حتى تهدأ أعصاب حبيبة وربما يكون استطاع صلاح وقتها إقناع نبيل بالطلاق..

انتهى من الحديث مع انتهائها من إطعامه، فأزاحت الصينية بعيدًا بينما هو جذبها بخفة ليجلسها على ركبتيه ويلفها بذراعيه بصمت.. لتجذب هي كفه الكبيرة وتضعه على بطنها برفق.. تسأله بنبرة عاتبة:

-معقولة تفكر تضحي بابننا.. حتة منك ومني!.. يهون عليك؟

رفع رأسه لها يسألها باستنكار:

-أومال عايزاني أضحي بيكِ أنتِ!!

وتحيط وجنتيه بكفيها وهي تخبره باطمئنان:

-يا حبيبي الدكتور قال ما فيش قلق.

ليشيح بوجهه بعيدًا وهو يخبرها بجفاء:

- ودكاترة بسمة قبل كده قالوا المرض انتهى وانتصرنا عليه، وبعدها بشهور كنت بدفنها.. أنا مش مستعد أكرر الماضي.

وتبتلع تلك الغصة التي تخنقها بكل مرة يذكربها اسم حبيبته، تعلم أنه منفعل.. يردد ما يدور بعقله أمامها وكأنها هي نفسه يُسر إليها ما بأعماقه بلا تجميل أو مواربة.. وهذا يكفي.. وخاصة أن رعبه وقلقه من فقدانها هو ما يتحكم به الآن..

لفت وجهه ليواجهها وبادلته نظراته بصمت للحظات ثم ضمت رأسه لصدرها تحاول بثه ولو قليلًا من الأمل والاطمئنان:

- خلي ثقتك وإيمانك بربنا أكبر من كده يا صلاح..

ويعاند بقوة:

- ربنا قال "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة"..

أبعدته رأسه قليلًا لتهتف بغيظ:

-هتفسر الآيات على كيفك يا صلاح!

غمغم بأسف:

-أستغفر الله العظيم.. مش قصدي.. بس أنتِ فعلًا بتخاطري.. وأنا ما أقدرش أعيش من غيرك..

أراحت رأسه على كتفها وهي تهمس له:

-ربنا يخليك ليَّ..

زاد من ضغط ذراعيه حولها بقوة وكأنه يتشبث بوجودها قريبًا منه وسمعها تهمس له:

-طيب إيه رأيك ناخد رأي دكتور تاني؟

وافقها متحمسًا:

-تاني وتالت ورابع.. ولو في نسبة ولو ١% خطر.. هننزل البيبي على طول.. أنتِ أغلى عندي من كل الدنيا دي..

ضمت نفسها لصدره تطلب هي الأخرى مزيدًا من الأمان.. وتدعو أن يكون رأي هؤلاء الأطباء داعمًا لها..

فهي لن تتنازل عن طفلها.. أبدًا.. حتى لو رأى والده خلاف ذلك..

***

يخضع الإنسان لمخاوفه.. فيسقط حبيس أوهامه، أو يحاربها... معركة قد ينتصر بها وقد يخسر إلا أنه سيكون نال شرف المحاولة على أقل تقدير..

وهذا ما تحاوله سمية، تصارع كل ليلة كوابيسًا مختلفة.. تارة سعد وهو يبعث من مرقده خصيصًا ليذيقها ويلات صفعاته وركلاته، وتارة إيهاب

والخوف الذي بدأ يسكنها أن شقيقها خطا خطوات واسعة بسكة الضياع، حتى زواج رانيا وسفرها لذلك الزوج العربي لم يهدئ من مخاوفها تلك..

لذا فأصبح صراخها المفزوع بعد كل كابوس روتينًا ليليًا عند حمزة.. فيذهب لغرفتها ويوقظها من ظلمات كابوسها ويمنحها كوبًا من الماء البارد ولا يتركها حتى تهدأ وتعاود النوم ثانية.. ولكن تلك الليلة مختلفة.. فهي علمت بالصدفة من آية أن إيهاب سيعود للمنزل بعد يومين، ورغمًا عنها أصابها ذلك الخبر برعدة باردة..

ذكرى أنامله تضغط على فقرات عنقها الضعيفة ما زالت حية بذهنها، بل حية أكثر من اللازم.. وصراخها كان للمرة الرابعة وربما الخامسة تلك الليلة، فهي فقدت العد في مرحلة ما..

لم يفاجئها وجود حمزة وهو يجاورها يمنحها كوب الماء بصمت وعيناه تقدحان غيظًا.. هو يحتاج للنوم فعمله بالصباح الباكر..

ومع سحبه الكوب من يدها السليمة فوجئت به يستلقي بجوارها ويسحبها لتنام بين ذراعيه هامسًا بهدوء:

-نامي يا سمية..



تنام!.. كيف؟.. ما الذي يفعله بجوارها؟.. ورأسها!.. كيف رقدت على ذراعه بتلك الأريحية!!.. وذراعه تلك التي تستلقي على خصرها وكأن ما يفعله شيئًا طبيعيًا يجري كل يوم!!..

همست بدورها:

-حمزة!..

وجاءت إجابته بلفظة غامضة...

-أنت هتنام هنا؟..

شعرت بزفرته تتغلغل خصلاتها وهو يسألها:

-أنتِ شايفة إيه؟

كانت محاصرة بين ذراعيه، تكتم أنفاسها، مغمضة عين واحدة وتفتح الأخرى.. تحاول تنسيق جملة ذات معنى تخبره بها أن يتركها هي وكوابيسها معًا.. لن تمانع.. فهي على الأقل اعتادتهم، بخلاف وضعها الآن!..

عادت تسأله ثانية:

-ليه؟..

فوجئت برأسه تطل عليها من علو وهو يسألها بعجب:

-ليه إيه!!.. عشان تنامي.. عشان تعبت رايح جاي بين الأوضتين وعايز أنام.

رمشت عدة مرات بتردد وهي تحرك رأسها بموافقة صامتة.. وكأنها توافقه أن كوابيسها لن تجرؤ على زيارتها بوجوده.. فهو قادر على بث الرعب في أشباح الظلام نفسها!..

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيه وكأنه رأى أفكارها تلتمع بوضوح في عينيها وعاد لوضعه الأول ورأسه تتحرك لا إراديا لتقترب من خصلاتها التي تفككت قليلًا من جديلتها الطويلة..

لم تغمض عينيها للحظة وظلت ترقب الظلام أمامها.. وهي تفكر بطريقة تبتعد بها بعد نومه.. تعلم يحتاج لفترة نوم مناسبة ليتمكن من الذهاب إلى عمله وكوابيسها لا تساعده.. ولكنها لن تتمكن من النوم هكذا!..

تململت بنومتها تحاول التملص من حصار ذراعيه، وحاولت أخذ وضع أكثر راحة مرة.. وأخرى.. وثالثة.. لتفاجأ بصوته يهتف بها:

-اهدي يا سمية ونامي.. عندي شغل الصبح..

تجمدت على الفور وهمست بطاعة:

-حاضر يا حمزة..

رن صوتها بأذنيه للحظات.. تلفظ اسمه بطريقة مميزة!..



وكأنها تضغط حرف الزاي وتأكل باقي الحروف.. لم يعرف لمَ رسم ذلك بسمة مبهمة على شفتيه!.. ولم يرد أن يعرف..

فهرب من أفكاره بسرعة وهو يخبرها:

-إن شاء الله أول ما تفكي الجبس نسافر يومين..

لم يمنحها فرصة للاستدارة وخشيت هي التحرك فسألته بتوجس:

-نسافر فين؟

أجابها ببساطة:

-إسكندرية..

لم يغفل عن الرعدة الخفيفة بجسدها وأعقبها تجمدها التام وهي تسأل بصوت مختنق:

-ليه؟

من صوتها ورعشتها أدرك أنه اتخذ القرار السليم.. فهي ترفض الخوض بالماضي.. ووالده لن يخبره بمآثر ابنه المدلل.. لذا الحل الوحيد هو العودة لذلك الماضي وكشفه تمامًا.. ربما وقتها يصل لنقطة سلام مع الجميع..

لم يخبرها بهدفه الأصلي بالطبع وأجابها بسؤال:

-مش عايزة تغيري جو؟

مازال يشعر بتيبس جسدها بقربه وهي تسأله ثانية:

- هنقعد فين؟

طمأنها وهو يستوعب مخاوفها من الإقامة بشقة سعد القديمة:

-المعمورة.. تعرفيها طبعًا.

أطلقت تنهيدة راحة وهي تهمس بذات الصوت المخنوق:

-لا..

كرر بتعجب:

-لا!!.. برضوه ما روحتيش ولا مرة؟

وهمست:

-ولا مرة..

سبقه لسانه قبل أن يلجم الكلمات التي تقافزت عليه:

-كويس.. عشان تشوفيها أول مرة معايا!

أغمضت عينيها بقوة.. كلا هو لم يقل تلك الجملة.. وهي بالتأكيد لم تسمعها.. بينما هو عض لسانه بغيظ..

من أين أتى بتلك الكلمات!.. يبدو أن ظلام الغرفة بدأ يؤثر بعقله..

همست بخفوت لتنهي الصمت الحرج:

-تصبح على خير..

لم يجبها إلا بعد فترة:

-وأنتِ من أهل الخيريا سمية.

وعلى غير ما توقعت بدأ النعاس يغالبها وكانت آخر فكرة تجول بذهنها.. لم يضم حرف السين بشدة وهو ينطق باسمها!

***

والخضوع لا يعني بالضرورة الرضى بالذل، بل ربما ويالغرابة الجملة: الذل قد يكون بتلك الحالة رفاهية لا تُنال.. الهوان والامتهان، الانتهاك، الرضا بانحراف غير مفهوم لعقلية طفلة.. ثم بعدها يأتي الفهم، فالكره والإكراه..

والصمت لا يعبر وقتها عن خضوع بل هو يأس ممتزج بذنب.. وتبًا ألف تب لذنب تنوء بحمله ضحيته بينما يعيث الجاني مرحًا وجموحًا بلا محاسبة ولا عقاب..

جالسة على أريكتها المريحة وبجوارها طبقًا مملوءً عن آخره بالفوشار.. تتابع فيلمها المفضل، بل فيلمه هو المفضل "نص ساعة جواز".. كانت تلمح المشاهد وبعقلها تتردد تعليقات علي بدلًا من الحوار الحقيقي للفيلم..

مزاحه حول لفظة التدليل الشهيرة بالفيلم وطلبه الجاد وإن غلفه بصورة مازحة أن تدلله وتتدلل عليه، تلميحه المستترذات مرة حول فكرة الفيلم وكيف أن الكذب قد يهدم حكايات الحب، يومها أجابته أن الكذب قد يُحيي قصصًا أخرى.. وتفادت صدمته بتحويل المناقشة لاتجاه هزلي... فهي لن تستطيع مجابهته بنقاش جاد حول كذبة حياتهما الزوجية..

تنهدت وهي تغمض عينيها تحجب عنهما رؤية الشاشة، لترى بعين خيالها علي ببيته الآخريضم رؤى ليشاهدا الفيلم معًا، يريحها على صدره ليهمس بمزحة ما فتتعلق عيناها به بافتتان.. ويميل هو لـ...

"كفاية"..

صرختها بصوت عال وهي تنهض فجأة لتغلق التلفاز.. وتغلق عقلها عن التفكيروالتخيل بكل ما يفعله علي بعيدًا عنها.. ذاك كان اختيارها وعليها تحمله للنهاية.. فبكل الأحوال هي لن تمنحه مثل رؤى، بل هي عاجزة حتى عن المحاولة.. لتكتفِ بوجوده حولها فهو رغم حداثة زواجه إلا أنه لم يهجر منزلها كما كانت تخشى..

برغم وجع بعاده عنها، برغم ألم اشتياقها له.. وحتى الغيرة التي تحرق جوفها أحيانًا إلا أنه يستحق كل تضحية.. يستحق السعادة والذرية.. حتى ولو من أخرى..

دخلت فراشها تحاول استدعاء النوم وتجاهل جموح أفكارها.. تريد النوم كغيبوبة هروب وتخشى كوابيسها.. تلك الكوابيس التي عادت تطرق عقلها بقوة بعدما ظنت لفترة أنها نجت منها..

وابتسامة مريرة ترتسم على شفتيها.. وسؤال يردده عقلها وهل لأمثالها نجاة؟!..

هل ظنت أنها قد تفلت من ماضيها فقط لأنها قررت أن تتناساه!.. أن تغلق عقلها وتمحي ذكريات سنوات من الخضوع!.. من الامتهان والانتهاك!.. من الصمت المخزي!..

كيف ظنت أنه يمكنها فتح صفحة حياة جديدة.. صفحة نقية بنقاء حب علي لها وهي لم تتطهر من صفحاتها الغابرة!.. كيف تمنت لحظة أن تنال راحة القلب بجوار الحبيب بينما الجسد مهان منتهك ملوث بقذارة غاصب مغتصب!..

يدها امتدت بارتعاش تفتح جارورًا موصدًا بجوارها لتخرج منه دفتر مذكرات بدا عليه القدم وعدم الاستعمال.. تلمسته أناملها بخوف.. فهنا يسكن ماضيها ببشاعته وظلماته..

صفحات.. وصفحات.. عشرات منها.. ومئات الكلمات، بل آلاف.. لكنها لا تعبر عن ذرة من وجع وخوف وقهر عاصرته لسنوات..

"جميلة"... "بحبك".. "مين هيصدقك"... "هتسمعي الكلام".. "آية كبرت".. "لو مش أنتِ هتبقى آية"..

أغلقت الدفتر بسرعة وهي تشهق بعنف وتعيده لموضعه السابق.. أغمضت عينيها بل عصرتهما تعميهما عن رؤية المزيد.. ورفعت كفيها تحيط برأسها.. ضغطت شفتيها بقوة تمنع دموع قهر كبتتها طويلًا.. عضت لسانها، بل غرزت أسنانها به تمنع همسة ألم من الخروج للنور.. فمثلها لا تستحق حتى توجعًا يمنحها الراحة..

هي أخطأت.. وليست مرة واحدة، بل مرات لا تعد ولا تحصى..

وآخر أخطائها كان بتوريط علي المسكين مع زوجة مثلها.. فمن على شاكلتها لا تستحق الحياة.. الحب.. ولا حتى احترام.. وكما أخبرها ممدوح ذات مرة أن مثيلاتها يجب وأدهن.. فهن نداء لكل خطيئة.. ومركز لكل إثم.. وما هو إلا خاضع مسلوب اللُب أمام فتنة فجة لم ترحم حواسه فامتلكها ليرضي غرائزه..

هو ضحيتها رغم أنها المنتهكة الذليلة.. هو طريدتها رغم أنه من افترسها عنوة وغصبًا.. هي من استعبدت غرائزه بقيد أنوثتها الوليدة رغم أنه صك جسدها بختم عبوديته فأضحت جارية خرساء خوفًا وقهرًا..

ممدوح!

برق الاسم بعقلها لوهلة.. فدفعت الغطاء بجنون واندفعت لدورة المياه تفرغ كل ما بجوفها.. ثم تتهالك أرضا، أنفاسها سريعة.. عيناها تدوران بضياع ودقات قلبها تتسارع وكأنها تجاهد لتضخ بجسدها بعض الدماء قبل أن تزهق روحها وجسدها ينتفض ربما فزعًا، بل الأغلب تقززًا واشمئزازًا..

تجر نفسها جرًا لتغادر دورة المياه ويعجز جسدها عن إكمال الطريق فتتهالك على أرض غرفة نومها.. وذكرياتها تتسابق لتفتك بما تبقى من عقلها.. وتقضي على أمانها الهش..

وكأن الليلة تأبى أن تنتهي إلا وهي تعايش كل لحظة من ماضيها.. وتراها رؤى العين..

فها هي صبية صغيرة بالعاشرة؛ حياتها تقتصر على دُماها وألعابها وحلواها.. مدللة الجميع، بداية من والديها، مرورًا بحمزة الأخ الأكبر والحنون..

وأخيرًا ممدوح ابن العم والأشد حنانًا من الجميع..

كان دائمًا يمنحها اهتمامه الخاص.. والخاص جدًا.. يميزها عن بقية فتيات المنزل.. فهي مدللته الأثيرة.. وهي نصبته فارسها ذا الدرع الحامي.. يجيب



طلباتها بدون نقاش.. يستمع لثرثرتها البريئة.. ويبادلها اهتمامها الطفولي البرئ.

لم تفهم وقتها لمساته الخفية لجسدها الطفولي.. ربتة على الكتف، عبث خفيف بخصلاتها المجدولة، لمسة خاطفة لعنقها وقبلة ظنتها بريئة لوجنتها.. كان حارسها وفارسها وشقيقها الأكبر، بل أنه كان يسبق حمزة بعدة سنوات بالعمر ويساعد والدها بمتجر الثياب، وهو مصدر ثقته وفخره أيضًا..

وبعمر الثالثة عشر.. ومع نضوجها الأنثوي المبكر بدأت تستشعر الحرج من التصاقها الطفولي بابن عمها وبحاسة أنثوية تجاهد للنضوج تجنبت الانفراد به قدر استطاعتها واستمعت لحدسها البرئ الرافض للمساته - والتي كانت تظنها وقتها عفوية- لجسدها الفائر بأنوثة مبكرة..

وفي تلك الفترة الحرجة بين بدايات مراهقة ووداع طفولة عقد ممدوح خطبته على إحدى زميلاته، ليلتها بكت ريم بسذاجة بريئة ففارسها الحامي سلبته أخرى..

أخرى أجادت ريم منحها معاملة طفولية سخيفة حتى أنها كانت تشكو لممدوح من معاملة ابنة العم المدللة..



كانت تتصرف بعفوية وبراءة طفلة سُلِب منها شقيق أكبر يدلل ويهتم ويشاركها لهوها البرئ.. ولم تصدق أذنيها يوم أن نهرها بشدة لتطاول مزعوم على مخطوبته الشمطاء كما كانت تدعوها سرًا..

يومها اعتكفت بغرفتها باكية غير مصدقة أن حليفها الأول يهينها بتلك الطريقة والأدهى أنه قام بذلك أمام خطيبته فكان جرحها مضاعفًا خاصة أنها لم تخطئ يومها بحق الفتاة..

ولكنه فاجأها بعد قليل بدخوله عليها يمسح بكائها ويمحي دمعاتها مرددًا كلمات دلاله لها وعابثًا بخصلاتها كعادته.. سعادتها بمراضاته لها أعمتها عن تلك اللمسات اللحوحة وذلك القرب الغير مسموح به والذي بادر به للمرة الأولى حيث قربها من جسده بقوة مرددًا اعتذاره لتعنيفها أمام خطيبته ومنهيًا اعتذارة بقبلة الوجنة المعتادة، إلا أن تلك المرة زحفت شفتاه لينال براءة شفتيها ويدهسها بقبلة ملوثة بنواياه الدفينة..

وبرد فعل يليق بطفولتها دافعت عن برائتها بدفعه بعيدًا وقد زادت دمعاتها ونهرته بسذاجة ألا يراضيها بتلك الطريقة ثانية.. فهي تعلم أنها "عيب".. ولا تصح..

لم تفهم يومها تلك النظرات المرعبة بعينيه ولا تحول وجهه الهادئ عادة إلى وجه حيواني منفر.. دفعها للهرب من أمامه والاختفاء طوال اليوم..

آه فقط لو كانت تعلم ما يضمره لها بنفسه لكانت اختفت من أمامه للأبد!

لفت نفسها بذراعيها تجبر ذهنها على العودة لواقعها.. هي لم تعد تحت رحمته.. هي بأمان، ببيت علي.. حتى بعدم وجوده يكفي أنه زوجها.. فلتنسَ ذلك الماضي وتعيد إغلاق أبوابه ثانية.. الذكرى لن تجلب معها راحة أو تطهيرًا بل مزيدًا من الدونية والحقارة..

حاولت الزحف لتصل لفراشها إلا أن استرجاع الذكرى كان قد سلب قواها تمامًا فتقوست بنومتها أرضًا تحتضن جسدها وتحاول الهروب من ماضيها بنوم أو ربما إغفاءة مضطربة هاجمتها بها كوابيسها المظلمة بلا رحمة.. وكأن قسوة الذكرى لم تكفِ فتكاتف النوم مع هياج أفكارها ليكملا أحداث ماضٍ تمنت لو أنها ماتت ألف مرة قبل أن تستعيدها ثانية..

ولكن كان لماضيها اليد العُليا فتواترت المشاهد بعقلها بلا توقف؛ فبعد هروب ريم من أمامه وقرارها الصامت بتجنبه والابتعاد عنه تمامًا، بدأت تختلي بنفسها في تلك الغرفة الخالية فوق سطح المنزل، فكانت تجلس بها لساعات بين رواياتها الرومانسية والتي كانت تدمن قراءتها، وكان ممدوح قبل قطيعتها له يمدها بالعشرات منها.. ولكن بعد تلك القبلة الوقحة منه قررت بطفولية مخاصمته، وربما كان هاجس أنوثتها هو من دفعها للابتعاد..

ابتعادًا لم يسمح لها به، فبعد كل شيء لقد نضجت الفريسة وحان وقت التهامها، وهو ينوي التمتع بكل لحظة بقيت له بمنزل عمه.. فإن لم يستطع تحصيل ما يظنه حقًا له ولشقيقته من مال عمه، فسينال حصته كاملة من جسد الصغيرة الشهية والتي انتظرها بما يكفي لتنضج وحان وقت قطاف ثمار تلك الأنوثة وتحويلها لامرأة ترضي شهوته القذرة..

فخطيبته رغم نضوج جسدها مقارنة بابنة العم الصغيرة إلا أنها لا تمنحه ذرة من المشاعر التي تمنحها له ملامساته المتعمدة لجسد الصغيرة..

وبظهر أحد الأيام وبينما ريم هائمة وسط سطور إحدى رواياتها وبأذنيها تضع سماعات صغيرة تسمع عبرهما مقطوعة موسيقية هادئة.. تفاجأت بممدوح يجاورها بجلستها ويحيط كتفها بذراعه كعادته السابقة والتي كانت تظنها حركة أخوية بحتة، ولكنها فوجئت به تلك المرة ينزع السماعات من أذنيها ويلف وجهها نحوه بخشونة متسائلًا بصوت ثقيل..

"لسه غزالتي زعلانة مني"..

أرعبتها نظرة عينيه وأنفاسه الثقيلة وبشرته المحتقنة.. لم يكن ممدوح ابن العم الطيب، بل كان آخرًا يمنحها نظراته وكأنه وحشًا ما يقيم فريسته..

ازداد ضغط يده حول فكها وهو يطالب برد على سؤاله.. فكانت إجابتها الوحيدة هي دموعها وهي تخبره بخوف..

"أنت بتخوفني يا ممدوح"..

عاد يقربها منه أكثر وضغط يده يزداد حول فكها وهو يخبرها بتثاقل..

"أنتِ اللي غلطانة يا ريم.. أنتِ حلوة قوي.. مش حلوة بس.. أنتِ اللي زيك خطر.. خطر عليَّ.. خطر لازم أتخلص منه.. أو أسيطر عليه"..

هزت رأسها بحيرة ودموعها تتواصل ونظراتها المرتعبة تجبرها على السكون.. فبنظراته الغريبة ورغم صغر سنها إلا أنها لمحت نهايتها... وأخذت تردد ثانية..

"ما تخوفنيش يا ممدوح.. أنا ريم.. أختك"

قالت كلمتها الأخيرة بتردد ليفاجئها بجذبه لخصلاتها بعنف..

"حبيبتي.."

بصق الكلمة بوجهها بسرعة وأعقبها بقبلة همجية على شفتيها مما دفعها لعضه ومحاولة دفعه بعيدًا.. فلم تعد تحتمل جنونه، ستهرب فورًا لوالدها وتقص عليه أعمال ابن أخيه المجنونة.. كانت تلك أفكارها الهائجة والتي هتفت بها بلا وعي وهي تتجه للباب..

"أنا هحكي لبابا على كلامك ده..."



قطعت كلماتها عندما اكتشفت أن الغرفة موصدة وسمعت ضحكته الساخرة وهو يمسك بالمفتاح بين أنامله وكأنه يخبرها بوضوح أن لا مخرج لها إلا هو..

راقبته يخفي المفتاح بين ثيابه ليسقط منها ثوب الشجاعة وتنهار بجوار باب الغرفة تناجي ممدوح ابن العم الذي ألفته طوال سنين عمرها.. تحاول إزاحة ذلك الوحش الذي يتربص بأنوثتها وشرفها..

وجدته يقترب منها ويجاورها وهو يعاود ضمها بتلك الطريقة البغيضة.. والتي أصبحت ترعبها بشدة.. وبدأ يمسح دموعها ثانية ويسمعها كلمات الدلال المعتادة إلا أنها كانت تلك المرة ممزوجة باعترافاته المقززة..

فتارة يخبرها عن اشتهائه لها حد الوجع وهي تبكي.. تصرخ ولكن بلا منقذ..

وتارة يهمس لها بكلمات كرهت معها كونها أنثى فقط لأنها جذبت انتباهه..

ومع توالي كلماته ازدادت مقاومتها.. ركلت، ضربت، سلخته بأظافرها الصغيرة.. كان استمتاعه بمقاومتها يزداد مع كل حركة منها.. حتى تهديدها الأكيد بإخبار والدها لم يلقِ له بالًا.. ففور أن ينالها لن تجرؤ على التفوه بكلمة ضده..

ظلت تتلوى بين ذراعيه، تقاومه بكل الطرق، ترفض لمساته التي لم تنقطع لكل شبر بجسدها..

لا تصدق أنها تتعرض لتلك المعاملة، لذلك الانتهاك وهي بمنزلها.. ومن يؤذيها هو من يفترض به حمايتها!..

مقاومتها تطربه وكأنها تمنحه إثارة إضافية، صراخها يسكته بقبلاته فكرهت الصراخ، بل كرهت شفتيها وجسدها بأكمله.. وأخيرًا عندما يئس من استسلامها له، أشهر بوجهها مديته الخاصة، يرفع بها تنورتها وكأنه يخبرها إما تصمت وتخضع له.. أو يخرسها للأبد..

ومع سكينه فوق عنقها وحزام سروال يقيد معصميها معًا وشفتاه تخرس كل صرخة مزقت أعماقها؛ ودعت براءة طفولتها للأبد.. وأضاعت مراهقتها إرضاءً لغرائز حيوانيته.. ودفنت شبابها كله هربًا مما فعله بها بتلك الغرفة..

انتهى أخيرًا منها ليبتعد عنها وقد لفظت طفولتها أنفاسها للتو.. وتكوم جسدها العاري يرتعد رعبًا وتقززًا.. ترغب بطرد كل ما بجوفها بوجهه ولكن رغمًا عنها تخشى نصل المدية فوق عنقها.. خاصة وقد عادت ملامحه لتكتسب هدوئها السابق وقد اختفى شيطانه وهو يدللها كما اعتاد، وإن كان دلاله تلك المرة أكثر جرأة وحميمية وهو يردد لها كلمات العشق ويخبرها أنها حبيبته الصغيرة.. وأنها هي المخطئة فهي من فتنته بجسدها الأنثوي الصغير.. تلك الكلمات التي كان يكررها بعد ذلك بنهاية كل لقاء بينهما.. حتى أنه كان يجبرها على ترديدها خلفه..

وأخيرًا عاد يهمس بأذنها..

"ده سرنا يا غزالتي"

"ماحدش هيعرف باللي حصل"..

"لو نطقتِ بكلمة، ما حدش هيصدقك أصلًا.. ولو صدقوكِ هيقتلوكِ، لكن عمرهم ما هيشكوا فيَّ.. أنا قدامهم راجل خاطب وفي حالي.."

"أنتِ عارفة ثقة عمي فيَّ إزاي.. وعارفة خطيبتي اشتكت منك كام مرة.. من الآخر ما حدش هيصدق عليَّ حاجة.."

لم يكن يخبرها بل كان يهددها.. فمع كل كلمة كان نصل المدية يتحرك بخفة على جسدها، ومع نهاية كل جملة كان يضغط بالنصل قليلًا لتفهم أنه لا يهدد فقط، بل سينفذ أيضًا..

وأخيرًا سمح لها بالحركة بعدما حل وثاق معصميها ونهض ليرتدي ملابسه، وهو يرمق جسدها المتجمد بنظراته النهمة.. تصلبت تحت وطأة نظراته فحتى ارتعاشة جسدها تيبست خوفًا من لمعة الرضى الخبيث بعينيه..

ورغمًا عنها راقبته ينهي ارتداء ثيابه والتي بعثرها بفوضى متعجلًا تملك جسدها.. وعقلها يردد سؤال إجابته تقتلها.. كيف يكون بذلك الهدوء والرضى وقد زلزل عالمها لتوه!!.. بل حطمه فوق رأسها وتركها ملقاة وسط الحطام..

كيف تحول الرفيق والصديق، الأخ الحامي –الذي كانت تعتبره بمثابة والدًا صغيرًا لها- لذلك الوحش الذي استحل جسدها وهدد أمنها ونالها رغمًا عنها.. وبالنهاية يتهمها هي بغوايته؟..

هل أغوته حقًا؟!.. ولكن كيف فعلتها!!.. هي لا تعلم ما الإغواء وكيف يقومون به؟..

هي لا تعلم أي شيء عن ذلك العالم الذي جرها ممدوح له عنوة!..

فعندما كان ينتهك جسدها منذ قليل لم تفكر بشيء سوى أنها تموت.. ما فعله كان بمثابة قتل قاسي عنيف لعالمها الوردي الحالم.. لقد كرهت كل لمسة، كل اقتراب منه.. فكيف تكون هي من سعت إليه!.. هل هي سيئة فاسدة؟.. أم هو من عشش الفساد بروحه؟.. من تكون!.. هي لا تدري..

ريم ابنة العم الصغيرة كما كان يلقبها ويدللها منذ يومين.. أم هي غزالته الفاجرة!

كما ردد بأذنها عدة مرات وهو يطفئ شهوته بها..

أنهى ارتداء ثيابه وجثى بقربها على ركبة واحدة هامسًا..

"ما لبستيش ليه؟"..



لم تكن تملك إجابة، بل لم تكن تمتلك نفسها بعد الآن.. وكزها بطرف المدية لتجبه بسرعة وكأن غريزتها منحتها الجواب الذي يريده.. فأجابته بكلمات مرتعدة..

"أنت ما قولتليش"..

ربت بمديته على وجنتها وهو يخبرها بتهديد..

"إجابة صح يا غزالتي.."

ثم مد يده لقطعة من ثيابها الداخلية ليدسها بجيبه هامسًا بشغف..

"ذكرى أول مرة لنا يا حبيبتي"..

وجذبها من ذراعها لتقف بمواجهته وهو يقربها منه ثانية..

"البسي هدومك.. وبكره هستناكِ هنا.. في أوضتنا.. وفي نفس الميعاد"..

يومها ماتت ريم.. وبقيت غزالته هو على قيد الحياة.. جارية اشتراها لمتعته المنحرفة.. والثمن كان خوفها.. خجلها.. خزيها مما جرى.. أفكاره التي رسخها بذهنها مرة تلو الاخرى أنها المذنبة وهي من دفعته للإثم.. مديته التي ظل يتلاعب بها طيلة اليوم أمام ناظريها، مرة بدعوى تقشير فاكهة وأخرى بحجة تهذيب قطعة خشبية ما، وثالثة يبرزها فقط بلا هدف واضح..

ولكنها فهمت مقصده واستوعبته تمامًا..

رغم هذا لم تخضع.. ما زالت مقاومتها لما يريده منها بذروتها.. لقد أعادت التفكير ثانية وقررت ألا تمكنه منها أبدًا.. وستنسى كل ما بدر منه بغرفة السطح.. ستسقطه من عقلها تمامًا.. وكأنه لم يحدث.. لن تخبر أحدًا.. ولن تستسلم أيضًا..

ولم تذهب للغرفة باليوم التالي.. وتعمدت التواجد طوال يوم اليوم بجوار والدتها.. لم تسمح له بلحظة ينفرد بها.. ولم تخضع لتهديد نظراته ولا حتى لنصل المدية الملتمع بيده وهو مستمر بتقشير حبات الفاكهة واحدة تلو الأخرى..

وأخيرًا تنفست الصعداء عندما اختفى بالمساء ليلتحق بأصدقائه.. فارتاح عقلها وهدأت مخاوفها وظنت أنها نجحت بالهرب منه، طالما التزمت بالابتعاد عن غرفة السطح.. ولكنها لم تعلم أنه فقط كان ينتظر دخول الليل.. لتفاجأ مع دقات الثانية عشر باقتحامه غرفتها بهدوء وقح ونصل المدية ينغرز عميقًا بصدرها.....

هبت ريم من غفوتها على أرض الغرفة وأنفاسها تتسارع بقوة.. ويدها تتمسك بقبة ثوبها وكأنها تمنع كابوسها المظلم من الوصول لها ثانية.. ولكن هيهات.. لقد قرر الماضي الهجوم الليلة بكامل أسلحته.. وهي فقدت قدرتها على مقاومته أكثر.. لذا رمت برأسها على ركبتيها وهي تستعيد بداية مأساتها.. فهي بأبشع مخاوف طفولتها الساذجة لم تظن أن ممدوح بحرؤ

على اقتحام غرفتها وبيده قطعة ثيابها الداخلية التي سلبها إياها باليوم السابق.. يلوحِ لها بها بغضب صاعق وكأنه يهددها أن يريها لوالدها..

وهمسته الغاضبة تترد بأذنها وكأنها عادت تسمعها..

"مش عيب حبيبك يستناكِ وما تجيش!"..

ارتعشت عيناها وسقطت دموعها بدون وعي وهي تخبره بسرعة..

"حرام عليك يا ممدوح ليه كده!"..

مزق ثوبها بمديته بحركة سريعة ونظراته جنت غضبًا وشهوة..

"قلت لك أنتِ السبب.. أنتِ السبب"..

وكفه تحيط بوجهها بقوة وهو يهتف بفحيح غاضب..

"افهمي.. أنتِ اللي عملتِ فيَّ كده.. الغلط فيكِ أنتِ.. عندك سمية أهي.. ولا ممكن أفكر فيها.. بس أنتِ.. أنتِ حاجة تانية"..

كانت تسمع لهمساته المهتاجة برعب.. وقد تجمدت عبراتها بعينيها المذعورة.. وكتمت كفه الكبيرة أي صوت ممكن تصدره وهو يردد بهذيان..

"اللي زيك لازم تندفن حية.. عشان ما تعملش فيَّ كده"..



ومرة ثانية قيد معصميها وأخضع مقاومتها بنصل مديته.. لينتهي من إرضاء قذارته عبر تحرشه الكامل بابنة عمه الصغيرة.. التي أدركت ليلتها أن لا مهرب منه.. فهو اقتحم غرفتها.. فراشها.. سلب أمانها.. انتهك جسدها.. وامتلكه لسنوات..

سنوات أخضعها لغرائزه.. كانت جاريته الخاصة جدًا.. وقتما شاء وأينما شاء.. وإن كان ينالها بالبداية تحت سطوة سلاحه.. فبعدها امتلك سلاحًا أقوى وهو خشيتها على شقيقتها الصغرى التي كان يهددها بها.. فإن كان مصيرها هي أن تصبح جاريته فلن ترضى بمصير مماثل لآية الصغيرة..

سنوات ظلت أسيرة مديته وفراشه بدون أن يشعر بها أحد.. فحمزة رحل لدراسته بالخارج.. وسعد لم يكن يهتم بأحد من الأساس سوى هوسه المجنون بسمية بينما ممدوح كان لوالدها ذراعه الأيمن ومساعده الأمين..

لا تنسَ تلك المرة التي حاولت بها كشف المستور، وإن كان عن طريق روايتها لواقعها المرير بصورة مخففة للغاية وكأنها تقص عليهم قصة قرأتها برواية ما، لتصدمها كلمات والدها أن تلك الفتاة فاسدة للنخاع، فلا يوجد رجل ما قد يفكر بالنيل من طفلة في رعايته إلا لو كانت هي من أثارته في البداية..

يومها كانت الابتسامة على وجه ممدوح تصف حالها تمامًا.. ونظرته لها تخبرها بوضوح أنه امتلكها حتى إشعار آخر..

وأثبت ذلك فعلًا وقولًا تلك الليلة فقد نالها بدون نصل المدية، بل كانت كلمات والدها الغاشمة ضوءً أخضرًا ليصبح ضيفًا شبه دائم بفراشها.. حتى أنها لم تعد تميز ما يفعله بجسدها.. لم تعد تشعر.. أو تتألم.. تجمد الحزن.. الاحساس.. المشاعر.. العقل.. جفت دموعها.. وأدخلت نفسها غيبوبة دائمة..

كرهت النهار فهي تقضيه منتظرة لساعات الليل التي تتحول بها لدمية لا تجرؤ على الرفض وإلا..

هي تعلم ما النهاية..

كرهت الهواء فهي تتنفس لتعيش.. وتعيش لتحيا تحت إمرته.. كرهت ثيابها.. جسدها.. ملامحها.. كرهت اليوم الذي ولدت به أنثى لتجلب لنفسها مصيبة كهوس ممدوح بها.. كرهت الحياة نفسها وكم تمنت أن تملك الشجاعة لتزهق روحها..

سئمت خضوعها وخنوعها ولكنها لم تجرؤ على لحظة تمرد.. فكيف لمثلها أن تتمرد، وهي أصل البلاء والبلوى..

قنعت أنها الجانية..

أنوثتها هي منبع الخطيئة..

وفتنتها الملفتة هي أساس كل الشرور..

هي الفاسدة المذنبة التي لوثت نقاء ابن عمها الطيب، الذي سقطت مبادئه تحت ضغط إغوائها المستمر له..

فلم تكن تغويه بالثمرة المحرمة، بل كانت هي تلك الثمرة..

ولم يكن لأيهما مهرب.. حتى أنها لم تصدق ذلك اليوم الذي قرر به أخيرًا إتمام زفافه والسفر للعمل بالخارج.. لقد كادت أن تسقط على قدميه تقبلهما.. فقد منحها صك العتق..

تحررت من عبودية خمس سنوات من التحرش الدائم..

من الرعب المستمر.. من حرمانها النوم ليلًا.. من انتفاضتها الفزعة بعمق الليل عندما يقتحم فراشها.. من تلفتها بكل لحظة لتجده خلفها يحاوطها ويحاصرها كعادته وذعر أكبر أن ينتبه أحد لتلك اللمسات القذرة والتي لم يمتنع عنها..

من هلعها أن يخبر والدها فيكون جزاؤها هو القتل.. أو أن يتحول اهتمامه لآية الصغيرة.. تلك الفكرة المرعبة التي زرعها بعقلها مع باقي أفكاره الشيطانية..

ليلة زفافه رقصت لساعات وكأنها هي العروس.. وكانت عروسًا بالفعل ولكن لحريتها.. لراحتها.. لأمان اشتاقته لسنوات.. لدهور.. لطهارة جسد فقدتها لسنوات.. لنقاء طفولتها التي دُهست فداءً لرغبة قذرة..

ليلتها نامت بعمق.. بأمان وطمأنينة..

نامت ونامت.. واستيقظت أخيرًا وقد تناست كل ما حدث بالخمس سنوات السابقة..

وكأنها ما زالت ريم البريئة العاشقة للروايات الرومانسية وليست "غزالة ممدوح الفاجرة" كما كان يحلو له أن يلقبها..

رحل قاتلها تاركًا جسدًا مدنسًا وروحًا مستهلكة وعذرية سليمة لم تمس.. وإن كان دنس كل شيء آخر..

وإن كانت تناست ماضيها الأسود طوال سنوات دراستها.. إلا أن زواجها.. وإدراكها لما هي مقبلة عليه أعاد لها ذكريات جسدها المستهلك.. ولم تستطع السماح لعلي بالحصول على ما دهسه ممدوح سابقًا..

كانت تحتاج للمخدر حتى لا تخلط بين ماضيها وحاضرها.. حتى تتناسى أنها تمنح حبيبها الوحيد بقايا ما تركه من سرق عرضها وأمنها.. تحتاج المخدر لتغيب عن دنياها فلا تذكرها لمسة زوجها بمئات اللمسات التي سلبت منها عنوة وقهرًا..

وأخيرًا لم تعد تحتمل.. عجزت عن الاستمرار والمخدر يفقد مفعوله بتسكين الماضي.. وعلي يذكرها بأطفالهما..



أي أطفال يمكنها أن تمنحه!.. كيف تسمح لأطفال علي الأنقياء بالاستقرار بجسدها الملوث بقذارة ممدوح!!..

كيف تحكي له؟.. وماذا هناك لتخبره!..

هل سيصدقها؟.. أم سيدينها؟.. هل سيتمكن من حبها ثانية؟.. هل سيراها كـ ريم حبيبته الطاهرة؟..

لا تعلم.. بل ربما تعلم وتخشى..

تخشى تلك النظرة التي تتوقعها منه، عندما يعلم أنها كانت ولسنوات دمية ممدوح الخاصة..

سيكرهها.. بالتأكيد سيفعل.. هي لن تنتظر منه سماحًا أو غفرانًا.. فهي لا تستطيع مسامحة نفسها.. لقد دمرت حياتها بالفعل، لتتركه هو يحصل على حياة.. وأطفال.. لن يكونوا أبدًا لها..



الفصل الثاني والعشرون

المقاومة؛ رد فعل غريزي بحت.. ضد الخطر، ضد الخوف، بمواجهة الألم، أو حتى قبالة فرحة نريدها لكن نخشى توابعها.. المقاومة هي سلوك تشترك به جميع الكائنات الحية.. لأجل غريزة تكمن في اللاوعي تحث على الاتخاذ منها درعًا حاميًا.. يقينا هجمات القدر، ويعيننا على تحمل ضربات المصير!

قيل أن الضربة التي لا تقتل، تبعث القوة!

لكنها دومًا تترك أثرًا موجعًا ليس من السهل محوه أو تجاهله، تترك ندبة عميقة بالروح يستحيل التخلص منها حتى لو تجاهلناها لبعض الوقت أو ادعينا تناسيها، تترك ألمًا مهما كان ضئيلًا فسيظل الشرخ الذي يحدثه بالكيان باقيًا ما بقينا.

المقاومة كذلك ليست هينة على الدوام، ولا تنجح في كل مرة، فأحيانًا متى ما قاومت، وصلت للحد الأقصى، بذلت كل قواك وطاقتك.. تنال الهزيمة في معركة دُفعت لخوضها دفعًا، حرب أُجبرت على الصراع بوغاها ولم تملك حينها.. إلا رد الفعل، بمقاومة لم تجدِ نفعًا..



هو بالفعل مقاومته لا تجدي، يشعر بنفسه ممزقًا بين قلب غارق في هواه المشوه تجاه واحدة، وحقيقة وواقع يعيشه ولا مهرب منه مع واحدة أخرى..

من منطق وعقل وخلق ومبدأ.. يطالب بالعدل، وتميل كفة الميزان رغمًا عن إرادته ..

تميل بشقه كرجل فقد توازنه، ناحية الحبيبة..

تنهد وتخللت أنامله خصلاتها الكثيفة بشرود، كانت تضع رأسها تستمع لنبضات خافقه الهادئة، عيناها تتابعان معه فيلمه المفضل "نص ساعة جواز"..

يستعيد معها ذكرياته مع أخرى سبقتها لنفس المكان، ذات الضمة وعين الدفء والقرب!

ابتسم بخفوت عندما نطقت بطلة الفيلم اسم بطلها بتلك الطريقة الساخرة، دومًا ما علق عليها بل ضحك، وكانت هي تشاركه ضحكاته فيرمق ضحكتها بعشق خالص تملك عليه كيانه.

تذكر اليوم السابق حينما ذهب لمنزله.. "الآخر".. وسخر من نفسه، ليجدها نائمة، مكومة على الأرض ببؤس أوجع قلبه، لم يشعر بما يفعل إلا بعدما حملها جوار نابضه، تشمم عطرها وتحسس دفئها قربه بعدها أنزلها فوق

فراشها، لم يشعر أو ينتبه إلا عندما أفاقت فجأة بهلع، تدفعه بعنف بيديها وقدميها، تقاتله كأنما هو وحش ضارٍ وتصرخ بكلمات لم يفهم منها حرفًا..

ولم يجد بدًا من ضمها بقوة بين ذراعيه، تهدئتها بهمساته التي تحمل صوته هو وروحه تتمزق لما يجري دون أن تكتمل الصورة بذهنه ليراها بوضوح..

هل باتت تخافه الآن!

متى أجبرها أو قسى عليها أو أوجعها لتنظر إليه بتلك النظرة التي شجت كيانه!

ضم قبضتيه.. أشاح بوجهه للحظة قبل أن يجد نفسه يصرخ بأمر حاد:

- كفاية يا ريم.

أجفلت بغتة وهي ترمقه بوهن خائف، فأردف بنبرة مجروحة:

- كفاية.

قاطعة نهائية كحد سكين، وتغاضى عن الأمر برمته وهو يزفر متهربًا من نظرتها، ضعفها، خوفها وكل ما يحيط بها ليؤذيه هو..

لم يعد الأمر يحتمل الصمت، وهو لم تعد به طاقة للصبر..

بالفعل يكفي ما حدث للآن.. جلس على طرف الفراش واتخذ معها طريق المنطق فربما يستطيعان الوصول لمنطقة وسطى تتحمل وقوفهما معًا بصلابة دون أن يسقط أيًا منهما:

- ريم.. إحنا محتاجين نتكلم في موضوع علاجك.

رفعت إليه عينين غائمتين بصورة ذكرى لم يعد تناسيها حلًا، صورة انعكست ببساطة على الجالس في مواجهتها فكان رد الفعل غارة شنتها بقسوة عليه:

- علاج!!.. علاج ليه ياعلي؟.. ما كان موضوع واتقفل خلاص.

زفر بحرارة متجاهلًا طريقتها وصدره يضيق بحمله، هي فقط تشعل ناره وتزيد في تأجج لهيبها لتحرقه، لتأتي عليه فتنهيه ولا تبالي بعدها.. تصوره ذاك الحيوان الذي لا يكترث معها سوى بملذاته، ومادام قد حصل عليها فسيسقطها من حساباته:

- العلاج عشانك أنتِ يا ريم.. مش عشاني.

وضغط أحرف كلماته الأخيرة بتأكيد لم تبتلعه، لا تزال الصورة أمامها مشوشة، ملوثة بقطران ماضٍ ليس ببعيد فأضحت الرؤية مستحيلة:

- لا أنت ولا أنا.. مش اتجوزت!.. لقيت اللي ترضيك!.. ناقص إيه تاني!

- ريييييم.

زعق بها والنبرة لم تخلُ من وجع لا تراه هي أبدًا، زعق بها والزعقة كانت من عمق قلبه المهزوم في حربه معها، زعق وتألمت عيناه، لكنها كانت ترى رجلًا آخر.. زمنًا آخر.. مكانًا آخر، وتجسد الخوف حتى بات ملموسًا، واقعًا لا يمكن الفرارمن مخالبه:

- أنتوا ليه مش بتفكروا غيرفي القرف ده؟!

صرخت.. صرخت من بين دموعٍ أشبه بنهرٍ جارٍ صنع أخاديده بقساوة سيله فوق وجنتيها الباهتتين، رسم خطوطه على ملامحها الشاحبة وتصارع مع أنفاسها فقهرها..

وهو حائر، مشتت انعقد حاجبيه والكلمة يتردد صداها بعقله فكررها لسانه بسؤال:

- إحنا!!.. إحنا مين يا ريم؟!

وأفاقت على ما هذت به وانتبه هو إليه ليسقط الأمرفي يديها، انحنى ظهرها يأسًا، ومن خلف أفكارها الضائعة حاولت الرد بهجوم لم تتراجع عنه:

- أنتوا الرجالة.



وتعمم، تضمه لقطيع الذئاب، وتدمجه مع خيال الماضي الذي رحل ولم يرحل، غادر بجسده لكن بقيت ندوبه وآثارها في روحها.. ندوب لم تكتفِ بتدنيس المظهر فقط بل واصلت إيلامها ضاربة بقواعد العقل والمنطق عرض الحائط..

وعادت لهذيانها تحادث الأمس، تواجه ما مضى، والأفق غيمت عليه سحابة حزن:

- ليه الست عندكم وسيلة متعة وبس؟!.. دماغكم مشغولة إزاي تستغلها!

ومع آخر أحرفها تحشرج صوتها لكنه هو لم يتوقف، ما تهذي به ليس سهلًا، وجعها المرسوم على ملامحها قبض قلبه فتحول لغضب يسعى به لفهم:

- تقصدي مين بالظبط يا ريم؟!

عنف لهجته أعادها لواقعها، وخوفها برر هروبها وهجومها أمام نفسها فلم تتراجع:

- أنت.. ووو

- ومين!!



بريق عينيه أربكها فألقت بأول ما جال في خاطرها وهي لا تعي ما حولها بشكل كلي:

- وسعد!

وذاك البريق بين جفنيه تحول لسعير شيطاني مخيف..

هل أذاها أخاها؟!..

لهذا باتت تكره الرجال؟.. تكرهه!.. سيجن لو لم يفهم في الحال ونتيجة جنونه لن تحمد عقباها فعاجلها بصياح آمر عنيف:

- تقصدي إيه بسعد؟.. انطقي.

مع نهاية سؤاله زاد في اقترابه بل وأمسك بمرفقها يهزها دون إرادة وهي تراجعت باكية واهنة فاقدة للشعور والرشد:

- سعد قتل سمية بالحيا وهي معاه.

ماذا!.. هل كان يضربها هي الأخرى!.. "سعد" الأخ الأصغر المدلل الذي حول حياة امرأته لجحيم كما كشف التحقيق الأخير عقب حادثة خنقها!.. هل كان يعاملها بعنف هي أيضًا؟!

رفعت عينيها إليه بضعف، ومن خلف بريق الدموع لمعت نظرة انكسار، ذل، قهر.. عجز.. نظرة وداع وكأنما هي تموت.. أو ربما ميتة بالفعل:

- الست معاكم بتدبل.. بتموت.. وأنتوا كل اللي بتفكروا فيه إزاي تستنزفوها.

وهاجمته والنبرة يحاصرها خنوع:

- إزاي ترضوا رغباتكم وقرفكم على حسابها.

تركها فجأة وهو يحدق بوجهها ذاهلًا مرتابًا.. موجوعًا!

حبيبته تفتأ تنكأ جروح نفسه التي نزفت على يديها، جروح قلبه الذي سقط بغرامها حتى تحطم لأشلاء، جروح رجولته التي امتهنتها ولم يسبق لغيرها فعلها، جروح كبريائه الذي أخضعته حتى أنَّ واشتكى وطالب برد اعتبار!

- ده أنا يا ريم؟!

وارتعشت شفتاه ودمعة قاسية تعاند مقلتيه سعيًا لهزيمة عاندها رغم الألم:

- أنا.. علي؟!

وانهزمت دمعته وتراجعت تشارك نزف قلبه بصمت، وصوته تحشرج فلم يعد قادرًا حتى على إصدار همهمة، وهي تصلب جسدها مع نبرته، مع لمعة

عينيه، مع وهن ملامحه وتهدل كتفيه وانكسارًا جديدًا أضافته لقائمة انتصاراتها في حربها مع.. من تحب!

- علي!

رددت اسمه كأنما تفيق به من كابوس عاد يلاحق أحلامها، يقتل أمنياتها، يعذب لياليها ويحولها لعتمة لا مهرب منها ولا نور يتخللها.. وبكت..

نشجت وانتحبت وانهارت تتصارع دمعاتها أيها تسبق الأخرى في الهطول.. وانفطر قلبه!

تحرك نحوها دون وعي.. وقبل أن يلمسها تيبس في موضعه، أتراها تقبل ضمته!..

أتراه هو بعد كل ما حدث وقيل يجد في نفسه القدرة على منحها ما تحتاج!..

- بطلي عياط.

نشجت لحظات أخرى وتركها تفرغ ما بجوفها من ألم، عندما انتهت كانت مستنزفة بالكلية، قواها خائرة وعيناها ذابلتان تائهتان فالتفت يبعد نظراته عنها للحظات.. لحظات تأمل فيها ذاك المكان الذي وجدها نائمة فيه فعادت تلك الرجفة تهز كيانه وهو يسألها بهمس قلق:

- إيه اللي كان منيمك على الأرض؟

ولم ترد.. احتفظت بصمتها فتضاعف توتره:

- أنتِ رجعتِ تاخدي ترامادول تاني ياريم؟

مسحت وجهها بوهن، رفضت الالتفات نحوه وتعانق جفناها بإرهاق الذكرى والماضي الذي عاد:

- أنت عارف السبب اللي كنت باخده عشانه.. دلوقت ما عدتش محتاجاه...

- ريم أنا قلقان عليكِ.

بتر كلماتها بينما تصر على اتهاماتها له، تعاند وتتجبر على حبه الذي بذله دون قيمة، تترصد وجعه، مواطن جرحه وتضغطها دونما اكتراث:

- أنا عمري ما كنت الراجل اللي بيدور على مزاجه.

بنبرته حيرة تبحث عن فهم، وبموقفها اتخذت الطريق الأسهل وهربت بهمس خافت أبح:

- أنا تعبانة.



وانزلقت بالفراش، تتكوم على نفسها كجنين مذعور، تتجاهل وجوده وتفر من حديث ترفضه لكنه لا يزال به شيئًا من مقاومة تدفعه للإصرارعلى ما يراه الأصح:

- هاسيبك ترتاحي.. وهاحدد ميعاد مع الدكتورة عشان ترجعي للعلاج تاني.

واتخذ عنها القرار.. لقد وصلا لحد النهاية، وإن كانت هي تقترب من خطوات تنازلها عنه في كل يوم خطوة.. فسيقطع هو تلك الخطوة نحوها من جديد..

"علي.. سرحت في إيه؟!"

انتبه فجأة على صوت "رؤى" المتسائل، أخفض عينيه نحوها وهي التقطت الصورة.. لمحت بين جفنيه ملامح "الأخرى" وتألم قلبها، لكن فضْح الألم في هاته الحالة محظور حد الحرام، ابتسم والذنب يطعنه..

مالت كفتك يا "علي"!

قبل جبينها واعتذربحنان:

- معلش يا رؤى.. موضوع مهم شاغلني شوية.

تغاضت عما رأت، وادعت تصديق ما نطق، ولا عزاء لمشاعرلا تتحكم هي بها، كما لا يسيطرهو على لجام مشاعره.. بادلته بسمته وصمتت فعاد



لجبينها بشفيته والقبلة أكثر عمقًا ودفئًا، أبعدها برفق وأكسب لهجته مرحًا قدر استطاعته:

- إيه رأيك.. هاعمل فشار؟

ونهض فتمسكت بكفه:

- لا خليك.. هاعمل أنا وآجي بسرعة.

مال بجذعه يربت على بطنها بكفه في رقة حانية ونظراته تنصب هناك:

- لأ.. خليكِ مرتاحة، أنا هاعمله.

تعلقت عيناها بنظرته العطوف واستجابت لدلال تشتاقه، تابعت شاشة التلفاز بنصف عين ونصف عقل.. والبقية رحلت مع من تركها بخطوات متمهلة نحو المطبخ..

دقائق وسمعت صوتًا عاليًا لم يكن من المفترض أن تسمعه.. نهضت بدهشة وعندما وقفت عند الباب انفغر فاها ذهولًا..

زوجها كان يقف بمنتصف المكان، يمسك بغطاء قدر كبير، يصنع منه درعًا في مواجهة هجمات حبات الذرة التي انتفشت وطارت في كل اتجاه تاركة قدرها غير المحكم!

- علي!

التفت إليها بغتة فضربته واحدة في وجنته:

- نسيت أغطيه!

ويشير بكفيه مستسلمًا مرتبكًا، لم تملك مع مشهده وملامحه المتذمرة بيأس إلا أن تضحك.. ومع ضحكاتها المنطلقة بعفوية ودون مانع عقد حاجبيه وأمرها بحزم مفتعل متظاهرًا بالضيق:

- بطلي ضحك.

ولم تستطع إلا بعد ثوان ظل يراقب فيها وجهها المشع بطلاقة الضحكة ومتعة اللحظة، لم يملك مع ما يحدث إلا الابتسام، وبعدها انتقلت إليه العدوى فقهقه بالمقابل.. عندما انتهت حبات الذرة من الفرقعة كان المكان في حالة فوضى عارمة جعلتها تهتف:

- يا ربي.. حرام عليك يا علي بجد.

نظر إليها بحنانه المعهود والذنب يعود إليه، تبًا له.. سيرهقها:

- روحي أنتِ ارتاحي وأنا هانضف.

- لاااا طبعا..

ومع رفضها السريع التفت إليها بدهشة فأردفت بمشاكسة:

- معلش.. مش واثقة ممكن تعمل إيه تاني!

ابتسم وهز كتفيه:

- خلاص.. هاساعدك.

ووافقت، لم يمر وقت طويل حتى عادا لجلستهما، والفيلم كان قد انتهى فأعاد تشغيله على حاسوبه المحمول، واستكانت هي فوق صدره كما اعتادت أن تفعل في كل جلسة مشابهة، بل مع كل اقتراب بينهما.. تقبلها برقة وأحاط كتفها بذراعه ليجدها تعلق بمرح:

- أوووسني.. الكلمة دي بتهلكني ضحك، وشادية أصلًا عسل.

نظر إليها وهي لا تراه، نبرتها الناعمة وهي تقلد الممثلة، شفتاها الممطوطان بورديتهما الطبيعية، خصلاتها التي تناقض عاجية بشرتها في مزيج ساحر.. وابتسم مرة أخرى!

هي تعلق على ما اعتاد هو التعليق عليه والإعجاب به..

أحكم ذراعه حولها وضغطها أقرب فاستجابت بانكماش أكبر في دفء أحضانه، تنهد وانتبه للفيلم حتى انتهى، كاد يتحرك وهو يهمس باسمها ليجدها.. نائمة!..

أبعد خصلة عن جانب وجهها وتأملها برفق، بعد حملها بطفلهما أصبحت تنام أكثر من ذي قبل، لكن من قال أنه يمانع!.. ومع غياب والدته عن البيت بعد مد فترة إقامتها مع خالته باتت راحتها هي مسعاه الأول خاصة

عندما يتركها وحدها، قبل رأسها واعتدل بهدوء ليضمها بكلا ذراعيه ويرفعها متجهًا نحو الفراش.

أنزلها بمكانها ودثرها بعناية.. دار حوله ليتمدد في ركنه الخاص من فراشهما، عقد ساعديه تحت رأسه وأغمض عينيه باحثًا عن نوم يدرك أنه لن يكون سهلًا كما في كل ليلة..

بعد وقت قصير وجدها تقترب منه، تندس قرب صدره وتريح كفها فوقه بنعومة، ومن بين شفتيها خرج صوت أشبه بقطيطة صغيرة تبحث عن الدفء وعندما وجدته تمسحت فيه، عادت له بسمته وحرر أحد ذراعيه يحيطها به وبكف الآخر ربت على بطنها بحنو..

تنهد بحرارة وعاد لمحاولات النوم.. علَّه ينجح هذه المرة.

هو فاشل في المقاومة، فاشل في رد الفعل.. وحتى في عذاباته: فاشل في دفاعه عن نفسه، قلبه.. وحبه!

***

بعضنا يتوقف عن المقاومة عندما يصل لحد معين من الخطأ..

حينها يرى الزلل مبررًا، الإثم تنتظره مغفرة، والسرقة في الظلمة تظللها شرعية لا يجوز الاعتراف بها، يتيه مع دوامة أخطائه، ينسى نفسه فيها فيتمادى.. والحجة الحاضرة، حلال!

وهي توقفت بعد المرة الثانية عن مقاومته، امتنعت عن رفضه، وبات الموقف مكررًا روتينيًا حد الملل.. حد الاعتياد.. حد السقوط.

كانت خاضعة لقبلاته المتتابعة بلهفة في ركن خافت الإضاءة بنهاية درج منزلها وهي توصله عقب عشاء تناوله معها وعائلتها ببيتها..

خاضعة تتلمس طريق اشتهائه الذي يصبه فوق جسدها بعبث يديه حد أنها فقدت الزمان والمكان وغفلت عن الذنب.. حد أنها بادلته رغبة برغبة!

"أمنية!"

اسمها بصحبة شهقة وازت ابتعاده عنها وصوت ابنة خالتها المؤنب..

هندم ملابسه ومسح شفتيه من أثر الحمرة خاصتها، التفت للأخرى بسماجة باردة وغادر..

خارج المنزل بعدما استقر خلف مقود سيارته أشعل لفافة تبغ نفث دخانها بتأفف، ثم أخرج هاتفه واتصل بأحدهم.. ثوان وأتاه الرد فبادره:

- إيه يا نجم!.. باقولك أنت في شقتك!.. طب تمام جهز القعدة على مزاجك وأنا جاي في الطريق... لا يا سيدي الليلة انضربت..

وأطلق ضحكة مجلجلة شابها سخط:



- أيوة.. اتقفشنا.. يلا مسافة السكة وأكون عندك.. عاوز وتكة على ذوقك بقى.

وحينما كان هو يختار واحدة يطفئ معها نيران جسده التي أشعلتها زوجته المصون، كانت هي تواجه "ريم" بخجل بينما تغلق أزرار قميصها المفتوحة، تساوي خصلاتها وتستمع لتوبيخها دون رد:

- أمنية.. أنتِ أكيد اتجننتِ.. إيه اللي أنا شفته ده!

- أنا مراته يا ريم..

تدافع وتبرر بنبرة حادة وبنفس مسوغاته التي لا تمتلك غيرها، وابنة الخالة اقتربت منها، ربتت على كتفها والصورة التي رأتها يقشعر لها بدنها بلا إرادة ويرتجف لها صوتها دون سيطرة:

- لا يا أمنية.. اللي شفته ده.. ده..

وكادت تخبرها أنه مقزز، لقد رغبت بإفراغ معدتها أسفل أقدامهما، رغبت في جذب الفتاة من بين أحضانه ولو جرتها من خصلاتها وضربته على تهجمه عليها وسرقة ما ليس من حقه..

نعم.. هي ليست من حقه، ما يحدث ليس صحيحًا، ليست زوجته بعد!

- جوزي يا ريم.

تواجهها بإصراروإن لامسه خجل:

- كتب كتاب بس يا أمنية.. أنا خايفة عليكِ.. ما تسمحيلوش يتمادى معاكِ قبل ما تكوني في بيته.

وربتت على كتفها مرة ثانية باهتمام أكبروالصورة لا تنمحي من أمام ناظريها:

- اوعديني تخلي بالك من نفسك وتوقفيه عن حده.

أومأت بوعد صامت تدرك أنه تأخركثيرًا، وعد انكسرقبل نطقه فلم يعد يجدي الوفاء به!

وبينما هي خضعت وتركت حبال المقاومة، من زاوية أخرى تمسكت بها "آية" وهي تداري وجهها في خجل، تبتعد عن لمسة كف خاطبها فوق وجنتها وهويشيرلصورة في "كتالوج" أثواب الزفاف الذي أحضره معه لدعوة العشاء:

- إيه رأيك في ده؟!

ابتسمت برقتها التي باتت عشقه:

- حلو برده.. كفاية كده.

بادلها البسمة بمرح وهويشاغبها:

- ما هو مش أنا اللي هالبسه، لازم تختاري معايا.

أدارت وجهها تصر على رفضها:

- هابقى أختار مع ريم.

- وليه مش أنا؟!

بتذمر ممتع ولذة النظر لوجنتيها المحمرتين تخطف أنفاسه وعينيه:

- كده.

- مكسوفة!

- تؤ.

- تؤ.. خالص ولا نص نص!

- عمرو.

وتنهره بنعومة أطلقت من صدره تنهيدة حارة وصلتها عبر المسافة بينهما:

- ربنا يصبر عمرو.

ومد يده يلتقط كفها، يرفعها لشفتيه ويطبع فوقها قبلة طويلة قبل أن يهمس بمكر:

- على الإيد أهي..

ينبهها لاحترامه رغبتها في رسم الحدود بينهما، وتبتسم هي وقلبها فخور به لكنه لم يمهلها بل فجرينبوع خجلها بلؤم لا يملكه سوى معها:

- هااااانت.. اتفقت مع عمي وكلها أيام ونعمل الفرح.. وساعتها..

تحولت لثمرة طماطم تامة النضج وهو يردف بميل نحوها تبعه صوته قرب أذنها:

- هتبقي في بيتي.. ومش هتقدري تتنفسي.

- عمرو.

- الله يرحمك يا عمرو.. كنت راجل طيب والله.

وضحكت رغمًا عنها فتأملها بحب وهو يدعو الله أن تمر الأيام ليجمعهما سويًا سقف بيت واحد.. تظلله برقتها وحيائها ويسكنه هو باهتمامه واحتوائه لها.. بمودة ورحمة هما فطرة الله في علاقة كل آدم وحواء منذ بدء الخلق.. في الجنة، وعلى الأرض!

***

ليس من السهل مقاومة الخوف.. خاصة عندما تداهمك مخاوفك فتستعيد معها ذكرى مضت، ذكرى تصر على إعادة شريط حياتك، منحك أسوأ ما في الصورة، وإضاعة ما دفعت ثمنه من ذاتك يومًا..

ذكرى وهن قاومته لكن الغلبة كانت له، انتصر على قوتك وأجهز على تحملك، فبِت خاضعًا لتجَبُرِه الذي مررت به حد الألفة.

مخاوف تكررت مع اختلاف المسبب لها، فإن كان في السابق زوج باطنه وحش، وظاهره عاشق.. فهذه المرة هو أخ أصغر ترك جانب السند، رمى بصِلة الدم أسفل قدميه، وتحول لمعتدٍ آثمٍ فأعاد معها ما ظنت أنها هربت منه.. أو أنه ذهب بلا عودة!

أسندت رأسها لمقعدها وهي تجاوره في سيارته متجهين إلى المشفى لتتخلص من جبيرة ذراعها بعد تمام الشفاء، بعدما انجبر كسر جسدها وزادت كسور نفسها وروحها واحدًا جديدًا..

قاومت هاربة من أوجاعها بذكرى قريبة لزوجها معها.. ابتسمت بخفوت وهي تستغرب نطق الكلمة أو حتى التفكير فيها، فكلما فعلت شعرت بها ثقيلة على لسانها وأحرفها عجيبة لا تمت للمنطق بصِلة.

منذ جاورها قبل أيام في فراشها، منذ ضمها لصدره فغادرتها كوابيسها بمعجزة لم تفهمها وهو استمر.. بل نقل أشياءه وثيابه لذات الغرفة لتصبح بعدها.. "غرفتهما"!..

جمعت نفسها به في مثنى لفظي لم تستشعره مسبقًا، عادت البسمة لشفتيها وهي تسترجع مساعدته لها واهتمامه بها.. قلقه وحنوه الذي لم يجُل بحسبانها يومًا مع عصبيته وغضبه وقسوته السابقة..

في الوقت الذي عاد فيه شقيقها "إيهاب" لمنزل العائلة، لم يذهب "حمزة" لعمله.. كأنما يطمئنها بوجوده، يخبرها أنه درعها الحامي وراعيها المسئول.. ألا خوف بعد اليوم، أنه يحميها ولو كان من الأقرب إليها..

يومها دخل عليها ليجدها تعد أدواتها رغبة منها في إنهاء عملها على مشغولات ابنة خالتها العروس..

تحضر الأقمشة وأدوات التطريز والقص واللصق.. وذراعها يشعرها قهرًا بالعجز عن العمل..

تأففت لحظتها بضيق لتجده يجاورها فوق الفراش بهمسة تقريرية:

- هاساعدك.

وعندما رأى دهشتها ابتسم وأخبرها بلهجة محايدة:

- أيوة ما رحتش الشغل.

وألقى بين يديها بعدة مجلات تخص هوايتها:

- شوفي دول.. يمكن ينفعوكِ.

- ما رحتش ليه؟!

رددت سؤالها بخفوت والجواب كان منه نظرة فهمتها، ورغم مناوشة خفية بسعادة، شعور وليد تسلل إليها بحماية وأمان فقد عارضته:

- ما كانش في داعي يا حمزة.. أنت مش هتقعد من الشغل على طول.

تجاهل هو اعتراضها ببساطة، مد يده يمسك معها قطعة القماش التي كانت تعمل عليها:

- اشتغلي يلا.. هامسكها لك.

تمعنت في ملامحه لا تدري ما تفعل!.. تشعر نحوه بالكثير من الامتنان، يستحق شكرًا لا تفِ به الكلمات، ورغمًا عنها فهي عاجزة حتى عن كلمة واحدة..

ترددت ولاحظ خجلها فأمسك بمسدس الصمغ وبدأ العمل:

- أشتغل أنا ولا إيه!!

وأخطأ!

تطلعت لتلك القطعة التي أضاع فيها مجهودها بحسرة وصرخت بلا وعي:

- يا حمزة حرام عليك.. بوظت لي الشغل، سيبها.. ما تعملش حاجة بقى.

وانتزعتها من يده.. وللغرابة فقد ارتسمت بسمة فوق شفتيه وهو يراقب ضيقها وتذمرها.. وصراخها قبل ثوان.. يثلج صدره، لم تعد تخشاه.. والأجمل، أنها تعترض بقوة لأجل ما تراه حقها..

حافظ على البسمة فوق شفتيه وهو يخبرها:

- على فكرة.. في دورة عند ناس أعرفهم هتفيدك تنمي هوايتك قوي.

ولم يكترث لنظراتها المذهولة وهو يكمل بتأكيد:

- مستني بس موافقتك وهاحجزلك فيها، حرام نتجاهل موهبة زي اللي عندك دي.

حينها عجزت بالفعل عن رد مناسب لكن عينيها قالتا الكثير وهو فهم واكتفى..

"وصلنا"

التفتت إليه فطمأنها برفق وهو يحثها على الترجل من السيارة أمام المشفى.. تجمدت قدماها حد الشلل وهي ترمق الفراغ بتيه، اقترب منها بقلق مستغرب:

- مالك يا سمية؟

- ما فيش.



تمتمت بها خافتة لتصل لأذنه مهزوزة، لم يستطع سوى الإمساك بكفها يشعرها بوجوده علّها تطمئن..

بمواجهة الطبيب ومع المنشار الطبي الذي سيشق به جبيرتها ارتجفت وتراجعت، رمقها الرجل بنظرة ودود:

- ما تخافيش.. بسيطة.

- مش خايفة من المنشار.

كعادتها تهمس بخفوت، وخفتت نبرتها أكثر وهي تردف:

- أنا متعودة.. مش أول مرة.

والمجاور لها سمعها وملأ نفسه غضب، ضيق وشيء من عجز..

أحاط كتفها بذراعه ومال يهمس بأذنها فلم يسمعه سواها:

- بس هتكون الأخيرة.

وشعر برعشة جسدها أسفل احتوائه الدافئ، وهي ارتبكت ودقاتها تتعالى، لم تجرؤ على رفع وجهها إليه حتى أنهى الطبيب عمله فخرجا من عنده بينما يقرر:

- يلا.. هنتغدى برا.



والوقت بصحبته أصبح له مذاقًا مختلفًا، فهي تتعرف على رجل لم تقابل مثله قبلًا، وهو يرى فيها امرأة.. يقولون أنها زوجته، فلمَ يقاوم القرب أكثر!

***

هل يمكن أن نقاوم السعادة؟.. نخشاها!!.. نرزح تحت ثقلها فنرتجف ونبتعد ونتعوذ كأنها شيطان رجيم لن يمسسنا إلا بكل سوء!

سؤال غير منطقي وجوابه عند البعض يكاد يوازيه بل ويتخطاه في جموح خياليته، لأن هناك بالفعل من يحرم على قلبه.. لمسة البهجة، وهناك من ينالها وتنفلت من يده.. وآخرون يقتنصها القدر من صدورهم ويحولها لأسهم وجع غادرة تخترق أفئدتهم..

بل هناك من يرون أنهم سعدوا في وقت لا يحق لهم، فاختار القدر عقابهم على المضى قدمًا، واغتراف سعادة لم تكن من حقهم..

في دنيا البشر وبمكان واحد تجتمع المتناقضات، ما بين مشاعر فرح خالصة، أخرى مشوشة.. وثالثة طمسها قلق.. ورابعة غبرها تراب الوجع!

في مكان واحد هو قاعة زفاف أنيقة بأحد الفنادق الراقية..

زفاف "عمرو" نجل عائلة "الريس".. على الآنسة "آية" كريمة عائلة "سند".. والعقبى لكم في المسرات..

خفتت الأنوار فجأة والمكان يستقبل عروسه، من خلف الأضواء الراقصة وعلى موسيقى المزمار الشرقي الحميمية، وعازفوا الدفوف يحيطون بهم ببهجة.. هي تنظر بفرح، وتهرب بعينيها في خجل.. بينما العريس يكاد يطير من فوق الأرض لولا كفها التي تتعلق بذراعه برقة كأنما هي فراشة ناعمة..

فراشة ستكون ملكه الليلة..

بثوب يشبه أثواب الأميرات، منفوش برقي، ومطرز بزهور دقيقة أكسبته فخامة ونعومة مع بساطة بذات الوقت.. بذيل طويل تجره ورائها حتى وصلت للمقعد العريض المخصص لهما..

جاورها لا يفلت كفها من احتواء قبضته، والأعين تحيط بهما.. توزعت بين سعيدة، مطمئنة، قلقة.. لا مبالية.. وحاقدة!

على طاولة قريبة من العروس جلست "بسمة" جوار "حبيبة" وكل منهما تستعيد ذكرى عرسها.. واحدة تحولت الذكرى لوجع، وأخرى تبتسم بسعادة وهي تلقي بنظرة نحو زوجها الذي يقف مجاورًا لأصدقائه على الجانب الآخر..

التفتت لصديقتها الشاردة باهتمام:

- حبيبة.. ما فيش أخبار عن جلسة الخلع؟!



- ها!!

انتبهت من تيهها على السؤال فلم تدركه تمامًا و"بسمة" تربت على كفها بعطف:

- الجلسة اتحددت ولا لسه!

هزت رأسها بنفي، ونهضت تتعلل بشيء ما لتهرب من المكان، لا تحتمل النظرات أو الحديث ولا حتى الشفقة!

دقائق وتعالت كلمات منسق الأغاني بالحفل عبر مكبر الصوت:

- طيب يلا يا جماعة.. العرسان ورقصة سلو، وكل الكابلز معانا.

نهض "عمرو" يمد يده نحو عروسه فمنحته كفها ليجذبها إليه برقة، خطا معها لمنتصف المكان وأحاطها بذراعيه، قربها منه وبدأ يتهادى معها على الأنغام الحالمة لإحدى الأغنيات الحديثة الشهيرة..

تبعهما "صلاح" وهو يبتسم لزوجته بحب..

و"أمنية" التي جذبها "أسامة" وضمها إليه بحميمية أخجلتها فأبعدته برفق وهي تنهره بعينيها فغمزها بمكر وهو يلامسها بطريقة خبيثة دفنت لها وجهها بصدره تعانق الأرض بنظراتها هربًا من لقاء أعين قد تكون مراقبة!

"كان نفسي أعرف العريس بيقول إيه للعروسة في الرقصة دي!"



همس بها "عمرو" فابتسمت عروسه بخجل ولم ترد، عاد يهمس ويقترب ويشاكس:

- طب ما عندكيش فكرة هي بتقوله إيه؟

حافظت على بسمتها وتصنعت الصرامة والحزم بلهجتها:

- بتقوله إوعى تدوس على الفستان.

والضحكة الخافتة خرجت من بين شفتيه سعيدة تكاد تحلق به نحو السحب، مال نحوها وتمتم بدفء:

- عرفت بيقولها إيه!

ولما صمتت بحيائها المعتاد دون سؤال فضولي عما يعنيه لامس أذنها حرارة أنفاسه وهو يهمس:

- بحبك.

وقتما يقتبس البعض شيئًا من نور السعادة، يهرب منها آخرون ولو بلقاء نظرات، فـ"ريم" زوجته.. من بعيد تتلافى الاحتكاك به وهي تنشغل بشقيقتها العروس، تفر من عينيه وحسب.. ووقت الرقص منحته نظرة سريعة مبهمة وعادت لهروبها كأنما تمنعه الاقتراب ولو بإذن يمكن أن تهبه عيناها له بصمت.

أما "سمية" فقد جاورت زوجها على طاولة العائلة، رمقته بنظرة خفية لم ينتبه لها في تلك اللحظة، بل حتى لم ينتبه إلى رقص الأزواج بالمكان، وأنبت نفسها بضيق..

"هل تطمعين برقصة أنتِ الأخرى، سمية!"

تجاهلت أفكارها وحطت بعينيها على شقيقها وهي تراه يقترب من "نشوى" أخت العريس، يبتسم لها فتبادله البسمة ويتبادلان حديثًا تمنت لو استطاعت سماعه..

لقد سافرت "رانيا" وربما مع سفرها حجبت مخاوفها في ركن خفي، لا تأمن الغد كما كانت تخاف الأمس واليوم، لكن ربما هذه الفتاة تنسيه إياها..

فعلى كل حال هي ابنة عائلة لها اسمها وسمعتها، وهم أنسباء زوج خالتها، وهو لن يختار لبناته إلا الأفضل!

والأخ الأصغر بعد حديث قصير مع "نشوى" دعاها للرقص، وببساطة لم يتوقعها وافقت، أحاط خصرها بذراع والأخرى استكانت بقبضته كفها، جذبها نحوه ولم تمانع القرب وهمس:

- ما حدش قال لي إن أخت العريس زي القمر كده.

أغمضت عينيها ببطء مدروس وبادلته همسًا بهمس والنبرة ناعمة مغوية:

- مش لازم حد يقول، يكفي تشوف بعينيك.

تسللت أنامله عبر رباط ثوبها المضفر وراء ظهرها، يلامس بشرتها الدافئة برقة بدت عفوية:

- لأ.. أنا عينيَّ مبهورة دلوقتِ.

ومع شعورها بتسلله الخبيث رفعت عينيها إليه، غمزها بعبث وأصابعه تتجرأ أكثر بموازاة سكونها المتقبل للمساته وهي تهمس:

- لازم تنبهر.

نطقتها بثقة، وتابعا الرقص بحميمية حتى انتهى الحفل..

غادر الجميع وصعدت "ريم" مع والدتها بصحبة أختها التي تعرق كفاها وارتبكت وتوترت حد رجفة كانت ظاهرة على جسدها وهم يباركون لها ويرحلون واحدًا تلو الآخر..

تمسكت بكف "ريم" قبل أن تلحق بالجمع:

- ريم.. عاوزة اسألك...

- حبيبتي يا يويو.. ألف مبروك، ربنا يسعدك.

وتهربت من السؤال والحديث كله بمقاطعة متعجلة، منحت جبينها قبلة وتحركت بخطوات شبه راكضة تلاحقها نبرة "آية" اليائسة:

- بس...

وأخيرًا أصبحت معه بمفردها، لاحظت اقترابه منها فتراجعت.. رفع حاجبًا ماكرًا جعلها ترتبك أكثر:

- عمرو.. خليك عندك.

ولم يطِع الأمر المرتعش، فبدأت تدمع:

- عاوزة ماما.

- نعم!

هزت رأسها ودمعاتها تسيل بالفعل:

- عاوزة ريم.

- ريم!!

وتوسعت عيناه وهي تكرر طلباتها غير المعقولة:

- عاوزة سمية.

وتجمد بمكانه لحظة ذهول:

- إيه!.. أنتِ هتنادي على العيلة كلها؟!



لم تجبه وزادت في نهنهاتها الباكية، وما كان منه إلا دنا بحذر، ربت على كتفها وطمأنها بلهجة حنون ونبرة مستها شفقة:

- بتعيطي ليه بس!.. ما تخافيش.

لكنها تشنجت مع لمسته فأبعد يده وجاهد نفسه على الصبر:

- إيه رأيك؟.. تعالي نصلي ركعتين.

- أنا.. أنا مش باصلي.

شهقت بها بتردد وهي تنشج بعبراتها المتوالية، لم تنتبه لملامحه المصعوقة وهو يفهم أخيرًا سبب بكائها، ويلعن نفسه وحظه ليتزوج في هذا اليوم بالذات، لم يجد ما يقوله فتراخى كتفاه بيأس وعاد يلتقط كفها، يحتويها بين كفيه ويربت عليها بحنو:

- خلاص معلش.. حصل خير.

رفعت إليه عينيها المحمرتين بأثر الدموع فابتسم وتحولت نبرته للؤم:

- هنقضيها كتب كتاب وأمري لله.

هربت بنظراتها فمال نحوها بهمس دافئ:

- بس ما فيش بوس على الإيد.



وعادت لبكائها مجددًا فاحتار وعجز عن فهمها، هل تخشاه إلى هذه الدرجة!

- ليه!!.. أنت زعلان مني؟!

مع سؤالها القلق الحزين استنار لسبب بكائها مرة ثانية، ترك يدها وألقى بنفسه فوق مقعد قريب وهو يهتف بحرقة:

- ربنا يصبرك يا عمرو.

***

المقاومة في بعض الأوقات تكون محض حماقة كبرى..

لأننا نواجه في الاتجاه الخطأ، ونعاند الشيء الصحيح.. نبرر لغاية تربعت على عرش مخاوفنا بوسائل لا يقبلها عقل، وتُذبح لها المشاعر..

مقاومة لاختيار قدر، وتصلب مغيظ أمام رعب من قادم مجهول يشبه ماضيًا مررنا به ونخشى تكراره فنقاوم الحاضر بعنف.. يحدث أن نفقد بعده ما كان ملك أيدينا..

وهو كان من هؤلاء البلهاء الذي يتشبثون بهلع الذكرى، يتجنبون المرور بطريق يشبهها وإن كان ممهدًا، ويسلكون الدرب الأصعب والأطول وإن كان وعِرًا!

"صلاح" فقد إحدى بسماته، ومن بقيت له توازي الدنيا وما فيها لذلك سيحارب العالم، يحاربها، ويحارب جنينه بأحشائها لو لزم الأمر فقط ليحافظ عليها، وينعم بأمان نفسه في احتواء دفئها.. فبعدها لن يبقى منه سوى حطامًا.

"مش مقتنع يا بسمة آسف.. مش موافق"

"يعني إيه يا صلاح!.. أنا مش فاهمة أنت بتتكلم إزاي!.. ده ابنك"

"وأنتِ مراتي.. حبيبتي.. دنيتي كلها، مش عاوز غيرك وبس"

"الدكتور طمنا"

"كلهم كلامهم واحد"

"حبيبي افهمني"

"أنا خايف"

وأخرسها.. بالكلمة والنبرة والنظرة والتيه!

دنت تلقي بنفسها بين ذراعيه، ترتاح بأحضانه وتتلمس عشقه الخالص والذي تحول لشبه هوس خائف.. خانق!

- ما تخافش.



تطمئنه ولا تستطيع تقديم ما هو أكثر، ويفقد ما تبقى من صبره والخوف ينهش أحشاءه حد الوجع والضياع.. أبعدها عنه وصوته تحول لزعيق:

- لا هاخاف يا بسمة.. هاخاف.

وتملك من مرفقيها، جذبها قرب وجهه وبرقت عيناه بغضب ووعيد:

- اختاري يا بسمة.. أنا أو هو!

ولفحتها أنفاسه واللمعة الغاضبة تتحول لجنون:

- أنا ولا اللي في بطنك!

- أنت اتجننت يا صلاح!

دفعها بعيدًا عقب صراخها المستنكر.. دار حول نفسه بحيرة شديدة قاتلة:

- ما اتجننتش.

رددها بتشتت جليّ وهاجمت هي بحقيقة واقعة:

- ده ابنك.

- خطر عليكِ.

وذاك كل ما يشغله ويهز أركانه ويزلزل كيانه، توقف أمامها، يواجهها بحزم ونبرته حاسمة قاطعة لا ترضى بجدال:

- أنا اخترتك أنتِ.. من غير تفكير.

ومال برأسه نحوها يلقي آخر ما بجعبته دون تزيين:

- أنتِ هتختاري مين!

رمقته بنظرة جريحة تخطت حدود التصديق، هو فقد كل ذرة عقل ومنطق وبات خباله محققًا، وعنها فهي لن تصمت في مواجهة ذاك الجنون..

تحركت بصمت نحو غرفتهما، ملأت حقيبتها بملابسها وارتدت ثيابها تحت مراقبة عينيه وسكونه الواجم.. جرَّت الحقيبة ورائها وعندما وازته دمدمت بغضب:

- هاسيبك تهدى وتعقل الكلام اللي بتقوله.. بعدين نتفاهم.

وخطت نحو الباب ومع كل خطوة كان قلبه يفقد إحدى دقاته، عقله تشرد أفكاره.. والصورة تتجسد، تعاد، تتكرر.. والوجع فاق حد الاحتمال أو الصبر والقبول.

هي راحلة، وهو باق..

هي تتركه.. وهو وحيد..

هي تحمل معها روحه.. وهو يبقى جسدٌ بلا روح..

هي تتملك قلبه.. وهو دون قلبه؛ ميت!

هي رحلت، وما الفرق بين الموت والفراق!..

لم يدرِكيف بات ليلته وحيدًا لكنه في اليوم التالي قرر الذهاب إليها، فإن لم تختره، تقرر البقاء معه؛ يكفيه أن يراها ولو من بعيد!

وأمام وجه والدتها المستغرب من سؤال زوج ابنتها عنها وهي لم ترها منذ أسبوع تجمدت الدماء بعروقه، تشنجت ملامحه.. ولم يقاوم انشطار كيانه بفعل الخوف لنصفين!

لقد أضاعها!

ضاعت بسمته!

***

أحيانًا نقاوم سطوع الحقيقة.. نتعامى عنها، نقبل الخداع فهو الاتجاه الأكثر راحة ولو كانت راحة مؤقتة.. نقاوم النصح ونرفضه ونظن أننا نفهم الصورة بأفضل مما يمكن أن يفعل الآخرون..

حتى تحين لحظة انكشاف ما توارى خلف حجاب الغش والكذب!

"أمنية!!"



هتاف جديد بصوت "ريم" المذعور بينما تراقب جسد ابنة خالتها ملقى على درج المنزل بتهالك، وهي شبه فاقدة للوعي.. تتشبث ببقاياه علَّها تصل لفراشها، لكن فقدانه كان أقرب فتهاوت بضعف..

ركضت إليها وحاولت رفعها ثم فشلت، جسدها كان متراخيًا تمامًا رغم بعض صحوة تتعلق بأذيالها:

- أمنية ردي عليَّ!

وبعد لحظة جمود مرتعب صعدت طابقًا آخرًا حيث منزل شقيقها، طرقت الباب فأثارت هلع قاطنيه وهو يفتحه لها بسرعة:

- حمزة.. فين سمية!.. الحقوا أمنية وقعت على السلم!

والكبرى سمعتها من خلفه وكاد قلبها يتوقف!

سبقته وتبعها بعدما جذب ثوب صلاتها لترتديه وهي تهرول بملابسها البيتية حتى وصلت إليها، مالت تحتضنها بينما يراقب بقلق متوتر.. دعمتها "ريم" من أحد ذراعيها وتمسكت "سمية" بالآخر.. رفعتاها معًا، وحاولتا الصعود وخطوات توأمها تقترب مع اتساع عينيه وهو يراها بهذه الحال..

اتساع ازداد وأغرقه الذعر مع صيحة "ريم" الملهوفة والتي شابها فزع:

"دي بتنزف.. بتنزف يا سمية!"

الفصل الثالث والعشرون

اختلاط المفاهيم.. ما بين الحماقة والتعقل، الخفة والرزانة، البلاهة والوقار، الجهل والفهم، الرعونة والحِلم..

تدور رحى الزمن.. ترتفع موجاته عالية حد الحكمة لتنحدر بعدها لأعماق السخافة..

تتعدد المواقف.. تتشابه، تختلف وقد تتكرر حد الملل.. والفارق هنا هو اختلاف رد الفعل، فقد يتكرر الموقف، يتشابه.. تعاد الصور مرة وثانية وأخرى حد اختلاط العقل.. حد التشوش والبلاهة.. حد انعدام الحيلة وتوقف التفكير..

فبالأمس القريب كان يقف نفس وقفته تلك، عيناه شاردة تتوسل نجاة زوجته من بين براثن موت داهمها غدرًا.. واليوم بنفس وقفته مع الفارق أن تلك الزوجة تتشبث بذراعه برعب وتتوسل نجاة شقيقتها مما لا تعلمه..

شخصت عيناه بعيدًا ليلمح إيهاب؛ يقف بانعزال عنه وعن سمية.. نظراته متجمدة، بل جسده بأكمله بحالة جمود.. وكأن عقله يحاول جاهدًا نفي تلك الصورة التي ألجمته..

شقيقته، توأمته شبه فاقدة لوعيها بين ذراعي الشقيقة الكبرى وابنة الخالة.. وحامي الحمى وزوج الشقيقة والمدافع عنها يقف بذهول عاجز وكأنه يحاول تقرير الخطوة التالية.. والصورة ملوثة بقطرات دامية تشي بفقدان لشرف وحياء..

دقائق وصلوا بعدها للمشفى لتغيب أمنية خلف باب غرفة العمليات ويلتصق هو بالجدار الملاصق للغرفة، بينما التصق حمزة بسمية التي ترتعد كل خلية بجسدها ولسانها لا يكف عن ترديد الأدعية والابتهالات.. وهو بجوارها أفكاره ممزقة مشتتة..

تلتقي عيناه بإيهاب فيلمح بهما غضب وحشي ممتزج بخزي وقهر.. رأسه منكس وكتفاه متهدلان.. لا يدري إن كان يتمنى لتوأمته النجاة أو الانتهاء!

وعلى الجانب الآخر من حمزة تحوم ريم بخوف.. بعقلها تخيلت مدى الانتهاك الذي تعرضت له الفتاة.. اختلطت الصور بذهنها حتى تكاد لا تفرق بين أمنية المتهالكة على درجات السلم تبكي بضياع، تكاد تفقد وعيها ألمًا مثلما فقدت ما هو أكثر غدرًا.. وبين دموعها هي قديمًا وهي تتوسل إنسانية وحش نزعت منه أعماقه معاني الرحمة والشفقة.. تترجاه أن يعتق سنوات براءتها ليقابل توسلها بمزيد من الانتهاك والقسوة، أناملها وجدت طريقها بلا إرادة لهاتفها وصوتها المختنق يتوسل أمانه..

"علي.. أرجوك تيجي أنا محتاجة لك ضروري"

وبكلمات بسيطة أخبرته عن مكانها.. وأغلقت الهاتف وهي تنتظر وصوله.. تعلم أنها لن تهدأ إلا معه.. بوجوده فقط ستمتنع صور الماضي عن زيارة عقلها وستعود لتحيا بفقاعة أمانه..

أما علي فقد أغلق الخط والتفت لرؤى التي انتهت من ارتداء ملابسها واقتربت منه مبتسمة..

"أنا جاهزة يا حبيبي.. مش مصدقة أننا هنشوف البيبي مع بعض أخيرًا"..

شعر بسعادتها لوجوده معها يرافقها لمتابعة حملها للمرة الأولى فقد تعارضت المرات السابقة مع مواعيد جلسات ريم النفسية..

كان يرغب بدوره في رؤية طفله.. ولكن صوت ريم تتوسل حضوره أزاح كل رغبة أخرى وبقي فقط احتياجها له..

أجلى صوته بحرج..

"مش هقدر المرة دي يا رؤى.. جالي مشوار مهم"..

رمقته نظراتها بعتاب صامت وأشاحت بوجهها بعيدًا.. بينما أكمل هو بارتباك..

"هروح أقول لماما تلبس وتروح معاكِ"..

واختفى من نظراتها، بل هرب من لوم عينيها..

بكل يوم وكل لحظة تميل كفته.. يختل ميزانه.. وهو غاضب.. وحائر.. ضائع بين أمان يمنحه لمعشوقته وآخر يستمده ممن هو معشوقها..

أبلغ والدته أن تستعد للذهاب معها وانطلق يلبي لهفة معشوقته التي وجدها جالسة منكمشة على نفسها على أحد مقاعد الانتظار بالمشفى.. قصت عليه سريعًا ما حدث ونظراتها يتلبسها جمود خائف.. وأناملها تمتد بقلق لتستمد من كفيه الأمان والدفء.. أحاط كتفيها بذراعه يهدئ مخاوفها التي ظنها تعود لقلقها على ابنة خالتها وأخذ يخبرها بأن لا تقلق وأنها ستكون بخير..

لمح حمزة وصول علي واقترابه من ريم يهدئ من قلقها الزائد وهز كتفيه بحيرة وهو يلحظ هدوء شقيقته الملحوظ لوجود زوجها بجوارها..

انتقلت نظراته بلا إرادة منه ليرقب زوجته هو.. ليرى أنها تجلس بدورها على مقعد آخر تضم يديها معًا.. تفركهما.. وتخفض نظراتها أرضًا وكأنها تريد الابتعاد بأفكارها عن كل شيء..

ولكن عينيه لم تغفلا عن رعدة جسدها الخائفة.. خائفة على حياة شقيقتها، خائفة من وجود شقيقها بمحيطها.. خائفة من مجهول تجهله وحيرة تفتك بها..

اقترب منها بهدوء وبيده كوبًا يحتوي على مشروب دافئ.. حثها على احتسائه بتشجيع..

"اشربي يا سمية.. أنتِ بترتعشي.. وأكيد أمنية هتحتاجك جنبها أما تخرج من العمليات"..

رفعت إليه نظرات حائرة تناشده إجابة أو أمانًا.. وبأعماقه يعلم أنها لا تدرك مصاب شقيقتها.. فهي بحالة رعب وكأن الفتاة فقدت حياتها.. وربما فعلت..

فليس بعد فقدان الشرف حياة..

ربت على كتفها باطمئنان وقبل أن يتفوه بكلمة خرج الطبيب من غرفة العمليات لتدب الحياة بأطراف سمية وتتحرك لتسأله بلهفة..

-خيريا دكتور؟..

والطبيب يدور بنظراته بينهم ويخبرهم باطمئنان:

-خيريا جماعة اطمنوا.. قدرنا نوقف النزيف.. والحمد لله الجنين بخير..

"الجنين"..

همسة ترددت؛ بخوف، بغضب، بتوحش..

بذهول.. هتفت سمية:

-جنين!.. جنين إيه!!..

وقبل أن ينطلق هتافها صارخًا كانت قبضة حمزة على ساعدها تسكتها عن التفوه بالمزيد بينما تجاهل الطبيب وبحرفية عالية كل تلك الانفعالات وتساءل بعملية ملتفتًا لحمزة:

-حضرتك تبقى جوزها؟..

هز حمزة رأسه نافيًا وهو يتمتم:

-أنا جوز أختها..

وانتقلت عينا الطبيب لإيهاب الصامت بجمود وعيناه تتألقان بوحشية غاضبة.. ولكن صوت ريم الخائف تردد مع هتافها المتعجل:

-جوزها مسافر يا دكتور.. مسافر..

التفت لها علي بدهشة.. بينما أغلق حمزة عينيه بضيق.. فهو أراد أن يتكتم الأمر تمامًا حتى يعلم كل أبعاده.. حتى والده لم يخبره بشيء.. ووجود علي يزيد من دائرة الفضيحة.. فكلام الطبيب واضح..

جنين.. وزوج.. ونزيف.. فضيحة كاملة الأركان..

عادت نظراته تحط على إيهاب الصامت منذ البداية وغضبه يرسم ملامح وحشية على وجهه وأعاد التفكير.. ربما وجود علي سيكون بفائدة..

فهو لن يتمكن من السيطرة على إيهاب وغضبه.. وهو نفسه تموج أعماقه بغضب شديد على من فرطت بعرضها واستهانت بكل القيم والأخلاق.. وبكل فرد ببيت والده..

منح اهتمامه لكلمات الطبيب الذي هز رأسه بأسى وغمغم بارتباك:

-كده الوضع مختلف.. أنا مضطر أبلغ البوليس..

وهنا انطلقت صيحة إيهاب لأول مرة:

-بوليس!!.. ليه؟..

أخفض الرجل بصره حرجًا:

-أنا آسف.. للأسف المدام اتعرضت لحادثة اغتصاب..

وقبل أن يكمل كانت صيحة إيهاب تتردد:

-آه يا أسامة يا ابن ال***

ولف جسده ليتحرك ولكن كان حمزة وعلي أسرع منه وكأنهما على اتفاق مسبق لتحجيم غضب هذا الثور الأعمى.. لحظات سيطرا على غضبه وتركه حمزة مع علي وتوجه للطبيب ليتبادل معه حوارًا هامسًا.. أقنعه بعده أن ينتظر استفاقة أمنية قبل أن يطلب تدخل الشرطة..

أنهى حواره مع الطبيب ولمح علي يحاول تهدئة إيهاب وسمية ترتكن على جدار ما وتخفي جسدها المرتعش خلف ريم وكأنها خجلة من مواجهته.. وكأنها هي من أذنبت وأجرمت.. تنهد بعنف ليتوجه لأحد المصاعد فيستقله بدون تفكير.. وبعزلة المصعد سمح لغضبه بالظهور..

كيف فعلتها!..

تلك من تربت أمام عينيه، بمنزله.. من كاد أن يأتمنها يومًا على بيته وعرضه وكيانه.. كيف فعلتها!!.. كيف تخون تربيتها ومبادئها وتمنح بدون استحقاق!!..

كيف أخل هو بواجبه نحوها ولم يُدرك دناءة ذاك مَن أتاها خاطبًا!!

لقد سأل عنه.. بمحل عمله، سأل المتاجر التي تجاور صيدليته.. سأل حول منزله.. والجميع أكد نظافته وحسن سلوكه..

إذاً كيف؟..

ومنح جدار المصعد لكمة..

ما الذي فاته؟..

ولكمة أخرى..

لا يريد الوصول بتفكيره أنه أذنب بحقها.. كلا.. هو لم يُذنب.. لم يُذنب..

ولكمة ثالثة..

ربما هو ليس سيئًا.. ربما خطأ وسيتم تداركه.. ربما..

تنهد حنقًا وهو يفكر بكل ما عليه فعله.. بسرعة؛ تصحيح الكارثة.. وتهدئة ذلك الوحش الأحمق والذي تلتمع عيناه بنية الأذى..

والأهم من كل ذلك.. منح الأمان لزوجته الحائرة والذاهلة.. فالكوارث تنهال على رأسها متتالية وكأنها لم تكتفِ مما منحه لها حظها البائس.. وهو لا يعلم كيف يمكنها التحمل!

كل ما يعرفه أنها تحتاج وجوده بجانبها الآن.. ربما لا يملك كلمات مواساة كافية.. لكنه سيحاول..

ما إن ترك المصعد حتى لمح علي يتجادل مع إيهاب بانفعال.. وبدا من لغة جسديهما أنهما على وشك فقدان السيطرة.. فقرر التوجه إليهما أولًا ليصله صوت إيهاب الغاضب:

"يا علي سيبني أروح أخلص على الكلب الواطي ده.. ده لازم يموت"..

تدخل حمزة لحظتها بحسم:

-وبعدين؟.. بعد ما تقتله.. أنت هتترمي في أعفن زنزانة وأختك هتتفضح..

التفت إيهاب له ليقبض على قبة قميصه:

-اخرس.. اخرس..

دفعه حمزة بعيدًا:

-افهم يا غبي.. أختك روحها في إيد الواطي اللي أنت عايز تقتله.. كلنا روحنا في إيده.. وبعدين...

قطع كلماته فجأة وصمت.. فقطب إيهاب حاجبيه:

-وبعدين ايه؟..

التفت حمزة بعيدًا وهو يغمغم:

-نستنى أما أمنية تفوق.. ونشوف هتقول إيه..

وقبل أن يتفوه إيهاب بكلمة ردد علي:

-حمزة معاه حق.. لازم نفكر كويس عشان نحل المشكلة صح..

ابتعد إيهاب عنهما بحنق ليشعل إحدى سجائره بالقرب من النافذة.. بينما تبادل حمزة وعلي نظرات متفاهمة.. فرغم كل شيء ربما تكون أمنية تعرضت بالفعل لحادث اغتصاب!

وبغرفة أمنية جلست سمية وريم بجوار فراش الغائبة عن وعيها.. ريم تتأمل ملامح أمنية الشاحبة بحزن.. لا تنسى يوم أن رأتها مع أسامة.. هل أخطأت عندما لم تخبر أحدًا!!..

لكنها لم تعلم كيف تخبرهم!!

هي تعودت على الصمت.. الكتمان.. الاستسلام..

هي فقط لم تعرف المبادرة..

وبين لومها لنفسها وشفقتها على المسكينة التي ستدفع ثمن شهوة رجل آخر.. حقير آخر سلب ما لا يمتلك.. اقتحم عقلها فكرة أخرى..

ربما أمنية مثلها!

ممن يجب وأدهن.. ربما هي من أغوت خاطبها، فهو بالبداية كان يبدو غاية في الاحترام والأخلاق.. ربما أمنية هي المخطئة!

أما سمية فقد جاورت أمنية بفراشها تملس خصلاتها بحنان ودموعها تهطل بلا توقف..

أعماقها تتصادم بأفكار عاصفة..

هل جنت على شقيقتها؟..

حرمتها من الاقتران برجل كحمزة وألقت بها لجحيم وغد كأسامة؟..

هل برحلتها للحفاظ على إخوتها دفعتهما للسقوط!.. فالاثنان سقطا بوحل الغريزة.. واحد بلا رباط شرعي والأخرى لن يحميها عقد قرانها من ذنب التفريط..

يا إلهي.. ماذا فعلت!.. بل ماذا كان يمكنها أن تفعل!!..

ترفض حمزة؟.. تحافظ على ارتباطه بشقيقتها وتفرط في شقيقها.. فحميها كان تهديده واضحًا.. حرية أخيها مقابل زواجها من حمزة.. هل كان هناك اختيار!!.. منفذ للهرب!!..

لقد عرضت عليه أن تتعهد بعدم الزواج حتى الموت، فقط ليعفها من تلك الزيجة.. ولكن فكرته المسيطرة عليه بحفظ سر ابنه المتوفى كانت أقوى من كل توسلاتها.. أقوى من صرختها له أنه سيفتح باب الشيطان بينها وبين شقيقتها.. بل بين الجميع.. ولكن الرجل صمم.. وأصر.. لن يهتك ستر ابنه أبدًا.. لم يفعلها بحياته.. أسيفعلها بموته!

أفاقت سمية من غفلة مشاعرها على تأوه أمنية الخافت.. فرمقتها بلهفة وهي تعود لوعيها.. تعاود التألم.. وجفناها يتحركان لتتعلق نظراتها بدموع سمية.. فيهاجمها الذنب جوار الوجع ولا تملك هي الأخرى إلا المزيد من الدموع..

لاحظت ريم نظرات الأختين المتبادلة.. فتحركت بخفة لتترك الغرفة وتمنحهما مساحتهما الخاصة..

انتبهت سمية على صوت انغلاق الباب فجذبت نفسها من دائرة شجن النظرات وأجلت صوتها لتهمس:

-حمدلله على السلامة يا أمنية..

وكأنها انتظرت كلمات سمية لتنفجر بنوبة بكاء عاصفة وذكريات الساعات الماضية تنهال على عقلها بلا رحمة..

اتصالها المتلهف بأسامة والذي استقبله بفرحة أكثر تلهفًا.. تواعدهما على اللقاء بعد محاضراتها.. وانتظاره لها أمام كليتها لينطلقا معًا إلى شقتهما.. عشهما السعيد كما كانت تعتقد بسذاجة.. سذاجة دفعتها لتستسلم له للمرة اللا حصر لها.. سذاجة جعلتها تمنحه وتمنحه وتنتظره ليرتوي من أنوثتها ثم تتعلق بعنقه لتهتف به بسعادة ظنتها متبادلة..

"أسامة حبيبي.. عندي خبر مش قادرة أخبيه أكتر"

وابتعدت قليلًا لتمسد بطنها بحنان..

"أنا حامل يا حبيبي.. ابننا هنا"

ومدت كفها لكفه ليستقرا فوق بطنها غافلة عن حالة الجمود التي انتابته..

غافلة عن ملامحه الساهمة وعينيه الغاضبة.. وهالة الرفض والاستنكار التي أحاطت بكل خلية بجسده..



طال صمته.. فرفعت عينيها له لتفاجأ بشراسة نظراته وغضبه الواضح وهو يسألها ببرود..

"وناوية على إيه؟"

هزت رأسها بحيرة..

"يعني إيه؟"

هتف بغيظ..

"هو إيه اللي يعني إيه!.. اللي في بطنك ده لازم ينزل"

ابتعدت عنه بسرعة وهي تردد بذهول..

"ينزل!.. عايزني أموت ابننا!"

اقترب منها يتمسك بمرفقيها وهو يهزها بعنف..

"ابننا إزاي!.. عايزاني أروح لأبويا ولا لعمك وأقوله ابننا!!.. شغلي عقلك ده شوية"

سقطت دموعها وهي تخبره بضعف..

"نقدم ميعاد الفرح.. ونتجوز..

قاطعها..



"نتجوز!.. أنتِ اتجننتِ تقريبًا"

غمغمت بذهول..

"ليه؟.. ليه يا أسامة!!.. أنت دايمًا بتقول أني مراتك.. حصل إيه؟"

هتف بسخرية وهو يشير لبطنها..

"حصل ده"

سكت لحظة ثم ردد بعنف..

"المشكلة دي لازم تتحل.. وبسرعة.."

هزت رأسها بقوة وهي تحمي نفسها بذراعيها..

"لا..لا.. أنا مش ممكن أقتل ابني أبدًا.."

واقتربت منه تهمس بتوسل..

"قدم ميعاد جوازنا يا أسامة.. عشان خاطري.."

لمحت قسوة نظراته.. فزادت دموعها لتكمل بضعف وتوسل..

"أبوس إيدك ما تتخلاش عني"

رفع ذقنها بقسوة وهو يمنحها نظرة شرسة..



"عمري ما أتخلى عنك يا موني.. بس نخلص من اللي في بطنك الأول.. وبعدها...

سكت ولم يكمل كلماته لتزداد دموعها هطولًا وتدرك أنها بالفعل سقطت بحفرة مبطنة بأشواك كلماته المعسولة..

رمت نفسها تحت قدميه.. وهي على أتم استعداد لتقبيلهما فقط.. كي لا يتخلى عنها..

ظل يرمق لحظات انهيارها لدقائق قبل أن يهتف بها بنزق..

"يلا.. عشان أروحك"

هزت رأسها برفض.. هي لا تستطيع العودة.. فعودتها توازي موتها.. واستمرارها معه موت آخر.. وبين موت وموت لا فارق.. فتتعدد الطرق والنهاية واحدة..

ترجمت أفكارها وهي تردد..

"إيهاب مش هيسكت.. عمي مش هيسكت.. لو عرفوا هيقتلوني.. هيقتلونا.."

وصرخت بوجهه غاضبة..

"هيقتلوك.. هيقتلوك ومش هيسكتوا"

رفعها من ذراعها بعنف مما دفعها للصراخ متأوهة وهو يهتف بها..

"بتهدديني!.. بتهدديني يا.. mooوني.."

صرخت به وهي تلطم خديها..

"يا مصيبتك يا أمنية.. يا مصيبتك"

هتف بها بغيظ..

"اخرسي.. كفاية هتفضحينا"

رفعت عينين مقهورتين..

"أنت ليه بتعمل فيَّ كده!.. ليه بعد ما آمنت لك.. تطلع..

اقترب منها وعيناه تقدح بشراسة لم تعرفها معه من قبل.. ولسانها يكمل بلا إرادة..

"سافل.. أنت سافل.. "

وقطع الخطوات بينهما وأنهى اقترابه بصفعة وجذب خصلاتها ليلقي بها أرضًا وفحيحه يتعالى..

"أنا هعرفك السفالة على أصولها"..

عادت أمنية من أسود ذكرياتها وهي تتذكر كل لحظة مرت عليها بعدها ما بين عنف.. وقهر وغصب وانتهاك وامتهان.. انتهى بها ملقاة أمام شقة يوم

وهي مستنزفة.. والنزيف لم يكن لدماء فقط.. بل كان نزيف كرامة وأنوثة وحياة..

وعمر تدرك الآن أنه انتهى أو كاد..

***

خرجت سمية من غرفة أمنية لتجد أمامها حمزة في التو.. كانت بالكاد تقف على قدميها فمنحها دعم ذراعه بحركة لا إرادية.. وهو يهمس بقلق..

-أنتِ كويسة يا سمية؟

هزت رأسها بغموض.. وهي تلمح اقتراب شقيقها وعلي معه كأنه حارس أمين.. بينما وقفت ريم على مسافة.. فقد قررت منح نفسها مسافتها الآمنة كما كانت..

سأل إيهاب بصوت مختنق:

-فاقت؟

أومأت سمية برأسها موافقة وهي تقترب من حمزة بصورة لاإرادية.. وهمست بقهر:

-أسامة لازم يتجوزها..

ورفعت عينيها لحمزة وكأنها تسأله الإنقاذ:

-بسرعة.. لازم يتجوزها بسرعة..

تجمدت ملامح الرجال الثلاثة وإيهاب يهتف بقهر ويخبط رأسه بأقرب حائط له..

-هقتله ابن*** .. هقتله..

وانطلق بسرعة من أمامهم.. وحمزة يهتف بعلي:

-إلحق المجنون ده قبل ما يهد الدنيا على دماغنا كلنا..

لم ينتظر علي انتهاء كلمات حمزة.. فكان قد انطلق بالفعل في إثر إيهاب.. بينما ارتكزت سمية على ساعد حمزة الذي أوصلها لأقرب مقعد وهو يسألها ثانية:

-أنتِ كويسة؟..

أومأت برأسها وهي تمسح دموعًا ليس وقتها الآن:

-هو رافض.. رافض يعترف بـ..

صمتت وقد خنقتها دموعها لتنفجر فجأة بصيحة وجع:

-يا رب.. يا رب ساعدنا مالناش غيرك..

قبض حمزة كفه بغضب وهو يراها تعود لحالتها القديمة من الانعزال.. وكأنها وحيدة بدنيا البشر.. لا معين.. ولا منقذ..

ارتكز على ركبة واحدة وهو يرفع ذقنها بحزم:

-أنتِ مش لوحدك.. وما تخافيش.. وعد مني أمنية هتكون في بيته قبل الأسبوع ده ما ينتهي.. أنتِ مش لوحدك يا سمية.. فاهماني..

أومأت بصمت فتنهد هو ارتياحًا.. وعاد يخبرها:

-دلوقتِ أنا عايزها تكلم الـ... تكلمه وتتفق معاه على ميعاد في المكان اللي بيتقابلوا فيه..

عادت سمية تومئ بصمت وهو يكرر:

-سمية.. إوعي تخليها تقوله على أي حاجة.. ولا حتى أنها في المستشفى..

همست بخفوت:

-حاضر..

منحها قبلة داعمة على جبهتها وهو يكرر:

-أنتِ مش لوحدك..

هزت رأسها بصمت وتحركت لتنفذ تعليماته بينما اتصل هو بعلي الذي أخبره أنه يحاول السيطرة على إيهاب وأنهما حاليًا بالقرب من مكان صيدلية أسامة..

تحرك حمزة بسرعة ليصل لهما.. فهو بعد مشاجرته الأخيرة مع إيهاب يدرك جيدًا قوة وعنف هذا الأخير.. وعلي بمفرده لن يستطيع إحكام السيطرة عليه.. فأخبر سمية أن تهاتفه بمجرد أن يلبي أسامة اتصال أمنية..

وهناك أمام باب الصيدلية كانوا يراقبون مدعي الأخلاق وهو يتعرق ويسقط النقود أمام إحدى الفاتنات.. يدعي غض البصر والارتباك والتعثر.. يمنح ضحيته الأمان.. ليسلبها ما يرغب..

ويهمس إيهاب بغيظ:

- بتلعبها صح يا ابن****

ليجبه حمزة بغيظ مماثل:

-أنا مش عارف إزاي ماحدش كشفه!!.. كل المعلومات اللي طلبتها عنه..

قاطعه إيهاب بسخرية:

-إيه!.. قالولك في حاله.. من البيت للشغل ومن الشغل للبيت..

وأطلق ضحكة مريرة:

-وإنه بيصلي الجمعة كل أسبوع.. مش كده!..

زفر حمزة بغيظ وهو يشيح بوجهه بعيدًا بينما إيهاب يكاد يموت قهرًا.. هو المخطئ.. هو من اعتقد بالبداية أن أسامة هو خطوة أمنية نحو حمزة.. لم

يظن للحظة أنها ستسقط بحبائل ذلك المأفون.. بل لم يشك به من الأصل..

لو أدرك أنه امتلك مشاعرها حد التفريط والتورط، لكان سأل.. وسأل وتقصى وجمع المعلومات بطريقته هو.. وليست طريقة حمزة المهذبة مثله..

أفاق على صوت هاتف حمزة.. وبعدها التفت حمزة لعلي يطلب منه برفق أن يذهب للمشفى ليكون برفقة سمية وريم..

وانطلق هو مع إيهاب لشقة أسامة الذي كان ينتظر أمنية بلهفة بعد أن أخبرته أنها اقتنعت بكلماته وقررت إجهاض الطفل..

وقبل أن يكتمل فتح باب الشقة كان إيهاب يدفع بأسامة لداخلها ويلقيه أرضًا وينهال صفعًا وركلًا ولكمًا.. والآخر أخذته المفاجأة فلم يستطع شيئًا أمام ذلك العنف المفرط..

دلف حمزة خلف إيهاب وأغلق الباب خلفه.. وأخذ يراقب إيهاب وهو يكيل اللكمات والركلات لأسامة.. ثم تحرك أخيرًا ليرفع إيهاب عنه ويمنحه نظرة رادعة.. أوقفت تقدمه للحظات.. ثم عاد لمنحه ركلة بين ضلوعه وهو يصرخ به..

-فاكرها مالهاش أهل يا ابن ال***.. فاكرها ضعيفة ماحدش هيجيب حقها..

ابتسم أسامة بسخرية وهو يسند نفسه لينهض ويواجه إيهاب:

-وأنت كده جبت حقها!.. قلمين وبوكسين!

هز كتفيه ورغم ألمه إلا أنه تماسك:

-خلاص.. خلصت كل اللي عندك؟..

كاد إيهاب أن يندفع نحوه ثانية عندما أوقفه حمزة وهو يلتفت لأسامة:

-إحنا مش جايين نتخانق.. عايزين نتفاهم..

اتسعت ابتسامة أسامة الساخرة:

-آسف.. مافيش حاجة نتفاهم عليها..

انفلت إيهاب من بين قبضتي حمزة ليشتبك مع أسامة، وتلك المرة أوسعه ضربًا مبرحًا وهو يهتف:

-تبقى تموت أحسن.. وأهي تبقى أرملة..

وتلك المرة لم يوقفه حمزة.. بل تحرك ليستند إلى أقرب حائط وهو يراقب إيهاب يكاد يقتل أسامة ضربًا.. هو رغم عصبيته الشديدة إلا أنه يكره ذلك العنف المفرط ولا يحبذ تلك الوحشية.. ولكن ذلك الوغد لم يترك لهما منفذًا سواه..

أخيرًا رفع أسامة يدًا متهالكة وهو يتوسل إيهاب الرحمة هامسًا:

-هتجوزها.. خلاص.. خلاص..

اقترب حمزة منه ينحني بجذعه:

-الفرح آخر الأسبوع..

اتسعت عينا أسامة للحظة.. ثم أخبرهم بوقاحة:

-مش هفرش الشقة.. هي اللي عايزة تتجوز.. تبقى تدفع وتفرش..

ورفع لإيهاب عينًا حانقة:

-شهر واحد وهبعتهالك.. دي ما تتأمنش..

وقف إيهاب يرمقه بسخرية.. ذلك المأفون يظنه بغباء ونزاهة حمزة.. أو بجهل سلامة..

انحنى نحوه وجذبه من ملابسه لينهض الآخر متهالكًا على قدميه ثم أخرج إيهاب من طيات ثيابه عدة أوراق وقلم وهو يخبره بسخرية:

-بقى هي اللي تدفع!..

ودفع برأس أسامة للجدار..

ثم أكمل بسخرية مريرة:

-شهر واحد وترميها!..



ودفعة أخرى أشد من السابقة تلتها واحدة ثالثة وقبل أن يشرع في الرابعة همس بفحيح وهو يدفع له بالأوراق:

-امضي يا حيلتها..

من بين رؤية مشوشة لمح أسامة عدة إيصالات أمانة.. فهز رأسه برفض.. ليدفع إيهاب برأسه للجدار بخبطتين متتاليتين وهو يخبره:

-وحياة أمك لأخربيتك يا ابن *****.. امضي يا له..

ولم يملك أسامة أمام ما يكتنفه من دوار وبوادر فقدان وعي إلا الرضوخ وتوقيع تلك الإيصالات.. وآخر ما تذكره همسة حمزة:

-الفرح يوم الخميس..

وبالفعل أوفى حمزة بوعده لسمية.. وكانت شقيقتها عروس ببيت زوجها قبل نهاية الأسبوع وإن كان الفضل الأساسي يرجع لإيهاب الذي امتنع عن حضور الزفاف بل إنه حتى لم يلقِ بنظرة على شقيقته..

دلفت أمنية لعش سعادتها السابق ووكر أحزانها الآتي وأسامة خلفها يدفعها بشدة وهو يخبرها بحنق:

-مبروك يا عروسة..

دفعة أخرى منه أوصلتها لمنتصف الصالة ليكمل بعدها:

-أيامك سوده يا موني..

وجذبة تالية أوقعتها أرضًا وهو ينالها بحقارة.. وابتسامته التي ظنتها يومًا ساحرة ترتسم على شفتيه وهو يردد:

-اهدي كده وطاوعيني.. ما هي الجوازة دي مش ببلاش..

ورضخت له أمنية تقهرها كلماته وتجِد مقاومتها مخاوفها على جنينها وضميرها يخبرها بشجن أنه آن أوان السداد..

***

وبالحديث عن حماقة عقل تعامى عن الحقيقة ليقنع الروح بجهالة التعامل والسلوك..

وجد عادل نفسه يعتصر هاتفه بغضب وصوت شقيقه يتردد بأذنيه:

- لارا في المستشفى..

لا يعرف كم إشارة مرورية كسر وكم مخالفة قيدت بحقه!.. ولم يهتم بعداد السرعة أو احتراق الإطارات على الطريق.. فقط أدار عجلة القيادة وهو بمنتصف طريقه للقاهرة ليعود ويطمئن على الزوجة/اللازوجة التي

تجافيه وتناصبه العداء وكأنه هو المخطئ المذنب بحقها.. وتنسى أنه ستر عارها وداري خطيئتها وتحمل وجودها الملوث بجواره.. بل أصبحت عيناها

تتراقص بسخرية واضحة في كل مرة يفقد السيطرة على انجذابه لها وتتفنن في طرق لترفض تودده وتذكره باتفاقهما..

خبط عجلة القيادة بغضب.. تبًا.. تبًا.. هو الخاسر في تلك الزيجة.. وهو وحده من يتحمل نار شوقه ليضمها لصدره ثانية ويتمتع بنعيم قبلاتها وجنة وصالها..

وصل للمشفى يبحث عن شقيقه بجنون.. ليجده بأحد الأركان يتبادل الابتسامات مع خطيبته وقد بدا واضحًا تحسن العلاقة بينهما..

لمحه عماد من بعيد ورأى علامات الهلع على وجهه..

فاقترب ليقابله مهدئًا:

-اهدى يا عادل.. اطمن..

سأله عادل بلهفة:

-خير.. حصل إيه؟.. لارا مالها؟

اندفع عماد يهدئه بسرعة.. يخبره عن نزهة بالمزرعة.. اصطحابه هو وهبة للارا معهما... التصاقها بمهرها الصغير معظم ساعات اليوم.. وبالنهاية سقوطها فاقدة للوعي عند وصولهم لفيلا الغندور..

ومع كلمات عماد كانت نظرات الغضب تتألق بعيني عادل.. إذاً هي خالفت أوامره.. عارضت وعاندت وسافرت بالفعل للمزرعة ضاربة بأوامره لها بالتزام المنزل عرض الحائط..

وبينما هو يتوعدها بداخله.. أساء عماد تفسير نظراته وظن أنه يحترق قلقًا على زوجته فحن قلبه له وطمأنه مهنئًا:

-ما تقلقش يا بوص.. لارا زي الفل.. وألف مبروك يا عم.. ولي العهد في الطريق..

وإذا كان عادل يشتعل غضبًا من قبل فذلك الخبر قضى على البقية الباقية من تعقله.. فاندفع لغرفة زوجته يقتحمها بعنف جعلها تنتفض بفراشها وهي ترمق اقتحامه الهمجي بدهشة..

نظراته المتهمة الغاضبة والمركزة عليها أصابتها بالقشعريرة وانقبضت أعماقها خشية أن يلقي عليها إحدى كلماته المهينة أمام شقيقه وهبة التي دلفت للغرفة وعلى وجهها ابتسامة فرحة بالمولود القادم..

استشعر عادل دخول أخيه وهبة خلفه فحاول التحكم بمشاعره وهو يقترب من لارا يمنحها قبلة خشنة على وجنتها ويخبرها بصوت عال:

-حمد الله على سلامتك..

ويقترب ليهمس بأذنها:



-هنتحاسب في البيت..

وصمت لحظة ليردف:

-لوحدنا..

ووحدهما بجناح عادل، دلفت لارا سريعًا تريد الاختفاء من أمام ناظريه، لكنه لم يمنحها الفرصة فدوت صيحته هادرة:

-استني عندك..

تجمدت بمكانها للحظات استجمعت بها قوتها قبل أن تلتفت له وهي تعقد ذراعيها أمام صدرها وترمقه بنظرات قوية:

-خير!.. في حاجة؟..

برودها يقتله فعليًا.. هو يحترق بنيران غضبه، شوقه، وشكه وهي تغلف نفسها بصقيع القطبين معًا..

جذبها من ذراعها ليسألها مباشرة:

-ابن مين اللي في بطنك؟

والاتهام لا يصح.. والسكوت لا ينفع ومع رفعة كفها لتمنحه ما يستحق من إجابة كانت كفه تتمسك بيدها بعنف وعيناه تحترقان بعينيها وهو يهمس من بين أسنانه:

-صدقيني لو كررتيها هتلاقي تصرف تاني.. أكبر من قلم على وشك..

نظراته الشرسة سببت لها الرعب ولكنها لم ترتدع وهي تخبره بغضب مماثل:

-ده أبسط رد على جنونك اللي فاق كل الحدود.. أنت واعي للي بتقوله!!

وكانت كلماتها الأخيرة صراخ مجنون يقابل جنون ظنونه..

ورده كاد يصيب قلبها بمقتل.. بل إنه أصابه بأكثر فقد كرهت كل نبضة خفقت له من قبل وهو يسألها بعنف:

- أنتِ اللي بجاحتك وسفالتك فوق الخيال.. فاكرة إنك هتلبسيني ولد مش ابني!!

جذبت يدها منه بعنف وهي تضع يدها على قلبها تهدئ من خفقاته الغاضبة.. لا تصدق أنها وقعت بحب ذاك الذكر الخاوي..

كيف ظنت يومًا أنها عشقته!.. كيف عارضت أمها وأخذت جانبه هو!!.. كيف سمحت لمشاعرها أن تعمي بصيرتها لتلك الدرجة فتتعامى عن رؤية حقيقته.. هو مجرد إناء فارغ كثير الضجيج، قليل الفائدة..

أساء هو فهم صمتها ليزيد في غيه:



- أنتِ عايزة تفهميني إنك حامل مني!!.. أنا ما لمستكيش غير مرة، مرة واحدة.. بقيتِ حامل من مرة!

لم تتمكن من التزام الصمت كما قررت فهدرت في وجهه بعنفوان:

- مرة واحدة وربنا أراد أشيل منها ابنك.. تفتكر أن دي حاجة تسعدني أني...

وصمتت للحظة وهي تمنحه نظرة احتقار خالصة:

-إني أحمل ابنك أنت!!..

وأشارت بسبابتها له من الرأس حتى القدمين وهي تلقي بكلماتها بوجهه:

- أنه يكون لي ابن أبوه واحد زيك!!

ارتفعت كفه بسرعة رغبة في منحها رده بشكل صفعة ولكن أوقفته نظرتها التي رمقت يده بسخرية وكلماتها التالية:

-أعتقد إنك بتثبت وجهة نظري فيك.

ثم رفعت هي سبابتها بوجهه تحذره بجدية:

- إياك تفكر تأذيني.. المرة دي مش هاسكت.. وعليَّ وعلى أعدائي.

غمغم بكلمات حاول أن يجعلها مهددة:

-وسمعتك؟.. واسم أبوكِ؟



رمقته بسخرية وهي ترد سهمه:

-فكرفي اسمك أنت الأول يا عادل بيه..

وتحركت نحو غرفة النوم التي احتلتها منذ فترة ليدوي صوته مهتاجًا:

-مش هعترف بيه يا لارا.. هنكرنسبه..

تمسكت بمقبض الباب وكفها ينعقد حوله بقوة وأجابته بدون أن تلتفت نحوه:

-لما يوصل الدنيا بالسلامة؛ أنا هعرف إزاي أجبرك تعترف بيه..

ولفت وجهها نحوه وهي تضيف:

-وهقضي كل لحظة في عمري أعتذرله إني ما عرفتش أختارله أب..

وصمتت قبل أن تقذفه بآخر كلماتها:

-يفتخر بيه..

ودلفت للغرفة مغلقة الباب خلفها تاركة عادل وهو يصطلي جحيم الشك والغيرة.. نيران رجل ظن أنه وصل لبر أمان حياته ليفاجأ أنه ألقى بنفسه بعمق دوامة تسحبه نحو أعماق جحيم لم يدرِ بوجوده قبلًا..

وما يقتات على صبره ذلك الكبرياء، الكبرياء الذي تجابهه به وكأنها قديسة ملائكية وهو أحد مريديها المتنسكين..

قذف بمرمدة كريستالية أرضًا وهو يقسم أن يكسر ذلك الكبرياء.. أن يحني ذلك الشموخ ويحطم الصمود الذي تتغلف به بمواجهته..

وبعقله التمعت فكرة شيطانية.. لا يكسر امرأة مثلها إلا...

اتسعت ابتسامته القاسية وهو يتناول هاتفه ليقوم باتصال تأخر كثيرًا.. اتصال قد يكون به خلاصه من جحيم اختلقه هو بيديه..

والحماقة تتجلى واضحة بتلك الجلسة الهادئة.. بل تكاد تظللها وترسم نفسها عنوانًا لها..

وكفه تمتد بخفة واثقة وهو يتلمس تلك الوجنة الناعمة.. ويتلقى ابتسامة مشجعة.. فتتجرأ أنامله وتجوب الشفاه بشغف وهو يردد..

"تتجوزيني؟"

وينال المكافأة بهزة رأس موافقة بعيدة كل البعد عن الخجل.. أو حتى افتعاله..

فعنوان المرحلة الآن هو.. الرعونة.. المؤذية!

***



والحماقة تتجلى بدفع المعشوق.. الضغط على رصيد عشقه حتى تبدأ في استهلاك ذلك الرصيد.. والكارثة أنك لا تضيف جديدًا لرصيد العشق.. تظن بحماقة أنك نلت حصانة الحب.. لتفاجأ.. بهروب.. يعقبه اختفاء..

وإن كانت حماقة صلاح قد تجلت في حشر بسمة في موضع اختيار بينه وبين ابنه.. بين الكل والجزء.. بين حبيب وفلذة كبد.. فقد وضحت عقلانية بسمة بلجوئها لوالدته هو..

هي لن تكشف هلاوس حبيبها ومخاوفه لوالديها.. فلو اطلعا على جنونه لمنعاه من الاقتراب من أي مكان تتواجد به، بل لمنعاها هي من التواصل معه..

لذا اختبأت ببيت والدته.. ترقب حضوره لمنزل والدتها يوميًا مدعيًا آلاف الأعذار حتى لا يخبرها باختفاء ابنتها.. يتمزق قلبها وهي تلمح نحوله وتعاسته وهو يجاور والدته يبثها شكوى يفترض ألا تفهمها.. بينما السيدة دلال تفهم.. وتدرك أكثر مما يدرك هو.. بل هي من كانت تشد من أزر بسمة وتقوي عزيمتها حين تشعر بميل قلبها للعودة.. أو بإبلاغه عن مكانها..

وأخيرًا بعد عذاب عشرة أيام.. فكت حصار اختفائها وكشفت الستار عن وجودها..



يومها لم يصرخ بها.. لم يغضب أو يثُر كما توقعت.. بل اكتفى بضمها لصدره بقوة..

لم يتركها تبتعد رغم حرجها من والدته وحبيبة.. فقط ظل يضمها لقلبه يتأكد من نبض قلبها بجوار خافقه.. أنها لم تتركه.. لم تفقد به الأمل.. اختبأت منه لتختفي بغرفته.. بمكانه..

ظل يحيطها بذراعيه رافضًا أن يتركها رغم همسها المؤكد..

"الموضوع ما خلصش يا صلاح.. أنا مش هرجع معاك"..

هزها برفق بين ذراعيه وهو يهمس..

"هششششش"

غمغمت بارتباك..

"صلاح"..

لم يهتم لوجود والدته وهو يعتصرها بين ذراعيه..

"سيبيني بس أحس بوجودك.. بقربك.. بحبك.. وبعدها هنتكلم"..

يومها فاجئها للمرة الثانية عندما لم يعارض ببقائها ببيت والدته.. بل همس لها بحنان..

"هاجي أشوفك كل يوم.. من فضلك؟"

كان يعلم بغضبها وحزنها من تصرفه.. رفضها لوضع الاختيار الذي فرضه عليها.. لذا لم يستطع الضغط عليها لتعود.. وأدرك أن عليه الاستئذان منها ليقترب ثانية.. يثبت أنه يريدها ويهتم برغباتها.. وليس مجرد تواجد وحضور في منزله.. وبفراشه..

ورغم أن مخاوفه لم تختفِ.. لم يهدأ قلبه ولم يعرف أمانًا.. إلا أنه يحاول أن يدعها تستمتع بذلك الطفل الذي تريده.. ويحتفظ بداخله بجميع مخاوفه.. يتردد على طبيب وآخر وثالث.. ويتابع جميع تطورات حالتها.. يكاد يخنقها بدائرة اهتمام ضيقة.. وهي تجاريه أحيانًا.. وبأحيان أخرى تنطلق لاءات رفضها لذلك الاهتمام المرضي..

وبرغم مرور شهرين.. مازالت ترفض العودة.. رغم اختناقها بمحاصرته.. إلا أنها تعلم أنها الطريقة الوحيدة ليكملا سويًا.. فهي تأمل بعد إنجاب طفلها بسلام أن يدرك هو أن الأعمار بيد الله سبحانه وتعالى.. وكل أطباء العالم لن يمنعوا عنها الموت لو جاء أجلها..

جلست تواجهه بمقعد في غرفة الاستقبال بشقة والدته.. بينما هو جالس على الأريكة يهمس بتوسل:

-بسمة.. تعالي اقعدي جنبي..

هزت رأسها نفيًا:



-لا يا صلاح..أنت عارف بتعمل ايه أما بآجي جنبك.. إمبارح أنت أحرجتني مع حماتي.

هتف بنزق:

-ولإمتى يا بسمة؟.. لإمتى؟

ابتسمت برقة:

-ممكن لحد الولادة..

انتفض كالمصعوق وهو يردد بذهول:

-الولادة!.. أنتِ بتهزري.. أنا كده هتجنن!!

أومأت برأسها وبخجل همست:

-أنا مرتاحة هنا..

اقترب منها يمسك بأناملها يقبلها بغرام:

-وبيتك!.. ما وحشكيش!!

رمشت بقوة وهي تسحب يدها منه محذرة:

-صلاح!!

عاد يهتف بحنق:

-صلاح تعب.. صلاح اتمرمط..

تمزق قلبها وهي تلمس معاناته.. إلا أنها لن تعود إلا عندما تستشعر رغبته هو بطفلهما.. وليس مجرد مجاراة لها لينال رضاها..

عاد صوته يسألها:

-يا بسمة أنا حتى ما لومتكيش على أيام غيابك عند ماما هنا.. أنا معترف إني غلطت وعايزك تسامحي..

هزت رأسها تتأمل زوجها..طفلها الأول والأناني:

-أنا جيت عند ماما دلال.. جيت بيتك يا صلاح.. استخبيت منك في بيتك..

اقترب منها يركع على ركبتيه وهو يهمس:

-وما تعرفيش تصرفك ده عمل فيَّ إيه!.. حبك وغلاوتك زادوا أضعاف..

ابتسمت برقة:

-يبقى تستحملني على قد غلاوتي..

ظهرت والدته على باب الغرفة لتلمحه وهو يتوسل بسمة العودة.. فتحركت غيرتها على ابنها.. ورغم اعترافها بخطئه وجنونه إلا أنه يظل ابنها.. لا ترضى له إهانة ولا تذلل..

وبداخلها رددت مثل لبناني اعتادت سماعه من جدتها

"الرجال حمارمرتو"..

وأكملت.. "عندك حق والله يا ستيّ"..

ولكنها لم تفصح عن أفكارها بل هتفت ببسمة:

-خلاص يا بسمة.. انتوا مالكوش غيربعض..

وأكملت بلبنانيتها:

-ومتل ما بيقولوا عنا.. عضته ولا بوسة غيره.

ضحكت بسمة برقة وشاركها صلاح ضحكاتها وهو يقترب متسائلًا:

-هترجعي؟

هزت رأسها نافية ويدها تحتضن بطنها بحنان وقلبها يخفق حزنًا..

"لسه بيقول ترجعي.. لازم يتعلم يقول ترجعوا.. لازم يحط ابنه في حساباته"

ابتسمت بحزن ونهضت معتذرة من حماتها:

-عن إذنك يا ماما دلال.. محتاجة أفرد ضهري..

والتفت لصلاح:

-تصبح على خيريا صلاح.



ودلفت لغرفته القديمة تاركة إياه منحنيًا على مقعدها الفارغ وهو يلكمه بعنف.. وعجز.. وخوف غير قادر على التخلص منه..

***

وبين الجهل ومحاولة المعرفة... بين حقيقة تكاد تصل ليقين وشك كان يناوش عقله بالبداية.. شك يمنح البراءة لشريك الدم والأبوين.. ربما لم يكن سعد بذلك السوء.. ربما كانت هي الطرف المذنب.. ربما..

ووسط قائمة الاحتمالات كانت تصفعه الحقيقة دائمًا.. أنها مهما جنت وأخطأت لا يمكن أن تكون الإجابة هي صفعة أو دفعة أو اعتداء أيًا كان نوعه..

كانت تلك أفكاره قبل أن يتطلع على تقارير الأشعة.. قبل أن يستوعب أن العنف كان أسلوب حياة سعد معها..

قبل أن يقر أن شقيقه هو مجرد حيوان يضاف لقائمة طويلة من ضاربي النساء..

هز رأسه ينفض عنه تلك الأفكار.. فهو على بعد دقائق من معرفة الحقيقة.. على بعد أمتار من منزل سعد وسمية بالأسكندرية.. وقد طلب موعدًا من السيدة صاحبة العقار.. وهي بالمصادفة تقطن بالشقة المقابلة لشقة أخيه القديمة..

لم يصطحب معه سمية بالطبع.. بل تركها بالشقة التي استأجرها من صديقه بالمعمورة..

يتذكر صعوبة إقناعها بمصاحبته في تلك السفرة، فهي كانت ترغب بالبقاء للاطمئنان على شقيقتها.. ومراعاة حملها.. ولكنه أصر عليها لترافقه مخبرًا إياها أنها أول أجازة ينالها منذ فترة ويحتاج لقليل من الاستجمام بعد زحمة الحوادث المتلاحقة في الشهور الماضية..

وأن أمنية مستقرة ببيت زوجها منذ أكثر من شهرين.. ولم يصدر منها شكوى واحدة أو اعتراض على الرجل-مبتلعًا بداخلة لائحة اعتراضاته على الوغد أسامة- ولكنه كان بالفعل في حاجة لتلك الهدنة بعيدًا عن الجميع..

والأهم.. هو بحاجة لمعرفة الحقيقة.. لن يتحمل مزيدًا من الغموض.. يحتاج أن تنتظم حياته بعيدًا عن ذلك التوتر والشد والهدوء المفتعل..

وصلا في الصباح للأسكندرية.. واستقرا بشقة صديقه.. مع اعتراضاتها المستمرة وارتياحه الواضح وهو يتنهد:

"يااااه.. السفرية دي اتأخرت شهور.. بس وصلنا في الآخر"..

ابتسمت برقة وهي تردد..

"حمد الله على السلامة"..



تاهت نظراته في ابتسامتها للحظات.. لا ينكر أنه أراد الابتعاد منذ فترة.. ولكنه أيضًا يعترف أن تأجيل تلك الرحلة كان له فائدة ما.. فبالأيام السابقة اقترب من زوجته وأفكارها، مخاوفها وأحلامها كما لم يفعل من قبل، وهي بدورها استوعبت شخصيته العصبية المندفعة على الدوام ولكنها تحمل بطياتها رحمة ومؤازة وحنان لا يوصف..

ربما الظروف المتتابعة والتي مرا بها معًا قربتهما أكثر مما يتوقعا!!..

لمح أناملها التي تفركها بتوتر وهي تحاول البحث عن هاتفها لتتصل بشقيقتها.. فتحرك ليجذب منها الهاتف:

"مش قلنا عايزين نبعد شوية"..

فرقعت أصابعها بصوت مسموع وهي تخبره..

"عايزة أطمن بس.."

ردد بغيظ مكبوت..

"أنتِ بتكلميها كل نص ساعة"..

هزت رأسها تحاول إفهامه..

"وإيه المشكلة!.. مش كفاية إني سيبتها وسافرت!"..

نفخ بحنق كان ينتابه لانشغال عقلها الدائم عنه..

"أنتِ قاعدة جنبها بقى لك شهرين.. كفاية قوي"

وقبل أن تعترض أوقفها بحركة من يده وهو يخبرها بلهجة معبرة..

"مش هتعيشي عمرك كله لغيرك يا سمية"..

قالها وهو يرمقها بقوة وكأنه يدفعها للحياة.. ويخبرها بوضوح أنه أصبح لهما حياة.. ويجب أن ينظرا لها..

أشاحت بوجهها بعيدًا غير قادرة على مجاراته في الحوار.. فانحنى ليحمل الحقائب ويتجه لغرفة النوم ويضعها بها، التفت ليجدها خلفه فمنحها بسمة رقيقة وكأنه يخفف من وطأة هجومه السابق..

"على ما توضبي الهدوم في الدولاب هنزل مشوار"..

رفعت له عينين قلقتين..

"هتخرج؟!"..

هز رأسه موافقًا..

"ساعة وهرجع.. هجيب شوية حاجات للتلاجة"..

تحرك بسرعة لتتبعه وهي تمسك لسانها عن الهتاف به طالبة منه اصطحابها معه.. ولكن كعادتها.. ترددت وجبنت فصمتت.. وودعته عند الباب وعادت لترتب أشيائهما كما طلب منها..

وصل أخيرًا للمبنى الذي يضم شقة سعد القديمة.. أخذ نفسًا عميقًا.. وتوجه نحو درجات السلم ليصل للشقة صاحبة العقار.. ويضغط جرس الباب..

***

وقف يراقبها من بعيد.. تجلس بجوار البحر.. تجمع رماله أمامها وتعمل عليها بانهماك جعلها تغفل عن كل ما يحيط بها.. تشكل بيدها نماذج مختلفة ليتبين أنها بالنهاية تبني.. بيتًا..

بيتًا من الرمال.. تحيطه بسياج دائري.. وتكمل العمل به بغياب تام عما حولها..

ثلاثة أيام مرت منذ وصولهما للأسكندرية.. منذ سماعه الحقيقة المجردة من فم تلك السيدة الطيبة.. "الحاجة أم هناء".. كما طلبت منه أن يناديها..

أخبرته الكثير.. الكثير الذي لم يتخيل سماعه.. صورت له حياة سمية مع شقيقه بأنها مأساة.. كلمة واحدة لخصت بها ما أسهبته بعدها.. صراخ وضرب بصورة يومية.. طرد خارج الشقة ليتركها تقضي اليوم أمام الباب.. ويا ويلها لو لجأت لـ "أم هناء" بالشقة المقابلة فحينها يتضاعف العقاب.. صفعات كانت تسمع صوتها وهي داخل شقتها.. ضرب مبرح بصورة

مستمرة.. ولم تنسَ أن تخبره بحادثة إلقائه لها من فوق درجات السلم.. وكيف أنه منع الجميع عن مساعدتها ولولا أنها هي تحدته بالاتصال بالإسعاف وأعقبته بالاتصال بوالده لكانت سمية أسلمت الروح يومها..

سمع يومها من تلك السيدة ما جعله يشعر بالخزى.. فقط لكونه يمت بصلة لذلك الرجل المسمى شقيقًا له..

لم يستطع رفع عينيه بعينيها منذ ذلك اليوم..

هما يقضيان اليوم معًا.. يختبر بهجتها بكل ما تراه.. بكل ما تلمسه.. وكأنها طفلة تخرج للعالم للمرة الأولى.. فرحتها تلك تريح حرقة قلبه لمعرفته لما عانته قبل ارتباطه بها..

كان قبل تلك السفرة قرر أن يفاتحها برغبته في بداية جديدة.. حياة طبيعية بينهما كزوجين..

هي أصبحت منبعًا لراحته وهو واحة أمانها..

والتحرك خطوة للأمام هو التصرف الطبيعي العفوي في تلك الحالة، ولكن معرفته لما مرت به، لما عانته، سماعه لمعاناة استمرت سنوات تحت سمع وبصر والده الذي لم يحرك إصبعًا لمساعدتها..

فكرة إجبارها على الزواج منه..



نعم هو يدرك أنها أُجبرت.. ربما لا يعرف السبب الحقيقي خلف موافقتها ولكن بعد معايشته لها.. بعدما عرف سمية عن قرب.. أدرك أنها ما كانت تسلب أمنية فرحتها.. بأعماقه يعلم أنها زوجته.. ولكنه ليس بخيارها.. وان كان هو مجبرًا مثلها بالبداية.. ولكن إحساسه وتفكيره تغير الآن.. والسؤال.. هل تغير تفكيرها بما يماثل رغبته؟

انتبهت لوجوده.. فرفعت له وجهًا مبتسمًا وهي تخبره بحرج:

-آسفة.. أنا صحيت بدري والمكان فاضي.. وحبيت أقعد على البحر شوية..

اقترب ليجاورها وهو يتأمل عملها الفني بنظرة معجبة:

-ماتعتذريش على حاجة حبيتِ تعمليها.. أنا بس قلقت أما مالقتكيش جنبي..

توردت وجنتاها بلا إرادة منها.. فهو مازال مصرًا على مجاورتها بفراشها حتى وهما هنا بعيدًا عن منزل العائلة.. وإن كانت استشعرت اختلافه بالأيام السابقة.. فهو اكتفى بمجاورتها ممتنعًا عن احتضانها كما اعتاد سابقًا..

سألها وهو يرمق منزلها الرملي:

-بتعملي إيه؟.. ده بيت؟

هزت رأسها نافية وهي تخبره بحماس:

-لا.. ده مشغل.. حلمي..

رفع حاجبيه مندهشًا:

-بنيتِ بالرمل مشغل.. مش بيت!

أومأت موافقة وهي تخبره بشجن:

-حلم.. مجرد حلم..

وقبل أن تكمل جملتها جاءت موجة قوية لتهدم الهيكل الرملي..

تابعت عيناها الموجة المنحسرة تحمل هيكل حلمها وهي تردد:

-حلم.. بس ضعيف.. واهن.. مالوش أساس.. حلم من رمل..

وتغلغلت يدها بين الرمال سامحة لها بالتسرب من بين أناملها :

-سهل قوي إنه يروح.. يختفي..

راقبت الهواء يبعثر الرمال المنسابة من أناملها:

-تطيره نسمة هوا.. حتى لو ضعيفة..

رفعت عينيها وقد تجمدت بهما الدموع:

-ماعنديش حلم بيكمل..

قبض على أناملها بقوة:

-مافيش حاجة تجبرك إنك تتخلي عن حلمك يا سمية..

منحته نظرة مستفهمة فأجابها بهدوء وهو يمنح كفها المختفي بيده قبلة ناعمة:

-أنا قلت لك قبل كده أنك حقك عندي.. اطلبي بس.. وشوفي حلمك هيتحقق ولا لأ..

صمتت وهي عاجزة عن الرد.. فعاد يقترب وهو يهمس بشقاوة لم تعرفها منه:

-شبيكِ لبيكِ.. حمزة بين إيديكِ.

عادت وجنتاها تتوردان من جديد وهي تشعر بدفئه وحنانه الذي يغمرها به منذ إفاقتها من غيبوبتها.. وأخفضت بصرها حرجًا وهربًا منه فتنحنح ليخبرها ببساطة:

-نروح الشقة؟

رفعت إليه عينين مندهشتين وهي تسحب يدها منه ولكنه شدها نحوه ليرفعها وينهض معها وهو يضيف ببراءة:

-مش هنفطر ولا إيه!



رافقته للشقة.. بصمت خجول وهي تشعر بمحاولاته ليقترب منها فذراعه حول خصرها وكفه تتمسك بكفها بحميمية دافئة وكأنه يحاول إبلاغها بشيء ما.. شيء تجاهد نفسها لتغفل عنه.. لتتجاهله .. تتخطاه وتكمل حياتها كما اعتادت.. أو ربما كما أرادت..

أنهيا الإفطار معًا.. ولتعجبها شاركها بجلي الأطباق.. وتنظيفها.. وكادت عيناها أن تقفزان عجبًا وهي تلمحه يعاونها بمهارة واضحة في إعداد الغذاء.. وأمام نظراتها المتعجبة.. رفع حاجبين عابثين:

-مستغربة قوي كده ليه!.. أنتِ ناسية إني كنت عايش في لندن سنين ولوحدي.. أكيد كنت بآكل يعني.. مش بأقتات على أوراق الشجر..

أطلقت ضحكة عالية.. جعلته يتصلب وهو يرى ملامحها الناعمة تتنعم بتلك السعادة.. وعادت وجنتاها تتوردان وهي تلاحظ نظراته المنصبة عليها.. فابتعدت عنه بحرج وهي تسأله بارتباك:

-طيب إيه أكتر حاجة بتعرف تطبخها؟

اقترب منها خطوة وعيناه مسمرة على وجهها المتورد:

-سمية..

عادت تبتعد وهي تهذي بكلمات غبية:



-كنت عايش لوحدك فعلاً؟

قطع خطوتين ونظراته تغوص بنظراتها وعاد يردد:

-سومية..

التفتت حولها بقلة حيلة وهي تهتف:

-أنا عايزة أتغدى بره..

وتلك المرة قطع المسافة بينهما بخطوة واسعة ونظراته تجمدت على شفتيها المرتعشتين وقد قرر أنه اكتفى من تلك الأخوية بينهما.. وكان همسه التالي باسمها:

-سوومية..

تلك الهمسة مع طريقته الخاصة بنطق اسمها أوقفتها عن التراجع، بل أعجزتها عن مقاومته وهو يسألها بهمس:

-قولي اسمي..

رفرفت بأهدابها بحيرة:

-هاااه!

كانت رأسه تقترب منها ببطء وعيناه تلمعان بنظرة دافئة:

-اسمي..

وما أن همست:

-حمززززة..

حتى كان يتذوق حرف الزاي من بين شفتيها بقبلة دافئة.. قبلة كانت اكتشافًا بسيطًا لانجذاب لم يعرف كلاهما أنه موجود بالأساس.. انجذاب أراد حمزة التأكد منه فأعاد القبلة مرة ثانية.. وثالثة..

وبالرابعة لم يتمكن من الابتعاد فضمها لصدره.. رفعها قليلًا حتى تناسب طوله.. ولم يبعد شفتيه، بل تجولتا على كل ملمح بوجهها، وجنتيها، ذقنها، عينيها، أنفها.. وعاد لينهل السعادة من شفتيها وأخيرًا رفع رأسه عنها ليسألها بوضوح:

-سمية.. تحبي تبني حلمك معايا؟.. بيتنا.. حياتنا.. ولادنا؟

***

والحماقة تتمثل في التخلي عن أغلى ما ملكه الإنسان يومًا.. أوربما تكون تلك الحماقة هي أعقل تصرف قد يصدرعن رجل.. يستحق عن جدارة..

صفة.. رجل..

لمحه والده وهو يدلف لغرفته القديمة بصمت ويبدو أنه يحمل هموم العالم على كتفيه.. فأوقفه بنداء:

-حمزة!

التفت له حمزة ببطء:

-أيوة يا حاج؟

سأله والده باستفهام:

-رجعتوا من اسكندرية إمتى؟

غمغم حمزة بخفوت:

-من نص ساعة.

رفع سلامة حاجبين متعجبين:

-أومال أنت جاي أوضتك القديمة ليه؟.. اتخانقت مع سمية؟

هز حمزة رأسه بنفي:

-لا.. مش متخانقين..

قطب سلامة متسائلًا.. فأردف حمزة بوضوح:

-أنا طلقت سمية..

الفصل الرابع والعشرون

دومًا ما كانوا يشجبون "الهرم المقلوب".. سكان قاعه غدوا أهل القمة، والقمة انحدرت حد دهس الأقدام، يغضبون ويعترضون.. يهتفون ويصيحون ربما حد السباب..

لم ينظر أحدهم لبداية الخلل، لتلك النقطة التي عندها تنقلب الموازين، يتحول العدل لجور، والنور يغشاه الظلام، تتلبس الأنفس هالة مكذوبة تراها حقيقة وهي محض وهم.. سراب، مغموس بخطأ الفكر وغلط المفهوم وضياع الهدف..

وفي ظل اختلال الموازين يبدأ كل طرف في البحث عن تعويض، بديل مناسب لاستمراره في طريقه الذي رسمه لنفسه وفق أخطائه المبررة كما يراها، أو حتى وفق اختياره السابق.. والبعض كما قرر عنه القدر وأجبره على ذاك الدرب..

وهو أحد هؤلاء.. وجد فتيل الفرصة فتشبث به وأشعله حتى باتت النهاية ملك يمينه، ابتسم بنشوة نصر جاورت داخله متعة اللحظة القائمة وهو يبثها كلماته الشغوف:



- وحشتيني.

وتصمت بإدعاء خجل، ويطارد هو دون رحمة ظنًا منه أنه الصياد وهي الفريسة المنشودة، يُكسِب نبرته خشونة عاطفية، وتخفت حد الهمس الحار:

- عاوز أشوفك.

- تؤ.

توسعت بسمته وثقلت أنفاسه يسحبها معه لعالمه هو:

- بتقسي عليَّ.

وبغرفتها كانت تبتسم مستمتعة بشغفه، لهفته، وحتى صوته الخافت الذي يداعب أنوثتها:

- قلت لك اتقدم لبابا.

ارتكن لظهر فراشه ممددًا ساقيه بحرية، تنهد بعمق وخلل خصلاته بأصابعه:

- مش سهل.. سبق وقلت لك برده.

وكأنما تتوافق معه بكل لحظة فعلت المثل، استندت لوسادتها وأمسكت بخصلة تلفها حول إصبعها بدلال.. تمنح نبرتها نعومة أكبر، تجذب حبل اهتمامه دون أن تشده حد الانفصام:

- وأنا قلت لك هاسهل لك كل حاجة.

وانتشى الذكر برغبة أنثاه في القرب، انتشى بتذليل متوقع لعقبات يعلم أنها عسيرة، انتشى ومنحها رد فعل يناسب ما يشعر به:

- بتحبيني؟!

خجل ما أصاب صوتها وهي تنهره، عيناها ترمشان وشفتاها تنضمان بحميمية تنطقان اسمه:

- إيهاب!

- حبيبة إيهاب.

ببديهة جواب اعتاده لسانه مؤخرًا، اعتدلت تقتنص فرصتها بالمقابل:

- لو كنت حبيبتك بجد كنت...

- نشوى.

قاطعها، انتبهت وصمتت تنتظر استطرادته فناداها ثانية بهمس خافت يجبرها على رد:

- ها!

- أنتِ عارفة إني بحبك.. بلاش الكلام ده.

بحشرجة لامست صوته، وتنهيدة خرجت منها حملت حرارة كادت تصله عبر أسلاك الهاتف وهو يعيد إلقاء طعمه لصيده الثمين:

- هاتقدم.. أنا وعدتك، بس اصبري النتيجة تظهر.

وعاد يسترخي في جلسته يخرسها بقرار أخير:

- ساعتها هاكلم عمي سلامة وآجي أخطبك بقلب جامد.

استسلمت لكلماته وابتسمت، وكان يعلم أنها تفعل:

- سيبِك بقى من الكلام ده.. خلينا في دلوقتِ.

- عاوز تقول إيه؟!

نطقت سؤالها بغنج حرك سكونه فامتلأت نبرته باشتياق معلن ولهفة ظاهرة:

- وحشتيني.

ضحكة مغناج زارت أذنيه.. خضعت في إثرها لتدليل حديثه وكلمات الحب التي افتقدتها مع خاطبها الجاف السابق..

ربما في هذه المرة يكون اختيارها صحيحًا!

لا.. بل هو بالفعل الأصح.

***

أحيانًا نظن أننا نقف على أرض صلبة، نعلم أننا قمنا بالأمر الصحيح، لكن لا تزال في القلب لمحة شك تشي بعظيم الفقد..

ولا تعويض لذلك.. لأن البديل بالفعل أصبح في عداد المفقودين، ضاع رغم أنه الأفضل، الأقرب.. والأصوب!

نعم.. طلقها، ألقى باليمين قبل وقت قصير، منحها حريتها التي هي حق لم تنله من قبل، وهو الوحيد الذي بات يمتلك قدرة المنح في هاته اللحظة.. وهبها حريتها، وتاه منه شيء ما لا يدري كنهه..

"طلقتها؟!"

باستفهام شبه صارخ، بل غاضب ينهر ويوبخ ويلوم:

- إزاي تعمل كده؟.. أنت عارف أنت عملت إيه؟!

رفع عينين عاتبتين لأبيه، تعنفان بتأنيب صامت موجوع وألمه مبهم غامض، بمرارة تملأ ما بين الجفون وبنبرة سكنها الحزن فضم عليها جناحاه:

- أنا دلوقتِ بس.. عرفت.

واهتز الأب الصلد، تأثرت وقفته الشامخة بحركة خافتة وارتجف جانب فكه بارتباك ظهرت بداياته بصوته المنخفض:

- عرفت؟!.. تقصد إيه؟

- السر.

بصقها بعنف، بضيق وغضب.. باستياء مستنكر يستهجن فعل الوالد:

- سر سعد.

وأشاح بوجهه يضم قبضتيه بشدة يسعى لتماسك بعيد المنال:

- ما تقلقش يا والدي.. سر أخويا هيفضل في أمان.

ورغم انقباضة ناوشت قلب "سلامة" فقد أخفض رأسه يفكر.. ضميره يحاول الاستفاقة من غيبوبة طويلة، ويأمره هو بالصمت لأن القلب يملك كل دافع متاح.. مسح وجهه بكفه جوار تنهيدة شابها شيء من راحة:

- عذرتني دلوقتِ لما أجبرتك تتجوزها؟

يبحث لنفسه عن مبرر أمام ابنه، الابن الذي غص حلقه بمرارة وامتلأت نفسه بسخرية من هذا الوضع المقيت والحديث فاقد الطعم والنكهة، سخرية بانت في نظرته الصامتة نحو والده والتزم السكوت فالجواب الفعلي لا تبيحه أفكاره:

- طلقتها ليه يا حمزة؟.. هي اللي طلبت؟

والصوت به شيء من سخط..

هل سيلومها هذه المرة أيضًا؟!

- حقها.

نطقها بقوة، بيقين، يرسخ بها اعتقاده بحق حجبوه عنها، والتقت عيناه بعيني أخيها المستند لجدار عبر المكان ينظر بلامبالاة قبل أن يتحرك عائدًا لحجرته دون تعليق، كررها بثبات:

- طلقتها لأن ده حقها يا حاج.

وانبرى على ذاته مبعدًا ناظريه عن لقاء نظرة أبيه:

- من حقها تختار تكمل حياتها إزاي.

خطواته تابعت صوته الخفيض وهو يتحرك نحو غرفته مجددًا بكتفين متهدلين وكيان واجم:

- إديتها الحق ده.. وهاحميه.

كلمته الأخيرة خرجت بعنفوان لا يلين، لا يحتمل جدالًا ولا يمنح حقًا بنقاش أو فكر آخر، فتح بابه وقبل أن يدخل أعلمه:

- على فكرة سمية هتقعد في شقتنا فوق..

والتفت لوالده برأسه متممًا بتأكيد:

- وميراثها من سعد.. باقي حقها، هاديهولها.

ودون مزيد من الحديث أغلق الباب خلفه، لا يدري رد فعل الأب على ما قرره ولم يعد يهتم.. يكفيه أن فعل الصواب، يكفيه أن قدم لها ما تستحقه.. يكفيه أنَّ حقها بات مُلكًا خالصًا لها.. وسيصدق وعده حتى النهاية..

سيحميه..

ارتمى بجسد خامل فوق فراشه دون أن يغير ثيابه، وضع ساعده فوق عينيه واجتر الذكرى وتلك الغصة تعود لتتحكم بحلقه فتضيق لها أنفاسه..

كانت ناعمة بين ذراعيه، هادئة مستكينة خاضعة لرفرفة قبلاته فوق ملامحها، تتقبلها برقة وهناك خجل ما يسكن وجهها.. قبَّل جفنيها المنغلقين، مرفوق وجنتيها وعاد لشفتيها..

جمود ما استشعره بعد سؤاله جعله يبتعد.. هو يريد أن يكمل حياته معها، يبنياها معًا، يُكوِنا أسرة.. بيتًا وأطفالًا بحنانها وإيثارها وقوتها ولذلك سألها، لكن صمتها.. تيبس جسدها المفاجئ أصابه بارتباك.. تنهد مبتعدًا لمسافة لا تكاد تحصى..

الجبين يستند للجبين، الأنفاس تتلاحم في سيمفونية متخمة بالمشاعر، أبرزها الحيرة وأحدها شعور الانتماء.. انتماء غير مبرر أو مفهوم أو حتى مستساغ.. هو فقط موجود!..

والأعين تلاقت بتيه لكن شفتاه لم تلتزما الصمت، بحثتا عن جواب بنبرة علاها تصميم:

- منتظر الرد!

وهربت من لقاء نظراته التي تطالب بذات الشيء، ركنت لجدار الصمت واستكانت تحدج الأرض أسفل قدميها.. وهو مد يده يعيد وجهها إليه، يغزوها بنظرة قوية ويصر على رد شفهي كأنه به ينال الاكتمال:

- هو ده السكوت اللي بيقولوا عليه علامة الرضا؟

لهجته مستمتعة.. لذة تعجبه مع وجنتيها المحمرتين، صدرها الذي يعلو ويهبط بتسارع غير مريح كأنما الهواء يعاند رئتيها بقسوة، وأخيرًا قلبها الذي لامس صدره قبل قليل ووجد صدى دقات خافقه لديه..

- أنت مش محتاج تستأذن في حقك.

بنبرة خانعة نبت لها غضب بداخله.. تحكم به وحاول السيطرة على نبرته وهو يجيبها بها مكتومة:

- أنا ما باتكلمش عن حقوق يا سمية..

وتسلطت أنامله فوق ذقنها تمنعها الهروب:

- باتكلم عن حياة.. مشاركة.

لكنها لم تستجب.. بل سعت للفرار بتشتت والتفتت توليه ظهرها، تخطو مبتعدة تستتر بالصمت وتلتحف بكتمان الألم..

انعقد حاجباه.. هل ترفضه؟!

أم ربما تخافه!

لا تزال تخافه؟!

وذاك الخاطر حجب غضبه وأثار ضيقه، زفر ببطء وتبع خطواتها، لامس كتفيها بكفيه وهمس باسمها.. حافظت على السكون فألقى بخاطره على ملأ مسامعها:

- ممكن السكوت يكون برده معناه.. الرفض.

لم يكن يسأل، بل يقرر ما يراه، يشك فيه وقرائن الموقف تدلل عليه، وتلك الرعشة التي انتابت جسدها أكدت تيه أفكاره فأردف يطمئنها:

- أنا مش هافرض عليكِ حاجة يا سمية.. ده اختيارك.

"اختيارك!!"

يالها من سخرية لا تمت للواقع بصلة.. منذ متى كانت تملك الخيار؟.. هل كان لها مرة حرية اتخاذ القرار؟.. هي تلك المجبرة على الدوام، المقهورة بلا استثناء.. المكرهة في كل خطوة!

ومن زلازل أفكارها المتضاربة التي اعتادت الخنوع حد الألفة فبات البعد عنه تشتتًا وضياعًا أعادت الكرة والجملة والتسليم:

- قلت لك ده حقك.

وأغمضت عينيها لا تعلم ماذا تقول أو تقدم بعد!

- مادام وافقت أتجوزك.. ده حقك.

وعاد إليه غضبه، كانت تقر دون وعي بإجبارها عليه، تعترف بلا انتباه وبشبه وضوح أنها لم تختره بنفسها وذاك دفعه ليديرها إليه، يواجه نظراتها بإصرار:

- وهو أنتِ فعلا وافقتِ يا سمية؟

وجذبها نحوه قليلًا ليغزو أفق عينيها ويحقق فيما كان ينبغي عليه معرفته منذ اللحظة الأولى.. يأخذ دور المدعي بالحق ويلقي بالسؤال الصعب:

- طيب وافقتِ ليه؟.. عرفيني السبب!



توترت أكثر.. قربه، عيناه، صوته.. اهتمامه، وأخيرًا ذاك الإلحاح على نبش الماضي الذي انطوت صفحته بعد عناء.. لكن وكأنها لم تُطوى بعد ولن تفعل أبدًا:

- بلاش نفتح دفاتر قديمة اتقفلت وانتهينا منها.

وتقطع شكه بيقينه لينقلب إصراره لتحقيق فعلي.. وهذه المرة انتوى التفتيش بنفسه:

- بس أنا مصمم أعرف.

وترددت.. ودت لو سبَّته بقلبها لإعادة شريط الذكرى أمام عقلها المتعب.. لكن عاندها الخافق ولسانها والجوارح، تحررت من قبضته وردت باستكانة فربما ينتهي الأمر:

- ماحبيتش أزعل جوز خالتي مني.. أفضاله عليَّ وعلى إخواتي كتير.

- أنا برده مش عارف إيه السبب في إصرار بابا!!

ولم يكتفِ بعد، وتظن أنه لن يكتفي البتة.. فبعدها دار حول نفسه بحيرة، تعالى صوت أفكاره فاستقرت فوق لسانه تعلو نبرة حائرة:

- حتى عنف سعد والضرب مش سبب كافي!

احتفظت بصمتها، وذكر أخيه الراحل فجر الذكرى.. وكلمات جارتها العجوز تعود لعقله بضجيج مزعج..

"جوزها كان فيه حاجة مش طبيعية!"

تجمد بمكانه.. استدار يرمق ظهرها، انحناءة كتفيها، طأطأة رأسها، خنوعها وسكونها وهروبها!

أيكون..!

عاد إليها وبقوة رفع وجهها إليه، ملامحه تمتلئ بعزيمة حد أنها تمنت لو ركضت من أمامه..

ما به؟!.. لماذا يبحث ويسأل ويفتش وعن ماذا!!

له حق فلينله.. هكذا ببساطة ودون تعقيدات، هي لم تمانع فما باله هو!

- سمية.. أنتِ وسعد ما خلفتوش ليه طول السنين دي؟

وكأنها لم تسمع ما نطق به، كانت تائهة في دروب ذاك الرجل الذي لا تفهمه، لا تفهم اهتمامه، قوته وإصراره!.. وضغط ذقنها بإبهامه ينبهها:

- باسألك ليه ما خلفتيش من سعد؟!

ارتعشت شفتاها واهتزت نظرتها التي عادت تفر من عينيه، ولَّته ظهرها وخطواتها ابتعدت عنه.. تلجلجت واحتارت في رد فخرجت حروفها متعسرة:

- أنت ليه مصر تفتح في دفاتر قديمة؟

وأشاحت بكفيها أمام جسدها وتاهت أكثر:

- اللي بتسأل عليه هتعرفه لما...

انعقد لسانها فجأة واستنار عقله مع عقدة صمتها!

لكن لسانه بادلها ذات العقدة فتعثرت الأحرف واستعصت على لملمة كلمة أو سؤال هاجم عقله بقسوة..

"لما!!.."

أنفاسه تلاحقت لثوان قبل أن يقترب منها فجأة:

- سمية.. أنتِ.. أنتِ..!

هل جربت من قبل أن تنطق أحرفًا فتصاب بوجع، وكلما استجمعت شجاعتك لترصها في شكل مفهوم زاد الأنين.. تكاثرت الحيرة.. باتت غير محتملة أو حتى مقبولة!

وهربت..

سحبت منه فرصة السؤال، وأعفت نفسها من ثقل الجواب!



أغلقت باب الغرفة عليها، تنشئ بينها وبينه جدرًا حاجزًا تحجب به نفسها عنه، ووقف مبهوتًا يراقب هروبها، اختفائها.. وبجمود خرج من المكان، ألقى بجسده على أقرب مقعد وتعانق جفناه وترك لعقله حرية التصرف..

تتابعت أفكاره بلا ضابط أو رابط سوى الذهول والحيرة..

شرد في الكثير لكنها كلها تكاتفت لتمنح عقله طرف خيط الجنون!.. ماذا كان يحدث من وراء ظهره!.. كيف غاب وغابت عنه تلك الحقائق!

رمق باب الغرفة بتفكير طال قبل أن ينهض، يطرقه بهدوء وتفتحه هي.. باستسلام كسير، لمح أثر الدموع الرطب فوق وجنتيها فتقدم منها.. رفع وجهها إليه ومسحه بأنامل حانية..

وارتجفت..

هل عاد لنيل ما يريد!

هي أخبرته أنه حقه، فلمَ عليه الامتناع عنه!

رجفتها تهدل لها كتفاه وهو يبعد يديه عنها.. يتنهد وترتسم بسمة باهتة فوق شفتيه:

- سمية أنا باكرر سؤالي.. عاوزة تكملي معايا؟.. نبني بيتنا سوا؟



ورغمًا عنها نظرت بعمق عينيه.. لتراه يرسم خريطة أمان، طمأنينة.. سكن ومودة، احتواء لم تشعر بمثله يومًا.. وحنو لامس قلبها بهدهدة رفقت به بعد طول عناء..

كان يخبرها صامتًا أن الجواب حقها.. الاختيار حقها.. القبول أو الرفض حقها..

يخبرها أن نعم.. أنا أمنحك تلك الحرية، حرية الاختيار، حرية القرار، حرية انتقاء المسار، وكان آخر ما منح خطوة قرب، وعين تعد بالحماية:

- أيًا كان قرارك؛ تأكدي إني هاساندك فيه.

وجفف دمعة أخيرة جاورت شفتيها الصامتتين:

- حقك عندي يا سمية.

أبعد يده عن عينيه بتأفف، نهض يدور في غرفته دون هدف والتنهيدات تتصاعد من صدره حارة مزعجة متتابعة أشبه بشهيق غير مكتمل..

هي اختارت.. وهو من ترك لها الخيار..

هو وعد، والآن سينفذ الوعد الذي قطعه كما نفذ سابقه بتحريرها..

سينفذ، سيكون أمانها، سندها.. حاميها!



هل تمنحنا الحياة أحيانًا بدائل أفضل فنسقطها من بين أيدينا ربما لأننا نرى أن الخيارلم يكن بإرادتنا!

تعوضنا عن قسوة سابقة، فنقسوعلى أنفسنا بالحرمان لأن الإجبارليس عدلًا!

نعم.. ذاك يحدث، فمهما بلغت قيمة التعويض؛ لن توازي مذاق حرية القرار، لن تشبه في شيء القدرة على الاختيار.. بيقين ودون خوف، وبدعم يبث في الروح سكينة لا حدود لها رغم البعد.. رغم الفراق..

رغم أنها اختارت حريتها عليه!

دلفت للشقة التي جمعتهما في الأيام الماضية، تأملت أركانها بشرود، هذا منزله هولكنه منحه إياها ككثيرمن المنح غيرمدفوعة الثمن!..

تنهدت وألقت بحقيبتها فوق الفراش الذي ضمها فيه، فكان دفء أحضانه هو الملاذ.. هوملجأ الأمان والحماية والسكينة.

جلست فوقه تتلمسه بيدها، تغمض عينيها وتفكركيف تم الأمر، كيف كان هووكيف أصبحت هي!..

"حقك عندي يا سمية"



لهجته كانت حانية قوية واعدة، وتعلقت وقتها عيناها به وبارقة أمل تلوح بأفق ظلامها، لكن حيرتها لم تغب بعيدًا، بل ألجمت كلماتها فتاهت بعسر:

- حمزة أنت مش فاهم.. عمي الحاج مش هيسكت.

زفر بضيق، مرر أصابعه بخصلاته مشيحًا بوجهه لحظة.. عاد بعدها بعينيه للقاء نظرتها الملتصقة به قيد صبر طال أمده، يمنحها صك أمان مفتوح الأجل بكلماته وكامل جوارحه:

- أنا كفيل بأي حد.. ما تقلقيش.

- بس..

سكنت وكانت خجلى محمرة الوجنتين ورغمًا عنه طفت بسمة خافتة فوق شفتيه:

- فاهم.. مشكلة سعد.

أخفضت وجهها تعض شفتها السفلى بارتباك دون أن يلمحها بينما يردف بحيادية:

- أنا هاضطر..

وصمت هو الآخر وترقبت ما سينطق به بتوتر:

- أنا هاكدب عليه يا سمية.. ده الحل الوحيد.

رفعت عينيها إليه ورغم فتنة الحمرة فوق وجنتيها فقد تشبثت نظراته بنظراتها الممتلئة بامتنان أشعره أنه أحضرلها نجمة من السماء.. بل ربما الشمس والقمر، شاعت ابتسامة على وجهه وتناول كفها الصغيربين يديه:

- سمية أنا لما عرضت عليك نكمل مع بعض.. يكون لنا بيت وولاد؛ كنت عاوز ده بجد.

وضغط يدها برفق:

- معاكِ أنتِ.. بس..

ورمش بعينيه وتنهد حائرًا.. طال صمته وكانت هي تراقب ذاك الصمت، السكون، حيرة الملامح وتكاد ترتجف على شفا انتظاركلماته كأنه حكم بالبراءة، عاد لنبرته اليقين بينما يتمتم بثقة حانية:

- بس رغبتي دي مش هتسلبك الحق في إنك تقرري.

ثم ترك يدها وتراجع خطوة مبتعدًا كأنما يوحي إليها أن الخيارملك يديها بالكامل:

- إنك تختاري.



وبسمته مطمئنة، نظرته تعد بأمان، بحماية، بدعم.. ثم تلاشت البسمة وانغلقت الشفاه فلم يعد هناك المزيد.. التفت يغادرها علَّها تقرر دون ضغوط.. لكن سؤالها الخافت أوقفه:

- مش هتزعل مني؟!

توقف بمكانه لحظات لم تطُل دون أن يستدير نحوها، لحظات أخرى خمن فيها أفكارها، التفت بعدها تجاهها وعادت إليه بسمته المشجعة المانحة للثقة الداعمة بطمأنة:

- أنتِ ما حدش يزعل منك يا سمية.

وتشبثت بعينيه، ببسمته، بملامحه، بصوته.. تشبثت بهالة الأمان والراحة التي تحيطها معه..

واختارت..

وربما لأول مرة كانت تملك زمام الاختيار..

اختارت حريتها، في ظل أمانه!

***

هناك قيم ما لا بديل عنها في الحياة، لا يعوضها أويغني عنها شيء مهما غلا..

قيم بالمقارنة معها يصبح الثمين بخسًا، ويفقد الحبيب حيوية وجوده بمحيط من يحب!

وعندما وضع هو في كفة ميزان مقابلة لأمومة حُرمت منها، لأنثى تاهت عنها، لامرأة فقدتها في خضم عشق نال منها ما نال حتى كاد يفنيها؛ خسر.. ويا لها من خسارة أكثر ما أوجعت.. أوجعتها هي!

حددت جلسة الحكم الخاصة بقضية الخلع، حددت ومعها تحدد مصير قلبها الذي منحته رخيصًا والرد كان طعنة تركته نازفًا حتى الرمق الأخير.. حددت وبذات اليوم أتاها هو..

لم تره هكذا من قبل، شاحب الوجه، منكسر النظرة فاقدًا للكثير من وزنه، نمت لحيته في غير تشذيب، حتى ملابسه كانت مشعثة غير مرتبة أو أنيقة كما هي عادته.. وقف يواجهها، يناشدها بعينيه وترفض بقسوة..

قسوة أنبتها هو بفؤادها الممنوح له طواعية فحق الاعتراض رفع عنه.. قسوة باتت هي كل ما تملك لأن الوجع فاق حد التحمل والجلد، حتى تاه الإحساس به!

- هتسيبيني يا حبيبة!.. خلاص ده آخر قرار؟

- إيه اللي جابك يا نبيل؟!



اقترب وتراجعت تزجره بنظرة آمرة بعدم الاقتراب، تسن أمامه قوانين جديدة وتخط حدًا جنته يداه على ما كان بينهما:

- جاي أحقق لك رغبتك.

خرجت منه متقطعة وآخر كلمة شبه مبتورة، غير مفهومة بغمغمة حائرة ونبرة مطعونة.. تساءلت في صمت فهز كتفيه مذعنًا بلا بديل:

- هاطلقك.

توسلت خافقها الصبر.. الصمت، فخفقاته كانت مدوية بصدرها، استعادت ذكرى لحظات الألم الذي فقد كل مبرراته، ذكرى الخوف والتيه والضياع وانكسار الروح والكيان، ذكرى جعلتها تشد قامتها باعتدال حازم.. تحدق فيه بانتظار.. تترقب النطق بالحكم!

حكم الحرية، حكم الخسارة، حكم العودة لنقطة الصفر.. حكم استرداد النفس الشاردة!

- أنا مش هاقدر أبعد عنك يا حبيبة.. مهما حصل هتفضلي حبيبتي، مهما قسيتِ أو بعدتِ مستحيل غيرك يسكن قلبي.

ولم تهتز بجسدها شعرة لكن ذاك القلب الأحمق تهدمت أعمدة صلابته بين ضلوعها، جمودها أخفض له رأسه، تحرك نحوها خطوة أخرى وعيناها زجرته عن غيرها:

- عمري ما هاتخلى عنك.

وكأن له الحق بلهجة حمائية أورغبة وجود بحياتها!..

لا هو فقد كل استحقاقاته بفعلته ولم يعد هناك سوى ذاك الدرب الذي اختارته ولا بديل:

- أنتِ طالق.

"ميس حبيبة.."

أفاقت من شرودها بتنهيدة لسعت جوفها بلهيب الوجع.. انتبهت للصغيرة التي وقفت أمامها ثم ابتسمت لها:

- خيريا سما؟

تعلقت بيدها ببسمة واسعة:

- بابا اتأخر.. ممكن تستني معايا؟

وجذبتها خلفها لتخرجا من مكتبها بخطوات سريعة مرحة.. وفي الخارج التقت بمن لم ترغب في رؤيته في هذه اللحظة خاصة بعد آخر لقاء.. التقت بوالدها الذي ينتظرها بمحض صدفة، أوربما هو تخطيط قدر!

- إزيك يا أستاذة حبيبة.



أومأت برأسها ترد تحيته بتمتمة غيرواضحة لم يميزمن أحرفها سوى اسمه "حسام"، انحنى هو يضم طفلته، يربت على رأسها متذكرًا الجميلة التي ظنها تصلح أمًا لها وتفاجأ بعد تباسطها معه بصدود لم يدرِ مغزاه إلا عندما أخبرته أنها زوجة.. وكيف له أن يعلم وهي لا ترتدي خاتم أحدهم!

وقعت عيناه على يدها الخالية من خاتمها مجددًا فانعقد حاجباه، استقام بوجه مغلق المشاعر:

- كده ممكن يحصل سوء فهم تاني.

نظرت إليه بتساؤل فسقط بنظراته ليسراها.. فهمت مقصده فضمتها بارتباك مع يدها الأخرى وتحركت مغادرة بهرولة متوترة يتبعها تأففه المتضايق..

تحرك بصحبة ابنته وعنوة اقتحم مسامعه حوارًا أجبره على التوقف دون إرادة..

"ميس حبيبة دي والله ما بتقدر النعمة"

كان ذاك صوت إحدى العاملات بالمدرسة، تقف مع زميلة لها موقف نميمة تقليدي والثانية تسأل عن السبب ليصله الجواب:

"جوزها كان مستعد يسيبها على ذمته بس هي اللي صممت على الطلاق"

والواقفة معها مصمصت شفتيها بتنمر:

"أنا سمعت إنه غني"

التفت برأسه قليلًا يناظر المرأتين والرد أتاه دون جهد:

"غني وقريبها كمان.. فيها إيه يعني لو كانت صبرت!.. ما هو صبر عليها سنين، حقه يتجوز ويخلف اللي يشيل اسمه"

لمح ملامح المرأة التي تجهمت بشبه دهشة:

"هي ما بتخلفش؟!"

تحركت الأولى راحلة لكن ليس قبل أن تمنحه راحة الجواب:

"أيوة.. وهو فضل متمسك بيها، بس اللي سمعته إنها رفعت عليه قضية خلع فطلقها.. بتتنمرد على إيه مش فاهمة!"

جذبة من يد صغيرته أعادته من تلصصه غير اللائق.. لكن لمَ هو غير لائق إذا كان الحديث نفسه سرقة!

ابتعد متجهًا نحو سيارته، يفكر فيها.. حائر بأمرها، في المرة السابقة لم توضح كونها زوجة، وتلك المرة لم تدافع ضد اتهامه المجحف لها!

تملكت من فكره فشرد فيها.. ولا يعلم حينها لماذا احتلت صورتها الرقيقة كيانه كله!

***

أحيانًا يستبدل القدرعنا اختياراتنا، نظن أننا نعرف الأفضل الذي نستحقه ثم نصطدم بغتة بكونه كان خيارًا غيرصالح.. عندما تتمسك أيدينا بتعويض أصلح، أنسب.. وأحب!

تلقائيًا وكأنما هي فطرة ارتسمت على شفتيه بسمة بينما يفتح باب منزله بعد يوم عمل طويل مرهق.. ففتاته الوردية بانتظاره ككل يوم، رقيقة خجول تزيح عناءه فقط بوجودها..

تحولت البسمة لشيء من مكرجديد عليه عندما وجدها في مواجهته بثوب قصيروردي لا يكاد يختلف كثيرًا عن لون بشرتها الناعمة.. قصيرللغاية في الواقع لأن عيناه تأملتا ساقيها مرورًا بخصرها المتناسق واكتنازمفاتنها التي غدت ملكه..

كاد يضحك عندما تذكرليلة زواجه، والأيام الخمس التي قضاها بعدها وهي تتهرب منه حتى هزمته فاستسلم لخجلها مانعًا نفسه فقط منتظرًا لحظة القنص المناسبة.. وكانت مباغتة بالفعل عندما أخبرها أنه سيذهب لشراء بعض لوازم المنزل فانتهزت فرصة غيابه واغتسلت..

لكنها عندما خرجت من الحمام بجسد رطب ملتف بمنشفة وردية هي الأخرى وجدته في مواجهتها فكادت تفقد وعيها..

تنهد مستمتعًا بالذكرى قبل أن يزيحها عن باله وهو يقترب من تلك التي تنتظره، يقبل جبينها، وجنتيها ويخطف واحدة من ثغرها المرتجف.. والرجفة استدعت السؤال:

- مالك يا أيوش؟

عضت شفتيها وأناملها تمتد لتداعب زر قميصه الذي يواجه عينيها بتردد:

- إمممممم.. ما فيش غدا.

- حرقتيه تاني!!

نبرته كانت شبه زاعقة أجفلتها فارتدت مبتعدة بتذمر رقيق:

- إيه يا عمرو.. بالراحة.. خضيتني.

نظرته الجامدة لم تتغير تطالب بجواب على سؤاله السابق، أحنت رأسها بيأس:

- كنت باكلم واحدة صاحبتي على الفيس ونسيت الـ...

- فيييييس!!

- يوووه بقى.. بطل زعيق.



زفر بحرارة ومسح وجهه محاولًا ابتلاع غضبه، هي تحاول تعلم الطهي من والدته جوار الأصناف المعدودة التي تعدها بشق الأنفس.. والآن تحرقها شرودًا!..

هذا ما كان ينقصه..

- طيب أنا ميت من الجوع دلوقتِ.. هنتغدى إيه؟!

رفرفت بأهدابها وعادت تقترب منه، تستند لصدره وتداعب ذاك الزر مجددًا:

- نطلب دليفري أي حاجة.

- لأ.

مطت شفتيها متضايقة:

- لأ ليه؟!

ابتعد عنها عائدًا من حيث أتى:

- هانزل أشوف ماما عاملة إيه النهاردة.

- لا يا عمرو.

توقف بغتة وهي تتشبث بذراعه وتجذبه نحوها فاختل توازنه ليصطدم بها:

- طنط تقول عليَّ إيه بس!

تصاعد غضبه وتوسعت عيناه باستنكار:

- يعني أموت من الجوع؟!

عادت تعض شفتها السفلى بدلال.. وأكسبت نبرتها غنجًا رقيقًا يعشقه:

- هاعمل لك ساندويتشات.

- ها!!

وكانت عيناه على تلك الشفاه الوردية المظلومة بقسوة بين أسنانها.. هزت كتفيها:

- ساندويتشاااات.

- بلاااااها.

وجذبها خلفه تجاه غرفة نومهما وهي تضحك بذهول:

- عمرو.. الغدا!!

ولم يمنحها جوابًا وهو يغلق الباب خلفهما جوار همستها الناعمة باسمه:

- عمرو.

- الله يرحمك يا عمرو.. الفاتحة على روحه.

ضحكتها ألهبت مشاعره أكثر فغمرها بعشقه الذي استكانت له.. يبثها إياه وتبادله حبًا بحب قبل أن تنام راضية بين ذراعيه لوقت غير معلوم، استيقظت بعده بقرقرة في معدتها، التفتت نحو زوجها المستكين إلى جوارها وابتسمت بنعومة.. هزت كتفه برفق:

- عمرو!!

لكنه بدا في عالم آخر بالفعل، كررت النداء والدفعة باتت أقوى ولا رد أو إفاقة، أبعدت ذراعه عن خصرها واعتدلت قليلًا بموازاة صوتها الذي أفزعه:

- عمروووو.

انتفض من نومه بذعر، فرك عينيه ورمقها كأنها فقدت عقلها:

- في إيه؟.. حد يصحي حد كده؟!

مطت شفتيها بدلال:

- جعانة.

ود لو خنقها في هذه اللحظة لكنه لم يجد سوى الصراخ:

- صبرني يا رب.



هل يمكن أن نستبدل خيار القلب بخيار الواقع!!

نعوض ذاتنا التي تفتقد راحتها ونتناسى قلوبنا في خضم البحث عن السكن، المودة، الرحمة واكتمال الحياة!

وفي تلك الحالة هل يخضع الفؤاد العاشق للبديل المتاح؟!

في ظل تجربته فالجواب هو لا.. لم يقدر، لم يستطع.. ميزانه اختل وكفة المعشوقة رجحت بقوة، حتى أنه فوت موعدًا آخر لزوجته الثانية مع طبيبها، فوت موعدًا كان سيرى فيه طفله لأول مرة..

والسبب جلسة العلاج النفسي التي يصاحب فيها "ريم"..

أم للدقة، يجرها إليها جرًا!

عاد لمنزل والدته بعدما بات ليلته بصحبتها حتى وإن كانا بغرفتين منفصلتين، وجودها من حوله هو زاده.. هو رمق قلبه ورحيق أنفاسه التي تضيق في غيابها.. حائر هو ومختنق، نفسه تلومه، خافقه يلومه، عقله يلومه..

وضميره يلومه..

والسؤال.. أين العدل!..

والجواب، أنا عاشق.. ولا عزاء للبديل!

زفر بحرارة بينما يفتح باب غرفة نومه ليجدها مكومة فوق الفراش، تلتحف بغطائها دون أن يظهر منها شيء، انعقد حاجباه والتفت يغلقه ليجد والدته تناظره بسخط ظاهر:

- تعالى يا علي.. عاوزة أتكلم معاك.

تبعها لغرفتها وضيق مبهم يعلو ملامحه، بل يملأ قلبه.. يكاد يقسم على فحوى الحديث لكن ما باليد حيلة وهو اكتفى.. بادرها وهي تقفل بابها خلفهما:

- هي رؤى مالها؟.. تعبانة؟

- لسه فاكر تسأل عليها؟!

بتحفز هجومي كأنما كانت قيد انتظار اللحظة.. أغمض عينيه لثوانٍ وتنهد بتعب قبل أن يجلس فوق الفراش شاعرًا بالبؤس:

- خير يا أمي؟!

جلست على مقعد في مواجهته، ضمت كفيها فوق قدميها ورمقته بحنق:

- خير منين وأنت ما بتعدلش يا علي؟!

- ماما أنا...



واعتدل في جلسته بتوتر حائر، تغضن جبينه أعلى نظراته المتألمة وانقبض قلبه هاربًا من مواجهة لسان الضمير.. بل من مواجهة أمه التي يدرك أن لديها كل الحق:

- أنت إيه!

ونهضت بحدة وصوتها علا بعض الشيء:

- قولي كده كام مرة روحت تشوف ابنك؟

وأشاحت بذراعها في وجهه ساخطة:

- تطمن على مراتك!

رفع وجهه إليها بتسليم من لا يملك الحق بدفاع أو تبرير:

- البركة فيكِ يا ماما.

- لا يا علي.. البركة مش فيَّ، مراتك محتاجاك وأنا عمري ما هاسد الفراغ اللي أنت سايبه جواها.

وابتعدت عنه بغضب:

- تقدر تقولي فلوسك بتروح فين؟.. جهزت واستعديت عشان الولادة ولا لأ؟

ورمقته بنظرة متجهمة تبحث عن جواب.. يملكه لكن التصريح به محال!

ماله الذي تتساءل عنه يذهب بأكمله لجلسات "ريم" النفسية، وقبل هذه اللحظة لم يفكر فيما تهتم به أمه.. لا يدرك كيف سقط ذلك من ذهنه!.. لكن وقتها يمكنه التصرف!

- آه صح.. نسيت أبارك لك.

انتقل التساؤل لعينيه وهو يرفعهما نحوها فجاوبته بسخرية:

- ما أنت لو بتروح مع مراتك هتعرف.

ومالت نحوه بحزم شابه سعادة لم تستطع إخفائها:

- رؤى حامل في توأم يا علي.

رفع رأسه ببطء، عيناه لا تفارقان عينيها.. نبض قلبه وهو يشعر بقطعة منه سيضمها بين يديه عما قريب.. لا بل قطعتان، طفليه!

ذنب ما ملأ كيانه الهش بهذه اللحظة..

سبَّه ضميره وألقى بوجهه علته..

قلبه هو علته!.. علته التي لا شفاء منها..

علته التي حملت صورة معشوقته في التوقيت الخطأ.. لتقتحمها عنوة في عقله، وأمنية تداعب القلب.. لو كانت هي من تحمل طفله!

تنهد للمرة المائة ربما، نهض بهدوء:

- هاروح أبارك لها.

- تبارك!

توقف بمكانه فوالدته يبدو أنها لم تكتفِ من تأنيبه بعد:

- الراجل الصح يا ابني مش بيبارك.. الناس هي اللي بتبارك له.

ودارت حوله تواجهه بقسوة:

- الراجل الصح يا علي.. بيقف جنب مراته لما تحتاجه.. بيعدل، ميزانه ما بيميلش.

وعيناها أعلنتا غضبها سافرًا حادًا جوار نبرتها الموبخة:

- الراجل الصح عارف اللي ليه.. واللي عليه.

ومدت يدها تمسك بكتفه لكن القبضة لم تكن حانية بل صارمة تشبه لهجتها:

- أنت هتبقى مسئول عن عيلة دلوقتِ مش مجرد زوجة.. استعديت للمسئولية دي؟!

- تقصدي إيه يا أمي؟

وكلماتها كانت كالسياط تجلد روحه المتعبة:



- أقصد مصاريف بيتك وولادك يا علي.. بتعدل في فلوسك ولا في دي برده كفتك مايلة؟!

ابتعد عن يدها والضيق ملأه حتى فاض، لم يعد يتحمل.. الضغط هنا وهناك ومن كل اتجاه حتى أوشك على الانفجار..

هو لم يسعَ للابتعاد عن حبيبة، والزوجة الثانية قبلت بالوضع عن دراية.. فلمَ عليه وحده أن يدفع ثمن قرار شاركه فيه اثنتان أخريان!

- كفاية يا أمي.. كفاية.

ودار حوله نفسه بيأس:

- أنا تعبت.. ما بقيتش عارف أرتاح.. مش لاقي مكان أرتاح فيه، ولا حد أرتاح معاه.

واستند برأسه للباب المغلق قبل أن يصدمه فيه بشيء من خشونة:

- اتجوز يا علي.. عاوزة أشوف ولادك يا علي.. بيتك ومراتك يا علي.. علي علي علي..

والتفت إليها بزعقة منهكة:

- علي تعب.. تعب.



وفتح الباب أمام نظراتها المشدوهة، غادر المنزل تاركه لمن فيه ولجأ لواحة راحته وجحيمه المستعر..

"ريم"

النقيض في كل شيء، مالكة القلب التي تبخل عليه بحبها وبذات الوقت تهمس به حين تظنه غافلًا عنها..

وفي عمق الليل أيقظه من نومه وحيدًا بغرفته رنين هاتفه وصوت "رؤى" الذي شابه شيء من توتر لكنها تظهر تماسكًا:

- تعالى يا علي من فضلك.. ماما تعبانة شوية.

وانتفض من فراشه بقلق..

وبينما يغلق باب المنزل خلفه كانت عينا "ريم" تتابعانه بألم.. لقد رحل!



الفصل الخامس والعشرون

الخَسَارَة؛ كلمة تتعدد معانيها.. تتسع لتبدأ من الضياع، الفقدان، الهلاك.. ومع الخسارة لا يوجد قوس ليتم إغلاقه، فقط قد يتم الاستنزاف لآخر قطرة.. وأحيانًا قد نصادف طوق نجاة..

يخسر بنو آدم أمام بعضهم البعض.. وهنا يتحكم الكِبر والكبرياء.. ويخسرون أمام أنفسهم وهنا يكون الشرخ بالروح غير قابل للالتئام.. ويخسرون أمام القدر وهنا لا مجال للعودة..

وتتفاوت ردود الفعل إزاء الخسارة بتعدد معاني تلك الكلمة، فقد تجد أعتى الرجال وأشدهم بأسًا مَن يواجه أي خسارة مادية بمنتهى القوة والحزم، ينهار جزعًا وحزنًا أمام خسارة معنوية..

وقد يتحول الانهيار لضياع كامل إذا كانت الخسارة تتمثل بفقد عزيز غالٍ..

وليس هناك أغلى وأقرب للقلب من الأم.. وفقدانها هو بمثابة نزع سدادة الأمان من عالمك.. لتسحبك موجات وتقلبات الزمن وتدور معها بموجات عبثية تبحث بجنون عن شاطئ للأمان تلقي بأحمالك عليه..



وبهو منزل والدة علي جلس الأخيرين وعي يخبره بعمق المصاب ولاوعي يصور له أن ما يحدث هو محض وهم أو كابوس مرعب سيفيق منه بأقرب وقت، ومكبر الصوت يصدح بآيات الذكر الحكيم.. وكأن كلمات الحق ومعانيه تجذبه عنوة ليدرك أن ما يحدث هو واقع لا وهم.. حقيقة وليس خيالًا..

هو فقد والدته.. وللأبد..

حتى فرصة الوداع الأخير لم يحظَ بها.. فقد فاضت روحها لبارئها ولم يكن بجوارها سوى رؤى؛ زوجته التي وضعها القدر بطريقه ربما لتكون بجوار والدته وهي تنازع سكرات موتها بينما هو غاضب معاند يعتكف بعيدًا عنها بمنزله الآخر..

وكان آخر عهده بها مجادلة غبية يعلم حق العلم أنها كانت محقة بكل كلمة منها.. ولكنه هو من ناء بحمله وتهدل كاهله بثقل مسئوليته..

قبض كفيه بقوة يكتم رغبة حادة بالبكاء.. نعم هو يريد البكاء.. رجل تخطى الثلاثين ويمتلك زوجتين.. ولكنه بحاجة لأمه..

يحتاج كتفها يلقي عليه بهمومه.. فحبيبته لا تريد وجوده.. وهو عاجز عن طلب الراحة من الأخرى..

أو ليكن أكثر دقة هو خجِل منها..

لا يمكنه مطالبتها بأكثر مما منحته.. آه لو تتجاهل ريم قسوتها لدقائق وتمنحه كتفًا للمواساة.. ولكنها صلبة صلدة الرأس لن تتراجع.. لذا هو الآن طفل بالثلاثين يحتاج ربتة من أمه.. فقط ربتة اطمئنان.. فقط مرة أخيرة يطلب غفرانها لثورته عليها.. فقط لحظة عودة يقبل بها كفي أمه، بل وقدميها..

لمَ وجب أن ترحل بقلبها غضب منه!.. كيف سيتقبل ويحيا باقي أيامه وهو يعلم أن آخر كلماته لأمه كانت صراخًا عليها..

"الصبر يا رب"

سمع حمزة الجالس بجواره همسته المكتومة، فربت على كتفه بمواساة..

-شد حيلك يا علي..

رمقه علي بنظرة ضائعة وكأنه يسأله كيف!.. كيف يشتد عوده وقد فقد جذوره للتو!.. كيف يقيم البنيان وقد تهدمت أساساته!.. كيف ينشئ أسرة وهو يشعر بفراغ هائل يبتلع ثوابته!

وبدون إرادة منه رمق باب الغرفة التي تضم جلسة النساء القادمات لتقديم العزاء.. وكأنه يرغب باقتحام الجدار بحثًا عنها.. ربما يهدأ قلبه قليلًا لو وقعت عيناه عليها..

قطع حمزة أفكاره بهمسة مرتبكة:

-ريم ما قدرتش تيجي.. أنت فاهم البيت هنا يعتبر بيت مراتك التانية.. والوضع محرج..

التفت له علي بنظرة حملت من الألم أضعاف ما حملت من الدهشة، هل حضورها لمنزل والدته يسبب لها الإحراج!.. بينما هي لم تكف لشهور عن إلحاق كل أذى وإهانة ممكنة به.. ولكنه تحمل.. تقبل وسامح ما لا يقبله رجل على كرامته.. غفر باسم الحب وقدم فروض العشق لها وحدها..

ألا يستحق منها أن تأتي لتربت على كتفه.. أو تضغط كفه بمواساة..

لقد فقد أمه.. أمه.. وليس قريبًا أو صديقًا.. فهل كثير عليه أن تأتي لتخبره أن دنياه مازالت قائمة رغم أن من منحته الحياة رحلت..

هز رأسه بأسى يلعن نفسه.. ربما هو يستحق.. هو لم يعدل مع من تقبلته بنفس راضية.. فظُلم ممن منحها روحه لآخر قطرة..

وبمجلس السيدات كانت رؤى تدور بصينية القهوة تصم أذنيها عن كثير من الكلمات المسمومة.. وترسم على وجهها قناعًا ثابتًا صامدًا.. لن تهتز أمامهن ولن تمنحهن فرصة الشماتة بها..

"تلاقيها قهرت أمه بعد ما خدته من على مراته.."

"لا.. أخدته إيه.. أنا سمعت من المرحومة أنه بيعشق الأولانية وعلى طول معاها"

"وماله.. الأولى تحلا ولو كانت وحلة"

"وهي لها عين تشتكي وتقول سايبني لوحدي.. ما أنتِ خربتِ بيته وكسرتِ قلب الغلبانة"

عضت رؤى على لسانها تحاول منع نفسها من الصراخ بهن..

هي لم تشتكِ رغم أنها تمتلك الحق بالشكوى..

هي لم تطالب بشيء أكثر مما يمنحه رغم أنه يجب عليه..

هي لم تسرقه، بل زوجته من سلمته إليها.. هي لم تهدم بيت الأولى.. فالأولى من اتصلت بها وأخبرتها بتماسك تحسد عليه أن زواجه أمر محتم.. وأنها راضية ومرحبة..

وبالنهاية هي لم تقترف حرامًا عندما احتمت برجل طلبها زوجة علنًا وبعلم ودارية ومباركة من زوجته الأولى..

أفاقت من شرودها عندما شعرت بنظرات حارقة تنصب عليها.. وبلفتة خفيفة لمحت والدة ريم وهي ترمقها بنظرات انصبت بحقد على بطنها الذي برز خفيفًا..

أحاطت بطنها بكفيها بحركة لا إرادية وهي تحتمي بمقعد بعيد عن الجميع وتترك لهن الساحة ليمزقن سيرتها وسلوكها كما يرغبن.. وظلت على

تظاهرها الكاذب بالتماسك والصمود.. مختزنة دموعها جميعها لتبثها لوسادتها كما اعتادت كل ليلة..

وبنهاية الليلة ورجوع كل لمنزله؛ لمحته وهو يتوجه لغرفة والدته.. خطواته بطيئة مجهدة وكأنه يحمل على كتفيه هم عشرات السنين..

جلس على فراشها بتهالك وهو يضع مصحفًا موضع رأسها.. وأنامله تربت ببطء على الفراش وكأنه يستدعي دفء صاحبته الراحلة.. وتنقبض الأنامل بعنف تنشد راحة واطمئنانًا.. ودموعه التي حبسها طويلًا تجاهد لتجد مهربًا من بين جفونه المنقبضة ولكنه لا يسمح لها.. أو ربما هي تعجز عن عبور حاجز روحه.. وكأنها تتكاتف مع الجميع لتزيد من أوجاعه..

شعر بأناملها الرقيقة تربت على كتفه ثم أحاط ذراعها برأسه تضمه لصدرها وكلمات المواساة الدافئة تنساب من أعماق قلبها لأذنيه المتلهفتين إلى لمحة دفء واحدة..

لكن الإنسان لا يرضى بما بين يديه.. فبرغم كل الدفء الذي استشعره من بين كلماتها إلا أن الخائن بين ضلوعه يشتاق للبعيدة النائية بنفسها عن أحزانه..

تبًا لك من قلب خائن عاق..

والهمسة المختنقة خرجت بلاإرادة:

-رؤى.. محتاج أكون لوحدي شوية..

تجمدت أناملها التي تربت على كتفه وأبعدت ذراعها عنه ببطء وهي تتحرك بعيدًا.. تتركه لأحزانه كما يرغب.. لأشواقه كما يشتهي أن يعذب ذاته.. ربما لذكريات لن يكون لها مكان بها أبدًا..

أغلقت الباب خلفها بعدما ألقت له بتحية هامسة.. وظل هو متجمدًا بجلسته لساعات لم يحصِ عددها، فقط خلالها وجد قلبه العاصي يجد طريقه ليغفر للمعشوقة الغائبة.. يعدد مبررات غيابها عنه عندما فقط احتاج منها كلمة مواساة..

ويبرر قلبه بحماقة عاشق صعوبة حضورها إليه.. فليذهب هو إليها.. ولم ينتظر ليعيد التفكير.. تحرك وحسب.. كالعادة تتحكم به مشاعره.. ليجد نفسه بعد دقائق طويلة أمامها بشقتهما..

انتفضت ريم لحظة دخوله لتهب واقفة.. فهي كانت بانتظاره.. قلبها يصرخ باحتياجه هو لها.. بأن الفرصة حانت لتثبت لنفسها على الأقل أنها تستطيع..

واجتمعت كل خلايا عقلها وقلبها معًا تصرخ بها.. أن تحركي.. تقدمي.. هو يحتاجك.. فقط ولو ربتة.. ولو همسة..



وتجمدت كل خلية بأطرافها تقاوم أوامر العقل والقلب.. وكأن قوة أخرى هي من كانت لها السيطرة..

قوة ماضٍ هي غير قادرة على مواجهته أو نسيانه..

ورغم احتراقها بصراع داخلي موجع إلا أن ملامحها اكتست بحالة باهتة من الجمود.. جمود فسره علي بكل الطرق الخاطئة.. فعينيها حتى لم تظهرا مشروعًا لدمعة أو نظرة حزن.. بينما رددت شفتاها بهمس لا لون له:

-البقاء لله يا علي..

رمش بعينيه عدة مرات يتأكد أنها هي من ألقت بتلك العبارة الباردة.. هي من أتى إليها زحفًا يتوق لرمي أحزانه بين يديها.. يأمل أن تمنحه ولو لمحة دفء يدفع قلبه للنبض ثانية ويعيد لنفسه هدوئها..

وجاء صمتها التام ليقضي على كل أمل له..

ليته علم أن تحت ستار الصمت كان صراعها أقوى من أن تتحمله..

رغبتها بقربه ومواساته فاقت كل حد.. ولكن روحها كانت مشوهة لدرجة جمدتها بمكانها..

وكفها تربت بسرعة وبحركات متوالية على ساقها تتخيل أنها تربت على كتفه هو.. وبعقلها احتضنته بكل قوة.. بكل رقة.. بكل عشق له وكره لآخر

سلبها حقها بمواساة زوجها.. بأكبر مصاب يلم به.. قيودها الوهمية تكبلها بعنف.. ترسم لها صورًا لمواساة وقرب لن تتحملها بحالة عقلها الواعي.. ليتها ابتلعت أحد أقراصها لنالت شجاعة خيالية تقترب بها وتحتضن.. تضم وتواسي.. تعتصر حزنه وتسحبه منه.. تزيح إحساس الوحدة واليتم من بين نظراته.. لكنها وبكل غباء ظنت أنها تستطيع وتملك القدرة على اقتراب بدون شجاعة وهمية يمنحها عقار ما.. لتكتشف الآن عجزها.. عجزها حتى عن تفاعل حي يفور بأعماقها.. عجزها عن إظهار مشاعرها وعن مشاركته حزنه.. عجزها الذي جسد إحساسه بالهجر واليتم وغرسه عميقًا فمزق الروح وفتت القلب وجفف الأعماق..

وياليته امتلك قدرة التبصر لأدرك عمق عذابها وهي واقفة أمامه بمنتهى القوة والصمود.. وبداخلها لهيب براكين العجز والقهر..

فقط ليته يعلم!!

ورحل..

رحل عائدًا للبديل.. لبدل الفاقد التي أدركت من نظرة واحدة أنه يغرق.. يغوص بعيدًا.. يضيع منهما معًا.. فهو سلم كل راياته ولم يعد يملك القدرة على المزيد من المقاومة..

وانهار بين ذراعيها.. يبكي خسارته.. يبكي يتمه..

يبكي قهر الرجال..

وهي لم يكن أمامها بديلًا سوى الإنقاذ.. سوى التعويض.. هو بأمس حاجته لها.. وهي لن تتنكر له.. ربما تصرخ بها كرامتها أنها مجرد بديل.. ويؤازرها قلبها بأنها ليست بديلًا ولكنها بدل الفاقد..

وياله من فارق..

***

قد يتحمل الرجل فقدان معشوقة.. زوجة.. ولكنه في الأغلب ينهار لفقدان توأم الروح.. مزيج الأم الحنون والمعشوقة المثالية.. مصدر الطهر والنقاء بعالمه على مدار سنوات..

وقتها يسقط بكل قوة.. بكل حمق، بعمق ما تخيله لسنوات أنها خطيئة أبيه ونقيصة أمه..

ونبيل وجد نفسه بمفترق طرق وسط صحراء بلا بوصلة ولا دليل.. هائم هو بدونها، بل ضائع بلا هوية ولا حياة..

ومن بعيد ترمق صفية جلسته البائسة بجوار النافذة.. يقلب بذاكرة الهاتف.. يتأمل ملامح زوجته السابقة.. تلك التي أراد الطفل من أجلها.. وبالنهاية هجرته تاركة له البيت والطفل وكل شيء..

تركته لقمة سائغة بين ذراعيها هي..

تحركت بخطوات راقصة متمايلة.. تنتهج نفس تفاصيل الليالي السابقة.. تقترب منه بغنج مدروس.. تلتصق به.. تجذب هاتفه وتبعده عن متناول يده.. تحيطه بذراعيها وترمي برأسها على كتفه وأناملها تجول بإغواء على ملامحه، عنقه، صدره..

وكما اعتادت كل ليلة..

يقاوم اقترابها بالبداية وتزيد هي من جرعة الغواية.. وبعد دقائق يذوب بين ذراعيها، بل يشتعل إثارة ورغبة..

وتمر الدقائق بينهما يغيب معها بفقاعة الرغبة الصرفة.. لا يشعر إلا بالإثارة بأقصى صورها.. يقضي شهوته سريعًا.. ويعيدها ثانية..

ويتكرر المشهد كل ليلة هي تهمس به..

"نروح الأوضة يا بيه؟"

وإجابته تكون بجذبها لأرض الغرفة والغرق بين إثارتها الفجة..

هو خاسر.. خسر الطهر.. وغرق بين المجون..

***



عند مقارنة العشق بالكبرياء.. تتأرجح كفة الميزان بعنف.. فهناك من يكسب قلبه ويخسر كبريائه بالمقابل.. وهناك من لا تقبل بالتفاوض.. لا ترضى بمبدأ المساومة من البداية.. فكبرياؤها يتزعم المقدمة وعدا ذلك لا يهم..

بمشاعر متباينة رمقت لارا صورتها بالمرآة..

خصلاتها الذهبية تلمع بشدة تحت الضوء، عينيها بزرقتهما الصافية تكتحلان بالأسود.. تبرز المزيد من الفتنة بوجنتيها الورديتين.. وقد زادها الحمل تألقًا بخلاف ما هو معتاد..

وعلى قدر الفتنة المنعكسة بالمرآة على قدر الألم المنساب منها..

هي تحملت جنون عادل وغيرته.. تحملت بقلب عاشقة ينتظر إفاقة المعشوق من غي جهله وظلمه.. انتظرت أن تهدأ عصبيته ويأتي ليطلب المغفرة، لكانت منحتها وشرحت وأوضحت وأهدته إثبات عملي وطبي على برائتها..

ولكنه هاجم وانتهك.. رفع يده يمزق احترامها له.. واحتد لسانه بكلمات الإدانة... قضى بأنها ملوثة الشرف وهو كامل الرجولة؛ عفوًا.. الذكورة.. سيداري ويستر باسم قرابة ممزقة الروابط..

والواقع هي رغبة بانتقام ممن يظنها خدعت عنفوان الذكربه..

وبالنهاية هي المخطئة.. هي من راهنت على عشق حملته له بين ثنايا قلبها وخسر جواد العشق أمام جنون الشك وانعدام الثقة..

اهتزت يدها وهي تضع طلاء الشفاه الداكن وصراخه عليها بأول صباح لهما معًا يعاد بذهنها.. هو حتى لم يسأل!.. لم يتهم ويطلب إثبات براءة!..

لقد حاكم وأدان وقرر العقاب.. وكأن تلوث شرفها هو الحقيقة التي لن يرى غيرها..

وتبًا لها لو راجعته بكلمة..

قد تذوب به عشقًا ولكن عند كرامتها.. هنا نقطة وسطر وخط أحمر لا يجوز الاقتراب منه.. فبإدانته الحمقاء لها غرس أول وأضخم مسمار بنعش علاقتهما المزعومة.. تلاه العديد والعديد من ضربات المسامير الصدئة..

ولم يبقَ إلا القليل..

يعايرها بستر يمنحه لها اسمه!..

وبالواقع لم يصبها العار إلا لارتباطها بذاك الاسم.. يظن بها الظنون ليداري فقدانه للثقة.. يجبرها على دفع ثمن حمقه وتعاليه على حبيبتيه السابقتين.. حبيبتاه اللاتان أخبرتها عنهما والدته بكرم حاتمي رغبة منها بقهر قلبها.. ولكنها لم تعلم بأنها كانت تمنحها إجابة تساؤلاتها المجنونة.. لم تعلم أنها منحتها بداية الخيط لتجذبه وتحل رابط تلك العلاقة الواهية..

لقد منحتها مفتاح شخصية عادل بدون أن تدري..

انتهت من وضع زينتها والتفتت لترتدي ثوبها، ثوب حريري طويل مشرق بألوانه المتعددة، مثير بملاصقته لقوامها.. مغري بكتفيه الساقطين على ذراعيها..

تأملت صورتها النهائية وبأعماقها شكرت هبة.. ابنة عمها والتي تحول موقفها منها بزاوية مائة وثمانون درجة.. بل وأصبحت حليفتها الأولى بالمنزل.. وبرغم انشغالها بالترتيب لعرسها إلا أنها تمكنت من شراء ذلك الثوب للارا التي رفضت ارتداء أي من الأثواب التي ابتاعها لها عادل سابقًا.. وها هي تبدو بأبهى صورة وهي تستعد للحفل الكبير المقام بحديقة المنزل؛ حفل زفاف عماد وهبة..

وقران وزفاف.. السيد عادل؛ زوجها المحترم على حبيبته الأولى، مروة إدريس..

وبغرفة أخرى وقف عادل يمشط خصلاته برتابة.. يتأمل مظهره الأنيق الوسيم؛ مظهر يليق بعريس منتظر بالفعل.. عريس سينال حبيبته الأولى بعد حرمان سنوات.. ولكن..



لكن لمَ لا يشعر بالسعادة المفترضة!.. لمَ تبدو الفرحة بحلقه بمذاق العلقم!.. لمَ ذاك الشعور بأنه كالفائز بسباق طويل ليكتشف أن جائزته هي قبضة من ثرى!..

هل زواجه بمروة هو جائزة السباق بالفعل أم هو اندمج بلعبة إثبات القوى بينه وبين لارا.. ومع صلابتها التي تزداد بمواجهته كل يوم.. يفقد هو من نفسه جزءً جديدًا حتى بات شخصًا آخر لم يعد يعرفه..

نعم.. هو لم يعد نفسه..

فنسخته الهادئة الرزينة اندفعت لسلسلة أعمال عشوائية.. بداية من زواج متسرع بلارا لغرض تملكها..

لن ينكر مشاعره!..

هو يريدها بكل خلية من جسده.. رغبة ظن الزواج هو علاجها.. ليكتشف أن الزواج أجج مشاعره ولم يطفئها.. ومع كل بعاد منها تزداد نيرانه.. نيران يتمنى أن تهدأ بجوار حب مروة الرزين.. ويأمل أن يكون زواجه الثاني هو نهاية أفعاله العشوائية.. وتستقر نفسه بحياة هادئة خالية من جنون التحدي مع لارا..

انعكست بجواره صورة أمه وهي تربت على كتفه بسعادة عجزت عن إخفائها.. فهي الليلة وصلت لأبعد نجمة بالسماء وقبضت عليها.. سيتزوج

صغيرها بابنة عمه ويكف عن عبثه.. والأكبر سيصحح خطأه الأفدح.. ويعيد ارتباطه بحبيبته الأولى.. ويقهر قلب ابنة درة البارد.

راقب نديم خطواتها الواثقة.. ابتسامتها المرسومة بحرفية على شفتيها.. تنقلها برشاقة وسط ضيوف الحفل.. تستقبل التهاني الشامتة والمواساة المتكلفة بهزة كتف لامبالية.. وكأنها ليست المعنية بالأمر.. وكأنها ليست عروس مر على زواجها شهران بالكاد.. وها هو زوجها يسارع بالاقتران بأخرى..

وكأنها لا تمتلك ما يكفي ليتشبث بها زوجها!

ووسط كل إدعاءاتها بالقوة.. لمح قلبه صرخة الوجع بعمق عينيها.. هي امرأة عشقت ووثقت وتمت خيانتها بقسوة.. امرأة تمسكت بحب ظنته الأقوي لتكتشف أنه نصل سام أذاقها علقم الخيبة..

لم يتحمل ما يجرى أمامه من مهزلة.. أو بالأحرى مذبحة لقلب إنسانة لم تذنب سوى بجرم حبها.. فنهض محاولًا الابتعاد عن صخب الحفل... ولحُسن حظه أو ربما لسوءه يصطدم بها بالقرب من إحدى مكبرات الصوت، فيجذبها بعفوية بعيدًا عن إزعاج الضوضاء..



يتأمل ملامحها المرهقة والحزينة والمخفية بمهارة تحت قناع خادع من الزينة الأنيقة.. ورغمًا عنه تنتقل نظراته لذاك الجالس بعيدًا منتفشًا بزوجة جديدة وبرجولة كسيحة.. وكأنه لم يؤذِ الزوجة الأولى وابنة العم..

لقد نأى بحبه بعيدًا وهو يظن أنه يقوم بفعل الصواب.. يمنحها فرصة لتحيا حياة طبيعية مع من هواه قلبها واختاره عقلها.. وظن بسذاجة أن قرابتها لعادل ستحميها من جنون أفكاره.. وصدمات ماضيه..

ليته استمع لحدسه وطارد حلمه بالاقتراب منها.. ربما كانت تتمكن وقتها من المقارنة والاختيار بين عاشق مدعٍ وباهت كعادل.. وبين آخر حقيقي يتمنى فقط لها السعادة وإن كانت على حساب نفسه.. وقلبه..

جاءت بسمته متوترة وهو يهنئها بحملها:

-مبروك البيبي.. يتربى..

قاطعته قبل أن يكمل:

-يتربى بحب وسعادة واحترام.. دي الأمنية الصح..

وافقها بصمت وهو يمنع نظراته أن تجوب ملامحها.. وينهر نفسه بقوة أنها صارت ملكًا لآخر.. حتى وإن كان وغدًا لا يستحق.. لكنها هي لا تستحق منه أن يجرحها بدقة قلب ليست من حقه ولا حتى نظرة مسروقة..

وبدون إرادته اندفع اعتذاريراه مستحقًا من بين شفتيه:

-أنا آسف يا لارا.. آسف بجد..

رفعت عينيها الحزينتين له وكأن قناع تماسكها يطالب صارخًا بهدنة:

-ليه الأسف؟

هزكتفيه بعجز.. هل يخبرها أنه يعتذرلضعفه وتقاعسه عن الدفاع عن حبه وإن كان غيرمتبادل.. هل ستحترمه وقتها!.. أم سينال مرتبة الوغد ذو الضميرالحي!!

لم يجد ما يجيها به.. فمنحها السؤال الأسوأ:

-أنتِ كويسة يا لارا؟

عادت النظرات الحزينة تتجول بلا هدف.. وكأنها تبحث لنفسها عن مهرب.. عن إجابة واقعية لتساؤل أحمق.. ولم تجد غيرالتظاهربأن السؤال مجرد تظاهرفارغ بالأدب:

-كويسة جدًا.. شكرًا لسؤالك..

وتركته هاربة.. مبتعدة.. تعيد جمع قناعها الكاذب بإصرار.. فهي لن تترك أحدًا يلمح ضعفها الذي لمحته حيا متلونًا بالسواد بنظرات نديم..

لم تنتبه لنظرات أخرى.. نظرات حانقة غاضبة تكاد تشعل المسافة بينها وبين الزوج الذي يتظاهر بدوره بسعادة زائفة.. العريس الذي كاد أن يترك منصة الحفل ويهجر زوجته الجديدة منطلقًا خلف الزوجة الأولى التي كانت تتبادل مع نديم حديثًا وديًا وأنيقًا ظاهريًا وبباطنه كان للنظرات حوار آخر..

لم يخطئ عادل بتفسير نظرات العشق والذنب بعيني نديم.. ولكنه عجز عن تفسير نظرات لارا.. هل هي تشجيع؟.. مواعدة؟.. دعوة!..

لم يفهم لذا كاد أن ينهض متوجهًا نحوهما ولكن قبضة مروة التي التفت حول ساعده تنبهه لضرورة عودته لمقعده هي ما منعته عن اللحاق بهما بتلك اللحظة..

وإن كانت مروة تمكنت من السيطرة على الموقف لحظتها إلا أنه بانتهاء الحفل، فوجئت بعادل يتركها على باب غرفتها ويتوجه بسرعة وغضب لغرفة لارا؛ الزوجة الأولى.. التي وقفت بمنتصف جناحها تتأمل ذلك الغاضب الذي يصرخ بكلمات تماثله غضبًا وحمقًا..

وصوته يعلو وهو يردد:

-مش هتحرك من هنا إلا أما أعرف كان بيقولك إيه؟.. كل كلمة.. كل كلمة قلتوها يا لارا..

خرجت آخر كلماته بزعقة حانقة.. فبرأسه تجول هواجس شيطانية.. بداية من مواعدة خفية بين الزوجة المصون وعاشقها المتيم.. ونهاية باتفاقهما على الهرب معًا وتركه كزوج مهجور أحمق..

راقبت لارا غضبه المشتعل.. وأعادت جملته بعقلها عدة مرات تستوعب ما يدور خلفها من أفكار مهينة جعلتها تقلب شفتيها بإزدراء ثم تتوجه لغرفة النوم بصمت..

أدرك هو نيتها للهرب من أمامه فقطع طريقها وسحب المفتاح من الباب وهو يهمس بغل:

-مش هتسيبيني وتقفلي على نفسك.. عايز أعرف كل كلمة.. كل حرف..

ظلت تواجهه لعدة لحظات ثم هزت كتفيها ساخرة:

-هتزعل العروسة يا عريس!.. مش قلقان أنها تسيبك.. للمرة التالتة..

وأعقبت كلمتها بغمزة ساخرة.. فهي يمكنها الضرب تحت الحزام.. والإهانة ليست حقًا مكفولًا له وحده.. فليتعلم أن يتلقى من نفس مردوائه..

كلماتها أشعلت ما بقي من مراجل غضبه فاقترب يجذب ذراعها بعنف:

-أنتِ بتقولي إيه!.. جيبتِ الكلام ده منين؟..

أجابته بحلاوة:

-حماتي.. تئبرني حماتي.. الله يخليلي إياها..

وصمتت تبتلع غصة أصابتها بدون إرادة منها وعادت للهجة المصرية:

-حماتي حكيت لي كل تفاصيل قصة حبكوا البائسة..

ورفعت طرف شفتها العليا بحركة مستفزة له ولكنها بالواقع كانت تحاول التحكم بغصة بكاء كانت تهاجمها دون رحمة..

تواجها لعدة لحظات.. هو بغضب نظراته واتهاماته التي لا تنتهي، اتهامات يعلم بأعماقه تفاهتها وسذاجة تفكيره بها ولكنها كانت المخرج الوحيد له، فلم يعد يحتمل المزيد من تخبط القرارات والانفعالات.. منذ ارتبط بتلك اللارا، بل منذ أن رآها وهو لم يتخذ قرارًا واحدًا سليمًا.. فقرارات عقله تعارض نبضات قلبه.. وهو بكل الأحوال لن يترك الزمام لقلبه ليقوده نحو كارثة جديدة..

بينما حملت نظراتها له طيفًا من ألم حاولت إخفاءه ولكنه برغم كل شيء طغى على قوة التحدي بعينيها.. وانتظرت سماع المزيد من إتهاماته، فهو يسحب من رصيده لديها مع كل كلمة يخرجها من فمه..

رصيدًا لم يبقَ به إلا القليل على كل حال..



خيم الصمت عليهما معًا وحوار النظرات لم يهدأ للحظة وأخيرًا التفتت لتدلف لغرفة النوم مغلقة بابها خلفها فهي تعلم أنه لن يجرؤ على الاقتراب.. بينما قرر هو ألا يترك جناحها تلك الليلة..

لن يتركها تتواصل مع نديم أو تتصل به.. فبعد كل شيء لم يعرف بعد فيما تحدثا معًا ذلك الوقت..

وبداخل الغرفة ألقت بنفسها على وسادتها.. تدعو وتبتهل أن تموت تلك المشاعر الباقية على حبه.. أن ينفذ ما بقي له من رصيد بقلبها.. تمنت أن تمتلك القدرة لهزيمة حب لم يمنحها إلا الخسارة..

وأخيرًا بكت.. سمحت لدموع خيبتها بالهطول.. منحت نفسها أخيرًا هدية البكاء..

تبكي سذاجتها، تبكي خداعها لنفسها، تنعي حماقتها البالغة فقد انبهرت بالهالة الكاذبة حوله.. جذبها نحوه بفكرة حفاظه على إرثها وعدم المساس به حتى أنها غفلت أن ذلك هو واجبه القانوني والشرعي.. افتتنت بصورة خارجية بالغة الكمال ونسيت أن الكمال هو ضرب من المستحيل وفاجأتها الصورة الداخلية لمن أحبت؛ صورة بالغة التشوه..



أفكار جامدة غبية تمت هيكلتها بفعل صدماته السابقة.. بداخله خواء امتلأ بقذارة اعتقاداته عن خيانة مفترضة وكأنه يحاول إقناع نفسه أنها خائنة أو ستخون..

فهو رجل قابل الخيانة بدل المرة ثلاث.. فلم تكون هي مختلفة!..

مرارة الاكتشاف طغت على ملوحة دموعها فكادت أن تصاب بنوبة غثيان ليلية.. حاولت تنظيم تنفسها.. واعتدلت بجلستها تجذب مزيدًا من الهواء لرئتيها.. تربت على بطنها برفق..

فهي باقية فقط لأجل صغيرها.. لن تهرب وتحرمه حقه كما فعلت بها أمها.. وأبسط حقوقه أن يحمل اسم أبيه وبعدها لكل حادث حديث...

بالنهاية هي خسرت قلبًا.. وكسبت كبرياءً وكرامة أنوثة.. وطفلًا لا يقدر بثمن..

***

دغدغت خصلاتها الناعمة أطراف وجهه برقة.. فالتفت تلقائيًا ليدس أنفه بتلك الخصلات التي أرقت نومه مرارًا.. وتحركت كفه لتقرب رأسها من صدره أكثر.. تتغلغل أنامله بخصلات جنية القهوة خاصته.. ويعيش حلمه الخاص بها بين ذراعيه وخصلاتها الطويلة تلفهما معًا..

رفع رأسها يقبل جفونها المغلقة وهمس بحرارة باسمها.. لتقابله نظراتها الخجولة على الدوام.. وتتناثر قبلاته على وجهها حتى كاد أن يقتنص شفتيها...

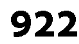
طرقات عالية على باب غرفته دفعته للقفز من فراشه وهو يلهث بقوة.. صدره يعلو ويهبط بانفعال وأنفاسه تتسابق لتمنح رئيه بعضًا من الهواء.. وبداخله يطلق ألف لعنة على من يطرق الباب.. من أيقظه من منامه وهو على وشك تقبيلها..

تبًا.. ألا يكفي تنازله عن حقه الكامل بها بالواقع حتى يأتي من يخرب عليه حلمه!

فتح باب الغرفة بعنف ليتفاجأ بريم التي أُخِذت من عنف الحركة فارتدت للوراء لتصطدم عيناه بصاحبة الحلم والتمني واقفة خلف ريم وعيناها الحائرتان بنظراتها دومًا تدوران بكل مكان حتى لا تواجها عينيه..

انصبت نظراته عليها للحظات وغفل عن شقيقته التي اندفعت بسلسلة من الجمل المرتاعة والسريعة وبالطبع لم يفقه منها شيئًا.. فكل انتباهه ركزه عليها هي.. وعقله يتساءل بغباء عما تفعله في تلك الساعة أمام باب غرفته!..

وأخيرًا صاحت ريم بحنق:



- حمزة!.. هتيجي معانا؟

أيقظت كلمات ريم عقله من سباته المؤقت.. ستخرجان!.. معًا!!.. الآن!!.. وتطلبان منه مرافقتهما!!.. أي جنون هذا!!..

أشار لريم لتكرر كلماتها.. فزفرت بغيظ وهي تخبره سريعًا:

-مامة حبيبة تعبانة قوي يا حمزة.. هي اتصلت بسمية دلوقتِ.. محتاجة حد يوصلهم المستشفى.. وعلي في البيت التاني الليلة..

أضافت جملتها الأخيرة بخفوت.. بينما حمزة يعبث بخصلاته بخشونة وعقله مازال بنصف يقظة:

-وليه تكلم سمية؟.. وأنتِ عرفتِ منين كل الكلام ده!!

دفعته ريم بغيظ ليدخل غرفته ويرتدي ملابسه وهي تصيح:

-حبيبة اتصلت بسمية لأنها ما كانتش تعرف بخبر طلاقكوا.. وأنا أصلًا ببات عند سمية أما بيكون علي غايب.. ياريت تلبس بسرعة.. وأنا هروح أساعدها ننزل والدتها من بيتهم....

قاطعها بإشارة حاسمة:

-أنا هلبس في ثواني وجاي.. وسمية اللي هتيجي معايا.. أنتِ ما ينفعش تخرجي من غير إذن جوزك!

رمقته ريم بدهشة ولكنه سارع بغلق الباب بسرعة وهو يهتف بسمية:

-دقيقة وجاي.. ما تنزليش لوحدك..

زفر بغيظ بعدما أغلق بابه فهو منح شقيقته أسخف عذر على الإطلاق ليدفع الخجولة الصامتة لمرافقته.. وحدها..

اشتاق وجودها لا ينكر.. مشاعره مختلطة لا تفسير لها.. ولا مسمى.. ولن يحاول فهمها الآن.. سيدعها للوقت.. إما أن ينضجها ويمنحها مسماها الواضح.. أو تختفي تمامًا.. وكأنها لم تكن..

وصلوا للمشفى مع آذان الفجر.. وتم اصطحاب السيدة دلال للفحص السريع.. بينما كانت بسمة وحبيبة تتمسكان بيدي بعضهما.. كلا منهما أفكارها تدور في اتجاه مخالف للأخرى..

بسمة تفكر في غضب صلاح عندما يكتشف أنهما لم تخبرانه بما أصاب والدته ولجأتا لحمزة وأسرته.. فبسمة منعت حبيبة من الاتصال به متعذرة أنهما بحاجة لإسعاف سريع والتصرف العملي هو اللجوء لمن يصحبهم على الفور للمشفى وليس انتظار قدوم صلاح..

والحقيقة أن بسمة خشيت من حالة صلاح المستحدثة ورعبه الجديد من فقدان عزيز عليه..



فقط خافت أن يدفعه هلعه للقيادة بجنون فينتهي ضحية أحد الحوادث.. وفضلت الانتظاروالاطمئنان على والدته قبل القيام بأي تصرف.. أما حبيبة فكانت تمنح نفسها لومًا وتقريعًا عنيفًا.. فبسببها هي والدتها سقطت بتلك الوعكة.. فقبلها مباشرة كانت والدتها تحثها على مقابلة نبيل ومحاولة صلح جديدة..

والدتها كأي أم.. لا ترغب بإلصاق لقب مطلقة بابنتها..

انفعلت حبيبة بقوة وهي تعدد لوالدتها كم الإساءات التي نالتها من نبيل.. بداية من تدمير أنوثتها وكسر ثقتها بنفسها كامرأة ونهاية بسرقة أمومتها.. وفجأة وهي بذروة غضبها وقهرها سقطت أمها بغياب للوعي.. عادت بعده بفم مُعوَج وعدم قدرة على الحركة..

خرج الطبيب أخيرًا بعد مضي أكثر من ساعتين ليطمئنهم جميعًا بأن الحالة استقرت وتمت إذابة الجلطة الصغيرة المتكونة حديثًا ويجب أن تبقى تحت الملاحظة لعدة أيام قادمة..

تنهدت حبيبة بارتياح وربتت سمية على كتفها بمساندة واضحة بينما انفرد حمزة بالطبيب يستفسر عن الحالة بالتفصيل فهو يعرف أن صلاح سيحتاج تلك التفاصيل عند وصوله..



بينما تلقت بسمة الأخبار بقلب مرتجف.. صلاح لن يتقبل الخبر بسهولة.. وربما تزداد حالته جموحًا.. وهي بالكاد بدأت بترسية بعض القواعد بينهما.. أغمضت عينيها للحظات بعدما شعرت بدوار خفيف.. ولكن الدوار ازداد.. وبدأت الصور حولها تدور بسرعة وتوازنها يختل حتى شعرت أنها بمنتصف قارب بقلب عاصفة ومن بعيد سمعت صرخة حبيبة باسمها..

"بسمة"..

أفاقت بعد فترة لم تعلم طولها لتتفاجأ بصلاح الذي اتكأ على ركبة واحدة بجوار فراشها وعيناه معلقة بها كأنه ألصقها بملامحها.. وما إن فتحت عينيها حتى تنهد براحة واندفع ليرفعها من فراشها معانقًا بقوة وامتلاك وهمسة متحشرجة مرتعشة:

-هتموتيني من الرعب عليكِ..

ابتسمت برقة وهي تريح رأسها على كتفه:

-بعيد الشر عنك يا حبيبي.. ما تقلقش أنا بخير..

منح جبهتها قبلة اطمئنان وهو يحاول التحكم بمخاوفه داخله.. فهو اشتاقها حد الألم.. ويريد الإحساس بها بين ذراعيه ثانية لأطول وقت:

-الدكتور قال إجهاد عصبي وإرهاق..

أومأت:

-كنت قلقانة على ماما دلال.. الحمد لله أنها بخير..

أبعدها قليلًا وهو يسأل بغضب لم يستطع التحكم به:

-معقولة أمي تتعب وأنا آخر من يعلم!!.. إزاي بس يا بسمة ماحدش يكلمني!.. أنتوا غلطانين.. وحبيبة حسابها معايا بعدين..

حاولت تهدئته:

-اهدى بس يا حبيبي.. احنا فكرنا في الأصلح.. وأكيد الدكتور قالك أن سرعة نقل ماما دلال المستشفى ساعدت أن الجلطة تدوب بسرعة.. وكنت هكلمك قبل ما أحس بالدوخة.

رمقها بنظرة مازالت تحمل بعضًا من اللوم ثم أخبرها بتقرير:

-على العموم أنا هاجي أقعد معاكوا.. قرار النفي بتاعي انتهى باللي حصل النهاردة.. طالما أنتِ مش عايزة ترجعي معايا.. أنا هاجي أقعد معاكِ..

هتفت بعدم تصديق:

-صلاااح..

قطع اعتراضها بقبلة مشتاقة وهو يغمغم بين شفتيها:

-مافيش اعتراض يا عيون صلاح..

وعاد يكمل قبلته بسعادة غامرة.. بينما تجمدت حبيبة على باب الغرفة وهي تراقب الموقف من بدايته.. لم تبتعد أو تخفض بصرها.. بل وقفت تراقب قبلات شقيقها لزوجته وتلهفه لها.. وصوت ساخر يهمس بداخلها.. أن شقيقها حظى بامرأة ذات أنوثة حقيقة أجادت ترويضه تمامًا وملكته عن آخره.. بينما هي.. الجميلة البائسة.. لم تنفعها أنوثتها المزعومة بشيء.. فبالنهاية لم تغرِزوجها باقتراب.. ولم تنجح حتى بنيل ابن منه..

هي لا تنفع بشيء.. مجرد مطلقة بائسة لا نفع منها..

تركت شقيقها وزوجته يتمتعان بقرب طال انتظاره.. وتوجهت لتطمئن على حالة والدتها.. وبالممر لمحت حمزة يتحدث مع أحد الأطباء.. ومع اقترابها تعرفت على هويته.. هو الطبيب عبد الرحمن الصهر السابق لزوج آية..

اقتربت لتسمع عبد الرحمن يحي حمزة بود:

-أهلاً يا بشمهندس.. خير؟

حياه حمزة بلطف وهو يخبره عن حالة والدة صلاح.. وبعد أن توجه عبد الرحمن لغرفة السيدة دلال ومعه عدة أطباء.. وأمر بنقلها لغرفة أخرى حتى تكون تحت مراقبته الشخصية.. شكره حمزة بشدة.. واندفعت حبيبة تتمسك بذراعه تريد تأكيد واطمئنان أخير:



-الحالة فعلًا مش خطيرة يا دكتور!.. طيب ليه المتابعة دي!.. طمني الله يخليك..

ربت عبد الرحمن على كفها وهو يسحب ذراعه منها بلطف:

-اطمني يا مدام حبيبة.. إحنا بس هنطمن أن الضغط اتظبط.. وكمان شوية تظبيط للسكر.. بس أهم حاجة نبعدها عن أي انفعال..

أومأت حبيبة براحة.. فمازال الذنب يتآكلها.. ما حدث لوالدتها بسببها هي.. بسبب ما قصته عليها من تفاصيل حياتها البائسة..

ابتعد عبد الرحمن بعدما منحها رقم هاتفه الخاص ليمكنها الاطمئنان على والدتها بأي وقت وبطريقه التقى بسمية فأوقفها مستفسرًا عن أحوالها:

-مدام سمية.. أهلاً بحضرتك.. أخبار صحتك ايه دلوقتِ؟

غمغمت سمية بلطف:

-الحمد لله أحسن..

ومن بعيد لمح حمزة -الذي كان يطمئن من حبيبة على أخبار بسمة فبوصول صلاح قرر اصطحاب سمية والعودة وترك العائلة الصغيرة لترتاح قليلًا- عبد الرحمن يستوقف سمية ويتبادل معها حوارًا باسمًا، فترك حبيبة بمنتصف حوارهما وأسرع ليجاور سمية، ويده تقبض على كفها بقوة

أشعرتها بانزعاجه.. فرفعت له عينين متسائلتين ليمنحها نظرة أسكتتها تمامًا.. واكتفى بتبادل حوار بارد مع عبد الرحمن..

ومن بعيد وقفت حبيبة ترمق ما يحدث أمامها.. لقد تركها حمزة وهرع ليلتصق بسمية بعدما لاحظ اقتراب عبد الرحمن منها.. تركها وهي بمنتصف حديثها معه.. حتى أن الكلمات تعثرت على لسانها بعدما لاحظت رد فعله على اقتراب ذكر آخر بمحيط سمية..

لمَ طلقها إذاً إذا كان يغار عليها لتلك الدرجة؟..

هو مهتم بها.. عيناه تتابعان حركاتها وسكناتها بكل لحظة وكأنه يخشى أن يفوته شيء..

وعاد ذلك الصوت الساخر يعلو بأعماقها..

هو طلقها ولكنه لا يقوى على الابتعاد..

هو طلقها ولكنه مهتم.. مراعٍ.. يراقب.. ويقترب.. ويغار..

هو طلقها ومازالت كفه تعتصر كفها وكأنه يرغب بمزج خلاياهما معًا..

فماذا عنكِ أنتِ أيتها البائسة التعيسة!..

ماذا عن شحوب وجهك وانطفاء لمعة عينيك.. وخفوت وهج روحك!!..



هي مطلقة مثلك ولكنها تنعم بحماية رجل حقيقي.. عيناها تتألقان بوجوده.. ووجهها يتورد..

وهو عيناه تلتصقان بها وكأنه لا يرى غيرها.. لن يبحث عن وعاء يصلح لحمل أطفاله.. لن يجرح أنوثة هشة.. بل يدعمها..

هو رجل يهتم..

تحركت حبيبة لتقتحم حيز حمزة وسمية وتوجه حديثها لحمزة برقة:

-حمزة..معلش هتعبك معايا.. محتاجة شوية حاجات من البيت.. ومش عايزة أقول لصلاح.. الأفضل يكون جنب بسمة.. ممكن توصلني؟

أومأ حمزة موافقًا:

-أيوة طبعًا.. إحنا أصلًا لازم نروح.. يلا يا سمية..

هتفت حبيبة بسرعة:

-لا.. سمية لا..

رفع حمزة حاجبيه مندهشًا.. فسارعت حبيبة للتفسير:

-ماما كده لوحدها.. فلو ممكن سمية تستنى معاها لحد ما آجي..

وافقت سمية برقة:

-أكيد طبعًا يا حبيبة.. ولا يهمك أنا هقعد مع طنط دلال..

كاد حمزة أن يرفع يده يدق فوق رأسها.. فهي لن تكف عن تقديم تضحية تلو الأخرى.. لمَ تنتظرهي بالمشفى!.. فصلاح موجود.. وبسمة أصبحت بخير..

أشار لحبيبة لتتقدمه.. وتوجها لسيارته بعدما همس لسمية أنه سيعود سريعًا ليصطحبها للمنزل.. فلا داعي لإجهادها أكثر من ذلك..

وبالسيارة كانت حبيبة تتأمل ملامح حمزة الخشنة وتتذكر معاملته الرقيقة لسمية منذ قليل، ثم تغمض عينيها وتسب نفسها..

هو زوج صديقتها بماذا تفكر!

وهاجسها الساخر يعود ليهمس لها بفحيح خبيث.. أنه أصبح حرًا.. هو لم يعد زوجًا لسمية.. وهي أيضًا حرة.. حرة من رجل أهدر أنوثتها بكل الطرق الممكنة..

أنوثة تزأر بداخلها طالبة القصاص.. التعويض.. المصالحة..

التفتت لحمزة وهي ترفرف بأهدابها وتخفض صوتها برقة مفتعلة:

-أنا متشكرة لك جدًا يا حمزة..

هز رأسه مغمغمًا بمجاملة عادية بينما ظل يتابع الطريق بعينيه.. مما أغاظها أكثر.. هو حتى لم يلتفت لها..

مدت يدها بجرأة تربت على يده المثبتة على مغير السرعات وعادت ترقق من صوتها:

-تعبتك معايا.. أنا آسفة..

جذب حمزة يده بسرعة وهو يلتفت لها بدهشة وقد عقد لسانه للحظات.. ثم أخبرها ببرود:

-مافيش تعب ولا حاجة.. طنط دلال زي والدتي.. وصلاح أخويا.. وأنتِ طبعًا زي أختي يا حبيبة.

تجاهلت تصريحه الأخير وهي تتجرأ أكثر لتتمسك بيده التي أراحها على عجلة القيادة:

-لولاك النهاردة كانت ماما ضاعت مني.. أنا مش عارفة من غيرك كنت هعمل إيه!

عاد يجذب يده وهو يرمقها بنظرة صاعقة:

-أنا ما عملتش غير الواجب..

رفرفت له بأهدابها ثانية وهي تهمس:

-كلك ذوق يا حمزة..

تنهد بغضب وحمد ربه أنهما وصلا لمنزلها.. فالتفت لها يخبرها براحة:

-وصلنا..

ابتسمت وهي تخبره بعفوية بدت مصطنعة:

-طيب اتفضل هعملك فنجان قهوة.. على ما أجمع كل اللي محتاجاه..

رفض بحزم:

-لا شكرًا.. مالوش لزوم.

هزت رأسها وهي تمنحه ابتسامة أوسع:

-مالوش لزوم إزاي!.. ده أقل حاجة أقدمها لك..

هتف بها:

-أنا هروح البيت أطمن الجماعة وأما تجهزي اتصلي..

قاطعته:

-هات تليفونك..

أكمل وكأنه لم يسمعها:

-اتصلي بريم وهنكون عندك في ثواني...

قال جملته وقد قرر اصطحاب ريم معهما بطريق العودة.. فيبدو أن طلاق حبيبة أفقدها اتزانها..

وعند عودتهم فوجيء بها تسارع لاتخاذ المقعد المجاور له.. بينما تركت المقعد الخلفي لريم التي دلفت له ببراءة.. بينما حمزة اشتعلت برأسه عشرات من أجهزة الإنذار..

ما إن وصلوا للمشفى حتى جذب سمية من كفها كما اعتاد معها وأخبر ريم بحسم:

-أنا هروح سمية.. هي هنا من إمبارح ولازم ترتاح..

حاولت سمية الاعتراض ولكنه لم يترك لها المجال.. فتحرك يجذبها معه ليتوجها لسيارته وهناك أبدت اعتراضها الهادئ:

-كان المفروض أستنى مع حبيبة.. ما يصحش..

التفت لها ليخبرها:

-أنتِ معاها من الفجر.. ارتاحي دلوقتِ.. ريم معاها.. وبعدين صلاح وبسمة موجودين..

أخبرته ببراءة:

-بس كده ريم خرجت من غير إذن علي.

هز رأسه بتقرير:

-أنا كنت معاها..

قطبت حاجبيها ولم تنطق بسؤالها المنطقي.. لمَ اعترض سابقًا على حضورها معهم!.. تأملته بحيرة للحظات تحاول فهم تلك المعضلة ولكنه ثبت عينيه على الطريق بعناد فهو قرأ سؤالها الصامت بعينيها ولم يعرف كيف يجبها عليه!..

أراحت رأسها على مسند المقعد وأغمضت عينيها تريحهما قليلًا.. بينما لف هو وجهه نحوها.. يتأمل تلك الخصلة النافرة من حجابها لتعاوده ذكريات حلمه الأحمق.. وتعود تفاصيله المحمومة لتهاجم عقله بضرواة.. فجف حلقه.. وتسارعت أنفاسه وصورة تلك الخصلات التي نادرًا ما أطلقتها حرة أمامه تعاود طرق ذاكرته بقوة..

لقد حوله شلال خصلات القهوة لمراهق غر..

يبدو أن الطلاق كفكرة أسهل بمراحل من وضعه بحيز التنفيذ.. فمنذ طلاقهما وكل تفصيلة صغيرة مرت بهما معًا تتمثل له بكل وقت.. ولا يملك إلا التساؤل.. هل يحدث ذلك لها أيضًا؟.. أم أنها أرادت حريتها ونالتها بالكامل..

لاحظت سمية أنه أوقف السيارة ففتحت عينيها تسأله بقلق:

-خير.. وقفنا ليه؟..

غمغم حمزة بشرود:

-تعبان

هتفت بقلق حقيقي:

-تعبان!.. مالك؟.. في إيه؟..

انتبه حمزة لقلقها فطمئنها بهدوء:

-إحنا صاحيين من الفجريا سمية.. ودلوقتِ قربنا على المغرب..

أومأت موافقة:

-فعلًا.. طيب نروح بقى عشان ترتاح..

هزرأسه رافضًا:

-لا نتغدى الأول..

رفضت عرضه برقة:

- أكيد في غدا في البيت.. نروح أحسن..

عاندها بقوة:

-إحنا لازم نتكلم كمان يا سمية.. نتكلم وإحنا بنتغدى..

رفضت ثانية بحزم:

-أنت تعبان.. تروح ترتاح.. وبعدها نتكلم..

استسلم بحنق:

-بكرة.. نتغدى سوا ونتكلم..

وافقته بابتسامة ناعمة:

-هجهز الغدا في شقة ريم.. ونتكلم عندها..

صاح بغضب:

-شقة ريم!.. إيه يا سمية أنتِ خايفة مني!!

هزت رأسها نفيًا:

-أنت علمتني ما أخافش منك.. بس الوضع دلوقتِ مختلف..

أسعده شق جملتها الأول.. فهدأ غضبه.. وهو يعترف أنها محقة.. الوضع مختلف بالفعل.. هو اختار خسارتها.. اختار أن يكون الحامي وليس الزوج.. وعليه أن يلتزم بوعد الحماية..

***

وتعددت المسميات والخسارة واحدة.. هي خسرت نفسها.. خسرت الحق بالاعتراض.. خسرت الأمان حتى وإن كان بين جدران زائفة.. خسرت حلمًا بسيطًا غاية بالنقاء واستبدلته بكابوس بشع يطبق على أنفاسها..

تمددت بفراشها بعد يوم طويل من العمل الشاق.. أعمالها المنزلية لا تنتهي وكأن زوجها الوغد يتفنن بتحويل المنزل إلى وكر لكل القذارة.. فكلما أنهت عملًا اختلق لها آخر.. أشد إجهادًا وتعبًا.. يتفنن بتعذيبها بطرق غاية بالحقارة فلا تتمكن من الشكوى..

حياة لم تخترها بل أجبرت عليها.. أجبرها حمق تصرفها.. طيش وسذاجة واعتزاز غبي بالنفس وثقة وضعت بغير محلها.. لتصل بالنهاية لخادمة نهارًا.. عشيقة لا حول لها ليلًا..

والمسمى زوجة.. والزوج هو كل شيء عدا أن يكون رجلًا..

استمعت أمنية لهمهات زوجها المحمومة.. وهو يهاتف عشيقته الجديدة..

بكل ليلة عشيقة.. وبكل يوم تكتشف ما هو مخجل ومخزي عن رجل هو للأسف زوجها ووالد طفلها القادم..

قذاراته التي حرص جيدًا أن يخفيها عن الجميع ببداية خطبته لها.. بدا الآن أكثر من سعيد وهو يستعرضها أمامها وبكل تفاصيلها المقززة.. وكأنه بكل مرة يخبرها أن تعترض على واقعها معه.. والاعتراض لن يصل بها لشيء.. فتوأمها قاطعها تمامًا.. وسمية هي الوحيدة التي تراعيها وتتولى مساعدتها..

وتلك حقيقة أخرى تخبرها كم كانت هي وضيعة من قبل.. كيف نسيت أو تناست منبع الحنان والحب بقلب سمية.. كيف تجاهلته وغلفت نفسها بالحقد وقلبها بالكراهية!!..

هل الشدائد هي ما تكشف حقيقة البشر!.. أم أنها فقط تصهر الشوائب العالقة بالنفوس فيتطهر المعدن الأصيل ويبرق بنقائه!

وأمنية برغم كل ما حملته نفسها من كراهية خادعة لشقيقتها إلا أنها بأعماقها ملكت نقاءً خفي.. فقط لزمتها حرارة التجربة لتتطهر من شوائب علقت بنفسها.. والآن بوحدتها مع زوج بمرتبة ذكر الحيوان.. لا تمنحها القوة للاستمرار إلا ذكريات طفولة وصبا جمعتها بسمية..

الأم على الدوام.. المعطاءة بلا انتظار لمقابل..

ربما خسرت أمنية بتلك التجربة جزءً من حياتها.. فقدت بعضًا من كبرياء وكرامة.. وأضاعت عزة النفس.. ولكنها كسبت وجود شقيقتها..

وللأدق أعادت اكتشاف شقيقة بمرتبة أم..

انتفضت من رقدتها عندما حط أسامة بجسده بجوارها، يجذبها لأحضانه بخشونة.. يجبرها بعنف على أداء دورها كزوجة.. بل كأسًا لتفريغ شهوته القذرة التي أشعلها عبر مهاتفته لعشيقته.. يخبرها بحقارة أن لا داعي

للدفع لعاهرة.. فجسدها متاح له بكل وقت.. وعليها أن تستحق وجودها تحت سقف بيته..

بعدما انتهى منها.. أولاها ظهره وراح بنوم عميق.. تاركًا إياها تنعي خسارتها بصمت باكٍ.

الفصل السادس والعشرون

عندما تتشبث الأنامل بحبال الوهم.. نسقط في بئر الندم، فلا منها أمسكنا بالحلم.. ولا بعدها عدنا لما كنا عليه؛ تنغلق حولنا دائرة اليأس.. والمنفذ خارجها يطل على كل خوف ممكن وكل وجع متاح بل وكل فجيعة لم تجُل بالحسبان.

والأوهام كثيرة.. كثيرة حد الغرق في طرقاتها المتشعبة ونهاياتها غير المحدودة، حد التيه بدروب آخِر كلٍ منها مفترق لا تفقه أي اتجاه ينبغي أن تسلك منه لتصل لمرسى أمان.. فربما تأخذ المنحنى الخطأ وتقابلك هوة الضياع فتسقط.. أو تمر بمقابر الأمل؛ فتدفن ما تبقى في صدرك منه بها..

وهم بدنس نفس لم تحمل جريرة سوى خلقة ربانية احتسبها عليها ضعيف النفس ذنبًا وزرع برأسها عمق خطيئتها.. وهم بتلوث روح جوار جسد نال منه دون وجه حق.. سلخ عنه برائته وطهره وصرخ متحججًا بأن الدافع والمبرر والغواية.. هي!

المخطئة.. هي!

المذنبة.. هي!



والضائعة في النهاية.. باتت هي!

ضحية أمست جلاد نفسها، قاضيها القاسي، والدفاع باهت مبهم لا يظهر في الصورة، والحكم كان نهائيًا بإعدام أنوثة زرعت في رحم روحها كل وجع.. وكل إثم!

ووجعها في هاته اللحظة فاق حد تحملها فهاتفته.. نبرتها المشروخة تجاور دموعها، نهنهاتها توازي اعتذاراتها.. وقلبها يناجيه وقلبه.. حائر!

- أنا آسفة يا علي..

صمته جوابها.. وبكائها هو الرد:

- ما تزعلش مني..

لكنه حزين.. بل غاضب، لا.. هو مكسور:

- أنا بحبك..

وليت الكلمة كافية لرتق ذاك الثقب الذي تمزق بعمق قلبه:

- أنا آسفة!

ثم عجزت بقية أحرفها عن تعبير مناسب!.. هل ستخبره عن رغبتها بضمه.. رغبة كادت تقتلها وهي تواجهه بجسد ميت واجم وعقل فاقد للاتزان وفؤاد مجروح يخشى الفراق.. يجزع من الوحدة ويأمل لكنه يقابل الوهم!

وهم صورة لن تكون في يوم كاملة بهما معًا!

- علي.. رد عليّ.

وهو يحتاجها.. وهل بعد الاحتياج سؤال!

معها ربما، فهو لم يرتوِ ولن يفعل، بل تهشم احتياجه لفتات في مواجهتها الباردة معه، في مواساتها التي لا محل لها من الإعراب.. في تباعدها وهو كان يتوسل منها.. ضمة!

صمتها واجه صمته في حرب ضروس.. سكونها مليء بالأسى، بالأسف، بالألم.. وسكونه يفيض بالعتاب، باللوم.. بالحزن، كلماتها عجزت عن التبرير وهو عجز عن الصمود أكثر فأنهى المكالمة بكلمات قصيرة وتحرك من فوره..

إلى طبيبتها!

"أنا تعبت"

هكذا بادرها وهي تنهدت وأشارت له بالجلوس، استجاب ومدد ساقيه واستند بظهره للمقعد أمام مكتبها، فرك أعلى أنفه بإنهاك ووجهه يسكنه الهم:



- فين التقدم يا دكتور!.. أنا مش ملاحظ أي فرق.. ريم لسه زي ما هي وأنا مش عارف أتصرف!

صدح بكلماته المعترضة التي تبحث عن دعم.. عن جواب لأسئلة كثيرة غير مفهومة.. لمواقف مجهولة وردود أفعال غادرها المنطق بل والحس، نبرته شابها عصبية وعيناه لمع بهما غضب وليد امتزج بعجز:

- أنا عاوز أفهم.. فين المشكلة؟

وهي استندت بعملية بمرفقيها فوق المكتب، عدلت منظارها الطبي باهتمام وتكلمت بحيادية:

- شوف يا باشمهندس.. هاكون صريحة معاك، مدام ريم واضح جدًا حبها ليك، لو شئنا الدقة هنقول بتعشقك.

انعقد حاجباه وهي تشير بيدها موضحة:

- طول الجلسات اللي فاتت كلها كانت بتتكلم عنك.

وأشارت لنفسها هذه المرة:

- أنا بقيت أعرف عنك كل حاجة.. منها هي، من حكاياتها عنك أنت، حكايات بتكررها بصفة مستمرة كأن ده اللي يهمها وبس.



جنونه تضاعف وحيرته استفحلت أما غضبه فقد تفاقم ينهش دواخله التي أضناها التعب:

- أنا ما بقيتش فاهم حاجة.. منين بتحبني ومنين يوم ما والدتي ماتت ما حاولتش حتى..

وتردد لحظة فحثته بعينيها وانفجر:

- ماحاولتش حتى تضمني، تطبطب عليَّ.. تقولي أنا جنبك.. تقرب مني أو تواسيني!

وهز رأسه ولوثة ما تكاد تصيب عقله:

- عشق إيه اللي يخليها تبعد عني.. لأ تبعدني عنها!.. تقولي اتجوز وتدفعني لطريق مش عاوزه بكل طريقة ممكنة.. بكل إهانة ممكنة.. بكل وجع ممكن!

وتحشرج صوته بألم وعاد لتيهه:

- عشق إيه اللي يخليها تتخلى عني لواحدة تانية.. تتخلى عني في وقت أشد احتياجي ليها!

تركرته الطبيبة يفرغ مكنون صدره المثقل بهموم تفوق طاقته وتزيد، استمعت لحديثه تبحث عن تفاصيل غامضة لا تستطيع الوصول إليها مع

مريضتها.. وطول فترة علاجها السابقة ناوشتها الشكوك حولها لكنها مع "ريم" لا تكاد تمسك بطرف خيط يقودها لجواب يمكنها علاجها به!

خلعت منظارها ووضعته أمامها، رمقته بنظرة مهتمة وقررت الحصول على ما تفتقده منه هو:

- باشمهندس علي.. كلمني عن بيت ريم، تعرف إيه عن حياتها قبل جوازكم؟!

وكانت موقنة أن الخطأ بدأ من هناك.. كانت موقنة أن ما تظنه هو الصحيح حتى هدمه بجوابه البسيط جوارهزة كتف تشي بطبيعية الموقف:

- ريم أهلها ناس طيبين جدًا ومعروفين بسمعتهم الحسنة.. أخوها صديق عمري، ولها أخت كمان وأخ تاني بس الله يرحمه.. والدها ووالدتها زي أهالينا كلنا.

- هما دول كل عيلتها؟

نظرته شابها دهشة متسائلة لم تمنعه من الرد:

- لا طبعا.. لها ولاد عمها وولاد خالتها كانوا عايشين معاهم في نفس البيت.. بس في واحد مسافر برا بقى له سنين، والباقي معظمهم متجوز ومستقل بحياته.

وفقدت الطبيبة طرف خيطها..

ترى في أي مرحلة حدث الخطأ!

وهل هناك خطأ كما تخبرها شكوكها أم أن الدوافع أخرى؟!

- بس حضرتك بتسألي ليه يا دكتور؟

انتبهت من شرودها على سؤاله فابتسمت بعملية:

- أبدًا.. زي ما قلت لك.. ريم دايمًا بتتكلم عنك وعلاقتكم ببعض، وفي تفاصيل كتير ناقصاني كنت محتاجة أعرفها عنها وعن المحيط اللي اتربت فيه.

وهزت كتفيها بتوضيح أخير:

- طبيعي أهتم بتفاصيل زي دي هتفيدني في علاجها.

وتساءل هو بصمت..

أهناك علاج بالفعل؟!..

أم أن تلك الدوامة التي انحشر فيها مع معشوقة القلب.. لا مهرب منها، ولا نهاية لها!

***

وهم الأسر.. والحرية من طوقه كانت بيد رجل هو الرجل!

وهم وحدة والداعي افتقاد.. والمبرر تقدير وامتنان.. والهدف لأجل خاطرها هي، حياتها هي، غدها ومستقبلها هي بدعمه وجوار سنده..

شردت في حديثها مع "حمزة" قبل أيام.. حقوقها التي لم تخطر ببالها ورعاها، مستقبلها وهوايتها بل وتعليمها.. واتفاق ما هدفه إنجاز متأخر أنهيا به الحديث.. ووعد!

كانت تطهو لشقيقتها عدة أصناف كما تفعل كل أسبوع، تغلفها وتتركها بالبراد جاهزة للتسخين فقط لترحمها من متاعب العمل بالمطبخ وحملها يثقلها.. وكما هي عادتها أنهت عملها ولملمت المبعثر بالمكان حتى تركته نظيفًا تمامًا.. وعندما التفتت لتخرج وجدته مستندًا للباب يتأملها بنظرة اقشعر لها بدنها..

لقد أتى باكرًا عن موعده اليوم!

نظرت إليه تستدعي ابتسامة ترحيب واهية وهو يتقدم وعيناه تتفحصانها بوقاحة جمدتها بمكانها:

- كل مرة بتمشي بسرعة.. قلت آجي بنفسي بدري المرة دي يمكن ألحقك.

وتراجعت خطوة مندهشة:

- تلحقني!!



تقدم أكثر.. خطوة وأخرى حتى باتت المسافة بينهما ثلاث خطوات فقط:

- أيوة.. أسلم على أخت مراتي.

وواحدة تالية:

- خالة ابني.

والتوى فمه بمكر خبيث:

- مش عاوزة تسلمي على جوز أختك ولا إيه يا سمية؟

وكان لحن اسمها بصوته ثقيلًا أثار امتعاضها وخوفها بذات الوقت.. تحركت في المكان بعشوائية تحاول الخروج.. الفرار ربما:

- أكيد لأ يا أسامة.. بس مش المفروض أتأخر برا وأنت بترجع من شغلك متأخر قوي.

وعشوائيتها أثارت مشاعره فخطا لليمين يقطع عليها طريق الهروب:

- طب أديني جيت بدري أهو.. عاوز أتغدى من إيديكِ الحلوة دي.

وغمزها متظاهرًا بالمرح لكن النبرة كانت أبحة بإيحاء مقزز:

- جعان قوي.. قوي.

- أمنية هتقوم دلوقتِ تحضر لك الأكل.. كله جاهز.

وكانت ترتعش بحق، وغافلته من يساره لتهرول خارجة من المطبخ وهو يراقبها بانتصار.. فهو تقدم خطوة والتالية لن تكون بعيدة..

وهي ظلت على ارتعاشها بينما تودع شقيقتها، ترحل من المنزل كأنما تطاردها شياطين الجحيم، ولم تتوقف لتلتقط أنفاسها إلا عندما وصلت قبل بيتها بخطوات.. تعلقت عيناها ببابه تود الصعود لشقتها والاحتماء بجدرانها من تلك النظرات التي عرّتها.. بل ذبحتها، وهي لا تستطيع النطق أو الصراخ..

هل ستخرب على شقيقتها العروس!

وماذا عن طفلها!

ماذا كان يريد بالضبط!.. وتذكرت عيناه وعادت لها رجفتها التي تحولت لانتفاضة هلع مع صوته المباغت:

- كنتِ فين لحد دلوقتِ؟

نبرته عصبية غاضبة وهو يقف قبالة باب البيت يمنعها الدخول بسخط:

- لسه كنت هاخلي الحاجة تكلمك.. راجعة متأخر كده ليه؟

تراجعت خطوة بشهقة ويدها تربت فوق قلبها الذي انتفض هو الآخر بذعر:

- كنت عند أمنية.

ماذا!

واحمرت عيناه والتعبير الحرفي لانتفخت أوداجه بان على وجهه وهو يضغط نواجذه بعنف، هي كانت في منزل هذا الحقير حتى هذا الوقت!

تقهقر بظهره ليفسح أمامها طريق الدخول وعندما دخلت حجزها يمنعها الصعود:

- بتعملي إيه هناك لحد دلوقتِ؟

وتأملته ببراءة حائرة:

- باساعدها يا حمزة ما أنت عارف.. الحمل تاعبها.

واللعنة عليها وعلى شفتيها الناعمتين ونبرتها الرقيقة المرتجفة التي نطقت اسمه بهذه اللحظة فكادت تنسيه غضبه لكنه تشبث في النهاية بواجهته الصلبة:

- هو كان هناك!

وبباله يستعيد نظرات ذاك الوغد إليها قبل أسبوع عندما كان مدعوًا هو وزوجته على الغذاء ببيت والديه.. نظرات ود حينها لو فقأ عينيه حتى يمنعهما عن تأملها أو حتى الالتفات نحوها.. هي الغافلة بسذاجة مثيرة للغيظ.. هربت بنظراتها ورد خافت:

- جه قبل ما أمشي.

كانت مرتبكة ولاحظ التوتروالرعشة فاقترب خطوة حادة أجفلتها:

- سمية.. في حد ضايقك؟!

وسيقتله لوكان فعلها!

- ها.. لا ما فيش.

وماذا ستخبره حارالدماء ذاك!..

أراد أن يأمرها بعدم الذهاب إلى هناك مرة أخرى لكن كل ما استطاع قوله بحزم صارم كان:

- ما تتأخريش كده تاني.

أومأت بطاعة رقيقة نبض لها قلبه فابتسم وانفرجت ملامحه قبالة عينيها الخجولتين، انفرجت واحتفظ عقله بشكوكه ومخاوفه.. وحذره الذي سيحيطها بسياجه من الآن فصاعدًا.. مرر الأمروأخرج من جيبه ورقة مطوية مد يده بها إليها:

- سجلت لك في الدورة اللي قلت لك عليها.

توسعت عيناها بدهشة فكاد يغرق في عسلهما الرقراق وهو يراقب تلك اللمعة الفرحة التي مرت بهما:

- بسرعة كده!

وعاد يقترب بلا إرادة:

- مش ده كان اتفاقنا لما قعدنا مع بعض؟

وتوقف يراقب وجهها المبتهج كطفلة ليلة العيد:

- مش كمان اتفقنا إنك هتمشي في الطريق اللي يخص سمية وبس المرة دي!

رفعت ناظريها إليه.. تتعلق بعينيه، تناظره بشكر لا توفيه حروف.. بامتنان لا تكفيه كلمات، وابتسمت وذاب هو في ابتسامتها فتجمد في مواجهتها جفناه لا يطرفان، كان يتمنى أن تجاور خطواتها خطواته لكنها اختارت حريتها، وهو كان بالمنح والاهتمام أولى.. سيكون معها حتى وإن لم يعد يجمع بين اسميهما عقد زواج، سيقف سندًا وعونًا لها؛ وإن لم تكن امرأته!

- مش عارفة أقولك إيه بجد يا حمزة!

وكاد يهتف بها ألا تناديه وعوض لسانه بتمتمة حانية:

- ما تقوليش حاجة يا سمية.. يكفيني الفرحة اللي شايفها في عينيكِ في اللحظة دي.

انفرج جفناها ورفرفت بأهدابها في دهشة تلاها هروب ثم خجل وبسمة سعيدة ناوشت شفتيها فخفضت رأسها وتحركت لتصعد لشقتها.. تبعها

حتى توقفا أمام بابها، فتحته ودخلت والتفتت إليه بينما هو يقف خارجه دون حراك.. لم يذهب، لم يعُد من حيث أتى.. فقط جمُد بموضعه يحيطها بنظراته دون حديث..

وهي خجلها تفاقم ووجهها كاد ينفجر بحمرته، عيناها تبحثان حولها عن سكن، وحائرة هي دون كلمات تسعفها بموقف خجل!

- عاوز تقول حاجة تاني يا حمززززة!

وكاد يتأوه هذه المرة بالفعل، ولم يقاوم أن يتقدم، ولم يمنع الهمسة.. وبادر بالنظرة:

- آه.

"حمزة.. تعالى عاوزاك"

تصلب بمكانه وتجمد عقله على نداء أمه الجهوري من الطابق السفلي..

وظل الوهم.. وهمًا عصيًا على التحقيق إلا من سراب!

***

وهم بمستقبل لن يأتي.. وهم بماضٍ رحل مع الراحلين محملًا بفتات ذات عاشت على كفاف المشاعر، كفاف المنح.. وجُل العطاء بلا حساب..

وهم بأنوثة اندفنت أسفل ركام التجاهل فبات التنقيب عنها فرض عين!

وتلك هي مهمتها، لن تتوانى.. لن تترد أو تتراجع، وستثبت لنفسها قبله وقبل الجميع أنها تستحق، أنها امرأة كاملة لم يتخلَ عنها ذكر ليحقق اكتماله المنقوص..

دلفت بخطوات واثقة لمبنى المدرسة التي تعمل بها، بعد وقت قصير أنهت إجراءات مد أجازتها لتظل جوار أمها التي لم تترك المشفى بعد، وفي خروجها تعثرت به وبرقت عيناها..

فإن كان حمزة قد تمنع عن محاولات القرب؛ هناك غيره على استعداد كامل لتلقي اقترابها بصدر رحب!

ابتسم هو ولمست بنظرته اعتذارًا صامتًا أعجبها فبادلته البسمة:

- ميس حبيبة.. حمد الله على السلامة.

صافحته برقة وتركت كفها الناعمة بقيد أصابعه لثوان مدروسة قبل أن تسحبها برقة:

- الله يسلمك يا دكتور حسام.

احتواها بعينيه وكان مهتمًا:

- خير.. ليه الغياب؟.. طمنينا عليكِ؟

وارتبك لحظة عندما لاحظ سؤاله شبه الفضولي:

- وحشتِ سما وبتسأل!

احتوت نبرتها نعومة لم تكن مصطنعة وإن زادت عن حد الاعتياد:

- أنا بخير الحمد لله.. ميرسي ليك.

احتفظت عيناه بالسؤال فأجابته تروي عطش اهتمامه:

- والدتي تعبانة شوية ومحجوزة في المستشفى.. وأنا معاها طبعًا.

بدا على وجهه القلق فارتسمت على شفتيها ابتسامة نصروهي تشعر بزهو أنوثتها يتعاظم:

- طيب لو مش هاضايقك.. تسمحي لي أزورها؟!

ووافقت، وفي التو كانت تجاوره بسيارته.. وبكل لباقة وكياسة توقف أمام أحد محال الزهور ليشتري لها باقة أنيقة بصحبة بطاقة تتمنى لها عاجل الشفاء..

عند غرفة والدتها عرَّفتها به، ونال من والدتها اهتمامًا خاصًا اطمئن بعده على حالها وشكرته ثم تأهب للرحيل، وعندما كانت تودعه التقت عيناها بعيني الغادر السابق.. انعقد حاجباها وتغضن جبينها بغضب سافر حجبته عن زيارة ملامحها بقسوة وهي ترمقه بضيق..

الآن تأكدت..

هو يراقبها حقًا!

لقد جُن حتما.. أقبل عليها وهز رأسه بتحية باردة لحسام الذي جذب انتباهه عن الموقف ذاك النداء من خلفه:

- دكتور حسام!

واستقبال حار بحفاوة من عبد الرحمن الذي كان يمر جوار الواقفين، تصافح الرجلان ثم حيا حسام حبيبة واستأذن منها راحلًا مع صديقه الأصغر..

أما هي فخطت بعنف نحو الثابت أمامها بنظرة غامضة لم تفهمها وتحولت لوضع الهجوم دون انتظار:

- بتعمل إيه هنا يا نبيل؟

كان باردًا كثلوج القطبين وهو يشير بوجهه تجاه غرفة أمها:

- جاي أزور مرات عمي.. فيها حاجة دي؟

ووالدتها أخبرتها باكرًا أنها زارها بالفعل اليوم، صرَّت على أسنانها وودت لو صرخت بوجهه..

يراقبها!.. ما الذي يسعى إليه بالضبط؟.. ما الذي يبحث عنه؟..

هو ذبحها وتركها مهلهلة الروح ممزقة القلب، فما الذي تبقى ويفتش عنه!

- مين ده يا حبيبة!

رفعت عينيها إليه بشراسة أجفلته دون وعي:

- مش جاي تزور ماما؟!.. اتفضل من غير كلام كتير.

وأفسحت له طريق الدخول إليها لكنه لم يتزحزح.. فتح فمه لمزيد من حديث لم تتقبل أن ينطق منه حرفًا فلسعته بسياط أحرفها هي:

- يا ترى المدام عاملة إيه هي والبيبي يا نبيل؟

ارتدت رأسه بحدة وبدا وكأنه تذكر أمرًا منسيًا.. أو ربما هو فقط سقط سهوًا!

وعندما عاد بانتباهه إليها كانت قد استدارت بجسدها تتركه خلفها، اختفت خلف باب الغرفة بعدما منحته نظرة أخيرة فظة وأغلقته بوجهه..

أغلقته كما أغلقت باب العفو عن إثم لا يراه ذنبًا.. بل حق ومستحق..

أغلقت باب الرجوع..

باب الصفح والقرب!

وتركت له بابًا واحدًا يتنفس عبره وينفس فيه غضبه وخوفه.. وضياعه..

صفية!

وحين مرت بذهنه، تحرك عائدًا لبابه المفتوح.

***

وهم بسعادة غير مكتملة الأركان وإن كان الدافع واهيًا والوقت لا يسانده!

وهم تبث فيه السموم أفعى تتلون كحرباء وتتخفى برداء قطة ناعمة بينما داخلها تتفلت وحشية لبؤة أدمنت الصيد ونهش الفرائس..

وهم بتأخر لم يحدث وسابقته دمعات خرجت من زمام السيطرة وهي تمسك بيدها اختبار الحمل سلبي النتيجة وتعلن الشوق والاحتياج!

وظهر أمام عينيها هو بدهشة، ينظر لملامحها الحزينة واللمعة الدامعة بين جفنيها واقترب متسائلًا بقلق:

- أيوش!.. مالك؟

ناولته القطعة البلاستيكية عديمة النفع برجفة شفاه حزينة:

- سلبي.

- ده اختبار حمل!

وجلجلت ضحكاته بالمكان رغمًا عنه، وكانت هي تنظر إليه بذهول مستنكر أعقبه غضب بعدما انتهى.. غضب جاور عبرات زاد انهمارها وصرخة مؤنبة وعينين لائمتين:

- أنت بتضحك عليَّ يا عمرو!

وانتقلت الدهشة إليه وهو يحدق في وجهها الباكي بصدمة:

- أنتِ بتتكلمي جد يا آية؟!

- أمال باهزر!

وأوجعته نبرتها فنبض قلبه حنانًا وعطفًا، اقترب يجاورها فوق الفراش وضمها إليه:

- حبيبتي إحنا متجوزين من أقل من أربع شهور!

وتمتمها وصلته خافتة بشجن:

- نفسي أبقى أم.

واستعاد ذهنها كلمات نشوى المسمومة بحرقة:

"أربع شهور من غير حمل يا آية!"

"ما بتفكريش تكشفي!.. يمكن فيكِ عيب؟!"

"ماما هتتجنن على حفيد خصوصًا من عمرو.. وليّ العهد بقى"

وكانت الأخيرة توزاي تربيتة ادعت فيها شفقة لكن الاستخفاف كان ينضح منها ممتزجًا بغل غير مفهوم:

"وعمرو كمان على فكرة.. اكشفي واتعالجي لأنه مش هيصبر كتير"

أما هو فابتسم يتخيل ورديته الناعمة ببطن منتفخ بطفلة تشبهها برقتها وخجلها.. وخرج صوته حالمًا لا يلائم خشونة نبرته:

- وأنا كمان نفسي.

همسه أعادها لدفء أحضانه من ذكراها الموجعة فشعرت باستغراب:

- نفسك في إيه؟

رفع وجهها إليه ومنحه دفء شفتيه هذه المرة بقبلات متتابعة تجول فوقه برقة:

- نفسي تبقي أم لبنوتة زي العسل.. تشبهك.. خدودها برده تحمر زي الفراولة اللي بحبها.

واحمرت وجنتاها على ذكر الحمرة فضحك بمرح واعتدل يواجهها:

- أنا باقول تعالي نجدد المحاولات.

- عمرو..

لكن تأنيبها الخافت جعله يقترب أكثر متظاهرًا بالجدية وعلى وجهه عزم غريب مضحك:

- بس المرة دي بضمير.. وإتقان.



وغابت ضحكتها في ظلال عشقه التي تحميها من حرارة حارقة لكره غير مبرر تحمله لها أخت زوجها حتى بات الشعور به أمرًا حتميًا!

في اليوم التالي كان حفل خطبة نشوى.. ودت لو اعتذرت عن الذهاب.. تحججت بمرض أو أي شيء فقط لتتلافى اللقاء الذي لن ينتهي على خير ككل ما سبقه..

علمت أنها على حق عندما صاحبت العروس بغرفتها كواجب اجتماعي مشروع وكان من نصيبها..

الطرد!

ولو كان خارجه شبه لائق عندما أخبرتها نشوى بلهجة باردة:

- آية معلش.. ممكن تساعدي ماما في المطبخ!.. محتاجة أقعد مع أصحابي شوية قبل الحفلة.

واستجابت وأقسمت أنها لن تبكي..

حبست دموعها كما كتمت ضيقها ووجعها والداعي..

أن الحبيب يستحق!

وهو كان بالفعل أهلًا لحبها الذي تملك عليها كيانها بعدما عاشرته، سكنت إليه.. ولمست منه جانبه الحاني المهتم والمراعي..

فهل وهم الفقد.. يثير الخوف!.. أم علينا التمسك بقوة الأمل!

***

وهم بأمل منقوص لا تدرك أبعاده.. وهم بعدل لم يكن بالإمكان.. وهم يبعث في الجسد مُسكنًا لآلامه فينسيه صراخ الضمير بأن الميزان اختل ومال حد السفه.. حد الفقد.. حد الفجيعة!

ورغم أنه وهم فقد تعلق به لآخر رمق، أحكام القلب المكبل بعشق عليل وعلته تنتشر فيه كمرض لا شفاء منه إلا بمعجزة..

وهل ينتظر هو معجزة!

حانت من عينيه لفتة جانبية للمجاورة له بسيارته، تأوه خافقه وأنَّت روحه.. وكيانه يفتش، يسأل.. يخاف، أهناك معجزة!

أهناك أمل!

على الحب اللعنة.. على ضعفه ألف لعنة.. وعليها هي!

عليها العشق..

ضغط جفنيه بتنهيدة انتبهت إليها وتجاهلت رد الفعل، بل تعمدت النظر خارج النافذة تتابع الطريق هروبًا من محيط يجمعها به.. وفي كل مرة

يناظرها بسؤال لا تملك جوابه، وتنتهي النظرة محبطة قانطة.. خانعة لقدر لا تجدي أمامه مقاومة..

ماذا عليها أن تفعل!

الشهور تمر.. الأيام تمر.. اللحظات تمر.. وهي واقفة، الكون يتحرك من حولها وهي فقدت شعورها به، بل بنفسها وهي قيد انتظار نهاية ربما تأتي مخالفة لكل التوقعات وتذبح بداخلها كل أمل لا تحوزه من الأساس.. لأنها هي من اختارت حتى لو كان الماضي هو الدافع الوحيد!

"أخبار الجلسات إيه يا ريم!.. بتتكلمي مع الدكتورة؟"

جذبها من شرودها فنظرت إليه بتساؤل جوابه بسمة تبحث عن طمأنة:

- حاسة بفرق!

وكادت تضحك ساخرة.. أي فارق تبحث عنه يا مالك القلب!

هل في وسط انتشار السواد يمكن أن تجد نقطة بيضاء تجذب النظر!

هل من عمق الخطيئة يطفو الطهر!

وهل من بحر الدنس تنجو العفة وقد دفنها موجه بالقاع!



هزت رأسها بابتسامة مقابلة وتحشرجت نبرتها في رد غامض وهي تشرد مرة أخرى.. تشرد في جلستها التي أنهتها للتو مع طبيبتها.. تستعيد حديثها وقلبها يتوجع والعقل الوجِل يهزأ من عقم محاولات لا طائل منها..

"ريم.. إحنا بقى لنا شهور بنتكلم عن علي.. عاوزة أسمع عنك أنتِ"

ومالت نحوها برأسها بابتسامة مطمئنة:

"كلميني عن ريم"

وهي أغمضت عينيها وتنهدت من أعماق صدرها حتى كادت تشجه..

وهمست باسمه في سيمفونية غرام لا يملكه سواه:

"ريم!.. ريم باشوفها في عيون علي وبس"

وكانت تعنيها، بكل حرف وكلمة ونبرة.. نعم هي لا ترى ريم إلا بعينيه، ريم التي فقدتها.. ريم التي خسرتها في الماضي.. ريم التي تبحث عنها في خضم صراع ينهشها من الداخل ولا رادع له.. إلا صورتها بعينيه!

"لسه برده بتشوفيها بعيونه رغم إنه اتجوز!.. إحساسك إيه بعد جوازه يا ريم!"

فرقت جفنيها تنظر إليها وتمتمت وقلبها يئن:

"فرحانة له"



"مش بتغيري عليه!"

كان سؤالًا متعجلًا لحوحًا ألقته بوجهها قبل أن تستعد له..

هل تغار!

تتمزق!

هل تفكر به مع أخرى!

يحنو عليها.. يضمها.. يعاملها كملكته كما كان يفعل معها!.. يربت ويبتسم ويضحك ويشارك!

هل تغار!

تبًا.. هي لا تغار، هي فقط لا تدري بماذا تشعر!

أخرى لا تهتم لأي شيء يخصها سوى أنها ناصفتها حنانه، وجوده، احتواءه!.. أخرى هنأتها بنفسها وادعت التماسك حينها!.. أخرى هي من ألقت به بين يديها.. فمن ستلوم!

تلومه!.. تلوم نفسها!.. تلوم الدخيلة.. الثالثة!

تلوم الشيطان وضعفها ووحل لوثها فغرقت فيه دون نجاة!

رنين هاتفه أجفلها فاستدارت إليه لتجد حاجبيه منعقدان بدهشة وهو يجيب:

- أيوة يا ست أم إبراهيم.. خير!

وكان رد المرأة انتفاضة لقلبه بل هي حتى لامست جسده:

- رؤى في المستشفى يا باشمهندس.. رحت أطمن عليها من شوية فتحت ويادوب مافيش خمس دقايق وأغمي عليها.. إحنا في مستشفى ****

رد بعجالة والقلق استشرى بعقله دون هوادة:

- طيب أنا جاي.. مسافة السكة.

أوقف السيارة أمام منزل ريم الذي كان قد وصل إليه بالفعل، ابتسم لها باعتذاروأنزلها.. ثم قاد بجنون حتى وصل للعنوان، دلف للمكان بخطوات متوترة سريعة يسأل عنها حتى دلوه على مكانها وخارج غرفتها قابل طبيبها المتابع لحملها..

الأسف فوق وجهه قبض نابضه.. بل اعتصره وهو يواجهه بخوف:

- خيريا دكتور!

مط الرجل شفتيه وواساه بربتة كتف:

- آسف يا باشمهندس.. فقدنا واحد من الأجنة.

اتسعت عيناه ذعرًا وهو ينظرمن خلف ظهرالطبيب كأنما يود اختراق الجدارالذي يفصل بينهما بينما يصله صوته متابعًا:

- هنحجزها هنا في المستشفى تحت الملاحظة لأن المتابعة ضرورية في المرحلة دي وهنحتاج تكون تحت عنينا طول الوقت.

ازدرد لعابه وابتلعه كشوكة حادة غص بها حلقه.. والضيق استقر فوق صدره كحجر ثقيل حبس أنفاسه وعيناه تائهتان وأذناه تلتقطان صدى الكلمات:

- طبعًا المتابعة هتكون مهمة لأن في ولادة قريب بإذن الله.

وآخر جملة انتزعته عنوة من تيه فالتفت إليه باستنكار خائف:

- ولادة!!.. رؤى لسه في نص السادس يا دكتور.

ونبرة الرجل التي توسم فيها القلق ملأته فزعًا:

- هنحاول نوصلها للسابع على خير.. بس مش هينفع نتأخر.

وأوضح بأسف جديد:

- حالتها النفسية سيئة جدًا وده مش في مصلحتها ولا في مصلحة الجنين.

ثم هز رأسه وبدأ يتحرك مغادرًا:

- أنا نبهت قبل كده.. غير كمان ضغطها اللي بيعلا.

تابعه بناظريه للحظات ثم عاد يتأمل باب غرفتها الذي انفتح وعبرته جارته السيدة التي كانت جوار زوجته وقت حاجتها دونه!

ابتسمت له بحزن وربتت على ذراعه قبل أن تخبره بهزة رأس.. أن يذهب إليها!

وهل يقدرعلى مواجهة!

بماذا سيبرر غيابه وطفله يموت بأحشائها!.. هل سيدافع بأدلة وبراهين أن هناك أخرى تحتاج وجوده!.. ماذا عنها هي!.. ماذا عن ذاك الجزء منه والذي كان ينمو قرب قلبها!

ماذا عن الكثير!..

ماذا عن الضمير!

"وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ"

وسيصلى جحيم عذابه ملعونًا.. هولم يعدل!

هولم يحرص!

قلبه مال.. وتبع قلبه تصديق الجوارح والمنح وحقوق المودة والرحمة والقرب والاحتياج..

دفع الباب ببطء وأطل من خلفه بوجه نادم.. خطا للداخل وحديث العيون كان يتصدر المشهد البائس، هي فقدت طفلها وهو طفله.. لكنه لم يكن

هناك إلى جوارها، نظراته مليئة باعتذار صامت عجز اللسان عن تحويله لمنطوق.. ونظراتها مكسورة بلوم تكاد تستكثره على نفسها!

"آسف"

"خفت أكلمك.. ما تجيش!"

لمعته باهتة ولمعتها منطفئة والصمت لا بديل عنه حتى الحين..

كانت عيناها تلومانه، وعيناه تنضحان بهزيمة رجل أضاع ميزان العدل..

اختلت منه كفتاه فمال وخسر وفقد، والتتمة فوق حدود الاحتمال..

خطواته المقتربة بدت كبُعد أميال، وصمتها كان أشبه بضجيج صراخ مميت لا يحتمله قلبه..

عيناها تعاتبان بانكسار.. ونظراته تفر من لقائها..

مقلتاها تفيضان بالحسرة ومقلتاه تستقبلان فيضها حد الغرق.. حد الوجع.. حد القهر..

قدماه مترددتان والمسافة تقصر بين جسديهما وليتها تقصر بين روحين بات البون بينهما كالمشرق والمغرب.. أخيرًا وصل إليها، انحسرت نظراته تراقب كفها المستكينة فوق بطنها بحنو فطري.. أو ربما هو تشبث!



التقط يدها بين أنامله فحانت منها لفتة إلى قبضته التي تحتويها برفق، لفتة متبلدة فقدت كل شعور قد يجول بأفق القلب.. وكان هو من بادر بنبرة خافتة مجروحة:

- الدكتور طمني عليكِ.

وصمتها حرمه قاتل.. ملامحها الشاحبة جوابها كاف وهو عاجز عن رد فعل ملائم.. بل هل يوجد ما يناسب!

- طمني.. بس عاوز أطمن منك أنتِ!

وسحبتها منه.. جذبت كفها دون حدة من دفء ضمة أصابعه، وأشاحت بوجهها تنظر للفراغ بتشتت.. والعبرات الصامتة التي لم تلمحها عيناه غادرت مقلتيها كطوفان أهلك في طريقه أخضر روحها ويابسها..

يدها تتعلق ببطنها كأنما تود أن تحفر فيها فتضم جنينها أكثر.. ودموعها تسيل وتسيل وقلبها مفطور بين جنبيها.. مفطور بأنين اعتاد الصمت، اعتاد الاحتفاظ بالألم دون شكوى..

وتذبذبت أفكاره بحيرة، مد يده يعيد وجهها إليه وتنفس بصعوبة مع مرآه.. عجزه امتد للسانه أكثر فانحشرت الكلمات.. الاعتذارات.. التبريرات بحلقه..

ماذا سيبرر!

دفاعه واهن، والحكم عليه قاس.. فهو فقد ابنه، بل ويكاد يفقدها!

عن ماذا يعتذر!

عن موت طفله!.. أم عن حملها لجسده بأحشائها دون الروح!

ولو فعل!

فأي أحرف ستنصفه؟!.. أي كلمات ستواسيها!.. أي نبرة ستدواي جرحًا في القلب أعظم!.. ستجبر كسرًا في النفس أو ترتق شرخًا بالروح!

بل هل هو كافٍ؟!

هل له فائدة!

أم هو محض عبث مشتت يخرس به ضميره الذي ينهشه ويفترس كيانه بهاته اللحظة!

وسخر من أفكاره.. أي ضمير هذا الآن؟.. وبعد ماذا!

وكاد يتمتم بها عالية:

"دلوقتِ ضميرك صحي يا علي؟"

وأغمض عينيه عاجزًا مقهورًا.. عاد يمسك بيدها، يشد عليها، يمنعها استعادتها فربما من لمسة حانية تشعر باختلاج ذاته وضعفه وخوفه، رفعها

لشفتيها يقبل ظاهرها، وقلبها يلثم باطنها بحنان وهي لم تكن معه وجوارحه تهمس دون صوت:

"سامحيني"

بل كانت في عالم آخر موازٍ تلمح فيه طفلها بين يديها.. تلمحه بلا أنفاس.. بلا روح.. فوق رأسه تراب وقبره من وحدة..

"كانوا حلم"

همستها بنبرة دامعة جعلته يرفع رأسه إليها بحدة.. يراقب ملامحها وشرودها بعيدًا عنه كأنها لا ترى وجوده:

- كنت كل ليلة باسهر معاهم أحكي لهم على يومي.. عملت إيه!.. اتغدينا إيه!.. ولو أكلة دسمة أقولهم ما تزعلوش من ماما، كان نفسها فيها.

وتحشرج صوتها وغصته كبلت أنفاسه:

- كنت كمان باحكي لهم حواديت.. كانوا بيحبوا قوي حكاية سنووايت..

وفوق شفتيها خطت بسمة مريرة نفسها:

- بيحبوا الخيال زي مامتهم.

وحديثها بات فوق احتماله لكن أي قسوة تمنحه حق مقاطعتها وهي تشكو.. لمن!

للهواء!

هي حتى ترفض النظر إليه!

- كنت باحس بيهم.. لما بيخبطوني ويوجعوني وأضحك وأقول آه وأقولهم بالراحة على ماما.

وانهمرت دموعها بفيض أكبر:

- دقات قلبي كانت بتسمَّع مع نبضاتهم.. كانوا بيشاركوني فرحتي و.. حزني..

ورفعت عينيها إلى السماء بأنين روح معذبة:

- رضيت أكون رقم اتنين في حياة الإنسان اللي حبيته وما اشتكيتش.. وكنت مستنياهم يتولدوا..

وعضت شفتيها بألم:

- كنت هابقى رقم واحد في حياتهم هما.

ثم تنهدت بتعب وخفتت نبرتها حد الهمس:

- بس حتى الحلم.. كالعادة منقوص، دلوقتِ لازم أتحمل إحساسي بابني الميت جوايا..

وانتحبت وتحشرج الصوت فبات مختنقًا متوجعًا مجروحًا:

- أتحمل إحساسي إن قلبه خلاص ما بقاش يدق مع قلبي، لما أكلمه مش هيسمعني، مش هاقول أنتوا خلاص..

وأخيرًا تلاقت عيناها بعينيه..

حملت نظرتها بصمة موت، وهو.. كل ذنب!

- هاقول أنت بس.

وارتجفت شفتاها بضعف ومرار الدمع بينهما علقم:

- عارف يعني إيه يكون رحم الأم اللي هو رمز الحياة للطفل؛ يكون برده كفنه وقبره!

وضمت يدها الحرة المتشبثة ببطنها فوق نابضها المتباطئ:

- الأم عايشة.. وهو مدفون جواها!

وكان هذا أكثر مما يمكنه سماعه أو تركها تنطقه..

الويل له، الويل لقرار واختيار لم يكن قدْره.. الويل لضمير تراخى في التحذير ففقدت البصيرة نورها.. اعتدل في جلسته ليجاورها، وبقوة مال إليها ليضم رأسها وجذعها لصدره.. يحيطها بذراعيه بشدة حتى صدرت من فمها أنَّة خافتة وهي تريد الابتعاد لكن الاحتياج أشد..

وظل على صمته.. فأي حديث قد يجبر الكسر أو يرمم الشرخ!

أي حديث يمحو الوجع ويطيب الجرح!

أي حديث يعوض ما راح!

ضمها أكثر وأكثر.. وبكت هي وعلا صوتها والحيرة والضعف والوحدة يتنازعونها، تحتاج وترفض قربه وممزقة هي بين قرارين لا تملك القدرة على ترجيح كفة أحدهما..

فكيف تبتعد عمن هو كل دنياها!

وكيف تقترب ممن لا تجده بدنياها حين العوز!

وما بين وجود وغياب تمزقت أواصر القرب وتشتت روح تبغي السكنى..

***

وبين ضمة وضمة وهم الزمن..

فها هي ذي تقبع بين ذراعيه مرتجفة بقلب واجف وروح واجمة.. بعد قليل ستدخل لغرفة العمليات.. ستدخل وتخرج مع طفلها الذي أصبح وحيدًا..

وكان يضمها بحنو.. يتمتم بأذنها بكلمات مطمئنة.. ويربت برقة ويهدهد الخوف:

- إن شاء الله هتقومي بالسلامة وابننا هينور البيت معانا يا رؤى.

- خايفة قوي يا علي.

ورفعت إليه عينين دامعتين:

- خايفة يضيع مني هو كمان.

وجوابه احتضان أقوى وهمسة أحن:

- ربنا مش هيحرمك منه.. مش هيحرمنا من فرحتنا بيه، ادعي وهاستناكِ وأستناه ترجعوا لي بالسلامة.

ودقائق أخرى طالت حتى تسلل لأذنيه صرخات وليده..

وبينما تولد حياة.. كانت أخرى تنتهي!

وبعدما ضم طفله يؤذن في أحد أذنيه ويقيم الصلاة في الأخرى، ضم الآخر.. وواراه التراب.



الفصل السابع والعشرون

"على شفا الأمنيات تحيا الروح بالأمل"

صابرين الديب

***

الأمل بحياة البشر هو مولود ضئيل بلا ملامح واضحة أو توصيف معين.. أحيانًا يكون مولودًا بهيَّ الوصف ناعم الهيئة.. يمنحك فرحة الرجاء والتفاؤل.. وبأحيان أخرى يكون مشوهًا.. ناقصًا مبتورَ الملامح.. يثير بالنفس اليأس والقنوط..

الأمل؛ يعتبره البعض بداية.. قد تكون بداية حياة.. بداية حكاية.. بداية حب.. بداية مشاركة حقيقية بين أرواح معذبة بين حب وضمير.. بين شعور بالذنب وآخر بالفرح..

بين فرحة أم بمراقبة وليدها يعافر لينجو.. يتغلب على ضعفه ووهنه.. وشعور آخر.. بفقدان.. وجع.. كسرة أم حملت برحمها وليدها ميتًا لأيام وليالٍ، وبرغم كل التأكيدات على موته.. إلا أن أمومتها تمنت أن يفاجئها صغيرها ويُكذِب كلام أطبائها ويولد حيًا.. يتنفس ويقاتل مثل شقيقه لينال

حياة.. إلا أن القدر كان أكثر رحمة به.. فولد جسدًا ساكنًا ضمته لقلبها لدقائق طويلة، قبل أن يبعدوه عنها لينال ضمة أخرى من والده..

وبعدها يسكن لضمة القبر للأبد..

نالت رؤى كثيرًا من كلمات التعزية.. من ممرضات.. جارات كن يمزقن سيرتها من قبل ولكنهن للغرابة أتين لزياراتها وتناوبن لإعداد الطعام لها ومراعاتها..

تواجد علي بجوارها يشاركها بصمت وجعها وفقدانها لوليدها.. لطفلهما.. وكأنه انتظر وقوع الكارثة ليستشعر احتياجها له.. لوجوده.. وحنانه ومؤازرته..

دفعها على المقعد الطبي المتحرك ليذهبا معًا يراقبان طفلهما الوحيد من خلف زجاج غرفة الحضانات..

تشابك كفاهما بدون تخطيط وهما يلمحان الصغير وقد أزيحت من فوقه الفقاعة العازلة وبدأ يتنفس بدون الحاجة للأجهزة..

ذلك الصغير.. يمثل أملًا وليدًا بكل ما تعنيه الكلمة من معاني الجمال.. ذلك المخلوق الصغير المتكامل الرائع الجمال هو لهما..

ابنهما!



نظرة أمل يرمقه بها كلاهما.. بينما نظراتهما المتبادلة تحمل الكثير..

توتر نظرتها يقابله حرج نظرته، ولوم عينيها يتوسله ارتباك عينيه.. والذنب بعينيه يرافقه احتياجها لأمانه قبل حبه..

ساتر من الدموع اختفت نظراتها خلفه وهي تردد برهبة:

-كنت خايفة قوي أني ما أشوفوش.. كنت خايفة..

انحنى علي بجسده بجوارها وهو يقاطع كلماتها بكفه، يمنعها من الاسترسال بما يعذبها ويعذبه معها:

-الحمد لله.. ربنا كريم.. هيحفظهولنا وينجيه لنا..

ارتفعت نظراتها الباكية نحوه.. فأخفض بصره يهرب منها كعادته بالأيام الأخيرة.. ويسألها بتوتر:

-عايزة تسميه إيه؟

رفرفت بأهدابها تمحي دموعها لتتذكر أنها رفضت منح وليدها اسمًا، منذ مولده للآن وهي ترفض تسميته.. وكأنها تخشى أن يزداد ارتباطها به ليخطفه منها القدر كما حدث مع أخيه..

قطع نظراتهما صوت الممرضة المسئولة عن رعاية ابنهما وهي تخبرها بفرحة:

-على فكرة.. ممكن تدخلي ترضعيه النهاردة.. الدكتور سمح بكده..

هتفت بسعادة غامرة ونظراتها تتحرك تلقائيًا لتحط على الصغير:

-حقيقي!

أومأت الممرضة وهي تخبرها ببضعة تعليمات خاصة بالتعقيم حفاظًا على سلامة الصغير.. ورؤى تهز رأسها بسعادة وتفهم..

وعلي يراقب تلك الفرحة براحة ممزوجة بلهفة عفوية ترجمتها كلماته:

-ممكن أدخل معاها؟

ثم عدل كلماته بسرعة وكأنه خشي رفض رؤى لتواجده معها:

-ممكن يا رؤى؟

سألها بلهفة، توسل، احتياج ليقترب من أنفاس ابنه علَّه يتغلب على ذكرى دفنه للآخر..

مدت رؤى كفها لتعيد تشابك أناملهما وينطلقا معًا لرؤية ابنهما.. عن قرب تلك المرة..

وبداخل الغرفة المعقمة ضمت رؤى وليدها لصدرها للمرة الأولى..

إحساس لا يوصف وعيناها تلتهمان ملامحه كلها بنظرة واحدة.. تحفظها بقلبها عميقًا.. تقربه أكثر حتى تتشمم رائحته..

يالله.. هل توجد رائحة أروع!..

احتضنته أكثر.. تلك جنتها على الأرض بلا شك.. تشعر بأنفاسه الواهنة تداعب عنقها وكأنه يعلن عن انتمائه لها..

تبعده قليلًا لتتأمله ثانية.. إصبعها يتحرك ببطء متلمسًا كل ملمح من وجهه المتناهي الصغر.. دموعها تجري ولا تهتم بإيقافها وهي ترمقه بين ذراعيها، تتخيل نفسها تضم شقيقه معه.. تعود لتبحث بعينيها عن ملامح أخيه الراحل بين ملامحه التي لم تتشكل بعد.. تتنفس بعمق وكأنها ستجد رائحة الراحل ممتزجة برائحة الصغير الذي يبادلها النظر وكأنه يراها بالفعل..

راقب علي كل انفعال مر بملامحها مدركًا أنه لن يصل أبدًا لعمق الألم بأعماقها، فقلبه هو يكاد يتمزق فقط من مراقبة الصغير وتذكره للحظات دفن أخيه، فما بالها هي!..

من حملت وتحملت وعاشت وتمنت وحلمت بوجودهما معًا بين ذراعيها..

نزل على ركبتيه ليقترب من طفله يمرر أنامله بدوره على جسده الضئيل..

يقربها بخوف ممتزج بلهفة من رأسه، وجهه، والجسد المنمنم يرتعد للمسة الحانية كأنه يمنحه إشارة قبول وانتماء.. وتتقابل نظرته مع الصغير فيتنهد



الأب لقوة ابنه الواضحة بنظرته رغم هشاشه تكوينه.. يمنحه ابتسامة حماية وحنان.. وتمتد يده الأخرى يمحي بها دموع زوجته ويخبرها بتأكيد:

-هسميه بلال..

فتردد هي خلفه بتساؤل:

-بلال!

يحرك رأسه موافقًا وعيناه تعودان للصغير وكأنه يستشيره هو الآخر.. ويعاود الهمس:

-إن شاء الله هنرجع بيتنا قريب قوي ومعانا بلال..

وتغمض رؤى عينيها تحاول الاحتفاظ بصورتهم الثلاثة معًا في إطار واحد..

هو أملها البسيط.. أملها الوحيد.. أملها الذي ولد من أعماق خوفها وألمها.. وستتمسك به للنهاية..

***

الأمل قد يوازي بداية حياة.. أو بداية علاقة زوجية هادئة.. وتحقيق أمل بعيد منسي يتمثل بامرأة أرادها زوجة.. وضاع أمله.. مرة وأخرى.. واستبدله بزواج عاصف بابنة العم الفاتنة التي تجرع معها مر الخيانة الحقة.. وعلقم ستر العرض بدافع الكرامة والمظهر الاجتماعي..

والآن عليه تحمل شهورٍ من الشك والاحتراق بالغيرة وهو ينتظر ولادتها ليتأكد من نسب طفلها له..

رمق فراشه بنظرة متخمة وصوت المياه المتدفقة من الحمام يصله بوضوح وكأنه موسيقى تصويرية ترافق مشهد غرقه بزوجته الثانية.. موسيقى ذات أثر رجعي.. فمروة تركت الفراش منذ دقائق بعد ليلة أخرى ضاع بها بين ذراعيها..

لا يدري إن كان زواجه منها ترياقًا لكرامته المنتهكة على يد ابنة العم!.. أم هو عودة لحب العمر وتوأم الروح!.. أو ربما هو مجرد إشباع لرغبة يائسة ترمي بها لارا في وجهه بكل مرة يضعف أمام فتنتها!.. وتعود هي لتذكره باتفاقهما السري.. فيبتعد بخزيه دافنًا رغباته بين أحضان مروة المستعدة له دائمًا..

خرجت من الحمام وهي تخفي جسدها بمئزر ضخم وبيدها منشفة صغيرة تجفف بها خصلاتها القصيرة.. لتلتقي نظراتهما بالمرآة فتبتسم ابتسامة واسعة وهي تهتف به:

-صباح الخير يا حبيبي..

بادلها ابتسامتها وهو ينهض من فراشه ويقترب منها ليضمها من الخلف ويطبع قبلة دافئة على خصلاتها المبتلة:

-صباح الجمال يا حبيبتي..

التفت بين ذراعيه لتحيط جذعه بذراعيها وترفع عينيها له:

-أنا جهزت لك الحمام.. هستناك وننزل نفطر سوا زي كل يوم..

أبعدها عنه برقة بعد أن طبع قبلة أخرى على جبهتها:

-مش هلحق الفطار النهاردة.. لارا عندها متابعة حمل وهروح معاها..

لم يلحظ تجمدها لسماعها كلماته فهو تحرك للحمام سريعًا حتى يلحق بموعده مع لارا.. بينما شردت هي بغضب في جملته التي أخبرها بها ببساطة وعدم مراعاة لمشاعرها..

هي بالكاد تناست تجاهله المخزي لها بليلة زفافها.. وقضاؤه الليلة بغرفة غريمتها الشقراء..

جرحه لكرامتها وكبرياءها تلك الليلة لا ينسى..

لكنها اقتصت منه ببراعة..

أجادت دور الجريحة كسيرة القلب.. فعندما أتى لغرفتها بصباح زفافهما وجدها غارقة بدموعها بعينين حمراوين ووجه محتقن وثوب زفاف لم تخلعه عنها لتخبره بصوت مجروح منكسر أنها لم تستطع خلعه بمفردها!..

وعادت تنخرط بنوبة بكاء طويلة لم تنتهِ إلا بعد أن وعدها بتعويض وهدية مناسبة لعلاج جرح قلبها.. وهو الوعد الذي أوفى به كاملًا بعدما قدم لها

قلادة ماسية تتناسب مع خاتم زواجها كهدية صلح وتعويض عن بدايتهما المغلوطة..

اتسعت ابتسامتها وهي تفتح صندوق مصوغاتها تتأمل هداياه المتعددة.. وتزداد الابتسامة اتساعًا حينما تنقلت نظراتها بين القطع الماسية والفراش وكأنها تهنئ نفسها لقدرتها على التحكم به.. وحصره تمامًا بالدور الذي رسمته له بالبداية؛ العاشق الملهوف والمحبط بوضوح..

وهي ستكون الترياق الدائم لكل إحباطاته.. العاطفية والعملية أيضًا..

تلك خطتها الأصلية.. والتي ستتابع تنفيذها بكل نشاط.. فمكتبها الاستشاري الصغير بحاجة لمزيد من التمويل.. تمويلًا لن يبخل به زوجها الحبيب بعد أن تتخم عواطفه واحتياجاته بحبها وعشقها اللامحدود.. فقط عليها أن تبعده عن ابنة عمه الفاتنة.. الزوجة الأولى التي تحمل طفلًا أدركت بدهائها أنه غير مرغوب به.. رغم شكها الذي يصل حد اليقين بأن عادل يحترق رغبة بأم ابنه الشقراء المغرية، إلا أنها تمكنت للآن من السيطرة على رغبات عادل تلك وتطويعها وفق هواها هي..

والآن يجب أن تمنعه من مرافقة الشقراء لمتابعة نمو ابنه بأحشائها.. وستفعل..

هي تدرك تمامًا نقطة ضعفه وستنال الفوز عبرها..

شعرت بخروجه من الحمام وتوجهه لخزانة الملابس لينتقي ثيابه استعدادًا للخروج.. فتحركت بدلال وخطوات تدرك تمامًا تأثيرها عليه.. وأحاطت خصره بذراعيها وهي تهمس بغنج:

-وحشتني!

التفت لها بدهشة:

-لحقت أوحشك!!

لتتحرك ذراعيها ببطء تحيط عنقه وهي ترتفع على أطراف أصابعها تمنحه قبلة مغرية بالمزيد:

-أنت بتوحشني وأنت معايا..

وعادت تتطاول على أطراف أصابعها تحتضنه بدفء وهي تهمس:

-ما تسيبنيش يا عادل.. عايزاك معايا..

أدرك بسهولة الهدف من وراء حركاتها المغرية.. ولم يعترض على المزيد الذي تقدمه له بكرم حاتمي.. هي بالنهاية زوجته.. وهو لن يرفض تقربها منه.. غيرتها ومحاولتها منعه من مصاحبة لارا تصب في خانة مصلحته الرجولية تمامًا حتى لو ظنت أنها هي من تتحكم وتتولى القيادة.. فلتسعد بظنها ذاك طالما بالنهاية تمنحه ترياق رجولته وكبريائه..

حملها للفراش بعد أن هاتف عماد يأمره بمرافقة لارا وهبة لزيارة الطبيب النسائي ومتابعة حمل الاثنتين.. ولم يلتفت لتذمرات شقيقه الأصغر بكونه يرافقهما بكل زيارة على مدى الأشهر السابقة..

أغلق الهاتف بوجه عماد.. وأغرق نفسه بأمواج المتعة مع زوجته الجديدة..

وبسيارة عماد جاورته هبة وهي ترمق لارا الجالسة بهدوء في المقعد الخلفي للسيارة بقلق حذر.. ترتفع ذقنها بشموخ موروث ربما عن والدتها.. وتغلق عقلها عن جميع الأفكاروالذكريات المؤلمة والتي قد تسبب الإزعاج لطفلها الصغير..

تعاود الربت على بطنها بحنان ولسان حالها يخبر الجنين المختبئ بأحشائها أنها تحتمل فقط لأجله هو..

ستبقى لتنال له اسمًا ولقبًا وحقوقًا لا شك بها.. وبعدها!

بعدها سيعرف الجميع من هي لارا حقًا..

هي ليست تلك الخَنوع التي ترتضي بزوجة أخرى تشاركها زوجها.. ولو كان زوجها بالفعل لأشعلت نارًا بتلك المدعية.. التي تستعرض بوقاحة علاقتها بزوجها.. وحبه المزعوم لها..



فمع كل وجبة طعام كانت لارا تحتمل موقفًا استعراضياً للزوجة الجديدة وهي تطعمه مرة بيدها، وأخرى تتدلل بافتعال مقيت.. وثالثة وهي تحكي ذكريات حبهما المتين.. ورابعة وهي تهيم بنظراتها وتقص على الجميع حكايات شهر عسلهما الرائع..

تصرفات تحملتها لارا.. وستتحملها.. فقط حتى تضع حملها..

تعودت على غضبه الأحمق وغيرته الغبية.. شكوكه المجنونة.. وهواجسه التي يترجمها بمعاملة مهينة وتفضيل واضح للزوجة الجديدة..

تقبلت كل ما بدر منه.. وهي تشكره بأعماقها.. فهو نجح وبجدارة في القضاء على حب ظنته الأقوى..

له منها عظيم الامتنان؛ لقد قتل بها برعم الأمل..

منحها قوة اليأس لتستمر بالتحمل.. فقط بضعة شهور أخرى تحصد بعدها انتصارها..

***

والأمل بإصلاح حياة مهترئة.. زيجة تحتضر، تلهث بحثًا عن بضعة أنفاس تعيد لها الحياة.. حياة جديدة تتمثل في سعي جاد لرأب صدع عميق بين نديم وشهيرة.. وعمق الهوة التي تفصلهما يضاهي قوة حب عرفاه معًا ذات مرة.. حب دفع كلا منهما لمحاربة عاداته وأفكار الأهل والتقاليد ليرتبطا

بزواج بدأ بعنفوان وحيوية الحب الذي ربطهما ثم تدهور وانحدر مع اكتشاف عمق الاختلافات بينهما وضعف ذلك الحب أمام هوة الخلاف..

ورغم تمسك كلا منهما بروابط ذلك الزواج رفضًا للاعتراف بالفشل من ناحية.. ومن ناحية أخرى تمتعت شهيرة بالحرية التي امتلكتها كونها زوجة وصاحبة أسرة، فانطلقت بسفراتها ورحلاتها المتعددة بلا خوف من ألسنة المجتمع ونميمته.. حرية عاشتها وتمتعت بها تمامًا وكان مقابلها التنازل عن حلم الأمومة.. وهو ما ناسيها وقتها..

ولكن الآن.. وبعد مرور السنوات..

ترى العمر يجري بها.. تراه يضيع بين رحلة سفاري وعرض أزياء لمصمم شهير.. ترى نفسها أنثى بحاجة لطفل ينعش أمومتها.. ترى لارا بحملها الفاتن، هبة بحملها الوليد وتجد نفسها ترغب بتلك البذرة تنمو بأحشائها..

وكعادتها الواضحة الصريحة معه دائمًا واجهته بلطف:

-نديم.. أنا بفكر يكون لنا طفل..

ابتسم لها بحرج متعجب.. فهي طوال سنوات زواجهما لم يخطر الأولاد ببالها:

-طفل!.. عايزانا نكفل يتيم مثلًا؟

هزت رأسها نفيًا وهي تعلم بثقل كلماتها على رجولته:

-عبد الرحمن أخويا عمل شوية اتصالات.. وزمايله نصحوا بمركز لعلاج العقم في باريس..

صمتت للحظات وهي تلاحظ شحوب ملامحه ولكنها لن تتراجع.. ربما يمكنهما إنقاذ ما بقي من زواجهما.. ربما يربط ذلك الطفل الحلم بين قلبيهما من جديد..

أكملت بسرعة:

-إيه رأيك نسافر نجرب؟.. ممكن يكون في علاج..

أخفض نديم بصره أرضًا.. كلماتها توجع رجولته بشدة.. وقلبه ممزق مشطور بين حب يائس لا يرى له أملًا.. ولا يتقبله ضميره أو مبادئه.. وبين ولاء لزوجة حارب الدنيا يومًا من أجلها..

زوجة لها مطلق الحق بالتمسك بحلم الأمومة.. ومحاولة إصلاح زيجة تركت دنياها من أجلها..

وما بين حب يائس بلا أمل وبين انتماء لزوجة تحاول منحه أملًا بالغد؛ ينتصر صوت الضمير.. ويختار الزوجة على هوى القلب..

رفع بصره لها وبعينيه لمعت موافقته على التجربة.. فربما ينجحا تلك المرة.. وينالا بداية جديدة مغموسة بلذة الأمل!

***

والأمل أحيانًا يوازي الرجاء.. يرافقه.. ويمنح البصيرة رؤية متفائلة فرحة.. فلا أروع من أمل يأتي به مولود هو ثمرة حب والديه.. هو رمز لنجاح أمه في اقتناص قلب أبيه من ظلمة ويأس كاد أن يقتله حيًا ليلحق بشبح محبوبة راحلة..

طفل يمثل بداية حقيقية لحياة عاشقين قررا محاربة الماضي بآلامه ومخاوفه والانتصار لحبهما الوليد.. ولكنه من العمق والقوة ليمنح بسمة القوة لمواجهة صلاح ومحاربته هو شخصيًا لتنال قلبه وعقله معًا.. وقوة حبها دفعت صلاح لمحاولة التغلب على مخاوفه ورهاب الفقدان الذي ألم به وتسبب بحرمانه من معايشة الشهور الأولى لحمل بسمة..

ولكنه حارب رهابه وحاول القضاء على مخاوفه لينتصر على عناد بسمة ويرافقها بشهور حملها الأخيرة.. وهما حاليًا ينتظران لحظة المخاض بأقرب وقت..

وكزة خفيفة بكتف صلاح رافقها نداء بسمة الخافت:

-صلاح..

-إممممم

وكزته بعنف تلك المرة:

-صلاح اصحى أنا بولد..

ولو وخزته بصاعق كهربي لم يكن لينتفض بتلك الطريقة.. لتجده بمنتصف الغرفة يدور حول نفسه بجنون.. يسحب حقيبتها التي أعدتها منذ فترة بيد.. وبالأخرى يتناول ثوب حملها الفضفاض.. ويركض خارج الغرفة ساحبًا الحقيبة خلفه.. ثم يعود ليمنحها ثوبها ويندفع ثانية خارج المكان يطرق باب غرفة حبيبة ومازالت حقيبتها تتقافز على عجلاتها الصغيرة خلف خطواته المرتعبة..

كانت تراقب تحركاته الخرقاء وتحاول كتم ابتسامة متسلية تجاهد لترتسم على شفتيها.. فلم ترغب بإشعال المزيد من جنونه.. وبأي حال لم تكن تتألم بشدة.. فقط عدة انقباضات على فترات زمنية متساوية وإن كانت بعيدة نوعًا..

وأخيرًا وصلوا للمشفى.. وتم حجز بسمة بالفعل بإحدى الغرف بعد التأكد من أنها دخلت المخاض حقًا..



راقب صلاح بنظرات وجلة خطوات تجهيزها للولادة.. تركيب المحلول المغذي وقياس الضغط وقياس مدى اتساع عنق الرحم.. لتطمئنه الطبيبة بالنهاية..

- إحنا لسه قدامنا وقت.. ارتاح يا أستاذ صلاح..

يرتاح!.. وأنى له الراحة وهو يرى ملامحها تنقبض متألمة.. وهي تكافح لتخفي عنه ألمها.. وكأنها ترحم مخاوفه وهواجسه، كعادتها تفكر به أولًا قبل حتى أن تقلق على حالتها..

جاورها بفراشها وهو يتناول كفها يلثمه بحنان:

-تعبانة؟

همست بخفوت:

-عادي يا صلاح دي ولادة.. كل الستات بتولد..

وافقها بتردد وقبضة خوف عنيفة تعتصر قلبه.. وتلك المرة كانت مخاوفه بمحلها تمامًا.. فساعات النهار مرت كلها ونصف ساعات الليل أيضًا ومازالت بسمة تتألم وتحاول الاحتمال وإن كان الألم قد تزايد بشدة فلم تعد قادرة على كتمانه وبدا واضحًا على ملامحها المرهقة..



وبدأ صلاح يفقد تماسكه ومعه أعصابه التي احترقت قلقًا فارتفع صوته هاتفًا:

-أنا عايز الدكتورة بتاعتها.. فين الدكتورة؟..

فتحاول الممرضة تهدئته:

-اهدى بس يا صلاح بيه.. الدكتورة في الطريق.. هتخلص العيادة وتيجي..

زادت كلمات الممرضة من عصبيته خاصة وهو يراقب مساعد الطبيبة يدفع بأحد العقاقير بمحلول التغذية الخاص ببسمة.. فاندفع نحوه متسائلًا:

-أنت بتحط لها ايه؟.. فهمني..

والطبيب حديث التخرج يحاول تهدئته بكلمات بسيطة:

-اطمن يا فندم.. دي حقنة علشان نحمي الطلق..

وقبل أن يعترض صلاح عاجله الطبيب:

-الدكتورة على وصول وهي اللي أمرت بكده..

وصلاح يكاد يجن.. لا يفهم لم لا تلد!..



مرت أكثر من ثمانية عشر ساعة وهي بحالة ثابتة.. تتألم بصمت.. وأحيانًا كثيرة تفقد قدرتها على التحمل فتضغط كفه بقوة وكأنها تنفس عن ألمها كله بتلك الضغطة..

وأخيرًا وصلت الطبيبة وبعد فحص سريع لبسمة.. بدا التوتر واضحًا على وجهها وهي تنهر مساعدها وتأمره بسرعة تجهيز غرفة العمليات..

وعند تلك الكلمة فقد صلاح أعصابه وصرخ بالطبيبة:

-عمليات!!.. ليه عمليات؟.. دي بتتعذب بقى لها عشرين ساعة.. سيبتيها ليه تتعذب طالما ناوية على العمليات!!

التفتت له الطبيبة تحاول تفسير الأمر بكلمات سريعة لم يفهم منها شيئًا فقد تكرر بعقله كلمات ترددها الطبيبة..

"حلقة باندل".. "سرعة التصرف".. "الرحم ينقبض بقوة وهناك خطر انفجاره".. "يجب إخراج الطفل بسرعة"

وأخيرًا الجملة التي قضت على تماسكه..

"خطورة على حياة الأم"..

لم يعرف كيف صمد الدقائق التالية حتى دخلت أخيرًا لغرفة العمليات.. وقتها انهارت مقاومته وتكالبت عليه كل مخاوفه دفعة واحدة؛ فقدانها

بعدما امتلكت القلب والروح.. فقدان طفله بعدما بدأ يتعلق به ويرسم له الأحلام ويخطط للمستقبل.. الحياة من بعدها هي صحراء بلا ونيس ولا صحبة.. قاحلة جرداء بلا قلب دافئ ينبض له حبًا وينتفض عليه قلقًا!!

لم يتحمل خيالات وحدته وغلبته دموعه لتسقط قطرة تلو الأخرى..

كل دمعة تحكي قصة حبه.. خوفه.. احتياجه لوجودها ووجود ابنه.. كانت الدموع نوعًا من العذاب الحلو..

فالعذاب لرجولته التي تبكي بلا حياء ولا خجل والحلاوة تكمن في راحة تمنحها الدموع....

وبعد أكثر من نصف ساعة.. خرجت الممرضة تحتضن لفافة بيضاء صغيرة ومن بين طياتها لمح ذلك الكائن الصغير وهو يفتح فمه بلا هدف سوى ربما التمتع بطعم الحرية خارج جدران رحم أمه..

وضعت اللفافة بين يديه ليصدح بكاء الصغير مجلجلًا ومعلنًا عن قوة رئتيه.. قربه من صدره قليلًا فسكن بين يديه وكأنه أدرك أن ذلك الرجل هو أمانه وحِماه..

وصلاح يتأمله بتيه.. يحرك الغطاء ليرى ملامحه فتشتبك يد الصغير بإصبعه، تقبض عليه بقوة.. قوة نفضت قلب صلاح بين ضلوعه.. قوة دفعته ليستفيق من حالة الضياع والرعب..

فيؤذن بأذن صغيره اليمنى ويقيم الآذان في اليسرى..

يقولون أن الأمومة غريزة.. والأبوة تكتسب.. وبتلك اللحظة اكتسب صلاح لقب أب بل منح له بجدارة..

استفاق على هتاف الممرضة السعيد:

-الست بسمة زي الفل.. ساعة وهتكون في أوضتها..

والحمد والشكر لك يا الله.. حفظتها لي وأنعمت عليَّ بنعمة وجودها بحياتي.. نعمة لن أبخسها حقها.. ولن أعرضها لمزيد من الخطر ثانية..

كانت تلك أفكار صلاح وهو يحمل ابنه منتظرًا خروج بسمته..

برعم أمله الدائم..

وبينما يمنح صلاح معنى الأبوة بأسمى معانيه كان نبيل بمشفى آخر يحمل مولوده بين ذراعيه بمشاعر باهتة لا يعرف ماذا يفعل به أو كيف يتركه لأم مثل صفية اعتادت التفريط.. ولم تعرف يومًا معنى الشرف!!

بين ذراعيه برعم أمل يرمز لبداية جديدة..

بداية يتمنى أن ينالها.. أو توافق هي على منحها له..

***



الأمل هو خيط رفيع واهٍ تتعلق به الروح أحيانًا خوفًا من السقوط بهوة اليأس.. بقاع الضياع والاعتراف بخسارة لا تعوض.. خسارة اختبرتها أمنية بكل الطرق.. فخسرت نفسها، احترامها لذاتها، احترام شقيقها وتعاطفه، حتى مجرد السؤال البسيط عنها امتنع عنه..

توأمها وشريكها بظلمة رحم أمهما عقد خطبته ولم يكلف نفسه حتى عناء إخبارها!..

وكأن عقارب الساعة تدور بها.. وتُحشر هي بزاوية كانت تحتلها سمية قديمًا.. زواية التجاهل والإهمال..

وتدور رحى الزمن لتطالها قسوة شقيق الروح.. وياللعجب تمنحها سمية ربتة العطف والحنان كأنها لم تنل منها أذى أبدًا.. وكأن وجعها النفسي والجسدي لا يكفيها فيأتي عذاب الضميروألم النفس لجحودها السابق لينهش بأعماقها مسببًا لها حالة من اليأس بكل شيء..

وها هي جالسة بركن أريكتها ككل ليلة تقلب بين قنوات التلفاز.. تنتظر عودة زوجها المحترم والتي لن تكون إلا قرب الفجر.. بعدما ينتهي من سهرته مع أصدقائه كما أخبرها ويخبرها كل ليلة.. وعندما اعترضت مرة.. قام باستضافتهم بالمنزل مما جعلها تغلق غرفتها عليها طوال الليل وهي ترتعد خوفًا وفزعًا..

وبينما هي شاردة بذهنها عما يعرضه التلفاز فوجئت بعودة أسامة المبكرة.. فالساعة لم تتعدَ العاشرة!

وما زاد من مفاجأتها تلك الأكياس واللفافات بين ذراعيه!

رمقته بدهشة وهو يُعد المائدة ويهتف بها:

-يلا يا أمنية.. أنا جبت عشا معايا.. قلت أريحك الليلة..

اتسعت عيناها ذهولًا وهي تستمع لكلماته التي أتبعها بسحبها للمائدة وإجلاسها لمقعدها، بل إنه كان يطعمها بيده.. وهي مازالت غارقة بدهشتها!

فأسامة الذي أوقعها بحباله في بداية خطبتهما عاد من جديد.. بكل رقته ومراعاته لها.. بكل حنانه ودفئه المختفي منذ شهور..

سمعته يخبرها برقة وهو يطعمها من طبقه:

-تعرفي يا موني!.. أنا يوم ما جيت أتقدملك.. كنت نويت أتوب وأستقيم وأفتح بيت بقى..

أومأت بصمت وهي تتابع كلماته فأردف:

-أما لقيتك بتسمحي لي أقرب، اتضايقت قوي.. بس رجعت قلت صغيرة وما عندهاش خبرة.. بس بعد ما سلمتيني نفسك.. خلتيني أحس أنه مافيش بنات محترمين.. وأني ما ينفعليش توبة ولا استقامة..

قاطعته بغضب طفيف ممزوج بلوم:

-أنا صدقتك أما قلت لي أنك جوزي وإن اللي بنعمله طبيعي..

سخر منها بلطف:

-تؤ.. تؤ.. تؤ.. قولي كلام معقول يا موني..

هزت رأسها بيأس.. فلم يسمح لها بالكلام:

-خلاص يا موني.. إحنا ولاد النهاردة.. ودلوقتِ عندنا ابننا لازم نفكر في مستقبله وحياته.. ده أهم حاجة.. صح ولا إيه؟

وافقته بهزة رأس خفيفة فنهض ليطبع قبلة رقيقة على جبهتها.. لتتحرك شفتاه تجوبان ملامحها برقة ويرفعها بين ذراعيه لتغيب معه في موجة حب ناعمة ذكرتها بأيام الخطبة حين كان يعاملها كتحفة كريستالية ثمينة..

تنهدت بسعادة وهي تستلقي بين ذراعيه تتمنى أن تجد بالفعل أمانها وأملها معه.. أن يكون عاد لطريق الصواب وقرر مشاركتها ببداية جديدة تتضمن وجوده المؤثر معها هي وطفلها.. وكأنها تريد التأكد:

-أسامة؟..

غمغم بكسل:

-أيوه يا موني..

سألته بلهفة:

-أنت مش هتزعلني ولا تزعل مني تاني؟

اتسعت ابتسامته وهو يراها تمنحه هدفه الأساسي.. تضعه بين يديه بسذاجة حمقاء:

-أنا ما يهمنيش غيرك أنتِ وراحتك يا موني.. وبالمناسبة دي.. هو طبيعي أن أختك تعيش في شقة طليقها؟.. هو وهي في بيت واحد!

حركت أمنية رأسها بحيرة:

-أومال سمية هتروح فين؟.. الشقة دي تقريبًا ميراثها من سعد الله يرحمه

هتف بغضب مفتعل:

-يعني إيه تروح فين!.. الناس تقول علينا إيه وهي داخلة خارجة مع طليقها!.. لا يا موني.. سمعة أخت مراتي تمس سمعة مراتي وابني.. أنتِ تقوليلها تيجي تعيش هنا.. وأهو بيت أختها أولى بيها!

هتفت بعدم تصديق:

-أنت بتتكلم جد!

أكد بحماس:



-طبعًا جد.. أنا يهمني صورتك قدام أهلك وقدام الناس.. وأهو بالمرة تساعدك في شغل البيت والطبيخ..

هزت أمنية رأسها وهي تهتف:

-سمية بتساعدني من غير حاجة.. أنا عايزاها تيجي تقعد بس معايا.. الله يا أسامة لما يكون بيتي هو بيتها وما نتحوجش لخالتي وجوزها تاني..

داعب خصلاتها وابتسامته تتسع:

-طبعًا بيتك هو بيتها.. أنتِ تؤمري يا موني..

والشيطان يحكم خطته تمامًا ليطبق شراكه على فريسته الغافلة..

تلك التي قرر اشتهائها فجأة بعدما أصبحت مطلقة بلا رجل.. أو زوج.. وقرر هو أن يصبح رجلها.. وزوج شقيقتها بذات الوقت..

وبجواره تغفو أمنية وهي ترسم بخيالها صورًا متعددة لها ولشقيقتها، تعيشان معًا، تتشاركان وجبات الطعام التي غالبًا ما تتناولها وحيدة.. تشاركها ذكريات والديهما البعيدة وآمالها بشأن طفلها القادم..

تكون لها عائلةً..

بداية صحيحةً لكليهما وأملًا واهيًا تتمسك به بكل قواها.



وتتعدد المرادفات للأمل، فأحيانًا يرادف الرجاء، التفاؤل، البداية..

ولكنه دائمًا وأبدًا يتضاد واليأس!

فاليأس هو الشعور المعاكس لفكرة الأمل بكل اتساعها..

اليأس يرافق الإحباط.. القنوط.. النهاية المرسومة بفرشة ألوان لا تعرف إلا السواد لونًا..

واليأس هو من تحكم بخطوات ريم وهي تهبط درجات السلم.. تتطاير أقدامها من شقة والدها لتصل لباب شقتها..

شقة علي.. حصن أمانها.. ومتراس طمأنينتها..

كلمات والدتها تتردد بعنف في خلفية عقلها فتهز رأسها بجنون رفضًا لتلك الكلمات..

"رانيا اتطلقت.. وهترجع مصر قريب.. ممدوح هينزل معاها عشان يوصلها"..

لم تكن تلك كلمات.. بل طلقات مسمومة لم تعرف والدتها أنها أصابتها بمقتل.. أنها أهلكتها ذعرًا واشمئزازًا.. وكأنها أعادت لذهنها كل همسة، ولمسة دنست جسدها وحولتها لدمية مهمتها الوحيدة الخضوع لممدوح ومنحه ما يريده صاغرة بصمت مرغم..

دارت وسط شقتها بتيه.. ضياع..

لا تعرف أين تختبئ.. أين تهرب.. هل تجد المفر؟..

وسيلة لتختفي قبل عودة الحقير!..

لا ترغب بالعودة لوضع جارية رغباته.. لن تتحمل أن يلمسها مجددًا.. ستقتله، بل ستقتل نفسها أولًا فهو سيطاردها حتى لو كان شبحًا غير مرئي.. سيعرف كيف يصل إليها وسينالها ثانية..

ووقتها ستفقد علي..

سيضيع منها بعد أن يعرف أي وضيعة مقززة هي!..

خوف قاتل يتلبسها وحالة من الذعر تغرق بها ولا سبيل لإنقاذ.. وأخيرًا تناولت هاتفها لتضغط أرقامًا لا تعني لها إلا الأمان..

اتصلت بعلي..

ثم دلفت لدورة المياه الملحقة بغرفتها لترمي نفسها بحوض الاستحمام وتفتح المرشاش لتتساقط المياه المثلجة على جسدها، فيغرق رأسها وشعرها بالماء وهي لا تشعر، تتبلل ملابسها وهي لا تهتم..

فقط تريد التطهر من تلك اللمسات التي عادت تشعر بها من جديد وكأنه لم يعتقها منذ سنوات..

وكأن ذكرياتها كانت تسبح خلف باب أوصدته هي بقوة فأتى خبر عودته ليحطم ذلك الباب بعنف وتتدافع ذكرياتها، تتدفق بقوة لعقلها تكاد تغرقها كما غرق جسدها تمامًا تحت رشات المياه الباردة..

وعلى درجات السلم كان علي يقفز كل درجتين معًا ليصل لشقته وعقله يصور له آلاف الصور القاتلة لما يمكن أن يكون وقع للمعشوقة.. مكالمتها له منذ دقائق تهتف بصوت مبحوح ومنكسر..

"الحقني يا علي"..

جملة واحدة أخبرته بها وأغلقت الخط لتتركه وسط هلاوس مرعبة وأفكار مدمرة لعقله.

فترك عمله وقاد سيارته مخترقًا جميع الإشارات المرورية ليصل لشقته في وقت قياسي، يبحث عنها بلهفة ولا يجد لها أثرًا.. ينادي اسمها بقلق.. ولا استجابة.. يكرر النداء بذعر وقد انهار كل تماسكه..

وأخيرًا يصله صوت المياه المتدفقة فيتحرك سريعًا بأثرها ليجد ريم!

جالسة بحوض الاستحمام بكامل ثيابها تحت سيول المياه الباردة التي بدأت تصل لحافة الحوض وهي بحالة غياب كلي عن الواقع.. عيناها شاخصتان للأمام وكأنها غابت في زمنٍ ما.. وكفيها تتحركان بجنون على كل شبر بجسدها..

تفركه بقوة.. بغيظ.. بكره..

ناداها مرة بتوجس فمظهرها كان مخيفًا.. وهو لا يعلم ما بها!.. ولم تجبه.. هي حتى لم تحرك رأسها نحوه وإن بدا من رمشة سريعة لعينيها أنها سمعته..

اقترب وناداها ثانية.. ولكنها لم تأبه.. فقط استمرت بفرك جسدها بكفيها بحركات خرقاء متتابعة وكأنها تتعمد سلخ جلد يديها وربما تمزيق ملابسها ومعهم جلدها بأكمله..

لم يجد مفرًا من الهتاف بقوة مناديًا باسمها.. فالتفتت له للحظة واحدة ثم عادت تكمل فرك جسدها وشفتيها تتمتمان بكلمات لم تصل لأذنيه بفعل هدير المياه حولها..

حسم قراره واقترب منها لينتشلها من وسط المياه ويتحرك بها نحو فراشهما، يضعها برفق.. ويتناول أقرب منشفة محاولًا تجفيف شعرها إلا أنها تدفعه عنها بعيدًا وعيناها ترمقانه بنظرات هي خليط من الرعب والتوحش.. نظراتها تزيد من حيرته فيهمس بصوت حاول جعله هادئًا..

-ريم.. في إيه يا حبيبتي؟..

ويتآلف عقلها مع صوته الحنون فتنهال دموعها بلا توقف.. بلا صوت.. ولا تفسير..

هي تراه أمامها.. وبعقلها ترى الآخر.. ترى انتهاكها.. ترى كشف سترها.. ترى فقدانها لعلي.. حبيبها الوحيد.. ترى رفق نظراته يتحول لقسوة.. ترى رقته تتحول لوحشية.. حنانه يصبح هجرانًا وفقدانًا..

ترى كل ذلك بعين خيالها..

ترى النهاية تقترب وصورة الآخر تحتل كل عقلها.. وصوتها محبوس مخنوق ومقتول بجبروت التحكم والإخضاع..

وعلي يراقب ذعرها.. ضياعها.. حيرتها.. يكاد أن يفقد عقله لما يراه أمامه من انفعالات تجري على ملامحها..

يحاول الاقتراب ببطء.. يربت على وجنتها برقة.. يمسح دموعًا فتنهال أخرى.. يرى ارتجاف جسدها.. سرعة لهاثها.. رعشتها التي تزداد بكل ثانية..

-ريم.. قومي غيري.. جسمك بيرتعش وهدومك غرقانة..

ولا إجابة.. فقط تحتضن نفسها بذراعيها وتزداد رجفتها وتتحرك رأسها بحركة رافضة.. ولا يعرف ماهية الرفض..

ولا مفر من محاولة التصرف، فيتحرك ليأتي بعدة مناشف وقطع ثياب جافة.. ومع أول محاولة منه للمسها وتغيير ملابسها تنطلق صرخاتها بلا توقف..

كانت تصرخ.. وتصرخ..

تصرخ وتحرك رأسها رفضًا بجنون..

تصرخ وتصارع أشباحًا وهمية..

تصرخ وتبعد يده المترددة كلما حاول الاقتراب ليضمها..

تصرخ ونشيجها يدمر أعصابه.. يحطم قلبه.. يزيد من حيرته وجنونه.. وصراخها لا يتوقف وحركات كفيها عادت تفرك بثيابها بهوس.. ودموعها تغرق وجهها رغم أن عينيها توسعتا بهذيان كاد أن يصل للجنون لولا هتاف علي الموجوع:

-ريـــــم.. كفاية.. كـفايـــــة..

ومع ارتفاع صوته بنهاية كلماته صمتت ريم فجأة وبادلته نظرة ذبيحة ثم سقطت فاقدة لوعيها..

رمق جسدها الساكن بذهول.. واستغرق لحظات غارقًا بحيرته قبل أن يبدأ في تغيير ملابسها المبتلة لأخرى جافة.. ويقرر حملها للغرفة الأخرى ذات الفراش الجاف..

خطوة وأخرى.. ليشعر بقدمة تدهس شيئًا صلبًا تحتها.. وبنظرة واحدة لذلك الشيء أدرك كنهه على الفور..

فتحركت نظراته لوجهها الشاحب.. وجسدها الخامل تمامًا وتنهد بوجع.. وهو يظن أنه علم سبب حالتها المجنونة تلك..

بعدما أرقدها في الفراش الجاف.. عاد للغرفة وتناول شريط الدواء ذو الأقراص الحمراء والتقط هاتفه ليتصل بطبيبتها ويخبرها بيأس عما حدث للتو..

وينهي كلماته بصوت مختنق:

-ريم رجعت للترامادول تاني..

وسقط الأمل صريعًا..

الفصل الثامن والعشرون

لكن شيئًا من رحيق الأمس ضاع..

حلم تراجع..! توبة فسدت!.. ضمير مات!

ليل في دروب اليأس يلتهم الشعاع..

الحب في أعماقنا طفل تشرد كالضياع..

نحيا الوداع ولم نكن..

يوما نفكر في الوداع..

"فاروق جويدة"

***

بين الضياع والضلال شعرة واهنة.. سور قصير تترقب سقوطَك خلفه هوة اليأس.. التيه.. هوة بظلام نهاية غير مدرَكة.. أو متمناة!

وبين الضياع والعودة صراط مستقيم كحد السيف.. أدناه جحيم مستعر، وآخره جنان النعيم.. لتعبره عليك بالجلد، بالقوة.. بالصبر والأمل..



وأخيرًا بعد الضياع لا تنتظر سوى فقدان الذات.. خسارة العقل.. والهزيمة في معركة الحياة الأزلية، بين صواب القرار، وسوء الاختيار..

وطامة كبرى أن يكون الاثنان خطأً يجاور الخطيئة بذنب!

هو اتخذ القرار لأجلها، اختار لأجلها.. منح أخرى اسمه لأجلها.. لأجل طفل تتمناه وتحلم به، لكنها هي من رفضته في النهاية، لفظته خارج حياة جمعتهما سويًا..

لفظته خارج جنتها التي كانت هي مأواه ومستقره الآمن، وبعدها بات شاردًا في بقاع غيرها دون أن تفتح بابها له من جديد.. دون أن تمرر وسيلته لأجل غاية هي الأهم.. دون أن تتقبل المبرر وتعود.. تسامح.. تحنو.. وتحتوي خوفه بفراقها..

ضائع هو دونها.. تائه بلا سبيل، فقد طريقه وخريطة الوصول، ولم يعد بيده سوى بطاقة أخيرة سيقدمها لها..

حلمًا تمنته وهو دومًا ما كان يحقق أحلامها!!

طرق الباب بلا تردد.. مرة، ثانية وثالثة حتى استجاب له ابن عمه والدهشة تعلو ملامحه خلف تأمل متسائل!.. فنبيل يقف أمامه، يحمل لفافة صغيرة ساكنة تحتوي جسد طفله المولود.. يقف بأعين حائرة ومُقل تدور في كل اتجاه وتكاد تقفز من فوق كتفه بحثًا.. عنها!

- حبيبة فين يا صلاح؟

وصلاح -الذي عاد بزوجته بالأمس من المشفى بعد ولادتها مصرًا على أن تقطن بمنزل أمه ليكون إلى جوارها مادامت ترفض العودة لمنزلهما في الوقت الحالي- تجمد في المقابل، لا يملك جواب السؤال.. أو بالأحرى لا يملك حرية منحه الجواب خاصة مع غضب شقيقته وحزنها:

- أنت عاوز حبيبة في إيه؟!

وكاد يدفعه للداخل وعيناه تتوسلان منه السماح ولعابه كحجر رقد بحلقه.. ثقيل موجع:

- خليها بس تكلمني.

وتشتت نظراته من وراء ابن عمه الذي يسد مدخل المكان بجسده:

- أنا متأكد إنها هتوافق ترجع لي المرة دي.

وأسقط بيد صلاح وهو يرقبه بذهول..

والخلل يظهر بالصورة ويشوشها فباتت مبهمة غامضة غير مفهومة، وبخلفيتها تعالى صوت الرضيع ببداية بكاء.. بكاء ضعيف أشبه بمواء قطيطة وليدة كأنما يمنح المشهد اكتماله ويلعب على وتر الأب الجديد الذي رمق الصغير بشفقة:

- عشان خاطري يا صلاح.. خليني بس أكلمها المرة دي.

ولم يكتف بالمطالبة تلك المرة، اندفع بجسده دافعًا أمامه ابن العم، وصوت الطفل يتعالى أكثر محطمًا هدوء المكان حتى خرجت على إثره بسمة مندهشة.. فمن يبكي وابنها معها بغرفتها!

وتلا ظهورها خروج حبيبة هي الأخرى وعلى وجهها ابتسامة واسعة:

- بسمة سكتي ابنك.. البيت بقى مورستان.

وتجمدت البسمة والنظرة وارتجفت الشفاه عندما تلاقت الأعين..

عاتبة.. ورافضة..

متوسلة.. وقاسية..

واهنة.. ومكذبة..

- أنت بتعمل إيه هنا!

وسقطت عيناها على اللفافة وهو لم يمنح جوابًا أو حتى فرصة لسؤال آخر.. بل ركض إليها، يرميه بين يديها.. وبلهفة النبرة والملامح والجسد تشبث بكفيها وفوقهما صغيره:

- أنا جيت عشان أجيب لك ابننا يا حبيبة..



وعم الصمت الذاهل المستنكر المكان إلا من بكاء الرضيع الذي يمزق نياط القلب، انقطع صوته وبُح وهو يعلو به وما من مجيب..

فبينما ناظره صلاح بانشداه قلق.. كانت بسمة تنظر بتردد وحيرة، وحبيبة ذهولها تمازج بغضبها وهي تمد يديها نحوه بالطفل.. تمد ذراعيها بامتدادهما إليه، تهز رأسها برفض.. تهزه بعنف.. بخوف.. بشبه جنون:

- لا.. لا..

وأغمضت عينيها تبحث عن مهرب من وجوده حولها:

- أنت أكيد مجنون..

واختلط الحابل بالنابل بعقلها..

هذا كله عبث.. محض عبث أو خبال!

زوجها السابق سيصيبها بلعنته.. بلوثة لا نجاة منها، والصوت يعلو والصغير ينتفض بين يديها.. وهي ستصرخ.. حتمًا ستصرخ:

- مجنون أو عاوز تجنني.

واندفعت نحوه تلقي بابنه فوق صدره ورغمًا عنها تعلقت مقلتاها بضعفه، بجسده الضئيل.. بحاجته التي يبكي لأجلها ولا تفهمها هي..

ولم تقاوم سيل العبرات يحفر أخاديد ألم جديدة بوجنتيها، لم تقاوم سيوفًا تطعن قلبها فينزف بتوازٍ قاتل مع دموعها.. لم تقاوم الأنين والوجع وآهة شبه صارخة شجت حلقها وصدرها وهي تحيط جسدها بذراعيها في تيه..

تدور بعينيها في المكان بشبه جنون.. تكاد تسقط ولا تدري ما يدعمها ويقيم بدنها بوضع ثبات مهتز!.. وتدور.. تدور أكثر وتبكي وهو ضائع حائر لكنها تصلبت أمامه في لحظة والبكاء يزلزل مسامعها:

- رجعه لأمه حرام عليك.. رجعه لأمه.

والخطوة التالية كانت من بسمة التي تقدمت تقتحم دائرة المعركة، تلتقط اللفافة من بين يدي نبيل.. تضمه إليها وتشير لزوجها أنها ستعتني به.. والأب لم يشعر، بل نظراته تتعبد بمحراب قاتلته التي ضاع منها.. أو ضاعت منه، وبالختام فالخسارة واحدة..

هو فقدها، وهديته هذه المرة لم تفلح بردها إليه!

- رجعه لأمه.. رجعه لأمه..

كانت ترددها بضعف وهي على وشك انتكاسة أخرى، أخيها يقف بمكانه متجمدًا يحاول الفهم والعجز هو نصيبه.. والزوج السابق لا يزال يسعى

ويبذل الجهد دون إدراك أن جهده ما هو إلا مزيد من بنزين فوق نارتأججت وارتفع لهيبها حد السماء..

- أرجعه إزاي يا حبيبة؟.. باقولك ابننا.

وكان يتقدم نحوها، وأخيرًا انتبهت من تيهها ترمقه بحسرة أخرست كل منطق وعقل، بل تصرخ فيه وصوتها لا يكاد يبارح حلقها الموجوع:

- مش ابننا.. مش ابننا.

ودارت حول نفسها مجددًا:

- رجعه لأمه.

وتعيدها ضائعة.. ويتعلق هو بأذيال أمل كاذب مشوه.. مريض:

- أمه دورها انتهى لحد كده يا حبيبة.

وتحرك خطوة أخرى ومن خلفه وقف صلاح يحلل الموقف العبثي باحثًا عن استنتاج.. عن حل:

- هي اتنازلت عنه.. ده هديتي ليكِ.

هديته!!.. وطعنة الكلمة فجرت نزف كلمات الوجع فصرخت بلا وعي:

- هديتك!!.. أي هدية بتتكلم عنها!!.. هااه!!.. فهمني...

وأنامله تتحرك بتوسل أمامها ولكنها تستمر لا تأبه:

- هديتك اللي حولتني لحكاية على ألسنة الناس.. حولتني لست مطلقة اتمردت على كرم جوزها المسكين..

ضربت صدرها بعنف هاتفة باختناق:

- المطلقة اللي ما بتخلفش.. الست اللي ما عجبهاش أن جوزها يكون له ابن.. بعد يا حرام ما صبر سنين على عقمها..

نشجت رغمًا عنها والأحرف تعاند حلقها بجرح:

- الآية اتقلبت والصورة اتعكست.. والجاني بقى ضحية.. والظالم بقى هو الصابر المضحي.. وأنااا

هتفتها بجنون وكررتها بصراخ:

- أنااا بقيت جاحدة وناكرة لجميلك!

رفعت عينيها للأعلى وكأنها تشكي للسماء:

- ماحدش قدر الجرح ولا الوجع ولا حد فاهم أني عشت سنين بأشحت اهتمامك.. بتوسل إعجابك بيَّ.. كزوجة.. كست.. كأنثى..

ووجعها يكاد يشق صدرها وعقلها يلقي بخيالات لاعتناء كل ذكر حولها بأنثاه.. والأنثى بداخلها بدأت تنتفض مع كل إيحاء اهتمام ولو بسيط.. والواقع يخبرها بقسوة..

أنها لا تكفي..

أنها لا تصلح..

والصرخة جاءت عالية:

- دلوقتِ جاي وجايب ابنك!.. ابنك اللي زرعته في رحم واحدة تانية!.. واحدة كانت جديرة تكون أم لابنك!.. واحدة عرفت تكون زوجة وست.. واحدة..

وتقطعت كلماتها وهي تردد بضياع:

-هديتك جاي تثبت لي بها إني أقل من أي واحدة.. من أي ست.. أني مــ..

قطعت حديثها الذي بدا إليها أشبه بهراء لا جدوى منه وهي تبتعد وتوليه ظهرها.. بينما هو يهتف بها:

-لا يا حبيبة.. لا.. أنا اخترتها لأنك أطهر وأنضف منها.. اخترتها لأنها هي أقل منك بكتير.. لأنها ملوثة من البداية!

وطرقت الكلمة عقل صلاح فكانت ذروة الصدمة..

هذيان!.. جنون!!..

ابن عمه أصابه الخبل بالتأكيد..

تقدم نحوه يلمس كتفه، يثبته بمكانه وهو يرى شقيقته على شفا انهيار:

- أم ابنك فين يا نبيل؟.. فين مراتك؟.. الولد ده مين هيربيه؟

والتفت إليه بوجه ملهوف وأصابعه تشير إليها بتلقائية:

- حبيبة.

ودارت عيناه بمحرابها مرة أخرى وثانية وتاليات متتابعات كأنما هي دنياه:

- حبيبة هي أمه.. هنربيه سوا.

والهذيان بلغ أوجه بعد استطرادة أخيرة:

- صفية كانت مجرد وعاء ودورها خلص.

واشتعل فتيل جنونها مجددًا بكلماته والغضب لم يكن كافيًا فجاوره سعير مضطرم بعينيها ونيرانه تندلع بين جنبيها وهي تكاد تصدم رأسها بأقرب جدار:

- وعاء.. وعاء.. وعاااء.

وأمسكت بوجهها بين يديها وأناملها توشك على اختراق وجنتيها المحمرتين بعنف:

- حد قالك إني ما باخلفش يا نبيل؟.. حد قالك إني محتاجة أم بديلة تحمل في ابني بالنيابة عني؟

وبهذه اللحظة أيقن صلاح أن الموقف تأزم ويحمد الله أن والدته نائمة تحت تأثير دوائها بغرفتها المغلقة وإلا لم يكن ليعلم ما سينتهي إليه الأمر!

حجب حبيبة بجسده وهو يحول بينها وبين نبيل.. جذب يد ابن عمه وبسمة تنظر بحيرة من خلف باب غرفتها وبأحضانها سكن الصغير، خرج من المنزل بمحاولة تهدئة أخيرة:

- تعالى بس يا نبيل.. اهدى كده وروح أنت.. خلي الولد هنا معانا وبسمة هتخلي بالها منه.. هابقى أطمنك.

تعلق نبيل بكفه في لهفة:

- صلاح أرجوك...

- أرجوك أنت يا نبيل.. روح دلوقتِ وربنا يحلها من عنده.

واستجاب بخنوع آمل.. مرر أصابعه بشعره بُغية تمزيق.. بُغية ألم.. وعادت مقلتاه تتمسكان ببابها حين الرحيل، قدماه تعاندان وقلبه يرفض.. ولا يدري الصواب..

كل ما يعلمه أنه دونها وحيد.. ضائع!

تابعه صلاح حتى رحل.. ومعه رحل ذهنه واشتعلت أفكاره.. ماذا به ابن عمه!

الموقف كله جنون وحسب!

أي خلل أصابه ومتى حتى يزرع نطفته في رحم امرأة ثم يصبر عليها حتى تثمر فيقطف الثمرة ويهدي بها امرأة أخرى!

أي خلل يدفع رجلًا عاقلًا لرفض زوجته.. حلاله ولسنوات دون سبب قاهر واضح!

مسح على وجهه والتفت ناظرًا لمدخل البيت بينما يتخذ القرار..

ابن عمه يحتاج لعلاج، علاج نفسي على الأرجح وعليه أن يبحث في الأمر..

"خليه ياخده معاه يا بسمة.. سابه ليه!"

كان هذا زعيق شقيقته من بين دموعها التي لم تتوقف بعد، اقترب منها بربتة حنون على كتفها:

- اهدي يا حبيبة.. الولد مالوش ذنب.

ومد أنامله يمسح وجنتها المبللة بعطف:

- محتاج رعاية ونبيل مش هيقدر يوفرها له بحالته دي.

- يوديه لمامته.

صرختها وهي تبتعد عن مرمى حنانه، تتشبث بقسوتها المزروعة بتربة الضعف.. تتمسك بفظاظة نبتت من أرض الخيانة وغلظة روتها خديعة..

والأخ تنهد بل زفر بحرارة شبه غاضبة، وعلا صوته فوق صوتها يجبرها على رؤية ما يعميها ألمها عنه:

- إحنا أهله برده يا حبيبة..

انتفضت بدموعها التي لا تنضب تناظره بلوم فقطع الحديث بقرار لا يحتمل الجدال:

- نبيل عنده مشكلة.. ولحد ما نفهم؛ الولد هيفضل هنا.

واقترب منها ثانية، يميل إليها برأسه، يدقق في عينيها ويضغط أحرف كلماته:

- دمنا ولحمنا يا حبيبة.. فاهماني؟

رعشة شفتيها أخبرته بردها، ونظراتها دون وعي تنصب فوق الضئيل بين أحضان زوجة أخيها، وهو تلاقت نظراته اليائسة ببسمة الواجمة.. وتأمل حركتها الرتيبة وهي تهدهده بلا وعي؛ فالذهول يكتنفها هي أيضًا..

تحركت أخته دون اعتراضات نحو غرفتها.. تحركت بظهر منحنٍ وقلب مهزوم مكسور.. تحركت بآلية واعتزلت خلف جدرانها الخاصة تنعي ضياع حبها، فؤادها.. ومن ظنته يومًا معشوقها..



تحركت والحيرة هي من تتصدر المشهد بجدارة وتأخذ في مسرحيتها دور البطولة الأولى..

واستقرت الفكرة بعقل صلاح..

الأمر يحتاج لاستشارة طبية عاجلة وبأقرب وقت!

***

حلمتُ برائحة اللوز

تشعل حزن الليالي الطويلة

بأهلي حلمت..

بساعد أختي

سيلتفّ حولي وشاح بطولة..

"محمود درويش"

هل بعد الضياع من عودة!

وهل يمنح الشيطان المضل حبلًا من أمل!

وعندما نهبه الثقة.. أتلك حماقة!

صدقته، طالبت شقيقتها بالمكوث معها وتعللت بالكثير، رغبة في الشعور بدفء العائلة، ضغطة على موضع ألم الاحتياج لزوج الخالة، وضغطة أخرى على موطن العطاء الذي هو سمتها..

لكن سمية رفضت.. تحججت بما لا تفهمه، وبررت بأي شيء وكل شيء لأنها تدرك من زرع بأفكار أختها المشهد.. ألَّفه وأخرجه ومثَّل فيه الدور الرئيسي فقط لينالها..

لم تكن لتخطئ عينيه، نظراته السافرة التي تبعث بجسدها قشعريرة باردة، تلميحاته المخيفة وتحرشه اللفظي الجليّ.. لم تكن لتخطئ وتمنح بتضحية جديدة ما يفوق قدرتها هذه المرة لذلك عارضت..

وأتى نزف أختها وبقائها في المشفى لعدة أيام قشة أخرى تقصم ظهرها، وبدا لها تشبثها بالرفض أنانية وهو استغل الموقف كما ينبغي لمن هو مثله:

- ما هو يا سمية ما ينفعش.. أمنية محتاجاكِ، على الأقل الفترة اللي جاية.

رمقته بنظرة باهتة وإن أوحت بها أنها تدرك نواياه دون إعلان:

- عارفة إنها محتاجاني يا أسامة عشان كده هاخدها تقعد معايا في بيتي لحد ما تبقى كويسة أو لحد الولادة حتى.

والمستأسد تنتفخ أوداجه مبررًا بمبدأ رجولة مدعاة:

- يعني إيه تقعد معاكِ؟.. هي لها بيتها وده بيت أختك يا سمية.. أنا بجد مش فاهمك.

وتحرك بعينيه لزوجته الساكنة بفراشها دون تعليق، تنأى بنفسها عن الحديث.. لقد عرضت على شقيقتها الأمر مرارًا وتكرارًا وهي أبت؛ لذا لن تضغط عليها خاصة وأنها تساعدها بالفعل قدر استطاعتها:

- ما تتكلمي يا أمنية.

وحشرها عنوة بالمشهد السخيف، وهي رفعت عينيها إليه بتردد!

تخشى أن توافق أختها فتغضبه بعدما مد غصن الزيتون بينهما واستقرت حياتهما بهدوء نسبي منحها قدرًا من الأمان، وتخشى كذلك أن تضغط عليها وذلك لم يعد لها بحق فهي قدمت ما يكفي بالفعل!.. لكن سمية تدخلت تنقذها وعيناها تحتويانها برفق حنون:

- تتكلم ليه يا أسامة؟.. أمنية هتيجي تقعد معايا في بيت العيلة اللي أخدتها منه.

ونفذت حججه فألقى بالعبء عليها مجددًا:

- بس هي هترتاح في بيتها أكتر.

نظرتها كانت حازمة حاسمة بمغزى يُعلمه أنها لن تهبه الفرصة:

- والله اللي أعرفه إن الست لما بتتعب بتروح بيت أهلها ترتاح.. وأنا أهلها.

ولم يكن هناك مفر من الإذعان لإصرارها، وشيطانه يصور له نهايات مغايرة.. نهايات مفتوحة ومشهدًا جديدًا يرسمه عقله وإن اختلف درب التنفيذ فالرغبة لاتزال بداخله، والعزم لن يلين لأن العصفورة تسعى بإصراروتجاهد فرارًا من عش نسر!

توالت الحجج، والدافع متاح ومباح.. زوجته الحبيبة التي تحتاجه، وهو رجلها.. بل ونصب نفسه رجل العائلة، رجلها هي.. وشقيقتها المطلقة الوحيدة!

زياراته بدأت مبكرة..

دواء للحامل الواهنة، تلاه طعام وغذاء تناوله معهما.. ومرة أخرى تحولت الوجبة لعشاء لكن خاب فخه عندما تفاجأ بحمزة يفتح له الباب ويرحب به بقبضة صلبة كادت تحطم كفه:

- أهلا يا أسامة.. اتفضل.

والغيظ اكتنفه.. فالليلة كانت نيته بقاء.. مبيت، وربما إغواء المطلقة المتمنعة!

- إزيك يا حمزة.



جلسا بغرفة المعيشة وزوجته تجاوره، على وجهه بدت ملامح ضيق تحت عينا صقر مراقب، متشكك.. وغاضب..

فحمقاؤه الحنون تستقبل الرجل ببيتها وهذا ما لن يتحمله، لا يكاد يصدق أنها لا ترى كيف ينظر إليها!.. كيف يعريها بعينيه ويكاد يقسم على فسوق أفكاره حينها.. ود لو طحن عظامه لكن كيف وهو لم يفعل شيئًا سوى النظر!

والقسم بهذه اللحظة توحش وأظلم مع نظراته وهو يراها تدلف للمكان والآخر يتابعها بوقاحة ويبتسم مدعيًا الرقة:

- تاعبينك معانا يا سمسمة والله.. مش عارف من غيرك كانت أمنية هتعمل إيه!

ومد يده يحتوي كف زوجته، يربت فوقه بحنو وهي تبتسم له وتتعلق عيناها به كأنه رجلها بحق!

وكاد حمزة يجن، وسمية غُصت بريقها لدلاله لاسمها..

ولأول مرة!

هل يتعمدها!

"سمية"



كانت شبه زاعقة من حمزة تسحبها عنوة من شرودها، فالتفتت إليه برهبة لتقابلها عيناه الداكنتين بظلمة سخط تعلمه ورأته من قبل.. لم تفهم فزم شفتيه ونهض بحسم:

- طيب يا أسامة نسيبهم هما يرتاحوا.. وما تبقاش تتعب نفسك أي حاجة يحتاجوها أنا هاجيها.

والآخر تململ في جلسته وود لو تشبثت به يد زوجته التي تركت كفه بالفعل كأنما هي إشارة أو إيذانًا بالرحيل!

نهض بتذمر وانحنى بمسرحية يقبل رأسها:

- خلي بالك من نفسك يا موني.. لو احتجتِ حاجة في أي وقت؛ كلمـ

- كلموني يا أمنية.. أنا كلها دورين وأبقى عندكم.

مقاطعة ثانية نال بعدها من حمزة نظرة قاتلة.. حمزة الذي أشاح بوجهه ومنح مطلقته تأملًا لم يطُل.. تأملًا لم يتشبع فيه بملامحها الرقيقة أو خجلها الذي يصب في وجنتيها بحمرة مهلكة للقلب..

تنهد وأشار لأسامة أن يتقدمه.. خطوات حتى وصلا لباب المنزل في وداعهما سمية، وعلى الدرج ندَّت منه حركة تعبر عن غيظه:

- حمزة معلش اسمح لي.. بس ترددك على بيت سمية مش حلو في حقها، أنتوا اتطلقتوا مش عاوز الموضوع يمس سمعتها.

وحمزة ناري المزاج وبهاته اللحظة بركاني مشتعل.. جذب ذراعه ليواجهه بقسوة نبرة:

- دول بنات خالتي قبل أي حاجة يا أسامة.. يعني لحمي ودمي..

وعيناه كانتا تسألان بشراسة:

"هل تفهم!"

ولغة جسده توضح نفوره وبغضه.. وإدراكه الكامل لموقف أسامة، وكاد يسخر من حمائيته.. لكن لا بأس بها مادامت تريحه، ومادام يجيد هو استغلال الموقف..

رفع كفيه في إشارة تسليم:

- أكيد طبعا يا حمزة.. أنا بس خايف على سمعتها لما كل شوية طليقها داخل خارج عليها كده.

- ما تلعبش في عداد عمرك يا أسامة.

وكانت مواجهة صريحة أتبعها القرار القاطع:

- لحمي ودمي قبل أي حاجة تانية.

ووصلت الرسالة وإن كانت منقوصة.. وإن كانت غير مهمة.. وإن كانت لن تزيد شيئًا إلا اللهب على النار المشتعلة.. فهو أرادها..

وحينها سيرى سبع الرجال أنه سينالها!

***

وفقدتُ القدرة أن أحلم

فالناس وجوهٌ مكتئبة

وقلوب كبيوت خَرِبة

ضحكات صارت مفتعَلة

إحساسٌ دومًا بالغُربة

وبأن حقوقي مُغتَصَبة

"عبد العزيز جويدة"

وماذا بعد الضياع!

هل نفقد أنفسنا أم نبنيها من جديد!

هل نبحث عمن يرمم الصدوع ويملأ الشروخ بجبائر الدعم!

هل ننهض بذاتنا، أم نفتش عن أحدهم لينهض بنا ولو بطريق الخطأ!

وهل يباح استغلال الضياع كمبرر للمزيد منه!

بل هل يبيح الضياع أية وسيلة للغاية.. للهدف وإن كان معطوبًا مشوهًا!

والوسيلة بهاته اللحظة هي الأم المريضة، والحنو والتفاني وإن كانا بمشاعر حية نابضة بقلبها والمسوغ ندم؛ فهما صالحان لمكسب مؤقت لاحظته من نظرات الطبيب المهتمة.. والمعجبة!

لقد لاحظها، وهذا جيد.. نقطة لصالحها بمرماه، وبقي أن تجيد الهدف التالي..

انحنت تخلع عن والدتها حذاءها وهي تعاونها للاستلقاء فوق فراش الكشف بمشفاه، تبتسم برقة وتربت عليها بعطف.. تنظر لها بعينين لامعتين، وفي خلفية عقلها وقلبها شعور ذنب مقيت.. فلولا انفجارها السابق ما مرضت أمها، ومنذ عودتها للمنزل وحتى بعد ظهور نبيل وطفله وتساؤلات الأم المرتابة والتي أخمدها صلاح ببساطة وإدعاء عاطفي بحت صمتت والدتها، وتجاهلت هي الموقف برمته..

قبلت جبينها برقة ورقتها استدعت بسمة لامست جانب فم عبد الرحمن المنتظر بصبر حتى ترتاح السيدة ليوقع كشفه الطبي عليها.. اقترب بهدوء

والإعجاب يطفح من نظراته وإن أجاد تقنينه ومداراته، ربت على كف الأم بلطف وجاور نبرته اهتمام:

- لا إحنا صحتنا بقت زي البمب أهو.. بس شكلك بتدلعي على الولاد شوية عاوزة تعرفي غلاوتك عندهم.

والتفت برأسه لحبيبة يمنحها ابتسامة أوسع جاوبتها هي بضحكة خافتة ناعمة ردها بهزة رأس ووالدتها تتمتم بكلمات مبهمة ختمتها بدعوة له كأي أم عربية أصيلة.. تبعتها بدعوة لأبنائها.. ولحبيبتها الصغيرة على وجه الخصوص بصلاح الحال والرزق..

والرزق في حالتها زوج جديد..

وفي عينيها طبيب ماهر، على خلق.. ويدير مشفاه الخاص!

- ربنا يكرمك يا بني.. حبيبة دي أحن بنت في الدنيا.

وتجمل ما تمنح وترنو ببصرها ناحية ابنتها والأخرى تبتسم بداخلها ساخرة لعبث الموقف لكن تمنح الأم طمأنينة عين حانية:

- ربنا يخليهالك يا حاجة ويخليكِ ليهم.



وانتهى المشهد المفتعل بانتهاء مهمته، لتبدأ هي في رسم دورها مرة ثانية بمساعدتها الرفيقة اللطيفة.. وتتعلق عيناه بها بصمت، ويشجب فكره الذي لاحقه بسؤال عنها..

وفضوله الذي استثارعقله بسؤال ثانٍ.. عن طلاقها!

وتيه جذبها أكثرنحو هوة ضياعها.. فهل الضياع يبيح استراق النظر!..

متعة مشاهدة لعرض مجاني رخيص!..

أوربما تمنى مكان البطلة!

بطريق العودة وعندما ترجلت مع أمها من سيارة الأجرة أمام المنزل.. على بعد خطوات ليست ببعيدة ولجدارمنزل مقابل في شبه ظلمة كان يرتكن شقيق صديقتها بكتفه، وأمامه تقف مخطوبته بدلال أنثى معتاد.. بينما هو يمنح أنامله حق اللمس.. حق التجول فوق معالم وجهها بأريحية حميمية.. حق مسّ وجنتيها.. ذقنها.. شفتيها!

وارتفعت عيناه كأنما يراقب بحثًا عن مختلس نظرة.. لتتقابلا مع عينيها وهي تبتعد مع والدتها نحو مدخل بيتهما، وزوى ما بين حاجبيه مفكرًا لثوان قبل أن يجذب يد فتاته المتذمرة:

- عمرو اتأخرفوق قوي.. هارن عليه.



وكانا في دعوة غذاء ببيت أهل آية زوجة أخيها.. دعوة شملتها هي كونها مخطوبة ابن أخت الأم.. منعها بتحكم شغوف أرضى غرورها:

- تؤ تؤ.. سيبيه على أقل من مهله.. تعالي بس نقعد في العربية، عاوزك في كملتين مهمين قوي.

وضحكت بغنج.. تتمنع وهي راغبة وهو خير من يعلم:

- إيهاب..

تدرك فجور مقصده، وابتسم هو بمكر فاهمًا انفضاح نيته..

ومن إدراكها مرورًا بفهمه انتهت القصة!

وبين شفتيها غرق وبقبلاته أضاع منها الحس.. والمطعونة بأنوثتها أعادها الفضول، والحجة الظاهرة شراء الدواء، والباطنة.. بحثًا عن مزيد!

بحماقة متلصص لا يتقن فنون المهنة وقفت تتأملهما بسيارة نشوى الواقفة قرب مدخل المنزل أسفل شجرة وارفة حجبتها عن الأنظار المارة.. إلا المتربصة!.. وهي كانت تفعل، تتفحص انغماس الفتاة في مشاعر برية هوجاء بين ذراعي رجل يمنح.. ويأخذ قدر ما يريد، تحدق ببصرها دون خجل وتبحث عن تفاصيل..



تتقافز عيناها خلف يده التي تركت وجنة مخطوبته جوار القبلة وتسللت لعنقها..

تتقافز مقلتاها فضولًا.. وشغفًا كأنما ستفهم سر الحياة.. سر الكينونة الأولى..

بل سر الأنثى!

وهو لمح القفزات، وتلاقت النظرات ولم يترك الشفاه المحجوزة خلف شفتيه، بل تعمق وزاد واستزاد.. واليد كبلت اليد، وطرح الرأس على مسند المقعد، وأجاد..

وكان ابتعاده قصير الأمد لتعود عيناه إليها، فتثبت بمواجهته لحظات معدودة.. ثم تستدير ببرود عائدة من حيث أتت تاركة له الفوز بمعركته الخاصة فوق جسد أنثى..

أنثى خط هو خرائطها، وأضاعت هي.. خريطتها حد الخسارة..

حد الضلال!

***

أنا لستُ أول مَن يموتُ مِن الهوى

أو مَن يضيع مِن الحنين

أنا لستُ أول عاشقٍ

عَصفَت به ريح الهوى

ورَمتْه أسفل سافلين

"عبد العزيز جويدة"

وماذا بعد الضياع!

هل من أمل في العودة؟.. هل يمكن أن نجد بداية الطريق!

هل سنبحث عنها من الأساس سعيًا لخاتمة مستحقة!

أم سنضل ويكون مأوانا جحيم النفس!

هو بحث، منح.. ولا يزال يفعل، وبكل مرة يعود خاليّ الوفاض، يعود مهزومًا مدحورًا.. يعود بانتكاسات متتالية لا يكاد ينتهي من واحدة لتقابله الأخرى..

والآن كل ما يملأ نفسه، عقله.. وقلبه هو الضياع..

وكأنما ما كاد يخطو خطوة للأمام، يتشبث بأمل واهٍ وليد؛ إلا ومات برحم الحقيقة وواقعه المرير الذي يخبره أن لا طائل.. أنه خاسر، وسيظل خاسرًا.. وخسارته الأولى.. هي!



كان ينتظر دورًا ليس له ليقابل طبيبتها، اللعنة على الجميع.. على جهله.. على عجزه.. على قهره وقيوده الوهمية التي تحجزه خلف جدار الضعف.. نهض تبعًا لإشارة مساعدة الطبيبة ليدخل لمكتبها بخطوات واسعة وقبل أن تبدأ بترحيب أو حتى تنطق بكلمة كان هو من بادر بشبه زعقة:

- أنا عاوز أفهم إحنا آخرنا إيه!

وخطا مقتربًا أكثر ليستند بكفيه لمكتبها الجالسة خلفه:

- هنوصل لفين؟.. هنفضل واقفين مكاننا لحد إمتى؟

وضرب المكتب بغضب:

- ولا خطوة واحدة لقدام.. وريم كمان بترجع لورا، رجعت تاخد ترامادول تاني.

وانحنى وعيناه تشتعلان بلهب من وجع:

- آخرتنا إيه يا دكتورة؟.. ريم بتضيع.

ومع انتهاء صيحته نهضت هي تهدئ من غضبه:

- اهدى بس يا باشمهندس.. اتفضل اقعد خلينا نتفاهم.

ولم يستجب، بل كأنه لم يسمع.. دار حول نفسه في المكان، تحرك ذهابًا وإيابًا والعجز يخنق حلقه بالمرارة، ويكبل يديه وعقله عن الحل:

- أهدى!!.. بأقولك ريم بتضيع!.. بتنتهي، مافيش علاج.. نتفاهم في إيه!

وتحركت لتواجهه بهدوء نبرتها وملامحها:

- اقعد بس.. وهاوضح لك الموقف.

بدا مُسيرًا واهنًا وهو يتبع إشارتها هذه المرة ليجلس فوق المقعد المقابل لمكتبها، وهي اتخذت من الآخر مجلسًا، عدلت منظارها الطبي وشبكت أناملها وسحبت دفقة من الهواء بوضع استعداد:

- شوف يا باشمهندس.. بدايةً كده أول احتمال فكرت فيه بخصوص ريم كان متعلق بيك.

نظر إليها دون فهم، بل بحيرة وعيناه مشتتان فأردفت بتوضيح:

- كان في ظن إن في إساءة في العلاقة الجنسية بينكم.. منك.

تفرق جفناه باستنكار لاحقته قبل أن يحتد عليها:

- بس.. بعد فترة وعدة جلسات اكتشفت خطأ المعتقد ده وبدأت أدور على أسباب تانية محتملة.

وعادت تتنهد وهي تكمل بعملية:

- ريم بتعشقك.. لكن في نفس الوقت بترفض العلاقة وبرده في نفس الوقت ده ما فيش نفور من التقارب الحميمي بشكل عام.

وأشارت بيدها بنفسها:

- من لمستي مثلا.

انعقد حاجباه باحثًا عن طرف خيط يدله على الفهم:

- ريم بتديني إشارات متناقضة.. بتتلاعب بيَّ..

وهو هز رأسه بتيه بينما هي تفسر أكثر:

- وده غالبًا بسبب دراستها.. عارفة إيه ممكن يوضح حالتها، وإيه يخليني محتارة!.. وهي بتنفذ خطة التشتيت صح.

- يعني إيه!.. هي رافضة العلاج تمامًا؟.. مش عاوزة تخف!

تنهدت مجددًا وناظرته بهدوء:

- مش شرط.. العقل الباطن بيستغل خبراته في الموقف ده عشان يخدمها هي.. ولأنها رافضة تتكلم أيًا كان سبب الرفض، بيخليها تديني إشارات مختلفة وكل واحدة منها لها مدلول متناقض.

اهتز جفنه وارتجفت شفتاه بحيرة.. بل بوجع ينخر بقلبه وذاك العجز يعود ليخنقه ويجثم فوق صدره الضائق بما فيه:

- طب والحل!

نهضت الطبيبة عائدة لمقعدها خلف مكتبها:

- في حل ممكن يناسب حالة ريم..

تعلقت عيناه بها في لهفة فاستطردت:

- في عقاقير معينة خاصة بجلسات العلاج النفسي، بتساعد المريض على الاسترخاء التام وبتساعده كمان يتكلم عن مشاكله ببساطة.. إيه رأيك لو خضنا التجربة دي مع ريم؟

وهو تراجع بمقعده قلقًا!

إن كانت هي تتلاعب بطبيبتها فهل سيمنح الإذن هو أيضًا للتلاعب بوعيها وإن كان يصب بمصلحتها!

قلبه قال نعم.. وعقله شكك بالأمر فنهض واجمًا:

- محتاج أفكر في الموضوع ده قبل ما أقرر.

أشارت إليه المرأة برأسها:

- أكيد.. فكر وتأكد إن الحل ده في مصلحة ريم يا باشمهندس.

أومأ بموافقة يائسة وغادر متهدل الكتفين..

يشعر بنفسه مقسومًا، بل بظهره مقصومًا.. وبرأسه على حافة الجنون أو الانفجار..



لكن في النهاية اهتدى لخطوة جديدة قد تحمل بعض الفائدة قبل أي قرار..

سيستشير طبيبًا آخر!

***

أنا أمضي قبل ميعادي.. مبكر

عمرنا أضيق منا..

عمرنا أصغر.. أصغر

هل صحيح.. يثمر الموت حياة!

"محمود درويش"

ماذا عندما تضيع البداية!

نخسر بذرة الأمل؟

ماذا عندما تضيع معها الروح، ويأتينا الحزن مقيمًا متجاهلًا قواعد اللياقة بزيارة لن تكون قصيرة!

ماذا عندما نتعلق بنقطة النور الضعيفة، وعندما نقترب.. نلامسها، نمد أيدينا نحوها؛ تنطفئ!

وهي انطفأت.. بقعة ضوءها الشاحبة انطفأت بغتة قبل حتى أن تمسها..

تكومت فوق فراشها بدموع لا تنضب، تربت فوق بطنها برتابة، وتدمدم بكلمات مجهولة والنبرة باهتة يعلوها شجن موجع للقلب.. خاصة قلبه وهو يراقبها كما كان يفعل طيلة خمسة أيام عقب فقدانهما.. لطفلهما!

يدرك كم هي حزينة!

يعلم أنها فقدت الأمنية قبل أن تسكن حيز الواقع!

يتفهم ويراعي.. لكنه يتوتر ويرتبك.. ويجد أن دعمه غير كافٍ أو مجدٍ!

هي ليست أول امرأة تجهض جنينها، لن تكون الأخيرة.. وما بين أولاهن وأخراهن كثيرات هي إحداهن، لكنها لا تتقبل الخسارة بسهولة، ولا تترجم مشاعرها سوى بدموع..

بتشعث خصلاتها وفوضى ملامحها الساكنة.. العاصفة بذات الوقت..

بل فوضى عينيها وهي ترمق الفراغ باكية دون صوت..

"آية!"

واقترب بتمهل ليجاورها فوق الفراش، رفعت عينيها إليه بضعف وخز قلبه فانحنى يرفعها إليه، يضم رأسها لصدره ويرتب خصلاتها بحنو:

- وبعدين!

- ضاع.

- ربنا هيعوضنا إن شاء الله.

- ما لحقتش أفرح بيه..

وابتعدت عن صدره تناظره بألم:

- ما لحقتش حتى أحس بوجوده.

أعادها لدفء أحضانه قسرًا وتنهد بزفرة حارة، الفقدان واحد والخسارة لكليهما، لكنه يدرك أن تشبثها بالطفل كان أكبر منه:

- لسه قدامنا العمر طويل يا آية.. إحنا يا دوب خمس شهور.. سيبيها على الله.

وانتحبت ودموعها فاضت بأنين قلبها المنقبض بين ضلوعها:

- خايفة قوي يا عمرو..

خوفها أوجعه فرفع رأسها بلهفة ليمنحها أمان عينيه:

- خايفة من إيه؟.. ما تخافيش أبدًا.

وانحنت شفتاها لأسفل كطفلة باكية، وارتجفتا تعلنان عن حيرتها وذعرها:

- خايفة ما يحصلش حمل تاني.. أنا ما لحقتش حتى أعرف إنه موجود جوايا يا عمرو.

ونشجت وعلا صوت أنينها.. العبرات لا تنتهي وهي تتمسك بجانب الخسارة كأنما الأسوأ هو الأكثر أمانًا.. الأقل وجعًا.. الأسهل توقعًا رغم رعب الانتظار:

- ما تقوليش كده يا حبيبتي.. إن شاء الله ربنا هيعوضنا.

ضمت نفسها إليه بخنوع وقلبها وجوارحها جوار نبرتها يرددون بخشوع:

- يارب.

وعند الضياع.. إما أن تتمسك بحبل الهداية فتعود، أو تقنط.. فتضل أكثر!

***

شوكة في القلب مازالت تغزّ

قطرات.. قطرات.. لم يزَل جرحي ينزّ

"محمود درويش"

هل الاحتياج دافع ضياع!

وهل حينها بعد الضياع ضلال أم هناك طريق عودة!

بل.. كيف يمكن العودة بعد الخسارة!

وهل للخسارة حد!.. أم أنها ممتدة ما دُمنا نتنفس.. فنحيا ونخسر!

نخسر ونتحسر!

تتحسر وهي تراقب ابن أخيها بين ذراعي أمه، تناظره بفخر.. بحب وحنو، وابن زوجها السابق تحت عيني الأخ ورعايته بغرفة بسمة بمنزلها قبل الزواج!

تتحسر وهي تفقد وحسب.. تضيع، ولا تجد الطريق.. لا تتمسك بأمل لم يولد بعد وربما أبدًا لن يفعل..

"عقبال ولادك يا حبيبة يا بنتي"

والكلمة خرجت من فم أم حمزة بدعوة شحب لها وجهها.. فالأقاويل طالتها حتى هنا، ونظرات الشفقة التي تغلفها تجلدها بسياط الحسرة، من قال أنها لا تنجب!.. من قال أن العيب فيها!.. من قال أنها ركلت نعمة الزوج الصبور لأنه بحث عن أبوته بعيدًا عنها!

من قال...

القائلون كُثُر، وعليها أن تتحمل.. تتجاهل، وتمر.. أو ربما تمنح نفسها حق الضياع!



ضياع في ذلك المراقب باهتمام يدلل أنوثتها رغم وقاحة نظراته التي تحيط جسدها بفجاجة غير مستساغة.. رغم الحضور في عقيقة ابن أخيها.. رغم البشر من حولها فعيناه كانتا ترويان خسارتها حد ضلالها بأعماقهما دون سواهما!

بل عندما كانت تناوله منشفة بعد انتهاء طعام العقيقة تعمد لمس أناملها وهمس لها بنبرة ملتوية:

- الأكل حلو قوي.. تسلم إيدك يا حبيبة.

واحمرت وجنتاها دون تعمد!

الفتى يصغرها، فما باله!.. بل ما بالها!

وها هي الآن تتحرك بين الجمع لتوزع عليهم المشروب الرسمي للوالدات.. "المغات" الثقيل، وحينما اقتربت منه كادت تتعثر وهو نهض بسرعة في مهمة إنقاذ عاجلة يدعمها، يحيط بكفيها الممسكتين بطرفي صينية التقديم.. ويهمس بمكر أجش هذه المرة:

- سلامتك.. خدي بالك.

وتحشرج صوتها بهمهمة شاكرة قبل أن تهرب، تبتعد عن مجاله عائدة لشقة والدتها المقابلة لشقة والدة بسمة والمقام بها العقيقة..

تركت الباب خلفها مفتوحًا إن احتاجها أحدهم، عادت لغرفتها هربًا من الكثير.. من النظرات المشفقة للبعض، الخبيثة للبعض الآخر وربما الشامتة كذلك..

أو كان هربًا من نظراته هو التي تربكها رغم أنها تدغدغ أنوثتها المُهمَّشة!

فكت وشاحها وتأملت حالها بمرآتها، فردت شعرها وتخللت خصلاتها بشرود.. ما بها ناقص!

لن تتظاهر أنها فاتنة لا تقاوم، لكنها ليست كذلك بالعادية، هي امرأة مخملية ناعمة رقيقة، ملامحها تجاور فيها الأنوثة براءة.. والقهوة الداكنة بمقلتيها لها حُسنٌ مميز!

قدها ممشوق لم يسطُ عليه الزمن بعد.. ولم يفقده حمل طفل رونقه!

وليته فعل..

لمعت بعينيها عبرة قاومتها.. وهي تدور حول نفسها بتيه قبل أن تفيق لعينيه المراقبتين بشغف فاسق!

التفت بسرعة بعدما لمحته بالمرآة:

- إيهاب!.. أنت بتعمل إيه هنا؟



وكان راحلًا بذيل الراحلين من الرجال بعد انتهاء الوليمة، وبقاء النساء لإكمال الإحتفاء بقدوم المولود كعادتهن.. حجة بسيطة أخرت خطواته عنهم ليتبعها هي حيث اختفت.. أغلق باب المنزل من خلفها وها هو على باب غرفتها..

وهي تتمنع، وتدعي الجهل!

لكن لا بأس..

تقدم نحوها بتمهل ونظراته تخبرها ألا تلاعبه، أنها تفهمه كما يفهمها.. أنها ترغبه قبل حتى أن يرغبها!

- بالبي الدعوة.

وركل باب غرفتها من ورائه، واقترب ببطء يتمعن بملامحها، يتفحص شعرها اللامع، ويمر بوقاحة سافرة فوق مفاتنها.. وقاحة أخجلتها فمالت تجذب وشاحها لتغطي رأسها:

- دعوة إيه!!.. إيهاب ما ينفعش تكون هنا..

كان قد وصل أمامها فأمسك بيدها التي تحاول إعادة الوشاح بفوضى، ألقاه بعيدًا ودلل خصرها باحتواء متملك من كفه، احتواء لم تشعر به من قبل وهو يقربها من جسده ويعلن لها عن رغبته.. عن اشتهائه بفجور:

- اللي في عينيكِ يا بيبا.

مدت يديها تمسك بذراعه المحيط بها، تدفعه عنها بوهن:

- أنت عاوز إيه!

برقت عيناه بوضوح ما يريد، وضَّلت هي في طريق يرسم معالمه هو برغبة جليَّة بينما يميل.. ينحنى رأسه، وبشفتيه يلامس أذنها، ينفث أنفاسًا حارة ويداعبها بهمس:

- مش أنا اللي عاوز..

وترك أنامله تتخلل كثافة خصلاتها، تبعثرها بعبث.. وانحنى أكثروجهته هذه المرة كانت ثغرها اللاهث بترقب.. بانتظار.. بقلق.. وفضول، بعدما مر فوق وجنتها.. فكها باكتساح ناعم لا يليق به.. لكنه أليق بها:

- أنتِ اللي عاوزة.

وروى عطش فضولها بقبلة..

قبلة انتهكت عذرية شفتيها.. وتعانق لها جفناها.. هربًا!!

أوربما هو..

تيه التجربة الأولى!



تيهًا طال واستمر حد أنه جاب وجهها كله تحت سيطرة فمه، حد أنه انتقل لعنقها الطويل باشتهاء مقرف خضعت هي له دون وعي.. حد أنامله التي تسللت بخبث لقميصها، تفتح أزراره واحدًا تلو الآخر متمهلًا كأنما أدرك انعدام خبرتها، خوفها فقرر أن ينالها بهدوء غير مثير للذعر..

حد يده التي لامست كتفها، وفمه الذي هبط أكثر وأكثر متذوقًا.. متمتعًا.. راضيًا بخنوعها!

وللخنوع ثمن، وهي لم تكن معه.. لا تكاد تشعر به، بل فقط تخوض تجربة الشعور برجل!

تجربة لم تعرفها.. تجهلها، تجربة وإن كانت جديدة.. فهي مخيفة..

تائهة عنه وعما يفعل، ضائعة بين يديه، ضالة بطوق ضمته التي تحيطها دون مهرب، وشاردة مغمضة العينين فيما هو غير مدرَك!

هل الاحتياج يبرر الضياع!

وهل بعد الضياع سوى النهاية!

شعرت به أخيرًا يمددها فوق فراشها، يجثم أعلاها بثقل جسده ويتنقل بخبرة لا تدري كيف اكتسبها ليسطُر لها خريطة أنوثتها المفقودة، يحدد لها معالم امرأة لم تقابلها يومًا..

لكن هل ستقابلها على يديه هو!

انتفضت مذعورة وهي تعود لوعيها، تفيء لرشدها بينما هو يتمادى دون رادع.. دفعت كتفيه ورأسه المنغمس فيما تمنح بشبه صرخة هلع:

- لأ..

- ششششش.. ما تخافيش.

لكنها ترتعب.. لا تخاف فقط، وندت عنها أنَّة وجع وانكسار، ومن عينها هطلت العبرة المكبوتة بحسرة جديدة:

- لأ يا إيهاب.. ابعد.

وهو لم يبتعد، يدرك جيدًا أنها ترغبه.. أو بالأصح ترغب بأي رجل يوقظ أنوثتها الكامنة بعد طلاقها، ومادام هو متاح.. فلمَ عليه أن يبخل بما يمكن الجود به!.. وبذات الوقت.. يأخذ:

- اهدي يا حبيبة..

وابتعد برأسه، مد أصابعه يداعب خصلاتها المشعثة نتيجة اجتياحه:

- أنا عارف.. على فكرة نبيل ده حمار.

ومال جانب فمه بوقاحته التي التزم بها معها:

- ما بيفهمش في الحريم.. إزاي يطلق واحدة في جمالك!

لكنها لن تخضع لمعسول الكلام أو فجاجة الغزل:

- ابعد يا إيهاب أرجوك.. ما ينفعش.. ما ينفعش.

ونشجت بضعف، وهو عاد لعنقها بشفتيه وتمتماته المهدئة:

- ششش.. اهدي وسيبي لي نفسك.

لكنها لم تستطع..

تقززت من نفسها، منه.. من دناءة ما تفعل.. من ثمن لن تدفعه باهظًا لترمم أنوثة سينهبها أحدهم لو استسلمت..

هل الاحتياج يمنحها الصك الحر لتضل!

- لأ.

وكانت هذه الدفعة أقوى، نهضت تبتعد عن مرمى يديه، تتأمل حالها وهي تركض هاربة بالمرآة.. ترى جسدها شبه العاري وأزرارها المفتوحة أسفل طغيانه، وقفت جواربابها تغلقها بأصابع مرتجفة:

- امشي.. امشي يا إيهاب لو سمحت.

ويدرك هو أن الجميلة خائفة، وإن فاتته فرصة.. فالمزيد من الفرص قادم، استقام يعدل ثيابه، يمر جوارها ببطء قاتل.. بل يكاد يلتصق بها وينحني لتبتعد هي بوجهها فتنال همساته من أذنها:

- هاسيبك تهدي المرة دي.. أنتِ عارفة إزاي توصلي لي.

وتحرك خارج المكان بحذر..

وانهارت هي أرضًا تترك لدموعها العنان..

وقلبها يشج صدرها بدقات الفزع.. والذنب!

بينما الشيطان يبتسم بشبه نصر، ويجلس مستمتعًا بضياعها وإن ثابت لرشدها قبل لحظة إسدال الستار..

فماذا بعد الضياع سوى الضلال.. وماذا بعد الضلال إلا النهاية!

***

ولأنّي أحمل الصخروداء الحبّ..

والشمس الغريبة..

أنا أبكي!

"محمود درويش"

وبينما يضيع البعض، يتيهون بدروب الخوف أو الخسارة.. آخرون يتشبثون بنهج القوة، بعنفوان الاختياروأحقيته..

وهي كانت منهم رغم ضعف مسبق.. أو كان استضعافًا!

كانت ومن حوَّل الحاضر لماضٍ رجلًا لا يزال يحتل بتفاصيله عقلها، بل لا يسمح لحياتها بالاستمرار باعتياد دون بصمته بكل لحظة وإن كانت بلا تعمد.. بل بكل دعم!

تذكرت بسمته المودعة قبل رحيله مع الرجال قبل ساعات من عقيقة "محمد" الصغير.. تذكرت حنو عينيه.. والأمل النابض خلف الحنان، والسعادة!

أغلقت باب الشقة خلفها وشقيقتها دون أن تسمح لبسمة القلب بالتسلل نحو الشفاه، بل اقتربت من أختها تضم كتفها، تقبل رأسها وتمنحها هي حنانها:

- عقبالك يا منمن.. لما نفرح بولي العهد.

وأمنية ابتسمت وهي تستند إليها لتجلس:

- ربنا يخليك لينا يا سمية.. مش عارفة من غيرك كنت هاعمل إيه!

جاورتها تنقل الربتات لركبتها:

- أنا اللي من غيركم ولا حاجة يا حبيبتي.



ارتفع رنين هاتف أمنية يقطع لحظات الأخوة الوليدة باسم زوجها..

انطمست بسمتها أسفل خجل طفيف وهي تومئ لأختها بارتباك قبل أن تجيبه..

الوقت متأخر، والمتربص يبحث عن نقطة ولوج لعش العصفورة الرقيقة وقد كان..

زيارة بوقت غير مناسب، تدليل للزوجة حد التخمة.. غزل وقليل من الرومانسية لتتيه فيه وتتشبث به تخبره ألا يرحل تلك الليلة..

بل يبيت معها!

وتظاهر هو بالحرج قبل أن يرضخ مع ضغطها، وتبشر هي سمية بالخبر المشئوم..

وسمية لم تستطع الرفض مجبرة، لكن إن لم يمكنها إبعاده؛ فلتبتعد هي..

قبلت جبين أختها وأخبرتها أنها ستترك لهما الشقة ليكونا على حريتهما وستبيت بصحبة ريم لأنها وحدها، عارضت أمنية ورمقها هو بخبث دفع به لنبرته وهو يحاول منعها من المغادرة والاعتذار عن المضايقة.. ووو

لكنها قطعت الشك باليقين وهي تلقي خطته بوجهه.. بل عرض الحائط وتنفذ قرارها، أنهت العمل بالمطبخ.. رتبت ونظفت المكان، وهي مطمئنة أن الزوج جوار زوجته..

عدلت من وشاحها واتجهت نحو باب الشقة، وما إن امتدت يدها لتفتحه حتى اندفع ذراعه من خلفها ليحجزها أمام جسده، ويغلق الباب..

لفتة مذعورة حانت منها بينما همسه القميء يتسلل لأذنها:

- مش عيب يا سمسمة تسيبي ضيفك وتهربي!

وحاولت التحرك من الناحية الأخرى لكن ذراعه الثاني كان بالمرصاد، أحاطها بهما معًا وأسند ظهرها للباب، جسده يلامسها فكادت تتقيأ وهي تهمس بشبه صراخ:

- أنت اتجننت يا أسامة!.. ابعد أحسن لك.

- هتعملي إيه يعني يا سمسم!.. هتصرخي!

فتحت فمها لتجيبه قبل أن ينعقد لسانها دون جواب متاح، فمال برأسه مجيبًا على سؤاله بنفسه:

- شفتِ!!.. مش هتقدري تعملي حاجة، هتصحي أمنية وتقولي لها جوزك كان..

ومال أكثر فتراجعت برأسها حتى اصطدمت بالباب وهي تلهث برعب:

- كان عاوزني!



دفعته بكل قواها وليتها كانت كافية، لم يتزحزح بل مد يده يزيح وشاحها من فوق رأسها فتشبثت به ودموعها تبادر بالظهور:

- اللي بتعمله ده ما يصحش.. أنت أكيد اتجننت.

جذبه بعنف، بعدها جذب خصلاتها الطويلة بين أصابعه وعيناه تتعلقان بكثافتها بغير تصديق:

- وهو يصح يا سمسمة تفضلي داخلة خارجة مع طليقك كده؟.. يجيلك البيت ويقضي وقت الله أعلم بتعملوا فيه إيه!

- أنت.. أنت بتقول إيه!

همس بفحيح أمام عينيها:

- باقول اللي الناس بتقوله، طب لما أنتوا مش قادرين على فراق بعض.. اتطلقتوا ليه!

ابتعدت فجأة فتحررت من احتجازه وهو يلحق بها:

- استني بس.. ما هو مش حلال ليه حرام عليَّ.. ولا حلال ليه إزاي!.. ما هو برده في الحرام..

وجذبها يضمها لصدره منحنيًا يفتش عن شفتيها:

- أنتِ الظاهر مزاجك بتاع حرام وبس.

وتلك المرة لم تقاوم صرخة امتزجت بصراخ شقيقتها من ورائه وهي تندفع نحوه ببكاء:

"ابعد عنها يا قذر.. يا سافل"

وارتبك بغتة وهو يحررها بالفعل وينظر لزوجته التي تعلقت بذراعه تسحبه، تشبثت به ترفض تحريره بموازاة صراخ سمية باسمها خوفًا وركضها نحو بابها تفتحه بحثًا عن غوث..

وتسقط بين ذراعي حمزة!

- في إيه؟.. مالك؟.. هو أسامة هنا فعلا؟

وكان قد عاد متأخرًا لتخبره أمه بعفوية عن وجود زوج الأخت بالأعلى، وكل ما فعله أن انطلق لا يلوي على شيء صاعدًا إليها، وقبل أن يطرق الباب كانت هي تفتحه بعويل باك.. وتندفع فوق صدره الذي تلقفها بهلع..

تفحص وجهها، عيناها، دموعها.. وشعرها الغجري منساب بفوضى عاثت فيه الفساد.. احمرت الصورة أمام ناظريه وهي تصرخ:

- أمنية يا حمزة.. أمنية.

لم ينتظر ما هو أكثر، اندفع للداخل كثور هائج، والرعديد كان يناظر زوجته المتمسكة به قبل أن يلمح حمزة فيدفعها –ساعيًا للفرار- بقسوة

أسقطتها أرضًا بتأوه عالٍ.. تبعه فقدان وعي حاصر عقلها وهي تلمح بداية المعركة بين زوجها.. وابن خالتها!

أمسك حمزة بخناقه، ولم يردع قبضتيه عن لكم ما تطالانه منه..

انبثقت الدماء من فتحات وجهه وهو يسقط على ركبتيه، فعاد يجذبه ليستقيم ويضرب معدته، صدره.. لامحًا سمية بطرف عينه تجلس على الأرض جوار أختها ثم تهتف بحشرجة ذعر:

- سيبه يا حمزة.

وقلبها ينبض بفزعٍ.. سيؤذي نفسه، تعلم عن غضبه الأعمى..

سيؤذي نفسه..

سيضيع!

- يا حمزة ما توسخش إيديك معاه.

وهو يضرب دون أن ينظر، الغضب ظلل الأفق، والتتمة بعقلها وفؤادها..

سيؤذي نفسه..

سيضيع!

- حمززززززة!!

كانت صرخة أعلى من سابقتها علَّ المنزل كله يستيقظ:

- أمنية يا حمزة.. أمنية بتنزف تاني.

اعتدل جسده فجأة بينما يدير رأسه إليها، فبكت أكثر وهي تضم جسد أختها المسجى أرضًا بين أحضانها:

- أمنية يا حمزة..

ودقائق أخرى ليست بالطويلة بعدها كان يجاورها فوق أحد مقاعد مشفى قريب، هي تنتحب وهو لم يسعه إلا أن يضم كتفيها أسفل ذراعه المحتوي..

تبكي وهو غاضب..

خائفة وهو غاضب..

ضعيفة وهو غاضب..

وأخيرًا نطقتها:

- طلقها منه يا حمزة.

ثبات عينيه اهتز عندما تحول بناظريه إليها، ثم انتقل الثبات لنبرته جوار السخط:

- هاطلقها.



الفصل التاسع والعشرون

الإفاقة؛ يستخدم مصطلح إفاقة عادة في النواحي الطبية.. فهي الإفاقة من غيبوبة، من مخدر، من حالة اصطناعية يحدثها الطب ليتمكن الجسد من استعادة قواه وعنفوانه..

وبالحياة العادية تتداول تعبيرًا عن الإفاقة من وهم.. من نوبة جنون تتلبس أشد العقول حكمة ورزانة.. من غفلة عن وضع يبدو للبعض غاية للوضوح وإن عميت عيون من هم بمركز القضية..

وبالنهاية لو عبرنا عنها ببساطة فهي العودة للوضع الطبيعي بعد التغيب في حالة من السُبات.. أيًا كان نوع هذا السبات...

بركن ضيق بالغرفة تكومت حبيبة وهي ترمي برأسها بين ركبتيها.. دموعها جامدة ونظراتها شاخصة للبعيد.. لمشهد امرأة تشبهها تمامًا وإن كانت لم تعد تتعرف على سلوكها المتناقض..

امرأة تبحث عن أنوثتها بين ذراعي شاب يصغرها كثيرًا.. شاب التقط حرمانها وحاجتها من نظراتها المبعثرة هنا وهناك..



امرأة لوثت روحها وجسدها بلمسات لا تحق لها.. ولا يحق لها حتى التفكير بها..

ضربت برأسها الحائط ليدوي الألم بصدغيها.. كررت الحركة مرة وأخرى علَّ الألم يفيقها من غفلتها.. من وهمها وبحثها الشائن عما ليس لها..

لمحت ملابسها والتي تبعثر ترتيبها وهندامها.. وشاحها الملقى أرضًا فانقضت لتقتنصه تحيط به رأسها.. كتفيها.. تناشده الستر.. وبعقلها ترى عُريها بين ذراعي فتى شهدت طفولته وصباه..

هي أرادت فقط أن تُحيي أنوثتها.. أنوثة انتهكها نبيل وقتلها بكل مرة يخبرها بتلك الكلمة المقيتة..

"وعاء.."

أنوثة يجهل شقيقها أنه يعذب ما تبقى منه بسماحه لطفل تلك الوعاء بالتواجد حولها..

أنوثة دمرها كل لسان لاك سيرتها.. وكل شفاه التوت شفقة بها..

أنوثة منحها مجتمع المتزوجات لقب الدخيلة السارقة.. ومجتمع الرجال لقب العاهرة الباحثة عن كل لذة..

تبًا لك نبيل وتبًا لكل نبيل بذلك المجتمع ذي الوجهين..

وتعود تضرب برأسها وهي تقر بإدانة لذاتها.. إدانة رأتها مستحقة فهي بالنهاية سمحت له بانتهاكها..

قفزت تراقب صورتها أمام المرآة فجذب بصرها علامة واضحة على عنقها.. أسرعت لتحكها بجنون.. تجذب زجاجات العطر وتحاول تنظيفها فتجدها تزداد وضوحًا.. بل يخادعها بصرها بعلامة ثانية.. وثالثة.. وأخرى..

خيالها يصور أنامل إيهاب وكأنه ترك بصماته بكل خليه بجسدها.. وتتحول البصمات لعلامات.. ثم كدمات دامية.. ثم قبلات فاجرة تفضح لمسات رجل لجسد حافظت على طهره وبرائته وكادت تضيعه بغباء البحث عن الاهتمام!

تريد أن تصرخ.. تستغيث ولكنها تخشى الفضيحة..

الفضيحة!.. وأين كان تفكيرها وهي تسمح له باللمسة ثم القبلة!..

الفضيحة!.. أتخشى نظرات الناس وقد اطلع على سقطتها خالق الناس!..

وتسقط هاتفة بتوسل..

"الستر من عندك يارب"

وعادت تقفز لفراشها تخفي نفسها وجسدها عن مرآتها.. تلتف بغطائها وكأنها تريده كفنًا لها.. ورغمًا عنها تعاودها لحظات سقوطها بذلك الفراش

فتقفز كالمجنونة تجمع مفارشه وتلقي بها بحوض الاستحمام.. تفتح الماء الساخن وتلقي بكثير من المطهرات..

تغسل.. وتغسل.. وتخلع ثيابها.. تتحرر من تلوث افترضته علق بتلك الثياب..

وتنتهي لتتدثر بمئزر ثقيل.. وتسارع للعودة للفراش.. تجاهد لتقلب حاشيته وتعيد فرشه بمفارش جديدة ثم تتهالك بجوار الفراش وكأن كل طاقتها قد نفذت فجأة..

وكأن غيبوبة النوم تنتظرها لتمنحها صك عتق من تعذيب ذاتها..

ولكن بنومها لم تتركها كوابيسها.. فها هي تتلوى بين ذراعي إيهاب ثانية.. وهو يتجرأ عليها أكثر.. يتجاهل مقاومتها ويتعامى عن رفضها.. يخضعها وينال منها..

يلوثها..

أنفاسه ساخنة على عنقها وصدرها تستشعرها وكأنها حقيقية.. جسدها مقيد به ولا يمكنها الفكاك وشفتاها مغطاة بشفتيه ينتهكها صامًا أذنيه عن رفضها ومحاولاتها الابتعاد..

كادت تختنق.. بل هي تختنق.. انقطع الهواء عن رئتيها وتعثرت الأنفاس.. فهي تخضع..

ترى نفسها خاضعة ولم تعد تفرق بين واقع وخيال وكابوس..

كابوس انتفضت منه بفزع وهي تتلفت حولها.. تتلمس جسدها المتعرق والملفوف بالمئزر فتركض لتغرق نفسها تحت سيول الماء المنهمرة.. تدعك جسدها.. بكل مطهروسائل استحمام تجده أمامها.. وتخرج بخطوات متعثرة لترتدي ثوبًا ثقيلًا.. وتخفي رأسها خلف وشاح نظيف.. جسدها مرتعد.. وأفكارها السوداء تهاجمها..

كيف جرؤ إيهاب على اللحاق بها!..

لابد أنها أرسلت له إشارة من نوع ما..

هو يظنها فاسقة..

مجرد امرأة اشتاقت للإحساس بوجودها بين ذراعي رجل.. أي رجل..

سيفضحها.. سيحكي للجميع عن حبيبة المتشوقة لاهتمام رجل..

بل سيبتزها.. سيجبرها على الخضوع وهي لا تعلم سبيلًا للهرب..

سيعود.. أو سينتظرها لترسل إشارة خرقاء أخرى لا تدري عنها شيئًا..

ستتلوث طهارتها وستلوك الألسن سيرتها وتلك المرة ستكون عن حق..

تقلصت معدتها وسقطت لتفرغها بالمرحاض.. لفظت كل ما بجوفها وكأنها تتخلص من آخر أثر لتلك الليلة المجنونة..

تكومت بجوار باب الحمام.. تغيب بمتاهة نوم.. أو ضياع وعي وهي تدعو ألا تستفيق ثانية.. أبدًا..

***

والإفاقة بعد توهم غرقنا به بمحض إرادتنا.. إفاقة لترتيب الأولويات.. لتحديد الأهم فالمهم..

والأهم عند أمنية كان ابنها.. جنينها الذي لم تره ولكنها ارتبطت بوجوده بأحشائها.. والمهم كان علاقتها الوليدة بشقيقة العمر والأم الصغيرة؛ سمية..

فتحت أمنية عينيها بالمشفى وأناملها تتحسس بطنها بهلع.. لتسرع سمية لضمها بين ذراعيها وتهدئتها بحنان:

-ما تقلقيش.. أنتوا بخير..

وترتفع نظرات أمنية بتوسل:

-ابني..

فتزيد سمية من ضمها:

-بخير الحمد لله.. بس هنكمل الحمل وأنتِ على ضهرك.. معلش أوامر الدكتور..

وتومئ أمنية موافقة.. فهي لا خيار لها.. وتغوص بجسدها بين ذراعي أختها ترغب بمزيد من الاطمئنان والحماية.. ومشاعر الذنب تثقل كاهلها..

كيف حملت لها الضغينة يومًا!..

كيف تحملت مقاطعتها!..

والأدهى أن زوجها الحقير فكر في انتهاكها واستغلال ضعفها..

كادت تتسبب بفضيحة لشقيقتها التي بذلت نفسها لأجلها ولأجل توأمها الجاحد..

تساقطت دموعها بصمت.. دموع الندم والذنب.. دموع الاشتياق لدفء الأخوة..

دموع بدأت صامتة ثم تعالت شهقاتها فسارعت سمية لتمسح الدموع وتهدئ الروح المعذبة:

-ليه الدموع دي بس!.. ما تقلقيش من حاجة..

ودموع أمنية لا تتوقف.. تعذبها طيبة شقيقتها من جهة.. ومن جهة أخرى يقتلها سوء اختيارها لوالد طفلها.. مستغل حقير وعديم نخوة وشرف.. وهي مجبرة على العودة لمنزله..

فلا مأوى لها سواه..

رددت وسط دموعها:

-آسفة..

وكانت تعتذر لقسوتها السابقة..

وأعادتها:

-آسفة..

وتلك المرة بدلًا من الزوج الحقير..

-آسفة..

وثالثة فهي كادت تتسبب بأقصى أذى لشقيقتها.. كادت تضيعها حتى بدون أن تدري..

وسمية تفهم ولا تريد أسفًا.. ولا تبحث عن امتنان أو شكر..

وهل يطلب الإنسان ثمنًا لفعل ما هو صحيح بكل سنن وفطرات الخلق!

تهدهد وتدلل:

-هششش.. أنتِ بنتي وأختي.. مالناش غير بعض.. أنتِ وابنك دنيتي الجديدة..

ويزداد نحيب أمنية وجسدها يرتعد بكل تقزز:

-مش هقدر أرجع له.. مش هقدر أرجع بيته..

وبغضب جديد على سمية تهتف بها:

-مين قال هترجعي!.. حتى لو أنتِ طلبتِ أنا مش هوافق..

ونظرات أمنية متوسلة متسائلة:

-هروح فين؟.. ماليش مكان..

وضمة قوية كانت الإجابة:

-بيتي هو بيتك يا عبيطة.. والطلاق موضوع مفروغ منه.. ما تقلقيش..

وترتكن أمنية برأسها على كتف سمية.. تريح عقلها وقلبها وتلقي بهمومها بين ذراعي الشقيقة الكبرى.. تحملتها صغيرة وفهمتها صبية واستعادتها شابة حمقاء آذت نفسها ودمرت حياتها..

ولكنها اكتسبت طفلًا..

جنينًا لا حول له ولا قوة وهي تشعر به يمنحها كل القوة والعزيمة لتعيد مسار حياتها لطريقه الصحيح..

***

الإفاقة من وهم الحب..

من غفلة شعور بدأ قويًا عاصفًا مبهرًا بنشوته..

من صرح عشق خيالي تصورته بأحلامها..

فتأتي الصحوة بيد المعشوق الممسكة بمعول مغموس بالحمق والجهالة ليهدم صرحًا كان في بدايته الأقوى ولم يمنح الفرصة ليتخطى البدايات..

وعلى أرجوحة ساكنة كملامحها ألقت لارا برأسها للخلف تاركة نسمات الهواء الخفيفة تتلاعب بخصلاتها التي زادها الحمل تألقًا.. بل أنه منح ملامحها بهاءً واضحًا..

يقال أن النساء ينطفئن بالحمل ولكن لارا تتزداد توهجًا.. وكأن الحمل أنضج فتنتها وجمالها.. جمالًا نبع من أعماق روحها الرائقة والتي أُعتقت أخيرًا من عبودية عشق ظنته كوشم أحرق جدران القلب لتكتشف أنه كان من الضعف حتى أن الخدش الذي تركه بات في طريقه للإلتئام..

وعلى المائدة القريبة منها جلست مروة برفقة عادل الذي خانته عيناه فكانتا ترحلان نحوها على غير إرادته.. تتأملان كل خلجة، كل ملمح، وكل همسة تصدر منها.. عينيها المغمضتين.. همسها الناعم وكأنها تغني للصغير بأحشائها وأناملها تربت بخفة على بروز بطنها الواضح..

صراع عجيب أقحم نفسه به: تارة تنازعه مشاعر الأب العفوية فيتأمل لارا بنظرات تقطر حنينًا لمشاركتها تلك المتعة بوجود ابنه بين أحشائها.. فيرغب



بضمها.. بتلمس ذلك البروز الفاتن ببطنها ومحادثة الصغير المختفي خلفه.. يتوق أحيانًا ليهمس لطفله كما تفعل هي..

يرغب أن يتعرف الطفل على صوته ويتعرف هو على مراحل نموه.. يشعر بالحسد نحو عماد الذي يشاركها بعفوية تلك اللحظات.. فزوجته هبة أيضًا ببداية حملها.. وأصبح الصغيران القادمان هما محور أحاديث الثلاثة معًا..

وبنفس اللحظة يوسوس له شيطانه؛ ولم تريد مشاركتها!!

كيف تيقنت من أبوتك للمخلوق النامي بأحشائها؟..

ربما هو ابن لعماد لذلك هو ملتصق بها بكل وقت!

وعند ذلك الهاجس ينتفض ضميره نافيًا..

كلا.. لا يمكن..

عماد لن يفعلها بي..

أبدًا لن يفعلها..

ماذا عن نديم!.. لقد وثقت سابقًا أنه لن يطعنك بظهرك؟..



ويهتف عقله موبخًا إياه.. بأخبار نديم المنتشرة وسط العائلة.. فرحلته العلاجية إلى باريس بصحبة زوجته.. كانت نتيجتها الفشل التام.. وأصبح عقم نديم هو الخبر الأكثر انتشارًا..

ولا يخمد شيطانه فيعاود الفحيح.. وهل يجب أن يكون الأب معلومًا لديك!..

هي كانت تسافر وحدها للقاهرة.. بل وأحيانًا تقضي الليل هناك بمنزل خالتها.. ربما هو ابن الخالة الذي أرادته والدتها شاهدًا على زواجهما..

وربما..

ويعاود الضمير صحوته تلك الناعمة الرقيقة لا تخون.. ولا تعبث.. هي وقفت بوجه أمها لتكون لك.. هي ما زالت هنا.. تتحمل غضبك وسوء معاملة مروة..

ويَفُحُّ شيطانه..

كبرياؤها اللعين.. وكأنها لم تُنبذ علانية وتصبح مضغة بالأفواه؛ العروس التي اتخذ زوجها زوجة جديدة قبل مرور شهرين على زواجهما.. ورغم كل الأقاويل.. لم تُبدِ تأثرًا.. ولا حتى غيرة.. كيف تكون عاشقة مخلصة وهي بذلك البرود..!!

ويرق قلبه.. ولكنها بقلب برئ وروح طفلة مشاغبة.. بل أنثى رائعة تحمل طفلك..

وتنتفخ أوداجه.. وينتشي الذكر الأحمق بداخله.. ولا يخفى انبساط أساريره على مروة التي تراقب نظراته المختلسة لغريمتها الشقراء.. الغبي يعشقها ولا يدرك.. نظراته تحيطها وكأنها سياج محبة وحماية.. وتصرفاته تناقض مشاعره بحمق..

حمق ترغب برعايته حتى ينضج ويثمر عن طلاقه لابنة العم الجميلة..

لاحقت نظراته التي تنم عن مشاعر غيرة واضحة.. يغار من شقيقه الذي يمازح زوجته برقة.. ويعود ليمازح لارا، بل ويحرك الأرجوحة بخفة لتتأرجح خصلاتها وتتناثر فوق وجهها.. فيهتف عماد بشقاوة:

"يا سلام لو تجيبي لنا بنوتة شقرا وناعمة كده.. أنا هحجزها لابني.. عايزين نحسن النسل.."

وبرغم أنها تعلم حُسن نية عماد.. وأنه فقط يمزح حتى أن زوجته أخذت تمازحه وتشاكسه ولم تبدِ أي بادرة غيرة.. إلا أن لارا قررت الانسحاب منعًا لأي مشاكل قد تحدث..



وبخطواتها الهادئة والبطيئة نوعًا لم تكن تشعر بذلك البركان الفائر غيرة وغضبًا.. ليست غيرة رجل من آخر، فصراعه الداخلي يجذبه لمنطقة أعمق..

هو يغار من تلك العفوية التي تعامل بها الجميع عداه هو..

زوجها..

يغار من لحظات يقضيها عماد يسأل عن أخبار الطفل ويشاركها فرحتها به بينما هو كبرياؤه وقلقه الدائم من مكيدة قد تحاك له.. يمنعانه من التمتع حتى بتلك اللحظات..

وبكلمات مدروسة أطلقتها مروة:

- لارا وعماد علاقتهم حلوة قوي.. وغريبة قوي كمان..

وانطلق بركان غضبه بعشوائية حمقاء فهتف بعنف:

-لارا!!

توقفت ببطء والتفتت له تنقل بصرها بين نظراته الغاضبة ونظرات مروة المتشفية.. فما كان منها إلا أن كتفت ذراعيها فحدد ثوب حملها الأبيض الرقيق قسمات جسدها بوضوح.. فاشتعل عادل شوقًا وغضبًا:

-ميت مرة أقولك بلاش التصرفات دي..

قطبت بنظرات محذرة:

-تصرفات!!

لتتدخل مروة:

-عادل قصده.. أن عماد مش أخوكِ وهو عريس جديد والطريقة اللي بتتعاملوا بيها..

لتقاطعها لارا بكلمة حاسمة:

-اخرسي.

ثم تأخذ نفسًا عميقًا:

-اخرسي خالص وما تزوديش في الكلام..

ويتحرك عادل خطوة هوجاء هاتفًا بغضب وغيرة من ظهور جسدها بتلك الفتنة أمام الجميع:

-اطلعي أوضتك يا لارا.. مروة قصدها تنصحك.. اطلعي..

ولم يكمل كلمته فهي التفتت بعنف لترحل من أمامهما حتى لا تعرض ابنها لمزيد من الضغوط والكراهية التي تنبعث بوضوح من نظرات مروة الموجهة لبطنها البارزة..

خطوة وأخرى وتعثرت بدرجة السلم التي لم ترها لشدة انفعالها ولرعبها شعرت بجسدها يطير وتيقنت من السقوط المدوي وما سيتبعه من خسارة متوقعة..

أغمضت عينيها تنتظر ارتطامها بالأرض إلا أنها وعلى غير المتوقع شعرت بذراعي عادل تحيطان بها وترفعانها قبل اللقاء المتوقع بدرجات السلم..

لم تعرف بالضبط كيف تحرك بتلك السرعة لينقذها هي وجنينها!..

كانت شاكرة له إلا أنها لم تكن ترغب بذلك القرب منه.. وجوده أصبح خانقًا وغير محتمل لحالتها النفسية..

حاولت التملص من ذراعيه إلا أنه رفعها بسهولة ناهرًا اياها:

-كفاية لعب عيال بقى.. أنتِ ربنا نجاكِ بمعجزة..

صمتت.. لم ترغب بنقاش.. وقررت أن الصمت سينهي تواجده أسرع.. فهو لن يخاطر بغضب العروس المدللة ويحاول التقرب منها، كما أنها أوضحت أنها لن تسمح له بفرض نفسه عليها..

أراحها بفراشها ودثرها جيدًا.. لترمقه بنظرة واضحة ترغب برحيله فترتاح من إزعاج وجوده..



إلا أنها وجدت نظراته تتسمر على بطنها وقد بدا بروزها أكثر وضوحًا وتكورًا لنومها على ظهرها.. ولذهولها وجدت أنامله ترتعد وهي تتحرك لتقترب من طفلهما المختبئ بأحشائها..

ومع نظراتها المتعجبة أفاق من لحظات انغماسه بأبوة يتمناها ويرفضها بنفس الوقت..

وانطلق مبتعدًا عنها وعن ابنهما وعن الفيلا بأكملها..

ومع ابتعاده كانت راحتها تصل لذروتها..

فرغمًا عنه هو يتوق لابنه.. وذلك يريحها.. يريحها للغاية..

فقد ضمنت فداحة خسارته المستحقة تماما..

***

الإفاقة على واقع هادئ يمنح النفس سكينة.. ويكسب الروح الاستقرار والراحة.. والغفوة هنا كانت بميل الميزان.. بالجور على حق من لم تطلب الكثير.. فقط نصيبها العادل من الاهتمام والرعاية..

ومشهد كذاك الذي يتأمله علي يمنح عقله استرخاءً واستقرارًا ضاع منه للشهور..



رؤى تحمل بلال الصغير.. تناغيه وتدلله.. تبدل ثيابه برقة وهي تهمس له بكلمات لم يسمعها علي.. وبالتأكيد لم يفهمها الصغيرولكنه ابتسم رغم ذلك..

ترفعه وتقربه من قلبها.. تضمه بحنان أمومي جارف وتمنحه قبلة جبين هادئة.. بعدها يطالب الصغيربحقه في الطعام..

يراقب طفله بين ذراعيها وهي على مقعدها الخشبي وعلى وجهيهما تنعكس أشعة شمس فتنيرملامحهما وتلمع نظراتها بعشق الرضيع الذي انتبه لوجود والده.. فحرك رأسه نحو مكان وقفته.. وتلتقي نظرته بالصغيرالذي يمنحه نظرة إجلال لا يعرف إن كان يستحقها أم لا!.. ثم يعاود النظر لزوجته الهادئة التي منحته بدورها ابتسامتها الناعمة كما تفعل دومًا..

وكلماته تحاول منحها أمانًا ومودة هما ما يستطيع منحهما:

-أما بشوفك مع بلال وأنتِ بتأكليه وتكلميه.. الابتسامة على وشه.. والنظرة اللي في عينيكِ له.. باحس براحة وهدوء نفسي غريب.

وقد تأتي صفعة الإفاقة على هيئة كائن وردي صغيرتمنح نظراته السكينة كما تطالب بالأمان..



***



الإفاقة قد تعني الانتباه.. انتباه لمشاعر تنمو بأعماق كلا منهما.. ويرفضان منحها توصيفًا محددًا.. فهما اختارا طريقين متوازيين بالحياة ولا يعرفان كيف سيتقاطعان ثانية!..

وجدته ينتظرها بسيارته أمام بوابة المعهد الذي تتلقى به محاضراتها بالتطريز والحياكة..

أشار لها فتحركت لتتخذ مقعدها بجواره وتلقي تحية هامسة ووجنتاها تتوردان كعادتها كلما تركزت نظراته المهتمة على وجهها..

اعتصمت بالصمت قليلًا ثم شكرته بهمس:

-بتعبك معايا..

هز رأسه وهو يمنحها تلك النظرة التي تزيد من تورد وجنتيها:

-كان عندي شغل جنب المعهد.. يعني كنتِ في طريقي..

تنهدت بصمت فهي اعتادت على تواجده أمام بوابة المعهد وبكل مرة يمنحها عذرًا مختلفًا لذلك.. فقررت عدم إثارة الموضوع..

تلك الأيام حدث بها الكثير طلاق أمنية وانتقالها للإقامة معها.. وطلاق رانيا وعودتها المتوقعة..

دوامات.. عقلها يدور بدوامات ولا تجد لها منفذًا ولا خلاصًا..

تجد أن الأحداث عادت بهم لنقطة البداية.. مع فارق أنها لم تعد تشكل عبئًا وزوجة مفروضة على حمزة..

هو أصبح حرًا.. وأمنية كذلك.. بقي لها أن تضع طفلها وبعدها...

شهقة مكتومة كادت أن تفلت منها وعيناها تتأملانه بتساؤل لم تجرؤ على طرحه.. وتصور ينسج خيالاته بعقلها؛ بإمكانية ارتباط حمزة بحبيبته الأولى..

وهل لها وقتها أن تعترض!

ولكن هناك تلك الغصة.. تلك الحرقة بجوفها والتي تمنعها من تقبل ذلك..

تبًا لكِ سمية.. أصبحتِ أنانية تتوقين لمن هو ليس لكِ..

وتنهر نفسها بعنف..

أتوق!..

كلا.. هي فقط العشرة والتعود.. وهو رجل حر.. وله كامل الحق باختيار من تشاركه حياته.. هي اختارت حريتها.. وهو منحها لها بطيب خاطر فلا يحق لها التذمر الآن..

حقًا كيف تمكنت من توجيه لوم لأمنية لابتعادها عني وقت زواجي بحمزة!.. كان معها كل الحق.. أنا فقط لم أتمكن من تقدير مشاعرها بحياد..

لم تنتبه لنظراتها التي شردت بملامحه.. نظرات حملت الذنب والحيرة... والغيرة..

وكعادته قرأ ملامحها والتي يراها كتابًا مفتوحًا أمامه.. ورغمًا عنه رأى غيرتها وحيرتها واضحة فارتسمت ابتسامة فخر رجولي على شفتيه وهتف بها:

-ريحي عقلك من الدوامة الفارغة دي..

توسعت عيناها بدهشة ومعاني كلماته تصلها بوضوح ونظراته تخبر بالمزيد الذي لم يتمكن من قوله..

أشاحت بوجهها بعيدًا عن عينيه وأخفضت نظراتها التي التمعت بها فرحة نهرت نفسها على الفور لإحساسها بها..

وهو عاد يتأمل خجلها الواضح ويقبض أنامله بقوة يمنعها من الامتداد لملامستها..

وعقله ينهره بغضب..



تبًا..

كانت ملكًا لك..

حلالك لأشهر وأنت كالأعمى لم ترها.. وعندما أُنيرت بصيرتك كبَّلكَ ضميرك وسبق تفكيرك ليطلق سراحها..

تنهيدة خفية بقلب كلاهما لم يشعر بها الآخر.. وتساؤل فضلا أن يبقى حاليًا بلا إجابة..

فقد تكون الإجابة غير كاملة بعد..

رافقها على درجات السلم كعادته.. ليصلهما صوت والدته التي تتقمص تلك الأيام دور مفرق الجماعات..

فهي تعيش بحالة من الرعب على بكرها وقد أصبح محاطًا بمجموعة مطلقات!

بدءً من سمية طليقته هو شخصيًا ومرورًا بأمنية الحبيبة الأولى.. وبانتظار عودة ابنة العم اللعوب.. وأخيرًا حبيبة ورغم أنها لا ترى أي خطر من وجودها؛ إلا أنها لا تملك إلا أن تقلق.. فهي بالكاد تخلصت من سمية والتي لم ترها أبدًا تصلح كزوجة تليق بالابن الأكبر ذي التعليم الأوروبي.. وجُل ما تخشاه أن تكون علقت قلب حمزة بها..

-سمية..

كان ذلك صوت خالتها.. مما جعلها تتوقف وتلتفت لها بابتسامة:

-أيوه يا خالتي.. خير؟

رسمت والدة حمزة ابتسامة بريئة وهي ترمي بكلماتها بحرص:

-كنت محتاجة مساعدتك شوية.. عندنا ضيوف على الغدا وأنا لوحدي..

والتفتت لحمزة:

-الباشمهندسة ألفت بنت الحاجة اعتدال.. اللي كلمتك عنها إمبارح..

وعادت تخبر سمية بصوت متواطئ:

-عروسة زي القمر يا سمية يا بنتي.. ربنا يجعلها من حده ومن نصيبه..

امتقع وجه سمية للحظات ورغمًا عنها رشقت حمزة بنظرة لائمة:

-حاضر يا خالتي.. هاغير هدومي وأطمن على أمنية وأنزل على طول..

وطارت سمية من أمامهما.. وحمزة يساعد أمه لتدخل منزلها ويخبرها بحزم:

-أنا قلت لحضرتك إمبارح لأ ورفضت الموضوع ده من بابه.. إيه لزوم العزومة؟.. أنا مش هتجوز دلوقت..

أخبرته بمداهنة:

-أنت أما تشوف ألفت..

قاطعها بحسم وهو يختفي بغرفته:

-لا ألفت ولا مرفت.. الموضوع منتهي..

واختفى خلف بابه الذي دوى صوت صفعه له عاليًا..

ولم تهتم أمه برفضه.. ستجلب له كل يوم عروس إذا لزم الأمر.. ولن تهدأ حتى تراه بجانب عروسٍ تليق به.. وتمنحها أحفادًا طال شوقها لهم..

انتظر حمزة بغرفته لنصف ساعة.. بعدها تسلل للمطبخ وكما توقع وجد سمية منهمكة بتقطيع الفاكهة لتصنع "سلطة فواكه" كما طلبت منها خالتها..

تنحنح ليجلي صوته وينبهها لحضوره.. فرفعت أنظارها له ثم عادت لتنتبه لفاكهتها وإن كانت حركتها أصبحت أكثر عصبية وأشد عنفًا..

اقترب منها حتى شعرت بأنفاسه فوق رأسها فتحركت مبتعدة.. ولكنه مدفوعًا بهاجس مُلِح بالاقتراب.. لم يبتعد، بل اقترب أكثر يحني رأسه هامسًا:

-على فكرة أنا رافض موضوع العرايس والخاطبة والكلام الفارغ ده..

وهي تفرغ غضبها المكبوت والذي تلوم عقلها عليه بشدة في تقطيع ثمرات الموز المسكينة وتهتف بغيظ:

-دي حاجة تخصك..

ومشاعرها التي تصرخ بالغيرة تتضح له أكثر فتزداد نشوته وإحساسه بأنه على حق.. وإطلاق سراحها كان التصرف السليم.. فهما الآن يختبران بداية مشاعر صحيحة وصحية للغاية..

أراد التلاعب بغيرتها، بل أراد منها إظهار المزيد فسألها ببراءة:

-طيب ما تتغدي معانا وتقوليلي رأيك في العروسة..

كانت تتمزق بفيض من المشاعر.. خليط من الذنب والغيرة والذنب أيضًا لشعورها بالغيرة..

هي لم تعتَد تلك المشاعر القوية.. ولم تحسب أن تختبرها يومًا..

التفتت له لتجده يرمقها بتلك النظرة الخاصة.. فازداد احتقان وجهها بمزيج من الخجل والغضب..

لمَ يمنحها تلك النظرات.. ذلك الاهتمام.. وهو يبحث عن أخرى!!



أخرى تليق به كما ظهر واضحًا بنظرات خالتها.. عند تلك الكلمة هدأ غضبها وشحبت ملامحها فجأة.. وسكن كل شيء بها حتى أن حمزة شعر بها تنطفئ بغتة فهمس بقلق:

-في إيه يا سُمية؟

ويضغط "السين" يعذب بها قلبها.. ولكنها تتماسك وتخبره بحزم:

-خالتي لها نظرتها أكيد.. وهي بتقول مهندسة.. يعني تليق بيك..

ورغمًا عنه اقترب.. ولم يقصد أن يلمسها ولكنه فعل.. وأنامله لامست شفتيها يسكتها بحزم:

-هششش.. مراتي أنا اللي هختارها.. رغم إن اللي اختارتها رفضتني.. بس..

وامتقعت ملامحها خجلًا تلك المرة وأزاحت يده ولم تسأل عن بقية الجملة.. وتقهقرت بارتباك لذيذ تشيح بسكين الفاكهة بوجهه وتهتف بحروف متقطعة:

-اطلع.. بره المطبخ.. يا حمزة.

ويتراقص قلبه مع حرف "الزاي" خاصتها ويقترب غير مبالٍ بالسكين ويهمس:

-بس أنا مش مستعجل..

ويخرج بصفير متسلٍ وهي تقف بدقات قلب خرجت عن مسارها..

ووالدته تلمح القرب.. والغزل.. والخجل.. وتستشعر الخطر..

وتقرر..

إن لم تستطع تزويج حمزة..

فلتزوج سمية..

***

الإفاقة من غفلة سقطت بها لا إراديًا.. وربما متعمدًا.. فوجودك بمركز الدوامة يكسبك عجزًا قهريًا يمنع عنك القدرة على الخلاص.. فتكون أشبه بغريق يصارع تلاطم الأمواج غير قادر عن تحديد وجهة البر.. الأمان.. الإنقاذ..

فتارة تزداد غوصًا نحو الهلاك وتارة أخرى تلمح نور الهداية..

كلمات تشبه الحجارة المسننة خرجت من شفاه الطبيب النفسي الجديد الذي اهتدى إليه علي بعد بحث دقيق..

وبعد شرح مستفيض لحالة ريم كما يعرفها علي.. وبعد استفسارات ومقاطعات عدة من الطبيب.. جاء تفسيره صادمًا لعلي.. فقد حصر

التفسير بين ثلاث اختيارات وذلك كتشخيص مبدئي.. فلابد قطعًا من عدة جلسات منفردة مع المريضة.. قبل أن يعطي تشخيصًا نهائيًا..

بكل خطوة خطاها علي بطريقه لمنزله.. كانت كلمات الطبيب تعاد بذهنه.. فتارة يصدق وأخرى يستنكر ويرفض حتى التفكير في تلك الكلمات الملغومة..

"شوف يا باشمهندس.. أنا مش هقدر أوصل لتشخيص نهائي إلا بعد ما أقابل المدام.. وطبعًا ده برضوه مش هيحصل إلا بعد عدد من الجلسات هيتحدد مع المقابلة الأولى.. بس ممكن أحصر التفسير في تلات احتمالات.. أولاً رفض وخوف مرضي من الحميمية.. أو ممكن تكون مرت بتجربة جنسية مدمرة معاك أو مع غيرك.. اعذرني يا بشمهندس أنا سمعتك بس لازم أسمع منها.. وآخر احتمال أن المشكلة مش نفسية والمدام على علاقة خارج الجواز"..

ومع كل كلمة تخرج من شفتي الطبيب كان علي يقبض كفيه أكثر وأكثر.. ورأسه تتحرك برفض كلي لما يسمعه.. فالاحتمال الأول نفته طبيبتها ولكنه لا يعلم إن كان يمكنه الوثوق بها أو لا!..

ولكن الثاني!!..

يا الله!!!..



أي تفسير هذا!..

أي تجربة جنسية قد تختبرها صغيرته الحبيبة!..

لقد قضي أوقاتًا طويلة بمنزلهم.. لم يبتعد سوى سنوات سفر حمزة.. ومع عودة صديقه بأول أجازة طويلة طلب الاقتران بها وهي وافقت وأبدت خجلًا وسعادة واضحة..

أي هراء هذا!..

ورفضه للاحتمالين وضعه وجهًا لوجه باحتمال لا يتقبله أي زوج، بل أي عاشق قدم كل فروض العشق بمحراب حبيبته ولم يتلقَ سوى النبذ والتحقير..

وصل لشقته ولا يدرِ متى أو كيف!.. فعقله يغوص وأفكاره تغرق بكلمات الطبيب.. يحرق ذهنه بحثًا عن حل..

هل يرضى باقتراح الطبيبة ويعرض ريم لتلك العقاقير التي تجعلها تبوح بما داخلها رغمًا عن إرادتها؟.. أم يخضع لرأي الطبيب الآخر ويصطحب ريم معه فتبدأ العلاج من البداية!!

وقد يفهم حينها ما يجري بداخل عقلها؟.. وفي كلتا الحالتين، هل هو مستعد لمواجهة تلك الحقيقة التي يدور بحثًا عنها؟..

هل لريم تجارب مع رجال آخرين!.. سواء قبل الزواج أو بعده؟.. لكن كيف؟. كيف؟..

عشقها له لا يمكنه التشكيك به هي عاشقـ..

هاجمه هاجس خبيث يلقي في ذهنه بكلماتها المهينة سابقًا..

صراخها به..

"أنا باخد ده عشانك.. بسببك.. عشان أقدر أسمح لك تقرب مني.."

هز رأسه بسرعة محاولًا الهرب من تلك الأفكار.. كلا.. كلا.. هي لن تفعلها.. لن تخون ولن تطعن..

بحث عنها في الشقة ولم يجدها، فخمن وجودها بشقة والدها..

وتحرك للمطبخ يعد لنفسه قدحًا من القهوة علها تقضي على الهواجس التي زرعها ذلك الطبيب بعقله..

ولكن أين المفر!!.. وكلماتها النافرة منه.. المحتقرة له تطارده بكل ملمح بالمنزل..

" عشان ما أحسش بحاجة وأنا معاك.."

ابتعد يحمل قدحه بعيدًا.. مدد جسده على إحدى الأرائك ليدوي صوتها بعقله..

"والله هو ده اللي عندي.. لو مش عاجبك روح اتجوز.."

لقد دفعته بالفعل للزواج.. أيكون ذاك بسبب شعورها بذنب الخيانة.. أم أن احتمال تعرضها لــ..

كلا.. لن يترك عقله لتلك الاحتمالات.. حبيبته لن تفعلها.. هي خجلة.. شديدة الخجل.. قد تكون باردة معه ولكن..

"اتجوز وريحني من قرفك ده.."

ترددت الجملة بذهنه مصحوبة بكلمات الطبيب لتدفعه للقفز بعنف..

وسؤال يتردد بقوة.. هل هناك آخر؟..

آخر سبقه وألحق بها أذى لم ينجح حبه بعلاجه؟..

أم آخر بعده يداوي بها جرحًا هو سببه وإن لم يدرِ كيف!..

وقف بمنتصف الغرفة وعقله يدفعه لشيء واحد..

ابحث..

ويداه تدوران بجنون بأدراج المنضدة الجانبية..

والنتيجة..

لا شيء..



"والمهووسة دي بتضطر تخدر نفسها وتدخل في غيبوبة عشان تتحمل لمستك.."

تعاوده الجملة.. تتردد بعقله.. تضخ دماءً تغلي بعروقه..

فتش عن دليل..

وقلب كل جارور بالغرفة.. كل خزينة مغلقة..

ونفس النتيجة..

لا شيء..

"أنا مش عايزة ولادك يا علي.. خلف ولادك من واحدة غيري.."

جِد إشارة..

والإشارة وجدها.. جارور مغلق وسط ملابسها.. ذلك الذي تحتفظ به بمصوغاتها الذهبية..

وقف أمامه للحظات.. تجمد.. وقلبه تعتصره قبضة مجهولة السبب.. يرمق الجارور ببغض وكأنه حية تنفث عن سمها..

لا يدري ماذا أصابه!..

هو يعلم بوجود الجارور المغلق.. ولم يفكر به من قبل!.. ولكن كلمات ذلك الطبيب قلبت كيانه وأبدلت ثوابته..

لحظات.. فقط لحظات استغرقها ليكسر الجاروروتقتحم عيناه ما بداخله.. ليتنهد براحة ويعاوده هدوئه.. فقد لمح قطع المصوغات متناثرة بأنحاء الجارور..

اللعنة على كلمات الطبيب التي توغلت بعقله وجعلته يشك بـــ..

وأنامله سبقت أفكاره وهي تمتد للعلبة المخملية المستطيلة.. تلك المفترض بها أن تحوي القطع الذهبية.. ولكن بداخلها.. وجد ضالته..

الإشارة..

دفترمذكرات قديم.. نقش على مقدمته اسم ريم بحروف واضحة.. حروف يعرفها تمام المعرفة.. وإن بدت أقل نضجًا وأكثرطفولية..

قبضت أنامله على الدفتروتقهقرت ساقه لينهارعلى طرف الفراش وعيناه بدأت تمرعلى ما خطته ريم بصفحاته..

"مع سكينته على رقبتي وحزام بنطلونه رابط بيه إيديا وشفايفه بتخرس كل صرخة حاولت أصرخ بيها يمكن حد ينجدني؛ ودعت براءتي وطفولتي للأبد.. ضاعت مني سنين مراهقتي عشان هويرضي غرايزه.. دفنت شبابي كله عشان أهرب من اللي عمله فيَّ في الأوضة دي"

تكورت قبضتاه وهو يرمق الكلمات وعقله يرفض الاستيعاب..

كلا.. ذلك لم يحدث.. لم يحدث.. هي تتخيل.. أوربما..

كلا.. لا يمكن.. لا يمكن..

كان يرددها بهوس وكأنه يرفض إدراك الحقيقة.. ولكن الحقيقة كانت تصفعه بكل حرف.. بكل كلمة.. بكل سطر..

"يومها ريم ماتت.. وغزالته.. الاسم اللي كان بيناديني بيه هي اللي عاشت.. جارية اشتراها لمتعته المقرفة المنحرفة.. والتمن كان خوفها.. كسوفها.. خزيها من اللي حصل "

ألقى بالدفترمن يده وكأنه جمرة متوهجة أحرقت مسامه.. وليته كان جمرة.. ليته كان نارًا مشتعلة تحرقه وتحرق ذلك الحقيرالنذل ذاك الذي لايستحق لقب إنسان..

رمق الدفترالملقى أرضًا بكره.. جسده يختض اشمئزازًا ووجلاً.. وعيناه تحولتا لكرتي لهب حمراوين.. وشفتاه عجزتا عن التحرك وكأنه على وشك الإصابة بشلل تام..

كيف حدثت تلك البشاعة؟.. مَن؟.. ومتى؟.. وأين؟.. وكم دامت؟.. وهل علم أحد أم..

أسئلة عديدة لا تهاجمه وإجابتها بتلك المذكرة التي ترقد أرضًا بسكون وكأنها لا تحوي ما يزلزل الكيان ويبدل الثوابت..

جذبها ثانية.. وعيناه تمران ثانية بين صفحاتها..

"ما بقيتش أعرف أنام.. الكوابيس بتطاردني طول الوقت.. هو دايمًا في أحلامي.. المطواة.. نظراته المرعبة.. ريحته اللي بتقتلني.. لمساته اللي بتخنق روحي.. باصرخ كل ليلة وأمي بتظن إني محسودة.. تولع البخور وترقيني بكل رقية تعرفها.. تحرق العرايس الورق وتخرمها بالإبرعشان تحميني من عين الحسود"

التنفس يتعثر.. وعقله يخبره بوضوح أن يكف.. أن يغلق ذلك الدفتر ويمنحه للطبيب.. ويترك له الأمر.. وهو.. هو.. لا يدري كيف التصرف..

عيناه ترغمانه على العودة للدفتر..

"الكوابيس بقت بتطاردني بالنهاركمان.. لا لا.. مش كوابيس.. هو، مجرد إني أشوفه بيتحرك في البيت باترعش.. باحس روحي بتنسحب مني.. باموت وأبقى عاوزة أجري أستخبى في أي حتة بس نظراته اللي بتقولي أنتِ بتاعتي بتوقفني مكاني غصب عني وأبقى مش عارفة أعمل إيه!"

انقبض قلبه كما يداه وجفناه يتسعان فوق نظرة مطعونة..

المُنتهِك من أهل البيت!!

لكن مَن!!



مَن!!

مَن!!

السؤال سيقتله..

والإجابة قادمة لا محالة..

وقهرًا كان يكمل الوجع..

"أمي تشوفني باتصرف بجنون قدامها فتظن إني ممسوسة.. ممسوسة فتزيد من قراية القرآن والأدعية.. مستوايا الدراسي يتراجع.. درجات ضعيفة.. وسرحانة دايمًا والمدرسات بتشتكي لأمي.. وترجع تقلق تاني وتقول إني محسودة وترقيني.. بعدها تجرني وراها على المطبخ.. تعلمني الطبيخ وتقول أهي لو ما فلحتش في التعليم؛ تعرف تتجوز وتفتح بيت"

شهقة عنيفة ارتجت بصدره وهو يلمح السطر التالي..

"افهمي.. أنتِ اللي عملتِ فيَّ كده.. الغلط فيكِ أنتِ.. عندك سمية أهي.. ولا ممكن أفكر فيها.. بس أنتِ.. أنتِ حاجة تانية"..

...

والشهقة الموجعة ذاتها كانت ترج جسد ريم بأكمله.. شهقة قهر.. شهقة انهزام.. شهقة انتهاك تحاول كتمانها ببسالة ويد ممدوح تضغط كفها بعهر بين وكلماته تصلها بالكاد:

-مبروك يا ريم الجواز.. ولو أنها متأخرة.. كان نفسي أكون موجود..

سحبت يدها بسرعة تخفيها بجيب تنورتها لتقبض على السكين الراقد به.. سكين اجتذبته بسرعة من مطبخ سمية عندما وصلها هتاف سمية وهي تلف وشاحها وتخبرها بوجوم..

"خالتي اتصلت وبتقول ممدوح ورانيا وصلوا وعايزانا ننزل نرحب بيهم"..

واختفت سمية بغرفة أمنية للحظات بدا أنها تبلغ الأخيرة بوجهتها.. ثم عادت واصطحبت ريم لتذهبا للترحيب بالعائدين..

كان لقاء رانيا باردًا كالعادة.. ولغرابة الأمر لم تستطع مواجهة عيني سمية اللتين التمعتا بنظرة مختلفة.. وسريعًا تبادلت رانيا كلمات مرحبة ثم هرعت لغرفتها تتذرع بإجهاد السفر..

عادت ريم من شرودها وهي تشعر بحد السكين يقطع أناملها ولكنها لم تهتم.. كل ما كانت تفكر به.. الهرب.. الهرب والاحتماء ببيت علي.. الصمود أمام الحقير حتى لا تلفت الانتباه..

آلاف الصرخات تختنق بحلقها.. تتسارع لتهرب من حاجز شفتيها المطبقتين.. تخنق أنَّات روحها المكلومة بعنف.. وتصارع لرسم قناع جامد لملامحها..

فزلتها تعني انكشاف الماضي..

تعني الفضيحة..

تعني ابتعاد علي..

كرهه..

اشمئزازه وتخليه عنها..

هي صمتت غصبًا وكرهًا بالماضي.. وستجاهد لتصمت الآن حتى لا تفقد علي..

جذب صوت أمها انتباهها وهي تقدم العزاء لممدوح:

-البقاء لله يا ممدوح في مراتك.. أنت دفنتها كده يا ابني بعيد عن أهلها..

ليتصنع الحقير التقوى وهو يتمتم بحزن مفتعل:

-اتدفنت في الأراضي الطاهرة يا مرات عمي.. كان نفسها تعمل عمرة وربنا استرد أمانته وإحنا في المدينة.

عاودت أمها سؤاله:

-ويا ترى بنتك عايشة معاك لوحدك؟.. جيبتها معاك ولا..

ابتسم تلك الابتسامة المقيتة والتي ظنتها قديمًا ابتسامة طيبة:

-أنا اتجوزت.. أخت أبو بندر.. ست كريمة وطيبة.. وآلاء بنتي معاها هناك..

رفعت أمها حاجبيها وهي تسأل بعجب:

-وطالما أنت متجوز أخته طلق أختك ليه؟

أخفض نظراته أرضًا فهو لن يخبرها بالطبع أن السيدة تكبره بأكثر من عشر سنوات.. وأنها عرضت نفسها ومالها عليه بوضوح.. وهو قبل الصفقة.. ولن يضحي بها لأجل عيون أخته المطلقة..

وبرع برسم علامات الطيبة:

- الست ما غلطتش معايا هاخدها بذنب أخوها ليه؟

لتمصمص أمها شفتيها:

- أصيل يا ممدوح.. مش زي جوز ريم اللي جري اتجوز عليها..

وهتاف ريم لم يتجاوز الهمس وحز السكين يرسم علامات وشروخ واضحة بأناملها فهي تضغطها بجنون:

-ماما..

ونظرات نشوة تألقت بعينيه.. دفعتها للقبض على السكين..

الألم واقعي..

حقيقي..

ولكنها لا تهتم..

ويلتفت لزوجة عمه هاتفًا:

-لا.. لا.. ده اسمه كلام.. أنا لازم أكلم عمي أول ما أشوفه..إزاي يقبل؟

والتفت لريم يُعريها بنظراته التي تفهمها هي فقط:

-دي ريم تتاقل بالدهب..

قطرات الدم الدافئة بدأت تنساب بين أناملها.. لا تدري لمَ منحتها اطمئنانًا؟!.. فالسلاح حاد.. وهي تمتلكه.. ستقاوم وتدافع تلك المرة لو حاول الاقتراب..

فالآن شرف علي سيكون على المحك..

وهي لن تضيعه.. ستصونه كما صان وحافظ وراعى..

عاد ينظر لزوجة عمه... ثم ينقل نظراته لريم:

-طيب هي توافق بس.. وبيتي هينور بيها..

وشهقتها كانت تماثل سكرات الموت وهي تنتفض بحركة أرادتها عنيفة ولكنها جاءت واهنة بطيئة ولسانها يردد:

-أنا.. أنا..

وأناملها تضغط على حافة السكين بقوة.. تستعذب حرقة الوجع..

وحلقها جاف لا يساعد الكلمات على التشكل:

- مش هسيب علي..

...

وعلي بشقتهما بالأسفل يرمق السطور بجنون.. كلمات ريم بالدفتر تفضح عجزه.. قهره.. حبر صفحاتها كبل رجولته.. وأسال دمعه وأثار جنونه..

"افهمي.. أنتِ اللي عملتِ فيَّ كده.. الغلط فيكِ أنتِ.. عندك سمية أهي.. ولا ممكن أفكر فيها.. بس أنتِ.. أنتِ حاجة تانية"..

"إزاي هاحكي له؟.. طب هاقوله إيه؟.. هيصدقني يا ترى؟.. ولا هاكون في عيونه المذنبة؟.. هيقدر يحبني زي الأول؟.. هيفضل يشوفني ريم حبيبته البريئة الطاهرة؟"

...

وهي تهرب من شقة والدها.. لم تتحمل الهواء الملوث بوجوده للحظة زائدة فابتعدت بسرعة تأمل الاحتماء بجدران علي..

تنفسها ضاع بخضم هروبها فتمسكت بجدار الدرج للحظات تعيد توازنها المختل..

لحظات اعتذربها ممدوح من زوجة عمه على فظاظته مع ريم فهو ظن أنها انفصلت عن زوجها بعد زواجه الثاني وأراد إكرام ابنة عمه..

وكلماته مرسومة بعناية:

-أنا لازم أعتذرلها على سوء الفهم ده يا مرات عمي.. عن إذنك ثواني..

وأسرع ليلحق بفريسته..

...

وعلي بالأسفل يغرق أكثروأكثر بين كلماتها الموجوعة..

سرها الأليم..

ماضٍ لم يتخيله بأسوأ خيالاته..

ماضٍ على وشك الافتضاح..

وصفعة إفاقة بانتظار الجميع..



الفصل الثلاثون

الحقائق صناديق مغلقة..

وإن لم تكن جديرًا بمواجهة التوابع.. فربما ينبغي ألا تفتح الصندوق!

تلك الزلازل المدفونة طي الكتمان قد تهدم أسس مبادئك، تقض ثبات معتقداتك، وتحيلها لتراب فوق عقلك الغافل..

إن لم تكن أهلًا لتقابل مارد الوجع.. عليك أن تبتعد، تهرب.. تختبئ، فربما حينها يمكنك النجاة!

لكن هل من نجاة إثر كشف المستور خلف حجب الماضي الأليم!..

هل من مخرج بعد الغوص في أوحال الأمس الدفينة بالصدور!..

هل من طيب لجرح تقيح وامتلأ بصديد القهر والخضوع.. والعجز!

"ممدوح راجع خلاص.. راجع وبرده هاسكت زي ما سكت زمان، مش هاقدر أتكلم.. مش هاتحمل أخسرك يا علي.. إنك تكون معايا بماضيَّ المسجون جوايا أرحم بكتير من إني أحرره من سجنه وتضيع مني.. أرحم من إنك تكرهني"

آخر ما وقعت عليه عيناه، إدخال حديث اختلط حبره الأزرق ببلل دموعها وحرقة قلبها حتى تجعدت الورقة وتشتت الأحرف بعشوائية بل حتى الخط نفسه انكسر كأنما رعدة اليد التي كتبته تفضح هلع صاحبتها.. خوفها وذعرها من اقتحام ماضيها لحاضرها..

من عودته ليشوه المطموس خلف جدار ذاكرة انتقت بعناية كيف تحيا!.. كيف تنسى!.. كيف تمرر ما تريد عبر فلتر المشاعر الفوضوية المثقلة بالهموم!

أغلق الدفتر بوجوم.. بسكون.. بقلب يتأوه والشفاه تحجز آهة وجعه فتنهال عليه مطارق الذنب، ربما لو كان هنا.. لو كان فهم.. لو كان فكر.. لو كان قدَّر!

نهض يدور بتيه، تدرج لعنف وضياع والصراخ المحبوس يعصر خافقه بقبضة قاسية، هل يقتل!.. يزعق!.. يكسر!.. يحول منزله جوار ذاته لحطام!

هل يذهب إليها فيهزها حتى تفقد وعيها ثم يضمها ويحنو ويمنح الأمان ويرمم الثقة والكيان الهش المتصدع!

هل يلومها!.. يلوم ضعفها!.. خوفها!

يقتلها.. يحتضنها!

يلوم أخاها!.. أباها!!.. أمها!!

وكادت الصرخة تشج حلقه دون صوت وشفتاه تنفرجان بفحيح لاهث، رفع رأسه للسماء وقبضتاه تنضمان فوق صدره بأنين خافت شبه مكتوم..

هو فقط.. عاجز!

لا.. هو مقهور، وآه من قهر الرجال!.. آه منه لو تمازج بعجز، واختلط بذنب، وذُرفوقه الندم!

ربما لوم نفسه فريضة!

كيف لم يعِ ما بها!..

لم يخمن أو يفتش أو يمنحها الفرصة ويمنحها لعقله معها!

"أنا باخده عشانك.. بسببك.. عشان أقدر أسمح لك تقرب مني"

"عشان أتحمل أنك تلمسني"

"عشان ما أحسش بحاجة وأنا معاك"

"ده مش إدمان.. دي غيبوبة"

كان تخدر نفسها لتكون معه!..

لم تكن علاقتهما سوية أبدًا، كانت تمنحه بقدر ضئيل وتأبى وتتمنع وهو ظن بحماقة رجل شرقي أنه خجل البدايات.. ثم برود أنثى كارهة!

تبًا له..

"اتجوز وريحني من قرفك ده"

وما ظنه كرهًا له.. كان بغضًا ووجعًا وأثر انتهاك، لكن لماضيها هي!.. بل لآخر.. آخر سبقه إليها، آخر لم يكتفِ بتدنيس جسدها ووصمه بوجوده، بل دنس روحها البريئة.. الوحيدة!

اللعنة عليه.. كيف لم يفهم!

ويستدرك أفكاره مرة تلو الأخرى، فكيف يفطن أو يخمن وهو من عاشر أهل البيت لسنين؟.. من دخله ومكث فيه كواحد من ناسه فكان أدرى بسكانه!..

لو ظن بهم السوء وتكالبت عليه الظنون فكيف يمكنه الاستمرار وهم أهله!

"ممدوح"

ورغم كونها أحرفًا مكتوبة لكن كان لها صدىً تردد بجنون بين جنبات عقله، دار حول نفسه، خطا هنا وهناك..

"ممدوح"



والاسم يتكرر.. يعلو.. يصم العقل والقلب والروح.. ثم تاه أكثر، والجنون قارب الخبال والتفاصيل باتت غير محتملة والكلمات تعاد لتمزق أفكاره وتفجر دماغه..

عندها انتهى بسقطة انكسار فوق الفراش..

ودموع علقمها وجع، وأنينها صمت!

...

فِرِّي يا غزالة.. سارعي في خطواتك، التقطي أنفاسك ولا تتوقفي..

لكن الفخ محكم، والصياد خبيث النفس وماهر بالصيد، اهربي فربما تجدين حبل نجاة.. أو ربما هذه المرة يكون السقوط مروعًا، والنتيجة تحمل معها النهاية!

الصياد يتبعها، ومع لهاث أنفاسها الهاربة تحركت قدماها من جديد، والإفلات من بين مخالبه بات محالًا، خطوات تكاد تكون غير محسوبة واحتجزها على المساحة الصغيرة بوسط الدرج بين طابقها وطابق منزل أبيها..

كانت تعلم أنه خلفها لكن صدرها لم يحجب الشهقة.. الذعر، عيناها لم تخفيا الهلع.. الألم، وجسدها استجاب برعدة.. بارتجاف، وتعرُق بارد نبت

فوق الجبين وتسلل بخبث بطول ظهرها الذي أسنده للجدار بمواجهة التواء شفتيه ببسمة انتصار وتشفٍ..

ثم قبل أن ينطق ودون أن تصرخ حررت السكين من مكمنها بجيبها، وجوار دمائها التي سالت بين أصابعها حرَّكتها بعشوائية جرحت ساعده فأصابت منه دهشة وخطوة تراجع واحدة فقط.. تبعًا للمفاجأة، وما تلاها لا يهم..

فمع خطوته عادت لهروبها، وأجهض هو المحاولة بأسرٍ لذراعها، بنزع للسكين وإلقائه أرضًا، بدهسه بحذائه كأنما يخبرها أن النجاة.. مستحيلة رغم الدم الذي تسرب من جرح يده ببطء..

سجنها من جديد وكان هو الجدار والقضبان والأصفاد، ثغره انحنى بسخرية بسمة، وصوته خرج مفتعلًا دهشة مستخفة هازئة:

- القطة اتعلمت تخربش.

ولم تفتح فاها، بل حتى لم تتنفس وهو يميل، يقترب ويحرق بهوائه الحار وجنتها ليتمم الهمس بأذنها:

- ولا أقول.. غزالتي اتعلمت تصيد!

وهي أحاطت بها أنفاسه، رائحته، لمساته.. تخلل مسامها صوته واقتحم مسامعها بغثاء حديثه.. حاوطها دون مهرب بل دنا واحتل الأفق والنظر والبدن..

ضغط جسدها بجسده، تحركت كفه عند وجهها، مرت منه لخصلاتها الغجرية التي طالما بثته الجنون، وتعالت دقات قلبه لتستشعرها بتيه..

كانت ترتعش، كل خلية بجسدها ترتجف برعدة موت.. برودة تخللت أعصابها وهي تلف وجهها بعيدًا عنه، عن أنامله التي استحلت حرامها، وعبثت بأمانها..

قدماها تيبستا خاضعتان لسيطرته.. خانعتان للخوف، والرهبة.. وربما بانتظار موت هو أقصى الأماني.. هو الراحة!

- بقيتِ أحلى من الأول يا غزالة.. قولي لي..

وأجبرها على مواجهة عينيه فتعانق جفناها رغمًا عنها:

- لما بتبقي مع جوزك؛ بتفكري فيه.. ولا فيَّ؟!

وكادت تفرغ ما بجوفها بوجهه حرفيًا، معدتها انقلبت وصعدت لحلقها فألجمت فمها بضغط أسنانها بعنف وهي تجذب وجهها منه، تدفعه.. تسعى لهرب غير متاح والشلل هو المسيطر بالصورة، وهو لم يأبه، بل ترك ليده حرية التجول فوق ملامحها، جاب وجهها والرعشة التي تتبع أصابعه ينتشي بها، هبط لذقنها وتسلل بصفاقة لعنقها..

وفاق قدرتها على التحمل، فإن لم تستطع الحراك فلتبعده هو، وإن لم تملك القوة لتدافع عن نفسها فيما مضى، فدفاعها قوته مستحقة هذه

المرة من الحبيب.. بل حفاظًا على شرف الحبيب، دفعته بوهن وهتافها كان أكثر وهنًا:

- أنا مش خايفة منك.

وسخرية ضحكته الخافتة جرحتها.. بل أفزعتها:

- إيه!.. بجد؟

وأحاط عنقها بكامل كفه وعيناه تأسران عينيها بكلابة العجز والقهر:

- يعني.. حكيتِ لجوزك عن اللي كان بيننا؟

انتفضت برجفة تقزز.. برعشة خوف:

- أنا باكرهك.

وفي اعتراضها تبدو كطفلة مذعورة أثارت سخريته أكثر فمنحها الدليل على ضعفها:

- بتكرهيني!.. طيب جوزك هنا النهاردة ولا في البيت التاني؟.. عشان نشوف الموضوع ده.

واقترب فلامست أنفاسه شفتيها المزموتين:

- أنا جاي كام يوم أجازة.. بس ما فيش مانع نرجع اللي فات.

ويده الأخرى أحاطت بخصرها تجذبها إلى جسده بتملك:

- ونزود على اللي فات.

ثم ندت عنه ضحكة هازئة مبتورة:

- هه.. بتكرهيني!

وعادت أصابعه تجول وتصول بحرب غير معلنة أو منصفة بخريطة ملامحها:

- ما يهمنيش..

وتجرأت كفه لتضغطها إليه كأنما يدلل على عجزها أكثر:

- المهم إني عاوز حقي فيكِ.. سيبتك للبأف بتاعك زمان بمزاجي، إنما دلوقتِ...

ومال بشفتيه قرب أذنها حد اللمس:

- دلوقتِ ما بقاش في حد نقف عنده، عايزك كاملة..

وشعرت بانفراجهما في شبه بسمة وهي للموت أقرب منها إلى الحياة:

- يا غزالتي..

...

هو كان العائق.. الحاجز الأخير بينها وبين الشفاء.. بين التحرر من ظلمات الماضي وظلامه!

خسرت نفسها على ألا تخسره!

وألف لعنة عليه..

بل هو من خسرها.. هو من أضاعها، هو الدافع والمبرر وهو حامل الإثم المخلد بجحيم جلد الذات حتى الموت..

نهض من مكانه يقلب المكان رأسًا على عقب بشبه هوس!..

عمَ يبحث لا يعلم، ما الذي قد يجده!.. لا يدرك أو لا يهتم.. فغنيمة الحرب بيده، وهي سهم طائش مسموم انغرس بقلبه وانتهى..

وهمد فجأة كما تحرك فجأة..

همد والهواء يتدلل على صدره حد شهقة عالية كادت تشقه..

همد وعقله يخبره أن اللوم يقع عليها هي!

ويصرخ القلب بلا.. ويعارض الضمير بعنف.. والروح مذبوحة بسكين الندم الثالم!

هو من لم يصبر، يبحث.. يفهم، هو من اختار الطريق الأيسر وسار فيه وتركها خلفه عند المفترق المعتم فتاهت دونه أو تاه هو دونها..

ومع سكونه نبضت فكرة برأسه أثارت الرعب بنفسه..

هل يمكن أن يفقدها!.. أن تنتزع بيدها روحها من جسدها بحثًا عن راحة!.. عن خاتمة لحياة مرارها خانق ووجعها يهد الجبال!

وعادت صورتها تتجسد قبالة عينيه عندما وجدها بكامل ثيابها في حوض الاستحمام أسفل الماء البارد، تحك جسدها بعنف كأنما تمحو لمساته أو تبحث عن تطهير من تلوثها به!

"ممدوح"

وتردد الصدى من جديد.. والذكرى تضرب عقله، الحقير سيعود.. أو ربما هو عاد بالفعل!

ركض نحو باب المنزل وفتحه يبحث عنها بجنون..

...

صيادها الداعر يحيطها كإحاطة السوار بالمعصم وعبراتها كسيل حطم سد التماسك..

بل كإحاطة الظلام بشعاع نور باهت ضعيف حتى انطفأ والدموع فيضان كفيضان نوح لا يبقي ولا يذرولا سفينة إنقاذ منه..

ويقترب دون حياء أو خجل.. دون خوف أو تردد.. باستباحة دون ندم كأنما يدرك غياب الأب والزوج والأخ، فلم يبقَ سواها وحينها يسيطر، يُخضع.. ويتملك!

يقترب وبهسيس شيطاني مرعب، بل بفحيح ثعباني ماكر ظنًا منه أن اليمامة ستذعن لإغواء:

- استنيني النهاردة.. نرجع اللي فات يا غزالتي.

وانفتح باب شقتها بعنف..

وكان لقاء ثلاثة أزواج من العيون، لقاءً وازى دفعة واهنة، رافضة منها، دفعة ربما تثبت تهمة مرت بجنون الموقف أكثر مما تنفيها!..

عينان هائجتان تنبعث منهما النيران..

خائفتان يتساقط منهما الدمع والهلع..

ومندهشتان تدعيان براءة جوار خطوتي تراجع مدروس أتقنه لص محترف..

بل جبان رعديد أدرك أن اللعبة قد تنكشف.. أن المتعة قد تنتهي..

وصرخت عيناها بخسارة:

"علي.. ضاع"



والشلل هو سيد الموقف وحاكمه وسلطانه..

هل سمعتم عن سكون ما قبل العاصفة!

أو.. لا.. هو للدقة جمود مواجهة القدر!

عندما تتيبس قدماك بمنتصف الطريق، وتلك السيارة تندفع نحوك كوحش لا يرحم، والسائق يطلق زموره بينما يفقد السيطرة.. وأنت..

أنت فقط لا تتحرك، بل بانتظار لحظة التقائك مع المصير!

لحظة النهاية!

"علي!"

همَسَتها خافتة ضائعة متحسرة ومكسورة.. ولامست مسامع المجاور لها فانعقد حاجباه ببطء وهو يدرك أن الواقف أمامه بعينين أشبه بكرتي نار هو..

زوجها!

واستعاد ملامحه بغتة عندما كان يأتي لمنزل عمه كصديق لحمزة..

كانت هي تنهار..

والزوج فقد رشده وبعد الجمود تحرك..

كعاصفة.. أو كقدر!

تسع درجات تفصله عنهما.. تسع درجات قطعهما بثلاث قفزات واسعة..

والقفزة الأولى تلونت فيها الصورة بلون الضعف الشاحب..

"لو نطقتِ بكلمة، ما حدش هيصدقك أصلاً.. ولو صدقوكِ هيقتلوكِ، لكن عمرهم ما هيشكوا فيَّ.. أنا قدامهم؛ راجل خاطب وفي حالي"

أما الثانية فكانت بلون الغضب الأسود..

"افهمي.. أنتِ اللي عملتِ فيَّ كده.. الغلط فيكِ أنتِ.. عندك سمية أهي.. ولا ممكن أفكر فيها.. بس أنتِ.. أنتِ حاجة تانية"

والثالثة.. الأخيرة التي أوصلته إليه كانت بلون.. الدم!

"اللي زيك لازم تدفن حية.. عشان ما تعملش فيَّ كده"

ودون منحه فرصة تراجع -بتلك البسمة المدعية التي بدأت ترتسم فوق شفتيه وجوار دموعها وهشاشتها وضعفها ونظرة الخوف التي ملأت مقلتيها- مد يديه وجذبه من ياقة قميصه بكل عنف ممكن، بكل غلظة أتاحتها قوته، وبكل قسوة تلبست روحه..

جذبه وأمام عينيه زأر:

- هاقتلك.. هادفنك حي.

وكان يكرر ما أخبرها هو به، وفقد الوعي والرشد والحس..

وانهال باللكم والركل والضرب على الجسد المصدوم، وفي دفاع واه نالته هو لكمة بمعدته فكأنما لم يشعر بها..

بصمت..

بسكون..

وصوت الألم هو الأعلى.. صوت الفزع هو الدوي الذي يصم الآذان..

صوت قبضتيه وقدميه وهما تقومان بمهمة واحدة..

تمزيق جسد الشيطان!

كان يلكم ألمها.. يضرب خوفها.. يهزم أوجاعها وماضيها وضحالة وقذارة فكرة انغرست بعقلها عن ذاتها..

كان يشبعه بيديه العاريتين دون سلاح ينهي به المأساة فيشبع روحه وروحها بشيء من راحة.. بشيء من حق ضائع، ودَيْن مستحق..

وهي بمكانها متجمدة، تتنازعها الأفكار.. لِمَ يضربه!

أيظنه يتقرب منها؟.. أم يظن بها هي خيانة!.. والتالي هو دورها!

وبطرف عينها لمحت علي يلقي به من فوق الدرج فيتدحرج كجوال قذر، وعندما وصل لأسفله كان علي بمواجهته مرة أخرى وثانية وتالية..

"إيه اللي بيحصل هنا ده؟.. أنت اتجننت يا علي؟"

شهق ممدوح بشعور نجاة، وقبل جواب من المتهم الأول بالمعركة كان هو يلاحقه بكذبة جديدة:

- عمي.. جوز ريم فاكرني باعاكسها.

وانتزع نفسه بعيدًا عن علي المتجمد بذهول من صفاقته الفجة وفجره البين، والآخر يجيد تمثيليته لأقصى حد، هو يدرك أن دجاجته المذعورة أجبن من التصريح بما حدث والعم وحضوره فرصة هروب جيدة للغاية فأكمل مدعيًا عدم الفهم شاعرًا بثباته فوق أرض آمنة:

- ريم كانت بتسلم عليَّ يا عمي.. بس الظاهر جوزها شكاك ولا عنده مشكلة، لقيته هجم عليَّ من غير ما يسأل ولا يحاول يفهم.

ومسح خيطًا من الدم جوار شفتيه ولمعة الدهاء بعينيه تتألق ببريق مخيف:

- ده حتى ما إدانيش فرصة أعرفه بنفسي!

وصبر علي فاض وكَلَّ ومَل فهاج وماج وانقض بلكمة أخرى:

- يا كلب يا واطي.. أنا عارف أنت مين.

وتمسك بعنقه والنية.. قتل:

- أنا عارف كل حاجة يا...

وسبة بذيئة لم تكن لتخرج من فمه أبدًا، وغفل الجمع عن تلك الجامدة بمكانها..

غفل الغاضب..

غفل الهارب..

وغفل الغافل منذ البدء محاولًا إنهاء أزمة مكذوبة..

وسقطت..

"أنا عارف كل حاجة.. كل حاجة.. كل حاجة"

ومع علو الصوت بأذنيها وحدها كأنما لم تلتقط من الحديث سوى كلماته، فقدت الوعي فكانت نهاية تليق بالمشهد المأساوي بل ربما هناك نهاية أفضل!

نهاية بموت..

ومع صرخة أبيها باسمها والتفاتة مطعون بقلبه هلعًا؛ فرَّ الضبع..

وانتهت المعركة بأنثى مكلومة قهرًا.. ورجل مهزوم عجزًا.. وشيطان أجاد الهروب!

وصندوق لم ينفتح.. بل تفجر غطاؤه كاشفًا عن مستنقع آسن تلطخت بدنسه حقائق مسكوت عنها.. بل مستورة والداعي والعائق.. هو!

***

في مواجهة قساوة بعض الحقائق يصبح الحل الأمثل هو الهروب..

تعرية ما انستر ليست بالأمر الهين لذا فالغياب فعليًا واجب كوجوب التماسك، وكلٌ ميسر لما خلق له!

غابت بوعيها وإن بقيت روحها معلقة بين سماء الأمل وأرض الواقع المر، أن يتفهم.. يحنو ويهدهد.. ألا يبتعد، ألا يترك، ألا يكون خسارة جديدة.. بل آخر خسارة!

وواقع يثبت من حولها ومن قبله، أن الرجل هو الرجل مهما عشق.. مهما غرق.. مهما علا بعقله عن توافه الأمور..

وبسفسطائية ظلت أفكارها تدور دون جدوى، دون فائدة.. وبلا مغزى!

انتزع الطبيب إبرة محقنه من ذراعها وأمها تضم رأسها لصدرها وجسدها مستلقٍ بضياع فوق فراشها.. بغرفة نومها!

هل حملها لمنزلهما؟

لم يتركها!

الأم باكية والأوان قد فات.. وابنة الخالة حائرة، تربت على كتفها وتنظر إليها وترى هي النظرة من بين أجفان شبه منغلقة.. بشفقة!

هل انفضحت بين الجميع وتلك هي النهاية!

"أنا عايز أفهم أنت اتخبلت في عقلك يا علي؟"

صوت زعقة والدها أتتها أشبه بوشوشة بعيدة وهي تغيب، دموعها تعود للسيل، وهمس صوتها باسم الحبيب لا غيره يناجيه..

"أنا لازم أشوفها، يعني إيه تمنعني؟.. دي مراتي"

ونبرة المعشوق لم تكن بأقل كدرًا وغضبًا، هو يريد أن يراها..

وتمتمت تناديه ثانية وأمها تبكي وتقرأ ما تحفظ من آيات القرآن الكريم، والطبيب يطمئن برفق ويغادر ليحادث المتواجهين بالخارج مطالبًا بهدوء:

- خير يا دكتور!

بادره علي بلهجة ملهوفة فابتسم بهزة رأس:

- إن شاء الله خير.. اشتباه في انهيار عصبي، لازم تتعرض على حد متخصص، إديتها حقنة منومة مؤقتًا عشان ترتاح حاليًا.

وغادر الرجل، وعاد علي نحو الغرفة وصرخ الأب ينهره:

- ابعد عنها يا علي.. أنت فاكر إنها مالهاش أهل؟



والتفت إليه الزوج المطعون بنظرة قاتلة والسخرية تنضح بقلبه.. فالكلمة بدت أشبه بحضور الشرطة بآخر مشهد من فيلم هابط بعد انتهاء الموقف!..

والأب يكمل:

- تروح تتجوز عليها وقلنا وماله حقه، تعلقها على ذمتك وتهملها وسكتنا عشان هي متمسكة بيك.. إنما كمان تشك فيها وتضرب ابن عمها.. يبقى خلاص كل واحد يروح لحاله يا ابن الناس.

وانضمت قبضتاه حد بياض المفاصل، بل كادت قرقعتها تصل لأذنيه وهو يدمدم من بين أسنانه:

- ريم مراتي.. وهتفضل مراتي لحد ما أموت.

والعجز يضيف لعنقه طوقًا آخر..

هل سيفضحها!

يُفصح عما أخفته هي لسنوات!

يشعر بنفسه مقيدًا لكنه لن يخبر أحدًا مادامت هي لم تصرح، سيكون هو أهلها.. وحقها برقبته هو، فوق كاهليه هو.. وذنبه هو..



أتت دمدمته الأخيرة بموازاة تحركه نحو غرفتها بتحدٍ أن يمنعه عن قربها أحد:

- ريم مالهاش غيري.. يا عمي.

وتجاهل هياج أبيها بإثر كلماته التي بدت للرجل غامضة!..

عند الباب رأى جسدها الممدد بتعب، تقبع بين أحضان والدتها الغافلة هي الأخرى، والباكية على ما لا تفهم..

رآها شبه ساكنة دامعة وأجفانها تتعانق لكن همسها لم يغِب بعد..

"علي.. ما تسيبنيش"

وارتجفت شفتاه وبريق الدمع أجبر مقلتيه على لمعة حزن ووجع..

والقلب صرخ بها دون الصوت..

"مش هاسيبك يا ريم"

وغابت.. غابت وغاب هو في ملامحها الساكنة بألم جليّ لا يخفى على أحد، ثم من خلفه أتاه الصوت الذي يبحث عنه:

- ريم مالها يا عمي!

التفت نحو رانيا بعينين متقدتين بشرار حارق، وتراجعت خطوة مع نظرته بخوف وهي تدرك أن أخاها على الأرجح.. مذنب!

تبع خطوتها خطوات والأب يتهالك دون جواب فوق مقعد قريب..

وتابع خطواتها الراكضة خطواته الغاضبة، وبعد درجتين كان مرفقها بين أصابعه يضغطه بفظاظة لم ترها منه قبلًا:

- أخوكِ فين؟!

- ما أعرفش.

وارتعشت بهلع، جذبت يدها فلم يحررها بل زأرت موجات عينيه والنية لا تشي بخير:

- سيب إيدي يا علي.. أنت اتجننت.

وانضغطت أصابعه بقسوة أكبر وتأوهت وهو يعيد السؤال دون غيره:

- أخوكِ فين يا رانيا؟

وارتعبت.. وجهه، عيناه، ملامحه.. وحتى نبرته وعنف قبضته أثاروا بنفسها الذعر فهتفت:

- والله ما أعرف يا علي.. هو حجز من هناك في فندق *** بس لما جينا كان قرر يلغي الحجز، ما أعرفش راح فين صدقني.

ولم تكد تكتمل أحرفها حتى اختفى من أمامها هابطًا الدرج بقفزات واسعة أشبه بانقضاضة فهد غاضب على فريسة خارج نطاق البصروتعالت صرختها:

- هتعمل فيه إيه؟!

ولم يبالِ بمنحها الجواب، فالثمن الوحيد كما قرر..

هو الدم!

سارعت تتصل بشقيقها لتجد هاتفه مغلقًا، صعدت لغرفتها ترتجف وهي لا تدري ما حدث!.. لكن رعبها وصل لأقصاه..

ودقائق لم تطُل كان قد وصل للفندق المذكور، وبسؤال بسيط وإدعاء قرابة وصل للغرفة، وهناك ترك لنفسه العنان..

حرر لجام غضبه.. وأتت ناره على الأخضرواليابس.. سرت في هشيم الحقير، حتى كادت تنهي حياته اختناقًا بين كفيه لولا أن أبعده عنه العاملون بالمكان..

تلا ذلك وصول الشرطة!

ومن بين البلبلة والفوضى تم القبض عليه، وضحيته ينازع آخررمق بين الموت والحياة في طريقه لأقرب مشفى!

***

الحقيقة المؤكدة تاريخيًا أن الخسارة دومًا هي الأقرب..

أن الأمل يلزمه قوة لا يمتلك مقوماتها كُثُر..

أن الثبات قد يفوق التحمل، فنصل لنقطة الانهيار.. تتبعها النهاية!

والحقيقة المطمورة أسفل ركام سنوات التناسي والتجاهل، طفت على السطح بغتة، حطمت قشرة الستر الواهية وهدمت جدار الأمان المفتعل..

الحقيقة المنسية.. فجرت كل وجع، وخوف!

"علي"

همست بها بين الوعي واللاوعي..

"علي"

نادته كأنه أضغاث أحلام..

"علي"

مدت نحوه أناملها تنشد دعمه فانتهت إلى سراب..

"علي"..



والفزع تحول لصرخة فاستقامة فوق فراش غمره العرق كما غمر جسدها المذعور..

وانتفضت الأم تضم، وسمية الحائرة تائهة في خضم أفكارها الخاصة.. هل تتصل بالأخ الغائب بمأمورية قصيرة تخص عمله فتثير قلقه!.. أم تترك الأمور لتهدأ حتى يعود!

هي لا تعي كل جوانب الموقف.. ولا تفهم كامل الصورة، كل ما أمامها هو لغز محير، لا يملك كامل قطعه سوى الغائبة ريم.. والغاضب الذي رحل فجأة علي!

رأتها تبتعد عن أحضان والدتها تسأل عنها:

- فين علي يا ماما؟

وأمها لا جواب تملكه فهزت كتفيها بحيرة وتهرب أجبرا الضائعة على التخبط بين خطوات معدودة حتى خرجت من غرفتها رافضة تمسك الأم بها لتعود مرتاحة بفراشها:

- فين علي يا بابا؟

وبدت كطفلة تاهت عن أهلها بزحمة بشر مجهولون:

- غارفي ستين داهية.

ونبرة الأب حاقدة كارهة وهي لا تدرك السبب فصرخت:

- راح فين وسابني؟

نهض من مكانه بعنف مشيحًا بيده:

- راح يكمل اللي عمله في ابن عمك في الفندق اللي نازل فيه.

وتجاهل المزيد من التوضيح تاركًا لسخطه العنان:

- إزاي اتجرأ يمد إيده عليه؟

وزفر بضيق حانق:

- ممدوح بيقول فهم غلط..

ثم واجه عينيها بنظرة قاسية:

- هو كمان بيشك فيكِ؟

وضرب على ظهر مقعد جواره:

- مش كفاية اتجوز عليكِ وخلف وراميكِ ولا بيسأل؟

وهي صمتها لعنتها..

لطالما كان جحيمها دون صوت.. خوفها دون نفس.. ضعفها ووجعها وخضوعها دون اعتراض ولو بهمس!

ودموعها عادت تتسابق فوق وجنتيها، ورأسها تهتز برتابة رفض..

أين ذهب!

هل أتى بها لمنزلهما حتى يغادره هو؟.. سيغادر وبلا رجعة!

وتنتهي هي وحيدة.. أو ربما أمة لشهوات ابن العم كما اقترح وتصبح له!.. رسميًا!

وزادت هزات الرأس حد العنف، وتحشرج الصوت بحثًا عمن يحتاج لكن الحلق عارضه فانغلق لتعود ساكنة..

وصمتها لعنتها..

- خلاص.. ما بقاش ينفع تكملي معاه.

والأب يهذي بأوامره كأنما هي ملك يمين وكلٌ له فيها أحقية:

- زي ما دخلنا بالمعروف؛ نخرج بالمعروف.

"لاااااا"

وأخيرًا انكسرت اللعنة وتحررت من تعويذة سحرها الأسود..

لكن الصرخة العنيدة ذاتها انكسرت تاليًا حد الهمس والخوف والدمع..

"لا"

ورفعت عينيها لتلاقي عيني أبيها أخيرًا بوهن:

- هو اللي هيسيبني.

- هيسيبك غصب عنه.

ويتحدى الأب قدرتها على الصمود وفقدت هي كل طاقة بينما تدور بالمنزل تفتش وراء كل باب مغلق وخلف كل ستار مسدل.. عنه!

"علي.."

"علي.. رُحت فين؟"

"ما تسيبنيش يا علي"

"السكينة يا علي"

والدمدمة ملأها الدمع فانجرحت النبرة وصولًا لهمس غير مسموع:

"ما قدرتش أمنعه"

"كان بيهددني بآية"

وبرق الأمل بأفق الوهم فنشجت ومسحت دمعاتها وهي تتحرك بعشوائية في المنزل تقتله بحثًا:

"أنا ضربته النهاردة"

"عشانك أنت"

"حافظت على شرفك يا علي.."

وتوقفت بعجز وضياع كأنها بمتاهة لا مخرج منها:

"أنت فين يا علي؟"

وارتجفت بضعف والرعب يتمكن من قلبها وكيانها المتصدع:

"أنت سيبتني؟.. رحت فين يا علي؟"

وآخر أحرفها صراخ والرد يأتيها من سمية التي دمعت عيناها دون وعي:

- علي مش هنا يا ريم.

رفعت رأسها إليها قبل أن تترنح بوقفتها فتحتضنها أمها وتسقط معها أرضًا، والأب حائر لا يستسيغ الموقف برمته، وسمية تتسلل تحجم دموعها وتهاتف الشقيق فوجوده حتمي وليحترق العالم..

والأم بدأت هذيانها الخاص جوار هذيان ابنتها:

- بنتي اتجننت..

"مشي"

وكلمة جوار كلمة.. وهمس جوار ضعف..

- علي جنن البنت..

"سابني"

وأخيرًا فقد والدها صبره فجهر بزعقة نفضتها بمحتواها:

- علي مرمي في الحجز بعد ما راح ورا ابن عمك الفندق وضربه.

وعاد يلوح بذراعيه غاضبًا:

- كان هيموت في إيده.

وأمها توازي أباها في فكره دون إدراك للصورة المشوشة:

- مش هيشوف ضفرها تاني.

ووالدها يكمل كأنما يغلق موضوعًا عصيًا على الفهم:

- خليه مرمي في الحجز.

"حجز!"

كانت همستها.. أو ربما هي همسة عقلها الذي استفاق فجأة!

ونهضت تستقيم ببقايا قوة تتشبث باسمه:

- علي فين؟

وكانت تصرخ ورد الصرخة صفعة كادت تلتوي لها عنقها:

- علي مين ده اللي شارياه وبايعة أهلك؟.. باقولك كان هيقتل ابن عمك.

وبلا وعي ترددت الكلمة بذهنها، تجوبه بحرية وتعيث فيه الفساد..

"يقتله!"

"يقتل ممدوح!"

هل ترقص فرحًا!

هل تسعد.. وتموت فبهجة الفكرة تكفي!

أم يكون الموت قلقًا عليه هو الأجدى!

سيضيع.. حبيبها سيضيع ولأجلها هي!

"المفروض أنا اللي أقتله"

أغلقت سمية الخط مع حمزة عندما أخبرها أنه في الطريق إلى المنزل بالفعل، بل أوشك على الوصول.. أغلقت الخط وعلقت الكلمة برنين قاس بعقلها!

تقتله!

ولم تفق من شرودها إلا على ريم وهي تتجاوزها نحو المطبخ، تجذب أول سكين تصادف يدها وتعود لدورانها الحائر بالمكان وسمية تتبعها تحاول سحب السكين من بين أصابعها..

والأم تبكي.. والأب فقط مذهول!

- اهدي يا ريم.. أنا كلمت حمزة وهو على وصول.. ريم!

ولم تجِبها، بل ظلت تدور على غير هدى بالمنزل، ولسانها يردد ما يرجوه القلب وحسب:

- حمزة!.. أيوة كلميه يلحق علي.. لازم يلحقه..

وتاهت أكثر:

- علي هيضيع.

ولم يكن الموقف ليتحمل صمتًا وجهلًا أكثر، فعلا صوت أبيها يلجم تيهها بلجام الخوف الحديدي:

- اخرسي بقى.

ثم اقترب منها وهي تراجعت تنكمش على نفسها لا تفهم عينيه:

- أنتِ إيه؟.. ما اتربتيش؟

وأشاح بذراعيه أمام وجهها فظنتها الصفعة الثانية:

- في قلة أدب كده؟

وضغط زناد الجنون وأشعل فتيل الخبال فانفجرت قنبلة الماضي بحسرة وقهر:

- أيوة قليلة الأدب.

وألقت السكين من يدها على الأرض وصوتها يعلو أكثر:

- فاجرة.

وواجهته بنظرة متهمة تمتلئ باللوم:

- أنت قلت لي إني فاجرة.

واستدارت ترمق أمها بذات النظرة:

- وأنتِ افتكرتيني مجنونة.

وانهارت من جديد ولطم القلب بصفعات الوجع تصدرعنوان ضياعها:

"أنا السبب"

"هو قال لي أنا السبب"

وانسابت الدموع بجنون لا يردعها صمود:

"علي!"

"علي بس اللي عرف ريم وحبها"

"اللي وقف جنبها"

"علي رااااح"

وركضت نحو باب المنزل بحركات شبه متهاوية كأنما هي على وشك السقوط:

- أنا لازم أروح لعلي عشان يسامحني.. لازم أحكي له.

وتجمدت بعد عدة خطوات وعاد لنظراتها الشرود والقلق:

- لا.. لا.. هو عارف إني كويسة!

وبرقت عيناها بأمل مهووس:

- هو راح يقتله عشاني؟

ودارت برأسها في كل اتجاه:

- لا.. برده لازم أقوله على كل حاجة.

ونشجت وسمية تقترب وأمها تنظر بحسرة وأبيها يعلو وجهه الصدمة جوار الغضب:

"هاقوله كان غصب عني"

"كل مرة غصب عني"

وهذيانها تجاوز حد المعقول فضمت جسدها بذراعيها والرعشة تنتابها مرة أخرى:

"كان بيهددني"



"ما لقيتش حد جنبي"

والرجفة طالت نبرتها فخرجت متكسرة مبهمة:

"كنت خايفة"

"جبانة"

"وحيدة"

وابتلعت لعابها بغصة أقرب للاختناق:

"كنت ضعيفة"

"قال لي إني جاريته"

ورفعت عينيها لسمية التي تساندها بصدمة تخط نفسها فوق ملامحها وهي تحلل ما تنطق به:

- وصدقته.

وتشبثت بكفها كأنما ترجوها التصديق هي الأخرى:

- قال لي إني السبب.. وصدقته.

وابتسمت والجنون يطغى على وجهها كأنما هو الصراع الأخير:

- كان بيقول لي إني غزالته.

وانتزعت نفسها من بين ذراعي سمية بصراخ ودوران حائر:

- أكيد أنا السبب.

وأمها ارتفع صوت نواحها تبكي عقل ابنتها المفقود وهي تردف بتأكيد لحالها كأنما تخبرها نعم هو على حق:

- أمال ما عملش كده غير معايا أنا ليه؟!

ومن وسط الجهل وإن انبثق ضوء الحقيقة يظل التعامي وانعدام الفهم هو الأقوى، وذاك بزعقة أب انقبض قلبه ومنطقه وعقله ينفيان مجرد التفكير:

- أنتِ بتخرفي بتقولي إيه؟.. هو مين ده وعمل إيه؟

"ممدوح"

صرخة بُح لها صوتها وتزلزلت لها أركان مكان شهدت جدران صمته على انتهاكها..

وحمزة وصل واقفًا على الباب بجمود عقب الصراخ، وهي عادت تلك الطفلة البريئة التي لم تكن تعلم من الدنيا سوى اللعب والمدرسة وصحبة الصديقات، بل عادت لما هو قبل ذاك..

عادت للبراءة المحضة وتحولت نبرتها لبكاء ساذج وهي تشرح بطفولية لم يمس طهرها بجوفها إثم:

"رفع الجيبة"

"ومعاه سكينة"

"ربط إيديا لفوق بالحزام"

"وقال لي إني حلوة قوي"

وكانت تمثل بجسدها ما تحكيه، ووجهها يسرد معها تفاصيلًا أخرى، تفاصيل ألم.. قهر براءة ودنس روح لم ترَمن الدنيا إلا الأمل!

"ربطني"

"رفع الجيبة"

وتكرر كأنما لم تكن هي من تحكي بل صغيرة لا تدرك فداحة ما تقصه على سامعيه:

"ربطني وكان.. كان.."

وانهمرت العبرات تحرق وجنتيها وتمر بمرارتها جوار شفتيها وفوق لسانها المتلعثم:

"كنت بالاقيه في أوضتي.. في سريري.. قال لي ده سر"

"قال لي ما حدش هيصدقك"

ومقلتاها واجهتا مقلتا الأب الواجم يرفض التصديق:

"وأنت قلت لي إني فاجرة"

وهزت كتفيها كأنما تسلم لما حدث ومَروهو الواقع وكفى:

"قال لي ما حدش هيصدقك وكان عنده حق"

وكررت مواجهة النظرة والنبرة تعلو باتهام واضح صريح قاس:

- كان عنده حق.

بموازاة إشارة إصبع نحوه لتُسقط كامل العبء على ظهره الذي انقصم:

- أنت ضيعت حقي.

قلب الأب يبكي بطعنة فلذته.. وضميره يصرخ بذنب اقترفته يداه.. وعقله يفند بحثًا عن منفذ هروب آمن.. أما الكبرياء فينكرويستنكرويدفع اليد بصفعة جديدة كانت أقوى، صفعة أدمت الشفاه وألقت بالجسد الميت أرضًا قبل أن تتسابق خطوات حمزة الواجم جوارالباب فتتلقف سقوطها فوق صدره بعدما اخترق حديثها روحه.. وانكسرت لوجعها رجولته..

بعدما أضافت لشروخ صورة عائلته بفكره.. تصدعًا هو الأعنف والأقسى!

- اخرسي يا فاجرة.

صرخ أبوها مهددًا متوعدًا، وهي انهارت بين ذراعي أخيها الذي رمقه بصدمة وهو يصر على الخوض في ظلماته بجهل متعمد:

- ابن أخويا ما يعملش كده.

وجواب الشقيق ضمة أشد كأنما يقيها مصارع كلمات السوء:

- عايزة تبرأي جوزك على حساب ابن عمك؟!

"علي"

وكانت هي آخر همساتها وحمزة ينهض بنظرة لائمة رافضة لأبيه دون أن يملك كلمة تفي للموقف حقه، يحملها ويغادر بها عائدًا من حيث أتى وسمية تتبعه وأمها تبكي..

وهي تردد بغشاوة تحيط بعقلها علَّها فيها الراحة..

"أنت ضيعتني"

"عنده حق"

"ضيعتني"

***

أحيانًا تحتاج الحقائق ثبات الجبال..



وعريها الصادم إن لم يشعرك بألمها فيكفيه شرف هزيمتك في معركة العجز..

ونكرر.. قهر الرجال!

وأي قهر أشد على نفسك من عجزك عن حماية عرضك!.. تحصين شرفك!.. أي قهر أكثر وجعًا من غيابك ونسائك في عوز إليك!

تعلمت الخوف فأتقنته.. تدربت على الإخفاء فأجادته.. ودرست التجاهل فعمِلت به..

هو لا يلوم ضعفها، بل يلوم صمتها.. ويلوم نفسه، ويلقي بالإثم دون عفو على رجل امتهن الغفلة واللوم على أخ لم يشعر بحاجة أخته إليه..

وانقلب الوجع بقلبه لقسوة وهو يدلف لغرفة ابن العم المنتهك بعدما أودعها غرفة بمشفى نفسي تتعافى من انهيار عصبي حاد أصابها..

تأمل رقاده والكدمات التي تحيط بملامحه، ذراعه المجبورة إلى عنقه والأخرى المرتاحة جواره برباط ضاغط وصدره العاري وعليه أثر اللكمات ظاهر بوضوح..

وخزه بعنف ونبرته تسبقها خشونته ونار غضبه:

- اصحى يا كلب.

تفرق جفناه برعب وانتفض من مكانه يمد يده السليمة بسرعة نحو زر استدعاء أحد أفراد طاقم التمريض، وحمزة لاحق اليد فكبلها وأصابعه جذبت أحد أسلاك الأجهزة المحيطة به فلفه حول عنقه وسحبه بكامل جسده إليه وشده يمنع عنه أنفاسه:

- أقل حاجة واحد في مكاني ممكن يعملها..

وجذب بقوة أكبر وهسيسه يخترق أذن ممدوح بطريق مباشر:

- إنه يخلص على كلب زيك.

والذراع المربوطة لم تسعفه وأصابع الأخرى حاولت إبعاد السلك عن عنقه..

الهواء غادر صدره وتحشرج ببقايا أنفاس مهدورة وباتت المقاومة غير مجدية والصورة تظلم أكثر وأكثر ساحبة إياه نحو هوة النهاية:

- إيه رأيك؟

ولمع قبالة عينيه نصل سكين صغير بيد حمزة وطرفي السلك أحكم عليهما باليد الثانية:

- زي ما كنت بترعبها بيها مش كده؟!



وضغط النصل الحاد عند قاعدة عنقه، ثم مر به فوق كتفه تاركًا خدوشًا دامية، وتحرك نحو صدره وصوته يخترقه كألف سيف بتار:

- عرضك يا ابن الـ....

وأعاد السكين لجيبه وجذب السلك بعنف أكبر.. بقسوة ملأت قلبه غلظة فاللعنة على الأهل والدم والرحم.. لو استباح العرض!

وعقله ينتفض بلحظة..

لا تقتله، لا يجوز أن تقتله..

وملأت الكلمة أفق كيانه المعذب..

الفضيحة.. أختك يا حمزة!

ولم تتوافق قبضتيه مع أفكاره العقلانية، فالقلب يتحكم بهما، الرجولة وكل شعور يسيطران، فيجذب ويخنق ويصر على.. القتل..

الفضيحة يا حمزة.. ستنال من شقيقتك قبله!

ستفقدها بلا عودة هذه المرة!

وزفر بحدة وهو يدرك أنها محض ثوان أخرى ويفارق سجين يديه الحياة، نفضه بقرف فوق الفراش فاستعاد أنفاسه بشهيق حاد مذعور..

والنظرات وشت بما عجزت عنه الكلمات..

أعاد حمزة يديه المضمومتين بشدة خلف ظهره كأنما هما تقاومان منطقه فنبت لهما عقلًا منفصلًا يسعى لانتقام.. أوربما تعويض!

تحرك ببطء مغادرًا وموقنًا أنه ترك الأثر المطلوب بنفس ابن عمه.. فالجبن هو سمتُ اللصوص، خلف الباب توقف للحظة قبل أن يتحدث بأمر دون التفات:

- تتنازل عن المحضر ضد علي.

واستدارت رأسه فوق كتفه بنصف استدارة وضاق الجفنان فوق نظرة شرسة:

- وإلا...

والتتمة ثمنها دماء..

فحينما تضربك الحقيقة بجبروتها على رأسك، إما أن تفيق.. أو تضيع، وهي ضاعت من قبل..

وحان وقت الإفاقة!

الفصل الحادي والثلاثون

ما بين جنون وتعقل.. حيرة ورشد.. ندم ومواساة.. احتواء وسند واحتياج.. ضلال العقل وجهالة الفكر؛ تدور رُحى الحياة..

وبين مشاعر تكبل البصيرة وتعقل يحد من اندفاع القلب؛ تتأرجح طبيعة البشر بين الجنون والحكمة..

وبين جدران مظلمة كأفكاره حشر جسده بركنٍ منزوٍ بعيدًا عن ضجيج رفقاء غرفة الحجز بأحد أقسام الشرطة..

يرمق قبضتيه بضياع!!..

يراقب كدمات وجروح تنتشر على كفيه ودماء القذر مازالت آثارها ظاهرة.. واضحة.. كوضوح الحقيقة.. حقيقة لا يعلم إن كانت ستختفي يومًا!.. أو إن كان سيمكنه تجاهلها!..

الآن راحت سكرة رجل عاشق وجاءت فكرة رجل شرقي.. فهل يهزم العشق الشرق أم تناله هو الخسارة!..

العاشق انتقم لمعشوقته.. أم انتقم للعشق ذاته؟..

لا فارق..



فالزوج.. الرجل الشرقي للنخاع.. ينتفض الآن.. وسؤال لا إجابة له.. يتردد بقوة..

وماذا بعد؟..

ماذا بعد الانتقام؟.. ماذا بعد كشف الحقيقة؟..

الحياة تدور.. تجد لها طريقًا.. هذا لا شك فيه..

ولكن هل يجد هو طريقًا معها؟.. هل يمكنه المغفرة وكأن شيء لم يكن؟..

زفر بعنف.. ها هي الأفكار تجتاحه.. ها هو السؤال الكريه يعلن عن نفسه صريحًا..

ها هو العاشق يتقهقر مهزومًا أمام سطوة شرقية الرجل وأفكار عُجِنت بها رجولته فكادت أن تتوارث مع جيناته..

هو عاشق.. زوج.. رجل سبقه لزوجته آخر..

كان انتهاكًا..

"هتفرق؟"

قهرًا وغضبًا..

"هي سكتت"..

خافت..

"خافت مني؟.. ما وثقتش فيَّ؟.. في قوة حبي.. في أفكاري ومبادئي؟"

ومبادئك وحبك بمَ أفاداها؟..

"كنت هقتله علشانها"

كنت.. وماذا بعد؟..

"السؤال الملعون"..

ملعون لأنك لا تملك له إجابة..

"هكون معاها.. هأقف جنبها"

ستواصل للنهاية؟..

"مش عارف"

تلك ليست إجابة..

"هأقف جنبها.."

إجابة مكررة وغير محددة..

ورأسه يطرقه بالجدار خلفه كأنه يريد طرد هواجسه.. أفكاره التي تهاجمه بضراوة وكأنها لم تكتفِ بكسرة قلب العاشق فبدأت تنخر لتحطم رجولة الزوج..

زوج ظن أنه الأول بحياة زوجته ليكتشف بعدها أنه كان.. الأول مكرر..

مكرر بكل شيء..

"الهمسة الأولى كانت لآخر!"

كانت مُهدِدة..

"اللمسة الأولى كانت لآخر!"

كانت مقززة..

"كل مرة عينيَّ هتقابل عينيها هشوفه بينا"

تلك إجابة نهائية؟..

"لا.. لا.. أنا متأكد أنها كانت ضحية"

متأكد!..

وشيطانه لا يترك صورة إلا وعرضها واضحة مكبرة الأبعاد أمامه..

زوجته.. كانت ملكًا لآخر لسنوات.. سنوات أضعاف مدة زواجه بها.. سنوات امتلكها الآخر عن آخرها حتى ولو ترك له بضعة قطرات لا تغني عن براءة ولا تسمن عن عفة..

سنوات احتلها بها للنهاية.. استهلك جسدها واستعمر روحها وغرس بها أفكاره..

سنوات منحته بها ما ضنت عليك به..

"منحت للمنتهك وحرمت العاشق!"

وقلب العاشق لم يستطع الصمت.. فما بين هواجس شيطانه ورزانة عقله.. هبَّت دقات القلب تدافع وتحمي ساكنته..

"هتبقى زيهم يا علي!.. هتيجي عليها أنت كمان!!"

ولكنها سمحت له!..

"هتتهمها كمان!"..

خضعت له..

"خافت"

بدلًا من خوفها منه كان الأولى بها الخوف على نفسها.. جسدها الذي انتهكه وروحها التي لوثها..

سنوات.. خضعت لسنوات...

والآه تمزق صدره تبغي تحررًا وراحة.. ولكنه يكتمها.. يخرسها.. يغرز أنامله بصدره علَّه يقتطع قلبه منه.. ويعود ليحيط رأسه بكفيه يتوسل عقله هدوءً.. ولا يرحمه عقله.. بل يزيد..

سنوات كانت له.. بكل طريقة.. بكل طريقة لم تكن لك بها!!

والقلب يرفض الصمت ويصرخ..

"سنين خوف.. سنين رعب.. سنين انتهاك"..

ويزرع شيطانه أفكاره ببراعة..

هي لم ترفض.. ربما كانت راضية..

لم تمنعه.. ربما كانت سعيدة..

لم تبتعد ولو حتى لمرة.. ربما..

أحبته!!..

"لا.. لا.. ما تظلمهاش.. ريم حبتك أنت.. أنت بس.."

كانت متعلقة به.. ربما انتظرت عودته..

"وانهيارها!.. ودموعها.. توسلها باسمك أنت!!"

وصرخة القلب المكلوم يخرسها شيطان الأفكار..

كانت متعلقة به.. كانت تغار من مخطوبته.. ربما هي من أغوته!

ويرتعد قلبه بقوة.. ينتفض بقسوة أوجعته ويكاد أن يصفع شيطانه علّه يرتدع..

"هتفكر زيه؟.. كده فرقت عنه في إيه!!.. جاوب"

وصرخة القلب كانت مؤنبة دفعته لركل شيطانه وضميره يضع كلمته..

"أنت أكيد اتجننت يا علي.. ريم اللي بتتكسف تحط عينيها في عينك تعرف تغوي!"

ربما تهرب من عينيك حتى لا تكشف عن دواخلها.. عن توق يجتاحها لآخر..

"لا.. ريم مش كده"..

تتولى الدفاع عنها ببسالة..

"لأنها تستحق.. أنا الوحيد اللي في صفها.. عقلك هيسلم نفسه لشيطانك.. وضميرك مش راسي على بر"..

وكانت تلك كلمات القلب الحاسمة..

وضميره حائر بين شرقية زوج وتفاني عاشق..

لا يدري إن كانت صادقة أم كاذبة..

ضحية أم مجرمة..

نقية أم عاهـ..

"اخرس يا علي.. اخرس، أنت نسيت صوتها وهي بتدور عليك في غيبوبتها!.. نسيت دموعها!.. خوفها!!.. أنت أمانها وسندها.. أنت اللي خافت تتكلم لتضيع منها، قفلت على وحش الماضي باب وحبست نفسها معاه ينهش فيها

عشانك أنت.. هتدوس عليها أنت كمان؟.. هتسيبه يكمل عليها ولا هتنجدها منه؟"

وشهامته تدفع ضميره للهتاف..

"هساعدها.. هكون جنبها.."

والقلب يتسلم راية الحيرة..

"وبعدين؟"

ويعود الضمير لينضم له حائرًا..

"ما اعرفش.. بس هي تُقف على رجليها بعدها أفكر"

والقلب يهتف..

"لازم تعرف.. ما ينفعش تبقى عكاز مكسور.. ما ينفعش تخلى بيها وهي بتتسند عليك"

والرجل المقهور بعشقه وظنونه.. يصارع هاتفًا..

"وأنا أسند على مين!.. أنا مين يرحمني وأنا عارف أنها في كل مرة بتبص لي بتبقى شايفة أني حل مؤقت!.. مسكن مفعوله ممكن يضيع قدام أول ذكرى!.. جدار.. مجرد جدار بتستخبى وراه لحد ما تقوى وتقدر تفتح باب المستقبل!!"..

وشيطانه يحاول التدخل بعدما تقهقر أمام قوة العشق ونقاء الضمير..

مستقبل!.. وهل تملكان مستقبلًا؟!..

وضميره يحاول حسم الأمر..

"المستقبل في إيدين ربنا.. كل اللي أعرفه دلوقتِ أني عايز أكون العكاز والمُسكن لها"

والقلب يذكره..

"والسكن يا علي.. إوعى تنسى"..

وينتصر القلب يرافقه الضمير.. ولو مؤقتًا..

***

وبين لوم النفس.. تقريعها لقصور وإن كان رغمًا عنه.. عتاب واتهام هو حق لها؛ لم يمنحه ضميره فرصة لدفاع..

هو سافر.. ابتعد.. دراسة وعمل.. اندماج بحياة مختلفة سحبته من حياته الأولى..

فاكتفى بسؤال عابر ومكالمات هاتفية روتينية..

هل أخطأ بالسفر؟.. بالبعد؟.. أكان عليه رفض المنحة الدراسية والبقاء!..

وهل كان بقاؤه ليشكل فارقًا؟..

ربما..

كيف؟!!.. الحقير لم يخشَ وجود الأب هل كان الأخ ليفرق معه!!

وكيف لم ينتبه أحد له؟.. كيف غفل والده.. والدته!!..

هل طال أذاه باقي أهل البيت؟..

اعتصر قلبه وعقله يصور له ملامح آية البريئة.. هل انتهكها هي الأخرى!.. هل خضعت وصمتت هي الأخرى!..

يا الله.. اجعلها آمنة..

يا رب..

رفع عينيه للسماء يتوسل الصبر..

أمنية!!..

سمية..

كلا.. لم يؤذها هي الأخرى.. هي نالت ما يكفي من الأذى.. هل نالها بالانتهاك مثلما حطمها شقيقه بالعنف والإساءة!!..

غضبه يدفعه للذهاب وإكمال ما بدأه علي..

يقتل الوغد.. ويطهر الحياة من وجود أمثاله..

وعقله يكبله.. الفضيحة ستنال الكل.. ستقضي على سمعة أهل المنزل.. وربما يتخلى عمرو عن آية.. فزواجهما حديث وعلاقتهما لم تكن عشقًا وهوى كقصة علي وريم..

علي.. هل كانت انتفاضته غضبة لعرض زوج أم انتقامًا من وغد حطم معشوقته؟..

هل يتحمل عبء الأيام القادمة؟.. هل يكمل طريق الشهامة لنهايته أم يتراجع وقد أصبح يملك زوجة وطفل هما الأولى به!!

أخرجه صوت أنين خافت من شروده.. فعاد بنظراته لجسدها المكوم تحت الأغطية.. جسدها المثني بوضعية الجنين وقبضتها القريبة من وجهها وكأنها تحمي نفسها من عدو مجهول.. إلا أنه لم يعد مجهولًا..

الذئب الذي آواه والده بمنزله فاقتات على حملانه ولم يترك منها إلا بقايا.. بقايا حاولت جمعها على مدار سنوات لتشكل قناعها الهادئ والسعيد..

اقترب يضم رأسها الغائب بين طيات غياب لاإرادي.. يطبع قبلة ندم واعتذار فوق جبهتها..

ليته يملك أكثر من الأسف..

وليت الأسف كافي!..



***

بكاء ونحيب.. وتساؤلات ذاهلة لا تجد لها إجابات.. كلمات ابنتها تتردد بعقلها.. انهيارها..

حالتها المشتتة وهي تبحث عن زوجها بكل ركن بمنزلها..

هل مرت ابنتها بكل تلك الفظائع؟..

لمَ هي؟.. لمَ ابنتها بالذات؟.. كيف تجذب فتاة صغيرة انتباه شاب مثل ممدوح؟.. هل هي ملابسها؟.. ضحكاتها العالية؟.. ثرثرتها المكررة؟.. ما الذي أخطأت به ريم ودفعت ابن عمها لتلك الأعمال؟..

رددت أفكارها بصوت عالي ووسط دموعها:

- هي ريم غلطت في إيه علشان يعمل معاها كده؟..

وسمية تحتضنها وتربت على كتفها:

- ريم ما غلطتش يا خالتي هو اللي مجرم.

وتستمر الأم بالبكاء:

- عايزة أشوفها يا سمية..

وتضغط سمية شفتيها بارتباك:

- ما هي الزيارة ممنوعة..

- لا.. ده كلام حمزة.. هو مش عايزني أروح لها..

وقبل أن تجيبها سمية أكملت:

- مش كفاية أنه رماها في مستشفى للمجانين.. الناس هتقول عليها إيه دلوقت؟..

وتتنهد سمية بحنق:

- يا خالتي أنتِ شوفتِ حالتها والانهيار اللي حصلها.. نسيبها تموت يعني!..

وتشهق السيدة العجوز:

- وجوزها!.. جوزها عرف.. أيوة كان عارف.. دلوقتِ هيسيبها.. هيرميها ويروح لمراته وابنه.. ويمكن يفضحها علشان ما يجيبش اللوم عليه..

قاطعت سمية ظنون خالتها السيئة:

- خالتي.. ما تقومي تشوفي عمي الحاج.. ماخرجش من أوضته برضوه؟..

هزت خالتها رأسها:

- حابس نفسه في أوضته.. وكل ما أدخل عليه آلاقيه بيصلي أو بيسبح..

وتحركت لتقف وهي تكمل:

- هروح أطمن عليه..

دلفت للغرفة المغلقة.. لتجده كما تركته منذ ساعات.. جالسًا على سجادته.. حبات المسبحة تتحرك برتابة بين أصابعه ونظره شارد للبعيد..

جاء صوتها هامسًا:

- حاج سلامة..

لم يلتفت لها.. ظل على وضعه لحظات.. وأخيرًا همس:

- ما صدقتهاش... حكيت لي وكذبتها..

التفت لزوجته وأخفض نظراته أرضًا:

- قلت لها تبقى بنت فاجرة..

وأنامله تشتد على المسبحة.. فينقطع خيطها وتتبعثر حباتها بكل اتجاه..

ومخيلته عاجزة عن تقبل الحقيقة.. ابنته.. تنتهك.. تغتصب.. تهدد وترهب تحت سقف داره!..

أي عجز.. وأي قهر أكثر من هذا!!..

آمنه على ماله.. ترك له أعماله يساعده بها لسنوات..

لن يذكر أنه آواه وشقيقته.. قام بتربيتهما وسط أبنائه.. لم ينتظر امتنانًا ولكنه بالتأكيد لم يتوقع جحودًا ونكرانًا وهتكًا لعرضه..

- آه يا رب..

أخرجها من صدره حارقة.. تحرق الأنفاس..

"كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُوْلُ"

كررها بحزن.. بوجع.. بقهر.. بكسر ظهر واندحار رجولة..

رددها مرات.. ولم يكُف عن ترديدها..

هو أضاع ابنته ومن بعدها ابنه.. حتى مَن كفلهم.. لم ينجوا من دوامته..

قهر اليتيمة وتركها هدفًا لعجز ابنه.. فضاع الابن.. وستلحقه الابنة..

وهو كذبها.. قهرها.. اتهمها..

بل صدَّقها القلب.. وناقضه العقل..

فإن صدَّق العقل لضاع..

عاد يكررها..

"كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُوْل"

كررها ثانية.. وثالثة.. وبكل مرة يشعر بثقل يجثم فوق صدره.. تغيم عيناه بدموع العجز والقهر.. ويكتمها.. يحبسها.. فبالدموع راحة.. وهو لا يستحق الراحة..

تردد صوت زوجته:

- هنعمل إيه يا حاج؟.. ريم ضاعت..

ويوافقها بشرود:

- كلنا ضيعناها.. كلنا.

- أخوها حطها في مستشفى المجانين.. الناس هتقول على بنتنا مجنونة..

رمقها بنظرة قوية:

- كلمتِ آية؟..

شهقت بقوة:

- أكلمها أقولها إيه!.. جوزها لو عرف..

قاطعها بحسم:

- اطمني على آية وسمية وأمنية..

تنهد بقلق:

- اطمني على البنات يا حاجة.. كفاية اللي راح..

ضربت زوجته صدرها بقوة:

- وأفتح المقفل ليه؟.. ما كل واحدة اتجوزت وانتهى الموضوع..

هز رأسه بقهر:

- ما هي ريم كانت متجوزة..

أخفضت نظراتها أرضًا وهي تتمتم بارتباك:

- هقول إيه بس يا حاج؟.. هو ده كلام يتقال!

عاد لتسبيحه واستغفاره وهو يتمتم:

- لله الأمر من قبل ومن بعد.. سمية خليها تكلمهم وتطمنك..

ارتاحت لهذا الحل وسمعته يخبرها:

- أول ما يوصل حمزة بلغيه يعدي عليَّ..

أومأت موافقة وسألته بتوسل:

- عايزة أشوف ريم.

سألها:

- حمزة قالك إيه؟..

- قالي الزيارة ممنوعة..

هز رأسه بتفهم:

- اصبري يا حاجة.. وادعي لها..

رفعت كفيها للسماء:



- ربنا يردلك عقلك يا بنتي.. ويهدي سرك..

- ادعي لها بالصبروالشفا..

وافقته بصمت ثم عادت تسأله:

- أحط لك تاكل.. أنت ما كلتش من امبارح..

أجابها بحزم:

- بعد ما أتكلم مع حمزة..

كان لوقع كلماته ونبرتها صدى مقبض لقلبها حتى أنها وجدت لسانها يردد فجأة..

"سترك يا رب"..

***

بالبقاء في الظلام لمدة طويل تألف العينان الدُجنة فعند تعرضها لضوء مباشر يكون الألم أكبر من الاحتمال..

والاثنان عاشا في ظلام عدم المعرفة لفترات طويلة فباتت الحقيقة مؤلمة.. توخز القلب والعقل والضمير..

خرج علي من مركز الشرطة ليجد حمزة بانتظاره أمام سيارته..

نظرة واحدة تبادلها الاثنان..

نظرة تحدٍ من علي بأحقيته الوحيدة بزوجته.. تحدٍ تقهقر فور تلاقي المقل.. فبمقلتي حمزة كانت نظرة القهر والانكسار تفضح معرفته بالحقيقة..

اتخذ كل منهما مقعده بدون كلمة.. وانطلقت السيارة ليظل الصمت مهيمنًا.. فالحِمل ثقيل..

ما أُنتهك هو عرضهما معًا.. شرفهما.. أخت لأحدهما وزوجة للآخر.. والوضع لم يتحمل لومًا ولا حتى مواساة..

- ريم فين؟..

بدأ علي بتحفز..

وإجابة حمزة كانت قلقة متسائلة بحزم:

-عايزها ليه؟..

والرد سريع:

-مراتي وعايز أطمن عليها..

والمواجهة لابد منها فقد ضاع الكثير من الوقت:

-هتقدر؟..

التفت علي مقطبًا بتساؤل فأكمل حمزة برفق:

-هتكمل يا علي؟.. هتتحمل؟.. ريم مش حِمل أنك تسيبها في نص الطريق..

والتنهيدة كانت من نصيب علي.. فكلماتها بالدفتر مازالت ترتسم أمام عينيه..

"ممدوح راجع خلاص.. راجع وبرده هاسكت زي ما سكت زمان، مش هاقدر أتكلم.. مش هاتحمل أخسرك يا علي.. إنك تكون معايا بماضيَّ المسجون جوايا أرحم بكتير من إني أحرره من سجنه وتضيع مني.. أرحم من إنك تكرهني"

هي سجنت نفسها خلف قضبان الماضي من أجله.. تركت أشباحها وهواجسها تقتات على تعقلها ومشاعرها كي لا يرحل عنها..

قدمت حبها وعشقها له قربانًا.. وأهدته زوجةً وابنًا وحياةً مستقرة وإن لم تكن معها..

كيف يتركها وهي كنقش نُحِت بخلايا دمه!..

كيف يتخلى وهي تمسكت حتى تمزقت روحها!..

هو يسحبها له من ناحية ودوامة ماضيها تجذبها لقاعها بقوة..

دموعها..

انهيارها..

غيبوبتها الأخيرة..

واسمه يتردد بين شفتيها تتوسله البقاء!..

- ريم مراتي يا حمزة.. مراتي لآخريوم في عمري..

وتلك المرة أراد حمزة إجابة حاسمة فكان السؤال مكررًا ولكن بحزم واضح:

-هتكمل للآخريا علي؟..

-لآخريوم في عمري..

الرد سريع.. وهذا يقلقه!!..

هويخشى عليها فلن تتحمل تخلي علي عنها.. وهووإن تاه منه الطريق بالماضي.. إن سحبته حياته ودراسته ومستقبله.. فهوعاد الآن.. ولن يسمح لأحد بإيذائها.. حتى لوكان يعلم بمدى عشقه لها..

ويحلل عقله الأمربتأنٍ..

ربما يمكنه تخطي الأمر.. ربما استطاع التغاضي..

ألم تستطع أنت؟..

ألم ترغب بإكمال حياتك مع سمية وأنت تظنها كانت زوجة كاملة لشقيقك؟..



لم تمانع وقتها بأنها كانت ملكًا لآخر.. لم تمانع وحتى مشاعرك لم تكن وضحت بعد..

ليقف شيطانه مكتفًا ذراعيه يسأله ويطلب إجابة صريحة..

والآن بعدما علمت أنها لم تكن ملكًا لأخيك؟.. هل تتحمل لو كانت هي من انتهكت بيدي ابن عمك..!!

والإجابة حائرة.. وتلك الجينات الذكورية المقيتة غير مفهومة.. فكيف لا يتقبلها وهي ضحية.. منتهكة.. سُلبت منها براءتها!!

حيرة وضياع.. غضب قاهر أحاط بعقل حمزة..

هل يمنح ثقته للعاشق؟.. الصديق الداعم؟..

أم يحمي شقيقته من الزوج.. والذي قد لا يكون بنفس تفهم واحتواء العاشق!..

وحسم علي تردده بكلمات بسيطة:

-ريم محتاجة وجودي جنبها.. وأنا محتاج أخوض معاها الحرب دي..

قطب حمزة:

-حرب؟



-أيوه يا حمزة حرب.. حرب ضد ماضي أسود اتغرس جواها.. حرب ضد أفكارومعتقدات سودا زرعها الكلب ده في عقلها..

وخفت صوته:

-حرب ضد حيرتي وتشوشي..

وسأله حمزة مباشرة:

-مراتك وابنك؟..

تنهد علي بقوة:

-كل حد منهم له مكانته ومافيش حد هيسحب من مكانة التاني..

وصمت للحظة:

-أنا ما قصرتش في حق ريم ولو لحظة.. ومش ناوي أقصر..

حسم حمزة أمره:

-ريم في المستشفى..

-وصلني لها..

أخبره علي بلهفة خالطها قلق ثم ألقى برأسه بعدها على مسند المقعد.. يفكر بما هو قادم..

لقد منح الكثير من الوعود.. وبالمقابل بادله حمزة ثقته..

فقط يتمنى أن يكون أهلاً لها..

***

جنون يحرث أفكاره.. تيه بين خيال العشق وواقع الانتهاك.. ضلال بين سطوة الذكورة وخيالات من صور وكلمات تذبح الرجولة..

غضب منها ولها وعليها..

وتبقى.. النظرة.. نظرتها المتضرعة والمرتعبة لحظة فتح باب منزلهما.. تلك النظرة التي انتصرت على كل شيء آخر..

والهمسة.. همستها باسمه تتوسل البقاء.. تلك الهمسة التي قهرت صخب الأفكار الشرقية..

والدمعة.. دمعتها التي شقت روحه بسيف من نار.. دمعة تنعي براءتها وتأمل باحتوائه..

تأمل ملامحها الغارقة بسبات عميق..

أنامله تتحرك ببطء لتلمس خصلاتها الهادئة -على غير عادتها- يخشى أن تستيقظ فتجده يلامسها وتفزع.. رغم أن الطبيب أخبره أنها غارقة بغيبوبتها منذ أتى بها حمزة..

بأعماقه يعلم أنها تهرب بغيبوبتها من ملاقاته.. من مواجهة فكرة فقده.. لا يمنح نفسه مركزًا استثنائيًا.. ولكنه يفسر كلماتها الممتزجة بدموعها في دفتر أوجاعها..

نزل على ركبتيه أمام فراشها.. والتفت يده حول كفها الراقدة بوداعة كحالها بأكمله..

قبلة دافئة طبعها على ظاهر يدها..

قبلة تصاحبها همسة اعتذار.. وندم..

وهمسة ثانية يمنحها معها تصديقه لكلماتها..

وثالثة يطلب عفوها لبلادة تفكيره..

ورابعة تتوسل مغفرتها لتقصيره.. تقصيرهم جميعًا بحقها..

وخامسة تحمل امتنانه لوجودها، لحبها.. لتفانيها بعشقه وتنازلها عنه له.. تنازلت عن حقها به لتقيه ضياعه بين حبها ونفورها..

وسادسة يخبرها أنه يتفهم.. كل رفض.. كل ابتعاد.. كل صرخة.. يتفهمها.. ويسامح..

وسابعة يعتذر منها عن غضبه..



وثامنة يخبرها أنه لن يلوم على إهانة.. ولن يعاتب على سوء فهم.. ليس لأنه يستحق منها ذلك.. ولكن لتأكده أنها لم تكن واعية..

وأخيرة يصارحها بما لم يصارح به نفسه..

"أنا معاكِ.. معاكِ لأني مش عارف غير أني أكون معاكِ.. معاكِ ومش عارف هقدر أواصل ولا لأ.. بس بأراهن على عشق ما غيروش إهانات.. ما قلش حتى بعد جوازة تانية ووجود ابن.. ما اتشوهش رغم ماضي أسود حبستِ نفسك فيه.. بأراهن ومش عارف هكسب ولا هنخسر سوا.. بأراهن على حبنا أنه ممكن ينسى.. ممكن يعدي.. بأراهن على حبك اللي منعك من المواجهة.. من العلاج.. بس علشان نكون سوا.. حتى لو وجود صوري أفلاطوني.. بأراهن علينا يا ريم.. وباتمنى ننجح"..

نهض أخيرًا بعدما بثها بعض مما يجول برأسه.. سحب مقعدًا ورمى بجسده فوقه..

وغاب بنوم متعب.. غرق بسبات يتمنى لو يلاقي طيفها بمنامه.. ربما وقتها يجد برًا آمنًا.. ترسو عليه حياته..

***

على سجادته التي لم يتركها منذ خرجت ابنته محمولة على ذراعي شقيقها..



وبين استغفاروتسبيح أدرك كم كان ظالمًا متجنيًا.. كم أهدرحق ابنته وتساهل بحق ربيبته.. كم تشدق بآيات قرآنية وتعاليم الدين وأسسه.. ولكن عندما حُشِربين تطبيق ما يردد ومخالفته.. قرر المخالفة حماية لأولاده..

شعربخطوات ابنه الغاضبة.. ولأول مرة عجزعن رفع عينيه بعيني حمزة..

حتى عندما علم حمزة بسبب إجباره على الزواج من سمية.. وحقيقة عجز سعد.. كان سلامة يملك القدرة على الدفاع والتبرير..

ولكن الآن!.. أي دفاع يملكه!.. وأي تفسير!..

لا شيء.. هو دافع عن المجرم.. فتح بيته لذئب وأواه ومنحه الثقة والحصانة لانتهاك ابنته.. هو مجرم بقدرإجرام ممدوح.. بل ربما أكثرفهو من كان يفترض به الحماية، فتخلى.. من كان يفترض به الدعم فخلى.. من كان يفترض به الحكمة فضَل..

وحمزة الغاضب.. بل يحترق غضبًا.. وعجزًا.. عقله كاد أن يُفقد وحسن تقديره للأمور انعدم.. وثقته بمن حوله.. حتى أهله.. تزعزت..

كيف يثق ويأمن وهو منذ عودته يكتشف بكل لحظة.. عفن.. قذارة.. شتات وضياع نفوس.. وانعدام ضمير.. وقلة إيمان!!..

عندما دلف لغرفة أبيه كان ينوي أن يخرج ما بصدره.. أن يفرج عن رأيه ومكنوناته وأفكاره..

أراد التنفيس عن غضب يتآكل صدره.. أراد التحرر من عبء الذنب..

أراد الكثير.. ولكن هروب نظرات أبيه من مواجهته.. وقبل هروبه تلك النظرة الكسيرة..

نظرة أب فقدت ابنته براءتها وشرفها وانتهكت لسنوات.. تحت ناظريه الغافلين..

نظرة أب كسر ظهره وانحنت هامته.. نظرة أدرك معها لم استعاذ أشرف الخلق من قهر الرجال.. فما يراه على وجه أبيه أخرس لسانه وشل عقله..

تاهت كلماته الغاضبة.. والحمل يتثاقل على كتفيه.. فلم يعد ذنب ريم فقط.. بل عبء مواساة والده.. ولكن والده لم يمهله لحظة يفكر بها بل بدأ الحديث وكأنه يتوق لإلقاء ما بجعبته..

-تعالى يا حمزة.. مافيش وقت..

وتساءل حمزة بقلق:

-مافيش وقت!.. مافيش وقت لإيه؟..



أشارله والده فاقترب حمزة يساعده على الوقوف والجلوس على طرف الفراش..

خطوات الأب مترنحة بقوة وكأنه يعجز عن شد هامته..

أخرج من جيبه عدة أوراق دفعها بين يدي حمزة:

-دي إيصالات أمانة بتاعة إيهاب.. إيصالات مصاريف دراسته..

استمع إليه حمزة بصدمة:

-مضيته على إيصالات تمن تعليمه؟..

أكمل الأب كلماته وهو يلهث بشدة:

-إدي الإيصالات لسمية..

وارتفع حاجبي حمزة ذهولًا:

-سمية!!.. سمية تعرف بوجودهم؟..

وأخفض الأب نظراته حرجًا.. لم يتخيل يومًا أن يقف من ابنه ذلك الموقف.. أن يتحطم تمثال الأب المثالي بعيني ابنه الأكبر.. ولكن لا وقت للعواطف.. يجب أن ينهي ما بجعبته الليلة..

-ده سبب موافقة سمية على الجواز منك..

وليته ذبحه بسكينٍ ثالم أو حتى طعنه به..

كان يبتزها.. أجبرها على الزواج منه وتغطية عجز شقيقه تحت التهديد بحبس شقيقها!..

ذلك الشقيق الذي كاد أن يقتلها!!..

لا عجب أنها رفضت الاستمرار معه.. لقد فتح لها باب زنزانة حجزت بها لسنوات.. ومنحها عفو شامل ونهائي.. كل تعجبه من قدرتها على اختيار الانفصال عنه رغم هشاشتها الواضحة تبخرت الآن.. فهي كانت معه قصرًا وغصبًا

قبض على الأوراق بقوة غاضبة وهتف:

-إزاي؟.. ليه بتقولي؟.. ليه؟.. باقي إيه تاني نضيف ولسه عايزني أشوفه ملوث!..

لم يهتم سلامة بالرد.. هو كان بمهمة ويريد إنهاءها..

-أنا عملت توكيل بالإدارة لعمرو.. هو هيدير الشغل وهيجيب لك الإيراد كل شهر.. وده ورق ضد أنا واخده عليه..

دفع بعدة أوراق أخرى ليدي حمزة الذي تساءل بانشداه:

-إمتى وإزاي عملت كل ده؟..

أشاح أبوه بصبر يكاد ينفذ:

-اتصلت بالمحامي وهو خلص كل حاجة وجاب الورق من شوية..

ونهض ليتمسك بكتفي حمزة:

-إخواتك أمانة في رقبتك.. والدتك ست بسيطة وعلى قدها.. خد بالك منها..

هز حمزة رأسه رافضًا:

-إيه لزوم الكلام ده؟..

هتف والده:

-ما تقاطعنيش..

وأكمل يلقي تعليماته وكأنها وصاياه الأخيرة:

-تمم جوازة إيهاب ونشوى.. رانيا أخت ممدوح بس دلوقتِ هي مالهاش حد ومالهاش ذنب..

أخذ نفسًا عميقًا:

-سمية بنت حلال وجدعة.. وأنت عايزها.. اتجوزها.. هي اللي تقدرتكمل معاك.. وأنت محتاج وجودها..

هتف حمزة بقلق:

-في إيه يا حاج؟.. قلقتني..

تمدد سلامة بفراشه وهمس بخفوت:

-اطلب من ريم تسامحني..

هزه حمزة بخوف:

-يا حاج.. يا حاج..

أشارله سلامة ليصرفه:

-سيبني أرتاح يا حمزة.. أنا ما نمتش من إمبارح.. وبلغ والدتك تصحيني بعد ساعتين وتحضر العشا..

تجمد حمزة بوقفته يتابع أنفاس والده وكأنه يخشى أن تتوقف.. ولكنه سرعان ما لاحظ أنه راح بنوم عميق.. وكأنه كان ينتظرفقط ذلك اللقاء مع حمزة..

ترك الغرفة بخطوات متثاقلة.. ووصايا والده تزعزع من ثباته.. وغضبه عاد يتأجج..

فهو لم ينفس عنه بعد..

***



خطواته بطيئة عكس ما يجول بداخله من أفكار متصارعة.. كلمات والده تدق برأسه كعشرات النواقيس العملاقة.. واكتشافه بأنها كانت مجبرة بكل لحظة على التواجد معه كان يشعل المزيد من غضبه..

لمَ لم تصارحه من البداية؟..

ربما تجنبا الكثير من سوء التفاهم والتصرفات الغاضبة..

كان أول سؤال يلقي به بوجهها بمجرد أن فتحت الباب:

-ليه ما قولتيش على الإيصالات؟..

تحركت لتفسح له مجالًا.. ورغم تأخر الوقت إلا أنه لم يتمالك نفسه فدخل وتركت هي الباب مفتوحًا رغم وجود شقيقتها النائمة بالداخل..

جلس بأول مقعد قابله ورفع عينيه يطلب إجابة.. بينما هي ارتبكت وتلعثمت كلماتها:

-ريم عاملة إيه دلوقتِ؟..

زفر بغضب:

-لسه ما فاقتش.. الدكتور بيقول إن ده أمر طبيعي.. وعلي عايز يكون جنبها..

لخص لها جميع الأخبار بجملة واحدة وصمت منتظرًا ردها..

أخفضت نظراتها أرضًا وسألته بقلق حقيقي:

-اتعشيت؟..

نهض بغتة وتمسك بذراعيها هاتفًا:

-ليه سكتِ واتحملتِ كل الإهانات؟.. كل الغضب..

قاطعته بسرعة:

-إزاي كنت عايزني أقول أن والدك بيهدد..!

قطعت كلماتها وهي تعض شفتيها.. وهزت رأسها:

-ما كانش ينفع..

رفعت نظراتها لعينيه فرأت غضبه عاصفًا.. فهمست بقلق:

-حمزة..!!

أخرج الإيصالات ومزقها أمام عينيها:

-أنتِ دلوقتِ حرة تمامًا.. لو عايزة نصيبك في ميراث سعد سيولة هحاول أوفرها لك.. و..

قاطعته بابتسامة هدأت من أعاصير غضبه:

-هتتخلى عن كلمتك وتخالف وعدك!.. مش وعدتني تكون سندي..

مسح وجهه بكفيه ثم نظر لها:

-أنا محتاج حد يسندني.. محتاج حد أشكي له..

أجابته بسرعة:

-أنا أهوه.. اتكلم.. اشكي.. ريم هتبقى كويسة إن شاء الله.. كل حاجة هتبقى كويسة..

رمى بجسده على المقعد خلفه:

-كل حاجة هتبقى كويسة!!.. إزاي يا سمية؟.. أنا حاسس الدنيا كلها بتقع فوق دماغي..

اقتربت لتجلس بمقعد مجاور وربتت على كتفه بمواساة:

-عارف يا حمزة.. وقت ما كان سعد بيضربني.. وقت ما كنت بشوف الدنيا بلونين بس أحمر بلون دمي.. أو أسود بلون حياتي.. عارف كنت بكمل إزاي؟..

ضغط أسنانه غضبًا فتلك الكلمات رفعت من معدل اشتعاله بدلًا من تهدئته وشعرت هي بذلك.. فمدت كفها بخجل لتمسك كفه وتضغطها بمؤازرة خجولة وتكمل:



-دايمًا كنت بفكر أن ده وقت قاسي وهيمر.. هيعدي وأوصل لحياة أهدى.. حياة سعيدة.. كنت بقول إن اللي بيحصلي لازم له نهاية وبفكر في بكرة.. صحيح كنت ساكتة وخاضعة لكن جوايا إيمان بأمل هاوصله في النهاية..

تأملها بحنان..

تلك المرة الأولى التي تندفع بكلمات كتلك..

المرة الأولى التي تكشف عن نفسها بذلك القدر..

وفعلتها من أجله.. لتسانده.. لتمحي غضبه الذي هدأ بالفعل وهو يتيه بنعومة نظراتها وتلك اللمعة الجديدة بعينيها..

شعرت بكفه الأخرى تلتف حول أناملها فسحبت يدها بحرج وهبت واقفة وهي تسأله بحرج:

-أنت محتاج كوباية ليمون عشان تهدى..

استوقفها قبل أن تهرب منه:

-بس أنا هديت خلاص..

سألته بلهفة:

-بجد!

أومأ براحة وهو يمنحها نظرة دفعت بدقات قلبها للتقافز:

-كنت محتاج السند ولقيته..

تركها تحت تأثير تلك الكلمات وتوجه للباب المفتوح.. تجمد للحظات والتفت يلقي بآخر حِمل من على كتفيه:

-ممدوح.. آذاكِ أو..

هزت رأسها نفيا قبل أن يكمل جملته.. فتنهد بارتياح.. وهو يسمعها تضيف:

-مافيش غير ريم.. أنا اطمنت من آية وأمنية..

شدت كتفيها وهي تخبره بأمل:

-بس هي هتبقى كويسة.. إن شاء الله هتبقى كويسة..

هز رأسه بلا معنى.. وتركها قبل أن يردد:

-هنزل علشان الوقت متأخر.. بس هاكلمك بالتليفون..

هزت رأسها بخجل وأغلقت خلفه الباب.. ثم ركضت لغرفتها تتناول هاتفها بين يديها تنتظر مكالمته والتي لم تتأخر.. فسرعان ما تعالى الجرس..

وبدأ هو يحكي لها ما مر به بالتفصيل.. وهي تستمع بلهفة.. لا تفوتها همسة..

***



العادات.. التقاليد.. المظاهر مهما كانت خادعة وكاذبة.. مبادئ عتيقة.. مهلهلة.. وأفكار بالية ولكنها تُورَث من جيل لآخر..

وآخر من تمسك بتلك الأفكار كان سلامة سند.. تحكمت به تقاليده.. مبادئه المهترئة.. عَلِم صحيح الدين وخالفه مستغفرًا ومتصدقًا.. متوسلًا عفو الرحمن..

أهمل في أمانة حملها بعنقه.. وأساء إليها عامدًا متعمدًا..

ونسي أن الله يُمهل ولا يهمل..

ربما بدأت انتهاكات ممدوح لريم قبل أن يسود هو بظلمه فوق سمية وأخيها..

ولكن ظلمه لليتيمة أعمى عينيه عن ملاحظة روح ممدوح ونفسه السوداء..

والآن..

حان وقت القصاص..

أعاد حساباته.. وأنهى جميع ما يخص أعماله.. وبقي فقط ما يخص المنزل وأهله..

تلك مسئولية ثقيلة يلقي بها على عاتق حمزة.. ولكنها بأي حال أخف من عبء قصاص مستحق..

لن يترك ابنه يتحمل عاقبة إهماله.. ولن يدع لزوج مهمة الانتقام..

ذاك ثأره..

هو من سيقتص..

سينتقم..

سيقيم ظهر ابنته ويرفع رأسها..

ربما هي بغيبوبتها تظن أنه يكذب كلماتها.. وربما لن يلتقي بنظراتها ثانية..

لكنه يأمل أن تعود.. أن تتمسك بحياة هي أحق بها من ذاك المأفون الذي سيلقاه بعد دقائق..

فقط ينهي توديعها.. أو توديع نفسها الغائبة.. يعتذر منها.. بقبلة جبين.. يمنحها ثقة لن تعلم بها وتصديق متأخر.. ولكنه سيكفر عن خطئه.. وستستعيد ابنته حياتها.. ولو كان الثمن حياته..

خرج من غرفتها متسللًا مثلما دخل مستغلًا دقائق توجه فيها علي للمقهى الصغير بالمشفى..



ودقائق أخرى مرت كان يتسلل بها لمشفى آخر.. لم تبطئه خطواته المسنة.. فدافع الثأر كان أقوى.. لم تؤخره أمراضه وشيخوخته..

فالقصاص ينادي..

وقف أمام فراش ممدوح الغارق بسباته بفعل الأدوية والمسكنات..

أخفض نظره وتحفزت وقفته وبدأ يتلو بخشوع..

"وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ"

ومع نهاية الآية فتح ممدوح عينيه ولم يمهله عمه لحظة بل رفع قبضتيه لأعلى ليلمح ممدوح من بينهما نصل طويل حاد.. وبلحظة كان سلامة ينفذ قصاصه ويغمد السكين لآخره بين ساقي ممدوح..

منتزعًا رجولته..

للأبد..



الفصل الثاني والثلاثون

لطالما قالوا أن الحياة ستستمر.. وهي قطعًا ستفعل!

تمر بأحدهم دون أن تكترث للندوب التي تركتها فوق روحه الهشة، تتجاوز آخرًا بعدما تصدعت نفسه وتزلزل كيانه، تتجاهل ذاك الذي كان الخاسر الأعظم، وتلوح من بعيد لمن فازوانتصروانتقم..

قد تكون من بعدها حيًا لأنك فقط يجب أن تحيا، وقد تكمل طريقك لأنك بدأته بالفعل وحسب، وقد تخطو نحو الغد لأن الغد قادم لا محالة فاستقباله بما يليق هو الأمر الصحيح، وكذلك قد تستمر معها لأنها البتَّة لن تتوقف دونك فإما أن تتبعها، أو تضيع.. وهي لن تكترث أو تبالي بك من وراء خطوات رحيلها وأنت قابع بمكانك!..

إما أن تتبعها، أو تدهسك وتنساك..

الحياة تستمر ببعضهم نحو الثبات، الاحتياج.. الأمل..

نحو روح تعوز الترميم وتبغي الصلاح والسكن!

تستمر وتتحرك وهو يحاول أن يجاري حركتها علَّه ينجو من مقصلة الذنب ولوم الذات وإحساس التقصير رغم قرار التعويض وإن ظنه أبدًا غير كاف..

تستمر لأنها يجب أن تفعل وأنت يجب أن تصمد، تكمل وتسير نحو النهاية بجلد وصبر، ربما لأنك سند أحدهم وعالم الآخر ودنياه..

وبينما هو عائد لمنزله بعدما اطمأن على ريم قدر ما استطاع كان كل ما يريده هو الراحة، الإجهاد قد نال منه ما نال، انعدام النوم والأفكار التي تتصارع بعقله، قلبه الممزق ورجولته الموجوعة الجريحة.. والحبيبة الغائبة!

عائد في وقت متأخر ولم يكن يعلم أنها مستيقظة بصحبة صغيره، دلف للغرفة بهدوء ليلمحها جالسة عل الفراش والصغير فوق ذراعيها، ضوء خافت يجاورها وشرود يوزاي نظرتها نحوه حال عودته قرب آذان الفجر.. شرود تبخر وهي ترى وجهه المكدوم وذاك الجرح الواضح على جانب فمه، الزرقة التي تشغل حيزًا لا بأس به من ذقنه والسواد المحيط بعينيه..

وضعت الصغير بعناية في مهده وتوجهت نحوه وهو يجلس بتعب على طرف فراشهما، جلست على ركبتيها بمواجهته ترفع وجهه إليها بقلق:

- مالك يا علي؟.. إيه اللي عمل فيك كده؟

تنفس بعمق وهو يحيطها بعينيه تائهًا للحظة، قبل أن يربت على كفها محاولًا المرور فوق تفاصيل لن يجوز ذكرها:

- ما تقلقيش يا رؤى أنا كويس.. محتاج بس أرتاح.

ودون أن ينهض أو يغير ثيابه أو يهتم بأي شيء كان يستلقي على جانبه مغمضًا جفنيه وهمسته تصلها متوسلة:

- هاتي بس بلال وخليكم جنبي.

وهي قلبها انتفض بين ضلوعها فتحركت تقابل وجهه، تمرر أناملها فوق كدماته بحنو:

- طمني عليك طيب.. إيه اللي حصل؟

لم يفتح عينيه، تأخر في الرد لثوان وما منحه كان بنظرها محض هراء لكنها استشعرت رغبته في الصمت.. في الراحة:

- خناقة في الشارع واضطريت أتدخل، كنت في الحجز.

كتمت شهقتها بيدها وهو يردف بمناشدة باهتة أخيرة:

- هاتي بلال.

لمع القلق والخوف بمقلتيها دون رادع أو مسوغ صمت سوى رغبته، تجاهلت كل الفضول والأسئلة واستجابت لطلبه بعدما مالت لتطبع قبلة حانية فوق جبينه، تدور حول الفراش وتحتضن الصغير.. تجاور أباه وتحيط رأسه بدفئها وهي تشعر بانتظام أنفاسه كأنما كان ينتظر فقط لحظة قربهما.. ليضيع، لينام.. ليستكين.

وينهش قلبها هي هاجس مخيف.. بأن الأمرجلل!

***

الحياة تستمر لأنك أصبحت أقوى، فلتكمل مسيرها بك وليس دونك، لأنك تعلمت، سقطت وعدت واقفًا، جُرحت واندمل الجرح وإن ترك ندبة طمستها خلف جدار الذكرى محاولًا تناسيها علَّك تفلح في تخطيها نحو غدٍ مختلف.. غدٍ يخصك أنت وحدك..

الحياة تستمر بك ومعك لأنك تستحق..

وهي ستستمر، وستجبره على الاستمرار وإن لم يكن لأجلهما.. فالجمع بينهما في كلمة، في مثنى قد انتهى.. أصبح هو.. وهي.. وكل منهما فرد لا يجاور الآخر..

ستستمر وستدفعه لأجل ذاته، لأجل طفله الذي أهمله ونفسه التي تاهت بدروب اليأس..

ربما في موقف آخر لم تكن لتفعلها، نعم هي مجروحة، والجرح يبيح القسوة.. يبيح الظلم.. يبيح إيلام الآخرين قدر ألمك لأنك ترى نفسك لا تستحق ذاك الأذى منهم!

ورغمًا عن ذلك الجرح الذي تجاهد لتقطيبه ومداواته فها هي ذاهبة بقدميها نحو من أغمد السكين حتى المقبض بقلبها، ربما بدافع من ضمير

من قرابة، من عشرة.. حب سابق أو حتى أخيها الذي أخبرها أنه لن يستجيب لأحد إلا إليها..

وهي لم توافق إلا بعدما ذهبت معه لطبيب نفسي كان قد استشاره صلاح في حالة نبيل وشخصها الرجل مبدأيًا على أنها عقدة نفسية نادرة للغاية ذكرلها اسمًا علميًا صعبًا..

"Madonna–whore complex"..

وأوضح لهما أن ذاك المرض يقسم فيه الذكر النساء بحياته لقسمين، قسم ينال منه الإعجاب والحب وذاك يضعه بمرتبة مقدسة طاهرة غير قابلة للمساس بها، والقسم الآخر ينال منه الرغبة الحسية والشهوة المطلقة ومرتبته أكثر حقارة ودناءة بنظره..

ثم أخبرهما الطبيب أن ذاك مجرد تشخيص لن يقرر أنه صحيح إلا بعد لقاء نبيل بنفسه وإخضاعه لبعض الاختبارات.. ذاك اللقاء الذي ظل صلاح طول الأيام الفائتة يحثه عليه وهو يرفض رفضًا تامًا متهمًا إياه بالجنون لمجرد الظن أن به .. مرض!!

ولأنها وبعد ما حدث مع إيهاب، مع خوفها وتوترها، هروبها وإعتكافها بالمنزل عدة أيام هلعًا من فكرة مطاردته لها قررت أن ترى الطبيب هي الأخرى وفعلت.. فلم تكن لتجاور أخيها الآن بسيارته متجهين نحو منزل نبيل الذي

أخذ أجازة مفتوحة من عمله وحتى متابعته لباقي أعماله أصبحت على الطرف المهمل من حياته..

توقف أسفل العقاروأغمضت عينيها، لا تصدق أنها عادت لذاك المكان!

منزلها، بل موطنها السابق والذي غادرته بإرادتها لأن أخرى استوطنت صاحبه، احتلته بالكامل وإن برر وصرخ بمسببات ودوافع وجهر بحبها هي!

ترجلت وبتوتر مرتبك صعدت إليه بعدما طلبت من صلاح انتظارها، المواجهة تحتم انفرادًا، ربما لأن ما انكسر كثير فلا ينبغي أن يكون أكثر، ربما لأنها حينها ستؤثر عليه ويخضع هو بعاطفة مجبرة!.. هي لا تعلم، لم توافق على المجيء..

لكنه حق العشرة.. الدم.. الرحم.. وحب قد كان!

حاولت الوصول إليه كثيرًا، هاتفه مغلق، عمله مهمل.. وهو معتكف بكهف وحدته كرجل ينتظر النهاية وحسب، مجبرة هي على العودة من حيث انتهت، هي عودة مؤلمة محملة بعبق ذكريات الوجع وإن كانت مؤقتة ولغرض محدد..

طرقت الباب دون استجابة، تعلم أنه بالداخل، ودت لو تراجعت ورحلت لكن بقايا من ضمير حيّ تناشدها تكرار المحاولة، ولا تزال تحاول حتى نالت استجابة وهالها مظهره!

ذقنه نامية دون ترتيب، خصلاته مشعثة طويلة، عيناه مرهقتان محمرتان محاطتان بقتامة تشي بأرق، وجسده نحل كأنما لا يمر بمعدته إلا ما يبقيه حيًا!

حينما سقط بناظريه عليها ظهرت بمقلتيه لمعة أمل سرعان ما وأدتها بمهد ميلادها وهي تحييه بجمود:

- إزيك يا نبيل؟

كانت هادئة، وهو لاحظ.. ربما لم تعد تتوجع لكنها لم تسامح أو تغفر!

بينما هي تتأمل المكان بحنين صامت كان هو يتأملها شاردًا في الأمس غير البعيد، الأمس الذي كانت هي فيه ملكته وملكة بيته وسلطانة حياته!.. تساءل عن سبب وجودها وبرق بذهنه فجأة، تغيرت لمعة العين بإدراك تحول لهجوم مفاجئ جوار انعقاد الحاجبين وهي تلتفت إليه بحثًا عن كلمات تبدأ بها:

- جاية عشان تقولي لي إني مجنون؟!

رمقته بنظرة باردة، فلو ظن أن هجومه هو الحل الأمثل سيخسر بالتأكيد:

- أظن أنت مثقف بما فيه الكفاية عشان تفرق بين الجنون وأي مرض نفسي!

ازدرد لعابه وضاقت عيناه تتفرسان بملامحها رغمًا عنه.. باشتياق:

- لا فرق كبير فعلًا.. يعني أنا مريض؟

واتخذت هي من الهجوم سبيلًا هذه المرة وهو لها حق:

- تنكر يا نبيل؟

- أيوة أنكر.

لاحقها بالجواب كأنما كان بانتظار السؤال، ودار حول نفسه تائهًا حزينًا ووزاى نبرته حيرة وشجن:

- ليه ماحدش عاوز يفهمني؟

مرر أصابعه بخصلاته الشعثاء وبريق عينيه ينطفئ ببطء:

- ليه ماحدش شايف اللي أنا شايفه؟

وتمسكت هي بغلاف الجمود جوار شيء من قسوة تخفي بها ألمًا لايزال حيًا ينبض:

- لأن اللي أنت شايفه بيخالف الفطرة اللي ربنا خلقنا عليها.

وزعق هذه المرة كأنما يكره أن يحشر بزاوية ضيقة مهزومًا:

- وهي الفطرة دي إني أعاملك زيك زي المخلوقة اللي اسمها صفية؟!

كاد يصيبه الجنون وهي عاطفتها تغلبت فتناثر بنبرتها غضب:

- الفطرة بتقول إننا سكن لبعض.. إني مراتك، والمفروض أكون أنا.. أو كنت أكون أم ولادك..

واجهها ينظر بعمق عينيها يستجدي فهمًا.. أو قربًا:

- قلت لك أنتِ أمه.

- ما تكررش الكلام ده.

وكانت منها شبه صرخة وهي تبتعد عن مرمى سهام نظراته، تدير ظهرها إليه، قلبها يرتج بصدرها بأنين مكتوم وعيناها تحرقها الدموع المحبوسة بصمود:

- أنا مستحيل أحس إني أمه.. ما حسيتش ومش هاحس.

صوته أتاها حائرًا:

- إشمعنى ماما روضة عاملتني على إني ابنها؟!

التفت إليه بنظرة متهمة لائمة:

- أنا مش مرات والدك، ولا صفية هي والدتك.. أنا حبيبة، كنت مراتك.. لازم تفرق.

اقترب خطوة مستجدية:

- لا يا حبيبة، أنتِ حاجة تانية.

وتنفلت أعصابها من عقال تماسكها مرة أخرى:

- أنا ست.

وتضرب صدرها بقبضتها:

- ست كانت محتاجة تحس بحب الراجل اللي اتجوزته، بقربه..

ثم تهزرأسها بعتاب حاد تجاوز حدود النظرلحدود الصراخ الصامت:

- ست تحس أنها في عيونه أنثى كاملة، أم.. مش كيان مقدس!

وسحبت دفقة هواء أوجعت رئتيها، هواء استدعت بها هدوئها وشيء من صلابة تحتاجها:

- أنت محتاج تروح للدكتور يا نبيل.. لازم.

خطوته التالية كانت أقرب، عيناه تتشبثان بعينيها، نبرته تتوسلها.. وود لو تعلق بيدها كطفل ضائع:

- طيب لو رُحت للدكتور؛ هيبقى في أمل؟.. هتوافقي ترجعي لي؟

عضت شفتيها جوارهزة كتف يائسة رغم قوة نظرتها:

- أنت عندك ابن، ابنك محتاج أب يا نبيل.

ثم شدت قامتها ونبرتها تتلبس رداء القوة:

- فكر فيه قبل ما تفكر حتى في نفسك، لا.. فكر في نفسك عشانه هو.

- يعني هتوافقي تبقي أمه؟.. أنا مستعد أعمل أي حاجة؛ بس نرجع!

رمقته بعينين متحجرتين، ربما هي هنا لتحثه على التمسك بالأمل، لكن ذاك الأمل لا يتضمنها هي.. وهي لن تمنحه بادرة منه تشملها بينما تعلم أن ما بينهما انتهى بالفعل، وإلى الأبد:

- نبيل أنت هتفضل طول عمرك ابن عمي، صلة دم أقوى من أي علاقة تانية.

وتنهدت بصبر:

- وده بس اللي جابني النهاردة.

حاول أن يقاطع، يفند.. يقترب ويطالب أو حتى يهدد، أوقفته بإشارة قاطعة من يدها:

- إوعدني إنك هتروح مع صلاح، عشانك وعشان ابنك اللي أنت حتى ما اختارتش اسمه.

وانتزعت منه وعدًا صامتًا لم تمهله فرصة سحبه، غادرت وهي توقن أنها قامت بالأمر الصحيح، أنه قد يعود لطفله الذي يحتاجه..

أن الحياة ستستمر.. حياته دونها، وحياتها دونه.. أن قصتهما كانت هذه نهايتها..

قصتهما مع وعده.. تمت!

تمت ربما لتبدأ قصة أخرى في وقت لا يناسبها عندما وجدته في اليوم التالي يوصل طفلته بنفسه ثم يطالبها بلقاء منفرد لحديث هام، ولأنها تعلمت درسها بالطريقة الأكثر وجعًا، الطريقة الأكثر خوفًا والأصعب فقد رفضت بجدية لبقة.. الحذر أفضل من السقوط في الهاوية وإن كان ماوراءه غدًا يحمل عبقًا جديدًا!

أما هو فقد قرر أن يستجيب لرغبتها فلم يضغط عليها، بل انتظر الوقت المناسب وذهب إليها بمكتبها عقب انتهاء اليوم الدراسي وهناك بادر بتحية وبعد تردد قصير أعلن عن مطلبه بصراحة:

- مدام حبيبة.. تقبلي تتجوزيني!..

ولنقل أن الصدمة لم تلجمها، أن الطلب كان يلوح في الأفق بتوقع سهل، أنها تعلم الجواب في هذه اللحظة وبيقين.. أنه تأخر قليلًا وذاك لمصلحتها لأنها تخطت مرحلة الضعف والتخبط والرغبة في الشعور بكيانها كأنثى مكتملة، الاحتياج للغزل والقرب والاهتمام ولذا كان الرد مباشرًا لا يحتمل اتجاهات أخرى:

- دكتور حسام أنا.. آسفة، ما بافكرش في الجواز حاليًا.

وكلمة "حاليًا" منحته شيئًا من أمل رغم خيبة ارتسمت على وجهه فهي كانت تناسبه، كرجل وكأب:

- أنا محتاجة وقت طويل قوي قبل ما أفكر في جوازتاني، محتاجة وقت عشان حبيبة وبس.

تبرر رفضها بتهذيب وتعلق هو بحبال أمله فسارع:

- يعني في أمل في المستقبل؟

ارتبكت لوهلة وهي تبحث عن باب هروب آمن تقطع به عليه الطريق:

- حرام توقف حياتك على شيء ممكن يحصل وممكن لأ.

والنظرة والنبرة ولغة الجسد تخبره جميعها برفض شبه قاطع جعله يتراجع خطوة بتساؤل أخير دون تشبث:

- قرار نهائي!

- رفض نهائي.

سريعة حازمة باترة لكل فكرة قد تطوف بذهنه عن تكرار مطلبه، وهو تفهم.. أومأ برأسه بلياقة وابتسم واحترم موقفها ورفضها.. ورحل.

وهي تنهدت براحة..

نعم الحياة ستستمر.. لكن بقرارها هي، بطريقتها هي.. وباختيارها.

***

الحياة تدور، تمر بك ثم تعود إليك، تمنحك الفرصة وإن تكررت فتلك نعمة.. تَمَسَّك بها فأنت فائز.. أو اتركها لتخسر الكثير..

الحياة تستمر بك رغم وجع، انحناءة ظهر.. رغم قهر وعجز ومرار وضعف، رغم أمس أضعت فيه رعيتك لكنك اليوم اقتصصت، ندمت.. عوقبت ومازال العقاب جاريًا..

بعد مرور أسبوعين خرج سلامة من محبسه المؤقت على ذمة التحقيق بقضيته بكفالة نظرًا لكبر سنه وحسن وطيب سمعته، خرج لحين النظر فيها والمحاكمة التي ينتظر أنها ستكون قاسية صعبة لكنه لا يبالي، هو فعل ما يجب فعله، ثأر لابنته، حاول أن يرد لها شيئًا من أمان سُلب منها تحت سقف بيته..

في التحقيق سألوه، وإن كان الدليل صعبًا والجبان لن يقر بذنب فقد أجاب بغموض صامد:

"سرقني"

"خان الأمانة.. وسرقني"



ويا لها من عقوبة لسرقة، نعم هو سرق لكن الناظر من خارج الصورة يراها مشوشة، بينما هو يعلم غلو ما ضاع، فداحة ما انسرق!

براءة طفلته، أمانها، طهرها، نفسها التي فقدتها في ظلمات جهله وخوفها..

كان يقف بمتجره يتابع حركة العمل بعدما عاد بفخر يقطع ألسنةً حِدادًا حاضرةً لتنهش لحم عائلته كفريسة سهلة، لقد اقتص وهذا يكفيه حتى لو مات بعدها، زوجته تصرفت بطبيعتها البسيطة لتخفي الأمر فأوحت للجميع أن زوج ابنتها قد انتقل من المنطقة مصطحبًا إياها معه.. وها هو قيد انتظار نهاية سيتقبلها بصدر رحب أيًّا كانت!

دخل إيهاب للمكان بتمهل، لم يظفر بمعلومة كاملة ولا يهتم.. ما يبالي به أن تلك الإيصالات التي وقَّع عليها قد تمزقت، وهو الآن حر، مكتبه الذي ساعدته على تشغيله مخطوبته قد بدأ العمل بالفعل، يقف بثبات.. ويتحرك نحو غد هو المسيطر فيه، نعم لديه أختان مطلقتان لكن اليوم إحداهما قد تعود لبيت رجل لو وافق زوج خالته!!..

بادر سلامة بتحية وجاوره في جلسته قبل أن يفتح الموضوع الهام بجدية:

- عمي كنت جاي لك في موضوع مهم بخصوص سمية.. في أستاذ عندها في المعهد، لقيته بيكلمني عاوز يتقدم لها.

رمقه سلامة بتفحص فضولي فأردف:

- طبعًا أنت في مقام أبوها والكلمة الأخيرة ليك.. هو راجل كويس، سألت عليه، أرمل ومش مخلف، عنده ٣٣ سنة وشقة وعربية وميسور وعاوزها بشنطة هدومها.

طال الصمت لبعض الوقت وإيهاب ينتظر، لا يفهم سكون عمه لكنه مجبر على مجاراته:

- سيبك من سمية يا إيهاب وجوازها.

انعقد حاجباه وقبل أن يستفسر كان سلامة يكمل:

- عاوزين نحدد ميعاد فرحك أنت ونشوى يا ابني.

ودخل حمزة بهذا الوقت على جملة أبيه:

- هاتفق مع الحاج إسماعيل ونحدد ميعاد في أقرب وقت بإذن الله.

لمح ابنه فابتسم وتلونت نبرته قليلًا وهو يشير إليه بعدما رد تحيته:

- إيهاب جايب عريس لسمية يا حمزة.

- عريس!!

خرجت من بين أسنانه بأحرف متشددة مطحونة وإيهاب يحدجه برفعة حاجب كأنما يستنكر تدخله من الأساس، نهض يرمي آخر كلماته قبل الذهاب يتعمد إغاظته:

- عامة أنا قلت لك يا عمي.. والعريس عارف سمية وهي عارفاه وسبق وكلمها.

ثم غادر بخطوات سريعة وهاتفه يجاور أذنه بهمس حميم:

- أيوة يا رانيا.. مسافة السكة وأبقى معاك يا جميل.

أما حمزة فقد توسعت عيناه غضبًا وبدا وكأنه سينفث النار من فمه وهو يتابع رحيل أخيها بحنق وخبر عرض الزواج يرج رأسه و.. قلبه، بينما أبيه يناظره ببسمة صامتة..

نعم الحياة ستستمر، ربما تحتاج لدفعة قليلة وحسب.. لتعرف من أين تبدأ، وأنك لابد وأن تفعل في أقرب وقت قبل أن يفوتك أوان اللحاق بها!

***

"حامل"

الحياة تتحرك، لا تقف.. تكتمل وتضيف لدنياك الخاصة وتسحبك نحو الجديد عنوة، فبينما أنت غارق في محيط آلامك خائف مترقب تخشى الوحدة والضياع.. تتوقع الخسارة والألم، تفاجئك هي.. بالنعم!

كانت تبكي وهي تحمل الاختبار بين أصابعها، وهو عيناه تلمعان بهجة وقلبه ينبض سعادة:

- طيب بتعيطي ليه دلوقتِ؟

ارتجفت شفتاها وانحنتا ببؤس بريء دومًا يحرك كيانه كله نحوها برغبة احتواء:

- مش مصدقة.

دنا منها يحيط كفها بين أصابعه، يتحرك معها ويجاورها فوق الفراش، يضمها إليه بحنو ورفق:

- لا صدقي.. ربنا كريم يا أيوش.

ورفع وجهها إليه يلثم شفتيها بنعومة:

- مبروك يا حبيبتي.

سعادته الظاهرة على وجهه وبمقلتيه لمعت لها دموعها ثانية وهي تتعلق به:

- الله يبارك فيك.

احتواها من جديد يربت على ظهرها:

- هاعيش معاك جو الأفلام بقى، راحة في السرير، ما تشيليش حاجة تقيلة، أي حاجة تعوزيها تطلبيها مني وأنا أعملها لك.

ثم انخفض برأسه يهمس بأذنها:

- بس ما تتعوديش على كده.

ضحكت بخفوت وضربت كتفه بقبضتها برقة فتظاهر بالألم:

- أنتِ بتستغلي الظروف مش كده!

أغمضت عينيها، هل تستغلها بالفعل!

هل انتهاز فرصة تمنحها لك الحياة للسعادة أمر مخالف لقوانين الحزن الذي خيم على منزل والديها مؤخرًا!

هل استمرارها هي خطيئة في حق من توقفت الحياة دونهم!

في حق شقيقتها التي بات مسكنها مشفى نفسيًا!.. في حق والدها الذي ينتظر محاكمة وحكمًا قاسيًا!.. في حق أخيها الوحيد وأمها التي هاجم الدهر عمرها بسنون مباغتة كأنما تذكرها فجأة فنقش تجاعيده على وجهها وآلامه على جسدها!

هل غدها من حقها أم فرحة القلب تلك ذنب جديد لروحها المحملة بذنوب الألم!

"بحبك"

وكانت تلك همسته التي تطبب جرحها الكامن بين جوانحها بصمت، بات يفهمها.. يخمن فحوى سكونها، يرى خمود بركان أحزانها وحممه التي تحرقها هي دون سواها..

يضم، يهدهد، يحنو.. يقترب ويبعث في نفسها أمانًا لا مصدر له إلاه..

اعتدلت قليلًا لتواجه عينيه، ابتسم لها فبادلته بسمته وإن كانت باهتة خافتة، قبل أن تعاود دفن رأسها بصدره وتغوص في حلمها الخاص.. ذاك الحلم الذي ننسى فيه أننا نحيا على الأرض، ونحلق نحو سماء الأمنيات علَّنا ننجو من عنق زجاجة الواقع المعتم!

***

البعض حياتهم تستمر ببطء، بصمت.. تتتابع أنفاسهم لأنها فقط توجد هناك، لأن الصدور تحتاجها والقلب ينبض بفعل القصور الذاتي لمعدل نبض سابق!

نعم أفاقت من غيبوبتها الاختيارية المؤقتة، أفاق العقل لكنه ضل بمتاهات الشرود والسكون، ضل بذكرى الأمس ورعب الغد والحاضر البغيض المُنكه بالانكسار والعجز..

تركت خصلاتها ليديّ سمية الحانيتين تمشطها برفق، وسمية تناظرها باهتمام، تحتويها بدفء عينيها وتهمس لها بحديث يومي بات عادة كلما حان موعد ذهابها إليها.. تخبرها عن مستجدات حياتهم، عن أبيها وثأره وقصاص تحقق رغم عقوبة منتظرة، تخبرها أن من حقها الفخر.. تخبرها عن حبيب مهتم تلتزم الصمت معه هو الآخر ويتشبث هو بالأمل..

تجبرها على العودة لمنتصف الدائرة التي اعتزلت جوار جدارها المفرغ المغلق، تعلم أن الطبيب أخبرها عن فترة مؤقتة سيتركها تسترد فيها عافيتها بعدها ستخضع لعلاج مكثف بتدخل منه، علاج بعدة طرق أهمها أن تعلم أنها ليست وحدها!

ليست الأولى ولن تكون الأخيرة التي تتعرض لهذا النوع من الأذى، أخبرها أنه سيدرجها بمجموعات علاجية تستمع فيها لمن تعرضن لتجربة مشابهة، من يخطو خطواته الوليدة مثلها، ومن مر بالفعل واستمرت به الحياة فعاد يأخذ بيد من يحبُون نحو الأمل..

دلف حمزة للغرفة تحيط به طاقة غضب مكبوتة لاحظتها سمية بسهولة، اقترب من شقيقته يربت على رأسها برقة، يمنح جبينها قبلة ويهمس لها ببضع كلمات لم تصل لأذنيها وهي تراقب بعدة نظرات مختلسة متفرقة لم يبادلها إياها وهي لا تفهم السبب!

أخيرًا رفع وجهه نحوها بأمر جامد:

- يلا يا سمية عشان تروحي.

أومأت بصمت مرتاب وهي تطمئن على ريم قبل أن توصي ممرضتها بها وتتبعه إلى سيارته، خيم الوجوم عليهما طوال الطريق، هي لا تعلم ما به!.. وهو يغلي فوق مراجل من جحيم مضطرم..

الآن دخل الصورة رجل آخر..

رجل غيره!

الآن هي حرة مع وعد بدعمه، فهل حريتها التي منحها إليها تمنحها الحق في اختيار.. آخر!

منحها نظرة بجانب عينه، نظرة تفيض بالغيظ، هل وافقت!

الرجل كلمها.. وهي لم تخبره، ألا ترى من حقه مشاركتها؟!

إبداء الرأي!!

بل.. الرفض!

هي له هو، كيف استطاعت أن تسمح لآخر بالاقتراب!!

زفر بحرارة جعلتها تلتفت إليه لكن صمته أجبرها على السكون بينما تترجل من السيارة أسفل البيت، تصعد الدرج بصحبته وهو يتبعها دون حديث..

عند مدخل منزله توقفت بهمس به قدر من التساؤل وإن حوت كلماتها الوداع:

- تصبح على خير يا حمزة!

همهم بغموض وأشار إليها لتصعد، أطاعته وبنيتها هروب، هو لا يبدو بخير، وهي لا تدري السبب.. أتراه علم بطريقة أو بأخرى!!

فتحت باب شقتها واستدارت تغلقه خلفها بشرود عندما دفعه، دخل وأقفله هو بإحكام ليقف أمامها كطود ضخم ثابت تسبب لها برعشة وإجفال ورفرفة أهداب مرتبكة:

- في إيه يا حمزة؟!

وتعلقت عيناها بالباب متوترة وهو ولا يتزحزح من خلفه:

- حمزة ما ينفعش كده، الوقت اتأخر ممكن تنزل!

وتقدم خطوة.. خطوة صامتة أرهبتها أكثر من الصراخ، خطوة تراجعتها ولايزال هو يتقدم وهي تتراجع حتى أوقفتها طاولة الطعام العريضة فأحاطها فجأة بذراعيه مستندًا للطاولة من حولها، قربه تخطى حد السماح.. ونبضاتها تخطت حد الجنون وهو يميل، يقترب وحرارة أنفاسه تجاور هسيس نبرته الغاضبة:

- موافقة على العريس يا سمية!

ابتلعت لعابها بعسر، ودت لو دفعته بعيدًا لكن كل ما تمتلكه في هذه اللحظة هو ضعف قلب يتوسل القرب وجفنين تعانقا بشبه هروب:

- حمزة.. ابعد لو سمحت.



ولم يرد، لم يتحرك.. بل لم يتنفس، عادت تفتح عينيها ببطء والنار بمقلتيه تحرقها بلا هوادة.. هو غيور!

نعم.. نعم غيور!

رقص خافقها طربًا وتلذذت هي بتلك النظرة التي سكنت خلف أجفانه فتمتمت بوهن وإن كانت صادقة:

- مش حقي!

صدمه الجواب فاهتز لحظة انعقد بعدها حاجباه قبل أن تعلو نبرته المستنكرة:

- يعني موافقة؟!

- أنا ما قلتش كده.

- أمال قلتِ إيه؟!

وتبرر ويلاحق بالمزيد، تبتعد ويقترب.. تبحث عن مفر ويسجنها هو قربه بين ذراعين لا تحتويانها لكنهما جسدتا احتواء قلب لا يملك حق التصريح بعد!

- هتتجوزي؟!

ويميل أكثر وتضطرب وتتراجع برأسها وتعاند ببهجة تملأ صدرها:

- حقي.

صدرت عنه زمجرة خافتة أخافتها فأردفت بسرعة:

- بس أنا مش بافكر في الجواز دلوقتِ.

- يعني ممكن تفكري فيه؟!

خشونة صوته والغيظ الواضح جعلها تكرر، تطالب وترد بقوة هي ملك لها:

- حقي يا حمززززة.

اللعنة!!

عليها كل لعنة!!

وكاد يصرخ.. لا تنطقي اسمي هكذا.. عاد يقترب ثانية حتى أوشك يلامسها، يود لو يخنقها..

يحتضنها..

يقتلها ثم يحييها فوق صدره..

يسجنها بين خلاياه وجدران سجنها قضبانها ضلوعه..

- عارف إنه حقك يا سمية.

رفعت عينيها إليه بنصف نظرة تنتظر شيئًا وتتوجس من آخر:

- بس أنا كمان ليا حق.

همسها بنبرة بطيئة تحمل عمقًا لم يمر بأذنيها أبدًا:

- فيكِ.

وتفجرت وجنتاها بالدماء وهي تتراجع حتى أوشكت على الجلوس فوق الطاولة:

- ولحد دلوقتِ ما طالبتش بيه يا سوووومية.

حبست أنفاسها وتعانق جفناها باعتصار مرتجف:

- حمززززة.. ابعد.

وقلبه كان يهدر بقسوة حد الوجع بصدره ويرد عنه:

"طول ما أنتِ بتنطقي اسمي كده مش هاقدر أبعد"

ولسانه عاند أو ربما وضح وقرر عنه:

- أنا عاوز حقي فيكِ.

فتحت عينيها مجبرة ترمقه بارتباك حائر ووجنتاها المخضبتان تفتنان عينيه المعلقتان بهما:

- حق إيه!

سألت شاردة بهمس ضائع:



- اتجوزيني.

هل يطلب!.. أم يأمر!!

توسعت نظرتها كأن الأمر جلل، كأن الأمنية رغم جولاتها بأحلامها كانت بعيدة، لها مهابة، لها سطوة.. لها حضور واقعي ملموس بهذه اللحظة!

- سوووومية.

حركت عينيها إليه بتيه وهمسة خافتة:

- ها!!

- اتجوزيني.

ودون وعي.. بل دون تردد أمسكت أنامله بذقنها ليجبر نظراتها على الالتقاء بنظرته الدافئة.. العاشقة!

- عاوز أتجوزك.. عاوز حقي فيكِ.

عضت شفتيها بارتباك لذيذ، وكانت فرصة الفرار من سجنه متاحة.. ركضت فجأة تخرج من دائرة القرب غير المباح وهي تدفعه بشبه دلال:

- حمزة.

وعند باب غرفتها قبل أن تختفي ودون أن يلحق هو بها:

- على فكرة.. أنا رفضت العريس.. ومن أول ما عرض عليَّ الجواز.

ثم دخلت وأغلقته بإحكام وهو تملكته مشاعر شتى..

غيظ من هروبها..

بهجة لرفضها..

ونبضة قلب تتفلت من عقال النبضات الحائرة تخبرها عن حب.. آن أوان التصريح به!

تحرك نحو باب الغرفة، طرقه بخفوت وكان يعلم أنها تقف وراءه:

- هاستنى ردك يا سمية.. خدي وقتك بس أنا مش هاصبر كتير..

واستند براحته عليه متممًا:

- ومش هاتنازل عن حقي..

والحياة بينهما بقراره ورضاها.. عليها أن تستمر..

بل ستفعل، وهما معًا..

***

وأيضًا تستمر أحيانًا بقنص!

برغبة في الفوز.. فإن كانت هي سائرة بك أولا.. فالأولى أن تقتطع منها ما تطاله أناملك، أو للدقة تختطفه عنوة من بين فكي الأسد لأنك تراه حقك..

لأن الاستمرار حقك.. ولأنك تقدر، وهي تفعل!

استقبلته برداء فاضح تشبه حمرته الصارخة حمرة خصلاتها المصبوغة فزادتها فتنة حسية مبهرة، تعلم أنها جميلة تنضح أنوثة مغوية، تدرك أنها تمتلك مقومات النصر في عالم يعج بالذكور الطامعين، وتفهم جيدًا أن لكل شيء ثمن.. وهي!

ثمنها غالٍ للغاية..

تأملها بنظرة فاسقة تعريها من لا شيء يستر مفاتنها، ابتسم بخبث وامتدت يده لخصرها تجذبها إليه:

- وحشتيني.

وهي تدعي الدلال وتمارس الغنج وتتمنع كأفعى ناعمة.. تبتعد عن طوق ضمته وتتظاهر الغضب:

- والله!!

رفع حاجبًا وتبع خطواتها المثيرة نحو أريكة عريضة بشقتها الأنيقة، جاورها فوقها دون أن يمنع يديه عنها بينما تتظاهر بالرفض اللطيف:

- إيه يا روني هو أنا هاكدب عليكِ يعني؟..

دفعت يده هذه المرة لمسافة أبعد:

- وأنا أعرف منين.. مش كفاية اللي حصل لممدوح!

- الله!.. طب وأنا ذنبي إيه!.. بعدين ما سألتيش نفسك عمك عمل كده ليه؟

شعرت بغضب فنهضت تتخصر في مقابله:

- أيًّا كان اللي عمله، ليه يأذيه كده؟.. وكمان طلع منها زي الشعرة من العجين وقايم نايم مرتاح في بيته!

- ده خرج بكفالة يا رانيا.. لسه الجلسة والله أعلم حكم العاهة المستديمة إيه!

أدارت ظهرها إليه مفتعلة الحنق:

- أهو أخويا سافر مكسور.. حسبي الله فيه، لا وكمان كان عاوزني أقعد في بيته تحت رحمته يتحكم فيَّ زي زمان، ومش بعيد كان رماني لعجوز تاني عشان يخلص مني.

استقام يحيط خصرها بذراعيه وينحني هامسًا بأذنها:

- أخوك هو اللي جاب العريس المرة اللي فاتت.

استدارت بين يديه بانفعال:

- ما هو اللي ضغط عليه يا إيهاب.. ممدوح قال لي كده، باعني عشان يرتاح من همي.

تأفف بضيق:

- رانيا أنا مش جاي لك عشان تقعدي تندبي.

وشدها بعنف معتاد لترتطم بصدره:

- بعدين مالها الجوازة!.. طلعتِ منها بقرشين حلوين، شقة تمليك وعربية آخر موديل.

غامت عيناها بنظرة شاردة جوار ضحكة ماجنة:

- ولسه يا بيبو، بس لو تظبط معايا المرة الجاية هاقع واقفة بجد.

انحنى يقطع حديثها بشفتيه متلهفًا:

- ولحد ما تقعي؛ خلينا في اللي إحنا فيه.

ابتعدت بوجهها تؤجج ناره أكثر:

- وأنت أهو.. وقعت واقف برده.. نشوى بنت الحاج إسماعيل بجلالة قدره.

زفر ومد يده يمسك بعنقها يجبرها على تلقي قبلاته:

- وماله يا روني.. نشوى دي البنك.

عضت شفتها السفلى ومالت نظرتها بدعوى صريحة:

- وأنا!!



وكانت آخر كلماته قبل أن يمزق القليل الذي ترتديه ساعيًا خلف ما يريد:

- أنتِ المزاج ياقلبي.

تستمر دون توقف، تستمر دون جهد لأنك أنت تجذبها عنوة وقهرًا لتسير حسبما تريد..

فثمة أناس يسيرون معها، وثمة آخرون.. يسيرون بها!

***

الحياة تستمر وإن لم تتابع خطواتها دهستك، إن لم تجاريها قطعت عليك طريقك واختارت هي عنك، وإن عاندت آلمتك!

وهي حياتها استمرت نعم!.. انتصرت لكبريائها.. بلى!.. تظاهرت بالقوة واختفت خلف رداء الصلابة وتشبثت بابنها حتى تصل لهدفها.. أجل!

لكن ما لم تحسب حسابه أن تفاجئها والدتها بزيارة.. قلقة!

وبعد السلام والأحضان الدافئة وربما ذرف بعض دمعات الاحتياج وقهرًا ظهور الوهن على ملامحها جالستها تفتش عن سبب.. المكالمات الرسمية المتباعدة القصيرة.. الصوت الحزين.. النبرات الشاردة.. الكلمات المختصرة!



لم تجد بدًا من العودة، ولم تجد بدًا من اقتحام قوقعة العزلة التي انحشرت بها ابنتها بعد زواجها دون سبب واضح..

وعندما توضحت الصورة بوجود أخرى كان الرد حازمًا باترًا:

"ضبي أغراضك.. بنفل من هون"

وتهاوت لارا فوق مقعدها بتعب والأم لم ترضَ بما رأت:

- ليه باقية عليه لارا؟.. فهميني.

كانت غاضبة وصوتها يمتلئ بالسخط.. وابنتها توترت وارتبكت تبحث عن سبب مقنع لكن الحقيقة كانت هي الأقرب فألقت ما بجعبتها علَّها ترتاح:

- ابني يا ماما.. لازم أبوه يتأكد من نسبه.

- شو!!

زعقة حادة ونهوض عنيف تلاه رواية القصة من بدايتها بتفاصيل وجعها، بفوضى ألمها.. وبهوامشها المهملة ترمي عن كاهلها بشيء من ذاك الثقل الذي كسره..

أنهت حديثها ببؤس خافت:

- هاثبت حقي وحق ابني.. بعدها هامشي.

- أنتِ غلطانة يا لارا.

رفعت وجهها إليها ولمعت عيناها ببريق رفض ووالدتها تكمل:

- كان لازم تثبتي له برائتك من اتهامه إلِك.. كان لازم تكوني قوية وتعرفيه بغلطه.

- وكرامتي يا ماما!! يعني إيه أول فكرة تيجي في باله عني إني أكون عاهرة!

وانتصبت تدور في المكان بغضب ووجع ما يضرب ظهرها ببطء:

- أمال اتجوزني على أساس إيه لما هو مش واثق فيَّ!

واستدارت تواجهها بنظرة دامعة رغم القوة الواهية:

- خلاني حبيته وقلت هو ده الراجل اللي يستحق أكمل معاه حياتي.

وانهمرت الدموع وهي تحاول منعها دون جدوى:

- هو ده الراجل اللي هاحس معاه بالأمان.. هو الاختيار الصح.

ثم مسحت الدموع بعنف:

- عشان في أول مطب.. يتخلى عني، لا...

زعقتها مقهورة كسيرة:

- يهينني ويتهمني في شرفي اللي هو شرفه وعرضه ولحمه.



اقتربت منها أمها تضمها برفق، تمسح عبراتها بيد حانية وتبرر بحثًا عن مخرج:

- لارا حبيبتي.. هاد رجال شرقي، تفكيره هيك.. ما بدي أوضح كيف بيفكروا أنتِ بتعرفي، الأولى بيكِ أنتِ تثبتي حقك وبرائتك..

وابتعدت تنظر بعينيها:

- أنتو الاتنين غلطانين.. ما بدي حملك فوق طاقتك، بس عليك جزء من الغلط حبيبتي.

تراجعت أكثر عن دفئها الذي تحتاجه، أدارت لها ظهرها والألم يتصاعد دون هوادة، جففت وجنتيها بيديها ورفضها بات واهيًا رغمًا عنها:

- جايز يا ماما.. بس أنا خلاص مش هاكمل معاه.. هاثبت حقي ونسب ابني وآخده وأرجع على لبنان.

هزت الأم كتفيها بتسليم وفتحت فمها لتعترض.. لكن صرخة ابنتها عارضت اعتراضها وهي تسقط بين ذراعيها:

- ماماااا.. الحقيني.

نادته والدتها ليهرع إليها بقلق تمازج معه شك وهو ينظر إليها مستلقية على الأريكة تئن بوتيرة متصاعدة:

- في إيه؟!

- بتولد يا عادل.. أكيد بتولد.

احمرت عيناه كمدًا:

- لارا لسه في السابع.. بتولد إزاي يا مرات عمي؟

- شويا عادل.. مرتك بتولد.. ما مرعليك مرة بتولد في السابع!

وبباله خدعة!

هي خططت مع أمها لتتركه، لترحل.. تهرب بالصغير دون أن يعرف أهوله حقًا أم لا!

واللعنة عليه سيصلى الجحيم لو تركها تفعل!

- أكيد تعب عادي هي بقى لها فترة ما بتاكلش كويس.. خليها شوية ترتاح وهتبقى كويسة.

وردها صرخة وجع، ومن أمها نظرة مصدومة!

هل يتكلم بجدية!.. زوجته، ابنتها تتألم أمام ناظريه بوضع مخاض.. وهو يرفض الاعتناء بها!

واجهته بعنف:

- شو عادل.. هاد مرتك، عم باحكيك بتولد!

كتف ذراعيه ببرود متجاهلًا وجعها وأنينها:

- وأنا باقول نسيبها ترتاح..

وظهرت أمه وزوجته وأخيه في الصورة وكلٌ بكلمة..

- بنت درة معجونة بماية كدب.

والهمسة وصلت لأذنه من والدته دونها فتراقصت لها شياطينه..

- عادل أنت مش شايف إنها تعبانة؟.. لازم تروح المستشفى!

وكان هذا أخيه الحنون يضغط على زناد جنونه أكثر!

لكن الفتيل اشتعل بكلمة زوجته وهي ترى نديم يتوقف بسيارته خارج المنزل ويترجل منها متجهًا إليهم:

- الله!!.. ده أنتوا طابخينها بقى، تعبانة ونديم كمان جاي بالصدفة!

وتفجر البركان وهو يتذكر أن هذه هي الزيارة الأولى لنديم عقب طلاقه الذي تم منذ أسبوعين!

خائنة..

عاهرة..

كانت وستظل ولن يكون هو الأحمق الذي لعبت به ثم زهدته!

- عادل!

كانت منها..

- لارا حبيبتي.. بوديك للمشفى وبيولع اللي يمنعني..

من أمها..

- عادل مش معقول بجد!

من أخيه..

وأمه تمصمص شفتيها، وزوجته ترمقه بلؤم كأنما تخبره أن عليه أن يتصرف.. بقسوة!

وظهر نديم أمام عينيه ولمح الموقف فانعقد حاجباه في تساؤل جوابه أتاه من عماد:

- لارا بتولد.

وتحول الانعقاد لارتفاع مندهش وهو يرى صمت زوجها.. حيرة وضعف أمها.. وغلظة أمه وشماتة زوجته الثانية.. توجه إليه بصدمة:

- عادل مراتك بتولد.. وديها المستشفى.

وهو كان قد اكتفى، أمسك بخناقه يجر قبة قميصه ويزعق بوجهه:

- خليك في حالك يا نديم.

- أنت اتجننت يا عادل؟

- أنا أبقى اتجننت لو سيبتها تخرج من البيت.

- هتموت يا بني آدم!

- هنشوف.

والرد لكمة عانقت ذقن عادل، لكمة عنيفة خلفها قلب عاشق صموت مهزوم، لكمة كانت من القوة لتدفعه للخلف، يتعثر بطرف البساط ويسقط أرضًا ونديم يحمل لارا بين ذراعيه وأنينها يخترق فؤاده دون أذنيه.. يتحرك بها نحو باب المنزل وهي تبكي..

تبكي هوانها..

ضعفها..

وحدتها وكرامتها..

بل حياتها وقلبها الذي تفجرت به ينابيع الألم كأنما ما كان ليس كافيًا فزاده الحاضر بغضًا وكرهًا..

تشبثت بقميص نديم دون إرادة وهي تضغط أسنانها تحبس صرخة الوجع..

وجع روحها ونفسها.. ووجع مخاض طفلها، قرب الباب وقبل خطوة أخيرة سيكون بها الخروج صدح صوته:

- لو خرجتِ من باب البيت يا لارا تبقي طالق!

وتجمد المشهد..

تجمد نديم وصمتت هي..

أحنى رأسه ينظر في عينيها وبريق الدمع بهما ينغز قلبه، تعانق جفناها وشفتيها تنضغطان حجبًا لكل صوت وبذاك أتاه الجواب..

تحرك بها وأمها تلقي بنظرة محتقرة لزوجها الذي تأمل خروج الموكب بجنون..

أمه التي تابعت بشماتة..

والزوجة التي امتلأت نفسها بنشوة النصر..

وأسدل الستار على قصة، لم تشبه حكايا الخيال في شيء!

الفصل الثالث والثلاثون

ما بين شدة ورخاء، عسرويسر، قوة وضعف، خوف وطمأنينة.. تتشكل بداية جديدة..

كنبتة صغيرة أُعيد إحياؤها، كجنين سكن بقرارمكين.. كقطرة مطرتسقط بعد غياب فتعيد أرضًا جدباءً للحياة بأمرخالقها فتزهروتثمر..

كضوء خافت انبعث من نجم بعيد بدُجنة الليل..

تلك.. هي.. البداية الجديدة!

تتمثل بصرخات وليد جاء قبل موعده ليضع نهاية لنبتة حب نمت بالخطأ بقلب فتيّ.. وبداية لحب جديد.. حب مختلف.. حب أقوى من تقلبات قلب أوظنون عقل..

حب أم لوليدها..

تضم لارا طفلها لصدرها للحظات، إحساس لا يوصف ورابطة لا تنفصم.. هو قطعة من قلبها، نما بجواره.. لشهور مضت كانا هووهي فقط.. ولسنوات قادمة سيبقيا هووهي فقط..



استعادت الممرضة الرضيع لتحممه عندما اقترب الطبيب من لارا هامسًا بخفوت:

- حمد لله على السلامة.. الورق اللي طلبتيه هيكون جاهزوعليه ختم المستشفى كمان..

أومأت بامتنان قبل أن تغمض عينيها بإرهاق وراحة..

وبالخارج كانت درة تكاد تجن قلقًا على ابنتها.. فبعد أن حملها نديم بسيارته للمشفى، قرر الطبيب أنها دخلت بمخاض مبكروإن كان قد طمأنهم باستقرارالوضع.. ولكن درة كأي أم يغرقها قلقها على ابنتها بآلاف الهواجس والأفكار..

بينما لاذ عماد بأحد الأركان والهاتف معلق بأذنه:

"يا عادل باقولك بتولد.. الدكتور قرر ولادة.. يعني لا هي لعبة ولا خدعة"

صمت للحظات يستمع لكلمات شقيقه الأكبر احتقن وجهه خلالها وهبة تراقب ملامحه بصمت قلق!

ثم غمغم بوداع مقتضب.. والتفت لزوجته يضم كتفيها بذراعه مغمغمًا بحيرة:

- أنا مش عارف عادل بيفكر إزاي!.. ولا إيه اللي جرى له!

هزت رأسها بصمت توافقه رأيه.. بينما أردف هو بحنق لم يستطع إخفاءه:

- ربنا يهدي..

وبعيدًا عن الجميع ارتكز نديم على أحد الجدران وبداخله تتصارع مشاعر عدة؛ قلق.. ضيق.. خوف مبهم.. ذنب؛ ذنب لسكوته، لابتعاده، لظنه أنه يتصرف بحكمة ورجولة عندما تركها تخوض تجربة حبها مع عادل.. وعاد هو لركن مظلم كان يليق به وقتها فهو متزوج ولا يحق له مجرد التفكير بها..

ولكن الآن.. مع كل مشاعره المتناقضة يزحف ببطء إحساس خفيف بالراحة.. فعلى الأقل الآن هو رجل أعزب.. فلم يعد ضميره يئن ذنبًا ولومًا لقلبه الذي نبض بعد سبات..

ورغم أن من امتلكت القلب لن تكون له؛ إلا أنه الآن امتلك حريته لينبض لامرأة.. امرأة عشقها رغمًا عنه..

فبعد فشل رحلة العلاج لباريس وثبوت عقمه للأبد: طلبت شهيرة على استحياء الانفصال..

فالعمر يمر..

والأمومة أصبحت هاجسًا يداعبها.. بل يطاردها..

ومنحها نديم حريتها.. فبعد كل شيء أمومتها حق لها ولا يمكنه إنكاره عليها..

زفر براحة بينما يتابع خروج الطبيب من غرفة العمليات وهو يطمئن درة وعماد على حالة لارا..

يريد أن يقترب.. يسأل.. يطمئن ولكنه يشعر أنه لا يمتلك حقًا بذلك..

لذا اكتفى بمتابعة ملامح الأم وأخ الزوج.. يراقب علامات الراحة على وجهيهما.. ثم تحرك نحو الغرفة التي تم اصطحاب الرضيع لها قبل دقائق ليقف مراقبًا للملامح المتناهية الصغر، أنامله التي لا تكاد تُرى، عيناه المغلقتان وفمه المضموم بعذوبة.. تفتتت قلبه لحظة رفع الصغير قبضته ليضعها قرب وجهه ويبدأ بحشره بفمه وكأنه بفطرته الطبيعية يبحث عن غذائه..

استأذن من الممرضة المختصة ليحمل الصغير ثم أذن بجوار أذنه اليمنى وأقام الأذان باليسرى..

يعلم أن والده لن يفعلها.. والده الأحمق الذي امتنع عن مرافقتهم للمشفى.. الأحمق الذي فوت ميلاد ابنه..

ابنه!!

كلمة لن يعرفها هو وإحساس لن يجربه قط..

تنهد بوجع.. لا يعلم عادل ما فوته.. لا يدرك النعمة التي مُنحت له.. وهو يضيعها بغباء وأنانية لا يجد لهما وصفًا..

أخيرًا بعد عدة ساعات وصل الأب..

ظهرعادل أمام باب غرفة لارا.. حيث جلس نديم برفقة عماد واختفت السيدات بغرفة لارا؛ فدرة تجالس ابنتها وهبة رفضت الابتعاد عن الوليد الجديد..

تناقلت نظرات غاضبة وحانقة بين الرجال الثلاثة..

وقرر نديم الابتعاد فأي اشتباك بينه وبين عادل سيسبب ضررًا لسمعة لارا...

ولكن عماد الحائروالحانق واجه شقيقه بشجاعة:

- لسه فاكر تيجي يا عادل!

رمقه عادل ببرود يخفي بركانا ثائرًا من الغضب والشك.. فزوجته مدعية العفة.. صاحبة ليلة الزفاف البيضاء الخالية من قطرات الشرف.. تلد طفلًا بعد زواجهما بسبعة أشهر!..

يالها من صدفة بائسة ونهاية مناسبة..

نهاية لعلاقة سميت خطأً بزواج بينما كان هو ضحية غبائه وانبهاره الأحمق ومحاولة إدعاء تحرر وانفتاح ذهن.. لتستغل ابنة عمه المصون كل ذلك



وتورطه بزيجة هي ستار تخفي خلفه فساد أخلاقها أو انعدامها من الأساس..

فتح باب الغرفة بعنف يناقض برود نظراته لشقيقه..

ليفاجئه وجود درة وهبة.. ولكن ذلك لم يردع غضبه أو يوقف موجات الشك بعقله.. الشك الذي منعه حتى من إلقاء نظرة على الصغير.. سوء ظنه الذي طغى على غريزة الأبوة بأعماقه..

ووسط ذهول هبة من تصرفه.. واستنكار درة.. كانت لارا تتوقع خط أفكاره تماما!!

لذا طلبت من طبيبها تسجيل حالتها طبيًا..

وكانت بالفعل تقبض بأناملها على الأوراق المختومة والتي تثبت أن غشاء البكارة خاصتها من النوع المطاطي الذي لا يفض بالمعاشرة الطبيعية.. ويتم فضه جراحيًا أو تلقائيًا أثناء الولادة الطبيعية..

وهو ما حدث معها.. فقد تم فض الغشاء تمامًا مع ولادة طفلها..

كانت تمسك بيدها دليل براءتها من كل افتراءاته.. وتستعد لتلقي به في وجهه ومعه طلب الانفصال النهائي.. ولكن كلمات كطلقات الرصاص انطلقت من شفتيه رافقها نظراته الغارقة بقسوة مؤذية خطت كلمة النهاية..

- الولد ده أنا مش هاعترف بيه إلا بتحليل dna

ويالها من نهاية سُطرت بحمق!..

ويالها من بداية خُطت بوجع..

***

وبعد كشف الستارعادة تكون البداية.. حتى لو أزيح الستارعن سوءة ماضي كان أولى بالدفن كما ظنت هي.. كما حاولت لسنوات لتلقى فشل تلو الآخر..

صمتت خوفًا وقهرًا.. قهرها والدها قديما بكلمة.

"فاجرة"..

وعاد لينصفها مقتصًا ومقتنصًا حقها ممن انتهكها وسرق سنواتها ظلمًا وغيًا.. ولكن إنصافه تأخر.. تأخرلسنوات عاشتها هي تحت وطأة الخوف.. والذنب..

صمتت خوفًا من فقدان زوج وحبيب كان لها الدنيا بأسرها.. وها هو الزوج كشف كل الماضي.. ولم يرحل.. لم يترك ويبتعد، بل لم يلُم أويتهم..

هل كانت مخطئة بصمتها؟!... هل ظلمت أم ظُلمت؟



رمقته بنظرة خاطفة.. فهي تصر على الصمت والابتعاد.. تخشى المواجهة.. تخشى فقده..

تحيا تحت وطأة الخشية ولا تعرف سبيلًا للتخلص منها..

شعرت بنظراته المهتمة تحيط بها.. تحاصرها تسكنها وتسكن مخاوفها.. أثبت ومازال يثبت أنه استحق سنوات الصمت..

استحق تضحيتها.. استحق عشقها..

فبصمتها اشترت سنوات عمرها السابقة جواره..

اشترتها والثمن كان روحها.. كان قصاصها الذي تأخر لسنوات.. اشترت حبه والثمن كان استمرارها أسيرة ماض لو تحررت منه لاستعادت حياتها وفقدته هو..

اشتبكت النظرات أخيرًا بعد عدة محاولات منها للهرب من حصار نظراته..

وبالعيون تاهت المعاني.. واختلطت المشاعر بمواجهة صامتة..

نظراتها بها.. خزي.. خجل.. ذنب.. غضب ولوم..

نعم حملت نظراتها اللوم... ورغمًا عنها تلومه.. ربما عقلها استعاد نشاطه.. وربما قلبها خفتت قوة نبضاته..

فبداخلها صوت يلقي باللوم على الحبيب..

من كان عشقه هو الحصن الذي اختبأت خلفه، كان أيضًا الحاجز الذي أعاق تحررها..

غاضبة هي نعم..

غاضبة له..

غاضبة لأنها لم تكن بالطهر الذي استحقه رجل مثله..

غاضبة منه..

غاضبة وبشدة.. فهو أساء فهمها مرارًا..

أساء تقدير وضعها وحالتها.. أساء لقوة حبها وكاد يفقد ثقته به..

مذنبة!..

بالقطع هي كذلك.. أذنبت بحق نفسها وبحقه.. بحق حبهما.. صمتها.. كتمانها.. خوفها..

كلها ذنوبًا اقترفتها بحق نفسها.. ودفعا معًا الثمن..

خجلة!..

لا تنكرها.. يمزقها خجلها.. خزيها.. فضعفها وهوانها كُشفا أمامه.. والاعترافات بدفترها دلائل إدانتها.. مدانة هي بالصمت.. مذنبة بالخضوع..

ومقيدة بأحكام مسبقة لمجتمع سرى به الفساد حتى نخر به أسس الحكمة والتعقل..

ملتزمة بصمتها أمامه.. فلا كلمات كُونت بعد لتعبر عما يعشش بأعماقها.. لتفسر سبب تمسكها به ونفورها منه.. عشقها ونبذها له بذات الوقت.. لا كلمات تعبر عن احتياجها لوجوده وهروبها من نظراته...

نظراته التي حملت الكثير.. كثير يريد البوح به ويوقفه تعليمات طبيبها... كثير صرخت به نظراته..

عشق.. شوق.. اعتذار.. ندم.. تساؤلات لا يمكنه السيطرة عليها..

يتساءل عن صمتها.. عن قلة ثقتها به.. بحبه.. بشخصه وعقله وحُسن حكمه على الأمور..

يتساءل لمتى؟..

لمتى كانت ستحتمل صمتها؟..

يتساءل ورغما عنه.. هل كانت لتخضع ثانية لو لم يتدخل هو؟..

وبعينيها يجد الجواب ويفزعه.. لم تكن لتفرط باسمه وعرضه وشرفه ولو كان الثمن حياتها... يدرك.. يتأكد... ويفزع..

كان ليفقدها لولا رحمة الله..

ندم..

وبالقسوة نظرات الندم بعيني رجل عاشق.. فهو أضاع الكثير.. حتى كاد أن يضيعها هي..

والاعتذار الصامت يريد أن يصرخ به ليصدح عاليًا ولكنها غير مستعدة بعد لمواجهة اعتذار ومصارحة واعتراف..

اعتراف..

بشوق وعشق لا يسكن القلب فقط.. بل يسكن عشقها القلب والعقل والروح..

الكل يعشقك يا مالكة القلب وساكنته فلا تطيلي الغياب.. فالروح عطشى وسقياها بين جفنيك.. لا تزيغي النظرات هربًا فتتسارع أنفاسك.. العقل يتعقب تواترها والقلب يتوسل شفتيك همسة تحيي به نبضه..

كلمات صرحت بها نظرات علي ولم تنطقها شفتاه وفهمتها ريم.. أدركتها بقلبها وقرأتها بروحها العاشقة.. ولكنها مازالت مكبلة بهواجس وأحداث ماض لا يموت رغم محاولاتها..

منحته نظرة أرادتها معتذرة نادمة.. وسارعت لتهرب من تفهم نظراته واحتوائها.. فعمق إدراكه يزعجها.. يقيد رغبتها بلومه ولومهم جميعًا... يكبل حاجتها للصراخ والمصارحة..

تخشى إيلامه.. وتأبى منحه وجعًا مقابل حبه..

دائرة يسعى طبيبها لإخراجها منها..

وكانت تلك كلماته للزوج الملهوف..

- بدأنا جلسات العلاج.. واستخدام العقاقير مافيش بديل عنه.. مدام ريم عندها قوة كتمان غريبة وكان لازم تدخل خارجي.. وبفكر جديًا أشركها في جروب ثيرابي.. ممكن مشاركتها لتجارب الآخرين تدفعها للكلام وكشف اللي جواها.. بس هأجل الفكرة دي لفترة بسيطة.. أحاول فيها كمان مرة.

ويستفسر علي بضيق:

- الدفتر بتاعها هي ذكرت فيه كل الحقيقة.. ليه الإصرار إنها تتكلم؟..

- لازم هي تحكي يا باشمهندس..

- بس ده تعذيب لها.

- بالعكس.. دي نقطة البداية في العلاج.. ببساطة الدفتر فيه كل أحداث الماضي وبخط إيدها.. لكن هل كتابة الاعترافات دي عالجت الخلل جواها؟

هز علي رأسه بنفي فأكمل الطبيب:

- أنا مش محتاج منك غير ثقتك.. وكمان حضورك اليومي..



زفرعلي بضيق، يزعجه عدم قدرته على مساعدتها بالمزيد.. فقط زيارة يومية..

ومراجعة طبية لكل كلمة سيتفوه بها معها وكأنه باختبار ما!..

فالعلاج خطواته محسوبة ومخططة حتى لا يمكنه إطلاق كلمة حب أو شوق عفوية.. كلٌ له وقت محدد وخطة علاج معدة مسبقًا..

ولكنه لن يعترض..

سيكمل طريق علاجها للنهاية..

بل للبداية..

بداية صحيحة تلك المرة..

***

يُقال أن الفتاة بالأحلام تفسر بدنيا جديدة.. حياة وبداية جديدة..

وبواقعنا تتحول الفتاة لعبء وعار.. حمل يثقل كاهل الوالدين.. خطيئة يتربص الجميع لكشفها والتنكيل بها..

تمنت آية منذ طفولتها أن ترزق بفتاة.. بنت صغيرة تكون لها الابنة والصديقة والأخت.. تشتري لها ثيابها.. تصفف خصلاتها.. تشهد نموها وتسلمها عروسًا بثوبها الأبيض للفارس الذي يستحقها..

تلك كانت أحلام آية الوردية البسيطة، حتى استفاقت على قسوة الواقع..

على حقيقة أن الأنثى كائن ضعيف..

عرضة للانتهاك والتنمر والتنكيل..

كائن هش يمكن التحكم به والسيطرة على حياته واستخدامه كأداة..

تلك الحقيقة التي صفعتها مع اكتشاف ما مرت به ريم من ويلات وعذاب..

بعدها اكتشفت آية حملها.. وتبدلت أمنيتها فأصبحت تدعو ليل نهار أن ترزق بصبي..

ولد..

ذكر..

لا تخشى عليه ولا ينخلع قلبها بكل مرة يبتعد فيها عنها.. لا تغرقها الظنون والهواجس كلما اقترب منه غريب..

أو حتى قريب..

ظلت تتمنى وتدعو.. تبتهل لله أن يستجيب فالخوف يمزق أحشائها، يثقل قلبها بهَمٍ فوق طاقة احتمالها.. تتمنى وتخشى أن تظل الأمنية محض أمنية وتأتيها فتاة صغيرة واهنة قد لا تستطيع حمايتها فتضيع منها!

تتمنى حد أنها بكت كأنما بات الأمر واقعًا لا بديل عنه وهي بشهورها الأولى فحسب!

ولا يزال الاحتمال قائمًا بموازاة مخاوفها، احتمال كون طفلها القادم أنثى!.. وبكاؤها جواره لا ينقطع.. فكيف تأتي بفتاة لا حول لها ولا قوة لذلك العالم البغيض!.. كيف تأمن على ابنتها وسط قطيع من الذئاب يتربصون بها منتظرين لحظة غفلة منها لينهشوا عرض ابنتها!..

اقترب عمرو منها بحيرة:

- مالك يا آية؟..

هزت رأسها بحزن ولم تمنع دموعها من التساقط:

- تفتكر ممكن أكون حامل في بنت!

غمغم وحيرته تزداد:

- ممكن طبعًا.. ليه لأ؟.. الحمد لله على رزقه.. بنت.. ولد.. مش مشكلة المهم الخلقة التامة زي ما بيقولوا..

ازداد انهمار دموعها.. هي تبكي خوفًا وقلقًا.. تبكي لأن أمنيتها الأصلية قد تتحقق وحينها ستعجز عن الفرح بها..

- بس أنا عايزة ولد.

هتف بحنق:

- معقولة يا آية!.. آخر حاجة كنت أتخيلها إنك تكوني من اللي بيفرقوا بين البنت والولد!

تجمدت لحظة أمام اتهامه ثم انفجرت باكية ولم تستطع التفوه بحرف..

هي لم تخبره بما حدث لريم..

لا يمكنها فضح سر شقيقتها.. فقط أخبرته أنها بالمصحة بعدما انهارت أعصابها بزواج علي وعزوفه التام عنها.. كذبة بسيطة غطت بها حقيقة ماحدث.. لذا عجزت الآن عن شرح ما يجول بذهنها..

عجزت عن كشف مخاوفها.. ورعبها على ابنتها القادمة!..

ولكن ما لم تدركه أن زوجها ليس بالأحمق الذي يصدق أن الحاج سلامة يندفع ليسبب عاهة مستديمة لابن أخيه ويفقده رجولته فقط لأنه سرق أمواله..

وبنفس الوقت تنهار ريم ويتم إدخالها مشفى للأمراض العصبية يرافقها به زوجها بصفة يومية..

هو يمكنه استنتاج الخطوط الرئيسية.. وإن لم يعرف التفاصيل.. كما لم يحاول معرفتها احترامًا لرغبة زوجته بحفظ سر شقيقتها..

اقترب منها ليضمها بحنان وقد توضحت الصورة أمامه.. فزوجته المتوردة على الدوام لا يمكن ألا ترغب إلا بوردية صغيرة مثلها..

- آية حبيبتي.. آسف مش قصدي أزعلك أبدًا..

سكنت بين ذراعيه وهي تغمغم بطفوليتها المحببة له:

- هاكون خايفة قوي عليها..

المدللة الصغيرة تخشى على ابنتهما المحتملة من ذئاب البشر وهي مازالت جنينًا بأحشائها..

مازحها بحمق لم يدركه لحظتها:

- يعني الولاد في أمان يا آية؟!.. ما التحرش بقى للجميع اليومين دول..

أدرك حماقته فور انتهاء كلماته وانفجار آية ثانية بنوبة بكاء لم يمكنه السيطرة عليها إلا بعد عناء..

- آية.. حبيبتي.. آيوش.. بصي لي..

رفعت له عينين دامعتين .. فحاول طمأنتها قدر استطاعته:

- ربنا يكمل حملك على خير إن شاء الله.. ويرزقنا ببنوتة عسلية زي مامتها أو ولد مش هتفرق.. إحنا علينا نربي صح.. نفهمهم.. ونصاحبهم.. نكون قريبين منهم.. ونستودعهم الله.. والله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين.

هدأ بكاؤها قليلًا.. سكنت بين ذراعيه وهو يحاول طمأنتها وبث الراحة والهدوء بأعصابها..

يقرأ لها قليلًا من الأدعية.. والكثير من آيات تهدئة الخوف..

طفلتهما المحتملة هي بداية جديدة ولهما أن يختارا كيف ستكون!..

هل يربياها على القرب من الله والثقة بحوله وقدرته واللجوء له!..

أم بالشك والقلق والحيرة حول غيبيات لا يعلمها إلا الله وحده..

***

الخوف هو علة السعادة..

هو داء يقتات على النفس فيحرمها لذة البداية.. ويكاد يلقي بظلاله القاتمة على فرصة البداية لجديدة..

وصلاح جرب الحب مرة.. وعانى مرارة فقدان الحبيبة.. وعندما سقط بالعشق ثانية عاش آلام الفقدان آلاف المرات.. فخشيته الدائمة من فقدانه لزوجته وحبيبته تحكمت بتفكيره وتصرفاته حتى كاد أن يفقدها بالفعل..

وأخيرًا.. قرر التحكم بتلك المخاوف.. تلك الهواجس التي تسرق منه نومه وأحلامه وفرحته بطفله الصغير..

ومع تعدد زياراته لطبيب نبيل النفسي.. وإداركه أهمية المساعدة النفسية.. لم يجد عيبًا في الحصول على بضع جلسات تعالج تلك المخاوف القابعة بأعماق عقله..

لكنه وجد حرجًا في مصارحة بسمة بتلك الزيارات، فبالنهاية هو يرغب في ترسيخ صورته كرجل الأسرة الحازم المسيطر على الأمور..

وليس ذلك الهلوع الذي كان حتى وقت قريب يستيقظ ليلًا ليتأكد أن زوجته وابنه مازالا على قيد الحياة.. فكان يقاوم رغبته بالنوم فقط ليجلس يراقب أنفاسهما تعود لجسديهما مثلما خرجت منه..

استيقظ بعمق الليل، لا ليتأكد من أن بسمة مازالت تتنفس ولكن لأنه افتقد دفء رأسها على صدره..

وسرعان ما وصلته الإجابة في صورة صرخات صغيره الغاضب على الدوام..

نهض من فراشه ليتوجه إلى غرفة الأطفال.. لتقابله ملامح بسمة المجهدة وهي تحمل ابن نبيل بذراع وبالأخرى تحرك مهد طفلهما..

همست له بإجهاد:

- محمد ابن نبيل صحي جعان.. وابنك تقريبًا ما صدق.. فصحي هو كمان بيصرخ..

رفع صلاح ابنه وهو يداعبه بحب:

- الباشا بل هدومه وعايز يغير.

وبالفعل بدأ بتبديل حفاض ابنه وملابسه التي وصل لها البلل وبسمة تراقبه بحب..

صلاح يحاول التأقلم ومغالبة مخاوفه.. حتى أن وجود ابن نبيل بحياتهما أصبح واقعًا وهو يتقبله برحابة صدر.. لا يبدي استياءً أو تذمرًا لانهماكها بالطفلين.. وتحول نسبة من اهتمامها لهما.. لكنها لا تعلم كيف سيكون رد فعله على ما تحمله له من أخبار!.. وتخشى أن تزيد من الضغط على أعصابه فينهار تحمله..

هي أخطأت لا تنكر.. ولكنه خطأ غير مقصود..

فانشغالها بالطفلين ألهاها عن الذهاب للطبيبة لاستشارتها حول استخدام مانع حمل مناسب..

وعندما اختلست ساعة واحدة ذهبت فيها للطبيبة..

بشرتها الطبيبة بأنها حامل بالفعل..



تدرك جيدًا أن صلاح بالكاد يقاوم مخاوفه القديمة ولا يحتاج لإضافة المزيد من الأعباء فوق كاهله.. راقبته براحة وهو ينهي تغيير ملابس الصغير ثم يساعده ليعود للنوم.. وعيناها تلقيان نحوه بنظرات عاشقة..

زوجها الحبيب الفخورة بانتمائها له...

ستخبره.. يكفي تأجيلًا للخبر.. فنوبات غثيانها ستصبح ملحوظة قريبًا..

وضعت ابن نبيل بفراشه.. ثم اقتربت من صلاح وهي تخبره بفخر:

- امممم.. بقيت أستاذ في معاملة الأطفال..

هز رأسه بأسى وهو يرمق الطفلين بحب:

- الحاجة أم الاختراع.. لو طنشت وسيبتك منك ليهم مش هشوفك إلا كل شهرين ونص مرة..

ضحكت برقة وهي تحيط عنقه بذراعيها:

- آه.. يعني كله علشان مصلحتك.

منحها قبلة دافئة:

- أعمل إيه طيب بتوحشيني..

ارتفعت لتهمس بأذنه:

- أحب أبشرك مجهودك جه بفايدة..



ابتعد عنها قليلًا وهو يسأل بتوجس:

- يعني إيه؟

هتفت بصوت هامس:

- يعني كلها ٨ شهور ويشرفنا ضيف جديد..

قاطعها بصرخة فزعة:

- إيــه!!

سارعت بغلق فمه بكفها:

- هششششش.. الولاد هتصحى..

وجاء همسها متأخرًا فقد انفجر الطفلان في البكاء.. وكاد صلاح أن يرافقهما بتلك النوبة الليلية من النحيب.. ولكنه وجد نفسه يسارع بحمل أحدهما وحملت بسمة الآخر.. ليحاولا باستماتة تهدئتهما.. حتى نجحا أخيرًا..

لكن صلاح لم يصل لهدوئهما مطلقًا.. فقد عاود السؤال:

- حامل يا بسمة!.. حامل إزاي؟..

وهي تدرك مقدار هلعه ومدى ما يبذله من جهد ليتحكم بنفسه.. فجاءت إجابتها هادئة تحمل لمحة عبث:

- يعني مش عارف إزاي!!



زفر بضيق:

- آه.. لا.. ما أقصدش.. قصدي.. إزاي بسرعة كده!..

وبدأ يجوب الغرفة جيئة وذهابًا يغمغم بكلمات بلا معنى.. وبسمة تتمسك بهدوئها حتى تتجنب انفجاره:

"إزاي!.. طيب أنا هعمل إيه!.. ده أنا يا دوب كام جلسة عند الدكتور!"..

ورنت الكلمة بأذني بسمة..

جلسة!..

طبيب!!..

هل ما فهمته صحيح!!..

هو يذهب لطبيب محاولًا السيطرة على مخاوفه وهواجسه؟.. هل يفعل ذلك من أجلها، من أجلهم!!.. لم ينتبه صلاح لزلة لسانه واستمر يهذي:

- لازم أضاعف عدد الجلسات علشان أكون مستعد للجديد...

قاطعته همسة بسمة وذراعيها تحيطان به:

- صلاح... أنت عظيم قوي.. أنت أعظم راجل في الدنيا..

تجمد لثوان بين ذراعيها وهي تكمل:

- أنا مش مصدقة إنك بتروح جلسات نفسية علشاني.. علشان حياتنا وجوازنا..

غغمغم بارتباك:

- جلسات إيه!.. مين قال كده؟

رمقته بلوم وبنبرة ناعمة همست:

- صلاح.. حبيبي.. أنت كنت لسه بتقول..

لا يمكنه مقاومتها وهي تستخدم تلك النبرة.. وتزم شفاهها بدلال.. وترمقه بتلك النظرات المشتاقة..

أقر معترفًا بذهابه للطبيب.. وبعدد الجلسات التي حضرها.. وبعدد الجلسات الباقية.. وأنهى اعترافه بما كاد يذيب قلبها:

- عايز أكون جدير بيكِ وبولادنا..

واستحق عشرات القبلات التي أغدقتها على كل خلية بوجهه ولسانها لا يتوقف عن الاعتراف بحبه.. عشقه.. الذوبان به.. فخرها بكونه زوجها ووالد أطفالها..

برغبتها بستة أطفال على الأقل كلهم يحملون ملامحه..

وهنا أوقفها هتافه الملتاع:

- كفاية علينا الولدين.. واللي جاي إن شاء الله تكون بنوتة.. وبارك الله فيما رزق..

هزت رأسها تجادله:

- طيب بنوتة كمان.. عشان يبقي تعادل.. تلات رجالة.. وتلات بنات..

وهزة رأسه اليائسة منحتها موافقة مشروطة.. بأن تؤجل التخطيط للطفلة الأخيرة حتى ينهي علاجه بالكامل.. ويصبح قادرًا على مواجهة جميع مخاوفه..

وتلك بالتأكيد بداية جديدة..

***

بدايتهما معًا.. هي بداية جديدة..

علاقته وارتباطه بها لا يشبهان برعمًا جديدًا.. بل هما أشبه بنبتة بدأت ضعيفة هشة تكاد تكون مشوهة.. نبتة شبه محطمة تكاثفت عليها القسوة والغضب وسوء الفهم كعوامل تعرية كادت تتسبب بموتها لولا صلابة جذورها وأصالتها..

البداية الأولى غرقت بأخطاء ماض وجب دفنه.. فذلك الماضي كاد أن يفقده إياها، بل دفعه دفعًا للتخلي عنها ليمكنه امتلاكها ثانية..

فكان صك تحررها منه هو ذاته صك امتلاكها لقلبه..

لذا تلك المرة صحت بدايتهما معًا..

طالبها بحقه بها.. ولم يتأخر عن منحها حق أنوثتها..

طارد موافقتها بكل خطوة.. أشعرها بأنه يريدها هي.. جنيته ذات خصلات القهوة الداكنة..

غازل..

اقترب..

وأشبع هوى فتاة لم تعرف سوى الحرمان قرينًا..

منحها حق التدلل والتغلي.. وأظهر تشوقه وتوقه لقربها..

سد أمامها جميع سبل الفرار من عشق أقرت به أفعاله وإن احتفظ لسانه بالكلمات..

لم يكن أمامها سوى التسليم له والموافقة به، بل حقيقة هي أرادت إعلان الموافقة..

فحصاره كان عاطفيًا حالمًا وليس ماديًا خانقًا..

لذا هي منحته موافقتها بإرادة حرة..

حرية هو كان صاحب الفضل لتمتلكها وتجيد استخدامها..

يدها بيده.. يقبض كفها بقوة ورقة بذات الوقت.. يراقبها تختار شبكتها الذهبية كما أصر.. فهو يريد بداية من نقطة الصفر.. ولولا احتراقه لوصالها لمنحها فترة خطبة كما تستحق.. لكنه اضطر لموافقة والده.. ليكون عقد قرانه بنفس ليلة زفاف إيهاب ونشوى..

يتذكر غضبه وثورته على والده..

"لا يا حاج.. حرام أظلمها تاني.. هي من حقها فرح وزفة زي أي عروسة"..

وتغيم نظرات والده بحزن موجع.. لا يريد ظلم ابنه ومعه سمية للمرة الثانية.. وتلك المرة يدرك أنهما اختارا الزواج برغبتهما الكاملة..

ولكن..

كيف يقيم زفاف ويعلق زينة الأفراح وابنته نزيلة مصحة وسجينة ماض تأبى التحرر منه!!..

أدرك حمزة اتجاه تفكيروالده.. فتجهمت ملامحه.. كيف نسى مصيبة ريم وقضية والده والحكم المنتظر!..أنسته فرحته بنيل موافقتها على الزواج كل من حوله..

غمغم نادمًا:

"آسف يا حاج.. ما قصدتش.. الحق معاك طبعًا.. وأنا هكلم سمية"..

ولم يكن بحاجة لإقناعها فهي كانت مدركة لواقعهما ربما أكثر منه..
فبخلاف حالة ريم وقضية والده؛ يجب الأخذ في الاعتبار بنفسية أمنية، طلاقها.. ولادتها المنتظرة.. والأهم وضعهما هما كزوجين سابقين..

كانت واقعية باقتناع لكنه وعد نفسه بمنحها ليلة زفاف كما تستحق..

أخرجه من شروده صوتها الهامس وهي تنادي باسمه:

- حمزة..

التفت لها ونظراته تموج عبثًا:

- مش قلت لك ما تناديش اسمي إلا لما نتجوز.

ولم تفهم مغزى طلبه السابق والذي يصر عليه الآن.. فهزت كتفها بحيرة وهي تخبره:

- حاضر.. الخاتم ده عجبني هاخده..

ونظراته تلك المرة غاضبة:

- اختاري شبكة زي الناس يا سمية أنا مش جاي أجيبلك هدية نجاحك..

- بس...

ويقاطعها:

- اختاري وإلا هختار أنا.



وتراقبهما آية -التي ترافقهما بجميع تحركاتهما تلك الأيام بأمر من والدها- وبعينيها تلتمع نظرة فرحة..

فالاثنان يستحقان تلك السعادة التي تنطق بها ملامحهما رغم جدالهما ومناوشتهما المستمرة..

سمية أحيت بحمزة شيئًا ما لم يكن موجودًا من قبل.. منحت ملامحه المنقبضة بعض الراحة وأعصابه الثائرة بعض الهدوء..

وهو أشعل بسمية روحًا متوهجة كُبتت لسنوات..

أخيرًا اتفق العاشقان على اختيار مناسب.. وانتقلا بعدها لمتجر آخر.. ولكن تلك المرة ابتسمت سمية بمكروهي تطرد حمزة وتجبره على الانتظار بالسيارة.. فالمتجر كان أنثويًا وفقط..

وهو لم يتركها تهنأ بانتصارها الصغير فكانت همسته المتوعدة:

- كلها كام يوم.. وهاشوفهم واحد واحد..

مرت الأيام سريعة..

وأخيرًا سيجتمعان تحت سقف واحد..

- لا أوضة واحدة فعلًا.

همسها لنفسه وهو يمهر وثيقة زواجهما بتوقيعه..

شتان الفارق بين ذلك التوقيع وآخر سبقه!..

تلك المرة زواجه مكتملة أركانه عن حق.. بداية من الموافقة بإرادة تامة من كليهما.. مرورًا برغبة حقيقية في إقامة أسرة وحياة سليمة.. وهو بانتظار نهاية الليلة لينال الملكية التامة والحصرية..

ولولا الحياء لاصطحبها فورًا لمنزلهما.. فلا ناقة له ولا جمل ولا رغبة لحضور زفاف إيهاب ونشوى..

لكنه مجبر على الانتظار.. فهو تحمل لشهور.. ولا مانع من إضافة بضع ساعات أخرى!..

رمقها تراقب شقيقها يراقص عروسه.. وأدرك أنها رغم كل ما تدعيه من واقعية فهي ترغب بلعب دور العروس ولو لثوان..

اقترب ليحيط كتفيها بذراعه..

أخيرًا.. أول اقتراب بعد عقد القران..

فهو لم يستطع منحها قبلة الجبين لأسباب تعود لقدرته المنعدمة على تحمل المزيد.. والأهم لم يرغب بعرض عواطفه نحوها أمام جمهور من صديقات نشوى التافهات كما رآهن..

همسته جاءت مواسية لها وهي تراقب رقصة العروسين العاطفية:

- هيكون ليكي ليلة فرح كاملة.. بس أما نوصل شقتنا..

احتقن وجهها حرجًا وهي تظن بكلماته معنىً لم يقصده.. معنىً لم تفهمه إلا بعد ساعات وهي بغرفة نومهما وأمامها ثوب زفاف حالم.. وكلمات حمزة تداعب أذنيها:

- فستان فرح.. وليلة فرح زي ما وعدتك..

وأخيرًا منح نفسه حق قبلة الجبين قبل أن يهمس:

- شعرك ما تقربيش منه..

وخفت صوته بإثارة:

- أنا عايز أشيل الحجاب بايدي..

تركها وخرج مغلقًا الباب خلفه.. لتسرع هي باحتضان الثوب ومراقصته..

ثم تأملته للحظات.. اكتشفت بها روعة الثوب الذي أثبت حمزة باختياره له أنه يفهمها بعمق.. فالثوب وكأنه صمم من أجلها..

لم يكن مبهرجًا.. ولم تتعدد طبقاته.. لم يشبه ثياب الأميرات ببذخها.. بل التف حول جسدها بقماشه الناعم المتماسك.. وانتهى بذيل بسيط من الدانتيل.. واحتضن خصرها بزنار فضي لامع.. والصدر كان مطرزًا بوردات فضية ناعمة..

كان كل ذلك يماثل رغبة سمية بثوب زفافها.. وباقي الثوب يماثل ما يريده حمزة بثوب عروسه.. فالثوب كان عاريَ الكتفين والظهر!..

وكأن مظهرها بحجاب رأس وثوب زفاف شبه عار جذب ابتسامة واسعة على شفتيها.. فكانت تلك الابتسامة هي أول ما وقعت عليه عينا حمزة وهو يقتحم الغرفة أخيرًا بعدما نفذ صبره.. ثم تحركت عيناه تتأملان فتنتها التي يراها لأول مرة!..

اقترب بخطوات حاول جعلها متمهلة بقدر استطاعته بينما هي حاولت التراجع للخلف وصوتها يثرثر بلا معنى:

- حجاب وفستان مكشوف!.. إزاي ده؟..

وذراعه الآن تحيط بخصرها والأخرى تتحرك بصبر نافذ لتزيح غطاء الرأس.. لتنطلق موجات القهوة حول كتفيها وتغطي عري ظهرها..

لحظتها أطلق حمزة أنفاسًا لم يدرك أنه حبسها لتنطلق منه شهقة توق ساخنة وهو يلف كتفيها بذراعه ويغرق وجهه بين خصلاتها البنية الناعمة..

وتشعر بخطواته تراقصها لتدرك أنها بالفعل تعيش ليلة زفاف كما وعدها هو.. بثوب الأحلام ورقصة ناعمة بين ذراعي أمير أحلام لم تتخيل أنها ستلتقي به قط..

- ليلة فرح زي ما وعدتك..

كانت همسته الخشنة تداعب أذنها وأعقبها بقبلة دافئة لتلك الأذن.. وتحركت شفتاه بقبلات صغيرة دافئة مارة بوجنتها.. عينها وجبينها.. لتعود وتشعر بهما على جفنها المغلق ووجنتها الأخرى.. وأخيرًا تصلان لشفتيها بقبلة ناعمة..

فقط قبلة واحدة!

تردد بعدها اعترافه:

- مش هقولك إني عرفت معاكِ طعم الحب؛ هقولك إني عرفت طعم الحياة.. الدفا.. السند..

والقبلة الثانية كانت أكثر دفئًا:

-إنك تكوني جزء مني وأنا جزء منك..

والثالثة تعمقت بقوة:

- إنك تسكنيني وتكوني سكن ليَّ...

والرابعة رافقت حركة أنامله العشوائية ليحل أزرار ثوبها القليلة:

- إنك تكوني مراتي وحبيبتي.. الحضن والبيت..

غرقت رأسها بكتفه.. واستكانت بين ذراعيه.. يبثها غزله ويقر بعشقه..



ورغم صمت شفتيها إلا أن نظراتها التي ارتفعت لتقابل نظراته .. تمنحه اعترافًا صامتًا بالحب.. ويردد لسانها اسمه بلا انقطاع..

- حمززززة..

وتزداد خشونة صوته وتلهف لمساته:

- مش عارف شفايفك بتعمل إيه في اسمي!!..

وتردد بدلال بعدما أدركت غريزتها الأنثوية سبب منعها من ترديد اسمه من قبل:

- حمززززة!..

واحترق هو مع همستها ورفعها أخيرًا بين ذراعيه ليمنحها القبلة الخامسة..

وقبل أن يحط بها على فراشهما تعالت طرقات عالية على باب الشقة.. يرافقها صوت أمه المذعور:

- أمنية بتولد!!..

وبرغم كل شيء.. هناك بداية جديدة..

حتى لو كانت مؤجلة قليلًا!

***



يسعى البعض لبداية جديدة.. يخطط لها بدقة متناسيًا أخطاء ماضيه.. يستمر بطريقه غافلًا عن حقيقة ثابتة..

الماضي هو وقود المستقبل..

فإن جمعت وقودك بنزاهة وشفافية؛ واصلت طريقك للقمة بسلاسة ويسر..

وإن لوثت ذلك الوقود؛ حسنًا.. تحمل ما يلقِه المستقبل بوجهك من عقبات..

فبالنهاية..

يحصد المرء ثمار ما زرع..

انتفض إيهاب مبتعدًا عن عروسه ونظراته ترمقها بعدم تصديق، تحول لغضب عارم وهو يلتقط نظراتها اللامبالية.. مع استمرار جمود ملامحها تفرق جفناه باستنكار مذهول:

- أنتِ.. أنتِ...

وعجزت أحرفه عن تتمة تناسب حقارة الموقف وصفاقة عينيها وهي تنتظر كلماته برفعة حاجب شبه ساخر، أعماه غضبه ليجذبها من خصلاتها

بعنف.. وعيناه تنطقان بسؤال ملح جوار الصدمة.. سؤال تردد على لسانه بصياح مهتاج:

- هو مين؟..

نفضت رأسها منه بحدة وهي تمنحه نفس نظراتها اللامبالية والتي تمازج بها استخفافًا لم يستطع تحمله فأثير جنونه ورفع كفه ليصفعها مرة.. وبالثانية رفعت هي كفًا مضادًا لتبعده عنها هاتفة باستنكار غاضب:

- بتمد إيدك عليَّ أنا؟.. أنت اتجننت..

اقترب بتحفز:

- هو أنتِ لسه شوفتِ جنان!.. أنتِ فاهمة إني إيه؟..

هزت كتفيها باستهزاء:

- أنك البيه اللي هيشيل الليلة!

دوت الكلمة بأذنيه كأنها صدى لأحرف مشابهة نطقها من قبل!.. زاد من اقترابه وارتفع صوته حد الجنون:

- صحيح إنك واحدة...

ولم تدعه يكمل.. بل هتفت به بمقاطعة صلبة:

- اخرس واحفظ مقامك..

واقتربت هي منه غير عابئة بنظراته الغاضبة وسبابتها تشير لنفسها بكبرياء:

- أنا..

ثم انتقلت بالإشارة إليه تشمله من رأسه لأخمص قدميه:

- اشتريتك بفلوسي.. وأنت بايع.. ما تفرقش بقى إيه البيعة طالما قبضت التمن..

ارتد للخلف خطوة وهو يدرك أنها على حق، مهما عاند ونال منه الغضب أو آلمته رجولته وطالب شرفه الذكوري بالقصاص، هي على حق!.. عُقد لسانه للحظات قبل يغمغم بتساؤل خرج متخاذلًا رغمًا عنه باعتراف مذل بصدق كلماتها:

- طيب مين؟.. خطيبك الأولاني؟

هتفت بتعجب مستهجن ونبرة مائعة:

- عبدووو!..

ثم أعقبت هتافها بضحكة ساخرة:

- عبد الرحمن ما حاولش حتى يمسك إيدي.



وكاد يجن.. هي لا تبالي بكلماتها وكأنها تحدثه عن الطقس وليس عرضه.. شرفها الذي أضاعته ولا يعلم من سلبها إياه!.. أوحتى من منحته هي له بكامل رغبتها!

وكأنما يحاول التماسك، يبحث عن منفذ هروب آمن.. يفكر أنه ربما لم يُخدع، لم يباع.. أويُشترى وعليه القبول مهما كانت البضاعة معابة!!.. غير مطابقة للمواصفات!.. غمغم بأمل واهٍ:

- حادثة؟..

عادت ضحكاتها تتعالى كأنها شامتة:

- حادثة شرف..

وقبل أن يعاود سؤاله اقتربت منه تسأله بجدية:

- هتفرق معاك في إيه؟.. حادثة ولا قصد!.. واحد ولا...

ثم صمتت لحظة لتكمل بغمزة:

- عشرة!

هزرأسه رافضًا لكلماتها مظهرًا عنفوان رجولة ناقصة:

- لازم أفهم..

وجاءته إجابتها سريعة:



- ما يخصكش..

- إزاي!!

- أنت اللي يهمك المكتب.. وشغل المكتب..

بعد سؤاله المحتد الصارخ ألجمته بالجواب!.. عاد يسأل بحيرة وقد استكان بعض الشيء بعقدة حاجبين تشي باستسلام على وشك الحدوث وإن خالطه خوف:

- يعني إيه!.. في حد تاني في حياتك؟.. هتستمري في...

لم يستطع إكمال جملته وهوة النقص بداخله تتوسع وتزداد حد ابتلاع ضميره، شرفه.. وكينونته..

وكم رغبت هي في معرفة رد فعله إذا جاءت إجابتها بالإيجاب!.. كم أرادت معرفة لأي مدى هو مستعد لبيع رجولته والخضوع لها مقابل تحقيق طموحه!..

عقلها يخبرها أنه كان سيقبل.. فهي أجادت اختيار من يسترزلتها.. ودفعت ثمنه بالكامل..

لكنها اختارت أخيرًا إجابة مهددة وازت نظرتها المشابهة:



- إحنا بيننا صفقة.. وكل واحد بيدفع التمن بطريقته.. أنا اخترتك تكون جوزي.. وطول ما أنت بتسمع الكلام هاكون أنا الزوجة الكيوت المخلصة.

وتلك بداية..

أوربما ذاك نتاج اختيار البداية..

وكلٌ يجني ثمار ما غرس..

فتشوه البذرة يعني اعوجاج الساق وفساد الثمرة..

الفصل الرابع والثلاثون

ما بين طموحك وما تحصل عليه بالفعل شعرة واهنة، شعرة تمايزذاك النهم الجشع بداخلك، عدم الاكتفاء والبحث عن مزيد.. تمايزه عن ما تملكه وبعده لا شيء تطاله يداك..

وما غدك إلا حصاد أمسك ويومك، وكل يجني ما أنبت، فلا تبحث عن ثمرة شهية تربتها فاسدة وارتوائها خبيث ونموها مظلم..

البعض يحصدون غرس حياة كاملة، وآخرون تمر بهم مرحلة الجنيْ بعد عناء، وغيرهم حصادهم ما هو إلا رد فعل لفعل بلغ معهم حد الاعتياد والألفة حتى لو تعاظم ذنبه أو ثقُل إثمه!

منهم من يتلقى الرسالة فيعود.. ومنهم من يتمادى في غِيِّه متجبرًا حاقدًا ناقمًا رافضًا كأنما ليس ذاك جناية يديه!

وهو كان من الصنف الأخير، غاص في أوحال الخطيئة دون تبرير، تمتع واشتهى ونال وسوغت له الظروف كمال النيل، وعندما أتته الصفعة من حيث لا يحتسب ثار وهاج وماج كبحر غادر أو كبركان حممه لن تحرق سواه ولن تأكل في طريقها إلاه..

عندما وجدته أمامها ينظر نحوها بجمود لمعت السخرية فوق مقلتيها وشفتيها ببسمة هازئة لم تخلُ من دهشة وهي ترمقه بتساؤل:

- العريس!!..

دفعها ودخل دون جواب، رمى بنفسه على أقرب مقعد وأشعل تبغه ينفث دخانه بجنون وهي تناظره باستنكار مع دفعته الخشنة وصمته:

- مالك يا بيبو!!

ودارت حول المقعد تسير بكفيها حول كتفيه كأفعى ناعمة:

- العروسة مش أد كده ولا إيه!

برقت عيناه ببريق مخيف لو رأته لفرَّت من أمامه، طحن اللفافة في مرمدة مجاورة وجذب يدها بعنف يجلسها فوق ساقيه، تحسسها بفجاجة قاسية وانحنى يدفن رأسه وشفتيه في منحنى عنقها بذات الصمت، جوار دهشتها شعرت بغضب فأبعدته ونهضت برفض:

- في إيه مالك؟.. أنت مش اتجوزت خلاص!.. جاي عاوز مني إيه؟

وتخصرت بعناد حانق:

- روح لمراتك بقى.

زمجر بشراسة ونهض يجذب خصلاتها المصبوغة بأنامل غليظة:

- اقصري الشريا رانيا.. مش طالبة دلع هايف.

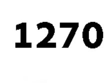
تأوهت وهي تحاول تخليص شعرها من قبضته فشعرت بيده الأخرى تحيط بجيدها، تتحسسه بلمسات عنيفة قبل أن يطبق على عنقها فتشهق بفزع:

- ما تعانديش عشان أنا مش فايق لك.

وجذبة الشعر التي كانت تثبت رأسها في وضع نظر إليه قربتها.. يطحنها فوق صدره، ينهل من شفتيها حد أنينها، يمزق ملابسها بوحشية بدت مثيرة للهلع، يترك علاماته فوق جسدها وينالها بمكانها بينما هي خاضعة بسكون خشية غضبه الذي ذاقت أثره من قبل..

غضبه الذي عندما ينفلت من عقاله يسيطر عليها ويخضعها بمشاعر مذعورة لا تملك أمامها سوى الاستسلام حتى يهدأ فربما تفهم..

انتهى منها وابتعد لاهثًا.. بدت أنفاسه مهتاجة بسخط أكثر منها تأثرًا بما حدث للتو، ارتدى سرواله وجذب لفافة أخرى أشعلها ينفث دخانها ويطالع لهيبها بشرود.. عاد يجلس على الأرض مستندًا بظهره لنفس المقعد الذي غادره قبل دقائق، أما هي فاعتدلت بتأوهات خافتة تخشى معها أن تصيبه بغضب جديد، سحبت قميصه الملقى بالقرب منها وسترت به جسدها، أغلقت بضع أزرار وواجهته في جلسته ترمقه بتساؤل!



تشعر بالألم في أنحاء متفرقة من بدنها وكأن سيارة مرت فوقها لكنها لا تملك حق الاعتراض، بينما هو في عالم آخر.. عالم غريب محتقن بالهياج والكمد والغيظ..

هو!

من دار وعاش فجور مراهقته وشبابه كما يريد تأتي واحدة كهذه لتجعل منه أضحوكة أمام نفسه وأمامها!

هو!

من تملك الفاتنة قبل زوجها ومنحه فقط حق نقاط عذرية مطموسة المعالم خلف جسد ملوث كان له من قبله!

هو العنيد الغاضب الذي ظن نفسه قويًا!

الذي ظن أنه وصل لأول درجة في سلم طموحه وأنه على مشارف تحقيق ما يصبو إليه!

هو يباع.. ويشترى!

ويستر على غانية خططت للعبتها بدقة وكان هو مجرد بيدق!

هو من أغلق هاتفه حتى لا يصل هياج صوته لأحدهم عقب اتصال أحمق.. بتهنئة!

زفر بحنق أخيرواللفافة تحرق أنامله لينتبه على همستها المتوترة:

- إيهاب.. السيجارة خلصت، إيدك!

حول عينيه إليه متأملًا هيئتها الشعثاء، خصلاتها التي تناثرت حول وجهها بجموح يديه، حمرة شفتيها التي لطخت ما حولهما وتورمهما كأنما كان يريد تمزيقهما!.. قميصه الذي ترتديه بحثًا عن ستر!..

التوى جانب فمه ببسمة ساخرة مريرة التقطتها عيناها فهمست وهي تقترب منه بحذر:

- بيبو مالك بجد؟

ولم تحصل على رد، ولن تفعل أبدًا!

ألم يهزأ منها قبلًا ويعنفها ويثير مخاوفها أن غيره سيمتلك منها الفتات بعده ودون أن يعلم!

لكن كان هو من سقط في الفخ.. وقبض الثمن مقدمًا..

نهض يجذب يدها لتستقيم في مواجهته، خلع قميصه عنها بحركة واحدة أجفلتها وهي تظنه سيعاود الكرة لكنه ارتداه دون أن ينظر إليها، تحرك مغادرًا كعاصفة بدأت ولم تهدأ وربما أبدًا لن تفعل!

فها هو يحصد ثمار ما زرع..

وإن كانت البذرة فاسدة؛ فماذا تنتظر إلا فساد الثمر!

***

التضحية هي تلك البذرة التي تتكون ثمارها بثمن باهظ.. ومع غلو ما تقدم تنال..

هي قدمت الكثير من قبل، وهو قدم لها ما استطاع، وحان وقت الحصاد.. والحصاد كان قلبًا نابضًا بحب لم يطرق أبوابه أبدًا، بقرب كان أمنية، بضمة واحتواء، بدفء وسكن ومودة..

أخيرًا أصبحت له.. أخيرًا امتلكها بعد طول صبر وجنون مشاعر.. أخيرًا هي زوجته، قولًا وفعلًا ومضمونًا شاملًا..

ارتكن على مرفقه يراقب ملامحها الساكنة بنعومة طفلة نائمة، ضمة شفاهها الصغيرة، حاجبيها الرفيعين المرتاحين أعلى أجفانها المتعانقة بسلام.. وخصلات القهوة التي تغرق الوسادة من حوله حد أنه تشمم عبقها في أحلامه!

ابتسم بغيظ وهو يتذكر المقاطعة التي كادت تجعله يصرخ بأمه أن تبحث عن شخص آخر يحمل شقيقتها للمشفى لكنها هي من تركت تعلقها بعنقه وهرولت نحو الباب تفتحه لولا أن تمسك بمعصمها وأشار بعينين غاضبتين نحو ثوب زفافها مفتوح الأزرار..

وغشيت وجنتاها حمرة ماتعة خفق لها قلبه فتأفف أمام نظرتها البريئة الملهوفة على أختها الصغيرة وذهب هو ليفتح.. ومن وقتها وهو معتصر بين حملها للمشفى، متابعتها مع سمية، وتطييب خاطرها ودعمها، ينال منه الحنق أحيانًا فتمحوه بابتسامتها الخجول المعتذرة!..

كان يلامس أناملها وقتما يتاح له لمسة خافية عن الأعين، وبعدها يغلفه الندم فاللمسة والنظرة والبسمة والقرب نار محرقة، يوم كامل.. ليلة زفافه وصبيحته وضحاها إلى المساء قضاه معها بالمشفى حتى أتى ابن أختها للنور..

وبعدها اختطفها..

لم يكترث لاعتراضات واهية حيِّية، لم يأبه لنظرات أمه المندهشة أو حتى بسمة أبيه المتفهمة الحنون.. فقط كان عليها أن تصبح ملكه وإلا فسيحدث ما لا تحمد عقباه..

تنهد بدفء قرب وجنتها وهو يمنحها قبلة ناعمة، جذب خصلة من شعرها جوار أنفه يتشممها بنشوة قبل أن يهبط برأسه ليغوص في خصلاتها الفوضوية ويتنفس بعمق..

في النهاية علت عينيه نظرة عابثة وحرك طرف تلك الخصلة مارًا به فوق وجنتها، ذقنها وعنقها، كانت تدفع وتشيح بيدها شاعرة بالانزعاج بينما هو

تتسع بسمته ويراقب جفنيها يهتزان دليل حنق واستيقاظ، فتحت عينيها بضيق لتقابلها نظرته الماكرة وبسمته الشقية..

عادت لها ذكرى ليلتهما الأولى معًا واحمرت وجنتاها بلذة.. رفرفت بأهدابها في خجل كان رده عليه خبيثًا:

- عارف بتفكري في إيه!

شهقت برقة فاقترب يتمم همسه بين شفتيها:

- أصل أنا كمان بافكر فيه.

ونالت قبلة شغوف قبل همسة أخيرة:

- صباحية مباركة يا عروسة.

وتاه معها أوربما هي من تاهت معه في عالم دافئ يخصهما معًا.. عالم خرج من حيزالخيال الحالم لفتاة تجد سعادتها للمرة الأولى، ورجل خشن الطباع حاد الملامح..

وجد أخيرًا سلام نفسه!

بعدها كانت هي تقف في مطبخها تحضر إفطارهما وعلى شفتيها بسمة رقيقة حالمة شاردة.. لا تصدق أنها حقًا حصلت على نصيبها من السعادة!

أن ذاك المخيف الذي تزوجته قبل عام وبعدها بأشهر طلقها.. لتعود لعصمته هذه المرة بكامل إرادتها هو رجلها حقًا.. هو اختيار القلب الأول، الحقيقي والأخير!

هو السند والأمان وطمأنينة روح غابت عنها السكينة حتى اعتادت ألفة الخوف فركنت إليه لأنه كان الوحيد بعالمها!

هو الحبيب ويا لها من كلمة لم تظن أنها ستطرق باب قلبها أو عقلها يومًا!

هو..

هو من أتى فجأة ليحيط خصرها بذراعيه ويحني رأسه هامسًا في أذنها:

- طيب بالله عليكِ ده وقت أكل؟

توسعت بسمتها الهانئة وهي تستدير بين أحضانه:

- أمال إيه؟.. هنضرب عن الطعام!

مال دانيًا من شفتيها كأنما لا يريد غيرهما:

- لأ.. بس في حاجات أهم.

وحجبت قبلته بأناملها.. تدللت بهروب رقيق من طوقه.. وتظاهرت بانشغال وهي تقطع ثمرات الخيار وترصها في طبق كريستالي صغير:

- فعلًا.. عشان كده لازم نفطر وننزل نطمن على أمنية والبيبي.

انعقد حاجباه وضيق ظهر على ملامحه:

- أمنية.. بيبي!

ثم توجه نحوها مرة أخرى، انتزع السكين من يدها ولفها لتواجهه، أحاطها ورفعها لأعلى لتوازي وجهه مستندًا للطاولة من خلفه، حركت قدميها في الهواء بعتاب متدلل:

- حمززززة نزلني.

لمعة عينيه أنبأتها أنها أخطأت بمناداته فابتسمت وأبعدت وجهها:

- نزلني بجد.. لازم أنزل أطمن عليها.

وعلم أنها فهمت وأسعده ذاك الخيط الجديد الذي ربط بين أفكارهما فمط شفتيه بعناد مقاومًا البسمة:

- فكريني كده.. ليه ماكلمتوش إيهاب؟

دارت بعينيها في المكان وأتى ردها خافتًا خجولًا:

- عريس.

ارتفع حاجباه بدهشة مصطنعة وازت نبرته المستهجنة:

- آآآه.. قلتِ لي.. أمال أنا إيه بقى إن شاء الله؟!

أراحت كفيها على كتفيه وهي تدلله بنظرة حانية دافئة ممتنة:

- معلش.. إحنا أقرب ودي ولادة.

مط شفتيه والحنق يلوح على وجهه:

- إمممممم.. ولادة!

وأمال رأسه ناحية اليمين دون أن يفلتها وهي تحرك قدميها بدلال:

- طيب فكريني تاني.. أمنية فضلت تولد كام ساعة؟!

وعقدة الجبين كانت من نصيبها تلك المرة وهي تزم فمها بضيق مفتعل وغضب لذيذ:

- على فكرة بقى.. خالتي هي اللي خبطت علينا.

رفع حاجبًا وعلا نظراته مكر:

- بقى كده!

- آها كده.

- ماشي.

ورفعها أكثر وتحرك بها فهتفت:

- حمززززة الفطار.. لازم أنزل لأمنية..

وبالغرفة أنزلها جوار الفراش وهي تثرثر دون رابط:

- عاوزة أطمن عليها..

قبَّل عنقها فضعفت نبرتها:

- عاوزة أطمن على البيبي..

تنقل بشفتيه فوق صفحة وجهها فأغمضت عينيها باستجابة محببة:

- خالتي هتسأل..

شعرت به قرب شفتيها فهمست في محاولة أخيرة:

- كلمت أهل أسامة؟!

تراجع بحركة حادة مذهولة:

- نعم!!

دارت بعينيها في المكان بخجل:

- مش لازم يعرفوا إن أمنية ولدت!

تذمر بزفرة حارة وهو يمسح وجهه مستلهمًا الصبر، عاد إليها يقطع بشفتيه حديثها الذي لا طائل منه برد نهائي حاسم:

- كلمت أبوه يا سوومية.. ممكن تركزي بقى مع حمزة شوية.



واستكانت واستسلمت لموجة عشقه التي اجتاحتها فرفعتها عاليًا قرب الشمس..

موجة حملتها فوق غيوم الحلم.. وأسكنتها قلب العاشق..

موجة كانت هي حصاد غرس نقي وبذرة صالحة طاهرة نباتها شجرة طيبة أصلها ثابت.. وفرعها في السماء..

***

وقد تزرع الثمرة فاسدة لكنك ترويها بكل ما تملك روحك من نقاء، ترويها وكأنك تتعلق بها أو كأن حياتك باتت منها ولها فتزهر وتثمر وتحصد برضى!

وهي زرعتها في غير موضعها.. غرستها دون وقتها.. وروتها بخوفها وألمها وضياعها.. ثم حبها وتعلقها.. وأملها!

هو الآن جنتها وسكنها وسد احتياجها.. صغيرها المنمنم الضئيل الذي لا تريد غيره من هذه الدنيا فكفاها ما جنت من ثمار خبيثة عندما أخطأت تربة زراعتها..

كفاها ما جنت من خيبات!

"آدم"



ابتسمت تضمه إليها برفق، تدمع عيناها ويده الصغيرة تحيط بأنملة سبابتها بوهن.. أتاها الصوت المداعب يخرجها من شرودها فيه:

- هتفضلي شايلاه كتير؟.. عاوزة أشيله أنا كمان.

رفعت وجهها نحو آية التي تواجهها فوق الفراش وتجاورها سمية بينما تجلس حبيبة على مقعد مقابل بابتسامة حانية، أشارت لها برأسها:

- تعالي أهو شيليه شوية.

نهضت آية بحماس تلتقط منها الصغير بحذر:

- تعالى يا سي آدم.. غلبتنا.. كام ساعة عشان تيجي وتطلع عنينا.

ابتسمت أمنية براحة وسمية تخبرها بينما تداعب وجنته برقة:

- آدم يعمل اللي هو عاوزه على فكرة.

وكزتها آية بمرح:

- وده رأي حمزة برده؟!

ضحكة مرحة جماعية شقت سكون المكان تمازجت بخجل سمية، قبل أن تشرد أمنية في ماض شكَّله سوء اختيارها، وآية ترمق الطفل بحنو وتشبث، ثم تأْمَل في ذاك اليوم الذي تضم فيه طفلها.. بينما حبيبة انحسرت

ضحكتها لتكتفي ببسمة شاردة شبه سعيدة وحلمها لا يزال يداعب خيالها رغم الخوف والانكسار السابق..

أما سمية فبدت كأنها أم رؤوم تطوف بعينيها في أوجه الفتيات، تكاد تجزم بأفكار كل منهن وقلبها يدعو لهن براحة البال وطيب الخاطر واقتناص أنصبتهن الخاصة من السعادة.. عادت لها بسمتها النقية وهي تقترب من آية التي تمتمت بارتباك وجل:

- باقولك يا أمنية هو الولادة بتوجع قوي؟

وتكررت الضحكة هذه المرة بصوت أعلى بينما هي عقدت شفتيها بحنق:

- إيه باسأل؟

سخرت حبيبة بشقاوة:

- لا يا يويو.. شكة دبوس.

ومطت شفتيها هذه المرة:

- يوووووه.

تحركت سمية بعد ضحكة أخرى لتحمل الصغير وتتفحصه باهتمام:

- باقولكم يا بنات.. هو عنده صفرا ولا أنا بيتهألي؟!

اعتدلت أمه بقلق متوتر بينما آية تهز كتفيها بحيرة:

- مش عارفة يا سمسم.. هو كده طبيعي ولا لأ!

أما حبيبة فنهضت تقترب وتتأمله بعين شبه خبيرة مع ابن أخيها:

- أظن يا سمية.. بس نتأكد أحسن.

خاطبتها أمنية بقلق شابهُ هلع وليد وهي تعتدل لتتأمل صغيرها بين يدي أختها:

- تعرفي دكتور كويس يا بيبا؟

صمتت للحظة قبل أن تحسم قرارها:

- أيوة.. هاتصل بدكتور حسام وأجيب منه عنوان العيادة.. إن شاء الله خير..

ناولتها سمية الصغيروهي تخبرها برفق:

- ثواني هاغيرهدومي وآجي معاكِ.

وبصوت واحد بدا غريبًا تعالى منهن جميعًا الرد:

- لأ.

رمقتهن بدهشة فأشارت حبيبة خلف ظهرها بحزم:

- أنتِ اطلعي لجوزك.. أنا هاروح معاها وأطمنك.

وربتت على كتف أمنية بحنو وطمأنة أنَّى لها أن تحصل عليها وقلبها ينتفض بين ضلوعها ذعرًا على دنياها التي باتت للتو بين يديها..

لكنها تخشى عليها حد الموت!

***

عندما تغرس بذورًا طيبة في أرض آسنة.. عليك تحمل تبعات غرسك، فأنت ترويها بالوجع.. أما هي فتثمر معك الألم والانكسار، جرح الكرامة وظلمة الروح..

وعندها لن تحصد إلا خسارة..

وهي زرعت بذرة حبها بتربة قلبه حالك العتمة.. فلا ضوء مدَّها بقدرة نمو، ولا عشق مقابل رواها لتزهر.. ماتت البذرة دون ثمرة، وجف الجذر وحان وقت اجتثاثه من العمق!

رمقته بنظرة صامتة باهتة لا تحمل معنى سوى عنفوان الكبرياء فهو وصل معها للحضيض وانتهت الحكاية بذبح أسال دمها فيه على الملأ..

ملأٍ من أمها وزوجة أخيه.. وبالخارج صوته الذي تردد صداه ليصل للأخ نفسه ولذاك المبتعد بخطوات متعجلة حتى لا يشوه صورة هي ممزقة بالفعل..

يطالب بدليل حتى ينسب طفله إليه ويالها مع عنجهية صلفة وغرور أحمق وياله من رجل دون عقل!

وبماذا كان عليها أن تجيب!

تتذلل؟..

تبكي؟..

تنحني لرياح غضبه وغبائه؟..

لا وألف لا.. هي القوية في أرضه الجافة، وهي نقطة الندى التي ستحرمه منها فقط عقب نيل حقها ومستحقها.. بعد أن تسير معه لأخر محطة وصول..

وها هي تواجهه، عيناها جامدتان عنيدتان تلمعان بنصر تدرك أنه لها منذ البدء.. وهو عيناه صاخبتان بنظرات رافضة متكبرة ومتجبرة!

رمت الأوراق بوجهه بينما تتذكر منعها لأمها وخالتها وابنها من التدخل بالموقف حالما تنهيه:

- اتفضل يا عادل بيه.. ورق إثبات عذريتي، وتحليل الـ DNA اللي طلبته بيثبت أبوتك لابني.



رمق الأوراق بيدها في شك.. لايزال يكابر وغروره يطغى على عقله لكن مرحلة صمتها مرت والآن هي بمركز قوة..

هي من ستتحدث وهو من سيستمع بل ويطيع:

- من بكرة هاحدد لك ميعاد مع محامي صديق العيلة.. عملت له توكيل وأنت هتقعد معاه.. هيرفع باسمي دعوى فرز وتجنيب عشان حقي في ميراث والدي.

وعقدت ذراعيها أمام صدرها بثبات تواجه به صمته المصدوم:

- نصيبي اللي هاسيب حق إدارته لصلاح ابني خالتي لأن هو أكتر حد ممكن أستأمنه عليه.

وشمخت برأسها تسحب نفسًا عميقًا:

- وبكرة برده توصلني ورقة طلاقي الرسمية.. وشهادة ميلاد ابنك.

ثم تقدمت منه خطوتين واسعتين تشهر سبابتها في وجهه بقسوة حادة ونظراتها تلتمع بتصميم:

- وإوعى تفتكر إني هاتهاون في حقوقه يا عادل بيه.. أبدًا.

بعدها زمت شفتيها بموازاة رفعة كتفيها الواثقة:

- نفقة ابنك توصلني أول كل شهر.. وأي حاجة يحتاجها ملزومة منك أنت.

وبلا منحه فرصة رد أو اعتراض رغم صمته الذي طال كانت تتحرك مغادرة غرفة المعيشة نحو غرفة جانبية، عادت منها تحمل رضيعها بين يديها بحنو.. وقفت تواجهه وتجبر عينيه على النظر إلى وجه المنمنم وذاك التثاؤب الناعم يخطف عينيه:

- بص كويس وإملا عينيك منه..

رفع ناظريه إليها فأردفت بقسوة حازمة:

- عشان دي آخر مرة هتشوفه فيها.

وكانت هذه هي القشة الأخيرة التي فجرت غضبه وهدمت صمته:

- أنتِ اتجننتِ يا لارا؟

وتقدم هو خطوته هذه المرة:

- ما هو أنتِ اللي غلطانة من الأول.

وأشاح بذراعه جوار زعقة ساخطة استمر بها على ضلاله:

- سكتِ ليه؟.. ليه ما دافعتيش عن نفسك؟

ثم رمقها بنظرة متهمة رغم كل شيء:

- ليه ما حاولتيش تثبتي برائتك من اتهامي ليك وسيبتيني على عمايا!

وعاد صوته يعلو بتبرير يظنه حقه:

- أنا المفروض أعمل إيه قدام سكوتك ده؟

نظرتها الصلبة الممتلئة بالبأس أصابته برهبة أخفاها بإتقان، تأملها تتحرك نحو تلك الغرفة وتعود خالية الوفاض دون صغيره فتعلقت عيناه ببابها من خلفها ولمحت هي ذاك فشعرت بالقوة تغزو عروقها أكثروأكثر..

وقفت تقابله وكانت هذه هي المرافعة الأخيرة في محاكمة أمام قاضٍ ليس بعدل، قاضٍ احتكرلنفسه دور الضحية والجلاد ووكيل النيابة دون أن يمنحها الحق في دفاع!

اعتدلت في وقفتها بثقة:

- ببساطة كده.. أنت المفروض من البداية ما تتهمش يا ابن عمي..

وضغطت أحرف الكلمة تذكره بصلة رحم ودم أولى هو بها منها:

- المفروض تسأل.. تحاول تفهم.. تتكلم بهدوء يمكن كانت المشكلة اتحلت في دقايق..

وتحشرجت نبرتها قسرًا وهي تشعربالضعف والوحدة لكن كرامتها تأبى إظهارالوهن فتماسكت بقوة:

- أنت اللي المفروض تحمي وتبقى ضهري وسندي..

ثم أشارت بسبابتها إليه ثانية:

- لكن كل اللي عملته أنك فكرت بضيق أفق وجهل.

بعدما اهتز كيانه لاتهاماتها الموجعة أنهت حديثها بسباب!.. فتح فمه واحمرت عيناه غضبًا فقاطعته هي قبل أن يبنس بحرف:

- ما تتضايقش قوي اعترف إنها حقيقة..

وظهر انفعالها أقوى ولأول مرة بلهجتها التي ارتعشت قليلًا:

- كل اللي كان في دماغك إني باستغلك..

وعلا نظراتها اتهام أخفت خلفه انكسار قلبها:

- أنت مش فارق معاك تكون راجل أول أو أخير ما أنت اتجوزت مروة وما كنتش الأول..

وطغا على الاتهام بُغضًا يلمحه هو للمرة الأولى:

- بس كان عادي لأنه بمزاجك.

قسا هو ونبرته باتت غليظة فظة كأنما موقفه الضعيف يدفعه للرد بعنف علَّه يتخلص من تلك الزاوية التي انحشر فيها عنوة:

- مروة كانت ست متجوزة..

وضم قبضته أمام عينيها:

- مش في الحرام عشان تفرق معايا.

ناظرته بذهول مصدوم ودمعة ما تنهش أجفانها تطالب بالسقوط وهي تجبرها على الانصياع لتشارك دموع روحها نحيبها الصامت بموازاة زعقتها:

- اخرررس.

وتماسكت تشد قامتها بينما انعقد حاجبيه بغضب سافر:

- اخرس يا ابن عمي وكفاية قوي لحد كده..

ثم أشارت لنفسها باعتداد:

- أنا كنت عذراء.. عذراء في قلبي اللي أنت ملكته مش حد غيرك.. عذراء في أحلامي اللي أنت كنت بطلها.. وعذراء في جسمي اللي أنت أول وآخر واحد لمسته..

اقشعر بدنه لكلماتها ونبرتها يعلوها تقززًا واضحًا:

- بس أنت كنت غبي ما فهمتش حاجة من ده كله..

- احفظي أدبك يا لارا..

وتهور بحماقة كأنما لم يفعل ما يكفِ.. بل كأنه يستطيع التنفيذ بحق:

- أنا ممكن آخد ابني منك في لحظة.. وأسيبك تندبي عليه الباقي من عمرك.

حبست شهقتها المستنكرة خلف نظرة مصدومة محتقرة ورغمًا عنها كسرت نبرتها المهتزة حاجز احتمالها وصلابتها:

- دلوقتِ بقى ابنك!.. دلوقتِ عاوزه؟!

زم شفتيه جوارعقدة جبين غامضة جامدة، ضم قبضتيه دون شعور وهو يدرك جيدًا أنه لن يفعلها مهما حدث.. لن يفعلها وربما لن يراه كما ادعت..

لكن هل سيخسر ابنه بالفعل؟!

لن ينال منه نظرة ثانية بعد تلك الثوان التي مضت قبل قليل!

هذا حصاد زرعك يا عادل فلا تشمئزمن عفونة الجنيّ وأنت غرست ورويت بقساوة.. وأنت لم تهتم بما أينعت عنه بذورك الفاسدة!

فات أوان العودة.. فالثمرة الطيبة ليست لك..

لكن أهي ليست له بشكل نهائيّ أم أن مازال هناك بقية رمق!

انتزعته من شروده بصراخ.. صرخت هذه المرة من أعماق أوجاع نفسها المستكينة للألم بصوت مشروخ مجروح:

- غبي يا عادل.. غبي.. وهتفضل غبي.

وعاد إليه جنون عينيه بينما هي توجهت بعنف نحو باب المنزل مع صدمته وجمود ملامحه:

- ورقتي تكون عندي هي وشهادة ميلاد ابنك بكرة قبل بعده يا عادل..

ثم نظرت إليه بعنفوان:

- وإلا ما تلومش إلا نفسك.

وانتهت القصة ربما..

انتهت بثمرة نصفها فاسد..

ونصفها قد يقيم أودك حتى تستطيع أن تحيا وتستمر!

***

بعضهم يزرع بجهل فيحصد ثمره بلا توقع..

وحصاد جهله كان فراق الحبيبة.. وطفل دون أم مؤتمنة، طفل لا يمارس أبوته بنفسه لأنه لا يشعر أنه يقدر.. بل أيضًا لأنه وعدها بالعلاج حتى يصبح الأب الذي يمكنه الاعتناء بصغيره كما ينبغي..

ناولته إياه بسمة بحنان:

- فيه شبه كبير منك قوي يا نبيل.. ربنا يخليهولك.

رفع عينيه لابن عمه المجاور له بارتباك وهو يحمله بتوتر، عدل صلاح من وضعه فوق كفيه فبدا ضئيلًا للغاية وتفلتت من قلبه نبضة جوار رعشة الأنامل المختفية أسفل الجسد الصغير..



تأمله بدهشة.. بحنان.. بدا أشبه بمعجزة لم يظن في يوم أنها قد تحدث له هو بالذات!

"محمد"

همس بالاسم والتقطت أذنا صلاح همسته فربت على كتفه:

- عارف إنك ما اخترتش اسمه.. بس..

- لا.. حلو. الاسم حلو قوي ولايق عليه.

قاطعه يطمئنه أنه لا يشعر بغضب أو حنق أنه لم يختر اسم ابنه، فابتسم ابن العم ونهض يعيد ربتة الكتف قبل أن يتحرك مبتعدًا:

- هاسيبك معاه.

تابع رحيله بصمت قبل أن تظهر بسمة بزجاجة حليب صغيرة:

- خليها معاك.. لو جاع اديله منها.

أومأ ببطء خجول وهو لا يعلم ماذا يفعل!

تأمل التقاطيع البريئة الناعمة برهبة، ناوشت عينه دمعة لا يعرف مصدرها من مشاعره المختلطة الفوضوية بهاته اللحظة..

أهو الاشتياق!

الندم!

أبوة لأول مرة!

الحنان!

الافتقاد!

أم معرفة أنه بعد دقائق لن تطول سيتركه مجددًا عائدًا لوحدته وطريق علاجه الطويل بعدما وضع قدمه على أول الطريق بل وأخذ الخطوة الأولى والثانية فيه!

فتح طفله عينيه ليكتشف أنهما تماثلان زرقة عينيه هو فابتسم له.. داعب وجنته الناعمة بطرف سبابته فأصدر صوتًا مناغيًا خفق له قلبه وتحركت الدمعة دون رادع لتسيل لمستقرها الأخير بين شفتيه..

رفعه لأنفه يتشمم رائحته الطفولية المميزة.. يتنشق منها بعمق كأنما يحتفظ بها ذكرى لخلو أيامه ولياليه منه.. أعاده لدفء حضنه وهمس بألم:

- آسف.

وتباينت الأسباب بداخله..

يعتذر أنه لم يختر له أمًا يستحقها ملاك مثله..

يعتذر أنه ليس الأب الذي يمكنه العناية به..

يعتذر أنه أخطأ ونتيجة خطأه أن كلًا منهما مفارق الآخر ولو لأجل محدد..

ضم ثمرته أقرب لقلبه وجوار الدمعة الأولى.. استقرت أخرى!

فعند سوء اختيار أرض بذورك، تعاقب بالحرمان من الثمر..

***

عندما تحصد ثمارًا يانعة رغم فساد البذرة تتوقع الأسوأ.. تخاف ويصيبك الهلع أنك لم تدفع الثمن بعد ولم تخسر بما يكفي..

وهي كانت مذعورة بينما تتحرك مع حبيبة في رواق ذاك المشفى الذي زارته من قبل عندما تعرضت شقيقتها لمحاولة خنق عنيفة..

وجدت رجلًا في انتظارهما ببسمة مطمئنة تشق ملامحه الهادئة:

- خير يا أستاذة حبيبة؟

ورمق الرضيع على ذراعيها بتساؤل وازى الجواب:

- دي أمنية.. زي أختي بالظبط يا دكتور حسام، هي ولدت من يومين بس والولد لونه مصفر قوي وخايفين يكون عنده صفرا.

تراجع خطوة وأشار إليهما لتتبعاه باهتمام:

- طيب اتفضلوا نكشف ونشوف.. إن شاء الله خير.

ومرت الدقائق دون حساب ليفاجئها في النهاية بقراررفع نبضات قلبها لحد غير محتمل فزعًا:

- للأسف شككم في محله يا مدام حبيبة.. هنضطرنحجزه في الحضانة هنا يومين ونشوف.

- إيه!!.. تحجزوه!

رفع عينيه إليها فوجد دمعاتها تهطل بصمت وجسدها يرتجف، انعقد حاجباه تأثرًا وهمس محاولًا طمأنتها:

- ما تقلقيش يا مدام أمنية.. إن شاء الله بسيطة.. بس هو محتاج عناية خاصة عشان كده لازم يكون تحت عنينا.

واقتربت منها حبيبة تضم كتفيها:

- اهدي يا موني ما تخافيش..

ثم نظرت لحسام بأمل:

- هي ممكن تكون معاه مش كده؟

ابتسم ولم يبعد عينيه عن الباكية بوهن يمس القلب كأنما تخشى أن تفقد دنياها بأكملها محاولًا طمأنتها:

- لازم هتكون معاه.. هنحتاجها برده.

عادت حبيبة تربت برفق:

- شفتِ!.. أهو مش هيبعد عن عينيكِ.. اجمدي بقى عشان تاخدي بالك منه.

استقام حسام بلهجة تقريرية رسمية:

- طيب هابلغ القسم عشان يحضروا له الحضانة.

ومر جوارها ثم توقف، عاد خطوة واحدة يرمقها بتعاطف بدا له غريبًا وغير مبرر أو مفهوم لطبيب اعتاد التعامل بعملية طبية جافة، كانت تبدو كمن يتعلق بآخر قشة له وذاك أثربه:

- هيبقى بخير بإذن الله.

وهي تعلقت عينيها بنظراته المطمئنة ونبرتها خرجت ملهوفة تتشبث بذيول الأمل:

- بجد!

ابتسم فظهرت تجعيدات خفيفة جوار عينيه مع اتساع بسمته وهزة رأسه الموافقة:

- بجد.



بعد وقت قصير كانت هي تتبع صغيرها لتطمئن عليه وهو يقف مع حبيبة بالممر:

- عاملة إيه يا مدام حبيبة!.. وسما عاملة معاكِ إيه؟

أبعدت عينيها عنه تتشاغل بالنظر للشقوق بين بلاطات الأرضية:

- الحمد لله.. سما متفوقة ماشاء الله.

لاحظ تهربها فابتسم:

- تعرفي إن وشك حلو عليَّ؟!

نجح في جذب انتباهها وهي تعود إليه بنظرة مندهشة:

- أنا!!.. إزاي؟

- فاكرة يوم ما جيت معاكِ أزور مامتك هنا في المستشفى وقابلت دكتور عبد الرحمن!

هزت رأسها بإيجاب:

- أيوة فاكرة.

وضع يده بجيب معطفه الطبي واتسعت بسمته:



- أهو يا ستي في اليوم ده اتفقنا على شراكة بسيطة كده.. هو كان محتاج دكتور مشرف على قسم الأطفال والحضانات.. وأنا كنت وقتها بافكر أفتح مستشفى خاص باسمي وكان في شوية عقبات كده قدام المشروع.

واستند بظهره للجدار مشيرًا للمكان:

- وبس.. اتحلت المشكلة بفكرة الشراكة واتفقنا فعلًا.

شعرت أنه لايزال يحاول الوصول إليها رغم رفضها السابق.. هي جروحها لم تندمل تمامًا بعد، وحتى بعد كمال الشفاء ستظل هناك ندوبًا بروحها التي قاست الكثير..

ابتسمت بتهنئة خافتة وتهربت تلحق بأمنية وهو يتابعها بدهشة..

فهو.. لم يقصد شيئًا!

خرجت لاستقبال المشفى لتجد أمنية واقفة بحيرة كأنما فقدت اتجاه عودتها إليها.. اتجهت نحوها وبعد خطوات جذب ناظريها جلبة مفاجئة حدثت بالمكان والفراش المتحرك يدفعه مسعفين للداخل بسرعة، كلمات حادة وتنبيهات..

ودماء غزيرة تغرق ذاك الجسد المسجى فوقه..

الجسد الذي مر جوار أمنية لتلمح وجهه في لحظة كانت قاصمة..

لحظة أدركت أن ذاك هو زوجها السابق ووالد طفلها المريض..

ظهر عبد الرحمن باهتمام وهو يلقي بأوامره للجميع بالاتجاه للطوارئ، يصرخ في ممرضة باستدعاء طبيب ما.. يصيح في أخرى بتجهيز غرفة العمليات..

وتردد رد المسعف على سؤاله عن هوية الشخص:

- دكتور صيدلي.. واحد مدمن ضربه بمطواة، كان عاوز أقراص مخدرة..

والجواب خرج من عبد الرحمن بهزة رأس يائسة:

- حادثة مكررة للأسف..

وارتفع صوت آخر من بعيد يعلن النهاية.. فالضحية وصل جثة بالفعل!

وبين تيهها وقهرها.. ضعفها واحتياجها.. ومعهم خوفها شعرت بالضياع أكثر وخرجت همستها باسمه غير مفهومة:

"أسامة!!"

ثم صرخت فجأة بهيستيريا قبل أن تسقط فاقدة للوعي وحبيبة تركض نحوها بصدمة..

نقلوها لإحدى غرف المشفى بصحبة حبيبة وعبد الرحمن الذي انتبه لوجودهما.. غرس بذراعها محقنًا مهدئًا ولاحظ توتر الواقفة جوارها فتحدث بهدوء:

- ما تقلقيش يا مدام حبيبة.. هتبقى كويسة إن شاء الله.

وترددت لحظة وهي تومئ برأسها وتقترب من الراقدة بفراش المرض، حيرة تلبستها.. هل تتصل بشقيقها!.. هل تنتظر حتى تفيق!.. ماذا تفعل!

عندها استقر قرارها في النهاية على أن تبقى هي..

كانت تتأملها وأناملها تجوب جبين أمنية بمحرمة ورقية تجفف بها عرقًا اعتلى جبينها.. بينما تأمل عبد الرحمن هيئتها المرتبكة وحنو لمساتها وابتسم!..

هذه هي المرة الثانية التي يرى فيها كيف تحنو على من حولها لدرجة تثير العواطف فعليًا.. طرقة على الباب المفتوح تبعها صوت حسام المندهش القلق جذبا انتباهه:

- خير يا عبد الرحمن حصل إيه!

استغرب عبد الرحمن وجوده ثم انتبه أنه لم يعرف سبب وجود المرأتين من الأساس فسأل حبيبة باهتمام:

- هو الراجل اللي جه في الحادثة تعرفوه!

أومأت برأسها في ارتباك.. لا تدري أمن حقها الجواب الكامل أم لا!

بعدها همست بخفوت:

- طليق أمنية ووالد آدم.

ختمت ردها وهي ترفع عينيها نحو حسام الذي تضاعفت دهشته وهو يرمق الساكنة بفراشها وملامحها يبدو عليها ألمًا غريبًا رغم غيابها عن الوعي!

هي مطلقة!

وأم لرضيع!

بهذه السن!

وعاد من شروده على كلمات عبد الرحمن:

- الله يرحمه.. الموقف كان صادم.. بس أنتوا هنا ليه؟.. خير؟

الآن صارت أرملة وابنها يتيمًا!

هز رأسه ساحبًا نفسه من أفكاره.. فهي مطلقته وليست زوجته لتصبح أرملته، أشارت حبيبة لأمنية:

- آدم ابن أمنية اتحجز في الحضانة النهاردة.

نظر لحسام الواقف بصمت وعينيه حائرتين في تلك الفاقدة لكل وعي بما حولها.. عقد حاجبيه واتجه نحوه ليجذبه خارجًا:

- طيب هاطمن عليه من حسام.. ربنا يقومها بالسلامة وإن شاء الله الولد هيبقى كويس.

وخرج يتبعه صديقه..

أما هي فتأملت الفتاة بألم..

تدرك أن لكل حصاد لابد من هدر، وكل زرع قد يصيبه مرض، تليه خسارة!

***

أحيانًا بعد أول حصاد رغم ما جنيته من ثمر، تفتش عن غرس غيره طمعًا في مزيد.. وأحيانًا يلقي القدر في طريقك بالبذرة التي تطمح إليها دون عناء منك..

وهو كان بذرتها الجديدة..

تحتاج فقط لشيء من العناية والإرواء بعدها ستجني ما تشتهيه نفسها..

لاحظت نظراته المعجبة وتظاهرت باللامبالاة.. جاورته في المصعد فتنحنح ببسمة زادت ملامحه الخشنة وسامة خاصة مع زيه الرسمي الذي جذب ناظريها..

وعندما سبقته خطواتها خارجه كان عيناه تتابعانها بينما يقرر أنه ربما حان وقت استقراره بزواج وأسرة كما كانت أمه تصرعليه..

يومها عندما عاد ليلًا سأل والدته عنها فأتاه منها الرد الصادم:

- لا يا حبيبي.. ربنا يسترعلى ولايانا.

انعقد حاجباه ظنًا منه أن الفتاة لا تعجبها وتريد إبعاده عنها فحسب.. رمقها بنظرة ماكرة:

- ليه بس يا ست يا كل؟!.. اسألي بس وقربي منها.. مش نفسك تشوفي أحفادك؟

شهقت المرأة بضيق متحسر:

- أحفاد من دي؟..

ثم لاحظت نظرته الخبيثة واللائمة بذات الوقت ففهمت ما يجول بأفكاره:

- لا بلاش تعمل فيها ظابط عليَّ..

- يا ماما..

وكانت نبرته مستمتعة بمشاكستها:

- خلاص.. هاشوف.

ونهضت تغادره وبنيتها أن تبحث عن دليل تثبت به له..

عهرها!

وانتظرت تراقب وترصد وترسم الخطة بصبر..

وأخيرًا..

قدمت لها جارتها الحسناء ما تحتاجه على طبق من ذهب وهي تراقبها تستقبل ذاك الشاب من خلف بابها كما سبق ورأته مرارًا..

حينها قررت أن تنهي الأمر بينما ترفع هاتفها نحو أذنها تتصل بابنها ليحضر ويرى بنفسه ولا مانع من إضافة بعض الحرارة للمشهد لتتخلص منها ومن مخاوفها أن تسيء لسمعة المبنى بفسوقها!

وعلى الجانب الآخر كانت الغافلة تستقبل الزوج الجديد بسخرية:

- بجد يا بيبو أنت مش معقول.. دلوقتِ بقيت باشوفك أكتر من أيام قبل جوازك.

ابتسم ساخرًا وهو يجذبها إليه، يتخلص من الحواجز بينهما بسرعة وعنف كعادته..

فمعها هو الأقوى..

معها يثبت سيطرة..

وبلذة خضوعها هو منتشٍ!



نشوة لم يفِق منها إلا وفوق رأسيهما رجلًا يرتدي زيًا رسميًا يرمق عري الجسدين بفراش الفجور وبعينيه غِلٌ واضح..

وحوله آخرون يتمتعون بمشهد الفضيحة.. الكاملة!

وأذنيه تلتقطان شهقتها وصراخها المذعور وتوسلاتها بــ.. الستر!

لكن ماذا تظن نفسك حاصدًا عندما تزرع بذورك في رحم الخطيئة!

***

عندما تظن أنك تجيد الزرع والحرث.. تغرس بذورك بثقة وترويها ظنًا منك أنك تبذل ما بجهدك من قدرة، تمنح لحدك الأقصى.. تعتني وتعتقد أنك لن تقدم ما هو أفضل؛ ثم بالنهاية تنكشف الكارثة..

أنت لم تختر تربتك الصالحة.. لم تروِ غرسك بعذب المياه.. لم تمنحه الضوء والدفء الذي يحتاجه!

لذا فأنت تحصد ثمرًا مشوهًا مخضبًا بدماء خطأك أنت!

وعندما تقرر موازنة كفة الأمور ومحاولة الإصلاح ما استطعت.. تعلم أنك ستفقد الكثير، وربما تصل للمنتهى..

"حكمت المحكمة حضوريًا على المتهم سلامة عيد عبد الهادي سند بالسجن ثلاث سنوات مع النفاذ!"

بذرت ورويت وأنبت.. راعيت وأصلحت ما أفسدت أو فسد بجهل منك..

لكن الراحة تتخلل أوصالك رغم غلو الثمن.. رغم حزن العيون الناظرة إليك.. بهالة الفخر التي تحيط بك..

الآن حان وقت الحرث الحقيقي..

الآن علمت أنك أديت ما عليك..

الفصل الخامس والثلاثون

عندما تجيد اللعبة.. حتى وإن تخطيت بعض القواعد؛ يمكنك انتزاع غنائمك من بين أنياب الهزيمة..

وحينما تتقن اقتناص الفرص من بين مخالب الصُّدف؛ تنتصر بحرب بدت بشائر معاركها موحية بالفشل..

ووقتما تجد أنك ودون جهد منك رابح؛ تتشبث بأذيال الظفر وتعلنه على الملأ!

تأمل الوثيقة بيده.. وثيقة زواجه الرسمية والتي هي أقرب لصك انتصار مُوَّقع من قبل خصم مهزوم.. صك انتقل به من حضيض الخسارة لأولى درجات الفوز!

وثيقة أجاد اللعب بها على أوتار الخوف والاحتياج والضياع لامرأة.. لينالها وما هو أكثر!

وثيقة أشبه بمنحة خرج بها من محنة أثارت بنفسه الفزع ليجد أنه بجميع الأحوال ورغم أنف الموقف والظروف؛ فائز..



غادر البناية التي يقع فيها مكتب المأذون الشرعي الذي عقد قرانه على رانيا لديه قبل أسبوعين وبجيبه ورقة ضمان تعيده لمكانته التي يفضلها، بل تعيد ليديه دفة السيطرة على كل الأمور..

على الزوجة الأولى..

والثانية..

على شقتها التي بيعت بعد ما حدث بأيام نظرًا لدويّ الفضيحة المخزي، حساب البنك الذي قارب الرقم به الستة أصفار..

وذاك كله بات.. ملك يمينه، بضربة حظ..

أو للدقة.. قانون يأخذ صفه ولو جحودًا لا يمسه إنصاف!

فبعدما تم إلقاء القبض عليهما بتهمة ممارسة الفاحشة وبوضع تلبس، ومع عيني الضابط التي فهم نظراتها من أول لقاء بعينيه؛ أيقن أنه انتهى..

مستقبله، عمله.. العار، وحتى الزوجة التي ستطيح به لخيانته!

شعر بالهلع، وهي كانت تبكي وتصرخ، تلطم خديها وتنعي حظها وتولول بصوت أجج غضبه فود لو أخرسها وقطع آخر أنفاسها بيديه، ثم تفرقا كل في محبسه ولم يرها إلا في اليوم التالي بعد ترحليهما إلى النيابة، خرجا



بفضيحة من المبنى.. هي عارية إلا من شرشف يستر جسدها، وهو سمحوا له بستر عورته لا أكثر!

ومع وصولهما لقسم الشرطة، أدرك الموقف برمته.. فالمحضر مُعد مسبقًا وكما يقولون مُفصل ليناسب مقاس غانيته دون زيادة أو نقصان.. بل مُهيأ لينال منها وأقل ما يمكن أن تخرج به منه هو السجن لمدة لا تقل عن ستة أشهر وربما تصل لعامين!..

في حجزه المؤقت تقرب هو من الجندي المسئول عنه، وبعد وعد بمكافأة مجزية ناوله هاتفًا محمولًا ليقوم باتصال هام..

هاتف صديقه الذي أقام بمسكنه عندما أفلتت أعصابه مع سمية شقيقته وهرب تاركًا إياها بين الحياة والموت، ذلك الصديق الذي سقط في موقف مشابه من قبل وإن كان بشقة تدار لأغراض الدعارة المدفوعة.. ومع نهاية المكالمة كانت عيناه تبرقان بظفر، فمحاميه الخبير على وشك الوصول..

وهو..

سيخرج منها كما الشعرة من العجين بل وأيسر..



عندما وصل الرجل للقسم وطالب بلقائه جلس معه يحاوره في التفاصيل بعد إطلاعه على المحضر، في اليوم التالي بممر النيابة نظراته لم تفارق الباكية الساكنة بوجوم مستحٍ على الجانب الآخر من الممر..

أتراها تشعر بالخزي الآن وهي شبه عارية أمام الأعين الناظرة بمتعة!.. والأخرى الشامتة بتقزز!

لقد أخبره المحامي أن أقصى ما يمكن أن يحدث هو خروجه بضمان محل إقامته وفي الحال.. سوف يعتبر شاهد عيان تؤخذ شهادته وبعدها يعود لمنزله آمنًا مطمئنًا..

فالجانية.. والمتهمة.. والمخطئة المذنبة هي، وبالقانون!

حينها صمت مفكرًا وفي الصباح كانت خطته مرسومة وبدقة..

خطة أخبرها محاميه ببضع كلمات مختصرة جوار رغبة هي الخطوة الأولى منها، تلاها مكافأة مجزية لذاك الجندي الموكل بهما ليتصرف، بعدها بدقائق كان يجاور مكان وقوفها، يواجهها بنفسه حتى وإن خفت صوته حد الهمس.. فالصفقة لا تحتمل أذنًا ثالثة:

- ممكن أخرجك منها يا رانيا في غمضة عين.

تعلقت عيناها به في توسل واستجداء لكن الجفون ظلت تكسر النظرة بقهر:

- بجد يا إيهاب؟!

وافق بهزة رأس وذاك البريق بمقلتيه يخيفها وهسيس صوته يصلها واثقًا:

- بجد، شوفي.. أنا كده كده خارج منها..

- خارج منها!!

وتلك كانت مقاطعتها المذهولة المستنكرة.. أشار لها لتخفض صوتها وتحول بالإشارة للمحامي:

- أيوة.. هابقى شاهد عيان وبس، وده مش كلامي على فكرة، ده كلام المتر.

ثم ارتكن بكتفه لجدار مجاور:

- من الآخر الليلة لابساكِ.. الظابط إياه مفصل المحضر على مقاسك، واضح إنه كان عامل تحرياته صح قوي وكمِّل بالتحابيش اللازمة، بس أنا.. القانون في صفي.

بعدها غمزها مراقبًا ذعر ملامحها بنشوة، وانقلبت لهجته لفحيح شبه مسموع وإن كان بأذنيها كدويّ مدفع:

- تخيلي لو قلت لهم مثلا إنك بتقبضي مني عشان...

قاطعته شهقتها هذه المرة وكفها الذي ارتفع يغطي شفتيها المرتعشتين يلتمس صمتًا بينما جهلها يزيد من هلعها، أما دموعها التي لم تتوقف تأملها هو بجفاء لثوان كأنما يتلذذ بخوفها..

بل يغرقها فيه متمتعًا فحينها خضوعها أسهل!

- أنتَ قلت لي هتخرجني منها!!

كان هذا آخر حبل تتعلق به، فمنحها طرفه بتنهيدة طويلة ورد بخفوت:

- أيوة.. وبسهولة قوي.

- إزاي؟

- عقد عرفي.

ألقى بطوق النجاة بهمس بطيء، أنهى كلمتيه بنقطة لا تحتمل استطرادة رفض، وترك الشروط لما بعد الموافقة وهي تناظره بيأس..

هو لم يكن حلمها!

ليس ذاك هو المستقبل الذي تمنته لتحيا كما ينبغي أن تفعل!

هو كان محض متعة مؤقتة.. وخضوع تستلذ به له أحيانًا!

لكنها ورقة.. ورقة ستنقذها من الغرق، بعدها تمزقها وتعود حرة، لهذا أعلنتها دون تردد:

- موافقة.

أخفى لمعة الانتصاروزم شفتيه يحبس بسمة مشابهة:

- مش بسرعة كده.. ما هو مش ببلاش!

- قصدك إيه؟

مد إبهامه يحك به ذقنه بتفكير متعمد كأنما يطهوها على نار هادئة لتصل لنضج يناسب خطته:

- عقد شقتك باسمي بيع وشرا.. والإمضاء قبل ما تحطيها على ورقة الجواز العرفي اللي هتكون بتاريخ قديم؛ تتحط عليه..

تجهم وجهها وتراجعت بصدمة بينما مال هو نحوها برأسه مردفًا:

- حساب البنك يتحول لحسابي، ولما نخرج من النيابة أوعدك..

وضم قبضته فوق قلبه موحيًا بصدقه المزعوم:

- هنروح على أقرب مكتب مأذون نحوله رسمي.

توسعت عيناها بمواجهة آخر صدمة:

- رسمي؟!

- ششششش.

ألزمها الصمت، ثم رفع حاجبيه متظاهرًا بدهشة، ومكملًا رسم الخطة بما يواكب أهدافه:

- طبعا رسمي.. أنت فاكرة الظابط ده هيسيبك في حالك؟.. هيفضل وراك لحد ما يلبسك مصيبة، إنما لما تبقي مراتي وفي حمايتي مش هيقدر يقرب منك.

تلك الرجفة التي مرت بجسدها رآها عيناه بوضوح، لقد أتقن اللعبة، وضع قواعدها الجديدة بنفسه، وهو المنتصر وعليه فخضوعها لتلك القواعد فرض عين!

لكنه تفاجأ بتراجعها خطوة مبتعدة ورأسها يرفض باستنكار جاوره إنكار صدق كلماته:

- أنت اتجننت يا إيهاب!.. أديك الشقة والفلوس وأنا هاروح فين!

ابتسم فبدت بسمته ذئبية مخيفة:

- عيب يا روني.. أنتِ هتبقي مراتي، يعني مسئولة مني.

لكنها لم تصدق بل أبت بكيان مهزوز واجف، تتشبث ببقايا أمل أن تخرج هي الأخرى منها مثله!:

- لأ.. مش هينفع.

كان يعلم أنه لن يخسر تلك اللعبة، نظر لمحاميه الواقف على بعد خطوات، أشار إليه بعينه فتحرك الرجل خارجًا من المكان وهو يرمق ساعته باهتمام كأنما يحسب الوقت المتبقي لعرض موكله على النيابة، وابتعد إيهاب عائدًا لبقعة انتظاره السابقة وهو يبتسم للجندي الذي كان يضع بجيبه بضع وريقات نقدية ببسمة منتشية.. لكن قبل أول خطوة أخبرها بإقرار وبطء نبرته يوزاي خفوتها:

- اللي تشوفيه يا روني.. أنا قلت لك اللي فيها، بشهادتي تخرجي منها..

وزوى ما بين حاجبيه مستمتعًا بالفزع الذي يرسم ملامحها:

- وممكن كمان تلبسيها..

خرجت منها شهقة ثانية وهي تناظره بلا تصديق.. هل سيكذب!:

- المحامي راح القسم قبل ما يجي وشاف المحضر، وزي ما عرفتِ.. مطبوخ على مقاسك بالمللي وأنا خارج منها.. فوافقتِ أولاً، أنا مش خسران حاجة.

ثم التفت مبتعدًا وصوت أحدهم يدوي مناديًا باسمه للتحقيق معه.. وكان النداء هو شعرة تماسكها الأخيرة التي انقطعت فلاحقته بهتاف واهن:

- استنى!!

توقف دون أن يستدير وابتسم، لقد أدرك الفوز.. وانتهى..

وقبل أن يدخل لغرفة وكيل النيابة تأكد أنها وقفت توقع بأحد الأركان المنزوية على عقد مؤقت حضَّره محاميه ببيع شقتها له على أن يتم تسجيله عقب خروجها جواروقة زواج عرفي بتاريخ قديم يتم تحويله لرسمي على يد مأذون بعد أن تنتهي مصيبتها بسلام..

بعد خروجه علمت أنه كان على حق وهي دفعت ثمن نجاتها باهظًا..

فكانت تسبُّه وتسبُّ كل ما حولها بينما تراه بصحبة محاميه وأحد الجنود والصوت الجهوري يعلنها سافرة:

"إخلاء سبيل"

تنهد بظفروهو يتوقف بسيارته أسفل منزله مع زوجته ربة الصون والعفاف.. ها هي أولى خطوات النصرفي حربه معها..

فمن أفضل من أنثى، لتذل وتقهر أخرى!

أخرى كاذبة مخادعة، عاهرة.. تظنه سيبتلع فجورها ولعبتها ويمررها ببساطة!

هي فقط لم تكن تدرِمع من تلعب!.. بل وتلعب وفق قواعد لا يبالي هو بها البتة، لقد حان وقت إعلان الهزيمة على الطرف الأضعف.. والانتشاء بفوزه بغيرها..

غيرها التي تحيي به زهو السيطرة..

عنفوان التملك والاستحواذ..

تسلطه الذكوري الفطري الذي يضعه برتبة أعلى تلقائيًا تبعًا لتصنيف جيناته منذ بدء الخليقة..

وشهية فاتنة ترضي رغباته.. أكثر منها!

ثم أضف لتلك الخلطة الجهنمية خطة جديدة تلوح بالأفق ومنكهًا فريدًا لإحكام الهيمنة التامة وإلقاء طرفي لجامها بين يديه وحده!

***

كلٌ يلعب لعبته الخاصة، يسن قوانينها، يتحكم بها.. ويظن أنه الفائز في النهاية لأنه فقط أجاد اللعب في البداية ودحض الخصم!

لكن من قال أن النهايات تحددها بدايات مُخطط لها بدقة!

هنا.. تصاريف القدر لها رأي آخر!

كانت تمسك بهاتفها وتسترخي فوق فراشها براحة، تلف خصلة من شعرها حول سبابتها وتبتسم وهي تنصت لكلماته التي اعتادت منها الغزل سابقًا:

- أوك يا باهر.. اتفقنا كده!

وصلها صوته الرخيم عقب نفس عميق فهمت الغرض منه ببساطة:

- أكيد اتفقنا يا نوشا.. المشروع الجديد مكتب جوزك هيمسكه بالكامل.

كانت تتم جزءً يخصها من صفقتها مع زوجها، فالقصة كلها عرض وطلب.. هو قدم الستروهي منحت الواجهة الاجتماعية المناسبة والعمل الذي يدر عائدًا مجزيًا لم يكن ليحلم به:

- إنما جوزك ده سبور قوي يا نوشا..

عادت من شرودها إليه بتساؤل:

- ليه بتقول كده؟

ضحك بخفوت:

- هو عارف أنا مين!

أغمضت عينيها وهي تستعيد ذكرياتها معه، تبتسم وتغزو عينيها نظرة شبه مهزومة:

- أكيد لأ طبعا.. هو عارف إنك جوز صاحبتي وبس.

- آآآآه قلتِ لي.

لكنها لم تنتبه لرده، بل تذكرت لقاءها الأول به عقب عودة صديقتها أمل من شهرعسلها مع الوسيم الغني والذي يكبرها بخمسة عشر عامًا لكن الثروة كانت كافية لتوافق على الزواج منه خاصة مع وسامته ورجولته

المهرة، ثم أتت هي بحماقة ووقعت بغرامه عندما صافحها وضم يدها اللينة بضغطة من كفه أرجفت جسدها بموازاة نظرة متفحصة.. معجبة لم تفُتها!

بل ضغطت زناد أنوثتها وأشعلت فتيل مشاعرها الفتية..

بعدها توالت اللقاءات السرية، انتشت بإعجابه وتفاخرت باهتمامه.. حتى أخبرها أنه يريدها.. أنه سيتزوجها على زوجته.. صديقتها!

حينها وهبته نفسها كما أراد، وتنصل هو من الأمر إثر التملك بأناقة كما هو معتاد أيضًا عائدًا لزوجته الصغيرة!

انهيارها وخوفها وتهديدها لم يكونوا بالقوة الكافية ليعود إليها، وعندما هددها بفضيحة استسلمت، بل رفضت الزواج وأصرت على الرفض حتى ظهر عبد الرحمن.. الرجل الكامل بنظر والديها فلم تجد خطأً تبرر به الممانعة، وافقت على خطبة مؤقتة كانت توقن أنها خلالها ستوقعه بحبائلها لتضمن سكوته، لكن معادلتها باتت خاطئة ونتيجتها غير صحيحة عندما.. فسخ الخطبة!

ثم ظهر زوجها.. ومن النظرة الأولى أيقنت أنه هو الخيار الصحيح وصدق اليقين تلك المرة..

- نوشا.. وحشتيني.

جذبها صوته بتلك النبرة الثقيلة التي خَبَرتها من قبل معه، فالتوى فمها بسخرية وهو يردف:

- ما تيجي نتقابل.

تحول الالتواء الساخر لضحكة ماجنة:

- عيب عليك يا باهر.. أنا دلوقتِ ست متجوزة.

- طب ما أنا راجل متجوز.

وبمغزى خاص أكمل:

- وكنت متجوز برده قبل كده لما...

ثم صمت وترك لها التتمة المعروفة لكليهما، وهي فهمت وقطعت محاولته بحزم لم يخلُ من دلال:

- بس أنا وقتها ما كنتش.. خلاص كانت حكاية وخلصت.

- بقى كده يا نوشا؟!

تنهدت وهي تسمع صوت خطوات زوجها خارج الغرفة:

- ده اللي المفروض يحصل.



نطقتها بنبرة خافتة ارتفعت بعدها وهي تنظر لإيهاب الذي دلف للمكان وعقد ذراعيه أمام صدره يناظرها بصمت.. أشارت إليه موضحة فضيق عينيه مستفهمًا:

- أوك يا باهر بيه.. زي ما اتفقنا، بلغ سلامي لمولي.

وأنهت المكالمة بعد ثوان أخرى لتخبر زوجها:

- خلاص.. الاتفاق مع باهر الورداني تم.. مشروعه بالكامل مكتبك هيمسكه.

هز رأسه ومط شفتيه:

- تمام.

نهضت تواجهه وهي ترى غموض ملامحه المقلق:

- مالك؟

وجدته يخرج ورقة مطوية من جيبه، يفردها ويتأملها لثانية قبل أن يضعها قبالة عينيها بتبجح:

- مش تباركي لي؟!

مرت بنظراتها فوقها سريعًا وهي تلمح صورته، صورة صديقتها اللدود القديمة.. وعقد زواج رسمي صحيح!

لحظة سكون مبهمة مرت وهي لا تبعد ناظريها عن الوثيقة المفرودة بين أنامله أمامها..

لحظة صمت بدت قاتلة ومخيفة..

لحظة انتهت بصراخها المهتاج:

- أنت اتجننت يا إيهاب؟.. تتجوز عليا أنا؟

سحب الورقة وطواها في ثوان لينقض على خصلاتها فيلفها حول قبضته منتشيًا بأنينها المبهوت:

- حسك عينك صوتك يعلا عليا تاني يا نشوى.. أنتِ فاهمة؟

وجذبها يدمدم بوجهها بصفاقة:

- أيوة اتجوزت.. أنا حر أعمل اللي أنا عاوزه.. لو عندك اعتراض اشربي من البحر.

حاولت تخليص نفسها من قسوة يده المسيطرة بجنون:

- لا مش أنا اللي هاشرب من البحر يا إيهاب.. أنت نسيت نفسك ونسيت أنا مين؟

وتكررت المحاولة وهو على برود نظراته صامد:



- الشغل اللي جبتهولك في لحظة ممكن أطيره من إيدك.. وابقى وريني هتشغل المكتب اللي معمول بفلوسي إزاي؟

قبضته ازدادت غلظة فتأوهت بعنف:

- أنا فاكر كويس أنتِ مين يا نشوى.. أنتِ واحدة عاهرة اتجوزتها ولقيتها ليلة فرحنا بتبجح في وشي وتقولي أنت مش أول واحد ويمكن كان قبلك عشرة.. رخيصة يعني من الآخر، أنتِ اللي المفروض ما تنسيش نفسك لأني ممكن أفضحك في غمضة عين.

ورغم ألمها ضحكت بسفور:

- أيوة كان قبلك عشرة وعشرين كمان.. ما كنتش بنت وكانت صفقة، أنا بعت وأنت اشتريت.. أعلى ما في خيلك اركبه، خلاص وقت الفضيحة فات ومش هتقدر تثبت حاجة.

برقت عيناه لثوان قبل أن يحررها بغتة ويبتعد خطوة، يخرج هاتفه من جيب قميصه ويعبث به لحظة قبل أن يواجهها به:

- تؤ تؤ تؤ.. غلطانة يا حبيبتي.. أقدر أثبت ونص.

ولمس شاشته ليخرج صوتها المتبجح بفجورها قبل ثوان من سماعته فتتسع عيناها في ذعر:

- ها.. المشهد ده اتسجل، تحبي نذيع!!

ارتجفت واهتزت وقفتها وهي تتراجع بصمت، تراقبه بعينين مشدوهتين وهو يبتسم بنشوة.. بل بنصر كاسح ويميل برأسه مقررًا ومسنًا لقوانين اللعبة الجديدة:

- أيوة.. خليكي حلوة كده، جوازي من رانيا ما يخصكيش، إحنا زي ما إحنا..

واقترب خطوة متممًا بتسلط:

- هاستر عليك مقابل البيزنس..

ثم رمقها بنظرة جذلة خالطها رغبة في إثبات السيطرة أكثر قبل أن يهز كتفيه ويرفع أحد حاجبيه:

- والمتعة.

ودفعها فوق الفراش خلفها ليتمم بنود عقده الجديد ويجبرها على الخضوع لقواعده هو!

***

"إيه!!.. اتجوزتها؟"



عندما تقحمك الحياة فوق رقعة لعب دون أن تدرك أنك أحد بيادقها منذ البداية، دون أن تعلم أنك تسيروفق هواها، ودون أن تجيد قواعد اللعب الملتوي!

تتفاجأ بأن الخيوط تتفلت من بين أصابعك واحدًا تلوالآخر، تحكم السيطرة على واحد فتفقد قبالته عشرًا!

الحياة لعبة صعبة لا يجيدها إلا فنانو الخُدع ومحترفوها..

لا يجيدها إلا من يرسم خطواته قبل خطوها، ويتملك زمام الخطوات غير المحسوبة بصلابة..

لذلك عندما باغته ابن خالته بالخبروهو لم يفِق بعد من تبعات الحكم على والده شعربصدمة قوية تضرب عقله، فإيهاب تزوج من رانيا دون علم الجميع وأتى فقط ليخبرهم بعد انتهاء الأمر!

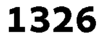
- أيوة اتجوزتها.. عندك مشكلة؟

رمقه حمزة بنظرة غاضبة وتماسك بصعوبة:

- ليه يا إيهاب؟

هزكتفيه باستخفاف ورده أتاه باهتًا غيرمقنع ومقتضب:

- بحبها.



- ومراتك!

- بحبها برده.

انعقد حاجبا حمزة بحيرة!

فزوجته الأولى التي يدعي حبها هي شقيقة زوج أخته، وابنة شريك والده وصديق عمره، بل ولم يمر على زواجهما سوى شهر أو أقل!

والثانية.. هي ابنة عمه الوحيدة، ابنة عمه التي لا ذنب لها سوى إثم أخيها غير المغفور!

- بعدين ما أنتوا سايبينها عايشة لوحدها يا حمزة، من غير راجل يحميها من أي حد يتعرض لها.

عاد من تيه بنظرة حانقة عاجزًا عن رد يوضح به وجع موقفه:

- كمان أنت يخصك فيها إيه أصلًا؟

شعر بهياج فزعق به:

- بنت عمي يا إيهاب.. عاوز تتجوزها كنت تكلمني تطلبها مني، وأنا أجوزها لك.

ضجت مسامعه بقهقهة ساخرة زادت من سخطه:

- أنت مصدق نفسك يا ابن خالتي؟

- إيهااااب!

زعقة أعلى ولامبالاة من المتبجح بسخريته واستخفافه:

- الله!.. هو الحق بيزعل؟.. مش دي اللي رميتوها برا البيت وسيبتوها لكلاب الشوارع ينهشوها عشان أخوها...

وحدج ملامح حمزة المكبوتة بنظرة مطولة مكملًا بنبرة هازئة:

- عشان أخوها سرقكم!

ما إن انتهت آخر أحرفه حتى تفاجأ باندفاع حمزة نحوه وقبضته المضمومة توشك على معانقة وجهه، تراجع خطوة دفاعية وهو يدرك أنه وصل في استفزازه للحد الأقصى لكنه لا يهتم حقًا!

قبل أن يلمسه توقف حمزة، توقف يراقب يده المضمومة بقسوة، يزم شفتيه حاجبًا سبابًا حانقًا وصرير أسنانه يظهره ضغط فكيه بوضوح..

تماسك بصلابة وعاد خطوتين مبتعدًا عن إيهاب الذي رمقه بحذر متوتر، بعدها تعالى صوته مناديًا أمه وابنة خالته ثم هاتف زوجته.. وفي وجوههم الواجمة ألقى قنبلته، شهقة سمية جذبت عينيه نحوها وهي تنظر لأخيها بلوم حاد تجاهله، وأمنية نظرتها تحولت لانكسار خالطه شوق وافتقاد فلا يزال هو نصفها، توأمها الذي لا اكتمال دونه!

أما أمه فلفتهم كلهم بعينيها في سكون بلا رد أو حتى لمحة مشاعر فوق وجهها قبل أن تستدير عائدة لمعتكفها بغرفتها التي تلازمها عقب الحكم على زوجها وسجنه!

تابع حمزة رحيلها الواجم ثم توجه نحو زوجته ليجذب يدها عائدًا لشقتهما بصمت، تطلعت أمنية لتوأمها بحزن رمش له بعينيه لحظة التفت بعدها مغادرًا دون حديث ليتهدل كتفاها في يأس، فهو لم يسامح زلتها بعد، بل إنه حتى لم يهتم برؤية طفلها.. وهي تخشى عليه من تلك الأفعى!

لم يحرر حمزة كف سمية إلا عندما أغلق الباب من خلفهما، توجه نحو أريكة غرفة المعيشة وألقى بجسده فوقها بإنهاك.. أراح رأسه لظهرها وأغمض عينيه وسكن دون حديث..

وعنها هي فقد كانت تشعر بمزيج غريب من الغضب والحزن والخوف!

غاضبة من شقيقها الأصغر الذي يصر على خسارة نفسه في كل خطوة يخطوها..

وحزينة لأجل تلك الخسارة المتوقعة..

وخائفة عليه!



من شيطانه الذي يزين له الخطايا رغم عظمها، خائفة لا ترى نهاية الطريق المظلم الذي يسلكه متحديًا الجميع، بل رافضًا اهتمام أحدهم به، حتى توأمته الواهنة دونه!

ودت لو استطاعت الحديث معه، ربما تحاول الفهم!.. التفهم!..

رباه!

لقد تزوجها بعد ما كان بينهما!

كيف ائتمنها على عرضه وهي من خانت نفسها وأهلها معه هو من قبل!

كيف عاد إليها وهي من ظنت أنه أخيرًا وجد مبتغاه مع شقيقة عمرو وعمله الجديد ونجاحه المنتظر فيه!

تنهدت بتعب بينما تقرر أنها ستهاتفه لاحقًا وربما حتى تذهب إليه، الزواج تم بالفعل وتلك خطوة لا رجعة فيها، فقط حين تواتيها الفرصة.. انتبهت من شرودها على السكون من حولها فتحركت تتطلع لزوجها الجالس بصمت!

هو متعب وهي تدرك..

بلا بل هو مستنزف حد النهاية، مشاعره.. وقته.. جهده.. ومخاوفه تتنازعه وهي تعلم!

اقتربت تجاوره وتحيط رأسه بيدها، تجذبها لتريحها فوق صدرها فيدفن نفسه فيها كأنما يريد أن يتوحد معها، تنهد بحرارة وضمها إليه.. فربما لولا تلك الضمة، ذاك السكن.. هذه المودة وهذا الحنان والدفء لما أمكنه الصمود!

هو ممزق بين مشاعر شتى ومخاوف لا تنتهي..

شقيقته الصغرى!

شقيقته المريضة!

العمل الذي اهتز بخبر سجن أبيه!

ووالده نفسه..

هل سيتحمل السجن بهذه السن!.. هل سيمكنه الاستمرار!.. لمَ فعلها؟.. كان هو ليفعلها ويبقى الأب سند داره، واعتصر جفنيه جوار تنهيدة أخرى..

ماذا عن ريم؟.. هل سيخبرها عما حدث لوالدهما؟..

لا.. لن يفعل فهي تخطو أولى خطوات علاجها والخبر قد يجلب لها انتكاسة هم في غنى عنها، ربما يسأل طبيبها.. لكن خوفه لا يزال يتمكن منه..

ماذا عليه أن يفعل!

- حمزة!

همستها الدافئة القلقة أعادته لواقعه بين أحضانها، تراجع ينظر في عينيها الحانيتين:

- إن شاء الله كل الأمور هتتيسر.

أشاح بوجهه كأنما لا يرغب في أن ترى عيناها ضعفه:

- تفتكري!

لكنها أعادته إليها تخبره أنها الأحق بأن ترى منه ما لا يراه أحد.. بأن تساند وتكون إلى جواره، تحتوي آلامه وتهدهد مخاوفه:

- أنا متأكدة من كده.. ربنا كريم.

أمسك بكفها التي تحيط بوجنته واحتواها بين كفيه:

- خايف على بابا.. مش هيتحمل.

وزفر بأنفاس ثقيلة:

- وريم.. مش عارف هنقولها الخبر إزاي!

مدت يدها الأخرى تربت فوق كفه:

- عمي هيكون بخير، هو عمل الصح وربنا هيقف معاه.. وريم نسأل الدكتور ونشوف.

مط شفتيه بعجز كأنما المشاكل لا تنتهي:

- ولسه أزمة الشغل والمحل اللي سمعته اتهدت في لحظة.

نهضت تعتمد على ركبتيها فوق الأريكة، تقترب منه وتضمه لصدرها:

- كله هيبقى كويس إن شاء الله صدقني..

وابتعدت تجلس القرفصاء في مواجهته، تحتوي وجهه بين كفيها وتعانق نظراته بعينيها:

- عمرو مع عم الحاج إسماعيل بيشتغلوا ليل ونهاروأنت معاهم.. ريم بقت أحسن الحمد لله وبدأت جلساتها وممكن نسأل الدكتور نقولها ولا لأ.. وعمي سلامة ربنا يتولاه مش هيبقى لوحده..

انعقد جبينه مع ذكرزوج أخته فتمتم:

- لازم أكلم عمرو.

مالت تقبل جبينه بقبلة طويلة:

- كلمه وقت ما تقدر.. أنت قدها وقدود يا حمزة.

بعدها تراجعت لوضعها السابق وهي تربت بإبهاميها على وجنتيه وقرب أجفانه المرهقة داكنة اللون:

- أنا عارفة إنك هتقدرتعدي الأزمة دي.



رمقها بنظرة ممتنة قبل أن يحركها تلك المرة ويحتويها بين ذراعيه فكادت تختفي فوق صدره:

- ربنا يخليكي ليَّ.

ربتت على قلبه بكف رفيقة:

- ويخليك ليَّ يا حبيبي.

شعرت بنبضه يتسارع بغتة، بعدها تفاجأت به يرفع وجهها نحوه بلهفة:

- أنتِ قلتِ إيه!

عضت شفتها السفلى في خجل:

- إيه هتعمل نفسك متفاجئ ومش عارف؟

ابتسم بحب طغا على ملامحه الحزينة:

- حتى لو عارف.. دي أول مرة أسمعها.

جذبت رأسه تقبل فكه وتقترب بهمسها من أذنه:

- حبيبي.. حبيبي.. حبيبي.. حبيب...

والأخيرة كانت بين شفتيه نهايتها المبتورة، تراجع إثرها متمتمًا بدفء وأتت الكلمات هذه المرة تحمل بين طياتها عشق:

- ربنا يخليكي ليَّ..

ثم صمت لحظة أردف بعدها بشروده في جنية القهوة خاصته:

- يا جنيتي.

عادت ترفع وجهها تنظر إليه بدهشة فقبل ثغرها الباسم بنعومة:

- جنية القهوة..

وجذب خصلاتها يتنعم بعبقها، يتناسى بها واقعه ولو للحظات قصيرة يحتاجها كوقود يستمر به محركه في دفعه للوقوف بوجه المحن!

***

كلٌ ميسر لما خلق له..

حكمة بسيطة ومنطقية للغاية، فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، ورغم تلك الضغوطات التي تحيط به مؤخرًا ابتداءً بسجن والد زوجته، مرورًا بزواج ابن خالتها على شقيقته..

وانتهاءً بخسارته الفادحة لابنه..

مرة أخرى!

رغم ذاك كله فهو لا يزال صامدًا، رغم جفاء والدته مع آية، والعمل وسوقه في هبوط مستمر بعد السقطة القاضية الأخيرة..

رغم أخته التي حين حاول مساندتها ودعمها بل والتدخل لحل الموقف وتعزيزها.. أخبرته هي بهدوء أن الأمر يخصها وحدها، ولا تريد معاونة من أحد!

واستجاب لها والغضب يملؤه.. لقد تزوج عليها قبل أن تكمل شهرها الأول، أي جنون هذا!

وتأتي بعدها هي لتنهي الأمر ببساطة وكأن شيئًا لم يكن!

ويتعجب هو ولا سبيل لإرواء فضوله لأنها التزمت الصمت ورفضت كل حديث يخصها..

فتح باب منزل والديه ليلقي على والده التحية ويوافيه بآخر مستجدات العمل، لكنه وجد والدته بمواجهته فتهدل كتفاه يأسًا وهو يرمقها بنظرة عاتبة ونبرته بها لوم:

- برده ما طلعتيش تشوفيها وتطمني عليها؟

ونظرتها هي كانت حانقة مغتاظة ومقهورة:

- أنا لا شفتها ولا عاوزة أشوفها.. ولا يهمني أطمن عليها.

وانبرت بسخط تدير إليه ظهرها:

- كفاية اللي جرى لنا من وراهم.

ومجبر هو.. صمت!

فكيف يعاتب والألم مردود إلى صدره، هذه زوجته وتلك أخته.. وذاك عمل الأسرة منذ عقود!

لكنها عادت تلتفت إليه وصوتها يعلو:

- أنا مش عارفة أنت ماسك فيها كده ليه؟.. لا بطن بتشيل لك عيل، ولا بقى نسب يشرف.

- ماما!

خرجت منه بتأنيب، وصوت والده أتاه من خلفها:

- اتقي الله يا حاجة.. البنت ما شفناش منها إلا كل خير.

وتوجه بحديثه لابنه متجاهلًا دمدمة زوجته الغاضبة وتحسرها على ابنتها الواصل لأذنيه:

- اطلع لمراتك يا بني، لوحدها من الصبح وأنت ملخوم في المحل.. بكرة نتكلم في الشغل.

والتفت لزوجته يرمقها بضيق:

- ما هي بنتك اللي متمسكة بيه يا حاجة وأصرت إنها تستمر معاه..

وضغط فكيه بغضب:

- غرورها اللي أنتِ عارفاه مخليها ترفض تتخلى عنه بعد ما غدر بيها.. عايزة تكسب معركتها قصاد ضرتها زي ما قالت بعضمة لسانها.

هتفت أمه بدفاع:

- ما هو من حرقتها يا حاج.. أمال تسيب جوزها لخطافة الرجالة دي؟

نظر إليها زوجها بيأس وولده يبادله بهزة رأس مشابهة، هو لم يكن به طاقة لجدال لذا استجاب لأمر أبيه وتركهما يتحاوران وصعد لزوجته..

قطع المتبقي من الدرج ببطء فهو يدرك أن مهمته بالأعلى أكثر مشقة، فتح الباب ودخل بهدوء ليجدها تأتي من خلفه تحمل بين يديها بتعب طبق طعام، وضعته على المائدة بعناية والتفتت إليه تدعي التماسك وتتظاهر بالصلابة:

- الغدا جاهز على السفرة يا عمرو..

اقترب منها بسرعة يدعم جسدها المتراخي:

- تعبتِ نفسك ليه بس؟.. كان ممكن آكل أي حاجة.

ربتت على كفه التي تمسك بها ثم أبعدتها وخطت نحو غرفة نومهما بتمتمة خافتة:

- بالهنا والشفا.

أمسك بمرفقها ودار حولها يقبل رأسها بحنو:

- سامحيني يا آية.. عارف إني مقصر معاك، ضغط الشغل ومشاكل كتير ظهرت بعد...

قطع استرسال كلماته وهي أدركت البقية، دموعها لمعت خلف أجفانها شبه المغلقة وهمهمت باعتذار واهن:

- آسفة يا عمرو.. معلش أنا.. أنا..

ضمها إليه برفق يكفيها حرج تتمة موجعة:

- ششش.. ادخلي أنتِ ارتاحي، وما تتعبيش نفسك تاني.

هزت رأسها بطاعة وتحركت تغادره، استكانت فوق فراشها تنكمش على نفسها ببرائتها المعتادة، دموعها كانت أقوى من جدار تماسكها فانهار تحت ضغط فيضانها لتخدش وجنتيها ومنهما إلى الوسادة أسفل رأسها.. هزات جسدها التي تحاول التحكم بها.. شهقاتها التي تحبسها كي لا يشعر زوجها وهو يتحرك في الغرفة ليغير ملابسه..

فجأة شعرت بثقله فوق الفراش.. بذراعيه ترفعانها إليه، بنفسها تنكمش فوق صدره وهمسه يهدهد حزنها وآلامها ورعبها من الخسارة..

حزنها على أبيها..



آلامها ووجع جسدها ونفسها التي فقدت طفلها للمرة الثانية بعدما تلقت خبر سجن والدها..

ورعبها من خسارة الزوج والحبيب الذي لم يعِ قلبها غيره من الدنيا!

تخلل بأنامله خصلاتها المعقوصة بعشوائية، طبع قبلة حانية ممتدة على رأسها وأمرها برقة:

- بطلي عياط.

وكأنما أمره أتى بعكس ما أراد، صوت نحيبها علا، هزات جسدها زادت وعبراتها انهمرت أكثر، زم شفتيه بيأس.. هو خير من يدرك عظيم الفقد والوجع!

هو شريكها فيه..

هو الحبيب الذي يتحسس بقلبه وجع حبيبه فيشطره لنصفين خوفًا عليه!

أبعدها وتحكم بوجهها بين يديه، أغلقت عينيها تهرب من لُقيا حنو عينيه فمد أنامله يجفف دموعها:

- آية.. كفاية دموع.. بكرة كل الأمور هتتصلح بإذن الله وربنا يعوضنا خير.

شهقت وغصت بشهيقها، ضمت نفسها له وقبضتها تكتم صوتها دون فائدة:

- يعني مش هتسيبني يا عمرو؟

ارتفع حاجباه حنوًا وضرب ظهرها برفق:

- أنتِ مجنونة يا بنتي!.. أسيب قلبي وعمري وأعيش من غيرهم إزاي؟

اهتز جسدها وبكاؤها لا يتوقف:

- بس خلاص ما فيش بيبي.

ربت هذه المرة على كتفها وامتزج بلهجته لوم:

- يعني البيبي هو اللي كان بيجمعنا يا آية؟..

ثم تنهد راضيًا بقدره ومحسنًا الظن بخالقه:

- بعدين ربنا هيعوضنا باتنين وتلاتة وعشرة كمان إن شاء الله.

تمتمت بتيه كأنما لا تلتقط كلماته:

- إيهاب اتجوز على نشوى.

عاد إليه غضبه من الموقف برمته لكنها هي لا ذنب لها:

- وأنتِ دخلك إيه!

- ما هو ابن خالتي.

- يعني أنا مش عارف!



- مش زعلان مني؟

- هازعل منك أنتِ ليه؟

ترددت وارتجفت ومخاوفها تكذب صدق وعطف نبرته:

- طيب وبابا؟!

أبعدها عنه يؤكد على كلماته بعينيه قبالة عينيها:

- والله أنتِ مجنونة.. عمي سلامة صديق عمر بابا من قبل أنا وأنت ما نتولد، تفتكري إيه!

نشجت وعادت تتيقن منه وشفتيها ترتعشان:

- يعني مش هتسيبني؟

ظهر ضيق بيّن ما فوق ملامحه فانتابها هلع بينما هو تنهد بعدها في صبر ورسم بسمة خافتة على شفتيه يكسرها شجن اللحظة:

- لأ.. ماسك فيكِ لآخر يوم في عمري.

- بجد؟!

وفمها يتقوس ببراءة مهلكة لقلبه العاشق:

- بجد يا مجنونة.

ثم أعادها لأمان أحضانه..

أسكنها حيث ينبغي أن تسكن وظل يربت على ظهرها تارة، يتخلل خصلاتها تارة.. ويقبل رأسها وجبينها ثالثة؛ حتى راحت في نوم مرهق..

نوم يدرك أن كوابيسه لن تنتهي بسهولة رغم وجوده معها!

***

نعم.. من كل خسارة نخرج بقوة جديدة تضاف لرصيد صلابتنا وصمودنا، ومن كل محنة.. هناك منحة تمنحنا القدرة على الاستمرار..

ومنحته كانت طفله..

برائته.. ملامحه التي تشبهه.. ضحكته.. مناغاته.. ودفئه عندما يأخذه فوق صدره ويستلقي على ظهره لينام كلاهما ممتنًا لوجود الآخر..

هو نقطة النور بوسط كهف العتمة، هو الضحكة التي اختطفها من بحر الحزن..

رمق الصغير بحنو وأنامله تمسك بيده الممتلئة الصغيرة، يدغدغه بباطنها فيضحك بطفولية محببة تنقل تلك الدغدغة لقلبه المثقل بهمومه، يميل فيقبل وجنته الناعمة ليجد كف ابنه تلامس وجنته هو كأنما يرد القبلة، فينتفض خافقه بحب..

شعر بلمستها المترددة كعادتها فوق كتفه، التفت برأسه إليها فهمست:

- ممكن أسرقه منك؟

رفعه من الفراش ليدفن أنفه ووجه ببطنه مداعبًا فتعالت ضحكات طفله ثانية، نهض يناولها إياه بتساؤل:

- هتعملوا إيه؟

التقطته وطبعت قبلة نهمة فوق وجنته مجيبة ببسمة:

- هاأكله.

- ممكن أجرب؟

كانت قد استدارت تغادر الغرفة.. لكن مع سؤاله الخافت توقفت، نظرت إليه برقة وهزت رأسها بموافقة:

- أكيد.. بس ربنا يستر.

تبعها في حماس وليد وصغيره ينتزعه من بئر أحزانه كما يفعل دومًا، وضعته رؤى بمقعده المخصص، حضرت الوجبة اللينة من حبوب القمح الشهيرة، قدمتها له في طبق عميق مع ملعقة مطاطية مناسبة وتوقفت تراقب..

تطلع إليها علي بتردد فشجعته بإشارة من يدها لكنه لم يستطع، ابتسمت ودنت هي من الصغير، ملأت الملعقة بالطعام وقربتها من فمه بطريقة

محببة وصوت لطيف، فتح ابنه فمه وتناوله بتلذذ وهو يهز ذراعيه كأنما يسعده ما يتذوقه.. تركت الملعقة والتفتت إليه:

- يلا جرب.. سهل قوي.

استجاب لأمرها هذه المرة، ملعقة.. ثانية وثالثة وانتقلت البسمة لشفتيه:

- ده سهل فعلًا.. روحي أنتِ وأنا هاكمل.

نظرت إليه بشك، ومع مرأى تغير وجهه وانفراج ملامحه الحزينة أخيرًا تسللت سعادة لقلبها القلِق عليه وأطاعته تاركة له زمام الموقف..

كانت تعمل بالخارج، ترتب هذا وتصلح ذاك والضحكات الرجولية الخشنة تصلها ممزوجة بضحكات صغيرها البريئة فيخفق قلبها عشقًا وشوقًا..

هي تشتاق علي القديم، تود لو استطاعت محو تلك القتامة التي بات مسكنها الدائم حول عينيه، إنهاء تلك النظرة البائسة الضائعة التي تغلف مقلتيه.. وإحياء البسمة التي تولد فقط لبلال الصغير دون غيره!

دقائق وعادت إليهما بابتسامة واسعة ليصدمها المشهد..

بل الفوضى!

فزوجها نقل ابنه من مقعده ليجلسه فوق ساقيه، يستند بظهره لصدره.. وملعقة الطعام تلعب دور سهم طاش صوابه بعيدًا عن هدفه فانسكب

يلوث وجنتي بلال وشيء من ملابسه وملابس أبيه التي مسح بها وجنتيه وهو يدغدغه..

لمح نظرة الذعر على وجهها فارتسم على وجهه ذنب خاصة مع توقف ضحكاته، تراجعت بسرعة وفككت عقدة جبينها لترمقه بحزم.. تشير بسبابتها في وجهه آمرة بصرامة:

- خلصوا لعب براحتكم.. بس أنت اللي هتحميه يا علي.

ارتفع حاجباه دهشة فاقتربت منه بانحناءة طفيفة، تضع قبلة مطمئنة على رأسه وتضحك بغمزة شقية.. وتعود من حيث أتت تاركة إياه لفوضاه مع طفله..

تاركة إياه.. بشيء من أمل!

***

لعبة الحياة ليست أبدًا سهلة، فبينما يجيدها البعض ويُحَصِّلون فيها أهدافًا حقيقية ونقاطًا عالية؛ تجد آخرين يسقطون في هاوية الهزيمة بأول معركة!

وهي كانت من هؤلاء الساقطين..



المذعورين الذين هربت منهم شجاعتهم مع أول احتكاك بقسوة الواقع الذي لا يرحم..

المستضعفين الذي فقدوا الأمان والسند والحماية.. فضاعوا!

- ها.. إزيك النهاردة يا ريم؟.. أخبارك إيه!

رفعت عينيها لطبيبها هادئ الملامح ودود البسمة فأردف باهتمام ونبرة تبعث على الطمأنينة:

- مواظبة على العلاج بتاعك؟

ورغم أنه يعلم الجواب من ممرضتها التي تلازمها فقد سأل، فتح حوارًا ومد جسرًا من ود يبني به علاقتهما معًا كطبيب ومريضته التي ترفض الحديث وتحبس نفسها بشرنقة الصمت إلا من كلمات متناثرة هنا وهناك لمن تثق بهم!

ردها أتاه كما اعتاد، همهمة مبهمة غامضة، هزة رأس ورجفة جفون، استمر هو بأسئلته التي تظهر اهتمامه:

- مرتاحة مع مها الممرضة بتاعتك؟

لم تجبه فارتكن لمكتبه وأكسب نبرته ثقة وحزمًا:



- ريم.. إحنا اتكلمنا قبل كده إن الصمت مش في مصلحة علاجك، كل اللي بيعمله صمتك ده إنه هيخلي قعدتك معانا هنا تطول!

أخفضت عينيها محافظة على جمودها:

- إيه يا ريم؟.. مش عاوزة ترجعي لحياتك؟

رجفة طفيفة مرت بجسدها والتقطتها عينه الخبيرة.. رجفة أعلمته أن وقت الخطوة الجديدة قد حان، لذلك استمر في ضغطه بذات النبرة الهادئة المهتمة:

- طيب مش عاوزة تخرجي للي بتحبيهم وبيحبوكِ؟!

والرجفة باتت أوضح وهو يكمل:

- تخرجي لعلي يا ريم؟!

مقلتاها تشتت حركاتهما فأدرك أنه على الطريق الصحيح، أكمل بثقة:

- علي بيزورك كل يوم، بيطمن عليكِ ويسأل هترجعي له إمتى؟.. بيتمنى ترجعي.

والتشتت جاوره ألم والشفاه المرتجفة تحولت انقباضاتها لزمة تكتم أنينًا، تأملها طبيبها بنظرة متفحصة وابتسم.. ضغط زرًا بمكتبه لتدخل ممرضته التي تألفها بمحقن وهو يأمرها:

- ساعديها يا مها.

ساندتها لمقعدها الطويل وساعدتها تتمدد فوقه براحة، تركت لها نفسها بشرود أقرب للتيه، عندما استلقت تركت لها ذراعها تغرس فيه المحقن، تربت على كفها بحنو وتبتسم لها بطمأنة، تركتها بعدها:

- ريم جاهزة يا دكتور.

تحرك هو من خلف مكتبه وجذب مقعده ليبعده بعض الشيء عن مرقدها، يمنحها مساحة أمان خاصة من حضور رجولي، وبذات الوقت قربًا يتيح له ملاحظتها بدقة والتواصل معها بهدوء..

- ريم اللي أخدتيه ده مهدئ، مش هيخليكي فاقدة للوعي أو فاقدة القدرة على التفكير..

واستقر فوق المقعد بوضع مريح وهو يلتقط مسجلًا صغيرًا ودفترًا بداخله قلم:

- ده عقار مهمته الوحيدة إنه يخليكي تسترخي بحيث تقدري تتواصلي معايا.. تعدي حاجز خوفك اللي واقف في طريقك ومسلسلك، تمدي إيدك للي عاوزين يساعدوك.

أدار جهاز التسجيل ووضعه على طاولة مجاورة بهدوء:

- ريم.. غمضي عيونك وخلي ودانك مع صوتي.

لاحظ قبضتيها المضمومتين بقوة كأنما تتشبث بجدار الوعي الأكثر راحة جوار الصوت:

- ما تقاوميش يا ريم.. استرخي.

ارتعش كفاها وهي تحاول الاستجابة، تبحث عن نقطة التقاء في منطقة وسطى هربًا من ماضيها ومخاوفها وبحثًا عن غدها.. وأمانها!

- غمضي عيونك.

- الدنيا ضلمة.

مال برأسه وواصل بصوته الهادئ:

- ما فيش ولا بصيص نور حتى!

وبيده أشار للمرضة أن تهدئ أنوار الغرفة بأكملها:

- الضلمة ما بتخوفش يا ريم.

وأكمل يطمئنها:

- شايفة أي نور؟

هزت رأسها بنفي، لم يعجبه صمتها فتحدث بحزم:

- عاوز صوتك ياريم.

انفرجت شفتاها بعسر عن حرفين باهتين خافتين متوترين:

- لأ.

- متأكدة يا ريم؟.. ما فيش نقطة نور!.. بصي كويس وركزي.

تغضن جبينها وبدأت أجفانها تهتز بإيقاع مرتبك وجِل، وبؤبؤيها يتحركان أسفلهم بعشوائية أنبأته أنها تحاول.. أنها تبحث وتتأكد، وهذه المرة أتته هزتها موافقة فباتت نبرته راضية:

- في نور يا ريم.. مهما كانت شدة العتمة، دايمًا في نور.

سمعت خشخشة أوراق بيده، كان يتأمل ملفها وبه صورتها طفلة.. صورة طلبها من زوجها عن طفولتها، تلك الفترة التي لا تحلم فيها الفتاة سوى بالدمى والحلوى!

- فاكرة وأنتِ صغيرة.. طفلة لسه بضفاير، بفستان أبيض فيه ورد أزرق!.. كنتِ فين يا ريم؟

ونقطة النور الباهتة الضئيلة توسعت، توسعت لتنير ظلامها برسم لذكرى سعيدة بكامل ألوانها المبهجة، بضحكتها ولعبها ودماها وفرحتها.. بيوم لطيف خاص للغاية كان أول أيام عيد الفطر اصطحبها فيه زوج خالتها

والد سمية مع أولاده لإحدى الحدائق، يوم بسيط متعته أرجوحة وحلوى قطنية وعيدية..

- شايفة إيه؟.. احكي لي.

تلونت ملامحها بفرحة طفلة عادت لها ذكراها دون وعي، حتى نبرتها اكتسبت بهجة بريئة عفوية:

- مرجيحة صغيرة، كت خايفة منها رغم إني أكبرواحدة فيهم.. عمي حسين صمم يخليني أركب، قلت له لأ بس برده صمم.. وخلا سمية جنبي، أمنية وإيهاب كانوا صغيرين جاب لهم غزل البنات ووقف معاهم يضحك لنا ويشجعني، أول ما بدأت تتحرك حضنت سمية قوي لدرجة إنها عيطت.. ولما عيطت فضلت أهديها ونسيت.. نسيت خوفي.

وكان هذا مقصده، فليست كل ذكرى ألم.. وليس كل أمس انطوى على وجع!

- عملتوا إيه كمان في العيد؟!

لمست في صوته بسمة ونبرته الهادئة شجعتها أكثرفردت ببساطة:

- زي كل عيد.. أول يوم بنقضيه في البيت والزيارات والعيديات.. وتاني يوم عمي كان بيزورنا.

- ها وبعدين؟

مطت شفتيها بحركة بريئة للغاية كأنها عادت تلك الطفلة بالفعل:

- كان بيبقى يوم جميل قوي.. بس الولاد الكبار ما كانوش بيرضوا يخلونا نلعب معاهم.

- وده كان بيزعلك؟

- أيوة.. أنا كنت باتضايق وأحاول برده ألعب معاهم، وأمنية كانت بتزعل لما ياخدوا إيهاب الصغير يضحكوا معاه ويلاعبوه وهي لأ.. سمية اللي كانت بتقعد بعيد ومش بتهتم.

رمقها بنظرة متمهلة لم تلمحها وهو يدرك أنه يقترب من موطن الخطر:

- وكانوا بيسيبوكي تلعبي معاهم؟

هزت رأسها بنفي طفولي:

- لأ.. ما كانوش بيرضوا يخلوني ألعب معاهم كورة، بس ممدوح كان ساعات بيغصب عليهم وياخدني في فريقه ويخلينا نكسبهم.

انعقاد حاجبيه لم يلامس نبرته الهادئة بتغيير:

- ممدوح ده ابن عمك مش كده؟!

ارتجفت للحظة وهي تومئ بإيجاب:

- كان بيخليكي تلعبي وتكسبي كمان؟

- أيوة.

- تعرفي توصفيه؟!

الرجفة انتقلت لذراعها التي تجاورها مرتاحة فوق المقعد الطويل، رجفة جذبت انتباهه وازدادت لها عقدة جبينه:

- تقصد.. تقصد مين؟!

- ممدوح..

لفظه للاسم رغم هدوء نبرته زاد من ارتجافها، صمته ليختبر رد فعلها لم يجبرها إلا على الارتجاف أكثر فأردف هو معيدًا إليها أمانها بتبرير:

- ابن عمك.. الطفل!

- ممدوح.. ما.. ما كانش طفل!

وهو يعلم لكنه يحثها على المزيد:

- كان عمره أد إيه في الوقت ده؟

زفرت من بين شفاهها المرتعشة:

- كان في أول سنة في الكلية.



- ورغم كده كان بيلعب معاكِ ببساطة؟

وافقته بهزة رأس وجواب خافت:

- أيوة.. وبيجيب لنا كلنا شيكولاتة وبونبوني كمان.

- كنتِ سعيدة بيه وقتها؟

- كان زي حمزة!

وصوت أنفاسها يعلو، بل تتحشرج بصدرها كأنه نزع الروح الأخير.. الذكرى تجذبها لمنطقة الخطر، تعيدها لهوة اليأس والضياع.. لحفرة السقوط الأول!

تسير معها فوق صراط حاد تنشد جنان سعادة بريئة، وجحيم الألم أسفل قدميها يجلدها بسياط الخوف..

- أيوة.. كنت مبسوطة، كنت باحس بالسعادة زي أي طفلة بتحس بالأمان مع أخوها الكبير.

وهو أخذ نفسًا عميقًا بطيئًا قبل سؤاله التالي:

- حاول يلمسك وقتها بأي شكل مختلف!.. أنتِ أو سمية مثلًا؟

- لأ.

حادة باترة متوجعة:

- سمية كانت صغيرة.

- وأنتِ كنتِ كبيرة!

- ما لمسنيش.

هتفت برفض مكرر فضغط أكثر بمفاجأة صادمة:

- إمتى ابتدى ممدوح يلمسك يا ريم؟

انتفضت بعنف وبقعة النور يغزوها بعبع الظلام مجددًا، يبتلعها حتى النهاية.. دفء السعادة البريء تحول لبرودة جمدت قلبها، وصدرها كاد ينفجر بنبضات الخافق خلف ضلوعه.. أنفاسها باتت مؤلمة وكل شهيق وزفير أشبه بطعنة سكين ثالم.. هزات رأسها الرافضة أضحت أكثر عنفًا وهو يهدئ من روعها بلا جدوى:

- اهدي يا ريم.. اتنفسي.. اتنفسي.. ريم اهدي.

- عاوزة أقوم.. عاوزة أقوم.. ما لمسنيش.. سيبوني.

ولم يكن أحد يمسك بها، لكنه ذاك العقار المثبط للعضلات والذي منح جسدها السكينة فقط عقلها في حالة هياج قاتل.. الذكرى السوداء تعود لتدهس الوردية بقدميها، تنتزع منها ظلال أمان قديم نالته بيد وبعدها ذات



اليد منحت الخوف والألم.. سرقت الطمأنينة وذبحت القلب والجسد والبراءة وسلبت الطهر..

- لأ.. لأ..

- اتنفسي يا ريم..

- ما لمسنيش.

- اهدي..

- ابعد عني.. إوعى تقرب.. ممدوح..

وتحول الموقف لفوضى تمازجت بها صرخات هلعها، أنين بكائها.. حركاتها العشوائية الواهنة وصوت الطبيب الذي ينادي ممرضتها لتشعر بإبرة أخرى تنغرس بذراعها..

وتغوص في ظلام آخر هذه المرة..

ظلام دون ذكرى..

ظلام دون أحلام!

***

في تلك اللعبة المعقدة.. لعبة الحب!.. ليست كل خسارة محتملة، وليس كل مكسب كافٍ..

وهو عندما كان يراقب طائرتها التي أقلعت بحرية نحو سماء الرحيل عائدة لمسقط رأس والدتها أدرك أنه خسر..

خسر بصمته.. خسر بسوء اختياره.. خسر بتركها لغيره.. وخسر بوجع أنهكها فلم يعد بقلبها مساحة تسع وجوده!

لذا بات نديمه هجران قلبه وتأنيب ضميره.. واشتياق مرير لا ترياق له..

تطلع للغيوم حيث اختفت خلفها الطائرة وهو يلعن نفسه على جبنه حين الوداع فلم يقترب، كعادته معها ينظر من بعيد ويترك لها حريتها.. وذاك البعد ربما هو قدره.. ولا بديل عنه!

أخرج هاتفه ليخط رسالة اقتطعها من أشعار اللقاء الأول.. حدد توقيت الإرسال بعد توقيت وصولها للبنان وأغمض عينيه بشجن.. ثم رحل.

حطت طائرتها فوق أرض وطنها الثاني، هبطت منها عائدة بخسارة في لعبة لم تدرك أن قواعدها ملتوية خادعة غير ثابتة.. فهي تعد بسعادة قلب، وتفاجئ بألم غير محتمل..

ضمت وليدها لصدرها بحنو وهي ترمقه بأمل..

صغيرها الذي سعى عمه ليحصل له على إذن السفر من أبيه بعسر، صغيرها النبتة التي انغرست في تربة غير صالحة فأنبتت وأثمرت بهجة حياتها التي لم تعد تريد سواها..

صغيرها.. مكسبها من لعبة فاشلة تركتها محض خاسرة!

علا رنين هاتفها برسالة أثارت دهشتها!

لقد وصلت للتو فمن يراسلها؟..

استقرت بالسيارة المتجهة بها لضيعة زوج أمها بينما تتناول الهاتف وترمق الأحرف التي رسمت بسمة شجن فوق شفتيها.. شجن خالطه شيء من حنين:

"سلامٌ على قمرين يدوران حولي..

فهل تنقلين إلى عينيكِ السلامْ؟"



الفصل السادس والثلاثون

هل تعلمون شيئًا عن لحظة السكون!

تلك الأخيرة التي تسبق النهاية!

الهدوء ما بعد العاصفة!

خمود البركان عقب ثورة رعناء، بعدما أحرقت حممه في طريقها الأخضر واليابس وقضت على الهشيم!

ذاك الصمت المقلق الذي لا تدري أبعده ستختتم القصة؛ أم مازال هنا من مزيد!

مزيد من الوجع والألم..

مزيد من الخوف والقهر..

مزيد من الحزن وانكسار الروح ووهن القلب..

مزيد من الخسارة!

وها هي خسارة جديدة تتجسد أمام عينيه تخبره أن روايته كاتبها أغفل كلمة تمت.. وتركه لموجات الحياة تصارعه ويصارعها.. تهزمه فيغرق، تعلو

به فيأمل بنجاة ثم تعود به نحو القاع لتحطمه بقسوة اليأس الكامن بين ضلوعه..

يأس تضاعف وتمخض عن عذاب غير محتمل وهو يرمقها بصدمة..

ساكنة بفراش مرضها، نائمة بفعل مخدر ما.. والمفاجأة أن ذاك حدث إثر انهيارها بجلستها العلاجية الأخيرة!

ولم يتحمل!..

اندفع نحو طبيبها وبمواجهته هتف بغضب:

- انهيار يا دكتور!!.. ده اللي كنت خايف منه، أنا قلت مش هتقدر تتكلم أو تواجه..

وأشاح بذراعه والحيرة تخنقه:

- كنت عارف إنها هتتوجع ومش هتحارب.

والطبيب صامت يرمق ثورته بتدقيق، تركه يفرغ مكنون صدره المشنوق بأنشوطة آلامها هي، يتقيأ أوجاعه التي نبتت من غرس أنينها هي.. ويجز عشبها الضار الذي تمكن منه فأحاطه كشرنقة حبسته معها دون فكاك..

لا يعلم أن الشرنقة مرحلة نمو جوهرية ومؤقتة..

وما بعد تلك المرحلة.. حرية!

- واضح يا باشمهندس إن شكك في قدرات ريم أقرب لليقين.

توقف علي بغتة لا يفهم مقصده، نهض الرجل من مقعده خلف مكتبه ودار حوله مقتربًا بإيضاح:

- يمكن ريم اتعودت إنها تعتمد عليك دايمًا في كل قراراتها وحياتها.. أنت اللي بتدافع وبتحمي.. أنت السكن والأمان.. وأنت الحاجز الصلب اللي خافت إنه يتهد بتصريحها بماضيها!

كتلة جامدة حادة توقفت بعرض حلقه والحقيقة تضربه مجددًا وكأنه لا يعلم:

- أنت بنفسك يا باشمهندس هديت الحاجز ده.. بس هديته لصالحها، أنت طمنت مخاوفها..

واقترب أكثر يحرك يديه كأنما يرسم له خريطة الغد:

- دلوقتِ كل اللي ريم محتاجاه منك هو.. الثقة!

- بس..

- خايف؟!

- جدًا.

- هي قوية.

- اللي اتعرضت له مش سهل.

- اللي اتعرضت له قاتل.. بس لسه عايشة وبتحارب.

- هتتعب.

- هتوصل.

- خايف.

- يبقى تحارب معاها.

وكان الأمر مثيرًا للدهشة فتساءل بعينيه ليأتيه الجواب ببساطة:

- إحنا قطعنا شوط كويس خلال الشهر اللي فات.. رد فعلها الأخير دليل على عودتها للحياة، للإحساس بالألم، خروجها من الصمت غير المجدي اللي بيمثل لها مجرد مهرب آمن.. إنها تنفعل وتتكلم عن اللي حصل حتى لو ما قدرتش تكمل من المرة الأولى؛ دي خطوة واسعة ومهمة وقوية جدًا في علاجها.

وابتسم مطمئنًا واثقًا حد أن شعر المواجه له بالارتياح دون وعي:

- ناقص بس تكون أنت معانا على نفس الخط.. تثق فيها وفي قوتها، وفي العلاج المتبع معاها.

ارتجفت شفتاه لحظة قبل أن يرف بجفنيه قلقًا:

- هاحاول.

رفع الطبيب رأسه بشبه نصر:

- مش مطلوب منك أكترمن كده.

هزعلي كتفيه بتسليم وتحرك عائدًا إليها، دلف للغرفة ليستكين فوق مقعده المعتاد، يلتقط كفها بين يديه، ينحنى نحوه بقبلة طويلة دافئة لا تدري هي عنها شيئًا بعدها أراح جبينه المتعب والمثقل على أيديهما المتعانقة وأغمض عينيه يستمد منها بعضًا من راحة لن يمنحه إياها سواها..

دقائق طالت وهو لم يتحرك..

اكتفى بالاحتواء الصامت الحنون وتلك الطاقة التي تسري بينهما تهدئ روحه التائهة وتهديها طريق العودة إلى تلك الغائبة..

أخيرًا رفع رأسه وعينيه تحيطان بها في ضمة مشفقة، تأمل باقة الزهور التي وضعها فوق الطاولة المجاورة قبل أن يركض إلى طبيبها وابتسم بشجن:

- جبت لك الورد اللي بتحبيه..

وتناول منها واحدة داعب بها وجنتها برفق:

- عصفور الجنة.

وضعها جوار رأسها فوق الوسادة واستند لمسند مقعده دون أن يفلت يدها:

- تعرفي!.. دايمًا كنت باسأل نفسي اشمعنى نوع الورد الغريب ده اللي بتحبيه!

تحركت زاوية فمه بشبه بسمة شاردة وهو يتأملها بحنين:

- لحد ما عرفت إنه رمز للحب.. حب كبير وعظيم حتى بعد الموت..

وشردت البسمة أكثر وأكثر وانخفض صوته حد همس يُسمع بصعوبة لكنه اقترب بفمه من أذنها كأنما يريد أن يصلها صوته وحدها دون غيرها:

- الأسطورة بتقول إن لما الحبيب مات غدر نبتت من قبره في حديقة بيته أول زهرة من عصفور الجنة، كان لونها رمادي.. ولما حبيبته ما اتحملتش فراقه وماتت بعده واندفنت معاه.. لون الزهرة اتحول للبرتقالي..

وربت على كفها يزيد من احتضانها بين أصابعه برقة:

- وجودها معاه كان طاقة حياة؛ كمان بعد الموت.. بتعيش لوقت طويل حتى بعد ما تتقطف، من غير ما تدبل.

لمعة خافتة برقت خلف أجفانه فاعتصرها يمنع العبرة القاسية التي انحدرت تشارك قلبه نواحه الصامت:

- أنا ميت من غيرك يا ريم.. ارجعي لي.

وتحركت أنامل إحدى يديه تبعد خصلة من شعرها تغازل وجنتها:

- وحشتيني.

وزفر بحرارة لتلامس أنفاسه وجهها الشاحب:

- اتأخرتِ عليَّ قوي.

ثم طافت عيناه حولها بتبتُل عاشق:

- بس حتى لو لآخر يوم في عمري؛ هافضل مستني يا ريم.

وكأنما ينتظر منها نظرة، لمحة.. نبضة حياة!

لكنها ظلت على سكونها وأورثت قلبه مزيدًا من الجمود.. دقائق أخرى تشبث بها ثم نهض، انحنى يزين جبينها بلثمة ناعمة.. ويجاور أذنها بهمسة مشتاقة:

- بحبك.

يسحب نفسًا عميقًا يملأ صدره بعبيرها حتى اللقاء التالي:

- خلي لي بالك من نفسك.

وساوى خصلاتها لمرة أخيرة..

تأملها كأن عينيه ترفضان فراقها واستدار راحلًا بسكون..

نعم هو ذاك السكون الذي لا تدري أبعده راحة!.. أم بإثره سيتجدد الوجع!

***

وليس كل سكون يعني نهاية.. فقد يبشر بجديد، باستمرار.. بكيان يولد، يختار ويسير على درب اختياره دون اعتبارات!

هو اختار.. قرر.. خطط ونال وانتصر!

وللنصر بعروقه نشوة هي أقرب لانتشاء ذئب بمذاق الدم المراق على مخالبه وحول أنيابه..

استرخى بمقعده الضخم خلف مكتبه الأنيق.. تطلع للمكان من حوله كأنه سلطان يشرف على رعاياه من فوق عرش القوة وابتسم!

تلك البسمة التي لا تعنى سوى اكتمال اللذة وتمام المتعة.. البسمة التي تترجم جُل معاني الفوز..

ارتفع رنين الهاتف الداخلي للمكتب ليقاطع خيالاته المنتصرة فزفر بضيق، أجابه وكانت المفاجأة التي لم يصدقها إلا عندما تجسدت أمام عينيه فواجهها ببرود:

- خير يا سمية؟!

وتتشبث هي بواجهة صلابة دافعها الخوف عليه.. تناظره بصبر تسبر أغواره، ويرتدي قناع الجمود الهادئ الغامض يمنعها من التسلل لدواخل نفسه:

- إيه!.. جاية عشان تتأمليني؟!

كانت نبرته مستهجنة هازئة لكنها ابتسمت.. ابتسمت بحزن شابه مرارة واضحة مع جوابها القلق:

- جاية أطمن عليك.

ضحكته الساخرة خالفت كل توقعاتها، هي توقعت الزعيق.. الغضب.. الرفض وربما الطرد!

لكنه الآن يستخف ويسخر!

- لا حطي في بطنك بطيخة.. كل بطيخ الصيف بتاع الموسم، ما تخافيش عليا نهائي.

تحركت تقترب من مكان جلوسه تجابهه بعناد هو أقرب لأم تخشى على طفلها الذي يظن أنه الأقوى متحكمًا بكل الخيوط بين أصابعه:

- اتجوزتها ليه يا إيهاب؟



كانت تدرك أنها تضغط زناد غضبه لكنها لم تأبه، وعندما نهض بحدة من مقعده تراجعت خطوة رغمًا عنها:

- ما تدخليش في اللي مالكيش فيه يا سمية.

وهي لم تأتِ إليه بمكتبه الجديد الفخم الذي صدمها موقعه وديكوراته الباهظة دون أن تتمكن من السؤال.. لم تأتِ لتجبن؛ بل لتواجه، تفهم.. وتطمئن!

- جاوبني.. كنتوا لسه مع بعض؟

واقتربت خطوتها مجددًا، بل دارت حول الأثاث لتدنو منه أكثر:

- كنت بتشوفها بعد ما اتطلقت ورجعت؟

وأخيرًا قصرت المسافة بينهما للحد الأدنى، عيناها مشتعلتان بالخوف وعيناه تتأججان بلهيب الغضب حد كاد ينفث نيرانه من منخريه:

- حصل بينكم حاجة؟!.. رد عليَّ.

أمسك هو بمرفقها يضغطه بأصابعه بقسوته المعتادة دون أن يشعر:

- اللي بتتكلمي عنها دي مراتي دلوقتِ.. خدي بالك من كلامك يا سمية.

وهي هزت رأسها حائرة تحبس أنة ألم لضغطته العنيفة:



- ده كان ما فاتش شهر على جوازك يا إيهاب.. لما أنت عاوزها؛ ليه تورط بنات الناس معاك؟

وحاولت جذب ذراعها فحررها بنظرة ساخرة تتألق خلف جفنيه:

- ذنبها إيه مراتك تكسر قلبها؟!

مع سخرية عينيه تراجعت بحدة تكتم شهقة:

- إيهاب.. هي حملت منك عشان كده اتجوزتها؟!

تحولت النظرة الساخرة لبسمة، ثم توسعت البسمة وامتدت لتنطلق قهقهة عالية رنَّت بالمكان وهي تناظره بصدمة فمال نحوها ونبرته لا تخلو من الاستهانة المتوقعة:

- إيه الجو القديم ده يا سمية!

وتحرك هو هذه المرة يتخطاها ليقف بمنتصف المكان محافظًا على سخرية عينيه ولهجته:

- رانيا غلبانة ولوحدها، كانت محتاجة راجل معاها وأنا قمت بالدور.

توسعت عيناها والصدمة تجاور الذهول والرفض يوازي عدم التصديق على ملامحها، وهي تراقبه يواجه النافذة برأس مرفوع، كأنما يطل على مملكته من قصر حكمه:

- بعدين يا ستي اعتبريني بحد من مشاكل العنوسة.. دي خدمة.

والتفت إليها يغمزها بلؤم هازئ:

- مش أحسن ما كان عمك الحاج سلامة أجبر حمزة يتجوز بنت عمه زي ما أجبره يتجوز بنت خالته قبل كده!

نفضت عن نفسها ذهولها وامتلأ كيانها بالسخط وهي تتجه نحوه:

- أنت فاكر إنك لما تقولي كده هاخاف على حمزة وأقول طيب خلاص أنت عملت فيَّ معروف!

وشدت قامتها تقابل نظرته المستهجنة:

- أنت أخويا يا إيهاب.

ثم هزت رأسها تعيد صياغة كلماتها بعاطفة واضحة لا تخطئها العين:

- لأ.. مش بس أخويا، أنت ابني.

وبتردد مدت كفها الصغيرة تربت على ذراعه:

- يعني باخاف عليك أكتر من نفسي.. تهمني سعادتك أكتر من سعادتي...

وهو قاطع نبرتها الحانية بجمود ينهي به موقفًا عاطفيًا لا يتحمله:

- بلا بلا بلا..

بعدها أزاح يدها بشيء من حدة:

- نفس الإسطوانة المشروخة بتاعة كل مرة.. المضحية والقلب الكبير الحنين.

وعاد يتخطاها برفض جليّ لاهتمامها:

- الموضوع اتقطع عرقه واتسيح دمه.. رانيا بقت مراتي وانتهينا.

تهدل كتفاها بيأس وشبح العجز ينخر بنفسها وروحها، خطت تقف خلفه ترمق ظهره بقلق:

- أنا خايفة عليك.

نالت نظرة متعالية بنصف استدارة من رأسه من فوق كتفه:

- لا ما تخافيش.

وأكمل استدارته ينهي بتأفف الموقف الممل:

- أنا أسعد راجل في مصر.

وفتح ذراعيه على اتساعهما بتنهيدة طويلة منتشية:

- فلوس وشغل واتنين ستات بيقطعوا نفسهم عشان يرضوني.

ومال نحوها مردفًا بخبث:

- لو أنتِ فعلا خايفة عليَّ: أديني طمنتك.. أما بقى لو خايفة عشان جوزك، وأخت جوزك!

وتحول الخبث للؤم جوار غمزة وبسمة واثقة:

- أخت جوزك ما حدش يقدر يزعلها..

وهز كتفيه ببديهية:

- مش عشانه لأ.. عشان نشوى ما تقدرش تزعلني.

ثم عاد يعتدل، يستقيم بوقفته ويتحرك عائدًا بلا اكتراث نحو مقعده، يجلس فوقه بأريحية ويخبرها بنظرة أن اللقاء انتهى..

بل لم يكن له من البداية أي داعٍ..

شدت قامتها هي الأخرى، ومنحته بعينيها دفقة حنان لا تملك منعها عنه، هو أخيها الأصغر.. بل ابنها كما أخبرته وإن كان الفارق بينهما يتجاوز العامين بقليل فقط!.. ابنها وإن آذاها من قبل فلا يمكنها إلا أن تقلق وتخاف عليه.. زمت شفتيها تمنع رجفتهما وهزت رأسها باستسلام أتبعته بكلمات أخيرى خافتة:

- المهم تكون سعيد يا إيهاب.. السعادة لا هي فلوس ولا شغل مهرولا حتى ستات، السعادة في راحة البال والرضى، أتمنى تكون سعيد بجد.

رحلت وهو يلوي شفتيه ممتعضًا من أفكارها التي لا تناسب أرض الواقع الحالي..

الواقع الذي تعلم أول قوانينه عندما وضع توقيعه على إيصالات أمانة لمن يفترض أنه بمقام أبيه تبيح له سجنه. الواقع الذي درسه وأصبح خبيرًا فيه عندما سقط في فخ أفعى مغوية والدافع رغبة ومتعة مؤقتة زينها لهما شيطانهما..

الواقع الذي مارس عليه قسوته وهو يتركه وحيدًا دون سند سوى امرأة خاضعة تظن أنها أمه حقًا. وهو يمنحه زوجة مستهلكة لا يعلم كم مرة استهلكت جسدها بعهر غيره.. ولا يريد أن يعلم. الواقع الذي قدم له أخيرًا فرصة على طبق من ذهب ليصبح فائزًا ولأول مرة..

وأخيرًا الواقع الذي علمه حد الإتقان كيفية القنص، وتحويل الهزيمة لنصر والخسارة لمكسب مضمون ومستحق. بلا رحمة أو شفقة. وبكل قسوة متاحة..

تنهد وبسمته المنتشية تعود لتشق شفتيه لتظهر هي أمام عينيه..

رحلت واحدة وأتت الثانية. والفارق لفافة ضئيلة تحملها بحنو بين ذراعيها وترمقه هذه المرة..

لا ليس بحنان..

بل باشتياق.. بافتقاد، وشيء من عتاب!

ومزاجه لا يسمح، اللعنة عليهما ألا يحق له التمتع بغنائم حربه ولو قليلًا!

تأفف بضيق ودمدم بصوت حانق:

- اللهم طولك يا روح.. عارف إني مش هاخلص.

كسرتها كلماته فأخفضت عينيها عقب نظرة عاتبة حزينة أصابت قلبه فرَّق رغمًا عنه، هي توأمته.. نصف روحه، نصف عقله ومشاعره وألمه وسعادته.. لذا فمهما قسا وتباعد أو هجر وتجاهل، سيظل وجعها وجعه وخوفها وقودًا يحركه ليمنحها الأمان..

نهض بهدوء دانيًا منها، رفعت عينيها تتعلق به، ترمق اقترابه بتوق.. تشتاق ضمته واستكانتها بين أحضانه، تبحث عن أمانه لكنها أسقطت عن نفسها حق المطالبة به بسقطتها.. بخطيئتها..

وقف قبالتها يرمق طفلها بتردد:

- اسمه إيه؟

تحولت بعينيها لطفلها تناظره بحنان:

- آدم!

كانت تنطقها شبه مبتورة خافتة هاربة.. وهو وفهم وعاتب بما يراه حقه:

- كنا متعاهدين تسمي ابنك إيهاب واسمي بنتي أمنية.

قرارًا سابقًا وإن لامس أيام الطفولة البريئة، ولومًا دافعت عن نفسها ضده بارتباك متوجع:

- خفت ترفض ابن أسامة يكون على اسمك.

وهزة أخرى نفضت قلبه فتحرك نحوها خطوتين أخريين حتى ظهرت لعينيه ملامح طفلها وهو يرد بحدة طفيفة يغطي بها تأثره:

- ما هو ابن أختي برده.

ابتسمت بوهن ومدت يديها به إليه:

- طيب مش هتشيل ابن أختك.

تجمد لحظة يتطلع للصغير بتوتر، رفع عينيه لعينيها ليجد طمأنينة افتقدها فابتسم بالمقابل ومد يديه يحمله برفق مرتبك، ساعدته ليتمكن من حمله بشكل سليم والأمل في غفرانه يلمع بأفق خافقها:

- عقبالك.

همسة خافتة عفوية خرجت منها فأصابته بمقتل!

أي عقبى وهو لا يأتمن أيًا من امرأتيه أن تكون أمًا لطفله!

أي أبوة يطمح إليها وهو في خضم بحثه عن الجاه والسلطان والمال: نسي لمن يكنزه!

ابتسم ساخرًا وتجاهل كلمتها، تحرك نحو أريكة جانبية وجلس فوقها.. أشار إليها لتجاوره فتحركت نحوه بقلب فرِحٍ، لمحت تنقل عينيه بينها وبين طفلها فابتسمت له برقة وهي ترى شرود نظراته.. خرجت همستها بلا وعي:

- سعيد يا إيهاب؟

وكادت ترفع أناملها لشفتيها تحجب آخر أحرفها، فهي بددت لحظة سلام لم تظنها آتية، لكن فاجئتها بسمته المستخفة وصوته الجامد:

- عندي كل اللي اتمنيته؛ ما أبقاش سعيد ليه؟!

ورغم ثقة صوته فحالمية الأنثى وفهم الشقيقة يدفعانها نحو المزيد:

- مش بتتمنى يكون معاك ست بتحبها وتحبك بجد؟

انقلبت بسمته لضحكة خافتة وضحت فيها السخرية:

- والحب هيزود إيه على اللي أنا فيه؟!..

وداعب أنامل الصغير المنمنمة:

- سيبي الحب لناسه.

- وأنت مش ناسه ليه؟!

- عشان أنا مش عبيط.

سؤالها كان سريعًا مهتمًا ومتألما لأجله.. لكن جوابه كان أسرع وبنبرة جافة شابها قسوة وفهمتها هي بمعنى آخر..

نعم هي البلهاء الغبية التي صدقت في الحب..

مرة.. ومرة ثانية..

في الأولى خسرت قلبها والحبيب، وفي الثانية خسرت نفسها واحترامها لذاتها واحترام من حولها وثقتهم..

هذا لو اعتبرنا أن أسامة كان حبًا لا مجرد مهرب جيد ونهاية روتينية لقصة سخيفة لا تجوز أن تنضم لكتاب حكايا المحبين..

أما هو فقد تجاهل الحديث وغير اتجاهه بما يناسبه:

- أنا هاخد لك شقة تكون ليكِ أنتِ وآدم.. مش هاسيبك عالة على جوز خالتك.

حدجته بدهشة قبل أن تطوف بعينيها في المكان الباذخ.. تود لو تسأله من أين لك هذا!.. لكنها لن تفتح معه تحقيقًا تهدم به هالة السلام والسكون التي تحيط بهما في تلك اللحظة!

لهذا ردت بتحفظ قاطع:

- لا يا إيهاب.. أنا مش هابعد عن سمية.

رفع رأسه بغتة يناظرها بحنق:

- بعد ما خطفته منك؟

- هو ما كانش ليَّ من الأول.

جوابها المقتضب الحاسم والسريع أثار غضبه:

- دلوقتِ بتقولي كده؟!

وكانت هي من غيرت محور الحديث هذه المرة، تنهي نقاشًا جدليًا لا طائل من ورائه وتوضح الصورة أكثر:

- آدم له جده وجدته وعيلته، بيحبوه قوي ومتعلقين بيه بعد موت باباه الله يرحمه، بيصرفوا عليه ومخلييني مش ناقصني حاجة رغم طلاقنا، بعدين ده مش موضوعنا.. أنا عاوزة أطمن عليك أنت.

زم شفتيه ثم تنهد، أعاد الصغير بين ذراعيها ونهض يقف بصلابة:

- اطمني.. أنا ميت فل وعشرة.

ورمقها من موقعه بحزم ويقين:

- بكرة أخوكِ هيبقى صاحب أكبر شركة مقاولات في البلد.

ظهر التعجب على وجهها فوقفت تواجهه:

- إزاي؟.. إزاي يا إيهاب؟!

ابتسم بثقة وأشار بسبابته إلى رأسه يدق جانبها ببطء:

- بده.

لم تقل دهشتها بل تعاظمت، وهو صمت.. مع صمته شعرت أنه ينهي زيارتها فضمت آدم لصدرها بحنو وتأملته لحظة تمتمت بعدها:

- ربنا يوفقك..

وسكنت ثانية في آخرها أكملت:

- ويسعدك.

ظلت تنظر إليه ثوانٍ أخرى ثم استدارت لتغادر، خطوة فثانية وبعد الثالثة سمعته يناديها.. التفتت إليه فوجدته خلفها.. يمد يديه ليمسك بوجهها بين كفيه، ينحني بتردد ليقبل جبينها بدفء لا يمنحه لسواها ويهمس لها بشبه بسمة:

- ابقي كلميني.

لمعت عيناها بأمل وعلى شفتيها ولدت ابتسامة مبتهجة.. لقد سامحها!

وجدته يضع بعض المال في لفافة الصغير فتمنعت بخجل ليخرسها هو:

- ششش.. دول مش ليكِ، دول لابن أختي.

ومنح جبينه قبلة قبل أن يعود لعينيها آمرًا:

- لو احتجتِ أي حاجة كلميني.. في أي وقت.

مع نهاية أحرفه لم تقاوم هي الاقتراب تلك المرة، ارتمت فوق صدره وابنها بينهما تنشد قوته التي اعتادتها سندًا لها.. وهو لم يبخل بل مد ذراعه يحيط بكتفها وبكف الآخر ربت على ظهرها.. ثوان وأبعدها محافظًا على بسمته فالتقطت هي بقاياها في ذاكرتها ورحلت..

رحلت بشبه اطمئنان..

رحلت بسكون..

وعاد هو يرسم ختام قصته كما يريد!

***

بعد ثورة الطبيعة غالبا ما تبدأ فترة سكون.. صمت.. هدوء.. تنقية الشوائب التي أثارتها العواصف!

وحبيبة حاليًا تعيش تلك الفترة بكل أبعادها.. فبركان حياتها ثار واندلعت نيرانه.. حرقتها حمم الغيرة والمهانة.. وهدأ ثورتها صدمة بل صفعة إفاقة نالتها عندما كادت أن تفقد نفسها وهي تتخبط يائسة إثباتًا لأنوثة وبحثًا عن اهتمام..

جلساتها النفسية تحرز تقدمًا ملحوظًا، يكفي إدراكها أنها تحمل جزءً من المسئولية عن فشل زواجها.. فنبيل لم يكن المخطئ الوحيد، هي أيضا غفلت عن ملاحظة وإدراك المشكلة الحقيقية بنبيل..

تقسيم الذنب بينهما وعلى عكس المتوقع منحها نوعًا من الراحة.. على الأقل هي تعلم الآن أن الخطأ لم يكن بها!..

ولأنها تسعى لبداية جديدة، وتحاول تجاهل الألسنة التي لا ترحم؛ فقد اتخذت قرارًا جريئًا بتلبية دعوة إحدى صديقاتها المقربات لحضور حفل زفاف شقيقها الوحيد والعائد من الخارج منذ فترة ليقترن بحبه القديم كما أخبرتها صديقتها، مضيفة أن العروس مطلقة حديثًا من الرجل الذي فضلته قديمًا على شقيقها..

وصلت حبيبة حفل الزفاف المقام بأحد الفنادق ذات الشهرة العالية.. رافقها صلاح حتى باب القاعة وتركها بعهدة الصديقة على وعد بعودته بعد ساعتين ليصطحبها لمنزلها.

جلست برفقة صديقتها لبعض الوقت وهي تستمع للمرة العاشرة لقصتها حول شقيقها الذي ترك البلاد منذ سنوات بعد زواج الفتاة التي أحبها وتمناها.. ولم يرتبط بغيرها طوال تلك السنوات، وما إن وصله خبر طلاقها



حتى عاد من فوره محاولًا إقناعها بالزواج منه.. وأخيرًا تحقق حلمه بعدما منحته موافقتها.. وأنهت القصة ببضعة كلمات لم تدرك قسوتهم:

-دوخته على ما وافقت.. مش فاهمة واخدة في نفسها قلم ليه!.. أومال لو كانت بنت بنوت مش مطلقة؟..

قطعت كلماتها وهي تلمح شحوب وجه حبيبة التي نهضت فجأة:

-أنا عطشانة قوي.. هروح أشوف عصير أو ماية.

وابتعدت دون أن تترك لصديقتها فرصة للاعتذار منها.. هي تدرك واقعها ولكنها فقط لا تفهم قسوة من حولها بتذكيرها بذلك الوضع باستمرار!

طلبت كوبًا من الماء البارد من أحد النُدل ووقفت بأحد أركان القاعة ترتشفه ببطء لتهدئ غضبها.. ولكن الليلة لم تكن ليلة حظها.. فبالقرب منها تعالت ثرثرة بعض النسوة وبالطبع كانت العروس هي محور الحديث:

- تعرفي إن العروسة مطلقة والعريس ما سبقلوش الجواز؟

- أيوة كانت متجوزة واحد من أعيان المنصورة تقريبًا.. مال وجمال ورجولة بس الحلو ما يكملش..

- آه.. عندك حق.. جوزها الأولاني ما بيخلفش.

- وماله.. هي لو أصيلة كانت كملت معاه..

-واقعة واقفة.. العريس بسم الله ما شاء الله راجع من بره مليان.. شايفة الفرح اللي عاملهولها!

- أومال لو كان أول بختها!

- بكره يشرب المر.. دي واحدة خِلت بجوزها علشان مش بيخلف..

لم تحتمل حبيبة المزيد.. فوجدت نفسها تقتحم جمعهن تهتف بهن:

-هي غلطت في إيه!.. اتطلقت؟!.. هو الطلاق ده مش شرع ربنا!.. عايزة تكون أم؟.. حقها إنها تكون أم.. حقها أنها تقرر تكمل مع الأول بما يرضي الله أو تنفصل بما يرضي الله علشان تشبع غريزة ربنا زرعها فيها.. الأمومة.. لو دي بنت واحدة فيكوا أو أختها هيكون ده رأيكوا!.. ولا هو كلام وبس!.. صحيح اللي إيده في المياية...

سحبت نفسا عميقا قبل أن تكمل:

- اتقوا الله..

شعرت بمن يسحبها من ذراعها بعيدًا عن تجمع النساء فالتفتت لتجد صديقتها تهمس لها بحرج:

-حبيبة.. هدي نفسك.. صوتك بيعلى وإحنا في فرح.



ابتسمت حبيبة بحرج وهي تربت على كتف صديقتها معتذرة لارتفاع صوتها ولكنها بأعماقها لم تكن آسفة على تلك الكلمات التي قذفت بها في وجه هؤلاء النسوة.. سألتها عن شرفة أو نافذة فهي كانت بحاجة ماسة لاستنشاق الهواء الطلق.. وانطلقت نحو الشرفة التي أشارت نحوها صديقتها غافلة عن عينين تتابعان الموقف من بدايته!..

بالشرفة شردت بمنظومة النجوم المتناثرة بصفحة السماء.. وأغمضت عينيها بإجهاد سامحة لنفسها باستنشاق كمية كبيرة من الهواء الطلق لتنتفض فزعة عندما وصلتها نحنحة خفيفة بعدها نداءً خافتًا باسمها:

- مدام حبيبة!

التفتت لتجد عبد الرحمن بمواجهتها وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ودودة.. هتفت بدهشة:

- دكتور عبد الرحمن!.. حضرتك معزوم في الفرح؟

أجابها ببساطة:

- أنا أخو شهيرة... العروسة اللي دافعتِ عنها.

جاء جوابها سريعًا:

- أنا دافعت عن مبدأ.



أومأ متفهمًا:

-ده ما ينفيش أنك تستحقي الشكر.

هزت رأسها بامتنان صامت.. فأردف متسائلًا:

-صحيح أنتِ تقربي إيه للعريس؟

أجابته برقة:

-أخته تبقى صاحبتي.

هتف بمرح:

-يا خسارة.. أنا قلت هنبقى قرايب.

ابتسمت بحرج وهي تشيح بوجها بعيدًا.. بينما غيرهو اتجاه الحديث حتى لا يسبب لها مزيدًا من الحرج:

- أخبارصحة والدتك إيه؟

همست بارتباك لم يفارقها:

-الحمد لله.. أحسن بكتير.

عاد يتساءل:

- مرت فترة من غيرما تيجي متابعة!

خرجت كلماتها بصوت خافت:

- هي أحسن.

- برضوه المتابعة مهمة.

هي تعلم ذلك ولكن أمها غاية بالعناد.. ولا ترغب بدخول دوامة الأطباء رافضة بشدة الذهاب للمتابعة والكشف الدوري، تنهدت بيأس وهي تخبره:

-ماما عنيدة قوي.. مش بقدرعليها.. دماغ جبلي.

غمغم متسائلًا:

-جبلي!

أجابته بعفوية:

-ماما لبنانية.

أطلق صفيرًا منخفضا تسبب في دفع الدماء لوجنتيها بلا سبب.. فاندفعت تستأذنه راحلة.. ولكنه استوقفها مؤكدًا:

- هنتظرزيارة والدتك علشان المتابعة.

أجابته بسرعة:

-إن شاء الله.



وابتعدت سريعًا ترافقها نظراته المهتمة.. وقبل أن يتحرك ليعود داخل القاعة فوجئ بوالدته تتعلق بذراعه متسائلة بمرح:

- اللي واخد عقلك.

أحاط كتفيها بذراعه وهو يخبرها:

- اطمني يا ست الكل.. عقلي في راسي مش في أي مكان تاني.

تساءلت بنبرة أم تتلهف لزواج ابنها:

-وقلبك يا حبيبي؟

أجاب بجدية:

- أهو ده اللي عمره ما هيسيب مكانه.. أنا ماليش في كلام الحب والمشاعر يا أمي.. واللي حصل مع شهيرة أكبر دليل على أن الحب ده كذبة كبيرة.

همست بيأس:

- يعني مش هفرح بيك يا ابني؟

سأل بدهشة:

-ليه يا أمي!.. هو لازم حب!.. ماله جواز العقل؟

غمغمت الأم بتساؤل:



-نشوى!

قاطعها بثقة:

-نشوى كانت انبهار ببنت حلوة.. عجبني جمالها لكن أما قربت؛ كل الانبهار راح.. ما كانش في راحة ولا تفاهم.

وصلت والدته لهدفها وهي تتساءل:

- والبنت اللي كنت واقف معاها من شوية عرفت تتفاهم معاها؟

ابتسم عبد الرحمن بخبث وهو يمرر كلمة "بنت".. وأخبر أمه بتواطؤ:

- تعرفي أن أمها لبنانية؟

انتقلت البسمة لشفتي الأم ولكنها كانت ابتسامة راحة.. وهي تكرر:

- لبنانية!.. نيالك حبيبي.

قهقه عبد الرحمن ضاحكًا:

- أهوه ده اللي أخدناه من التركي.

وكزته بمرفقها وتعالت ضحكاتهما معًا.. هي تدرك بحدس الأم أن عقل ابنها بدأ ينشغل بتلك الفتاة التي كان برفقتها منذ دقائق.. وتلك خطوة للأمام..

خطوة ستلاحقها هي بكل اهتمام وإن وجدتها مناسبة لتكون زوجة لابنها.. فلن تهدأ حتى تراها ببيته .. تحمل أطفاله.. وأحفادها!

***

السكون.. قد يكون سكون لشخص أو لحالة ما..

ربما وقتها يكون دليل رضى بقضاء الله.. وقد يكون إشارة لبداية تغير.. أو بأحسن الأحوال قد يكون مرحلة انتقالية.. فترة هدنة احتاجت لها بشدة!

فأفكارها تغيرت وأولوياتها تبدلت تمامًا..

انتقلت من مرحلة الفتاة الصغيرة كسيرة القلب لهجران الحبيب.. ومرت بفترة المرأة المخدوعة والمغرر بها والكارثة أنه كان برضاها التام؛ فلا تستطيع إلقاء اللوم كله على أسامة فقط، لتصل لوضع الزوجة المتورطة بزيجة بائسة..

وأخيرًا المطلقة والأم لطفل هو قرة عينها.. تراه جائزتها واختبارها بذات الوقت، وكم تتمنى لو تنجح بذلك الاختبار..

تأملت صغيرها الملفوف بإحكام بغطاء طفولي فخم كان هدية من سمية لابنها الروحي كما تدعوه.. ملامح الصغير مزيج من ملامح خاله ووالده.. ابتسمت بحنان، سيكبر بإذن الله ليكون فتى وسيمًا وستعمل بأقصى جهدها أن تماثل أخلاقه وسلوكياته جمال وجهه.. ذلك هدفها الوحيد والحلم الذي ستسعى لتحقيقه..

-دكتورة أمنية!

رفعت رأسها لتلتقي عيناها بعيني مساعدة الطبيب حسام.. فابتسمت لها بود وهي تسمع الأخيرة تخبرها:

-اتفضلي الدكتور هيشوف آدم دلوقتِ..

دلفت لغرفة الطبيب ببطء.. تلك المرة الثالثة تقريبًا التي تأتي فيها لعيادته، فهو يتابع حالة آدم بعد خروجه من المشفى ويبدي اهتمامًا حنونًا بصغيرها..

التقت نظراتها بنظراته الشفوق وهو يدعوها للجلوس بهدوء.. كانت في البداية تتوجس قلقًا أمام تلك النظرات ولكنها بعد ملاحظتها لتعامله مع مرضاه، أطفاله كما سمعته مرة يلقبهم بالمشفى.. وقدرته على احتواء قلق الأمهات والآباء على السواء؛ أدركت أن ذلك الحنان العفوي هو طبع به.. وربما هو ما يفرضه عليه عمله!

عادت بنظراتها إليه مرة أخرى لتلمح تغير نظراته لتحمل شيئًا من الفضول.. فضول ترجمته كلمات لم يستطع ردعها:

-غريب إصرارك على لبس الأسود رغم...

قطع كلماته مستشعرًا حرج موقفه، فهو لا يملك حقًا للتساؤل ولا حتى الفضول..

رمقته أمنية بنظرة حذرة وهي تجيب على سؤاله غير المكتمل:

- لازم أحترم وضع ابني، اللي توفى ده كان أبوه..

أومأ حسام متفهمًا وغارقًا بحرجه، استدعى قناعه العملي وأشار لها لتضع آدم بسرير الكشف.. بعدها تلبسته الشخصية العملية والمحترفة لمهنته كطبيب، ففحص الطفل وتأكد من سلامة وضعه الصحي، وزنه، طوله وسائر مؤشراته الحيوية..

داعب الصغير بحنان بعدما انتهى.. وعاد لمكتبه ليخط بعض التعليمات والأدوية.. وأفكاره عادت لحيرتها بين عملية مهنته وإنجذاب غير معتاد يستشعره نحو تلك الأم الصغيرة..

ميل قلبي ربما!..

لا يدري توصيفًا لما يشعر به!..

كل ما يدركه أنه شعور مختلف بعيد كل البعد عن تفكيره العقلاني حول حبيبة مثلًا.. فهي بنظره كانت زوجة مناسبة وأمًا حنونًا لابنته، لكن.. حاول جذب أفكاره بعيدًا عن رقة أمنية وهالة الشجن التي تحيط بها وترغمه على تمني لحظة يرى فيها ابتسامة حقيقية على شفتيها..

تبًا!..



حسام.. هل تمر بمراهقة متأخرة أم أنت بحاجة ماسة لوجود أنثوي بحياتك؟!.. أفق من تلك الغفلة فالفتاة تصغرك على الأقل بعشر سنوات أو أكثر..

عادت أمنية تحمل طفلها بعدما أعادت ترتيب ملابسه ودثرته جيدًا وشفتيها تسألان بلهفة:

-هو كده آدم بقى تمام يا دكتور؟.. أطمن يعني؟

ابتسم لها بحنانه المعهود:

-اطمني.. آدم زي الفل.. وإن شاء الله ياخد تطعيماته في مواعيدها..

تناولت منه ورقة التعليمات وهي تشكره بهمس.. ليجد لسانه يخذله للمرة الثانية:

-ممكن رقم التليفون بتاعك؟

رفعت عينيها إليه بدهشة وقد عادت لها هواجسها.. لمَ يطلب رقمها وهو مدون ببيانات آدم من البداية؟!..

فهم معنى نظراتها وقد استدرك أن رقم هاتفها مدون عند مساعدته.. شعر بحرج موقفه فأردف بسرعة مانحًا لها عذرًا واهيًا:

-علشان التطعيمات..

وصمت بحرج، فتبريره لا معنى له!..

أفكاره تموج بحالة من الحيرة لم يعرفها من قبل.. وكل ما يدور بعقله أنه يرغب بالتعرف عليها أكثر لعله يحسم تلك الحالة الحائرة التي يمر بها!

منحته أمنية نظرة قاسية وخاصة بعدما لمحت إطارًا يضم صورة فوتوغرافية لطفلة لم تتعدَ الثامنة وبدا واضحًا من ملامحها القريبة لملامح حسام أنها تنتمي له..

-بنت حضرتك زي القمر.. ربنا يخليهالك..

قالت جملتها بنبرة موحية وخاصة الإضافة الأخيرة:

- هي ووالدتها طبعًا.

أخفض حسام نظراته مدركًا المعنى الخفي لكلماتها.. وتحذيرها المبطن:

- والدتها الله يرحمها..

تجمدت أمنية للحظات ضمت بها آدم لصدرها أكثر ثم غمغمت بحرج:

- الله يرحمها..

ابتسم حسام برقة وهو يرفع صورة ابنته ويتلمسها بحنان:

- سما.. اسمها سما.. هي طالبة عند مدام حبيبة في المدرسة..

منحته أمنية بسمة مواسية:

- ربنا يخليها لك ويعوضك بها خير.

غمغم مؤمنًا:

- اللهم آمين.

حيته برقة:

- عن إذنك.

استوقفها قبل أن تحرك مقبض الباب:

- على فكرة لو تحبي تشتغلي؛ في مكان متاح في مستشفى دكتور عبد الرحمن..

تنهدت بيأس.. ولسان حالها يردد وماذا بعد!..

أما عقله فكان يلسعه بسياط اللوم والعتاب ويصرخ بتهوره غير المعتاد أن يتوقف عن إحراج نفسه بتلك الطريقة..

هزت أمنية رأسها برفض:

- أنا لسه ما خلصتش الكلية.. ظروف الحمل أخرتني تيرم كامل.

هز كتفيه بإحراج أصبح مصاحبًا له:

- ربنا يوفقك في دراستك.. وإن شاء الله بعد ما تاخدي البكالوريوس يكون ليكِ مكان معايا..

توقف مستدركًا:

- معانا في مستشفى عبد الرحمن..

أومأت شاكرة وتركته راحلة..

هو غارقٌ في حيرته وسط مشاعر مختلفة عما عاصره من قبل.. وأفكار عقله العملية التي تردعه عن مجرد التفكير بها..

وهي بدورها ترتجف رفضًا وقلقًا لمجرد التفكير بأن رجل ما يفكر بها كأنثى..

هي ودعت تلك الفترة..

فقط تريد الهدوء.. السكون.. تريد هدنة!

***

والسكون قد يكون الجائزة النهائية.. مكافأة نهاية طريق الوجع.. ودرب الآلام..

وسمية مرت بطريق التضحية لنهايته، نالها من أشواكه ما نالها.. لم تشتكِ ولم تنسحب بل تابعت للنهاية لتنال جائزتها!..

عشقًا لم تكن تتخيل أن يكون لها.. زوجًا هو السند والدعم والقلب النابض.. وبيتًا هادئًا هو العش الذي طالما تمنته.. ومهنةً تجيدها وأصبحت على بداية الطريق لإتقانها واحترافها..

كانت تلك أفكار سمية وهي تقف أمام مرآتها تلف نفسها بمنشفة وردية ضخمة وتتأمل ملامحها المشرقة.. رغمًا عنها رجعت بذاكرتها ليوم بعيد.. ذكرى بغيضة هاجمتها رغم إرادتها.. ذكرى تهجمه عليها وانتهاكه لضعفها..

هو عوضها عن تلك الحادثة لا تنكر.. بذل قصارى جهده لتنسى ذلك اليوم.. لكنه لم يعتذر منها..

ربما لأن كل كلمات الاعتذار لا تكفي تعويضًا لها!..

غامت نظراتها بالذكرى الأليمة لتفاجأ بانعكاس صورته بالمرآة وعينيه تحملان ذات الذكرى..

اقترب بخطوات بطيئة مترددة حتى وقف خلفها تمامًا ليحيطها بذراعيه ويرتكز بذقنه فوق رأسها.. يضمها لصدره بشدة وشفتيه تهمسان بصوت تسمعه منه لأول مرة:

- سمية.. أنا...

التفتت بين ذراعيه تضع أناملها على شفتيه تمنعه من مواصلة الكلام:

- بلاش يا حمزة.. ما تعتذرش.

همس بدهشة مرتبكة وهو يبعد رأسه ليملأ عينيه بصورتها:

- معقولة!.. معقولة هتغفري الغلطة دي!

قاطعته بهزة رأس نافية وهي تبتعد عن محيط ذراعيه، ترفع عينيها له وتتمنى أن يتفهمها كما يفعل دائمًا:

-الاعتذار ده لو كان لسمية القديمة كانت قبلته وفرحت بيه.. يمكن تستكتره على نفسها.

شبكت أصابعها ببعضهم وهي تعقصهم بحركة متوترة مردفة:

-بس سمية الجديدة مش هتقدر تقبله وتسامح بسهولة.. مش هاقدر يا حمزة.

بسطت ذراعيها أمامها بعجز وهي تهز رأسها:

- مش هقدر.

خفض نظراته بارتباك، يدرك عمق جرحها القديم، ويعلم صعوبة الغفران.. لكنه تساءل بأمل:

- أبدًا... مش هتقدري تسامحي أبدًا؟

منحته بسمة مرتبكة:

-أنا بحاول أنسى.. وبنجح وهنجح.. علشانك هنجح.

اقترب ليضم كفيها بين يديه يقبل كلا منهما باعتذار رحيم.. ويقلب كفيها ليطبع بباطنهما قبلات صغيرة دافئة جعلتها تبتسم بحنان وتحرر كفيها لتضم بهما وجه، تقبله من وجنتيه بشغف وهي تسأله:

- هتفضل جنبي على طول حتى لو ما قدرتش أغفر؟

ضمها لصدره بحنان يريد تعويضها عن كل لحظة إساءة تعرضت لها وهمس بوعد:

- هفضل جنبك وأساعدك تغفري وتنسي.

أجابته بحب:

- بحبك.

تأوه بقوة وهو يحاول رفعها بين ذراعيه ولكنها تملصت منه بمشاكسة:

- استنى بس.. ساعدني أنشف شعري.

زمجر بتذمر:

- سووومية!!

لتجبه بدلال وهي تداعب طرف قميصه:

- حمززززة.

غمغم بشكوى:

-يا غلبك يا حمزة.

هتفت بحماس:

-بجد بقى.. تعالى ساعدني أنشف شعري وبعدها عايزاك في موضوع مهم.

جذبها نحوه وهو يهمس لها بوقاحة:

-إحنا نبدأ بالموضوع المهم الأول.. وبعده هساعدك تغسلي شعرك وتنشفيه كمان.

احتقن وجهها خجلًا وهي تفهم تلميحه الوقح.. ورفعت سبابتها له بتحذير جدي هاتفة:

-طيب.. زي ما تحب.

وتحركت لتجلس على أحد المقاعد بالغرفة واضعة ساقًا فوق الأخرى بقدر ما مكنتها منشفتها الوردية وأكملت كلماتها بذات الجدية:

-إيه رأيك لو أعرض الشغل بتاعي، العبايات والطرح الهاندميد في محل عمي سلامة؟.. الشغل ده مطلوب جدًا...

قطعت كلماتها وهي تلمح علامات الذهول على وجه حمزة الذي تجمد بمكانه.. فقطبت متسائلة:

- مالك يا حمزة!.. مش عجباك الفكرة؟

تأمل جسدها الصغير المختفي خلف ضخامة منشفة وردية لعينة وسألها بعدم تصديق:

- أنتِ عايزة تتكلمي عن الشغل!!

أجابته ببداهة:

- أيوة.

هتف بحنق:

- وأنتِ بالفوطة!!

عاد وجهها يحتقن خجلًا وهي ترى اشتعال نظراته وبدأت أناملها تسوي المنشفة حول جسدها تلقائيًا ليصلها صوته مختنقًا:

- قومي إلبسي يا سمية بعدها نتكلم في الشغل زي ما أنتِ عايزة.

نهضت لتقترب منه بخجل:

-أنت متضايق مني؟

جاوبها بسؤال:

- أنتِ مصرة نتكلم في الشغل؟

أومأت بحماس.. فسأل بأسى:

-الليلة باظت؟

هزت كتفها بردة فعل خجلة..

لا تعلم لمَ شعرت أنها لن تستطيع اللجوء لأحضانه الليلة بالذات!..

ربما لأن ذكرى حادثة المنشفة مازالت حية برأسها.. ربما حدسها الأنثوي يخبرها أن تكتفي الليلة بمجاورته في حوار هادئ وعملي..

ربما هي بحاجة لحالة من السكون.. تركن لها قليلًا لتعود مرة أخرى بكامل قوة عشقها له!

***

السكون لا يعني بالضرورة الرضى، فقط قد يعني أننا وصلنا لمحطة أخيرة لا يجوز بعدها أن تكتمل الصحبة أو يستمر الود.. فينقطع حبله لتبدأ بعدها مرحلة أخرى..

وهبة لم تفقد علاقتها الودود بابنة عمها وعم زوجها بل وزوجة أخيه السابقة كذلك، حتى بعد سفرها بما يقرب من شهر.. كانت جالسة بصبحة أمها وخالها تستمع لحوارهما المكرر بنصف أذن وعيناها تشتعلان بعاطفة حب أمومي يجاوره ربتات حانية على بطنها المتكور بطفلها الذي شارف على حضور دنياها..

تتأمل هاتفها وتبتسم وتدرك الشبه بين صورة الصغيرعلى شاشته وبين أبيه رغم رفضه الأولي له وموقفه البغيض الذي تسبب في تدني منزلته بداخلها وهو يشكك بنسبه وبنوته..

انتزعها من شرودها هتاف حانق من خالها:

- يوووه مش هنخلص بقى يا سميحة.

وأمها تأففت بضيق:

- يعني أنت مبسوط بقعدتك دي؟.. واحدة ما عندهاش أصل بجد يا نديم..

واعتدلت بجلستها تواجهه بحنق أخت كبرى تضع نفسها بمكانة الأم:

- كام ست بتصبروتقف جنب جوزها؟.. يمكن كان العلاج المرة اللي جاية ينفع...

ومقاطعته تلك المرة أتت بنهوض عنيف، صوت أعلى لم تخلُ نبرته من ألم:

- حقها.. حقها.. مليون مرة قلت حقها.

وضم قبضتيه بسخط:

- من حقها تكون أم.. لو دي بنتك هتقولي كده؟

ورمقها بحدة:



- ولو العيب كان فيها كنت هتقولي لي روح اتجوز من بكرة وتجيبي لي بدل العروسة عشرة!

وهي تصمت بخجل لكنها تعاند وجعًا عليه، تظن أن بتوجيه الغضب لمطلقته تخفف من ألمه:

- يا نديم دي اتجوزت وعاملة فرح...

- خلصنا.

ثم اندفع مغادرًا المكان وهبة تتابعه بعينيها في أسى..

نعم لمحت كيف ينظر للارا وها هي رحلت.. عايشت قصة حبه القديمة وقد انتهت..

وفي كلتا الحالتين هو خاسر!

وعلى الطرف الآخر من حديثها الهاتفي المكتوب كانت لارا تتأمل كلماتها ببسمة شجن..

- ما بقيناش بنشوفه كتير من بعد سفرك.

وأيقنت لارا أنها تقصد زوجها السابق لكنها تجاهلت القصد والمعنى وغيرت الموضوع:

- شفتِ باسل؟

*شبه عادل قوي.

تبع تعقيبها لحظات سكون فهي تدرك الألم ولم تقصد أن تعيد فتح جرحه، لكن الصبي بالفعل يشبه أباه كثيرًا.. وأتاها الرد معترفًا مقتضبًا:

- أيوة.

* أنا بقى هاحجزه لبنوتي.. مز لبناني مصري زي القمر.

ضحكت لارا وهي تناظر صغيرها القابع بفراشه الصغير المتأرجح بحديقة فيلا زوج والدتها..

كم يشبه أباه!..

وكم باتت تلك ذكرى لا تحتمل!..

لكنها أقسمت أن يكون الشبه بينهما محض ملامح فقط.. ستربيه على أن يكون رجلًا حقيقًا.. سندًا وعونًا.. عطوفًا والأهم.. إنسانًا!

- شو لارا حبيبتي!.. بح صوتي عمو بنادي عليكِ..

رفعت رأسها للرجل الوقور الذي وقف أمامها يتمعن بوجهها الحزين:

- لا تواخذني عمو..

وأشارت بالهاتف بين يديها:

- بتكلم مع هبة.

ابتسم بمحبة:

- احكي لها سلامي وسلام إمك..

وتحرك مغادرًا ثم توقف، استدار إليها محافظًا على بسمته الودود:

- خلصي حكي معها وتعي.. بدي رأيك في شي موضوع يهمك.

علا ملامحها فضول توسعت له بسمته وهو يدرك أنه أمسك بطرف الخيط الذي سيعيد لصغيرته رونقها:

- ما بقول، خلصي وتعي..

هزت رأسها توافقه وعادت تحادث صديقتها التي رغم سوء البدايات.. فقد امتلكت علاقتها معها نهاية جيدة..

نهاية تشي بسكون راحة..

سكون ربما لا تبحث عن شيء بعده.. أو حتى لا ترغب!

***

بعد كل معركة تأتي لحظات السكون..

أما بنهاية الحرب، فالصمت المطبق يصبح خانقًا حد أنك لا تحتمله خاصة وأنك الطرف المهزوم!

يوقن هو بأنه خسر.. تقبل الخسارة لكنه لا يستطيع أن يمررها، علقمها يغص به كيانه كله فيضعف ويستكين للصمت متخذًا منه ستارًا لمداراة الوجع..

نعم هو يتوجع..

فارقته، رحلت.. سافرت وتركت كل شيء لكنها احتفظت معها بالأهم..

بقلبه الذي خانه وتبعها..

وصغيره الذي ظل يُكذب انتمائه إليه حتى أثبتته هي وألقت بالدليل في وجهه ومعه تمسكت بحق الفراق ونالته!

- خلاص يا عادل!.. سيبتها تاخد ابنك وتسافر؟

أغمض عينيه بضيق أجاد حبسه بداخله قبل أن يتنهد وتصك مسامعه الزفرة الحانقة من أخيه الجالس إلى جواره في مواجهة أمهما:

- ما هي أمه.. فيها إيه لما تاخده؟

شهقت والدته وكادت تضرب صدرها حسرة ونقمة:

- أمه!.. طيب ما أنت أبوه ومن حقك تبقى معاه وتربيه.

تكررت التنهيدة وعلا النبرة هذه المرة ضيقًا واضحًا:

- الولد صغير.. محتاجها أكتر مني.

ونهض يقف خلف النافذة التي تطل على الحديقة، تلك التي اعتاد مراقبتها من خلفها قبل زاوجهما وبعده.. طوال فترة حملها وصغيره ينمو بأحشائها..

ويالها من خسارة لا يملك حق الاعتراض عليها..

فهو السبب والدافع.. هو الظالم والجاني.. هو القاضي الذي لم يحكم بالعدل، والجلاد الذي نفذ بقسوة وفظاظة وأمام الجميع حتى اختلت مكانته بقلوبهم!

أخيه.. زوجة أخيه.. وحتى خالها صديقه اللدود القديم!

زفر بحرارة وأمه تزمجر من خلفه لا تتوقف عن جلده:

- محتاجها؟.. كنت رجعتها على ذمتك وخليتها تقعد هنا غصب عنها وإلا كنت أخدته منها، ما كنتش قادر تكسر عينها وتخلي ابنك في حضنك.

ومع اكتمال كلماتها سمع الصوت المكتوم فالتفت ليجد أخيه ملامحه تكاد تنفجر بغضب مكبوت، رمى الكتاب الذي كان يتصفحه من يده بعنف فوق الأريكة واستقام يناظرهما بحنق ثم غادر صافعًا الباب خلفه بحدة لتهتف أمه باستنكار:

- ماله ده؟



وكرر هو فعلة أخيه بحثًا عن راحة لم تعد بالمتناول بينما يهز رأسه ويغادر صاعدًا لغرفته.. والهرب من الجحيم إلى السعير لم يكن حلًا فكلاهما مترادفان..

أدرك ذلك وهو يدلف للمكان بخطوات بطيئة شاردة ليجد زوجته في مواجهته، فاتنة مغوية.. شبه عارية إلا من غلالة سوداء قصيرة لا تكاد تستر شيئًا..

وكاد يتأفف لكنه حبسها، فهو ليس في مزاج لجدال جديد معها.. وهي أيضًا كانت قد قررت تغيير الخطط، فالمواجهة والعنف وتصلب الرأي والمباشرة لا تجدي معه خاصة بحاله هذه، لذلك التجأت للّيّ ذراع الأمور والوصول إليه بأسهل الطرق وأكثرها بدائية..

الشهوة!

خطت نحوه بغنج، أحاطت عنقه بذراعيها وداعبت بأناملها خصلاته من الوراء:

- اتأخرت عليَّ.

بهمس أقرب لفحيح أفعى تبحث عن غذاء.. وما يغذي أنثى مثلها سوى السيطرة!



لم يتحرك بل تصلب بوقفته يناظرها بشبه يأس وضياع.. مررت كفها فوق وجنته:

- حبيبي مالك؟.. تعالى.

ساعدته على خلع سترته فهو عاد متأخرًا من العمل وجالس أمه وأخيه دون أن يصعد إليها، وللنصر خطوات أولها الصبر وجودة التخطيط.. لذلك فتحت أول زرين من قميصه، بللت أناملها من إناء موضوع على طاولة أمام الأريكة ومررتها فوق وجنتيه وجبينه ليشتم فيها رائحة الليمون المنعشة فأغمض عينيه.. جلست فوق ساقيه تمر بشفتيها على ملامحه المجهدة وهو مستسلم دون رد فعل..

نادته ليفتح عينيه فابتسمت بدلال:

- أرقص لك؟

انتبه فجأة على عرضها المخزي فابتسم ساخرًا:

- بقى مروة بجلالة قدرها عاوزة ترقص لي!

وهي تجاهلت سخريته وتعامت عن استخفافه:

- عشان خاطر حبيبي وبس.



والتصقت به أكثروأمالت رأسها تلتقط شفتيه في قبلة بثتها حرارتها وشغفها ليقابلها هو ببروده وصمته بل.. شبه رفضه!

تراجعت برأسها ترمقه بغيظ:

- مالك!

ولم يجب فأكملت والنبرة تعلوها حدة:

- أنت لسه بتفكر فيها؟

- هي مين!

- هتكون مين يعني؟.. بنت درة.

ارتفع حاجباه استهجانًا وأبعدها عنه ليرمقها باستهانة:

- الله.. بنت درة!!.. أنتِ كمان؟

وهي ابتعدت أكثرلتجاوره فوق الأريكة، تزيح خصلاتها بعيدًا عن وجهها وتعود لنعومة الأفعى الأليق بها:

- ما أقصدش.. بس مامتك...

- مش فايق لك يا مروة.

وازى جملته استقامته واقفًا.. قبل أن يناظرها من وقفته بحدة:

- واسمها لارا.. ما تنسيش إنها أم ابني.

جلجلت ضحكتها الساخرة بموازاة الصدمة على وجهه وهي تنهض لتواجهه:

- بجد!.. دلوقتِ بقى ابنك؟

ومع احتقان ملامحه سارعت لتكمل:

- ولما هو ابنك؛ سيبته يسافر معاها ليه؟

لكنه لم يأبه لتوضيحها أو حديثها، أبعدها من طريقه وعاد من حيث أتى..

بل غادر المنزل بأكمله نحو سيارته متجهًا نحو ما تبقى منها ونسيته كما تناسته هو.. مهرتها "بيرل" أو كما أخبرته حينها بتحد عنيد وعينيها تبرقان بجاذبية غير محتملة..

درة!

قادها إلى المزرعة وهناك وقف بجوار الفرس.. ناولها بعض قطع من السكر فحمحمت بألفة ليربت على معرفتها بحنو.. وفوق شفتيه ترتسم بسمة شجية..

هنا شيء من عبق الراحلة..

هنا شيء من سكون..

هنا شيء من راحة..

لا أسئلة.. لا حديث.. لا اتهامات.. لا غضب أو محاولات سيطرة..

هنا كانت براءة دنسها هو ثم أضاعها!

وبعقله كان يجيب على أسئلة أمه وزوجته..

لمَ ترك ابنه يرحل عنه!

ربما لأنه لا يستحق أن يكون له أبًا وقد رفضه قبل أن يولد، وحتى بعدما ولد..

ربما لأن بيته بيئة غير صالحة لتربي طفلًا دون أحقاد الماضي التي تراكمت حول قلوب سكانه..

ربما لأنه أخطأ بحقها لحد لا غفران بعده، وابنه كان آخر ما يمكنه منحه محاولًا التكفير عن ذنب لن تصفح هي عنه..

وربما أنه لم يستطع أن يحرمها منه أو يحرم صغيره منها!..

لقد حرمها كل شيء، قلبه.. حبه.. حنانه واحتواءه واهتمامه ودعمه.. فلم يكن ليبخل بآخر ما يملك عسى أن يكون تعويضًا كافيًا عن خسارتها معه..

الكثير من "ربما".. والحيرة سيدة الموقف، والغضب سلطانه..

هو الخاسر وتلك هي النهاية..

يشتاقها ويشتاق ابنه..

يتوجع للفراق.. يندم ويلوم نفسه وضميره يستصرخه ويصرخ فيه.. يلومه ويدوايه.. يعاتبه ثم يربت على جرح غائر بكبرياء رجل مخذول أخفق بأهم معركة في حياته..

وبطرف المعادلة القصي الأخير.. ينزوي شيئًا من حب في خزي!

أكان يحبها؟!

ويبتسم ساخرًا من نفسه.. أحقًا؟!

أهذا حب؟!

أي نوع؟!

يبدو أنك جاهل بالحب وطرقاته وخرائطه وجهلك أفقدك معه بداية الطريق حتى هُزمت!

وأول الهزيمة فقدان ابنك..

وهب ضميره لجبهة الدفاع من جديد:

"ابنك!!"

ويسخر من ضمير امتلاكه ونسبه لاسمه..

"كان ممكن يكون في حضنك"

وتلتوي الشفاه بمرارة..

"بس غرورك وغباءك وعنادك خلاك ضيعته"

وصرخ هو في أفكاره التي تكاد تقتله..

"ما ضيعتوش.. كنت أقدر آخده منها ويفضل معايا"

لكنه علم بنهاية الأمر.. أنه لم يكن ليفعلها، أنها على حق وأن الخطأ يقع على عاتقه وحده واللوم من نصيبه والخيبة هي جزاؤه..

أخرج هاتفه وأضاء شاشته يتأمل صورة الصغير..

تلك الصورة التي اختلسها من هاتف هبة رغم تحاشيها لقاءه بعد موقف المشفى.. طاف بأنامله حول الوجه المنمنم والذي يشبهه للغاية.. رفعه لشفتيه يقبله بحنين ويبتسم بحزن..

"أنت السبب في خسارتك ليه"

ويشوه عقله الصورة باتهاماته التي لا تتوقف فيغمض عينيه وقلبه يجيب:

"أنا ما خسرتوش"

لكن العقل لا يرحم بل دومًا يهاجم وبصراحة قاسية:

"كمان بتقاوح!"

والخافق يتمسك بأطراف الأمل:

"مصيري أشوفه، لارا مش قاسية.. مش هتحرمني منه"

وكاد يسمع القهقهة الساخرة داخل جمجمته:

"احلم.. أنت زرعت في قلبها القسوة.. مش هتشوفه إلا وهو شاب جاي يدور على حقه.. زي أمه بالظبط"

وتكررت الضحكة بصوت أعلى:

"أنت حرمتها من كل حاجة؛ ليه تستنى منها رد جميل أنت ما عملتوش!"

وصرخ هو هذه المرة.. صرخ بصوته لا بقلبه.. صرخ بوجع وخرجت نبرته متحشرجة مختنقة خائفة:

"لأنها أحسن مني"

وعندما يدركنا الندم؛ نظن أن الصمت حلًا..

لكنه فقط سكون الخانع الضعيف، الذي رسم نهايته بنفسه.. وكانت محض هزيمة!

***

أحيانًا يكون السكون مرحلة انتظار.. تقبع في منطقته لفترة بعدها تحصل على ما تطمح إليه، تنتظر وتتمهل وتخطط للفوز..

بالنهاية.. السكون هو ما قبل النصر!



وهو انتصر مرة وثانية وعلى وشك توقيع عقود الثالثة بفيلا باهر الورداني..
أو للدقة قصره ومشاركته أعماله لتصبح تلك قفزة واسعة في مستقبله المهني الذي بدأه منذ أشهر فقط..

وكما أخبر توأمته..

فبالعقل يكون الفوز.. وهو انتشى به حد إدمانه!

دلف لغرفة نومه بمنزل نشوى ليجدها تمشط خصلاتها بعناية أمام المرآة، التوى فمه باستخفاف واتجه إليها، راقبت اقترابه عبر السطح اللامع حتى توقف خلفها.. مد ذراعيه يحيط خصرها بسيطرة ويجذبها لتلتصق به:

- الحفلة النهاردة؟

سألته وهي تعلم الجواب لكنها ودت قطع طريق شفتيه فوق عنقها وتحركت تغادر طوقه ببرود عقد له حاجبيه فأحكم ذراعيه بتسلط:

- ما أنتِ عارفة إنها النهاردة.

وعاد لقبلاته النهمة فدفعته بعنف أكبر هذه المرة واستدارت تواجهه بعينين ساخطتين:

- أنا مش تحت أمرك يا إيهاب.. روح للعاهرة بتاعتك خليها..

وهزأت بحركة من فمها وعيناها تنظران إليه بوقاحة:

- خليها ترضيك.

ظنته سيغضب، يثور.. يصرخ في وجهها وربما يجبرها على معاشرته لكنها تفاجئت به يزوي ما بين حاجبيه بسخرية، يهز رأسه موافقًا ويلتقط هاتفه من جيبه ليتصل بـ "عاهرته" كما أسمتها قبل ثوان وتحت سمعها وبصرها:

- مش هي العاهرة يا نشوى.. بس على العموم كل حاجة ولها تمن، أنا ممكن آخد اللي أنا عاوزه بمزاجي.. بس لأ.

وحول حديثه للأخرى التي فتحت الخط:

- أيوة يا روني.. وحشتيني.

ونظراته تمشطها بجرأة فاسقة وهمس نبرته يأخذ منحنى موحيًا:

- عارف إني وحشتك.. باقولك ظبطي نفسك النهاردة والبسي الفستان الأحمر الجديد.. أيوووة هو ده، عندنا حفلة مهمة بالليل ومتأكد إنك هتكوني نجمتها.

توسعت عيناها وتناثر منهما الشرر وهي تناظره بغيظ:

- ماشي يا حبيبي.. هاعدي عليك على الساعة تمانية تكوني جاهزة.. سلام يا قمر.

"أنت بتستهبل يا إيهاب؟.. بقى أنا أجيبلك الشغل وأنت تاخد ال...."

قاطعها بجذبة قوية لخصلاتها علا لها تأوه خافت من بين شفتيها وهو يخبرها بغرور:

- احفظي لسانك ده أولًا.. ثانيا بقى مزاجي آخدها هي معايا.. على الأقل بتسمع الكلام وبتراضيني.

زمت فمها تضغط أسنانها بسخط، زفرت ببطء تحاول التماسك وخلصت نفسها من قبضته برقة مفتعلة، اقتربت منه تداعب زر قميصه وتستند لصدره:

- على فكرة بقى أنت ما بتعرفش تعامل الستات صح.

ظهرت دهشة هازئة على ملامحه وهو يراقب ما تفعله فاقتربت أكثر:

- أيوة.. الست بتبقى عاوزة جوزها يدلعها، تتدلل عليه وهو يراضيها.. بس أنت ما بتصدق.

تحولت السخرية لنبرته وهو يهمس:

- بقى كده!

تنهدت أنفاسها بوجهه وانفرجت شفتاها المصبوغتان بحمرة دموية وهي تجيب بهمس مماثل:

- كده ونص.

ورغم أنها تغويه فلم يتحرك ليمتلك ما تعرضه، بل ترك لها متعة إرضائه.. وللحد الأقصى!

وعندما انتهى منها وظنت أنها انتصرت في تلك المعركة عليه وعلى غريمتها.. أنها ستحضر الحفل الذي يوقع فيه زوجها عقد عمل مع من سلبه أحقيته في أن يكون الرجل الأول بحياتها ودون أن يعلم.. ستحضره وتشمت به وترمق بنصر يكفيها هي أن تعلمه..

عندما ظنت أن سكونه إعلان فوزها باغتها بأن تركها ورحل.. رحل للأخرى لتكون هي بصحبته كما أراد.. وانتصر الشيطان عليها مجددًا وصرخت هي في كمد وتوعدت بانتقام لا تدري للآن كيف تنفذه!..

توقف بالسيارة بعدما عبر بوابة القصر الباذخ..

حبس هو والمجاورة له أنفاسهما يراقبان المكان بجشع، تتمنى هي أن تكون سيدته.. ويطمع هو أن يمتلكه ومثله وأكثر..

وجدها تسأله فجأة وعيناها لا تحيدان عن المكان الفخم:

- إيهاب هو أنا هافضل قاعدة في الشقة المفروشة دي كتير؟.. أنت قلت لي هنشوف شقة تانية بدل اللي اتباعت بعد اللي حصل.

جذبته لأرض الواقع بعنف جعله يرمقها بتحذير غاضب:

- وهو ده وقت الكلام ده يا رانيا؟.. انزلي يلا، دي حفلة مهمة وأنا طرف مهم فيها، ما ينفعش نتأخر.

وكما توقع ففاتنته بثوبها الدموي عاري الكتفين وخصلاتها النارية جذبت أنظار الحضور دون استثناء، خاصة صاحب المكان باهر الذي تقدم منهما مرحبًا، يصافحه باحترام ويقبل أناملها بأناقة اقشعر لها جسدها وهي ترمق رأسه المنحنى فوق كفها برقي يليق بقصره..

قادهما لمكان جلوس زوجته التي تكاد تقاربها سنًا، رحبت بها وأخذ هو زوجها لينهيا توقيع العقود.. بعدها وبعد الاحتفال بمشروب روحي يذوقه لأول مرة تركه مع أصدقائه وتوجه نحو الصهباء التي خلبت لُب الرجال بالحفل.. وليس هو بالمستثنى منهم..

ابتسم لزوجته فبادلته البسمة وحولت ناظريها عنه وهو يمد يده لرانيا بلباقة:

- تسمحي لي بالرقصة دي؟!

شعر بارتباكها فجذبها بجرأة وتحرك معها ليقفا بركن هادئ والموسيقى الخافتة تصل إليهما وعيناه تلتقيان بعيني زوجها من فوق كتفها.. ابتسم له فبادله الآخر البسمة بتردد لم يفُته، أحاط خصرها برقة واحتوى كفها قرب كتفه.. ودارها فشعرت بدوار فعلي..

كان قلبها يهدر بصدرها وهي تتخيل نفسها بموقع تلك الجالسة بلامبالاة في صدر المكان، بمكانتها وبملكيتها للقصر الفخم وصاحبه الوسيم الأنيق، صاحبه الذي قربها منه حتى شعرت بدفء جسده يخترق قماش ثوبها الرقيق ويده تنحدر قليلًا لتلامس بحميمة أسفل خصرها.. بينما رأسه تميل ليقترب بشفتيه من أذنها.. بل شعرت بحركتهما فوق بشرتها وهو يهمس بحرارة:

- سرحانة في إيه؟!

ابتعدت بشبه انتفاضة فلمحت الخبث بمقلتيه، ابتسمت بمجاملة تتجاهل لمساته المتجاوزة:

- لا ما فيش، بس عاجبني المكان.. ذوقك يجنن يا باهر بيه.

وضع كفه الثانية فوق كتفها وداعب خصلة شاردة من شعرها بجرأة:

- باهر بس.

خطا بها نحو الشرفة الواسعة والتقط في طريقه كأسين من نادلٍ مارٍ، تابعت رحيلها مع باهر عينا زوجها المنشغل بحديث العمل مع أحد شركاء شريكه الجديد، ابتسم له بمجاملة وكاد ينهض ليتبعها..

تلك ليست غيرة، لكنها ملكه.. ولا أحد مهما بلغت مكانته يجور على ما هو له!

لكن الرجل الذي يجالسه تحدث مرة أخرى ليجذب مسامعه بكلمات عن عمل جديد يفكر أن يكون مكتبه مسئولًا عنه.. ولم يدرِ إلا وهو يستقر ثانيةً بمقعده ويندمج في الحوار باهتمام!

أما عندها فقد ارتكن باهر للسور وناولها أحد الكأسين.. تطلعت إليه بشك:

- إيه ده؟!

ابتسم بمتعة:

- شمبانيا.

انفرجت شفتاها، لا تريد أن تبدو بمظهر الجاهلة الفقيرة، لكنها كذلك تخشى أن تذوق ذاك الشيء فتدمنه وتدمن من ناولها الكأس:

- مش باشرب خمرة.

قهقهته المستمتعة كانت جذابة حد أن عيناها تعلقتا به وبملامحه الوسيمة وهو يلتقط يدها ويدسه فيها عنوة وازت غمزة ماكرة:

- ما تقلقيش.. كحول خفيف قوي، مش هتسكري.

- بس...

- دوقي.

وأشار برأسه جوار نبرته شبه الآمرة، ارتبكت أكثر ثم خضعت وهي ترتشف منه رشفة صغيرة سرت على إثرها حرارة غريبة بجسدها بينما تنتشي بالمذاق القوي الصادم..

ابتسمت ومع ابتسامتها اتسعت بسمته وكرر الأمر:

- كمليه.

أومأت بموافقة وجاورته تحتسيه بتلذذ بدا غريبًا على من تذُقه للمرة الأولى!

شعرت بذراعه تحتك بذراعها وهو يستند بظهره للسور مثلها ويميل برأسه هامسًا بجرأته التي اعتادتها:

- حد قالك إن جمالك ده خسارة قوي يكون ملك لنص راجل؟

غصت برشفتها الأخيرة وسعلت بحدة وهي ترمقه بذهول، فهم اتجاه أفكارها فابتسم بخبث وصمت لحظة أوضح بعدها:

- ما تفهمنيش غلط.

استدار يضع كأسه على السور ويواجهها بقرب لا تبيحه قوانين:

- قصدي أن مشارِكِك فيه واحدة تانية.. متجوز اتنين، يعني يا دوب نصيبك منه النص.

وتجرأت يده نحو خصلاتها مجددًا:

- جمالك ده يستحق التقديس.. معاه هيدبل.

شعر بالرعشة التي انتابت جسدها فانتشى ببسمة واثقة:

- حرام عليكِ تهيني النعمة كده..

حاولت التراجع خطوة وهمستها خرجت باهتة شبه خانعة أيقظت فيه غريزة الصيد أكثر:

- باهر بيه.. ما يصحش كده..

خطوتها اقتربها واقترب فوقها أخرى وهمسه يزداد خفوتًا وحميمية:

- تؤ تؤ.. أنا قلت إيه؟..

ومر بسبابته بداية من كتفها وهبوطًا بطيئًا فوق ذراعها العاري حتى أمسك بكفها بتملك دغدغ مشاعرها:

- باهر.. وبس.

وسكنت تتلقى غزله الفاحش..

سكنت تسمح بملامساته المحظورة..

سكنت تنتشي بنظراته الوقحة التي تكاد تعريها وبذات الوقت تتوهج لها أنوثتها..

وذاك الغروربداخلها يتضاعف ويتأجج ويشتعل..

والسكون ربما كما قال الأقدمون يشبه السكوت..

علامة رضى!

الفصل السابع والثلاثون

تنويه هام

"الأحداث المسرودة في المشهد الأول بهذا الفصل حقيقية من أحد مواقع الاستشارات النفسية، تمت معالجتها أدبيًا لتناسب السرد الروائي، لكنها لم تخِل بمضمونها الواقعي"

**

الوقت.. العامل الأهم والأقوى في تحديد المصائر، الوقت الذي قالوا أنه كالسيف..

حاد قاطع، إن لم يكن ذا فائدة لك؛ فستحل الكارثة!.. وإن لم تجاريه فسيتخطاك وربما يدهسك في طريقه الذي لا يتوقف لأحد..

الوقت الذي أشاعوا أنه يداوي الوجع، وبه ننسى ومع مروره نحيا ونستمر.. لكن هل ذكَّروا الوجع بأمره؟!.. أم تركوه لمحض صدفة تتعلق بالوقت!

الوقت الذي معه نتيه ونكبر ورغم ذاك قليلًا ما تتغير النفوس، أو تتندمل الجروح.. وإن اندملت؛ بقيت الندوب تذكر بالأثر.. بالألم، بما كان وخَلَق ما يكون..

الوقت الذي مروعنادًا معه.. لم تمر أوجاعها فوق صراطه لتنتهي في قلب جحيم الماضي المحفور بخلاياها دون أن يشي برحيل..

ستة أشهر أو أكثر قليلًا هي عمر إقامتها بالمشفى.. تخطو خطوة للأمام، وأمامها تجبن عشرًا فتكاد تتراجع، لكنه هو يشدها دومًا..

هو!!

ربما تتجسد مخاوفنا بحجم أكبر عندما تكون بحيز المجهول، لكن عندما تظهر على أرض الواقع نجد أننا تركناها تتعاظم دون وعي حقيقي بحجمها الفعلي والذي هو أكثر ضآلة من خيالات رعبنا الوهمية.. هي فعلت ذلك، خافت من التصريح، من العلاج.. من فتح الجرح وتطهيره؛ فتركته ملوثًا مضمدًا بضمادة غير احترافية حتى تقيح وطفا أثر قيحه على السطح جوار الفضيحة..

وكان هو حاضرًا ليطيب الجرح ويجبر القلب الكسير، يدعم ويساند ويمنح الأمان كعاشق متفانٍ، دفعته بعيدًا، وكانت مخطئة..

لأن البعد ما زاده إلا قربًا..

زوجها الذي باتت تمتلك من وقته وحياته النصف، وإن أثبتَ بكل البراهين أن ملكية القلب خالصة بين يديها وربما حتى الموت، الذي أمَّن خوفها وقوَّى ضعفها وآزر سقوطها حتى عادت تقف.. تتحرك ولو ببطء!

رفعت رأسها تخرج من شرودها تتطلع للجمع من حولها..

نسوة من مختلف الأعمار، أصغرهن لم تتخطَ مراهقتها بعد، والكبرى ربما تزيدها بخمس عشرة سنة.. ابتسمت دون حركة شفاه بسخرية مريرة..

فالرجل أثبت أنه قادرعلى تحويل الأنثى لبقايا مهشمة مبعثرة على تفاوت عمرها صغُرت أو كبُرت..

تأملت الوجوه، بعضها مفعم بالأمل، نابض برغبة في الاستمراروبالعين لمعة قوة وإصرار، والبعض الآخر شارد.. تائه، حزين والوهن يخط تجاعيده فوق ملامح لم ينجح الزمن في تشويهها بعد..

وهي عالقة في المنتصف، فلا هي امتلكت القوة لتعود، ولا هي بقيت على هروبها وضعفها وسكونها.. هي تحاول، تسعى وتتماسك، تتعلق بكتف الشقيق، وتستند لقلب الزوج وتقرعينها بضمة حانية واستكانة فوق صدر الأم والأخت..

احتواءً ربما لم يجُل بخيالها لحظة من قبل، لكنها تناله وبكرم..



دوى صوت الطبيبة -التي تدير جلسة العلاج الجماعي- بهدوء في المكان ومن خلفها تسربت نغمات ناعمة تبعث على السكينة جعلتها ترفع عينيها لتتأمل طيبة ملامحها وابتسامتها الحانية بينما تتحدث:

- إحنا هنا النهاردة زي كل مرة، عشان نشارك همومنا، نخرج اللي جوانا، نحكي عن أوجاعنا..

وأدارت عينيها في وجوه الحضور باهتمام:

- نعرف إن في ناس اتعرضت للي اتعرضنا له ويمكن أصعب وأشد، بس نجحوا إنهم يتخطوه ويكملوا حياتهم ويتحدوا كل ضعف، يثبتوا قوتهم ووجودهم في المجتمع، يكونوا منتجين وناجحين في البيت والعمل، يكونوا أسرة ويستمروا..

واستمرت في تأملها:

- وناس تانية لسه بتاخد الخطوة الأولى بس عندها العزيمة ومصممة تكمل.

والتفتت برأسها للبعض وخصَّتها هي بنظرة سريعة:

- وناس تالتة لسه بتسمح للخوف يتحكم ويسيطر، بتدي له لجام حياتها وتسيب له القيادة، ودول إحنا في ضهرهم عشان اللجام ده لازم يكون في إيديهم همَّ.

ثم نهضت تقف في منتصف الدائرة التي تكونت من النساء الحاضرات، رسمت خطًا على الأرض بقطعة طبشور ووقفت تضع قدميها حوله، تشير إليه وتتحدث بنبرة قوية:

- الخط ده كتير منكم واقف عنده، متعلق بيه.. خط مالوش معنى بين إمبارح وبكرة.. خط وهمي في العقول بيتحكم في النهاردة، لا قادرين يعدوه، ولا مسموح لهم يفضلوا واقفين وراه لأنهم ببساطة هيضيعوا وفي ناس بيحبوهم، محتاجين وجودهم ومصرين يعدوا بيهم لبر الأمان، للمستقبل.. للحدود الجديدة اللي من بعد الخط.

عادت لمقعدها تتطلع إليهم باهتمام:

- وإحنا هنا عشان ناخد إيد بعض ونكمل، نحكي.. نشارك الوجع، وكمان نشارك فرحة الانتصار عليه، هزيمته والاستمرار وبقوة.

والتفتت بفخر نحو امرأة بدت ملامحها الناعمة هادئة وجميلة للغاية، ترتدي حجابًا أنيقًا وتجلس ببسمة فخور فوق شفتيها:

- ومعانا أدلة إن ده ممكن، بس المهم يكون عندنا عزيمة.

"وإيه الفايدة!"

نبرتها ترددت في المكان بصوت لم يكن به من اليأس قدر الغضب، لقد تحدثت عشرات المرات عن الماضي مع طبيبها، تخيلته متجسدًا ومعادًا

أمامها، تمسكت بحبال الصلابة والبأس والإصراروأفلتت من يدها لأنها لم تكن بالقوة الكافية.. أو ربما بالشجاعة التي يتطلبها الموقف!

- فايدة إيه بالتحديد يا ريم؟!

أشارت بيدها في استهانة لجلستهن والوجوه من حولها على اختلاف النظرة بالأعين:

- فايدة إني أشارك وجعي مع ناس اتوجعت زيي!!.. إني أسمعهم؟!.. هل ده هيقولي يلا أنتِ مش لوحدك أهو، كتيرزيك اتهانوا واتقتلت فيهم أنوثتهم قبل ما تتولد؟.. هيحببني في حياة جوا مجتمع يستاهل الحرق!.. هيرجعني لريم اللي خسرتها من أكترمن ١١ سنة؟!.. هيمحي الألم ويموت الذكريات ويخليني أنام ما أصحاش كل يوم على كابوس جديد بيتكرر فيه اللي حصل!

ابتسمت السيدة بتفهم كأنها اعتادت جدالها، أو اعتادت تلك الأحاديث منها ومن غيرها، مالت برأسها وضمت يديها تستند بمرفقيها فوق ركبتيها لتقترب داخل الدائرة بوجهها:

- فايدة المشاركة في الوجع إنها زيها زي أي مشاركة يا ريم.. بتقلل نصيبك منه.

انعقد حاجباها والمرأة تكمل بنبرة واثقة:



- الفكرة مش بس إنك تعرفي إنك مش لوحدك.. لأ، إنك كمان تعرفي إن في ناس اتعرضت لمواقف أصعب بس قدرت تقف تاني على رجليها، ناس الصح إنك تاخديهم قدوة وتستمدي منهم قوة، تتعلمي من تجربتهم حاجة، وتحاولي..

وتراجعت تسترخي في جلستها بهدوء:

- تعرفي إن اللي حصل ما كانش النهاية إلا لو إحنا قررنا ده وبس.

ثم أشارت بيدها للمكان:

- وهنا.. القرارده مالوش وجود، إحنا يادوب بنبتدي ومكملين في طريق العلاج والنجاح.

ارتعشت شفتا ريم وهي تنظر إليها، لابتسامتها، تُفوِت وجهها لتدور في الوجوه مرة وثانية وثالثة، تبحث عن دعم من نوع مختلف، وتتقابل بالنظرات الحزينة والقوية والواثقة والآملة والمكسورة والحانية والداعمة:

- تحبي تكلمينا المرة دي يا ريم!.. تحكي لنا حصلك إيه!.. إمتى ومن مين وإزاي!

عادت بعينيها نحوها بغتة، صمتت وطال صمتها والقراركان كما المرة السابقة:

- لأ.. هاسمع بس.

ولم تضغط عليها طبيبتها، التفتت بوجهها لتلك المحجبة الأنيقة، تمنحها بسمة ودود مشجعة:

- طيب.. أظن النهاردة "هنا" هتكلمنا عن تجربتها.. هتقولنا إزاي نجحت في تخطيها، لدرجة إنها حاليًا بتشتغل معالجة نفسية، وبتحضر ماجستير عن التحرش الجنسي وعلاقته بالأمن النفسي.

أشارت نحوها بيدها فبدأت الفتاة -التي تشي بعمر يتعدى الثلاثين بقليل- تسرد واقعها، وقبله تسرد ماضيها.. وربما بين طرفي الحكاية نجد قصة تستحق أن تُكتب:

- اسمي هنا، دي تاني مرة أحضر معاكم الثيرابي جروب، المرة اللي فاتت اكتفيت إني أسمعكم، كان نفسي أتعرف عليكم واحدة واحدة.. مش هاقولكم لأني عاوزة أدعمكم بحضوري وبتجربتي بس، لكن أكيد أنا كمان هاستفيد من تجاربكم، من كل خطوة خدتوها لقدام، وكل خطوة خايفين منها لسه..

وابتسمت ولمعت عيناها ببريق آخاذ:



- اسمي هنا.. عندي ٣٥ سنة، ودي ببساطة حكايتي، بنت عادية عمرها عشر سنين، الدنيا بالنسبة لها المدرسة والنجوم اللي بتاخدها في الكراسة، مامتها تقولها أنت شاطرة وباباها لما تنجح يجيب لها هدية!

صمتت لحظة، بدت كأنها تستجمع فيها أوجاعًا مضت ورغم كل شيء تركت الأثر:

- وهدية والدي كانت..

أغمضت عينيها لحظة، بعدها نظرت للجميع بقوة، تدير وجهها تتأمل وجوههم المترقبة بتحفز:

- إنه مصدر أماني هو اللي اتحرش بيَّ.. ما أعرفش علاقته بوالدتي كانت إزاي، بس كتير كان بياخدني أنا أوضته، يقولي أنتِ بنتي حبيبتي وأكتر واحدة بحبها، يخليني جنبه في سريره.. ومرة والتانية بدل الحضن الحنين اللي كنت متعودة عليه بقى حضن من نوع تاني، إيده بدأت تلمس جسمي في أماكن مش طبيعي إنه يقرب منها، يبوسني بطريقة كنت باضحك منها وأقوله بسذاجة زي الأفلام يا بابا فيضحك معايا ويتمادى..

انكسرت نظرتها الصلبة لحظة وهي تكمل:



- ومع عدم فهمي وسكوتي.. ده والدي مش معقول هيكون بيعمل معايا حاجة غلط أو حاجة ممكن تأذيني!.. الموضوع بدأ يتطور، بدأ يخفف من هدومي وهو معايا، ويتخفف من هدومه، يلمس جسمي بـ.. بـ..

ازدردت لعابها وتحشرجت نبرتها بكلمة غير منطوقة فأومأت لها الطبيبة لتتخطاها ببسمة داعمة:

- لحد ما وصل الأمر لأشبه بعلاقة كاملة حافظ فيها على..

وسخرت ببسمة علاها غضب:

- على عذريتي.

شهقت ريم وانعقد حاجباها، تعالت نبضاتها وتعرقت يداها ورعشة جلية تمكنت من جسدها والفتاة تسطر آلامها دون تجميل:

- خفت، رفضت.. بكيت، اترجيته.. يمكن كنت طفلة بس أكيد اللي بيحصل ده مش صح، مش طبيعي، ما كنتش فاهمة هو بيعمل إيه أو أنا بحجمي وجسمي القليل ده بافيده بإيه!.. كان بيواسيني ويطبطب عليَّ، يقولي أنا بحبك، ما تخافيش أنتِ بنتي، ويجيب لي لعب، هدايا وشيكولاتة.. يخرجني نتفسح سوا لدرجة إن أخويا الأكبر مني بسنتين غار مني وضربني..

ورفعت رأسها تستعيد صورة الأمس بسخرية:

- ولما ضربني عاقبه، حرمه من المصروف وقرب مني أكتروالداعي إنه خايف عليَّ وبيحميني، ما كنتش عارفة أتكلم، أقول لأمي بابا بيعمل معايا حاجات غريبة ولا لأ!.. ولو قلت هتصدقني ولا هتكدبني!.. فضلت على الحال ده تلات سنين، بدأت أكبر فيهم وأفهم أكتر، بدأت ملامح الأنوثة تظهر عليَّ زي أي بنت في سني، والغريب إنه كان فرحان بيها قوي.. حاولت أرفض قربه أكتر من مرة لدرجة الغضب.. بعدها اتفاجئت بيه بيبكي!!

أحاطت نفسها بذراعيها وشردت قليلًا:

- بيحضني قوي وبيبكي.. ما قدرتش أبعده، بيشتكي لي من أمي ومن رفضها له وكرهها لقربه، إنه مش بيأذيني ولا يمكن يفكر كده، هو بس بيحب حضني وقربي منه، ولما حاولت أتكلم عن اللي أكتر من حضن كان هو بدأ فعلا يتمادى معايا ودموعه في عينيه.. ماكنتش عارفة أتصرف، كنت خايفة وحزينة ومكسورة وغضبانة وهو بيخلع عني هدومي ويتأمل جسمي ويلمسني ويعمل كل اللي أي راجل ممكن يعمله مع مراته إلا بس حفاظه على كوني بنت عشان عريس الغفلة..

ارتجفت شفتاها رغمًا عنها وعينا ريم تتأملانها بجزع، دمعة غادرة غافلت جفنيها فسالت تقهر صمودها..



مهما تخطينا الألم تبقى تفاصيله عالقة في الروح والعقل والقلب تعيث فيها الفوضى والفساد:

- وكبرت وكبرت معايا همومي، بقيت ثانوية عامة، ويا أنجح وأكمل يا هافضل وعاء إفراغ شهوة غير مكتملة لوالدي.. سبع سنين معاناة لحد ما قدرت آخد خطوة، خطوة ضعيفة تليق بالموقف وبيَّ وبخوفي وجبني، اتوسلت له.. بكيت أنا المرة دي وقلت له إني باخاف منه، من اللي بيعمله معايا.. ما قدرتش آخد خطوة جدية أد ما كانت مجرد محاولة للنجاة قبل الغرق الكلي، واساني وطبطب عليَّ وطمني، وعدني إنه مش هيقرب مني تاني أو يعمل حاجة تضايقني، وصدقته.. صدقته زي كل مرة وعدني فيها إنه مش هيزعجني بعدها أبدًا.. وكالعادة كسر وعده ورجع بمجرد مشكلة مع والدتي انتهت بطلبها الطلاق بعد عشرة عشرين سنة.. طلبت الطلاق وسابت البيت.

سالت دموع ريم تواسي دمعتها الغافلة الوحيدة، تواسي نبرتها التي انكسرت قهرًا وقسرًا رغم رداء القوة الذي تلحفت به في البداية.. سالت وهاجت مشاعرها وهي ترى أنها بالفعل ربما أهون حالًا من أخرى أتاها الأذى من سبب وجودها ومصدر أمانها في هذه الدنيا، انتبهت لاستطرادتها:



- وقتها اخترت أفضل معاه، مع مرضه وخوفي عليه وغضبي المفاجئ من أمي بسبب طلبها ما قدرتش أبعد أنا كمان، ورجعت لحضنه وصمتي ورجع هو لدموعه فوق صدري ومعاشرتي.

دارت بعينيها في الجمع وهي تلمح الدهشة والقنوط والاستنكاروالخوف.. مزيج من الغضب والاحتقارفي أعين تفاوتت فيها النظرة التي ترمقها فأغمضت عينيها عنها:

- عارفة.. شكلي ضعيف قوي مش كده!.. ما قدرتش أقاوم أو أبعد في الوقت المناسب، سكت وتجاهلت وهو تمادى.. كنت في فترة صعبة، مافيش صديقات، مافيش حد أقدر أثق فيه أو أحكي معاه لحد ما دخلت الجامعة، وهناك اتعرفت عليه.

عادت لشرودها وبهتت ملامحها أكثر:

- أستاذي، كنت لسه يا دوب مكملة ١٨ سنة، وهو بملامحه ووسامته وشكله كنت باقول يا دوب هيكون أكبر مني بخمس أو ست سنين لحد ما اتفاجئت بعمره!.. كان عنده ٣٨ سنة، يعني أكترمن ضعف عمري، غصب عني اتعلقت بيه، يمكن هو ما كانش شايفني في البداية، وأنا ما حاولتش ألفت انتباهه لأني كنت أجبن من المحاولة..

وابتسمت لحظة في ذات الشرود:

- مرت سنة والتانية وحس بوجودي، بخجلي لما طلب مني الكلام عن جزئية معينة في مكانه، ما قدرتش وخفت وهربت واعتذرت بعدها بدأ اهتمامه بيَّ يظهر.. ما أنكرش إني كنت سعيدة، خايفة بس سعيدة.. واحدة زيي كل تجاربها مع الجنس الآخر لا تتعدى والدها اللي بيعاملها كأنها زوجته، وظهر هو برقته ورقيه في التعامل.. حبيته أكتر، وقتها كانت والدتي رجعت البيت واستقرت الأمور.. علاقة بابا بيَّ يمكن قلِّت بس ما انقطعتش تماما، لحد ما عرفت الحاجة اللي صدمتني، أو تقدروا تقولوا حطمتني تمامًا.

وهزت كتفيها بيأس مرير:

- كان متجوز وعنده بنت وولد.

ولم تقاوم ريم الصرخة المستنكرة:

- أستاذك!

وافقتها بإيماءة وبسمة ساخرة:

- أستاذي.. مش هاقول إنه وعدني بحاجة أو حتى حاول يقرب مني بشكل خارج حدود الطبيعي، صدمتي وقتها خليتني أبعد تلقائي، وخلِت اهتمامه يزيد ويسأل.. وانهرت، اتهمته إنه خاين وكداب ومستغل زي كل الرجالة، إن كلهم مش بيهمهم من البنت غير جسمها وبس وإني عرفت حقيقته بدري

قبل ما يقدر يوصلي.. إن كل حاجة انكشفت ومافيش داعي للاستمرار في التمثيل السخيف ده..

تحولت البسمة لشاردة مجددًا، وطال صمتها قليلًا ابتلعت بعده رشفتين من كوب ماء مجاور:

- الصدمة على وشه كانت أكبر من صدمتي أنا، واحد في مكانه كان ممكن ببساطة يتسبب في فصلي من الجامعة لكن الفضل بعد ربنا يرجع له هو إني بينكم دلوقتِ، إني أنجح وأكمل وأتعالج وأعالج وأتعلم وأفيد اللي حواليَّ بتجربتي اللي انتهت بمساعدته، بصراخي بمرار تجربتي على مر سنين مع والدي وغضبه وإصراره إن لازم الموضوع ده يتوضع له حد.. حد برده لازم يكون بإيدي أنا، علاج نفسي مكثف، ندم والدي وخوفه عليَّ وخضوعه هو كمان للعلاج، بعدي عن البيت في بيت خالتي اللي كان عندها بنت واحدة في عمري، وكل ده في صورة الأخ الأكبر الأقرب لأب..

وعادت لعينيها لمعتها الواثقة القوية:

- فضل واقف جنبي، متابعني ومتابع حالتي مع طبيبتي كأنه من عيلتي، وبعد تخرجي بسنة مات والدي.. مش هاكون قاسية وأقول إنه موته كان نوع من الراحة ليَّ لأن الخوف برده فضل ملازمني إنه ممكن بعد العلاج يرجع يعمل معايا كده تاني وأسكت وأخاف تاني، زعلت عليه وبكيت ودعيت ربنا يغفر

له ويغفرلي.. تبت كتيرواستغفرت أكتر، كان من البداية القرب من ربنا هو الحل بس أوقات مش بنشوف كويس لحد اللحظة المناسبة، أو الرسالة المناسبة..

وشمخت برأسها:

- دلوقتِ أنا معالجة ناجحة في مجالي، باحضر جلسات كتير عن التحرش والاغتصاب، وباحضر ماجستير عن آثاره على المرأة والمجتمع بشكل عام وأسبابه كمان..

ثم نالت ابتسامتها جاذبية خاصة تليق بأنثى لا تزال تحمل شيئًا من حالمية:

- أنا يمكن ماتجوزتش لحد النهاردة، بس مش خوف.. أنا بس مستنية الراجل المناسب اللي أحس إني أماني وأمان ولادي معاه.

وتنهدت ببطء ثم زفرت بحرارة:

- أكيد طولت عليكم.. بس القصة دي بتفاصيلها كان لازم تتحكي، من أولها لآخرها، دي مش قصة خوف أو رعب أو حياة انتهت.. دي قصة كفاح، نجاح، وبداية قدرت بفضل ربنا ومساعدة اللي بيحبوني أبنيها من جديد.. هتلاقوني معاكم باستمرار، باحكيها بنفس التفاصيل، هاتوجع شوية.. هاتغدر بعيني دمعة!.. بس في كل مرة: الوجع بيقل لما بالاقي نظرة فيها أمل زي اللي في عيونكم دلوقتِ، وده النجاح اللي بجد.

ولم يكن الأمل وحده بالعيون، بل كانت هناك عبرات قاسية حفرت أخاديدها فوق وجنة إحداهن، وأخرى تتشبث بذيل سعادة وليدة.. وثانية تتمنى وتحلم وتلمع بعزم.. وثالثة ترتعش، وتهتزوتحمد الله على نعمة ربما لم تمتلكها تلك القوية لكنها نجحت واستمرت وثبتت.

- مين تاني هتشاركنا!

كان هذا صوت الطبيبة وهي تتجول بعينيها بين الحضور، توقفت عند شابة صغيرة خمنت ريم أنها تصغرها، تأملت شجن ملامحها وعينها المنطفئة عكس سابقتها:

- ها يا مريم!.. هتتكلمي معانا النهاردة؟

رمقتها الفتاة بتردد قبل أن ترمش بعينيها، تبتلع ريقها بعسروتفتح فمها عدة مرات دون أن يخرج صوتها.. ثوان طالت لدقيقتين وهي محل نظر الجميع بعدها أتتهن نبرتها مرتجفة هامسة:

- اسمي مريم، عندي ٢٢ سنة.. أنا مش ضحية تحرش بس، أنا ضحية تحرش واغتصاب.

ترددت الشهقات من حولها.. شهقات أخرستها إشارة هادئة من يد الطبيبة والفتاة تنكس رأسها أرضًا ويرتعد جسدها بوضوح:

- عمي اتحرش بيَّ.. وبعده.. بعده عمي الأصغر منه، وانتهت القصة باغتصاب خالي.

ولم تسكن الشهقات تلك المرة إشارة الطبيبة، بل الملامح علاها الخوف والتقزز وبعضها التعاطف، وريم تنظر بوجوم مصدوم كأنما أدركت بالفعل أن ابتلاءات الآخرين تهون من شعورك بابتلاءك كما يقول المثل، دقيقة ترددت خلالها تمتمات مندهشة ودمدمات غاضبة بين الحضور حتى انتهت لتنظر لها الأعين بترقب شبه مذعور، ابتعدت بنظراتها خجلًا وخوفًا وأكملت سرد حكاية وجعها:

- البداية كانت من بعد موت أمي وأنا عندي ١٢ سنة، كنا عايشين برا مصر.. ووالدي طبعا اتجوز بعدها بوقت مش طويل، اهتمامه بيَّ كان شبه معدوم لحد ما جه عمي يشتغل ويعيش معانا.. ويهتم هو بيَّ!

تحولت النظرات لحذرة وهي تتوقع حدوث الكارثة بين أحرفها شبه الهامسة:

- في البداية ما كنتش فاهمة، كنت باخاف بس كنت فرحانة باهتمامه، بقربه.. كنت فاكرة إن أحضانه دي حاجة عادية إنه لما يبوسني ويقرب من شفايفي قوي مش بيكون قصده، لحد ما الموضوع بقى أوضح.. ولمساته زادت وإيديه اتجرأت أكتر على جسمي، وسكت!

تعالت الهمهمات بالمكان مجددًا وهي سارعت تكمل برجفة لا تنتهي كأنما تخشى الصمت فالتوقف التام بعده:

- سكت وأنا مش عارفة ليه!.. فرحانة باهتمامه جايز في الوقت اللي والدي مهتم فيه بمراته وبس، أو.. أو.. يمكن كنت مبسوطة باللي هو بيعمله وأنا بنت يا دوب بلغت من قريب وبتبتدي تحس بأنوثتها، أو يمكن كنت خايفة من أبويا.. مش عارفة، فضلنا على الحال ده أربع سنين.. ما أنكرش إن سكوتي كان سبب إنه يتمادى معايا، وما أنكرش إني غلطت ولحد دلوقتِ مش محددة السبب..

رفعت رأسها ببطء متردد لتلمح النظرات الموجهة إليها، كانت تخشى الاتهام، الاستنكار.. الاحتقار، لكنها لم تلمح أيا منها، وجدت الخوف الذي يشبه خوفها، الضعف والوهن والتشجيع ربما والترقب المنتظِر فأكملت:

- بعدها بفترة جه عمي التاني للدراسة، كان عمري ١٦ سنة وقتها، عمي الأولاني سافر، والغريب إني لقيته هو كمان بيتحرش بيَّ بنفس الطريقة، خفت.. قلت أكيد الغلط فيَّ أنا، يمكن أنا اللي باحرضهم أو باثيرهم، بدأت أراقب نفسي، تصرفاتي ولبسي وحركاتي.. بدأت أخاف وأبعد وأنطوي لوحدي وبرده كنت خايفة أتكلم.. كرهتهم وكرهت نفسي وبدأت أخاف من والدي وإخواتي الأصغر مني، وقتها بدأت تزورني كوابيس مخيفة، بابا بدأ يضربني ويهيني بسبب مراته اللي كانت بتكرهني ودايما تفتعل مشاكل بيني

وبينها.. كرهتهم كلهم جدًا وكرهت الدنيا لدرجة إني فكرت في الانتحار لولا وصول خالي الوحيد..

وابتسمت بمرارة:

- أيامها كنت حاسة إن باب الأمل اتفتح من تاني، إني هالاقي ريحة أمي اللي اتحرمت منها من صغري فيه، هالاقي حنانها وخوفها وحبها وقلت خلاص معاناتي انتهت.. كنت شايفاه المنقذ، وهو كان مهتم بيَّ وبيسألني عن أحوالي باستمرار لحد ما حكيت له اللي حصل، بعد محاولات كتير منه واهتمامه.. كنت فاكرة إنه هيقف جنبي ويحميني لكن اتفاجئت إنه قال لوالدي كل حاجة.. والنتيجة ضرب وإهانة وسب بأفظع الألفاظ..

نالت نظرة عطف من ريم، نظرة خالطها رغمًا عنها شيئًا من نفور، فالفتاة رغم صغر سنها لكن افتقادها للاهتمام من الأب وحنان ووجود الأم جعلها تتقبل ما لا يقبله عقل أو خُلق أو حتى انسانية:

- بعدها خالي أقنع بابا إني أرجع معاه عشان الكلية، وهاعيش مع جدتي وهو هيخلي باله مني..

تشنج جسدها لحظة كأنما اللحظة القادمة هي القاصمة:



- في مرة وهو بيوصلني الكلية بعربيته عرض عليَّ.. حشيش، قال لي إنه مش بيسكر، وإني ممكن أشربه عادي.. مرة والتانية اتعودت.. ومر شهر.. كنت شاربة معاه.. اغتـ..

ارتعشت أكثر وضمت نفسها بضعف، شهقت وغُصت بدموعها فأتاها همس الطبيبة:

- كفاية كده يا مريم؟!

هزت رأسها بنفي، فهي تخطت مرحلة الحديث.. تخطت ما سبق، لا تمتلك القوة الكافية لتعود لكنها تستطيع المحاولة:

- اغتصبني في كرسي عربيته اللي ورا.. كنت باصرخ وأبكي وأتوسله إنه ما يعملش كده، حسيت إنه مش خالي، إنه مجرد ذئب بشري زي ما بيقولوا.. حاولت أدافع عن نفسي بس قدام قوته ما قدرتش.

تحولت دموعها لفيض غزير وهي تشهق مرة أخرى:

- بعدين لقيت بابا باعت يقول إنه عنده عريس ليَّ.. عريس تقريبا في سنه هو.. متجوز وعنده ولاد كمان..

ومسحت دموعها بطرف كمها ببراءة:



- مرعلى حادثة الاغتصاب سنتين دلوقتِ، لسه عايشة مع جدتي اللي رفضت العريس بس طبعًا إصرار بابا كان أقوى، والقدر اختار بالنيابة عني فكان هو اللي رجع في البيعة..

قالتها بسخرية موجوعة:

- جدتي ما تعرفش إني باتعالج، ما حدش يعرف، خالي ما بقيتش أشوفه بعد ما قرر يسافر يشتغل برا هو كمان.. لكن أنا نفسي أقف على رجليَّ، عاوزة أنجح.. مش هاقول عاوزة أنسى لأنه مستحيل، بس عاوزة أمرر الوقت وأعيش.

شجعتها طبيبتها بنبرة حازمة مساندة:

- طول ما عندك الإرادة يا مريم هتنجحي.. هتعيشي وتنجحي.

وطالت بنظرتها ريم مجددًا، كأنما تحثها على الحديث لكنها اكتفت بالهروب الصامت، قد لا يكون وجعها بذات المرتبة لكن الوجع يظل عظيمًا في عيون صاحبه، لا تمحوه أوجاع الآخرين حتى لو هونت منه!

- طيب مي!.. هتشاركينا؟!

وكانت تتطلع لفتاة تقريبًا بعمر ريم، هادئة الملامح والنظرة رُغم شيء من تيه يسكنها، وكان الجواب بموافقة بدأت بعدها حكايتها بهمس خفيض:

- اسمي مي.. عندي ٢٥ سنة، اتعرضت للتحرش فترة طويلة.. كان جارنا في البيت، أكبر مني، كنت عندي تسع سنين.. مامتي ماتت وأنا صغيرة جدًا، ما لحقتش أعرف ملامحها، وهو كان بالنسبة لي أشبه بأخ كبير بيلعب معايا ويهتم بيَّ، بياخدني بيته عادي في وجود مامته ويدخل أوضته، هي كانت بتجيب لي أي عصير أو حاجة حلوة وهو يجيب لي لعب ويلعب معايا لحد ما والدي يرجع من شغله وأختي من جامعتها..

شردت نظرتها وهي تستعيد الذكرى كأنما يعاد تجسيدها قبالة عينيها:

- كان عنده ٢٢ سنة، فرق سن كبير جدًا.. في الأول كان مجرد لعب بلعب طفولية تناسب سني، بعدها بدأ يلمسني.. واللمس زاد لدرجة إنه يخلع هدومي، وهو كمان.. يحطني في سريره ويلمسني بـ.. بجسمه، ينام فوقي وينتهك كل جزء فيَّ.. كان موقف صعب، كنت نص حجمه تقريبا ضعيفة وبأبكي وأنا مش فاهمة..

أغمضت عينيها لحظات أردفت بعدها:

- فضلت على الحال ده حوالي تلات سنين، خايفة أتكلم ومش عارفة لو اتكلمت هاقول إيه وحد هيصدقني ولا لا، وكبرت والموضوع عدى وهو شاف حياته وأنا حياتي وقفت.. كل حاجة فيها وقفت، دخلت الجامعة وأنا كلي خوف ورعب من أي حد.. من كل لمسة أو نظرة أو حتى كلام، من فكرة إن

أي عريس ممكن يتقدم لي وأختي كانت تزن عليَّ عشان أوافق لحد ما فاض بيَّ وما قدرتش أكتم وجعي وأحتفظ بيه لنفسي، اتكلمت مع أختي!

ابتسمت بصدق هذه المرة:

- كانت فعلًا زي أمي.. ما تخيلتش إنها هتقف جنبي أو تصدقني وتساعدني، وهي السبب إني بينكم النهاردة، إني آخد خطوة وأفكر في العلاج رغم خوفي من الجنس الآخر لحد دلوقتِ أو تقززي واشمئزازي من مجرد التفكير في الزواج والعلاقة الزوجية.. بس أنا برده مصممة أنجح، وهي في ضهري..

وبتلك اللحظة رفعت رأسها، تتمعن في الوجوه من حولها، وجدت التعاطف كما وجدت العين الآملة السعيدة فحافظت على بسمتها وهي تعود بناظريها للطبيبة التي تحدثت بهدوئها التلقائي:

- جميل.. جميل يا مي، المهم فعلًا تكوني مصممة وعندك عزيمة..

وانتقلت لغيرها..

القصص كثيرة.. وتلك ليست روايات خيالية نسجها عقل كاتب مجنون أو حواديت تقترب من المستحيل، بل هو واقع.. واقع مُر مرت به كثيرات، ولن يتوقف أو ينتهي ما دام السكوت خوفًا هو المسلك المتاح، ومادامت الجريمة لا عقاب رادع لها..

تنهدت ريم بشجن.. انتهت جلستها وعادت لغرفتها، تفكر، تستعيد الحكايا وتشعر بالألم يتضاعف بداخلها.. ربما كما أخبرها طبيبها وكان صادقًا..

فألمها الآن.. بات لا يخصها وحدها، بل تشارك فيه غيرها، فينلن منها عاطفة جديدة، ورغبة وليدة..

رغبة بالحياة..

بالغد الأفضل..

بالعودة وجبر الكسر والصمود..

بالنجاح..

بميلاد حقيقي تستحقه، وستناله!

***

قالوا أن الوقت هو المادة الخام للحياة..

قد يكون نعم، فأنت لا يمكنك أن تغترف منه قدر ما تشاء، بل كل شيء بمقدار، وكلما مر وكلما أجدت تقنينه وإدارته كنت الفائز.. ولو كان فوزك ذاك من زاويتك الخاصة وحسب!

نهضت من الفراش بغنج تتلحف بمئزر حريري، تربطه على جسدها العاري بإهمال، تجلس على طرف الفراش مجددًا، وتميل بأنوثة لتمسك بحقيبتها

الملقاء أرضًا، تلتقط منها لفافة تبغ وضعتها بين شفتيها بأناقة وأشعلتها تنفث دخانها ببطء..

"بتدخني كتير اليومين دول يا رونا"

كانت كلمته قبل أن يجذبها لتتوسط بظهرها صدره، ويحيطها بذراعيه في ضمة قوية، تأوهت وهي تلتفت برأسها إليه، تمنح شفتيه قبلة بنكهة التبغ همست بعدها:

- أدمنته..

وقبلته ثانية:

- زي ما أدمنتك كده.

ضحك بفخر ذكوري واضح وهو يتحكم بوجهها بكفه ليثبت رأسها في قبلة طويلة كاد بعدها يسحبها جواره ليعيد الكرة لكنها ابتعدت برقة وابتسامتها تتسع:

- تؤ تؤ.. بطل شقاوة يا باهر بيه، بعدين لسه ما اتفقناش.

- بقيتِ مادية قوي.

- لأ.. غلط، بقيت بافهم الحياة صح بس.

والتقطت حقيبتها ثانية، أخرجت منها ملفًا ورقيًا مطويًا مدت يدها به إليه:

- المشروع الجديد.. امضي، أنت عارف إن المكسب فيه مضمون، إيهاب ما بيقعش إلا واقف.

تعالت قهقهته وهو يذيل الأوراق بتوقيعه:

- أنتِ هتقوليلي!.. ما أنا عارف.

بعدها رمي بالملف على طاولة جانبية وأعادها للفراش، سحب لفافة تبغها من بين شفتيها وألقاها بعيدًا..

ثم نالها مرة.. تلو مرة والثمن مدفوع مقدمًا!

عندما عادت لمنزلها الجديد الذي تقيم به مع زوجها تتأمل سوارها الماسي الأنيق بنشوة؛ وجدته أمامها، ابتسمت بنصر وأخرجت الملف تلقي به إليه:

- مضى!

كان هذا سؤاله المتلهف:

- طبعًا..

وذاك ردها بثقة، لمح توقيعه بسرعة ونهض إليها يجذبها لصدره:

- برافو يا روني.. تميمة حظي أنتِ.

ونال من شفتيها بقبلة لم تمنحه أكثر منها وهي تبتعد برفق:

- أنا مش فاهمة الرجالة دايمًا مستعجلين كده ليه!

- مش فاهمك؟!

غمزته بمكروهي ترفع يدها قبالة عينيه وتهزها ليلتمع السوار ببريق آخاذ جعله يبتسم بلؤم:

- وقعتِ واقفة طبعًا.

داعبت شفتيه بسبابتها:

- دي عمولتي يا بيبو، من باهر بيه.. فاضل عمولتي من جوزي حبيبي بقى اللي جبت له مشروع بسبعة مليون جنيه.

حافظ على بسمته وهو يستدير متحركًا نحو خزانة الثياب، يجذب منها علبة مخملية عريضة ويفتحها أمام عينيها اللتين لمعتا بجشع:

- إيه رأيك!.. يمشي مع الإسورة؟

عضت شفتها السفلى وهي تتناول العقد الماسي الباهظ من العلبة، تتحرك نحو المرآة لتراقبه فوق جيدها الفاتن وهو من خلفها يغلق قفله حوله:

- تحفة.. ذوقك يجنن يا حبيبي.

التفتت تحيط عنقه بذراعيها وتمنحه ما يريد بسخاء، وهو تقبل منحتها لثوان أبعدها بعدها وتراجع خطوتين ليجلس فوق الفراش متكئًا ويأمرها:

- اقلعي كله.. وسيبي العقد بس..

وكأنه بذلك يثبت ملكية خاصة وإن ملَّكها لغيره وقبض الثمن حين أراد!..

أما هي فاستجابت ببساطة.. تتعرى أمامه من ثيابها قطعة قطعة بتمهل، تتغنج في خطوات اقترابها.. وتحكم بجسدها السيطرة..

ولو لوقت ضئيل تتملك فيه رغبات الرجال وأموالهم..

أليس الوقت هو العامل الأقوى والأهم، ولو امتلكت منه ما يكفيها فقط؛ فهي تتقن إخضاعه لمكاسبها الخاصة وكفى!

***

تمر الأيام.. تتدفق الدقائق كقطرات مياه صغيرة تحفر بصخر صلد.. وليس هناك أصلب من الصخر إلا طبيعة البشر..

وأمنية تغيرت طباعها ومفاهيمها.. اعتدلت تصرفاتها وتوازن سلوكها.. مرت بأزمة، بل أزمات ولكنها انتهت بها امرأة مختلفة..

تلك الفتاة الأنانية التي حصرت عالمها بحلم زواج انتهت.. بل تحولت.. كتحول يرقة معدومة الملامح إلى فراشة رائعة تبهج بألوانها وحيوتها حياة من حولها.. تستمد نقائها المستجد من وجود ابنها بحياتها.. تجاهد لتصبح أفضل.. لتكون قدوة.. أم يفخر بها ولدها.. وتفخر هي بقدرتها على تربيته تربية صالحة قويمة..

كانت شرارة قرارها بتحويل حياتها للأفضل والسير قدمًا هي جملة عرضية ألقاها طبيب ابنها.. "الدكتور حسام".. عندما عرض عليها عملًا مناسبًا بمشفى صديقه الطبيب الآخر.. خطيب نشوى السابق.. ولكنها اعتذرت يومها بحجة عدم إتمام دراستها.. وبتلك الليلة البعيدة وهي ساهرة بجوار وحيدها أعادت التفكير.. لمَ عليها البقاء خاملة وانتظار ما يجود به الآخرون عليها.. ربما ابنها يمتلك ميراثًا مستحقًا من والده.. ولكن ماذا عنها!.. هل ستبقى كحِمل ثقيل على خالتها.. أو زوج أختها.. والأسوأ أخيها والذي تتخوف من مصدر أمواله المفاجئة..

لمَ ترضَ بدور المتفرجة المنتظرة الصدقة من الآخرين إذا كان بمقدورها العمل واكتساب دخلها بنفسها!..

وكانت العقبة أمامها انعدام الخبرة.. فهي لم تهتم بالتدريب فيما يخص دراستها.. لطالما كان مؤهلها الدراسي هو مجرد وثيقة تسعى خلفها حتى تكمل مسوغات تأهيلها لتصبح زوجة لحمزة.. فكان لقب زوجته أهم لديها من لقب طبيبة علاج طبيعي.. ومن بعد انتهاء ارتباطها بحمزة جاء أسامة والذي أوضح تمامًا ما هي المؤهلات التي يهتم بتوافرها بزوجته.. ولم تكن الدراسة تشملها..

ولكن الآن..

ما عذرها!..

لا شيء..

هي تملك الدافع والحافزوالرغبة الأكيدة.. لكنها تفتقد نقطة البداية..

ولم تفهم لمَ تمثلت تلك البداية بعرض حسام.. ربما لأنه أول من لفت نظرها لأهمية العمل.. وربما لأنها استشعرت اهتمامه الزائد بها.. لا تعلم.. ولم تعلم لمَ اتصلت به باليوم التالي تسأله عن جدية عرض العمل.. ولكنه اعتذربلباقة:

-المستشفى هتحتاج على الأقل طبيبة متخرجة حتى ولو حديثًا..

همست بيأس:

-مافيش أي أمل؟..

ليجبها ببشاشة:

-عندي عرض بس مش عارف هيناسبك ولا لأ؟

غمغمت بقلق:

-عرض!

وأتاها صوته مطمئنًا:

-دكتور علاج طبيعي صديق ليَّ.. عنده مركزحديث..

صمت ليتنحنح بحرج:

-الحقيقة هو كلمني أنه محتاج مساعدة.. وطبعًا أنتِ فاهمة أنه ما يقصدش طبيبة..

قاطعته أمنية بحماس:

-فاهمة قصد حضرتك.. والعرض مناسب جدًا وفرصة كبيرة علشان أبدأ وأكتسب خبرة..

تنهد بارتياح:

-على خيرة الله.. نقول مبروك..

-الله يبارك فيك يا دكتور.. جميل حضرتك ده عمري ما هنساه..

لم تعلم يومها إن كان احتياج صديق حسام لمساعدة كان صدفة أم أنه مكافأة القدر لها..

فهي بدأت العمل بالمركز.. ورغم بساطة مُسمى الوظيفة إلا أن صاحب المركز عندما علم بكونها طالبة بسنتها النهائية وستصبح قريباً زميلة له.. لم يتوانَ عن منحها ما تحتاجه من خبرات عملية.. ومعلومات طبية تحتاجها بحياتها.. حقاً كانت تلك الوظيفة نعمة كبرى تشكر ربها عليها بكل ليلة.. وبالطبع تشكر حسام والذي أصبح صديقًا مقربًا منها..

صديقًا تتعامل معه بكامل الحذر.. فهي مرت بنار تجربة صهرت أصالة معدنها وأظهرت طيبه.. ومنحتها درسها القيم بالحياة.. فلن تمنح ثقتها بسهولة.. رغم أن حدسها الأنثوي يلح عليها بأن ما يسعى حسام خلفه يتعدى الثقة..

هو يبحث عن مشاعر.. قلب.. عن استسلام عاطفي وعقلي.. وإن كان هادئ الخطوات واثقها إلا أنه لا يخفي إعجابه بها.. وبقدرتها على تخطي الأزمة تلو الأخرى.. بأمومتها الجارفة رغم صغر سنها.. برقي طباعها ودماثة أخلاقها..

وهي بكل مرة تسمعه يشيد بتلك الأخلاق ترفع دعواتها للسماء أن يحفظ لها شقيقتها سمية فهي صاحبة الفضل الأول لذلك الرقي وتلك الأخلاق..

ورغم إعجابها بحسام.. بل أن مشاعرًا ما بدأت تناوش قلبها.. إلا أنها وضعت حدودًا صارمة للتعامل.. حدودًا زادت إعجابه بها.. ليصبح أشد وضوحًا وتحاول هي الهرب فتمنع أي اتصال به إلا لعلاج آدم وفقط..

ومع محاولته جاهدًا كسر جمودها واقتحام أسوارها إلا أنه كان يصل حد صدها له محترمًا ذلك الرفض.. وتاركًا لها مساحة من الوقت تحتاجها.. ترمم بها مشاعرها وتطبب جروح نفسها وقلبها..



ومر شهران بين محاولاته للاقتراب البطئ ومحاولتها للابتعاد.. لتلعب الصدفة لعبتها أو لنقل القدر.. فلا وجود للصدف في ظل تصريف رب الكون ومشيئته..

ويشاء الرحمن أن تكسر قدم ابنة حسام.. وياله من حدث مؤلم للفتاة الرقيقة الناعمة.. التي ظلت حبيسة جبيرة طبية لمدة ثلاثة أسابيع.. ومن بعدها بدأت جلسات العلاج الطبيعي..

وكانت أمنية مسئولة نوعًا ما عن تحضير الفتاة لتلك الجلسات وبأغلب الوقت تحضرها معها.. لتعود العلاقة بين حسام وأمنية وتلك المرة باتت أكثر سلاسة وأشد تفاهمًا.. فأمنية تأقلمت مع الصغيرة كأخت كبرى لها.. ووقعت سما بعشق آدم الرضيع المبتسم على الدوام والذي اضطرت أمنية لاصطحابه مرتين لمقر عملها لانشغال سمية بمجالسة خالتها..

تعمقت علاقة حسام بأمنية فلم تعد مجرد مشاعر بلا مسمى تموج بأعماق كلا منهما.. بل وجود طفليهما بمركز تلك العلاقة منحها ثقلًا وحدد ملامحها..

واليوم بالذات التقت بحسام بإحدى المنتزهات حيث قضت وقتها مع سما ينتقلان من أرجوحة لأخرى.. وحسام يدفع سما مرة.. ومرة ثانية يدفع أمنية المحتضنة طفلها لصدرها..

ولم توافق بتركه لحسام.. فقط أخبرته بمرح:

-آدم عايزيتمرجح..

وكان رده ضحكة عالية سعيدة:

-ربنا رزقني باتنين مجانين..

فتغرس قدمها بالرمال أسفل الأرجوحة وترغمها على التوقف هاتفة بتساؤل شبه غاضب:

-مين الاتنين دول؟

لم يجبها سوى بابتسامة دافئة.. واقترب من ابنته يهمس لها:

-كملي لعب يا حبيبة بابا.. بس هنا قدامنا ما تبعديش..

وتراقبه أمنية بفضول وهو يتحرك ليتلقى آدم من بين ذراعيها برقة ويجذبها لتقف من فوق أرجوحتها الأثيرة وتتحرك بجانبه ليستقرا على إحدى الموائد القريبة..

ويخيم الصمت عليهما لدقائق.. صمت حرج مرتبك.. فهي ترى علامات التوتر بوجهه.. وهي بدورها يتملكها ارتباك هائل..

أجلى حسام صوته ليبدأ كلماته بطريقة مباشرة:



-أمنية.. عايز أبدأ كلامي باعتراف.. وياريت ما تغضبيش وتمشي إلا أما أنهي كل اللي عايز أقوله..

سألته بتوجس:

-اعتراف!

أومأ موافقًا:

-أيوه.. ببساطة أنا بحبك..

نهضت بغتة من جلستها ليسارع هو مطالبًا:

-أرجوكِ.. قلتِ هتسمعيني للآخر..

عادت للجلوس على مضض وسارع هو بإكمال حديثه:

-جوازي الأول من المرحومة والدة سما كان جواز تقليدي.. اختيار العقل زي ما بيقولوا.. حياتنا كانت هادية ومثالية تقريبًا.. إلى أن استرد ربنا أمانته وكانت سما عندها أربع سنين..

غمغمت أمنية بحزن وهي تضم طفلها لصدرها بصورة لا إرادية:

-ربنا يرحمها..

أمن حسام على كلماتها قبل أن يردف:



-مرت سنين كنت أنا وسما بس.. عشنا مكتفيين ببعض.. بس سما كبرت وفعلًا محتاجة أم.. فكرت كذا مرة أني أبحث عن زوجة بس تكون بالدرجة الأولى أم لسما.. يعني للمرة التانية كان تفكيري كله عقلي وعملي..

هزت أمنية رأسها بحيرة:

-أنا مش فاهمة أنت عايز توصل لإيه!

شبك أصابعه بتوتر:

-آسف.. استحمليني للنهاية.. أنا على غير العادة مرتبك جدًا..

أجابته بحسم:

-ياريت تكون صريح وتفهمني الكلام ده ليه؟.

ابتسم بدفء:

-أنا فعلًا كنت صريح واعترفت أني بحبك.. عايز أقولك أني مش مراهق ولا طايش.. ولا شاب بيدور على لقاءات غرامية.. أنا بطلب إيدك يا أمنية.. عايز آخد موافقتك علشان اتقدم رسمي لأخوكِ.

وبرغم أن حدسها الأنثوي أخبرها أنه جاد.. أنه يرغب بعلاقة دائمة.. زيجة واستقرار إلا أنها لم تستطع منع رعدة قلق ومفاجأة مرت بها:

-أنا عارفة أنه في موقف زي ده المفروض اسكت أو أتكسف ووشي يحمر.. أو على الأقل أعمل متفاجئة.. بس أنا مريت بتجارب ومِحن تخلي كل اللي قلته ده رفاهية.. تخليني أظن أن رغبة إنسان زيك بالارتباط بيَّ مكافأة أنا ما استحقهاش..

أوقف حسام سيل اعترافاتها:

-أمنية.. أنا مش مثالي للدرجة اللي بتظنيها.. راجل في سني سمح لنفسه أنه يتأثر ببنت شابة.. أصغر منه بحوالي أربعتاشر سنة.. ده في عُرف مجتمعنا جنون.. أو سفاهة مش مثالية.. أنا لأول مرة سمحت لمشاعري تتحكم بتصرفاتي.. تقريبًا طاردتك.. ده مش أنا.. مش حسام العاقل المنطقي.. بس غصب عني.. شيء أقوى مني كان بيقولي أنك هدية آخر الطريق..

تلك المرة توردت وجنتاها بوضوح وأسبلت عينيها خجلًا:

-أنا حياتي حصل فيها كتير..

قاطعها بوضوح:

-أنا عارف أن والد آدم كانت تصرفاته مش فوق مستوى الشبهات وأنك عانيتِ معاه فترة..

وكان دورها لمقاطعته:



-كان اختياري.. ماحدش أجبرني أبدأ معاه وماحدش أجبرني أستمر.. سوء اختياري مسئولة عنه تمامًا..

رمقها بتقدير:

-وده بيزود إعجابي بيكِ..

وأجابته بقلق:

-وبيزود قلقي من المستقبل.. أنا المرة دي مش بختارزوج ومشاعروبس.. لازم أفكرفي آدم..

-آدم في عينيا..

هزت رأسها بحيرة:

-محتاجة أفكر..

-معاكِ كل الوقت اللي محتاجاه..

ضمت آدم لصدرها وهي تنهض بارتباك:

-مش هتستعجلني؟..

هزرأسه نفيًا:

-ولا هضغط عليكِ.. يكفيني أنك تتأكدي أني جاد جدًا في مشاعري..

مدت كفها لتحييه بخجل ليردف هو:

-هنتظر مكالمة منك..

هزت رأسها نفيًا:

-الرد هيوصلك عن طريق حمزة.. جوز أختي..

أجابته بحسم ورحلت تضم طفلها لصدرها.. تشعر يقينًا أنها لن تجد زوجًا بمشاعر حسام وأخلاقه.. ولن تجد أبًا لآدم بحسمه وحنانه واحتوائه..

ولكن العطب بداخلها هي..

ما أفسده أسامة بنفسها.. وما مرت به معه سبب أذىً بالغًا بأعماقها ولا تعلم إن كانت تصلح كزوجة وحبيبة من جديد ولرجل مثل حسام.. أم عليها الابتعاد وترك الأمر للوقت.. لعله يداوي ما أفسده البشر..

***

قالوا أن الوقت كفيل بمداوة الجروح.. فالزمن تنساب أيامه وتمر ساعاته كدواء بطعم مُر مرارة العلقم..

يطبب الأوجاع ويطيب الآلام.. تلتئم الجروح رويدًا رويدا.. ولكن هل يداوي الزمن وجع الذكرى.. ذكرى مجسدة.. حية.. تكبر بكل يوم..

باسل عادل الغندور..

ابنها.. وابنه..

كلا.. لن تصف ابنها بالذكرى.. فهو هبة.. منحة نالتها بعدما ذاقت مرارة خيبة الأمل.. وذُل الخيانة..

ربما هو يحمل ملامحه.. يذكرها به بكل ثانية.. ابتسامته.. دُكنة عينيه.. حلاوة ملامحه والتي لم يمتلكها قلبه..

تتأمل طفلها كل يوم وتبحث بين جنبات قلبها عن ذلك الشعور المُر والذي تكنه لوالده وتجده للغرابة يتضاءل.. هي لا تحن ولن تحن.. لم ولن تغفر.. جريمته بحقها لا تُغتفر.. بحق الحب الذي حملته له..

بحق صلة دم وعرض كان الأولى به الدفاع عنه وليس التشهير به.. حق ثقتها به وإيمانها بمشاعره ومشاعرها نحوه.. حق تمسكها به ومعارضتها لوالدتها.. حق فرحتها بطفلها والتي قتلها بشكه وهواجسه.. فلم تسعد بحمل ولم تفتخر بلحظة ولادة جاورها بها..

قتل ثقتها وكاد أن يحطم عنفوانها وكبرياء أنوثتها.. ولكنها قاومت.. تعثرت لفترة وعادت تصلب عودها وتواجه العاصفة وتنتصر عليها.. فنالت حقها وحق طفلها.. وغادرت برأس مرفوعة وكبرياء شامخة..

والآن.. مر الوقت.. ستة أشهر تقريبًا.. لم يتأخر مرة عن إرسال مصروفات ابنه.. بل أصبح يرسل له الهدايا والملابس..

لا تعلم هل يحاول إلانة قلبها!.. أم هو يشعر بالندم بالفعل؟.. أم غريزة الأبوة تحركت بأعماقه.. فهو يلح بالطلب منذ فترة لرؤية الصغير.. كما أنه مستمر بإرسال رسائل نصية قصيرة وإن كانت لهاتف زوج والدتها؛ يطالب باطمئنان يومي على ولده..

ولأن زوج والدتها عقلاني لأكبر درجة كما أنه حيادي جدًا برأيه فلم يقطع خط الاتصال بعادل.. بل طالبها بإعادة التفكير في السماح له برؤية ابنه..

"منشان باسل لارا.. فكري بمصلحة الولد"..

تلبسها الغضب يومها.. صاحت.. صرخت حتى انقطع صوتها..

ألم تتحمل كل تلك الأشهر من أجله.. ألم تبتلع الإهانة تلو الأخرى لخاطره!..

هل عليها تحمل الاتصال مع رجل امتهنها وأهانها بكل طريقة ممكنة!..

وجاء رد زوج والدتها..

"منشان باسل.. حقه ببيَيُه لا تضيعيه عمو"

وجمدها قوله.. حق ابنها!.. هي حصرت حقوقه فقط بالنواحي المادية ولكن ماذا عن حقوقه الإنسانية بأبيه!..

أسابيع وهي تفكر بكلمات زوج والدتها.. تهرب منها أحيانًا.. تنغمس بعملها في شركته.. تشغل نفسها بمتابعة أعمالها ومراعاة طفلها.. إلا أن التفكير لا

يرحمها.. وخاصة أن نظرات زوج والدتها تطالبها برد حاسم على طلب عادل برؤية ابنه.. وهي فقط حائرة..

تخشى حرمان طفلها من عاطفة أبوة هي حقه.. كما تخشى أن يتسبب ذلك الأب بأذى لطفلها الصغير..

وأخيرًا قررت الاستماع لرأي العقل.. لرأي زوج والدتها.. والسماح له بزيارة قصيرة جدًا..

دقائق معدودة يتعرف فيهن على طفله.. ويتعرف باسل على والده..

زيارة واحدة بعدها تقرر حدود التعامل مع عادل الأب.. عادل والد طفلها وفقط...

...

مرور الزمن هو خير مُعلم.. تتوالى الأيام ومعها دروس الحياة وعِبراتها..

الزوجة التي فضلها.. التي أراد بها كسر عنفوان ابنة العم..

مروة.. المرأة التي عشقها مرتين.. وقرر الزواج بها في أصعب مراحل حياته.. لقنته درسه حتى حفظه عن ظهر قلب.. هي لم تخنه أو تخدعه أو شيء من هذا القبيل.. هي فقط تتعامل معه كماكينة النقود بأي متجر.. عليه الدفع أولًا لينال مطالبه..

أسلوبها العملي والمادي للغاية كشفت عنه بالتدريج بعد انفرادها بلقب الزوجة الوحيدة..

فتضاءل الدلال والغنج.. ليتحول تدريجيًا لسلعة تجيد الترويج لها: مكتبها الصغيروالذي تحول لكبيرفخم.. سيارتها.. حسابها المصرفي.. كل حساباتها وأمورها المادية ارتبطت بصورة مباشرة بحياتهما الزوجية.. حتى طفلهما الكامن بين أحشائها كان عليه تعويضها الخسارة التي ستلحق بها نتيجة تقلص ساعات عملها بفعل الحمل ومتاعبه وذلك فقط حتى تحتفظ به..

مواقف عديدة مرت بذاكرته وبالرغم منه تتم المقارنة بين ابنة العم ذات الكبرياء والتي لم تطالب سوى بحقها بميراث والدها وحقوق طفلهما الأساسية وبين الزوجة التي تتعامل بمبدأ المستند المصرفي الواجب دفعه لتستمرالحياة..

تلك خياراته ومرورالأيام أثبت له كم هي سيئة.. فبالبداية أجاد اختيار الزوجة الأفضل: ابنة العم العاشقة.. ليختاربعدها أسوأ الطرق لمعاملتها.. ليعود ويسيء اختيارالزوجة الثانية ولكنه بغباء يقرر الاستمرارمعها وكأنه يعاقب نفسه ويُحرم عليها السعادة..

فهو يحيا حياة الجماد.. لا يعرف للفرحة طعمًا ولا حتى للحزن.. كل المشاعر تتشابه.. وكل الانفعالات واحدة.. لم يشعرأنه عاد حيًا من جديد إلا بعد

استلامه رسالة زوج والدتها التي تبلغه موافقتها على طلبه.. سيرى ابنه أخيرًا.. ربما لمحه من قبل مرتين لكنه سيراه بالفعل للمرة الأولى بعد لحظات..

مشاعر الإثارة التي تتصارع بأعماقه تكتسح أمامها جمود انفعالاته طوال الأشهر الستة الماضية.. فقط فكرة رؤيته للصغير تدفع بابتسامة حنين حزينة لشفتيه.. وسؤال يتردد رغمًا عنه.. هل سماحها له برؤيته تعني عفوها وغفرانها عن ما فات؟.. هل يمكنهما البدء بصفحة جديدة من أجل طفلهما الصغير!!..

قطع تساؤلاته دخول وديع حايك زوج والدة لارا -والذي تعرف عليه عادل بالأمس في مقر شركته- وهو يحمل طفله.. نسخته المصغرة.. يبدو أن الجينات أجادت لعب دورها فحمل الصغير ملامحه كاملة حتى نظرته الواثقة المتعالية والتي يبدو أن صغيره يجيد استخدامها؛ فها هو يمنحه تلك النظرة بكل إباء وغرور رافضًا رفضًا قاطعًا ترك كتف وديع والذهاب لوالده..

وبعد عدة محاولات لاجتذابه نجح عادل بحمله وإجلاسه على ركبتيه بعدما أخرج هاتفه المحمول أمام عيني الصغير الذي يعشق العبث بالهواتف الجوالة كأي رضيع بعمره..

امتد الوقت.. ومرت الدقائق.. وعادل يحيا بعالم براءة الطفولة.. يفترش الأرض مع طفله وتتناثر الألعاب حولهما.. وتعالت ضحكات الصغير البريئة لتنغرس كخناجر غادرة بقلب لارا التي تراقبهما من خلف نافذة نصف مغلقة وتصلها كلماته ومداعباته لطفلها كاملة والأشد ألمًا كان تفاعل باسل مع كلمات وأفعال والده وخاصة حينما فتح هاتفه الجوال ليريه عدة صور.. ووصلتها كلمات عادل وهي تشرح لباسل باستفاضة عن أملاكه وأراضيه..

التي سيكون لباسل نصيبًا وافرًا منها.. فمروة زوجته تحمل بين أحشائها فتاة صغيرة..

كانت تلك المعلومة خنجرًا إضافيًا يحفر عميقًا بجرح لارا خاصة حين أكمل عادل..

"هيكون لك أخت صغيرة يا باسل.. وهتكون مسئول عنها.. إوعى تسمح لأي حد أنه يهينها أو يجرحها.. أما تتولد هجيبها لك تشوفها علشان تعرفوا بعض.. وتحبوا بعض.."

لم يفهم باسل بالطبع كلمات والده ولكنه كان منجذب للصور بهاتفه وخاصة صور الخيل المتعددة والتي ركز عادل على واحدة منها مردفًا..



"الفرس ده اسمه عنتر.. اتولد من أسبوعين بس وهيكون بتاعك.. هيستناك علشان ترجع وتدربه وتركبه"..

وصورة أخرى لرضيعة بعمر أيام تأملها عادل للحظات قبل أن يهمس لابنه..

"دي مرام.. بنت عمك عماد.. رقيقة وطيبة زي أمها وأبوها.. عايز أقولك لو حصل وحبيتها فلازم تحافظ عليها.. لازم تصدقها وتعزها وما تجرحهاش...

لم تستطع لارا الاستماع لمزيد من كلماته التي يسمعها لابنه وبنفس الوقت يتمنى لو كانت هي بالجوار لتستمع لندمه وأسفه لما ألحقه بها..

أسرعت لتلقي بنفسها بين ذراعي والدتها وتهتف لها..

-ائلعيه من هون ماما.. منشاني.. ائلعيه فورًا..

هزت والدتها رأسها بحزن وهي تملس خصلاتها:

-منشان باسل بدك تتحملي لارا.. لا تكوني متلي.. لا تغلطي نفس غلطي..

قاطع وديع حوارهما وهو يبلغ لارا بإرتباك رغبة عادل في ملاقاتها..

تجمدت لارا للحظات وبعقلها تدور عشرات الأفكار عما يريده منها.. وكل فكرة كانت تسبب لها مزيدًا من الرعب.. فهي تخشى أن يطالب برؤية ابنه

بصفة دورية مما يعني ضرورة عودتها لمصر.. والأشد رعبًا أن يكون حضوره هو بداية لفخ ما.. ينتهي بسرقته لطفلها..

اتخذت قرارها أخيرًا.. وتحركت لتقابله بخطوات حذرة..

ما أن دلفت لارا للغرفة حتى هب واقفًا وطفله بين ذراعيه وتحرك خطوتين لملاقاتها.. ولكنها أوقفته بحركة حاسمة من يدها فتوقف على بعد خطوات منها وسمعها تسأله بحسم:

-عمو وديع قالي أنك عايز تتكلم معايا.. خير؟..

جذب نفسًا عميقًا قبل أن يلقي بكلماته بسرعة:

-لارا.. أنا عارف أني غلطت كتير في حقك.. بس كان عندي أمل أننا نقدر نتغلب على الماضي..

كادت أن تصرخ به لكنه سارع لمقاطعتها بتوسل:

-علشان ابننا.. باسل محتاج يكبر بين أبوه وأمه.. مش معقول يكبر يلاقي كل واحد فيهم عايش في قارة.. فكري في باسل وفي مصلحته.. فكري أني مش وحش قوي لدرجة أنك تحرمي باسل من طفولة عادية علشان بس تعاقبيني..

وللمرة الثانية يسكت محاولاتها لرفض كلماته وهو يلقي بآخر ما بجعبته:

-مش عايز رد دلوقتِ.. فكري.. خدي كل الوقت اللي محتاجاه وأنا هستنى قرارك..

ركز نظراته عليها بقوة قبل أن يمنح طفله قبلة دافئة ويتركه بين يديها ويرحل..

رحل بعدما صرح بطلبه.. برغبته بعودتها كزوجة وأم لابنه.. رحل بدون أن يمنحها كلمة اعتذار واحدة..

ومرت ساعات على رحيله.. وهي وعدت نفسها بعدم التفكير بعرضه.. أبدًا.. ولكن رغمًا عنها كانت تلتقي عيناها بعيني صغيرها لتعاودها الشكوك بصحة قرارها.. وتنتابها الهواجس عن المستقبل.. هواجس تضاعفت عدة مرات عندما أخبرها زوج والدتها بصورة عفوية وهما يتناقشان في أعمال الشركة والعقود الجديدة التي وقعها مع شركاء جدد..

وآخر تلك العقود كما جاءت كلمات وديع ببساطة وعفوية..

"شريكنا الجديد بيكون قريب لبيه لباسل.. اسمه نديم"..

والوقت يعالج الجروح بالفعل ولكنه أحيانًا يضاعف الحيرة.. والهواجس..

***



يستغل الإنسان الوقت لخلق حياة.. بدءها.. أو على أقل تقدير تحسين وضعه وظروفه..

ونبيل لم يعد يمتلك الطاقة لبدء حياة ولا حتى الرغبة في تحسين تلك التي يملك..

أصبح يدرك جيدًا مبلغ عطبه النفسي.. ويعلم أنه بدأ خطوات على الطريق ولكنه لم يصل لنهايته الآمنة بعد..

ببداية علاجه ظن أنه ينفذ رغبة حبيبة بإلتزامه بتلك الجلسات.. أعتقد أن تلك أولى خطواته لاستردادها.. وبمرور الوقت.. تغيرت أفكاره.. واعتدلت مفاهيمه.. وقرر أن علاجه هو بداية لاسترداد ابنه وبدء حياة سوية معه.. ولكن الآن.. بعد المزيد من العلاج والجلسات أيقن أن عليه استرداد ذاته أولًا حتى يتمكن من توفير حياة طبيعية لابنه.. ذاك كان قراره الحاسم والذي اتخذه بعد تفكير مطول..

-أنا هسافر يا صلاح..

هتف صلاح بدهشة وهو يضع محمد بين يدي نبيل والده:

-تسافر!.. فين؟.. وإزاي؟!

ضم نبيل ولده لصدره فهو أتى خصيصًا لوداعه وليطلب من صلاح الاستمرار برعايته لفترة أخرى يستعيد بها نبيل كيانه وحياته:

-عقد عمل بره.. مبدئيًا سنة واحدة وممكن تتجدد..

هز صلاح رأسه بحيرة ليردف نبيل:

-أنا لي عندك رجاء..

رفع صلاح نظراته بتساؤل فأكمل نبيل:

-محمد.. ياريت تكمل جميلك وتحتفظ بمحمد معاك السنة دي.. مش هآمن عليه غير معاك..

سارع صلاح بالرد:

-محمد في عينيَّ يا نبيل.. ده بقى هو وعمر ابني إخوات خلاص.

عاود نبيل ضم ابنه وتأمل ملامحه بشوق وضياع وهو يردد:

-ده عشمي فيك برضوه يا ابن عمي..

أومأ صلاح بهدوء وألقى أول سؤال خطر بباله:

-وعلاجك يا نبيل؟..

رفع نبيل نظراته عن ابنه بصعوبة:

-الدكتور بتاعي رشح لي دكتور زميل له بيثق فيه في البلد اللي هسافرله..

ولم يستطع صلاح منع نفسه من السؤال:

-وحبيبة؟

ارتسم حنين جلي بعيون نبيل.. ودمعت عيناه للحظة قبل أن يجيب:

-حبيبة لها فضل عليَّ.. لولاها ما كانتش هبدأ علاج ولا كنت هفكر للحظة أني محتاج أتعالج وأغير أفكاري.. حبيبة حلمي الجميل اللي لازم يفضل حلم للنهاية..

صمت للحظة تمالك بها انفعاله:

-أنا آذيت حبيبة كتير.. وكان غصب عني.. يمكن هي عرفت ده دلوقتِ وفهمته.. وأنا كمان فهمت قد إيه جرحت أنوثتها وأمومتها.. قد إيه كانت أفكاري غريبة..

خفت صوته:

-كانت رجولتي مكسورة..

قال الجملة بصوت كسير فأجبر صلاح على الصمت احترامًا لصمته.. وأخيرًا أضاف نبيل:

-يمكن بتعالج.. يمكن أتحسن.. لكن طول عمري هفضل أشوف رجولتي مكسورة في عيون حبيبة.. أنا اتكسرت قدامها وما اقدرش أكون لها زوج و لا أب لأولادها..

نهض وهو يمنح طفله قبلة أخيرة وأنهى كلماته:

-علشان كده هبعد.. يمكن أعرف آلاقي نفسي من غير ما أشوف نبيل الراجل المهزوم.. الراجل اللي اتعرت رجولته واتقهرت قدام حبيبته.. غصب عننا يا صلاح هفضل في عيون حبيبة الراجل اللي استهان بأنوثتها وسرق منها أمومتها.. وأنا هكون قدامها نص راجل.. ومافيش حياة ممكن تستقيم بين نص راجل وأنوثة مسروقة..

لم يجد صلاح ما يجب به على كلمات نبيل.. وإن خنقته غصة تأثر غبية.. حاول السيطرة عليها بسرعة ليربت على كتف نبيل مودعًا:

-ربنا يوفقك يا نبيل.. يمكن مع الوقت..

وصمت عاجزًا عن إكمال مواساته.. فكليهما يعلم جيدًا أن الوقت مهما طال لن يمكنه مداوة ما عطب بين نبيل وحبيبة..

***

ومرور الوقت قد يكون رحمة بقلوب البشر.. تلك القلوب العامرة بالإيمان والرضا بقضاء الله.. قلوب ارتضت الصبر على البلاء.. واختارت أن تشكر نعمة الله بإصطفائه لها..

بوضعها في اختبار تلو الآخر.. فرضيت.. وحمدت وشكرت وابتهلت لنيل أمانيها وضاعفت الدعوات عليها تصيب ساعة استجابة..

آية فقدت حلم أمومتها مرة تلو الأخرى.. تحملت آلام أمومة مهدورة..
وكبرياء مراق أمام والدة زوجها..

بكل مرة تشعر نبض جنينها بين حناياها.. لتعود وتلمس فراغ أحشائها من الطفل المنتظر..

تستمع لكلمات والدة زوجها الجارحة.. تصمت بألم.. ترقب صراع زوجها بين النصرة لها وبين احترامه لأمه.. تواسي زوجها وتهدئ من غضبه.. فقلب أمه فُطر حزنًا على ابنتها.. وهي تقدر ذلك تمامًا حتى وإن لم يكن لها ذنبًا بما فعله إيهاب.. ولكنها تتحمل عبء قرابته لها وكفى..

وللصبر مكافأته.. وللرضا بالقضاء خير خاتمة.. وكانت تلك الخاتمة هي خبر حمل آية..

ذلك الحمل الذي سخرت والدته من استمراره.. ولكن شاءت مقدرة الخالق أن يستمر للآن..

تحافظ آية عليه بروحها.. وتساعدها سمية وأمنية يوميًا فلا يدعنها تتحرك من فراشها..

رابط الدم ازداد متانة بين الثلاثة.. وكما قِيل تُقرب المِحن بين القلوب..

سمية تلازمها في ساعات النهار الأولى.. تحاول اجتذاب قلب والدة عمرو برقتها وطيب كلماتها.. وتتولى أمنية وقت الظهيرة وما بعدها حتى يحين

موعد عملها.. وتتصدى لإهانات والدة عمرو بقوة.. فحدة لسانها وطبعها الخشن طوعتهما تمامًا للدفاع عن آية..

ونجحت في تحجيم إهانات والدة عمرو بإحدى المرات التي سخرت فيها السيدة من استمرارية حمل آية بكلمات جارحة..

"أما نشوف يا مرات ابني هتشيلي كام شهر المرة دي"..

لتصعقها أمنية برد مفحم..

"على الأقل آية ربنا بيكرمها مرة واتنين.. ولو ما حصلش المرة دي بعد الشر.. هيتم المرة الجاية إن شاء الله.. الدور والباقي على اللي لا شالت ولا باين لها خلفة من أصله.. عيني عليك يا أخويا"..

كان ردًا قاسيًا تقمصت به أمنية شخصية خالتها أم حمزة بجدارة.. ولكنها نجحت في إبعاد والدة عمرو عن آية.. فامتنعت السيدة عن إزعاجها تمامًا..

والرقيقة آية لامت أمنية كثيرًا لقسوة الرد.. واعتذرت لوالدة زوجها عشرات المرات.. وتوسلت رضاها..

"يا ماما ده رضاكِ من الجنة.. هتبخلي بالجنة على عمرو"..

وتبرم السيدة شفتيها..

"عمرو ما زعلنيش يا بنت سلامة"..

أحاطتها آية بذراعيها.. وقبلت رأسها...

"وعمرو محتاج دعواتك.. ادعي لي يا ماما ربنا يكملي على خير.. ده ابن عمرو برضوه.. يهون عليكِ"..

توالت دعوات الأم بصمت أن يقرعين ابنها بطفله.. ويديم له محبة تلك الزوجة الرقيقة..

ولكنها أبت أن تمنح آية بعض السكينة.. فابتعدت عنها ولم ترحها بكلمة.. فولائها لابنتها وفقط.. وليعالج الزمن ندوب إساءاتها لزوجة ابنها..

***

الوقت يمر.. ومروره كفيل بتغيير قناعات البشر.. تبديل عادات وأفكار نقشت بأذهانهم كنقش بماء النار على جلد حي.. ومن تلك القناعات؛ أحقية المطلقة بزيجة ثانية.. خاصة لو كانت بزوج لم يسبق له الزواج من قبل..

ارتمى عبد الرحمن على أقرب مقعد للباب وهو يلهث بإجهاد:

-النهارده كان يوم شغل جامد يا أمي.. ياريت الأكل يكون جاهز..

وتقترب منه أمه بلهفة:

-جاهزيا حبيبي.. أنت تاكل وترتاح ساعتين بعدها ننزل نروح لطنط منيرة..

اعتدل عبد الرحمن بجلسته:

-طنط منيرة مين!

أشاحت والدته بيدها بلامبالاة:

-مش مهم مين.. أنت مش هتفتكرها.. المهم أن بنتها نورهال كبرت وبقيت عروسة زي..

قاطعها بسرعة:

-زي ما تكون يا أمي.. أنا إيه علاقتي بالموضوع!.. وبعدين إيه الاسم ده اللي لا ماشي نورهان ولا ابتهال..

زفرت أمه بغيظ:

-يووه يا عبد الرحمن.. كل كلامك هزاركده..

نهض لينحني مقبلًا يدها:

-لا يا أمي.. حضرتك اللي من يوم ما عرفتِ أن حبيبة مطلقة ومابطلتيش بحث عن عرايس..

قاطعته بلهفة:

-من حقي أفرح بيك يا ابني.. ده أنت وحيدي..

ناقشها بلطف:

-يا أمي سبق وقلت لك أنا مش بتاع مشاعر وحب وكلام من ده.. حبيبة اختارتها بعقلي أساسًا..

تمتمت بحنق:

-وعقلك ده مالقاش غيرها!

أكمل المناقشة اليومية والتي يخوضها على مدار الأسابيع الماضية منذ صارحها بأن الفتاة التي أعجبتها بزفاف شقيقته هي بالأصل امرأة مطلقة..

هو لا ييأس من إقناعها بحبيبة.. وهي لا تكل بحثًا عن زوجات مناسبات له حسب مفهومها هي..

-يا ماما يا حبيبتي.. افهميني.. أنا فكرت كتير ودرست حبيبة وأخلاقها وتصرفاتها فترة طويلة قبل ما آخد قرار الجواز.. سألت عنها وعن أهلها.. وعرفت عنها كل حاجة.. الموضوع مش شاب صغير مفتون بست مطلقة.. بالعكس.. أنا مقتنع جدًا أن حبيبة هي الست المناسبة ليَّ..

أشاحت والدته بوجهها غاضبة:

-وهو اللي خلق حبيبة دي ما خلقش غيرها؟

أجابها بهدوء:

-أكيد خلق آلاف غيرها.. بس أنا عايز حبيبة بس.. صدقيني دي بنت مافيش منها..

قاطعته بغضب متزايد:

-قصدك ست مافيش منها.. يا حبيبي أنا عايزاك تفرح بنفسك وبعروستك..

جاورها بجلستها على الأريكة العريضة:

-ويا ترى لو كان ده تفكير حماة شهيرة أختي.. هيكون ردك إيه!

لوت شفتيها بارتباك:

-شهيرة ظروفها مختلفة.. زاهر كان بيحبها من سنين وكان..

قاطعها بقوة:

-وكان راجل كفاية أنه يتمسك بالست اللي عايزها.. ويقنع أهله كلهم بأنه اختار صح..

تلعثمت كلماتها وهي تسأله بحزن:

-أنت هتعايرني بظروف أختك يا عبد الرحمن.. دي آخرتها!.. أنا عايزاك تفرح بعروسة بنت بنوت..

عاد لإقناعها بهدوء:

-يا أمي فرحتي الحقيقية إني ارتبط بالست اللي أقنعت عقلي.. الست اللي شوفت مستقبلي معاها.. أنا جربت الاختيار حسب معايير المجتمع؛ البنت الصغيرة الدلوعة وللأسف قضيت أتعس شهور في عمري كله..

صمت للحظات ثم أكمل:

-من فضلك أنا منتظر رضاكِ علشان آخد خطوة جدية في مشروع جوازي..

ظلت صامتة لدقائق تتبادل فيها النظرات مع ابنها.. هو يطلب رضاها بهدوء مقنع.. وهي تحاول مقاومة صوت العقل والمنطق بكلماته..

وأخيرًا غمغمت بموافقة نزقة:

-على بركة الله.. فاتحها في الموضوع..

قاطعها بسرعة:

-أنا هكلم أخوها على طول.. هدخل البيت من بابه.. أقصر الطرق هو الخط المستقيم يا أمي..

أومأت بصمت وإن ارتسمت على شفتيها ابتسامة حنون وهي ترى لهفته لاتخاذ خطوة جدية ليقترن بتلك التي أقنعت طبيعته العملية العاقلة والمتزنة..

ولم ينتظر عبد الرحمن مرور مزيدٍ من الوقت فقد بدأ بالفعل بالاتصال بصلاح..

هو يشعر أن إقناع حبيبة بإعادة تجربة الزواج ستتطلب منه كل قدراته الإقناعية.. وستحتاج لوقت لا يمكنه تخمينه.. فهو رأى منذ أشهر جرحها البالغ بسبب انفصالها عن زوجها.. ويعلم أن إعادة ثقتها بالرجال وبفكرة الزواج ليست بالخطوة الهينة..

***

وقد يكون مرور الوقت مَن يكتب سطور النهاية ويرد الحقوق لأصحابها..

ممدوح سلب حقوق عدة.. وتجاوز الكثير من الخطوط الحمراء..

وكما قالوا إن الله يُمهل ولا يهمل...

فهو يمهل العبد الآثم وقتًا ليثوب فيه لرشده ويتوب توبةً نصوحًا.. ولكنه لا يهمل العقاب..

فمتى فرط العبد بمهلته الربانية حق عليه الحساب والعقاب..

صوت جرس الباب يتردد بقوة مفسدًا صمت المكان..

وضيف بيت سلامة غير متوقع.. يكاد يكون غير مصدق..



فمن بالباب كان أحد رفقاء ممدوح بمقر عمله تجاوره طفلة صغيرة لا تتعدى السادسة..

تبدو ملامحها بريئة وإن ظهر عليها الخوف والقلق.. إبهامها حشر بين شفتيها تضغط عليه بقوة.. وعيناها تتأملان حمزة برعب فتزيد التصاقها بالرجل القابض على كفها..

وكلمات الرجل تأتي كمفاجأة مدوية..

"دي آلاء بنت ممدوح.. هو طلب مني أوصلها لبيت عمه.. ومعاها رسالة.. أنه بيتمنى ما تاخدوهاش بذنبه.. وتتربى بينكوا"..

ويختتم الرجل كلماته..

"ممدوح مش هيقدر يربيها.. لأنه في السجن هناك"



الفصل الثامن والثلاثون

ما قبل الأخير

ويبقى شيئًا من عبق الماضي عالقًبنا رغم الزمن، شيئًا تعجز يد النسيان أن تطاله..

"نبال قندس"

**

حقيقة مؤكدة.. الماضي لا يمكن محوه بجرة ممحاة، والنهايات دومًا معلقة ببدايات اخترناها بأنفسنا، لكن عندما تتدخل يد القدروتصبح لها الكلمة العليا نقف نحن عند تقاطع؛ القرارفيه قد يكون مصيريًا..

هل ننسى ونستمر!

نعفو أو نحاول على الأقل!

نمد يد العون لمن مد يده وجلدنا بظلمه وتجبره!



أم نحصر ذواتنا في دائرة لا نهائية فحواها الأمس وما حدث فيه، بذنوبه وآثامه، بخطاياه غير القابلة للصفح، بضعف بشري مفهوم ومقبول فنحن لسنا بملائكة!

باتت تلك أفكاره في الأيام الأخيرة بعدما أصبحت في عنقه أمانة يظن أحيانًا أنه لا قبل له بها..

أمانة سلمها ليده غادر قاس استباح العرض والشرف وصلة الدم وانتهك ميثاقه، أمانة صغيرة، خائفة، مذعورة منكمشة على نفسها وباكية في صمت كأنما تخشى أن يصدر عنها صوتًا يزعج من حولها وكم تزعجه تلك البراءة ويغضبه ذاك الخوف بعينيها النقيتين..

ممدوح الآن نزيل أحد السجون بدولة أخرى..

سجين برتبة سارق، مختلس.. كأنما لم يكتفِ بسرقة حياة وروح شقيقته، فاستمر بعد كل ما حدث بسرقات جديدة مفادها أموالًا ليست من حقه..

وآلاء!

الفتاة التي تركها عند بابه صديقٌ لأبيها، المرتعشة على الدوام.. الأمانة التي أوصاه بها ابن العم متمنيًا ألا يأخذوها بذنبه، ائتمنهم علي تربيتها ووصايتها، وهو كان للخيانة أقرب.. منحهم ثقته وهو خذل حسن ظنهم،

رمى لهم لحمه والكلمة أنها لحمهم ودمهم أيضًا وعليه فهُم بها أولى وعليها أحن!

والحيرة تصول وتجول بعقله.. نعم هو رجل، يدرك معنى الكلمة جيدًا، ويعي أن الرجولة الحقة لها حقوق وعليها واجبات، أن الله قال في عظيم كتابه:

"وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى"

والطفلة اليتيمة لا ذنب لها ولا جريرة سوى حملها لاسم أب مدنس منتهك.. لكن هل بإمكانه أن يحتفظ بها أمام عيني ضحية أبيها!

تلك التي تتماسك بصعوبة وتخطو نحو الشفاء ببطء مميت!

هل يجسد الماضي ببيتها في صورة مختلفة لكنها لا تزال تحمل عبق الذكرى الخانق!

هل سيستطيع وهي تتقبل وتمرر الأمر.. وتعفو!

الوجوم سيطر على ملامحه كما احتل ملامح أبيه وهو يجلس قبالته في زيارته الدورية، الوجوم جوار الشك والتوتر والقلق!

رُغم أن الأب بداخله بقايا عقدة ذنب نحو ابنته التي أهملها وضيعها بل كاد يفقدها بالكلية، لكن شيء من راحة دومًا يجعله يحيا ويستمر، شيء من

نفس تقنع الضمير أنه لم يكن يعلم وعندما علم أخذ لها حقها عينًا بعين وقصاصًا عادلًا..

وها هو يقضي عقوبة ارتضاها لنفسه حفاظًا على ما تبقى من روح ابنته الهشة التي بات منزلها الحالي ولأشهر مضت "مصحة نفسية" يطمئن على أخبارها بها من أخيها..

انتزع نفسه من صدمته بنبرة لم تستنكر كثيرًا ما حدث:

- مسجون!!

وحمزة غير المصدق هز كتفيه بدلالة استياء حائر:

- ده كلام زميله اللي سلمني البنت.. بيقول إنه اختلس من الشركة اللي بيشتغل فيها هناك، شركة أبو بندر أخو مراته..

حرك الأب رأسه بغم:

- طليق رانيا..

- أيوة.

ولم يدرك كلاهما الحقيقة!

فممدوح سُجن "ظُلمًا وعدوانًا"!!

نعم.. أوليست الأيام دُول؟!.. أليس الله بعدل؛ الله يمهل ولا يهمل!..

فعندما عاد بعد سجن عمه بعاهته التي لا شفاء منها طالبته زوجته بالطلاق، هي ترغب برجل كامل لا شبه رجل، عجزه لا يفي باحتياجاتها رُغم أنها تكبره سنًا، ومع ما حدث لم تنكسر شوكته بعد.. فثار ورفض بعنف وبعد الرفض كان الابتزاز، طالب بأموالها ليتكرم عليها بحريتها، ابتزازًا كانت نتيجته تهمة جائرة، واقعها أنها لم تحدث..

لكنها كانت كافية لتلقي به خلف القضبان، وتنال الزوجة طلاقًا وحرية من رجل لم يعد يملك ما يمنحه إياها، بل أصبح بالفعل سجينًا حقيرًا بعيدًا عن وطنه..

الظلم ظلمات..

وهو ظَلَم، لم يرتجع، لم يتُب.. لم يعتبِر فبات القصاص حقًا واجبًا!

- هتعمل إيه!

سأله والده بتمعن، رفع إليه عينين حائرتين وظهرت بداية بسمة تائهة فوق شفتيه:

- البنت مالهاش ذنب، ومالهاش غيرنا.. مش هينفع أخدها بذنب أبوها أو أرميها في الشارع، لحمنا ودمنا..

علت بسمة فخور شفتي سلامة وهو يناظر ابنه بحنان أبوي بينما يردف:

- أنا بس خايف على ريم.

وهز كتفيه بتوتر:

- لما تشوف البنت قدامها بعد ما ترجع البيت، كل يوم وكل لحظة هتفكرها بأبوها، باللي عمله معاها.. خايف الذكرى تفضل حية جواها بسببها والخطوة اللي خدناها لقدام نرجع فيها مية لورا.

مد والده يده يربت على كفه ثم يحكم قبضته عليها باحتواء مطمئن:

- سيبها على الله.. اللي بتعمله لوجهه تعالى عمره ما هيكون فيه أذى ليك.

وانتهى وقت الزيارة بكلمات أخيرة نابعة من قلب نادم وجِل يشعر بالتقصير ولا ينال عنه تعويضًا:

- خلي بالك منها يا حمزة.. البنت دي بنتك دلوقتِ، حافظ عليها وما تفرطش في الأمانة، ما تخليش عينك تغفل عنها لحظة، صاحبها وخلي مراتك تعتبرها بنتها.. ما تكررش الغلط يا بني.

ورحل بقلب مُثقل..

ربما اتخذ القرار..

ربما العفو ليس متاحًا أو حتى مباحٌ ذكره بين سطور قضية مغلقة على تفاصيل موجعة..

ربما الأمس بذكراه لا يمكن محوه أو نسيانه..

لكن الغد بيدنا، والنهاية نرسمها نحن!

***

حياة كاملة.. سنوات مشاركة وحب.. أو ما ظنته حبًا.. زواج وارتباط.. جرح بالقلب وكسر أنوثة.. حياة انتهت.. لم يتبقَ منها شيئًا..

فحتى الذكرى أصبحت ممسوخة مشوهة، تجلب الألم..

ابتعد نبيل.. ترك كل شيء خلفه ورحل بحثًا عن ذاته.. ودعها برسالة على الهاتف.. وأعقبها برسالة اعتذار..

وكان اعتذاره هو ما تحتاجه لتغلق صفحة حياتهما معًا.. ربما لم يجبر اعتذاره جرح أنوثتها ولكنه رد لها اعتبارها.. فهو أدرك خطأه بحقها.. كما أدركت هي من قبل خطأها بحق زواجهما بسكوتها عن إعراضه عنها.. هي حاولت معالجة خطأها بمنحه النصيحة ودفعه للعلاج.. وكان اعتذاره هو أروع شكر نالته منه.. ربما عليها البدء بالتفكير في حياتها من جديد..

تذكرت حوارها مع صلاح الليلة السابقة..

-حبيبة.. تعرفي دكتور عبد الرحمن؟..

أومأت موافقة:

-أيوه دكتور ماما.. ماله خير؟..

تردد صلاح لحظات:

-عبد الرحمن كلمني النهاردة.. وطلب إيدك مني..

انتفضت واقفة بدهشة:

-عايز يتجوزني!

سحبها صلاح لتجلس بجواره:

-في إيه يا حبيبة!.. أنتِ ألف مين يتمناكِ زوجة..

تلعثمت بكلماتها:

-أيوة.. بس هو ما سبقش له الجواز..

قاطعها:

-معقولة ده تفكيرك يا حبيبة!

هزت رأسها نفيًا:

-ده تفكير الناس اللي حوالينا.. هتلاقي ميت لسان وألف تعليق على المطلقة اللي أخدت شاب ما سبقش له الجواز..

تنهد بقوة:

-دي حياتك أنتِ.. وأنتِ الوحيدة اللي تحددي إيه اللي يصح وإيه اللي ما يصحش.. والراجل عاقل جدًا ومهذب جدًا.. وشاريكِ قوي..

هزت رأسها:

-مش عارفة يا صلاح.. إني أبدأ حياة جديدة ده في حد ذاته صعب.. معقول أزود الصعوبة بأني ارتبط بشاب أكون أول تجربة له..

قاطعها بحنان:

-وهو هيكون أول تجربة لكِ يا بيبا..

احتقن وجهها حرجًا:

-بس الناس مش هتقول كده..

تمسك بكفها وأخبرها بنبرة محذرة:

-ضيعتِ من عمرك سنين قبل كده مكسوفة تواجهي.. محرجة تطالبي بحقك.. ضاع عمرك وأنتِ خاضعة لحكم مجتمع أنه عيب نتكلم في الحاجات دي وبنات الأصول تتحمل وتسكت..

اعترضت بقلق:

-صلاح.. أنا بلوم نفسي كتير.. وبحمد ربنا أن نبيل بيتعالج.. لكن..

قاطعها بحزم:

-ما تحمليش نفسك زيادة عن طاقتها.. نبيل وبدأ حياته وشغله، وأنتِ قدامك فرصة لحياة طبيعية.. وعبد الرحمن أنا سألت عنه كويس، وقعدت معاه وقت كافي.. الراجل ممتاز، وشكله مُصر عليكِ يا بيبا..

توردت وجنتاها وهتفت بسرعة:

-أنا ما اتكلمتش معاه إلا خمس دقايق في فرح أخته بس..

ابتسم صلاح:

-أنا مش باتهمك يا حبيبة.. أنتِ أختي وأنا أكتر واحد عارفك.. كل قصدي أني أوضحلك أنه شاريكِ.. أنه عايز حبيبة ومُصر..

نهض وهو يربت على كفها برفق:

-عايزة رأيي؟..

أومأت بصمت وهي تناشده العون:

-اقعدي معاه.. ده حقك وحقه، افهمي دماغه، وهو كمان يفهم تفكيرك.. مش هتعيشي على ذكرى يا حبيبة..

-لا يا صلاح.. صدقني الموضوع مش كده..

حسم الأمر:

-خلاص هكلمه ونتفق على ميعاد.. تقعدوا مع بعض وتتكلموا شوية..

حاولت الاعتراض لكنه أردف:

-مش هترفضي لمجرد خوف وقلق من تجربة أو من كلام ستات مالوش لازمة..

هزت رأسها بضعف..

لا تعلم إن كانت تملك القدرة لخوض تجربة جديدة ستحمل من التحدي ما يفوق تحملها!..

هل ستتمكن من صنع حياة جديدة!..

بدايات جديدة!..

ذكريات جديدة!..

ذكريات تبقى وتعيش تلك المرة..

***

وذكريات الوجع أبدًا لا تُنسى.. وإن تناسيناها، تجاهلناها، مررنا فوق رُفاتها وادعينا القوة والاستمرار!

ذكريات الخوف تترك بالقلب ندبة، بالروح صدعًا، بالكيان هشاشة..

ذكريات الفقدان هي فتيل هلعنا عندما تتكرر القصة، ونخشى الخسارة من جديد!

تشتعل، تتأجج نارها، يرتفع لهيها ونحترق نحن بلا حول منا أو قوة، مهما حاولنا الصمود، مهما تظاهرنا بالثبات، ومهما قلنا أننا نتمسك بجانب الأمل، تبقى مخاوف الأمس عالقة بالعقل، تشوه صورة فرحة وليدة، تخدش جمالها، ورونقها يبهت معها..

هي لا تستجيب لما علِق بقلبها من أحزان ورعب إلا بالدموع..

والدعاء..

وهو يقف إلى جوارها ليمنح خوفها صك الأمان وراحة الطمأنينة، لكنها قهرًا تخاف، ترتعب.. ترتجف ذعرًا، والبدن يقشعر من تكرار الأمس..

دلف للغرفة يحمل صغيره فوق كتفه بحنو، لمحها متكومة فوق الفراش في جلستها التي اعتادها مؤخرًا، تستند لظهره بظهرها، تضم ركبتيها لصدرها وترتكن فوقهما برأسها وعنوان المشهد عبرات لا تنتهي ولا تجف..

وقف قبالتها بتنهيدة حائرة.. هو بذل كل ما بوسعه ليطمئنها، لكن خوفها لا ينضب، يشعر بعجزه أمام غدٍ مجهول، انتابه قلق مشابه عندما علم بالخبر، لكنه وكَّل أمره لله ودعاه أن يحافظ له على أمانته كما وهبها له برحمته..

وضع الصغير جوارها، فجذبها من ملابسها لتستدير برأسها إليه، تمسح دموعها بيدها وتبتسم بانكسار، تشبث بها محاولًا الوقوف ليقع فوق

صدرها وتتلقفه بحنان غامر، تضمه عند قلبها وترفع عينيها لزوجها الذي بادرها برفق:

- وآخرتها يا رؤى!!

نالت من شفتيها رجفة قبضت قلبه، ضمتهما بشدة تمنع تأوه وجع، وأغمضت عينيها لحظة ردت بعدها:

- حاولت.. حاولت ومش قادرة.

وازاها في جلستها وأحاط كتفيها بذراعيه:

- لازم تقدري.. ربنا موجود، وأكيد مش هيحرمنا من فرحتنا بيه.

ومد كفه يتحسس بطنها المرتفعة بانتفاخ طفيف:

- ربنا هيتمم لك على خير إن شاء الله، المهم خليه عند حسن ظنك.

نظرت إليه ببؤس فأكمل بحنو:

- بيقول أنا عند ظن عبدي بي.. فين بقى!

دفنت رأسها في صدره ويدها تعلو يده فوق بطنها والصغير بينهما يضحك دون فهم:

- ونعم بالله.. باحاول والله يا علي.. بس غصب عني، مش قادرة أمنع الخوف.

ورفعت وجهها إليه بوهن آلمه:

- كل ما بيمر الوقت باقلق وأترعب أكتر، باقول يمكن أخسره زي ما خسرت توأم بلال، يمكن يموت جوايا ومايبقاش مكتوب لي أفرح بيه حتى لو جه الدنيا من غير تخطيط...

مد أنامله يخرس شفتيها بضغطة خفيفة:

- أنتِ بتعذبي نفسك بأوهام، لحد دلوقتِ الحمل كويس، وكل مرة الدكتور بيطمنا، أنتِ صحتك كويسة والجنين كمان الحمد لله.. كفاية قلق وخوف وتعب.

تأملته بضعف:

- ادعي لي ربنا يجبر بخاطري، ادعي ربنا يربط على قلبي، أنت مش متخيل يعني إيه أم تخسر ابنها بعد ما تحس بنبض قلبه مع قلبها..

ودمعت عيناها مرة ثانية:

- بعد ما تحس بيه بيتحرك جواها..

وانكسرت فوق شفتيها بسمة شجن:

- يقلق نومها ويفكرها بوجوده في كل لحظة..

وتعانق جفناها ألمًا:

- وفي اللحظة اللي بعدها يضيع منها، تصحى على كابوس موته كأنه كان مجرد حلم أجمل من إنه يتحقق.

ضمها إليه بقوة وزفر فوق رأسها:

- إيه يا رؤى الكلام ده!!.. عندنا بلال أهو ربنا يبارك لنا فيه، وأخوه اللي جاي في الطريق ربنا هيفرحنا بيه بإذن الله.. طمني قلبك وخلي دايمًا عندك أمل في رحمة ربنا وكرمه وعدله، مش هيديك هدية ويحرمك منها..

ثم رفع وجهها إليه لتقابلها عيناه بنظرة قوية داعمة واثقة:

- تفاءلوا بالخير تجدوه.

ابتسمت بأمل تلك المرة:

- ونعم بالله..

وكان يعلم أنها ستعود لدموعها لاحقًا..

فذاك الحوار يتكرر، خوفها مستمر، وربما لن يمنحها الأمان منه إلا عندما تحمل جنينها طفلًا بين يديها..

ابتهل بقلبه أن يكتمل حملها على خير، أن يجبر خاطرها فرحتها به.. وفرحته معها..



أن يكون الغد أكمل من اليوم والأمس.. وأن يرحل الماضي محملًا بأوجاعه وهمومه، فالقلب لم تعد به قدرة، والروح تهفو لراحة بعيدة المنال!

***

الذكريات قد تكون سعيدة، أو مريرة.. وفي الحالتين قد تدفعنا لتغيير ظروف الحياة أو تحسينها.. فلو كانت سعيدة فنحن نبذل قصارى الجهد للحفاظ عليها وتكرارها..

والذكريات المريرة تجعلنا نحاول بجهد أكبر لمنع تكرارها وتجنبها..

مر صلاح بساعات مدمرة لأعصابه أثناء ولادة بسمة الأولى.. لم يكن تَعَلَم كيف يسيطر على مخاوفه، ولم يكن يظن أنه سيتمكن من مواجهة نفس التجربة مرة ثانية وبعد أقل من سنة..

ولكن الحمد لله أولاً والشكر لطبيبه النفسي والجلسات النفسية والتأهيلية والتي أعدته لمواجهة ولادة ابنته..

كانت التجربة تلك المرة أقل رعبًا وأخف ألمًا.. فالولادة تحدد لها موعدًا مسبقًا، والقرار كان محسومًا: جراحة قيصرية..

رافقها على الفراش المتحرك إلى غرفة العمليات.. مارس تمارين التنفس وضبط النفس كما علمه طبيبه.. وبدأ يفرض سيطرته على هواجسه

وأوهامه.. يتحكم بالمخاوف التي تهاجمه فيقهرها ويتمتم باستغفاروالدعاء لله..

طبع قبلة دافئة على جبهتها وأخرى على كفها:

-تقومي وترجعي لي بألف سلامة..

ربتت بكفها على وجنته وهي تمنحه ابتسامة واهنة:

-ربنا ما يحرمني منك يا صلاح..

طبع قبلة ثانية سريعة على جبهتها قبل أن يتحرك بها الفراش نحو غرفة العمليات..

نصف ساعة قضاها أمام غرفة العمليات يدعو بصمت ويبتهل لله أن يتم عليه نعمته ويعيد له زوجته بأتم عافية.. ويمنحه طفلة كاملة الخلق والخلقة..

بعدها جاءت الممرضة تحمل لفافة بيضاء بدا منها وجه فتاته الصغيرة..

هادئة.. ناعمة.. جميلة مثل أمها.. رغم أن ملامحها لم تتضح بعد، لكنه يعلم أنها ستكبرلتحمل فتنة أمها وجمال ملامحها..

ساعة أخرى مرت.. بعدها استقرت بسمة بغرفتها الخاصة.. ملامحها مجهدة لكنها واعية تمامًا لصلاح الذي تعلقت نظراته بابنته.. وعندما لاحظ انتباهها له سألها بلهفة:

-جميلة قوي صح؟

أومأت بموافقة:

-ربنا يحميها ويبارك فيها..

وصمتت لتستجمع قواها:

-هتسميها إيه؟..

ابتسم بسعادة:

-فرحة.. هسميها فرحة..

ضحكت بسمة لسعادته:

-فرحة صلاح..

اقترب منها بهمس وهو يقبل كفها بحنان:

-أنتِ فرحة صلاح وبسمته.. ربنا ما يحرمني منك..

توردت وجنتاها وهي تمنحه قبلة دافئة على وجنته:

-كلمة بحبك قليلة عليك يا صلاح..

قبل باطن كفها وهو يسألها بهمس:

-فاكرة البوسة جوه كف الإيد...

ضحكت بقوة مما دفع بعلامات الألم على وجهها.. فسارع هو للهتاف:

-على مهلك بس علشان الجرح..

رفعت يده لتقبل باطنها بدورها:

-البوسة جوه كف الإيد لها معاني كتير قوي.. كلها عرفتها معاك وليك يا صلاح..

قبلته بباطن يدها كانت ذكرى..

ربما تسعدها..

وأحيانًا تؤلمها عندما تتذكر أنه لم يكن لها بالكامل..

ولكن الآن بعد أن نالت قلبه بأكمله، بعد أن واجه مخاوفه وحاربها وانتصر عليها.. بعدما قهر ترهات التقاليد البالية ولم يخجل من الذهاب لطبيب نفسي، فقط لتستقيم حياته معها؛ الآن.. وهي تحتضن طفلتهما ويصلهما بكاء عمر عبر الهاتف وهما يخبراه بوصول شقيقته..

الآن تلك ذكرى تستحق الاحتفاظ بها..

***

أحيانًا تتكاثف الذكريات لتشكل حاجزًا يمنعنا من التقدم.. من الاستمرار.. من الحياة..

وبأحيان أخرى تخلق تلك الذكريات فرصة لحياة جديدة.. فيكون تخطيها مجتمعة بحلوها ومرها هو أول خطوة للانطلاق.. للتحرر.. لبدء صفحة جديدة..

تقلب بين عشرات الصور بذاكرة هاتفها.. كل صورة تمثل ذكرى.. موقفًا.. قصةً كانت لها معه..

ابتسامة هنا.. وهمسة هناك.. لمسة وجنة.. تربيتة أنامل.. نظرة عشق..

نظرتها هي عاشقة.. وهو.. نظرته حائرة!.. متسائلة!.. مبهمة..

هلامية المعنى..

هلامية هو أفضل وصف لعلاقتهما.. فهي لم تصل لعمق كافٍ للاستمرار.. وأيضًا لم تكن هشة لدرجة أن تنتهي ببدايتها.. علاقة أخذت مسارها فوصلت لذروتها لحظة ارتطامها بالقاع.. ولم يعد هناك ما يدعمها لتستمر.. ولا حتى وجود طفلهما..

هي لن تأمن له ثانية، وهو لا يثق بها.. ولا تعلم إن كان سيفعل!!..

أخطاؤه التي لم يعتذر عنها، أو يبدي حتى ندمه ورغبته بالتعويض عليها.. هي ببساطة أخطاء لا تغتفر.. بداية بظنه السيء بسلوكها وشرفها.. حتى شكه بنسب ابنه..

منذ رحيله بعدما ألقى بعرضه المقتضب بعودتهما ثانية لأجل خاطر باسل وهي تفكر.. وتعيد التفكير..

أسئلة عديدة طرحتها على عقلها.. وقلبها.. ترغب أن يكون قرارها عقلانيًا بحتًا وإن كانت لم تغفل جانب العاطفة..

راجعت تطور علاقتهما عدة مرات..

انبهارها.. افتتانه.. إعجابها.. حبها..

و.. افتتانه..

هي مرت بدرجات الحب متتالية.. وهو توقف عند مرحلة الافتتان.. فكان الطبيعي موت العلاقة.. أو أن تصنع هي من نفسها ومشاعرها وروحها وقودًا تلك العلاقة..

وبالنهاية كانت ستستنزف قواها وتصل للنهاية المحتومة..

الانفصال..

والآن هما بمفترق طرق.. وهناك قرار هام بل مصيري.. هل تعود!..

والمبرر.. مصلحة طفلها!!..

فهل مصلحته أن ينشأ تحت ظل أب فاقد ثقته بنفسه وبها.. أن تكون أول فكرة تمر بعقله هي خيانتها وسوء سلوكها!..

أن يكون هدفه تمزيق كيانها وكسر كبريائها بدلًا من مراعاتها والحفاظ عليها.. هل من مصلحة طفلها أن تعيش مع زوج خاضع لزوجة أخرى تبث سمومها بعقله بدون ذكر كُره والدته وحقدها عليها..

وهنا يبرز السؤال الأهم..

هل مازالت تكن له مشاعرًا تكفي لموافقتها على العودة؟..

والإجابة ببساطة.. لا..

لقد قتل حبها له بمهارة.. قضى عليه تمامًا.. أحرق جسور العودة ودمر بذور العشق بقلبها.. فلم يترك حتى واحدة لتزدهر ولو بعد حين..

عادت تتأمل الصور مرة أخرى.. صورة لها ضاحكة بجوار مهرتها "بيرل".. تلك تعد أسعد ذكرى لها معه..

وصورة ثانية.. أسوأ ذكرى بحياتها؛ ليلة زفافها.. ابتسامة واسعة وعيون عاشقة.. كم كانت حمقاء غبية.. فنظراته كانت تنضح بتملك صرف!..



قلبت الصور، واحدة تلو الأخرى.. لتحسم أي شك بالدليل العملي.. بكل صوره معها.. العفوية منها والمُرتبة لم تلمح له نظرة عاشقة، وكأنها بحاجة لتلك الصور.. وكأن أيامها معه والتي لا تزال حية بذاكرتها.. تخبرها بوضوح أن القصة انتهت..

رن جرس هاتفها لتجد مكالمته اليومية يطمئن بها على ابنه ويتساءل بشأن قرارها الأخير..

وبكل مرة تخبره أنها لم تتوصل لقرار وأنها بحاجة لمزيد من الوقت..

ولكن تلك الليلة كانت إجابتها مختلفة..

-أنا فكرت كويس يا عادل.. وقراري الأخير هو لأ.. مش موافقة نرجع لبعض..

ويبدو أنه كان يتوقع رفضها فلم يعلق عليه بل احتدت نبرته وهو يسأل عما يهمه:

-بس أنا محتاج أشوف ابني باستمرار..

تحكمت بغضبها لسمعها عن احتياجه هو فقط:

-أنت ما سمعتنيش للآخر!.. أنا قررت أرجع مصر.. وكده هتقدر تشوف باسل بانتظام..

هدأ غضبه قليلًا:

-ده قرارسليم جدًا.. وطبعًا هترجعي المنصورة..

قاطعته بحسم:

-القرارده علشان مصلحة باسل بس.. وعلى فكرة أنا هعيش في القاهرة، هكلم صلاح يشوف لي شقة قريبة من خالتي..

هتف بغضب:

-صلاح!.. وصفته إيه صلاح؟.. هترجعي تعيشي في المنصورة..

عادت تقاطعه بغضب أشد من غضبه:

-صلاح يبقى ابن خالتي اللي بثق فيه.. وأنا مش راجعة المنصورة، هعيش في القاهرة.. أنت يهمك بس أنك تشوف ابنك.. لكن أي حاجة تخص حياتي ما تهمكش في حاجة يا عادل، لازم نكون واضحين قبل ما أرجع.. حياتي خط أحمربالنسبة لك.. إحنا ولاد عم وبس.. بيجمعنا ابننا ومصلحته.. متفقين؟

صمت لحظات:

-أسلوبك هجومي يا لارا..



-أنا باحط قواعد للمستقبل.. منعًا لأي مشاكل.. أنت لك حياتك ومراتك ووالدتك والبيبي اللي جاي في السكة.. وأنا ليَّ ابني وبس.. ومصلحته أهم حاجة عندي.

أدرك مغزى كلماتها..

فهو أساء وأهان وأخطأ بحقها وحق ابنه.. ورغم ذلك بنى لنفسه حياة كاملة.. وهي لم تنل سوى ولدها..

همس بصوت خافت:

-خلاص يا لارا.. فهمت..

أجابته بقوة:

-تمام.. آخر نقطة وأهمها؛ رؤيتك لباسل هتكون في شقة خالتي وطبعًا في وجود صلاح..

هتف بنزق:

-صلاح تاني..

همست بيأس:

-مافيش فايدة.. عمرك ما هتتغير..

سارع بمراضاتها:

-أنا ما قصدتش كده..

قاطعته بحزم:

-هبلغك أول ما نستقر في مصر.. مع السلامة.

وأغلقت الخط.. لتظهر الصور بوجهها مجددًا.. فبدأت بمحوها واحدة تلو الأخرى..

وكتبت أخيرًا حروف النهاية لقصة لن تمثل لها يومًا سوى ذكرى باهتة..

***

أحيانًا يكون قصاص ما اجترحناه من آثام في ماضينا هو حاضر منقوص..

حاضر نتذوق فيه مذاق الخسارة قطرة قطرة بعلقمها ولذوعتها المقبضة..

وإن حملت لنا الذكرى صورًا من ظلمات خضنا دروبها من قبل؛ فالعقوبة حية تنبض بين أيدينا، في يومنا الذي ظننا فيه أننا امتلكنا من الدنيا خزائن كنوزها، وفزنا في كل معاركها وما بقي لنا إلا أن نغترف من كل غالٍ ونفيس..

ويباغتنا القدر أننا لم نسقط من حساباته التي كنا نوقن أنها نسيتنا في غمرة انشغالها بغيرنا، لا.. هي تذكرنا، تعلم ما اقترفناه، وأمهلتنا لنتوب ونثوب لرشدنا لكننا عاندنا وتمادينا بل وتجبرنا..

لم تكن تظن أنها قد تبكي يومًا لأجل أمر لم تطمح إليه في لحظة بل لم تفكر فيه!.. ولولا ضغط والدتها لما خضعت لزيارة طبيب نسائي بصحبتها بل وأجبرت زوجها كذلك..

طبيبها الذي جلس أمامها بهدوء ليخبرها بعد عديد من فحوصات واختبارات:

- للأسف.. ما فيش أمل.

ووضع تلك النقطة الفاصلة القاتمة بنهاية قراره المميت، نقطة تعني أنها النهاية ولا استئناف في قضية خاسرة مقامة بمحكمة العدل..

نقطة شهقت لها أمها وهي تضرب صدرها بصدمة:

- ما فيش؟!..

تماسكت هي بسرعة لتحتل صدارة المشهد بسؤال وضعت به قدرًا من اللامبالاة وإن كان الخوف ينهش أعماقها:

- ما فيش أمل نهائي؟!.. ولا حتى تلقيح صناعي أو حاجة من اللي بنسمع عنها اليومين دول؟!

هز رأسه بأسى وأسف مكررًا سطر النهاية:

- العقم نهائي.. فشل مبيضي منع عملية التبويض تمامًا للأسف.

وكرر اعتذاره بملامح هادئة، وعلا وجهها هي الوجوم والأم ذهولًا أصابها بخرس مفاجئ بينما تنهض بصحبة ابنتها، وتغادران عيادة الطبيب إلى بيتها..

ولولت أمها باكية حظ ابنتها العاثر، فزوجها تزوج عليها، ولن تستطيع أن تمنحه أطفالًا ليتمسك بها، ومن كانت تكسر روحها بقسوة حديثها وتحميلها ذنبًا لا يد لها فيه تحمل بالفعل طفلًا هو حفيدها..

قبل أن ترحل سألتها بوهن:

- هتعملي إيه؟!

وهي ابتسمت بمرارة وعيناها تعترفان بما يرفضه اللسان:

- هاعمل إيه يعني يا ماما؟!.. هيتجوز عليَّ تاني؟.. ما الحكاية خلصانة ومن أول شهر.

احتضنتها أمها وغادرت بانكسار، تركتها لوحدتها تجتر مرارة محصلة حياتها القصيرة..

واجهت نفسها بالمرآة تتأمل صورتها برعشة:

- سيطرتِ عليه بالفلوس، فهمتيه إنك اشترتيه ولبستيه تهمة مش تهمته، فرطتِ في نفسك وشرف أهلك وعرضهم!!

وضمت نفسها تنظر لصورتها بمقت:

- دي الجايزة يا نشوى.. ما حدش خسر في الحرب دي غيرك..

وضحكت بهوس:

- تفتكري هيكون رد فعله إيه وأنتِ بتقولي له أنا عقيم!!..

ثم زادت القهقهة بشكل جنوني وهي تنحني لتمسك بطنها كأنما تؤلمها ضحكاتها:

- عقيم يا بيبي.. هات ولادك من العاهرة بتاعتك..

وعادت ترمق نفسها بنظرة قاسية وفكرة شيطانية تنبت بذهنها:

- ده لو هو عاوز ولاد أصلًا منك أو منها، عمره ما سأل ولا اهتم!

بعدها اعتدلت وفكرتها تتعاظم بذهنها وتستقر لتنضج بهدوء:

- بس لأ.. مش هاخسر لوحدي.. مش نشوى اللي تخسر قصاد واحدة ولا تسوى.

توجهت خطواتها بثقة نحو حمامها، خلعت ملابسها وغاصت في حوض استحمامها الدافئ لساعة مغمضة العينين باسترخاء، ترسم حواشي خطتها وتضع تفاصيل ختامها بعقلها..

غادرت الحوض وأنهت تجفيف جسدها، خرجت لترتدي شيئًا أنيقًا يليق بها ورحلت عن المنزل والغرض زيارة هامة لطبيب آخر تعرف سمعته حق المعرفة، وعرضًا تعلم أنه لن يستطيع رفضه، فالثمن باهظ وهي يمكنها أن تدفعه!!

في اليوم التالي كانت تمسك بالتقرير الجديد الذي أرادته بين يديها، تتأمله بثقة وبسمة خبيثة تتسلل لشفتيها، سكنت في انتظاره بأجمل طلة وهي تتسلى في هاتفها بعبث.. فطبقًا لجدوله المنضبط.. اليوم يخصها!

ولم يتأخر، في العاشرة مساءً كان يفتح الباب ويدلف للداخل بهدوء، يبحث بعينيه عنها ولا يراها، تحرك نحو غرفة المعيشة ليجدها مستلقية بإغواء على أريكتها المفضلة تتابع فيلمًا قديمًا وتضحك!

جلس إلى جوارها ليسأل بتهكم لطالما كرهته:

- أبيض وأسود!.. من إمتى؟

اعتدلت في جلستها لتواجهه بعينين افتعلت فيهما حزنًا مشفقًا:

- من زمان.. بس أنت عمرك ما ركزت أنا بحب إيه!

- إيه الدخلة العاطفية دي؟!



أدارت وجهها لحظة عصرت جفنيها خلالها لتسقط عبرة وحيدة فوق وجنتها التي تقابله ببطء، وهو لمحها واندهش.. بل استنكر، فهي لا تبكي، هي فقط تجيد الغضب، الكره والحقد والسب.. وتقديم المصلحة حين يلزم الأمر..

أمسك بذقنها يعيد عينيها إليه ويسألها بحذر:

- مالك؟!

نهضت تبتعد عن مرمى يده، تمسح دمعتها بقسوة وتلتفت إليه بجسدها:

- أنا رحت للدكتور.

استقام يواجهها بشفاه هازئة:

- دكتور!

واستخفافه قلب خطتها بذهنها وملأها بالغلظة فلمعت عيناها بحقد:

- أيوة.. ماما جت معايا إمبارح للدكتور عشان نعرف نتيجة التحليل اللي عملناه بعد ما غلبتني عشان توافق تعمله معايا.

- وعرفتِ؟!

ببسمة ساخرة وهو يتذكر إصرارها الغريب كأنها ذبابة تطن فوق رأسه حتى أخرسها بموافقة، بسمة محتها هي في اللحظة التالية من فوق شفتيه:

- أيوة.. قال لي إني ما عنديش مانع من الخلفة..

ومع تراجعه خطوة نتيجة الخبر اقتربت هي اثنتين تواجه عينيه بكُره وتلتقط ملفًا ورقيًا تلقي به إليه:

- ممكن أخلف مرة واتنين وعشرة..

وربتت فوق صدره تدعي الشفقة:

- قال لي إن العيب منك يا حبيبي.. إنك عقيم.

والنقطة الفاصلة كانت تخصها تلك المرة، انعقد حاجباه..

لم يفكر هو من قبل أنه قد يصبح أبًا، بل لم يبحث حتى عن فكرة الوريث المنطقية التي تجول بذهن كل الرجال، الولد وزينة أخرى من زينات الحياة الدنيا جوار المال الذي بات يغرق فيه..

ألا تخطر الفكرة ببالك اختيارًا فذاك قرار، لكن أن تفقد فرصة مرورها بذهنك قسرًا فتلك كارثة!



الفصل الأخير

الحياة في نهاية المطاف تغلب، وإن بدا غير ذلك.. والبشر راشدون مهما ارتبكوا أو اضطربوا أو تعثرت خطواتهم، والنهايات ليست نهايات، لأنها تتشابك ببدايات جديدة..

رضوى عاشور

**

قالوا أن الحياة دائماً ما تجد وسيلة للاستمرار..

وتلك حقيقة واقعة ليست مجرد كلمات مواساة أو مؤازرة، فحتى بعمق لحظات اليأس تجد خيطًا واهيًا من أملٍ يضيء الظلمة من حولك، وعليك وقتها التشبث بذاك الخيط بما أوتيت من قوة..

وعلي كان خيطها الواهي المضيء..

كان بارقة الأمل الخافتة التي أنارت حالك ظلمتها.. ربما بهت ضوؤه فترة كادت بها أن تضيع بقاع تجربتها.. لكنه عاد ليبرق.. يتوهج معتمدًا على مخزون عشق حقيقي..

عشق بادلته إياه حتى وهي تدفعه بعيدًا.. ترميه بأحضان أخرى.. لم تكن تزهده بقدرما كانت تسعى لإهدائه حياة تعجزهي عن منحه إياها..

وهو بالمقابل قدم عشقًا غيرمشروط.. تفهم واحتوى.. دعم وساند..

بقدرما كبلها عشقه بالبداية خوفًا من فقده.. بقدرما تحول ليصبح ذلك العشق هو وقود مقاومتها لتتخطى مخاوفها.. تجتاز أسوار الماضي وتمنح نفسها حق الأمل بمستقبل..

حتى لو تشوشت صورة ذلك المستقبل قليلًا لكنه بالنهاية أمل وحلم لم تكن تجرؤ على التفكيربه والآن هو قاب قوسين من التحقيق..

راقبت خطواته المندفعة نحوها كعادته يستعجل المسافة والزمن ليصل لها.. ابتسامة ناعمة ارتسمت على شفتيها كانت باستقباله.. مضى وقت طويل قبل أن يلمح منها ابتسامة مماثلة.. حقيقية.. وكأن فرحة قلبها به تجسدت بابتسامتها..

أنامله عانقت كفها بلهفة.. فاليوم يرى حبيبته كما تمنى يومًا تقابله باشتياق.. لهفة.. وخجل عذراء لم تعرف انتهاك مغتصب ولا عشق المحبوب...

-ريم!!

همسها بتردد ملهوف وكأنه يخشى أن تختفي ابتسامتها المرحبة..

أخفضت نظراتها.. كانت بالفعل خجلة.. تختبر وجودها معه بلا خوف أو قلق.. كشف الستار عن ماضيها.. مخاوفها.. وهو ساعدها بدفنها بل ووضع حجر ضريح قوي فكان أساس جديد لعلاقة متينة..

هي لم تعد تخشى ابتعاده.. وهو استوعب رغبتها بوضع مسافة بينهما.. مسافة يسعى ليتخطاها ويعتمد على الصبر والعشق والزمن..

شعر بارتجافة أناملها ورغبتها الخفية بسحب يدها بعيدًا.. لم يمانع؛ فلها كل المساحة التي تحتاجها لتعود..

سحبت يدها لتخفيها بحضنها وجلست بأحد المقاعد بحديقة المصحة ليقابلها هو وسؤال لم يستطع كبحه:

-لسه مصرة تكملي هنا في المصحة كتير؟

ابتسمت بارتباك كلي فهي غير مستعدة للعودة للمنزل.. برغم شوقها للقياه ورؤيته إلا أنها لا تتخيل نفسها معه بين أربع جدران.. لا تتخيل أن يقترب منها أو حتى يلامسها.. مازالت بحاجة لمزيد من الوقت .. مزيد من الاستعداد..

راقب صراع نظراتها وهي ترمقه بشوق وبلحظة ينقلب شوقها لتوجس وريبة.. تصارع مخاوفها وتنتصر تارة.. وتارة أخرى تعود لتخفي نفسها خلف حاجزها الوهمي..

ربت على ذراع المقعد متجنبًا ملامستها ومكتفيًا بعناق الأنامل ببداية اللقاء:

-أنا قصدي أنك تخرجي من حيز المصحة.. تحاولي تتواصلي مع العالم بره.. الدكتور قالي أنك تقدري.

قاطعته بتوجس:

-علي... أنا...

عاد يربت على ذراع المقعد بجوارها وهو يطمئنها:

-مش قصدي أستعجلك.. أنا بس كنت محتاجلك علشان تجهزي معايا شقتنا الجديدة.

همست بعدم تصديق:

-شقتنا الجديدة!

ابتسم وهو يخبرها بحماس:

-أيوه.. هتعجبك جدًا.. طلبت من مهندس الديكور كل الطلبات اللي كنتِ بتفكري تغيري بيها الشقة القديمة.. بس برضوه رأيك النهائي مهم ومحتاج وجودك علشان نجهز الشقة.

رمقته بنظرات امتنان وعشق جارف.. هو يبعدها عن منبع مخاوفها.. أصل ذكرياتها المريرة!

كم يتفهمها بحب ومودة.. أدرك السبب خلف تمسكها بالبقاء في المصحة.. علم أنها رغم قوتها المكتسبة حديثًا إلا أنها لن تقوى على الاستمرار بمكان فقدت به كيانها وبراءتها..

وإن فكرت مرة بالمحاولة فالآن وجود آلاء ابنة ممدوح سيشكل ضغطًا إضافيًا لن تتحمله بقوتها الهشة حاليًا..

أكمل علي وقد أسعدته نظرات الفرحة والترقب بعينيها:

-ما قولتيش رأيك!.. نجهز أوراق الخروج؟

ضغطت شفتيها بارتباك:

-أيوه يا علي بس..

طمأنها بابتسامة دافئة وقد أدرك سبب ترددها:

-إحنا معانا كل الوقت اللي في الدنيا.. وأكيد مش هستعجلك يا ريم... اعتبريني ضيف عندك في الشقة.. ماليش غير حقوق الضيف.. وبس.



أخفضت نظراتها خجلًا وحرجًا مدركة أنه لن يطالبها بحقوق زوجية حتى تصبح هي مستعدة بل وراغبة. حاولت تغيير الموضوع فسألته بقلق حقيقي:

-علي.. شقة جديدة وتجهيزات!.. ده كتير قوي.

أراد بشدة أن يحتضنها بين ذراعيه.. يحتضن كفها بين أنامله .. يضمها لصدره.. بين ضلوعه.. ولكنه اكتفى بعناق النظرات:

-مش كتير على ابتسامة الراحة اللي على شفايفك.. ما تقلقيش؛ إيجار الشقة قريب من إيجار شقتنا القديمة.. والتجهيزات بعملها خطوة خطوة وتقسيط وجمعيات.. عادي كله هيتدبر، المهم راحتك.

تبادلا النظرات للحظات.. سؤال يجري بين شفتيها وتكبحه بكل قوتها.. فضول ولهفة.. مشاعر أنثوية تستسلم لها للمرة الأولى.. أو ربما هي تصارح نفسها بها للمرة الأولى!

فركت أناملها وحررت فضولها متسائلة:

-ورؤى؟

قطب جبينه قلقًا من اتجاه الحوار:

-خير!.. مالها؟



قضمت شفتيها وواصلت فرك أناملها:

- قصدي أخبارها إيه؟.. وابنك؟.. عندك ابن، صح؟

صمت علي مترقبًا الهدف من السؤال لتفاجئه ريم بطلب مندفع:

-معاك صورة له؟.. عايزة أشوفه!

تساءل علي بقلق:

-ريم!

هزت رأسها بتفهم:

- علي.. أنا ماكنتش في غيبوبة ولا أنا طفلة مش مدركة أنك لك بيت وحياة تانية.

أشاح بوجهه بعيدًا مدركًا صعوبة وضعهم جميعًا.. وهي بدورها تأملت ملامحه المنقبضة.. تشعر بمشاعر تتصارع بأعماقه ما بين عشقه لها ومسئوليته نحو رؤى..

وابنه تلك الرابطة التي لن تنفصم أبدًا..

هي دفعته ليكونِ حياة بعيدًا عنها.. وهو لم يتردد كثيرًا في الاستجابة.. ربما كان تصرفها خاطئًا وربما هو التصرف الوحيد الصحيح الذي قامت به في خضم صراعاتها مع عشقها له ومخاوفها منه ومن فقده..

ربما حياتهما كانت لتصبح أكثروردية بدون رؤى!

ولكن متى كانت الحياة بتلك الحالمية؟!..

القصة الخيالية وعاشا سعيدين للأبد لا تصلح دائمًا كنهاية..

ربما نقول.. وعاشوا يحاولون نيل السعادة..

تلك نهاية أكثر قبولًا..

التفتت له لتطالبه بفضول حقيقي:

- مش هتوريني صورة ابنك؟

وبدا أنه التقط طرف خيط الوفاق.. فأخرج هاتفه ليعبث به ويظهرلها عدة لقطات للصغيرهامسًا:

-بلال.

تناولت الهاتف لتتأمل ملامح الصغير.. ملامح علي المتجسدة في وجه ابنه.. تقنع نفسها بتتمة قصتهما..

أوربما بدايتها.. ومحاولة مخلصة لنيل السعادة..

***

الحروب الداخلية لا تقضي على الفساد وإنما توفر فرصًا جديدة له..

"عبد الكريم بكار"

**

ورغم حربه مع واحدة والتي انتهت بهزيمة ماحقة تنكرلها، ومعاركه التي يكتسحها فوق خارطة جسد الأخرى شاعرًا بانتصار محدود ظانًا في كل مرة أنه يستطيع البدء من حيث انتهى والنصر من حيث خسر؛ فلم يتوقع أن يجدها أمامه بملامح مبتهجة عجيبة وابتسامة فرحة وكفها تتلمس بطنها بابتهاج جعله يزم شفتيه بينما تخبره بكل أريحية:

- أنا حامل.

وتقافزت شياطينه قبالة عينيه وهو يسأل بغلظة:

- نعم!!

تراجعت خطوة متوجسة من نظرته ترقبُه بدهشة:

- إيه ما سمعتنيش؟!

ضحك ضحكة ساخرة مبتورة وصفق بكفيه:

- لا.. المصيبة إني سمعت.

واقترب خطوتين واسعتين يقبض على مرفقها بفظاظة:

- حامل إزاي بقى إن شاء الله!!

جاء دورها لتسخر بوقاحة:

- إزاي!!.. أنت نسيت الست بتحمل إزاي ولا إيه يا بيبو؟!

جذبها بعنف لترتطم بصدره ويتملك من لحم ذراعها الثاني فتنغرس أصابعه فيه وتعلو من بين شفتيها آهة مصدومة:

- لا ما نسيتش.. بس اللي عاوز أعرفه؛ ابن مين ده يا مدام؟

تضاعفت الصدمة وتألقت فوق ملامحها وهي تناظره بسخط، تنتزع نفسها من متناول يديه بحدة وترمقه بغِل:

- يعني إيه ابن مين؟!.. ابنك طبعًا، هو أنت مش جوزي برده؟

تعالت قهقهته الهازئة وتحولت عيناه لجمرتين ملتهبتين أشبه بجذوة من جحيم شيطان آثم:

- وباهر!!.. كان إيه بقى؟.. عاوزة تفهميني أنه بيكتفي بحضن وبوسة!.. ولا تكوني مقضياها معاه زي ما كنا مع بعض قبل أبو بندر؟

رفعت يدها تلطمه بسباب مقهور:

- حقير..

تلقف كفها واعتصرها بأصابعه حتى أنَّت وهي ترى نظرته شبه القاتلة:

- لااااأ.. إوعي تفكري تتخطي حدودك يا رانيا.

شعرت بالذعريتمكن منها فاستجدته:

- إيهاب والله ابنك.. أنت فاكر إن باهر ممكن يسيب فرصة يحصل فيها حمل!.. مستحيل هيكون عاوز يبقى أب لابني، بـ... بـ...

وترددت بانكسار جوار دموعها التي هطلت دون حساب:

- بياخد احتياطاته كويس قوي، ابنك صدقني.

وهو يدرك صدق إدعائها، نعم.. الرجل لن يترك مجالًا لخطأ كهذا، لكنه لا ينجب ولن يفعل، تقاريره الطبية توضح ذلك.. لذلك فما احترزت عنه وهي مع باهر قد يحدث قدرًا وقسرًا دون إرداة أي منهما!

ترك يدها واقترب منها بهدوء، توجست منه فأحاطت بطنها بساعديها ليبتسم بنشوة شيطانية، ربت على وجنتها برفق ومسح عبراتها ببطء:

- شوفي يا رانيا.. من الآخر كده؛ أنا ما باخلفش، يعني اللي في بطنك ده مش ابني، ابن باهر.. وباهر مش هيعوز منك عيل، هيدفنك مكانك من غير ما يرف له جفن.. وأنا مش هاربي عيل مش من صلبي...

- بس يا إيهاب...

- ششششش.. ما تقاطعنيش.

وتحكم بفكها بين أنامله:



- أنا عملت تحاليل يا حبيبتي والموضوع منتهي، اللي في بطنك تنزليه من سُكات، وأنا هاكون معاكِ ما تخافيش.. عاوزك تحافظي لي على جمالك ورشاقتك، إحنا ورانا بيزنس كبير مع سليمان بيه، وأنتِ عارفة إنه عينه منك.

تجعدت ملامحها بسخرية مريرة:

- كمان سليمان بيه!..

ابتسم بسيطرة:

- أمال!!.. أنتِ شريكتي يا روني، والبيزنس والنعيم ده كله مش ببلاش، ولا إيه!

ارتعشت شفاهها ببكاء محبوس وآهة مكبوتة لن تتحرر أبدًا، ارتعشتا فضمهما بشفتيه وحررها من ثيابها ليخط على جسدها مرة أخرى صك ملكيته..

أو بالأحرى صك عبوديتها وللأبد.. وتلك هي البداية التي لا نهاية لها..

بداية جعلتها صديقة لطبيب مختص بعمليات التخلص من عار النساء ونزوات الرجال، لتجهض مرة وثانية وفي الاثنتين..

لم تعلم أو يدرك هو.. أنه يخسر أطفاله بحق!

والحياة تستمر وكفى..

***

وأنتِ الهواء الذي يتعرّى أمامي كدمع العنب

وأنتِ بداية عائلة الموجِ حين تشبّث بالبرّ.. حين اغترب

وإني أحبك..

أنتِ بداية روحي..

وأنتِ الختام.

"محمود درويش"

**

كثير من البدايات قد تكون مبهمة، خطواتها الأولى غادرتها البصيرة وتعرت من الحقيقة لتتلبس ثوبًا زائفًا يضفي عليها رونقًا باهتًا لا يجاور واقعها في شيء..

وتلك نهايتها دومًا قاتلة، أو ربما منها تولد بداية جديدة!

ومعها كانت بدايته الحقيقة، ومعه أتت بدايتها المستحقة..



رجلها ورجل الجميع، بكتفه المثقل بهموم العائلة بعد سجن والده، وبقلبه الذي يمتلئ بالاهتمام بمن حوله كبُر أو صغُر.. بخافقه الذي امتلكته وهذه كانت معجزة لم تحلق بسماء أحلامها يومًا..

اهتمت بخالتها وتأكدت من راحتها وخلودها للنوم عقب يوم آخر يمر بها، يوم صامت يعلو ملامحها فيه الشجن والصبر والانتظار.. يوم لا تنقطع فيه صلواتها ولا يتوقف لسانها خلاله عن التسبيح والذكر والدعاء كأنما انقطعت صلتها بالدنيا إلا عن القرب من خالقها.. ترجوه رحمته ومغفرته وعفوه..

أودعت الصغيرة آلاء بفراشها هي الأخرى، تلك الطفلة الهشة التي فجرت ينابيع أمومتها بضعفها وخوفها الدائمين، نظراتها المتوترة المتوجسة والمستجدية لكل ذرة اطمئنان لا تبخل عليها بها..

وأخيرًا عادت لغرفتهما، ذهبت إليه لتجده كعادته في الشهور القليلة الفائتة، واقفًا في ظلمة المكان، خلف النافذة المشرعة، يداعب الهواء وجهه الساكن، وعيناه شاردتان في أفق غامض غير واضح المعالم.. فاقدًا للشعور بمن حوله إلا عندما تقترب هي وتضمه إليها وتضم نفسها إليه:

- بقى لي أكتر من خمس دقايق في الأوضة ما حسيتش بيَّ.

انتبه على لمستها وهمستها العاتبة فأخفض رأسه نحوها وأحاطها بذراعه:

- كنت سرحان شوية.

تراجعت تغوص بسواد مقلتيه الخاويتين:

- زي كل يوم.

كانت تقرر لا تسأل، ولم تحتَج لرد منه، فالجواب على وجهه جليٌ كانجلاء شمس منتصف النهار:

- وآخرتها يا حمزة؟!

ابتعد هو أكثر.. طغت جدية غريبة على ملامحه وهو يواجهها بصلابة:

- سمية أنتِ سعيدة معايا؟!

تغضن جبينها بقلق:

- لسه بتسأل السؤال ده؟

واقتربت خطوته المتباعدة تضمه إليها عنوة:

- حمزة.. أنا بحبك.

- بس الحب مش مبرر للحرمان.

باغتها رده فارتدت بصدمة:

- حرمان!!

لم تتغير نظرته أو تهتز كأنما أفكاره كلها تصب في وجهة واحدة:

- أيوة.. أنتِ اتحرمتِ طول عمرك من حاجات كتير، مش عاوز أكون سبب في حرمان جديد، حرمانك إنك تكوني...

وتلك المرة عادت إليه بسرعة، عادت تحيط وجهه بكفيها وتخرس شفتيه بشفتيها، تمنعه من تتمة تكره كل حرف متوقع منها، ابتعدت بعدها بأنفاس تائهة:

- مش شايف إنك مزودها؟

أخيرًا لانت ملامحه، ارتعش فكه برجفة طفيفة أسفل لمسة يدها المحيطة به، عيناه طالعتاها بدهشة كأنما يستغرب انفعالها وبذات الوقت يحبه ويتعلق بوجوده بينما هي تكمل:

- إحنا يادوب لسه هنكمل سنة مع بعض يا حمزة.. ولولا إصرارك ماكنتش هاسأل أو أفكر، أنا مش مستعجلة.. الدكتور قال المانع ممكن يتعالج، وأنت فعلًا متابع معاه.. يبقى ليه كل ده؟!

مسَّ وجنتها بكفه فمالت تريح رأسها فوق يده، تتمسح فيه كقطة تنشد اهتمام صاحبها:

- عاوزِك تكوني دايمًا سعيدة.



لمعت عيناها بعشق خالص نقي، دنت من صدره وتكومت فوقه تبحث عن أمانه فاحتواها بقوة:

- أنا سعادتي في حضنك وبس.

ورفعت رأسها ببسمة حب:

- وولادي إن شاء الله هيكونوا منك أنت..

بعدها أحاطت عنقه بذراعيها لتواجه عينيه:

-عارف!.. كِلِشيه قديم قوي إني أقولك أنت ابني وحبيبي وجوزي ودنيتي كلها، بس دي الحقيقة، مش هاقدر أجملها بكلام كبير أو متزوق، دي الحقيقة ببساطتها وصدقها وبمشاعري..

ضم خصرها بكفيه وجذبها ليدنيها منه، بسمته غمرتها بعشق لم تظن أنها قد تجده أبدًا لكنه كان هناك.. قابعًا بين ذراعيه وفوق أمان صدره، انحنى يقبل جبينها ويهمس بدفء:

- ربنا يخليكِ ليَّ.

- ويخليك ليَّ.

وبهاته اللحظة ودون أن تنتظر منه مبادرة تصريح باحتياج أو حب، كانت هي البادئة.. تمنحه بقبلاتها المتتابعة فوق وجهه ودفئها؛ أمانًا وسكنًا وراحة..

وتقرر أن تلك البداية التي انتزعتها من بين مخالب خسارات متوالية متكررة، هي التي ستكمل معها الدرب حتى نهايته!

***

يرتدي الإنسان نظارات جديدة فوق عينيه يعيد رؤية كل شيء من خلالها بوجهة نظر مختلفة عما سبق.. هذه النظارات اسمها المحنة.

"باولو كويلو"

**

قوتها وكبرياؤها كانا مصدر جاذبيتها ومنبع بؤسها.. اعتدادها بنفسها ورأيها.. ثقتها بحكمها على ابن العم.. ورفض اعتراض والدتها على زيجة خسرت بها بقدر ما ربحت..

خسرت دقة من قلبها وقررت منحه عطلة غير منتهية.. فهي أيقنت سوء حكمه.. ومنحت الزمام للعقل.. والعقل فقط..

كسبت فرحة عمرها.. باسل.. طفلها ودقة قلب أخرى كانت تعويضًا أكثر من كافٍ عن تلك المفقودة..

تبدلت شخصيتها قليلًا.. اختفت حالميتها أوربما أخفتها هي خلف رداء سيدة الأعمال.. سيدة أعمال أنثوية للغاية.. تترك أعمالها وميراثها تحت

إدارة صلاح ابن الخالة لتقرر مشاركة سمية في مشغل للأعمال اليدوية التي تتقنها سمية.. وتتولى لارا ما تتقنه.. الإدارة وترتيب العمل.. والمقر كان بشقة ريم القديمة.. فلا تبتعد سمية عن البيت.. وبنفس الوقت تتمكن لارا من ترك باسل برفقة خالتها..

عمل ببدايته إلا أنه يحقق نجاحًا ملموسًا.. والكل يقدم المساعدة ويشارك بإخلاص قلبي حقيقي..

ربما هي مرت بمحنة، جرح بها كبرياؤها وأهدرت كرامتها.. ربما تفتحت عيناها على وجه من العالم لم تعرفه من قبل.. ولكن مقابل ذلك تم منحها هبة معرفة معادن البشروأعماق نفوسهم..

فهي الآن تدرك أن عادل زوجها السابق وابن العم ليس سيئًا.. أوبمعنى أكثروضوحًا لا يُكن شرًا بداخله.. ولكنه يفتقد للثقة بالنفس.. يقدم الشك دائمًا حتى لا يقدم من نفسه شيئًا..

هو فضل حماية نفسه بأنانية مطلقة ولم يمنحها حق الدفاع عن النفس.. كما فضلت هي الانتظار ليتأكد من برائتها بنفسه.. وبالنهاية كان الاكتشاف.. هما لم يخلقا ليكونا أسرة ناجحة.. ربما انفصالهما وتربية باسل ليحترم والده وإن كان عن بعد.. هو المنحة التي نالتها لارا من محنتها..

وكما أدركت طبيعة عادل فقد علمت بسهولة بمشاعر نديم..

وتلك المرة لم تكن ترتدي نظارتها الوردية.. صحيح أن حدسها الأنثوي نبهها من قبل لتلك المشاعر إلا أنها فضلت تجاهلها حتى واجهها بها نديم في زيارته الأولى لبيتها بلبنان..

كان صريحًا مباشرًا.. لم يتلون أو يرواغ..

"لارا.. أنا بحبك.. ومدرك جدًا أنك محتاجة وقت أطول علشان تغامري بقلبك ومشاعرك من جديد.. وأنا مستعد أنتظر"..

يومها ألقى بكلماته ورحل.. لم ينتظر ردها.. أو ربما رحل قبل أن يسمع رفضها..

رحل على وعد بالانتظار.. رحل وطيفه يطاردها بشراكته لزوج والدتها.. وجوده الدائم ليساعد صلاح بمباشرته لأعمالها.. حتى بعرضه الأخير لحمزة ليساعد سمية ومعها لارا بالطبع في الدعاية لمشروعهما الصغير..

ترك المنصورة وأسس لأعماله بالقاهرة.. ابتعد عن ذكرياتٍ أوجعته وماضٍ دفنه..

هو قرر ألا يتركها تلك المرة.. أن يمنح لنفسه فرصة المغامرة ليعشق ويُعشق..

يهاتفها ويطمئن عليها وعلى أحوال الصغير باهتمام حقيقي.. اهتمام أخ أكبر..

أخبرها أول مرة هاتفها بها..

"أنا مش هسمح لنفسي بتجاوز خط الأخ الأكبر إلا لما تسمحي لي أنتِ"..

وهي لم تسمح بعد.. وبنفس الوقت لم تمنعه من مهاتفتها..

لم تنهي شراكتها معه.. أو تطلب من صلاح ألا يسمح له بالتدخل..

مشاعرها تناوشها بالخضوع والاستسلام.. ولجام العقل يمنعها وبحزم..

وابتسامة طفلها الناعمة تعوضها عن قلب يتشوق للحب.. وأمومتها تنسيها كونها أنثى يحق لها الحياة جوار رجل حقيقي تلك المرة..

وذلك الرجل يقف الآن أمام باب المشغل وتلك المرة بعينيه نظرات تصميم..

ورسالة نظراته واضحة.. آن أوان الاستماع للنهاية..

سيخبرها بكل ما يريد ولن يرحل تلك المرة..

-لارا!

ارتدت خطوة للوراء دفعته ليضيق عينيه بغضب خفي:

-أكيد أنتِ مش خايفة مني!

هزت رأسها نفيًا.. كيف تخبره أنها لاتخشاه ولكنها تخشى أن تضعف لحظة وتستسلم لمشاعرها التي باتت متأكدة أنها تميل له..

-فاكرة كلامنا في لبنان؟

أومأت موافقة بصمت دفعه للابتسام:

-هنكتفي بالإشارات بس!

تنهدت بقوة:

-أنا عارفة اللي أنت عايز تقوله يا نديم..

سألها بفضول:

-عارفة؟..

أومأت بصمت.. فابتسم وسأل:

-وموافقة؟

قطبت بتساؤل:

-موافقة علي إيه؟..

-تتجوزيني!..

كانت كلمته سريعة ومباشرة جعلتها تلك المرة ترتد بقوة للخلف ليكمل هو:

-أنا قلت لك أني بحبك.. ومستعد أنتظر.. بس كان لازم أوضح أن كلامي كان عرض.. أو نقول طلب جواز..

ابتلعت ريقها بقلق:

-جواز!

أومأ هو تلك المرة وهو يكرر:

-جواز يا لارا..

تبادلا نظرات مشحونة.. عاطفة حرة وصادقة حملتها نظراته وتلهف حقيقي لموافقتها..

وعاطفة كبتتها هي ببسالة وتجربتها السابقة تكبلها بقيود وهمية.. ونظرات طفلها تلتمع بخلفية عقلها.. تخبرها أنه الأهم.. أن حبه هو الأقوى.. ووجوده بحياتها هو الأحق..

هزت رأسها برفض ودمعة شجن تراقصت على وجنتها وهي تهمس:

-مش هينفع يا نديم.. أنا آسفة..

ولمح دمعتها.. ولمس مشاعرها.. بدايات حب تنمو خلف نظراتها الرافضة..

وعلم أن أنوثتها تصارع أمومتها بتلك اللحظة ولم يشأ أن يزيد الضغط..

فقط علم أنهما بحاجة لمزيد من الوقت..

ابتسم بأمل:

-لسه قدامنا وقت يا لارا.. لسه قدامنا فرصة.. وزي ما قلت لك.. هستنى..

ورحل من أمامها لتترك هي العنان لدموعها.. دموع تناثرت على وجنتيها ولم تعلم هي سببًا لها سوى أنه مس القلب بالفعل..

وربما.. ربما في المستقبل.. ينالا الفرصة.. والحب!

***

في بداية أي علاقة تظهر المشاعر، وفي نهايتها تظهر الأخلاق..

"نجيب محفوظ"

**

وفيما بين البداية والنهاية عثرات، أن تقف من إحداها تلك قوة وأن تخطو بعدها ذاك إصرار ومتانة واستمرار وعزيمة جوار صمود..

البدايات كلمة غير محدودة المعنى أو ملزمة بنهاية، فهي قد تستمر، أو تنتهي بشكل ما لتبدأ بعدها بداية جديدة، قد تكون خاطئة مبنية على معتقد ظالم، وقد تكون صحيحة ورغم ذلك تختتم بتعاسة!

وختام قصتها الأولى كان بوجع غير محتمل، حتى وإن تخطت شيئًا من أثره فبقاياه لا تزال عالقة بروحها، تزعزع سكون نفسها وأمان أنوثتها المهضوم حقها على مر سنوات ظنت خلالها أن الخطأ فيها ومنها وبها هي..

لكن الآن يأتي آخر، يحمل بين يديه خطًا فاصلًا بين ما تم بالفعل، وما يمكن أن يحدث.. بين الأمس والغد، وتتشبث هي بحاضر تظن أن فيه الأمان من عثرة جديدة قد تُجهز على ما تبقى منها، حفرة قد تُدفن بها تلك المرة ولا عزاء لأمل امتدت إليه أناملها لكنها كانت أضعف من أن تتشبث به لتصعد معه نحو السطح فلم تنل سوى الغرق!

خوفها ذاك وتوترها وضيقها وقلقها من أفكار كثيرة تجسد جليًا فوق ملامحها الرقيقة، عيناها تدوران في المكان بحيرة، ولسانها صامت عن حديث لا تدري أين بدايته!.. تركت له دفة الحوار وتوجيهه، وهو كان يتأملها بصمت لدقائق طالت حتى أجبرتها على رفع ناظريها إليه بارتباك ابتسم له:

- مهمتي صعبة قوي كده!!

تغضن جبينها بحيرة أكبر بينما شفتاها تتحركان بهمس شبه مسموع:

- مهمتك؟!

اعتدل في جلسته وهو يحيطها بعينيه لا يترك لها فرصة الفرار مجددًا:

- إقناعك تكوني ليَّ.

هزت رأسها برفض غريب ونبرتها لامستها حدة لم يفهمها:

- دكتور عبد الرحمن.. أنا..

- أنا عاوز أتجوزك يا حبيبة.

ورغم تشبثها برسمية لقبه تخطى هو تلك العقبة ونطق اسمها بسلاسة:

- وهنا عشان أجاوب على كل أسئلتك، وأفنِّد أي رفض شايفه دلوقتِ في عينيكِ.

ارتباكها تعالت وتيرته، خاصة مع نطقه المجرد لاسمها، والارتباك جعلها تتلبس رداء القوة تختفي خلفه فظهر بلهجتها شيءٌ من فظاظة كانت متعمدة:

- ليه أنا؟!

- وليه مش أنتِ؟!

رمقته بضيق وتصلبت في جلستها:

- عاوزة رد واضح يا دكتور، مش ألغازوتبادل أسئلة مالهاش إجابة.

ابتسم بتفهم وقرر المصارحة، فأقرب طريق بين نقطتين هو الخط المستقيم:

- عاوزة رد صريح!.. تمام، أنا مش هاتكلم عن مشاعر، مش هاقول في حب وألعب على وتر الضعف الأنثوي المعتاد لأن ده هيكون كدبة ومش هابتدي حياتي معاكِ على أساس هش..

ومال نحوها مستندًا لساقيه ومسيطرًا بعينيه على نظرتها المندهشة:

- في إعجاب ده شيء مؤكد، لكن اختياري ليكِ مش مبني عليه وبس، اختياري ليكِ فيه جزء كبير من اختيار المنطق والعقل..

- والمنطق بيقولك تبتدي حياتك مع واحدة مطلقة، سبق لها الفشل!!

قاطعته بحدة واضحة جاوبها بصبر وابتسامة حافظ عليها فوق شفتيه:

- الطلاق مش فشل.. ده أمر حلله ربنا لما تستحيل الحياة بين اتنين، لا هو نقطة سودا في حياتك ولا حياة زوجك السابق، والطلاق مش نهاية تحكمي على نفسك بعدها بعدم الاستمرار.. مش عيب ولا حرام ولا نقطة ضعف ولا نقص..

زمت شفتيها بصمود أدرك مدلوله وهو يردف:

- أيوة اخترتك بالعقل والمنطق.. أنا راجل عملي، عمري ما كنت بادور على المشاعر الملتهبة والحب الناري، لكن بادور على واحدة تفهمني وأفهمها.. تحتويني وأكون أمانها، تكمل معايا حياتي على أساس سليم فيه مودة ورحمة.

وتوسعت البسمة ونظرتها المترددة تتعلق به أكثر:



- لقيت فيكِ كتيرمن اللي باتمناه، إنسانة ودودة محبة مهتمة.. رقيقة وجميلة، لوفاكرة إن زواج سابق هيكون عقبة قدامي تبقي غلطانة.. أنا ضد أي فكررجعي مخالف لديني ومعتقداتي..

رمقته بتردد لايزال يتملك منها:

- وكلام الناس!!.. الشاب اللي ما سبقلوش الجواز، الطبيب الناجح اللي لما فكريتجوز اختارواحدة...

- واحدة اقتنع إنها هي اللي تنفع تكمل معاه حياته..

قاطع أفكارها الانهزامية رغم واقعيتها في مجتمع نحيا به جميعًا:

- لوهافكرفي كلام الناس يا حبيبة عمري ما هاتقدم خطوة، هافضل أحسب حساب كل حاجة باعملها، كل كلمة وكل تصرف أورد فعل.. هافضل واقف مكاني عشان حاجة مستحيل أوصلها..

وتحولت نبرته لهدوء واثق:

- رضى الناس غاية لا تدرك.

- وأهلك.. والدتك!!

تبحث عن سبب جديد للرفض، ويسرد هوالدوافع ليقنعها بصحة قضيته:

- والدتي يهمها سعادتي، وأنا عارف إني اخترت المرة دي صح، إني هاكون سعيد معاكِ.

خائفة.. حائرة، تخشى إعادة التجربة فتسلك طريقًا لا عودة منه، تصل معه لنهاية لا بدايةَ بعدها، لسقطة لا وقوفَ يليها، لشفا الهاوية التي وراءها جرف مميت لا نجاة منه أبدًا!

- ها.. نقول مبروك!!

استعادها من شرودها القصير بسؤاله فنظرت إليه بتوجس جعله يمنحها بسمة مطمئنة ونظرة حنون:

- أنا عارف إن التجربة اللي مريتِ بيها مش هينة ولا سهلة، تجربة لازم هتسيب جرح أو ندبة، أثر مش هيتنسي.. لكن مين فينا بينسى كل الوجع اللي مر بيه!!

وتحرك من مقعده ليقترب مجاورًا مقعدها كأنما يبثها بقربه اطمئنانًا أكبر:

- ما بننساش، بس بنطوي صفحة الألم، بنركنها على جنب ونفتح صفحة جديدة عشان نقدر نعيش، الصفحة القديمة هتفضل موجودة جوا الكتاب، مش هنقدر نقطعها أو نتجاهل وجودها.. هتفضل درس اتعلمنا منه كتير، هتفضل حجر أساس في اللي هنوصله بكرة ونكمل معاه.. المهم ما تكونش عقبة، حاجز يمنعنا من إننا نعدي ونستمر ونعيش.

وتنهد يغمرها بنظرة دافئة:

- عيشي يا حبيبة.. ما تسمحيش للصفحة دي إنها تطوي مستقبلك معاها، ما تسمحيش للخوف يسيطر ويتحكم ويخليكِ واقفة مكانك، مرعوبة من خطوة جديدة، تجربة جديدة يمكن وأتمنى تكون هي الصح.. لأ..

وعلا صوته ليأتيها قويًا واثقًا:

- أنا هاسعى إنها تكون هي الصح..

ارتبكت أكثر، قربه.. عيناه.. نظرته الغريبة التي تحيطها كشرنقة لا فكاك منها، صوته ولهجته وحنو نبرته وثقته وقوته التي منحتها قوة لم تعلم سببها.. كل ذاك جعلها تنهض واقفة، تفرك كفيها وتفكر مائة مرة فيما ينبغي أن يعلمه عنها ولا تدري كيف تخبره!

فهو رجلها الأول حقيقة لا مجازًا وإن كان بين يديها وثيقة طلاق عن زواج لم يتم بالفعل!

صلاح على حق، نعم مجتمعها ذا الفكر العقيم لا يعلم، لكنها وهو هما أساس تلك العلاقة، وهما الأهم، فكلام الناس الذي يقضُ مضجعها لا ينتهي ولا يتوقف، وإن اختتمت حكاية سيجدون أخرى تليها لتلوكها ألسنتهم..

هل أقنعها!!

ربما..

هل يعجبها!!

أيضًا ربما..

هل لا يزال الخوف يتملك منها؟!

بكل تأكيد..

لكن كما أخبرها، لن تدعه حجر عثرة أو حاجزًا تتوقف عنده حتى الممات، وهو كان يتابع حركاتها المتوترة بتساؤل، ترك لها مساحة خاصة من الصمت لتفكر، توليه ظهرها، تعقد جبينها وتعرُق يديها بات مزريًا، أخيرًا التفتت نحوه باندفاع:

- أنا محتاجة وقت أفكر..

ومنحها الوقت..

ووقتها طال واللقاءات تعددت بصحبة أخيها، يحاول هو إقناعها، سحبها من قوقعتها المعتمة التي تختبئ داخلها كقطة مذعورة، يسعى جاهدًا ليمزق مخاوفها ويزيل قلقها باحثًا عن أسبابه ودوافعه واحدًا تلو الآخر..

وفي آخر مرة كان الصبر قد فاض به فحاصرها مطالبًا بما أصبح يراه من حقه:

- حبيبة.. أنا إديتك فرص كتيروووقت أطول مما كنت أتخيل إنك تحتاجيه، اتقابلنا كذا مرة وقعدنا واتكلمنا، عرفتِ عني كل اللي ممكن تعرفيه في الوقت الحالي، وأنا اتمسكت بيكِ أكتر.. أنا عاوز رد؛ تتجوزيني؟!

تمازجت بنظرتها حيرة عقد لها حاجبيه، ترددها يثير غضبه، لكن قلق عينيها يفجر به حميته، وحمائيته.. ضعفها الكامن خلف ستار الصلابة والتحدي والعناد يجذبه ليهبها صك الأمان والاحتواء الذي تحتاجه.. وهي فقط لا تهديه تلك الفرصة، حصار عينيه امتد وطال حتى أذعنت في النهاية بارتباك:

- في حاجة لازم تعرفها قبل ما أقول رأيي..

استقام وقتها من جلسته يواجهها بحزم:

- لو حاجة تهمني وتخص حياتنا مع بعض؛ أنا عندي استعداد أسمع.. غير كده؛ ما يهمنيش معاكِ غير بكرة.

تطلعت إليه بحرج، وجنتاها محمرتان بفتنة جذبت ناظريه دون إرادة فتأملها بدهشة بينما تتعثر في كلمات لا تتم:

- أنا.. أنا..



لم يتعجلها، وهي توقفت عن الكلام لا تستسيغ نطق حرف يخبره أنها عذراء الجسد كما يتمنى كل رجل: أن يكون الأول في حياة امرأته وإن لم يكن بقلبها!!

أخيرًا تنفست بصعوبة وأخبرته وهي تهرب من المكان:

- صلاح هيبلغك ردي بعد ما يقولك اللي عاوزة أقوله ولازم تعرفه.

تابع فرارها بذهول تلاشى بعدما دخل إليه شقيقها ليدرك أن المرأة التي اختارها قاست الكثير، صبرت على الكثير، ولم تنل في مقابل ذاك الكثير الذي قدمته سوى امتهانًا لأنوثتها وانكسارًا لروحها..

أنها تستحق تلك النهاية التي تحلم بها كل أنثى رغم أن ما علمه لم يطُف بعقله ولو للحظة..

لن ينكر شيئًا من سعادة ذكورية بحتة متأصلة في جينات كل شرقي علقت بفكره وإن لم تسيطر، لكنه يدرك وتمام الإدراك أن الفارق الذي يشكله كونه رجلها الأول بالفعل لا يعد جللًا: فهو اختار دون تلك الإضافة، وتيقن من اختياره قبل أن يعرفها.. واللقاء الأخير بينهما حسم أي شكوك قد تنبت بذهنه..



لذا كانت نهاية الحكاية، أو بالأحرى بدايتها الجديدة هي "نعم".. لترسم بيديها بقوة وثقة حياة تستحقها وتتمنى أن تمتلك ما يكفي لتحقيقها على الوجه الأكمل..

***

لابد أن نتألم حتى النهاية في سبيل سعادتنا المقبلة، يجب أن نشتريها بآلام جديدة.. إن الألم يطهر كل شيء..

"فيودور ديستويفسكي"

**

نظراته تمنحها صك أمان لا يصدق؛ نظرات لامعة.. مُطمئنة.. محتوية ومتفهمة..

اقتراب مشروع منه.. ولمسة خفيفة يعقبها احتضان لكفها.. همسته تتردد بفرحة تستشعرها بكل حرف:

-مبروك عليَّ..

وقبلة على كفها تشعرها بتقديره لها.. بمشاعر حقيقية يكنها نحوها.. احترام وتقدير لذاتها.. لأمومتها.. لمشاعر ظنت أنها ضاعت.. تمزعت.. ماتت



ودُفنت ليأتي هو ويمنحها قبلة الحياة.. وكأنه أميرها الموعود وهي جميلته النائمة..

وبالفعل هي كانت نائمة.. خاملة.. يائسة من بداية جديدة.. تجاهلت قلبها وأقنعت نفسها أن تستسلم لعقاب تجلد به ذاتها لتفريطها السابق بعرضها وشرفها.. تفرغت لطفلها ولتوبتها..

قررت أنها نالت مكافأتها من الحياة وكان ابنها تلك المكافأة.. كما نالت عقابها وكان والد ابنها ذلك العقاب..

هي أساءت لنفسها، لشقيقتها، لمشاعر بريئة ضمتها يومًا مع حمزة.. مشاعر ضعيفة لم تقوَ على تحديات الزمن.. أخوة تمنتها من إيهاب ووجدتها مع حمزة وتشوشت رؤيتهما فظننا أن تلك الأخوة تحمل المزيد!

والآن وهي تراه برفقة سمية.. وترى نظرات حسام العاشقة لها؛ هي تدرك الفارق.. حمزة كان افتتان مراهقة بل طفولة.. والآن هي تملك أروع أخ أكبر وأكثرهم عظمة.. وزوج بمرتبة عاشق متفهم..

شعرت بربتة حسام الخفيفة على كتفها ويده تسحبها ليتوجها معًا لمنتصف المطعم..

وتبدأ موسيقى ناعمة.. جعلته يضمها لصدره هامسًا:

-تسمحي لي بالرقصة دي!



ابتسمت أمنية بخجل:

-إيه الرومانسية دي كلها!..

أمسك بذراعيها يلفهما حول عنقه هامسًا:

-هو ماحدش قالك إن الليلة فرحنا!

أخفضت عينيها خجلًا ليكمل هو:

-بحبك..

ازداد تورد وجنتيها وأخبرته لتغير الموضوع:

-سمية هتاخد سما وآدم عندها.. سما اتصاحبت على آلاء و..

زاد من ضمه لها وهو يكرر:

-بحبك..

همست بارتباك:

-أنت لسه قايلها..

سألها بلهفة:

-ونفسي أسمعها.. هتجودي بها إمتى!

غمغمت بخجل:



-حسام!..

لم يستطع منع ابتسامة فرحة.. نعم هو سعيد بها، عروسه الخجول.. ربما كانت لآخر من قبل.. إلا أن قلبها هو أرض بكر يغرس هو به بذور عشقه..

تتعلم معه عشقًا خاصًا..

عشقًا بدأ باحترامه.. وذاك الاحترام اعتبرته تعويضها عما عانته مع أسامة وجاء حبه ليكون مكافأة توبتها.. منحة الحياة الجديدة.. النظيفة.. ابنة وزوج محب.. زوج يدللها كطفلته ويعشقها كامرأته ويهتم بصالحها كأب حنون..

لم يكتفِ بمنحها اسمه وحياته.. بل قدم لها الفرص للتقدم بدراستها.. وبعملها بعد ذلك..

منحها الحب جوار الصداقة وتلك علاقة لم تكن تعلم باحتمالية حدوثها لها..

شعرت به يهمس جوار أذنها:

-عارفة يا أمنية!.. بحسها مستخبية وسط حروف اسمي، وكأنك بدل ما تقولي بحبك بتقولي حسام..

تلعثمت بحروفها ولقدرته الفائقة على قراءة قلبها:

-حـ..سا..م..

غمزلها بعبث:

-وأنا كمان حسام قوي..

ألقت برأسها على صدره.. دقات قلبه تمنحها راحة وطمأنينة.. وكأنها وجدت كيانها ومصدر أمانها بين ذراعيه.. وكأن كل ما مرت به في حياتها كان ثمنًا وجب عليها دفعه لتنال بدايتها وسعادتها الجديدة..

وتلك المرة كانت همستها برغم خفوتها وتعثرها بالخجل إلا أنها واضحة .. نقية وصريحة ومستحقة:

-أنت حبيبي يا حسام.



الخاتمة

"بعد مرور ثلاثة أشهر"

عندما نتكلم فنحن نخاف أن لا تلقى كلماتنا من يسمعها أو يرحب بها، ولكن عندما نصمت فنحن لا نزال خائفين أيضًا، لذلك من الأفضل أن نتكلم..

"أيودر لورد"

**

هي امرأة تعلمت القوة بأقسى الطرق.. صمتت وسكنت وانزوت خانعة لمصير لم تختَره بنفسها، وعندما صدحت وجهرت بما ظنته معصيتها وخطيئتها علمت أن صمتها.. كان لعنتها!

يقول نيتشة:

"إن العواصف التي تعجز عن اقتلاعي؛ لا تزيدني إلا قوة"..



ورغم وحشية ما عانته؛ فهي عادت.. قوتها لم تعد وليدة، بل نمت وخطت أولى خطواتها، تتعلم الركض وتمسك بيديها نحو أمل في غدٍ مستحق، غدٍ ربما تأخر لكن ذاك خير من ألا يأتي أبدًا..

كانت على رأس دائرة المجموعة العلاجية الخاصة بها، فتيات ونساء من مختلف الأعمار، بعضهن عاشرتهن وسمعت قصتهن مرات ومرات وفي كل مرة كان الوجع أنينه يخفت، وصداه يبتعد عن مسامعها وقلبها..

نعم كما أخبرتها طبيبتها مسبقًا..

"المشاركة في الألم.. تقلل نصيبها منه"

والبعض الآخر تراهن للمرة الأولى، صامتات واجمات كما كانت هي من قبل..

السيدة الودود تجلس بمواجهتها، تراقبها بسعادة وفخر، تنظر إليها بانتظار إشارتها لتبدأ ولم تتأخر عنها ليعلو صوت الطبيبة بوضوح:

- النهاردة ريم هتتكلم معانا عن تجربتها.. لأول مرة هتشاركنا وهتتخطى عقبة الصمت اللي كانت دايما واقفة في طريقها، ريم بتاخد خطوة لبكرة، وعاوزة تاخد بإيدكم معاها..

ثم أشارت نحوها بعينيها لتبتسم هي، ترفع رأسها وتدور بناظريها في وجوه الجمع المترقب:

- أنا اسمي ريم.. اتعرضت لتجربة تحرش وأنا عمري ١٣ سنة، على مدار خمس سنين.. من ابن عمي اللي كان زي أخويا الكبير بالظبط..

وانطلقت تسرد قصة لو سمعتها دون أن تعايشها لظنتها هلوسة مخبول، تحكي دون اختصارات، تروي بتفاصيل قتلتها من قبل، وأصبحت هي وقود حياتها الحالية.. تخبرهم عن الطفلة الخائفة الهلعة، الخاضعة تحت تهديد سكين ربما لو جذَّ عنقها وقتها لكان أفضل..

تقص عليهم حكاية الفتاة التي فاتتها طفولتها وانذبحت فيها أنوثتها فلم تمر بالأولى وبغضت الثانية..

تنبئهم عن تلك الصغيرة التي فقدت أمانها، عن اليد التي امتدت لها بالحب وكانت هي نفسها التي عرَّتها واجتثت من روحها الحياة قطرة قطرة..

عن الخائفة، الواهنة، المكسورة والمقهورة والمنعوتة بالفُجر فقط لكونها أنثى في مجتمع لا يرى منها سوى الجسد فاستحله دون رادع أو وازع..

عن تلك التي سقطت.. واستقامت..

حاربت فخسرت، انهزمت، تقهقرت ثم عادت تكِّر وتحمل الدرع والسيف وتقاتل.. وتنتصر!

نعم هي انتصرت..



نبرتها تخللها ارتباك.. خجل.. تعثُروحروف مذبوحة، لكنها في كل مرة تتشبث بقوتها وتكمل، تمنحهن الأمل وتراه في أعينهن.. تبتسم وتحكي حتى انتهت..

انتهت بصلابة وشجاعة وبأس.. وفوق شفتيها أخيرًا بسمة عشق!

- دلوقتِ أنا عرفت الحقيقة..

وتوسعت البسمة لتشمل وجهها بل وتنيره:

- عرفت إن الذنب مش ذنبي..

وتنهدت تردف بحزم صارم:

- الغلطة مش فيَّ، مش أنا اللي هاتحمل الوزر، وزرضعفه قصاد شهواته ومرضه وحقارته واستباحته لعرضه وشرفه..

بعدها أدارت عينيها في وجوههن:

- دلوقتِ عارفة إني بريئة من كل تهمة اتهمني بيها، إن هو السبب.. إني طاهرة مش عاهرة ولا فاجرة زي ما فهمني وخوفني..

ثم عادت لها بسمتها بلمسة حالمة متمنية:

- دلوقتِ بس.. نفسي في طفل من حبيبي اللي كان سندي وأماني، طفل يشبهه في ملامحه وحنانه ولما يكبريكون سند ليَّ هو كمان زي أبوه..

ورغم قوتها الظاهرة فقد شردت للحظة بخفوت آخر كلماتها:

- طفل باتمناه وعارفة إني أستحقه.

عندما عادت من شرودها وجدت العيون الدامعة، النظرات الآملة.. والأخرى الفخور وتلك السعيدة..

وجدت كلمة تهنئة وطبيبتها تستقيم لتواجهها وتشد على يدها بحنو:

- ودلوقتِ بس.. أقدر أقولك مبروك يا ريم، أنتِ ما بقيتيش محتاجانا، خلاص عرفتِ طريقك وعرفتِ إزاي هتكملي فيه..

وأدركت أن الطبيبة على حق..

أدركت وهي ترى شعاع الشمس الدافئ يتسلل من خلف ستار النافذة ليغمر وجهها..

شعاعًا تيقنت معه.. أنها وجدت بدايتها، بدايتها الجديدة والحقيقية!

***

ما من يوم يشبه الآخر.. كل صباح يحمل معجزته الخاصة ولحظته السحرية حيث تتقوض العوالم القديمة وتنهار وتظهر نجومًا جديدة..

"باولو كويلو"

**

ليلة ربما تكررت.. أُعيدت أكثر من مرة.. وبأكثر من صورة..

الفتاة الجميلة تتزوج.. وصديقاتها يتحلقن حولها.. يتبادلن المزاح وتعليقات الفتيات المعتادة بتلك المناسبات..

مَن تلقي بدعابة وقحة.. ومَن تشكو من زوجها.. ومَن تبتسم بخجل وحياء.. ومَن تشرد بخيالها تعود بذكرياتها لليلة مشابهة..

تتشابه الأحداث وتختلف الأقدار.. وتعاد المواقف لتتفاوت ردود الأفعال عليها..

حبيبة جالسة أمام منضدة الزينة تلك المرة وبسمة تتولى مهمة إكمال زينة وجهها..

تتلوى حبيبة من القلق وتتبادل نظرات متفهمة مع زوجة شقيقها وصديقتها الأقرب..

تهمس بسمة باطمئنان:

-ما تخافيش يا حبيبة.. الدكتور عبد الرحمن راجل مهذب ومحترم..

ونظرات حبيبة تشي بقلق فتاة لم تكن مع رجل بموضع حميمي من قبل فتعاود بسمة طمأنتها:

-أنتوا مرعليكوا فترة خطوبة وكتب كتاب معقولة.. أظن أنك مرتاحة..

وتومئ حبيبة بصمت وتهمس:

-هو راجل كويس جدًا.. ساعات بخاف أقول أنه تعويض ربنا ليَّ..

ربتت بسمة على وجنة حبيبة:

-مش اتفقنا ننسى!

همست حبيبة بتردد:

-إمبارح وصلني بوكيه ورد من نبيل..

كاد صوت بسمة أن يعلو ولكن حبيبة طمأنتها:

-بيبارك لي.. ما تقلقيش يا بسمة، نبيل بالنسبة لي ماضي وذكرى.. أنا ماكنتش هوافق أرتبط براجل تاني وأشيل اسمه وأنا جوايا أي مشاعر لنبيل.. دلوقتِ أنا كل تفكيري في عبد الرحمن وبدعي ربنا أني أكون له زوجة صالحة زي ما هو بيحسسني دايمًا أنه الزوج والراجل اللي يستحق..

ابتسمت بسمة باطمئنان وهي تستمع لكلمات حبيبة.. تتمنى أن تحصل على نصيبها من السعادة كالجميع..

كحالها هي وصلاح مثلًا..

فهو أنهى جلساته منذ مدة واستقامت حياتهما بطفليهما.. عمر وفرحة.. وبالمثل استجابت هي له وقررت الاكتفاء بالطفلين ومعهما محمد ابن نبيل



والذي قرر نبيل أن يبعث بطلبه بعدما استقرت أحواله وعمله بالخارج.. وطمأن صلاح أنه اختار له مربية موثوق بها..

وبقدر اشتياق بسمة وصلاح للصغير بقدر فرحتهما باستقرار أحوال والده.. ربما لم يجد من يكمل معها مشوار الحياة.. ولكنه على الأقل ينتظم بجلساته وأدويته.. وفي المستقبل سيتمكن من تأسيس عائلة خاصة به..

وتلك المرة.. على أسس صالحة..

أكملت بسمة همسها مع حبيبة وراقبتهما أمنية.. تدرك القلق بأعماق حبيبة.. فحالتها أشبه بها.. البدء من جديد.. حياة مختلفة مع رجل آخر.. فقط تتمنى أمنية أن تنال حبيبة السعادة مثلما نالتها هي مع رجل هو العشق والسند..

ضمت سمية شقيقتها وهي تلمح سعادتها تتقافز فوق ملامحها.. بداخلها تحمد ربها على عودة أمنية لها.. على رجوع أمنية طفلتها الصغيرة والشقيقة الأقرب.. وإن أفلت إيهاب من دائرة أخوتها فيكفيها معرفة أنه بخير تتزايد نجاحاته ويستمر مع زوجتين لا تسعد بالاقتراب من أيهما ولكنه دائمًا ما يؤكد على سعادته معهما..

حسنًا سعادته ونجاحه هما ما يهما بالفعل...



تشرد نظراتها نحو نافذة منزلها والتي ظهرت لها من خلف ستائر الغرفة..
تلمح النور المضاء وترى بخيالها حمزة وهو ينهي استعداده للزفاف..

ابتسمت برقة وهي تبتهل أن تزُف له الليلة الخبر الذي ينتظره منذ أشهر..
ينتظره من أجلها وليس من أجله.. وهي تتمنى أن تحصل على نتيجة إيجابية فقط ليطمئن قلبه ويرتاح جرح رجولته بأنه يحرمها الأمومة..

وعلى الفراش جلست آية تحتضن طفلها.. تداعبه وتناغيه وتخبر الجميع بشقاوة:

-تسع شهور يا حبيبة وتسلميني عروسة لابني، آه.. عايزة مرات ابني يبقى نصها لبناني..

فتهتف بها لارا بمرح:

-تؤبرني الحيلوة شو مهضومة..

وتقترب سمية من لارا وقد توطدت صداقتهما بالفترة الأخيرة.. وتهمس بغيظ:

-مش لو كنتِ وافقتِ على العاشق المتيم كانت طلبت آية العروسة منك!

نعم تعلم سمية بوجود نديم..

العاشق المخلص..

المنتظر ربما لما لا نهاية..

وتعلم أيضًا أن مقاومة لارا ستخفت يومًا وتترك العنان لقلبها.. فقط تتمنى أن يأتي ذلك اليوم قريبًا..

وعلى باب الغرفة تستند ريم.. تتقافز نظراتها حول الجميع.. تحاول المشاركة بالدعابة والمشاكسة.. تشرد في ذكريات قديمة..

كم تغيرن جميعهن!..

كم تبدلت أحوالهن!..

بليلة مثل تلك.. بزفاف بسمة رفضت قرب علي وانتهت ليلتهما بمشاجرة وغضب..

والليلة!!..

فقط تتمنى أن تتمالك نفسها وتساعدها قوتها الجديدة لتمنح زوجها قربًا اشتاق له كثيرًا.. وهي تتوق لمنحه عشقها كامرأة جديدة.. عاشقة.. وتستحق العشق بالمقابل.

وهنا تجف الأحبار، تقف الكلمات ولا تنتهي الحكايا..

نضم أكُفنا مع بطلاتنا ندعو معهن أن ينلن سعادةً وعشقًا وأمومةً..

يحصلن على مكافأة القدرومنحة السماء..

فكل واحدة منهن دفعت ثمن فرحتها وأكثر..

كلمة أخيرة

امرأة بدل فاقد ليست مجرد رواية!

إنما هي تجسيد حقيقي لواقع ملموس ورغم ذلك يغض الجميع الطرف عنه..

يُبرر لذاك وتُذبح تلك والأخرى تنتهي حياتها بقرار مجتمعي أجمع على وأد أنوثتها وحياتها بقرار تعسفي لا يملك زمامه..

ومع وصولنا لآخر محطاتنا لا يسعنا القول إلا أننا بذلنا الجهد لنصل بكم لمرفأ آمن..

مرفأ به رغم رغبتنا في الواقعية حتى النهاية شيء من حالمية.. ولمسة وردية تمنح مع النهاية أملًا وليدًا..

فقط عندما تصادفكم قسوة أرض الواقع لا تلوموا حلمنا الوردي، فقد حاولنا بث شيء من الأمل فيه علّه يكون كما أردنا..

صرخة في وسط مستنقع الصمت الآسن..



تمت بحمد الله

٢٠١٧/٨/١٦

نهى طلبة

صابرين الديب

حلم -هن